

المركز
Cognitive Center

Studies and Research

مركز المدار المعرفي
للأبحاث والدراسات

مجلات مدارات تاريخية

المجلد الثاني

العدد 05

مارس 2020

الجزء الأول



مجلة مدارات تاريخية

مجلة دورية أكاديمية محكمة

تعنى بالبحوث والدراسات التاريخية

مركز المدار المعرفي للأبحاث والدراسات

مجلة مدارات تاريخية

دورية دولية محكمة ربع سنوية

تعنى بالبحوث والدراسات التاريخية

المجلد الثاني – العدد الخامس – مارس 2020

الرقم الدولي للمجلة ردمد: 1939-2676

الإيداع القانوني: مارس-2019

ترسل جميع المراسلات إلى رئيس هيئة تحرير مدارات
تاريخية
العنوان الإلكتروني:
madaratmagazine@gmail.com

هيئة تحرير مجلة مدارات تاريخية

المشرف العام مدير مركز: عبد الوهاب باشا

رئيس التحرير: عبد القادر عزام عوادي

د/مولود قرين/ جامعة المدية	د/حورية ومان/ جامعة بسكرة
د/ مختارية مكناس/ جامعة معسكر	د/ عبد الحميد عومري/ المدرسة العليا للأساتذة/ الأغواط
د/ عبد الرحمن بن بوزيان/ جامعة سكيكدة	د/ جيلالي حورية/ المركز الوطني للبحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية/ وهران
د/ حليلة مولاي/ المركز الوطني للبحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية/ وهران	أ/ سليم أوفة/ جامعة خميس مليانة
أ/ جيجيك زروق/ جامعة بجاية	أ/ محمد بن ساعو/ جامعة سطيف 2
د/ خير الدين سعدي/ جامعة إسطنبول/ تركيا	

الهيئة العلمية الاستشارية

أ.د/جمال يحيياوي/ جامعة أبو القاسم سعد الله- الجزائر 2/ الجزائر	أ.د/خير الدين شترة/ جامعة الشارقة/ الإمارات العربية المتحدة
أ.د/رضوان شافو/ جامعة الوادي/ الجزائر	أ.د/عثمان البرهومي/ جامعة صفاقس/ تونس
أ.د/عدنان حسين عياش/ جامعة القدس المفتوحة/ فلسطين	أ.د/عمارة علاوة/ جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية/ قسنطينة/ الجزائر
أ.د/مولود عويمر/ جامعة أبو القاسم سعد الله- الجزائر 2/ الجزائر	أ.د/مهند عبد الرضا حمدان الكزاوي/ جامعة ذي قار/ الناصرية/ العراق
أ.د/نبيلة بن يوسف/ جامعة مولود معمري/ تيزي وزو/ الجزائر	أ.د/يوسف ذياب عواد/ جامعة القدس المفتوحة/ نابلس/ فلسطين
د/إبراهيم النوري سالم السيليني/ جامعة غريان/ ليبيا	د/أشرف صالح محمد/ جامعة ابن رشد/ هولندا
د/امبارك بوعصب/ المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين/ المغرب	د/ بشري حسين الحمداني/ الجامعة العراقية/ العراق
د/بشير غانية/ جامعة الوادي/ الجزائر	د/حبيب الله بريك/ المركز الجامعي تندوف/ الجزائر
د/خالد طحطح/ المغرب	د/خيرة سياب/ جامعة طاهري محمد/ بشار/ الجزائر
د/رشيد خضير/ جامعة الشهيد حمه لخضر/ الوادي/ الجزائر	د/شريفة كلاع/ جامعة الجزائر 3/ الجزائر
د/عادل نجيم/ جامعة صفاقس/ تونس	د/عبد الرحمن بعثمان/ جامعة احمد دراية/ أدرار/ الجزائر

د/عصام منصور صالح عبد المولى/ جامعة طبرق/ ليبيا الجزائر	د/علال بن عمر/ جامعة الشهيد حمه لخضر/ الوادي
د/فتحي جمعة محمد عربي/ جامعة غربان/ ليبيا الجزائر	د/كمال بن صحراوي/ جامعة ابن خلدون/ تيارت/
د/لخضر بن بوزيد/ جامعة محمد خيضر/ بسكرة/ الجزائر	د/لوبي زبير/ جامعة القاضي عياض/ المغرب
د. بشرى حسين الحمداني/ الجامعة العراقية/ العراق	د/محمد لين بارك/ جامعة حائل/ السعودية
د/نصر الدين العربي/ جامعة المرقب/ ليبيا	د/نواف عبد العزيز ناصر الجهمه/ الهيئة العامة للتعليم التطبيقي والتدريب/ الكويت
د/هيو عزيز سعيد علي/ جامعة السليمانية/ العراق	د/يحي بكلي/ جامعة طيبة/ السعودية
د/جمال مسرحي/ جامعة باتنة 1/ الجزائر	د/عمار غرايسة/ جامعة الشهيد حمه لخضر/ الوادي الجزائر
د/محمد نفاذ/ الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين فاس/ مكناس/ المغرب	د/ العبد غزالة/ جامعة تونس/ تونس
د/ غسان محمود وشاح/ الجامعة الإسلامية/ غزة/ فلسطين	د/ أحمد بن خيرة/ جامعة الشهيد حمه لخضر/ الوادي/ الجزائر
أ/ لبصير سعاد/ المدرسة العليا للأساتذة/ قسنطينة/ الجزائر	د/ التجاني مياطة/ جامعة الشهيد حمه لخضر/ الوادي/ الجزائر

قواعد وشروط النشر في المجلة

مجلة مدارات تاريخية هي مجلة علمية أكاديمية محكمة تعنى بنشر الدراسات والبحوث التاريخية باللغات العربية والانجليزية والفرنسية على أن يلتزم أصحابها بالقواعد التالية:

- 1- تنشر مجلة مدارات تاريخية البحوث العلمية الأصيلة والجادة للباحثين من داخل القطر الجزائري ومن خارجه.
- 2- تخضع جميع البحوث للتقويم من قبل لجنة محكمة، مكونة من دكاترة وأساتذة يساعدهم خبراء من تخصصات معرفية مختلفة، وهذه اللجنة هي الوحيدة المخول لها قبول أو رفض البحوث المقدمة لها.
- 3- أن تكون المادة المرسله للنشر أصيلة ولم ترسل للنشر في أي جهة أخرى.
- 4- ألا يتجاوز حجم البحث 20 صفحة بما في ذلك قائمة المراجع والجداول والأشكال والصور وألا تقل عن 10 صفحات.
- 5- أن يتبع كاتب المقال الأصول العلمية المتعارف عليها في إعداد وكتابة البحوث وخاصة فيما يتعلق بإثبات مصادر المعلومات وتوثيق الاقتباس.
- 6- تتضمن الورقة الأولى العنوان الكامل للمقال واسم الباحث ورتبته العلمية، والمؤسسة التابع لها، الهاتف، والبريد الإلكتروني وملخصين، في حدود مائتي كلمة أحدهما بلغة المقال والثاني باللغة الإنجليزية على أن يكون أحد الملخصين باللغة العربية، والكلمات المفتاحية باللغتين العربية والانجليزية.
- 7- تكتب المادة العلمية العربية بخط نوع simplified Arabic بمقاسه 14 بمسافة 21 نقطة بين الأسطر، العنوان الرئيسي simplified 16 Gras والعناوين الفرعية simplified Arabic مقاسه 14.
- 8- هوامش الصفحة أعلى 02 وأسفل 02 وأيمن 02 وأيسر 02 ، رأس الورقة 01، أسفل الورقة 1.25 حجم الورقة عادي (A4).
- 9- يرقم التهميش والإحالات بطريقة آلية Not de fin على أن تعرض في نهاية المقال.
- 10- المقالات المرسله لا تعاد إلى أصحابها سواء نشرت أو لم تنشر.

11- المقالات المنشورة في المجلة لا تعبر إلا على رأي أصحابها.

12- كل مقال لا تتوفر فيه الشروط لا ينشر مهما كانت قيمته العلمية.

13- يحق لهيئة التحرير إجراء بعض التعديلات الشكلية على المادة المقدمة متى لزم الأمر دون المساس بالموضوع.

ملاحظة: ترسل المقالات على العنوان البريدي التالي: madaratmagazine@gmail.com

كلمة العدد

الحسابات العمرية للدوريات والمجلات العلمية لا تقدر بالسنوات الميلادية، بقدر ما تُحسب بمعدلات الانتاج المعرفي وقياس وتيرة الاصدار وجودة المنتج العلمي ورصد نبض مواكبة الراهن، فمجلة مدارات تاريخية الصادرة عن مركز المدار المعرفي للأبحاث والدراسات – الجزائر – تُطفئ شمعتها الأولى وتهبأ لاصدارها الخامس وهي تحاول أن ترسم مؤشرات النجاح خارج المؤلف والمُنمط والمُسْتهلك من المنتج المعرفي، وتصنع مؤشرات التأهل داخل أروقة تصنيف قواعد البيانات العربية والإقليمية .

يتزامن هذا العدد مع وباء صحي كوني اجتاح العالم، وجعل من فيروس - Covid 19 - اللامرئي يتحدى العلوم الطبية ويُموقع الوجود بين مفصلية أفول الإنسانية أو انبعاثها بروح جديدة؛ فثقتنا كبيرة في العلم والعلماء، وثقتنا أكبر في خالق العقول المُفكّرة في أن تهتدي الى مُنتج دوائي يبعث على الشفاء والوقاية من المرض .

إنّ لحظية التفكير في الراهن البشري يجعل مجلة مدارات تاريخية حريّ بها أن تُعدّل البوصلة نحو استهداف الأعداد المُتخصصة كي تكون مرجعية للاستئناس البحثي، وإشهاديه التفاكر العلمي وتصنيفية المنتج البحثي .

حدسنا يجعلنا نستشرف لمجلة مدارات تاريخية مكانة في مصاف المنتجات العلمية الرصينة المتخصصة، فالشكر موصول لهيئة التحرير ومدير المجلة على كل جهد .

مدير مركز المدار المعرفي للأبحاث والدراسات

الدكتور عبد الوهاب باشا

الفهرس

كلمة العدد	07
النفوذ العماني في الموانئ الفارسية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين: دراسة وثائقية د/ بدرية بنت محمد النهاني/ وزارة التربية والتعليم/ سلطنة عمان	12
دور الحاج يعي بن حمواهج في خدمة الطلبة الميزابيين في تونس وعلاقته بالثورة الجزائرية أ/ عبد القادر عزام عوادي/ قسم العلوم الإنسانية- كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية- جامعة الوادي	40
معارك قبيلة البرانس ضد الاحتلال الفرنسي ما بين 1915 و1925 د/ محمد الوردي/ جامعة سيدي محمد بن عبد الله/ فاس (المغرب)	67
دور الجزائر في دعم حركات التحرر في العالم و مناهضة الاستعمار في القارة السمراء " قضية الصحراء الغربية انموذجا" أ/ محمد بن ترار/ جامعة شلف	86
معاهدة وادي عربية " جذور و آفاق" د/ عبد الله احمد حسن عبد الله/ جامعة فيلادلفيا / الأردن	96
"صدقة من أحط الدين بماله" من نوازل الرحلة الحجازية للفقهاء الولاوي الشنقيطي بتندوف (1912 م / 1330 هـ) تحقيق ودراسة د/ بريك الله حبيب/ المركز الجامعي/ تندوف	128
دور الجغرافيا المغربية في تصحيح معارف أوروبا حول إفريقيا: كتاب "وصف إفريقيا" للحسن الوزان الفاسي (Léon l'Africain) أنموذجا د/ عادل النفاطي/ كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية / بتونس.	146
انتشار اللغة العربية في غرب إفريقيا ط.د/ أيوب شرقي/ جامعة البليدة 2/ الجزائر	174
معركة مرج الأسقف (بوزن) 249هـ/ 863م (الدوافع - الأهمية) د./ خميس أحمد أرحومه/ قسم التاريخ كلية الآداب/ جامعة طبرق- ليبيا	195
الدولة والمجال: العلاقة والمفهوم أ/ محمد اغزيف/ جامعة القاضي عياض/ المغرب	211
القبائل الهلالية ضمن المشاريع السياسية للدولة الحمادية (405-547هـ/ 1014-1152م)	231

	د/ نور الدين مسعودي/ جامعة المدينة / الجزائر-
255	انحسار التشيخ في إفريقية: بحث في الأسباب والمظاهر د/ صلاح الدين العامري/ المعهد العالي للحضارة الإسلامية/ بتونس
270	الحج في مجتمع المغرب الأوسط، خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين (14 و15م). بين مشقة الرحلة، والشوق إلى المقصد أ / نبيل شريخي/ المدرسة العليا للأستاذة آسيا جبار/ قسنطينة
281	التعريف بمخطوط " ذكر الحيل المطلوب استعمالها لحفظ سكان إقليم إفريقيا " لمحمد السعدي اليعلاوي الترجمان الشرعي بأقرب د/ فارس كعوان/ جامعة سطيف 2
299	حركة الاسترداد الأسبانية <i>Al reconquista</i> (الريكونيكيستا) قراءة في المصطلح والمضمون أ.د/ قاسم عبد سعدون الحسيني/ جامعة ميسان / كلية التربية / قسم التاريخ/ العراق
314	مؤامرة العقدهاء أثناء الثورة الجزائرية 1958-1959 (قراءة في الأسباب والنتائج وردود الفعل داخلا وخارجا) د/ عبد المالك الصادق/ جامعة محمد خيضر/بسكرة
342	إيالة الجزائر والجزائريون، أحوالهم، معاملاتهم، وعلاقتهم بالسلطة في النصف الأول من القرن 18م في نظر الرحالة الأوربيين (ج. ا. هابنتسرايت أنموذجا) د. / موسى بن موسى/ جامعة الوادي / الجزائر ط.د/ محمد العايب / جامعة الوادي / الجزائر
364	مقاومة المغرب للاستعمار بين الفعل السياسي والعمل المسلح جدلية القطيعة والاستمرارية أ/ صهيب الحجلي/مدير فضاء الذاكرة التاريخية للمقاومة والتحرير/المغرب
377	الثورات الشعبية في منطقة بركة 1830/1916م ط.د/ أسامة الطيب جعيل / جامعة الجزائر 02 /أبو القاسم سعد الله
402	أثر الحضارة العربية الإسلامية على غرب أفريقيا أ.د/ بشار أكرم جميل الملاح/ جامعة الموصل/كلية الآداب/قسم التاريخ/العراق
420	التحولات المجالية الفلاحية بالمغرب من التغلغل الاستعماري إلى أواخر القرن العشرين. ساحل منطقة الغرب نموذجا د. /عبد الرحيم قصابوي /- كلية الآداب والعلوم الإنسانية/ القنيطرة/المغرب

عنوان المقال: النفوذ العماني في الموانئ
الفارسية خلال القرنين الثامن عشر
والتاسع عشر الميلاديين: دراسة وثائقية

الدكتور/ بدرية بنت محمد النهاني
باحثة في التاريخ العماني
وزارة التربية والتعليم/سلطنة عمان

البريد الإلكتروني: alnabhanibadria@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2020/02/26 تاريخ القبول: 2020/03/12 تاريخ النشر: 2020/03/31

النفوذ العماني في الموانئ الفارسية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين:
دراسة وثائقية

ملخص:

اتسمت العلاقات العمانية الفارسية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلادي بالتذبذب بين علاقات تعاون تارة، وعلاقة صراع تارة أخرى. ولعل تاريخ الاقليمين الضارب في القدم، خاصة فيما يتعلق بالجانبين السياسي والاقتصادي سببا رئيسيا لهذا التأرجح في العلاقة بين البلدين.

وتهدف هذه الورقة لإلقاء الضوء على جانب من الجوانب السياسية والاقتصادية المهم في علاقة البلدين الجارين، ألا وهو النفوذ والسيطرة والوجود العماني على الموانئ الفارسية الواقعة في الساحل الغربي من الخليج. وسننطلق في تناول هذا الجانب من خلال تحليل عدد من الاتفاقيات المبرمة بين عمان وبلاد فارس. الا انه لا بد من التأكيد، إن هناك عدة عوامل شكلت هذه العلاقة وتحكمت بها خاصة في القرن التاسع عشر الا وهي القوى الاستعمارية في منطقة الخليج. والتي ظلت تلعب دورا محوريا في هذا الصراع حفاظا على مصالحها.

ولتحقيق هذه الأهداف تم تقسيم هذه الورقة إلى محورين رئيسيين، المحور الأول سيتناول نظرة عامة في العلاقات العمانية الفارسية، وهو موضوع كان محل دراسة العديد من الباحثين نظرا لأهميته في تاريخ الخليج من كافة النواحي، أما المحور الثاني فسيتناول دراسة وثائقية لأبرز الاتفاقيات المبرمة بين عمان وبلاد فارس في موانئ بندر عباس وقشم

وجواد، بالإضافة إلى استعراض المراسلات التي توضح هذا الجانب. وتم إضافة ميناء جواد -رغم انه لا يدخل ضمن النطاق الجغرافي للخليج- إلا انه كانت تحت النفوذ الفارسي حتى سنة 1783م، وهو العام الذي زار السيد سلطان بن احمد الاقليم بصحبة اخية السيد سيف فأهداه نصير خان¹ الاقليم ليتخذه السيد سلطان قاعدة لحملاته على الساحل الشرقي للخليج، وكذلك ينطبق ذات الأمر على ميناء شهبار، حين مد السيد سلطان بن احمد نفوذه فيها.

الكلمات المفتاحية: النفوذ العماني – الموانئ الفارسية – قشم – شهبار – جواد – التاريخ العماني

Abstract:

Omani-Persian relations were characterized during the eighteenth and nineteenth centuries by fluctuating relations of cooperation sometimes, and the conflict relationship at other times. Perhaps the history of the two regions struck in the past, especially with the political and economic aspects, is a major reason for this fluctuation in the relationship between the two countries.

This paper aims to shed light on an important political and economic aspect in the relationship of the two neighboring countries, namely the Omani influence, control and presence on the Persian ports located on the western coast of the Gulf. We will proceed into this aspect by analyzing a number of agreements concluded between Oman and Persia. However, it must be emphasized, that there are several factors that formed this relationship and controlled it, especially in the nineteenth century, namely, the colonial powers in the Gulf region. Which has been playing a pivotal role in this conflict in order to preserve its interests.

To achieve these goals, this paper was divided into two main axes. The first axis will address an overview of Omani-Persian relations. It is a topic that has been

studied by many researchers due to its importance in the history of the Gulf in all respects. As for the second axis, it will deal with a documentary study of the most important agreements concluded between Oman and Persia in the ports of Bandar Abbas, Qeshm and Gawad, in addition to reviewing the correspondence that clarifies this aspect. And the port of Gwadar was added - although it does not fall within the geographical range of the Gulf - but it was under Persian influence until the year 1783 AD. It is the year that Sultan bin Ahmed visited the region with his brother Saif, and Naseer Khan(1) gave him the province for Mr. Sultan to make a base for his campaigns on the eastern coast of the Gulf. The same also applies to the port of Shahbar, when Mr. Sultan bin Ahmed extended his influence there.

Key words: Omani influence - Persian ports - Qeshm - Shahbar - Gwadar - Omani history

المحور الأول: نظرة عامة للعلاقات العمانية الفارسية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين:

إن العلاقات العمانية الفارسية علاقات تاريخية، وعلى الرغم من عمق العلاقة بين هاذين الاقليمين والعوامل المشتركة بينهما عبر العصور، إلا أن العلاقة بينهما اتسمت بالتذبذب عبر التاريخ، وظهرت جلية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، فتارة نجدها عدائية وتارة تكون على هيئة تعاون على كافة الأصعدة؛ فهي علاقة تنافس على السيطرة على الموانئ والجزر المشتركة بينهما بحكم الموقع الاستراتيجي، وتنافس لبقاء تاريخ كل حضارة منهما مستمرا تاريخيا. ولقد لعب وجود القوى الاستعمارية الكبرى في الخليج كبريطانيا وفرنسا دورا في توجيه هذه العلاقة، ففي بداية القرن الثامن عشر الميلادي و عهد دولة اليعاربة، استطاعت عمان الحفاظ على علاقات جيدة مع القوى الأوروبية كبريطانيا وهولندا وفرنسا، وكان بينها وبين هذه الدول تعاون واضح. كما استطاع اليعاربة الاستفادة من امكانيات الأوربيين في تطوير اقتصادهم وتجارتهم الخارجية، ولعل هذا التعاون تمثل في توقيع الإمام

سلطان بن سيف الأول (1649م/1059هـ - 1679م/1090هـ) اتفاقية التعاون مع بريطانيا سنة 1659م/ 1070هـ، ورغم أن الظروف السياسية غيرت سير هذه الإتفاقية، إلا أن اليعاربة استطاعوا خلال عصرهم الذهبي فرض مكانتهم في الخليج والمحيط الهندي. فقد قام العمانيون بالهجوم على السواحل الفارسية في عام 1126هـ / 1714م، وخلال الأعوام 1130هـ / 1717م و 1131هـ / 1718م، ووصلت العلاقات بين البلدين إلى درجة عالية من التعقيد وذلك عندما سيطر العمانيون على جزيرتي قشم ولاراك، وفرضوا حصاراً قوياً على جزيرة هرمز. فتحرك الفرس نتيجة لذلك لطلب المساعدة من الإنجليز والهولنديين مرة أخرى، إلا أن طلبهم تم رفضه هذه المرة، فاتجهوا للفرنسيين اللذين لا يملكون قوة عسكرية في المنطقة لكي يقدموا العون العسكري ولكنهم اكتفوا بالوعود .

لذا يمكن القول أن طبيعة العلاقات بين فارس وعمان في تلك الفترة لها أثرها على الأوضاع في الخليج ، فالنزاع بينهما أفسح المجال لنمو قوى أجنبية على حسابهما ، مما أدى إلى إضعافهما فيما بعد. كما أدى سوء العلاقات بينهما إلى ظهور قوى محلية صغيرة استطاعت أن تعزف على وتر التوازن في المنطقة ، وأفسحت المجال لانقسامات إقليمية وطائفية سهلت من السيطرة الأجنبية على المنطقة في تلك الفترة . وظلت العلاقات العمانية الفارسية على هذا الوضع حتى عام 1135هـ / 1722م، حينما كان الوضع الداخلي في عمان يتجه للانقسام القبلي على أثر النزاع على السلطة بعد وفاة الإمام سلطان بن سيف الثاني في وقت تعرضت فيه فارس للغزو الأفغاني وسقوط الأسرة الصفوية الحاكمة².

وفي نهاية عهد دولة اليعاربة وما زامنهما من انقسامات قبلية ولجوء الإمام الصغير سيف بن سلطان الثاني للفرس، ونجاح أحمد بن سعيد والي صحار في طردهم منها، وإعادة الوحدة للبلد، وانتخابه إماماً لعمان، معلنا بذلك بداية عهد جديد هو عهد دولة البوسعيد (1749م/1161هـ - ...) . ولم تختلف في بدايات عصر هذه الدولة طبيعة العلاقات مع بلاد فارس كثيراً، بل إن الصراع التنافسي ظل مستمرا بينهما، والملاحظ من خلال المراسلات والوثائق أن التنافس الأوروبي في الخليج لعب دوراً في تهدئة هذا الصراع عموماً، لتحقيق مصالحهم، ولعلمهم في أوقات عديدة مالوا للجانب الفارسي دون غيره، بخاصة مع الصراعات الداخلية التي شهدتها عمان خاصة في نهاية القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر، لتنتهي

بالتقسيم التاريخي للإمبراطورية العمانية بعد وفاة السيد سعيد بن سلطان عام 1273م/1273هـ.

ويمكننا ان نعتبر أن هذه العلاقة مع بلاد فارس بلغت درجة من التطور مع وصول السيد سلطان بن أحمد البوسعيدي (1793م/1208هـ - 1804م/1219هـ) لسدة الحكم في عمان، ومن ثم في عهد ولده السيد سعيد بن سلطان (1804م/1219هـ - 1856م/1272هـ). فالأحوال السياسية والاقتصادية في عمان استقرت في عهد السيد سلطان بن أحمد³، مما انعكس بدوره على العلاقات الخارجية لعمان، خاصة مع بلاد فارس بصورة ملموسة. فقد استغلت العديد من القبائل العربية التي تستوطن الساحل الفارسي من جهة الخليج سواء في بوشهر او بندر رق وجزيرة خرج وقبائل بني معين في بندر عباس وقشم وهرمز وغيرها⁴، استغلت حالة الفوضى في بلاد فارس على إثر مقتل نادر شاه الأفشاري عام 1747م/1160هـ في إعلان انفصالها عن الدولة الفارسية، وتعزز هذا الانفصال بقوة السيد سلطان بن أحمد الذي كان طموحا لمد نفوذه في الخليج بصورة واضحة. فلم يكتف بجوارر كهديبة بل أكد على سيطرته عليها وسنتحدث لاحقا بالتفصيل عن كل ميناء مد العمانيون نفوذهم فيه خلال هذه الفترة. حيث عيّن سيف بن علي بن محمد البوسعيدي⁵ واليا عليها وأمره ببناء قلعة فيها.

أولاً: ميناء جوادروشاهاار 1784م/1198هـ - 1792م/1207هـ:

تبدأ قصة نفوذ البوسعيدي في جوادر مع وصول السيد سلطان بن أحمد إليها منفيًا عام 1198هـ/1784م، حيث لجأ إلى ناصر خان⁶ في كلات⁷، الذي يبدو انه أخذ على عاتقه في البداية، مساعدة السيد سلطان ليجعل من نفسه حاكما لعمان، وكانت جوادر آنذاك قرية صغيرة يسكنها صيادو السمك⁸. وبحسب روايات محلية جرى تناقلها جاء السيد سلطان في البداية الى زيك، وهي قرية حصينة يسكنها المرواريون mirwaris في كولة، ومن هناك تقدم الى خاران، بعد ان انضم اليه داد كريم المروارى، وهناك تبنى قضية المير جهانجير، الذي كان زعيما أنو شروانيا⁹.

وقد اختلف في طبيعة هذه الهدية، فالبعض يرى أنها منحة غير دائمة أُعطيت لسُلطان بن أحمد فقط لتأييد وصوله للحكم في عمان عندما كان في مكران، فالتجشكيون حكام مكران يرون بأن هذه المنحة إنما هي مجرد تنازل مؤقت، وتنتهي بوصول السيد سلطان الى السلطة

في عمان، ولهذا اعترضوا على المنحة فيما بعد، ولكنهم لم يكونوا في وضع يسمح لهم بالصراع مع سلطان عمان لأخذها بسبب سوء أحوالهم السياسية. وأما خانات كلات فأرأوا بأن منحة جواد لا تعتبر منحة دائمة، مُفَيِّدين رأيهم بأن مير نصير خان¹⁰ الأول لما أعطى جواد كمنحه قصد به الجزء العائد له، ولم يقصد الجزء العائد للجتسكين، ودليلهم على ذلك أن نصير خان أعطى السيد سلطان حصته من عائدات جواد بينما بقيت حصة الجتسكين أنفسهم، ولم ينقلها بطبيعة الحال لسلطان بن احمد في ذلك الوقت. بينما يرى البعض الآخر من مؤيدي السلطان أن إعطاء جواد جاء كمنحة دائمة، وتنازل تام من نصير خان الأول لحاكم عمان، وأن الغرض منه تأمين الحماية البحرية للسواحل المكرانية البعيدة عن مركز كلات، فمير نصير خان كان يرى بأن مسألة وصول سلطان بن أحمد للحكم هي مسألة أكيدة، ولكن الأهم في هذا كانت حماية سواحل مكران البحرية¹¹.

في حين يرى آخرون أن جوادما تزال تعود إلى الجتسكين حتى عام 1198هـ/1784م، ويرى لوريمر أن استمرار حصول الجتسكين على حصتهم من دخل جواد، دليلاً على استمرار سيادتهم على الميناء، وتبلغ قيمة الدخل حوالي 3.000 دولار¹²، وقد كان هذا المبلغ معمول به حتى أيام بيبي مريم، وهي سيدة بليدية متزوجة من جتسكي، وقد وصفها مساعد الوكيل السياسي في جواد عام 1285هـ/1868م، قائلاً: انها تعيش على إحسان سلاطين مسقط، لكن الجتسكين يؤكدون أن ما تلقاه كان حقها الفعلي وأنه يمثل الحصة الجتسكية من الدخل التي قطعها سلاطين عمان تدريجياً¹³.

خلال القرن السابع عشر كان البليديون Bulaidais هم القبيلة المسيطرة في مكران، التي كانت جواد وما حولها تشكل جزءاً لا يتجزأ منها. وفي القرن الثامن عشر أزاح الجتسكيون Gichkis البليديين وحلوا محلهم، وبرزت أيضاً عائلة براهوي Brahui، وكان على رأسها آنذاك رجل يدعى مهبط خان، وفي عام 1736م/1149هـ، خضع مهبط خان لنادر شاه حاكم بلاد فارس فعينه هذا الفاتح مسؤولاً رئيسياً على كل من بلوشستان بما فيها مكران، وفي عام 1739م/1152هـ، انسحب تقي خان قائد قوات نادر شاه من بلوشستان وانتهز الجتسكيون الفرصة ليضمّنوا لأنفسهم مكانة في جواد، حيث ظلوا سنوات عديدة المالكين الوحيدين لها¹⁴.

في الفترة من 1207هـ/ 1792م – 1278هـ/ 1861م، لا تذكر جوادر كثيرا سوى كونها مرفأ صيد صغير، تضم 600 من الأكواخ، وكان سلاطين مسقط يهدون خانات كلات عدد من العبيد كل سنة امتنانا منه لهذه الهدية. إلا أن الفترة بين أعوام 1845 او 1846 م حين تولى السيد ثويني السلطة في مسقط، توقفت هذه الأعطيات، وقد تخللها عدد من الحملات للسيطرة على هذا الميناء، ففي عام 1263هـ/ 1847م، قام فقير محمد بمحاصرة جوادر بحملة كبيرة العدد، إلا أن السيد ثويني حرك قواته بقيادة البارجة الكبيرة (نصيري) وأجبروا النائب على العودة والتراجع عن الحصار. وحاول بعد ذلك نصير خان الثاني بعد وفاة السيد سعيد بن سلطان سنة 1274هـ/ 1857م، السيطرة على جوادر مرة أخرى إلا أن والي السلطان استطاع رشوته بعدد من العبيد والأسلحة ليتراجع عن هذا المخطط¹⁵.

وجاء في الوثائق البريطانية عن حدوث هجرة من المكرانيين والعمانيين من ساحل مكران لبومباي سنة 1284هـ/ 1867م، ربما بسبب سوء الظروف الاقتصادية فيها، مما أدى بحكومة الهند أن تطلب من السلطان أن يوقف هجرة هؤلاء عبر جوادر للهند¹⁶.

ومع قيام حركة إحياء الإمامة في عمان، متمثلة في الإمام عزان بن قيس، فقد حاول أن يعين حاكما من قبله في جوادر، إلا أن الحاكم الذي عينه لم يحض بتأييد السكان واستعدوا للثورة ضد الإمام عام 1285هـ/ 1868م، إلا أن هروب السيد ناصر بن ثويني من مسقط لجوادر قلب الأوضاع السياسية، فقد قام السيد ناصر بن ثويني ولديه زوجه بلوشية تنحدر من منطقة مجاورة لجوادر بالخروج خلسة من مسقط ووصل إلى جوادر وبسبب صلاته العائلية بالمكان لم يواجه مشكلات كثيرة اثناء تجنيد قوة في الجوار والاستيلاء على جوادر. في الوقت ذاته منعت سفن المدفعية البريطانية الإمام عزان بن قيس من إرسال سفينة حربية لاستعادة الميناء¹⁷.

إلا أن الوثائق البريطانية تشير أن السيد ناصر وصل لجوادر في عام 1286هـ/ 1869م، حيث وصلها كلاجئ. والسيد ناصر هو الأخ غير الشقيق للسيد سالم من جارية. قدمه السيد ثويني لشخص في البلاد السلطاني اسمه ضاحي Dahu. وقد كاتب السيد ناصر الكابتن روس وبلغه عن نيته الاستيلاء على قلعة جوادر، ورغم تردد البريطانيين وطلبهم عدم تدخله، إلا أن السيد ناصر استطاع الاستيلاء على القلعة دون مقاومه ورفع فوقها العلم الأحمر¹⁸.

وقد حاول السيد عبد العزيز شقيق السيد تركي بن سعيد عام 1287هـ/ 1870م، الاستيلاء على جوادر إلا أن السيد ناصر كمين له على الشاطئ وأخذه أسيراً، إلا أن تدخل الكابتن روس فأقنعه بترك عمه. وقد غادر السيد ناصر جوادر راحلاً لزنجبار، فتولى أمرها السيد عبد العزيز الذي نجح في الاستيلاء على شاهبار كذلك، إلا أنها – أي شاهبار- عادت للفرس سريعاً، وظلت جوادر تتبع سلطة السيد تركي الذي نجح في القضاء على الإمام عزان بن قيس، فأرسل وزيره ثويني بن محمد لجوادر، فاتفقوا على مغادرة السيد عبد العزيز مقابل مبلغ 200 تومان شهرياً¹⁹. هذا ولقد استمر صراع الأخوة على جوادر حتى تدخلت السلطات البريطانية التي أغلقت وكالتها من جوادر عام 1879م²⁰.

وبعد انجاز اتفاقية التلغراف في 2 أبريل 1285هـ/ 1868م²¹، تنازلت الحكومة الفارسية عن مطالها بجوادر، وتخلت أيضاً على مضمض عن موضوع النزاع الذي اثارته بشأن الساحل إلى الغرب من جوادر والذي كانت تطالب بأن يوصف في المعاهدة (اتفاقية التلغراف) بالساحل الفارسي. وقد أصبحت جوادر استناداً إلى الحدود التي رسمها العميد جولد سميد عام 1871م، بين أراضي فارس وكلات، بعيدة عن متناول الفرس، لكن عملية التحديد تلك لم تطل شهبار التي كانت ما تزال بالفعل ضمن ممتلكات سلطان عمان، على الرغم من مطالبة فارس بحقها في ملكيتها²².

إن القراءة للوثائق البريطانية وخاصة المراسلات تضح ان جوادر كانت إلى حد ما تمثل حيابة شخصية لسلاطين عمان، ولهذا اتخذها الكثير منهم ملجأً له حين كانت الأحوال في عمان تسوء وتضطرب. وظلت جوادر تابعة للسيادة العمانية حتى القرن العشرين.

أما بالنسبة لشهبار، وبعد استتباب الأمن في جوادر، قام والي السيد سلطان بن أحمد سيف بن علي بتحريك أسطولاً من القوارب، لشهبار، ودخل إلى الميناء متذرعاً بالصيد، فاستولى عليها بصورة مباغتة، وأضافها إلى ممتلكات السيد سلطان على ساحل مكران. كانت شهبار في وقتها تحت سلطة البلديين وعليها شخص يدعى شافي محمد، كان يدفع ربع دخله للمير سبحان، زعيم دشتياري باهو، ومع سيطرة والي جوادر عليها أصبح لزاماً على حاكمها دفع ربعاً آخر من دخله له، ويقال أن أحد أفراد الخوجا واسمه رقية الله هو الذي خان المدينة، ويبدو أن سلاطين عمان قد خسروا شهبار لدى وفاة السيد سلطان عام 1804م/ 1219هـ،

لكن ما لبثت ان استعادتها بعد فترة قصيرة. وكانت عائداتها عام 1224هـ/1809م، تقدّر ب 5000 روبية سنويا، تدخل جميعها في خزانة سلطان عمان²³. واستطاع السيد سلطان بن أحمد في الوقت ذاته فرض سيطرته على جزر قشم وهرمز وهنجام وميناب وبندر عباس ليوقع بذلك عقد ايجار للميناء بمبلغ 4 الاف تومان²⁴، بعد أن تمكن من انتزاعها من قبائل بني معين عام 1209هـ/ 1794م²⁵. ثم تم تجديد الاتفاقية 1213هـ/ عام 1798م، بمبلغ 6 آلاف تومان سنويا، إلا أن حاكم شيراز عام 1239هـ/ 1823م، وفي عهد السيد سعيد بن سلطان ألغى عقد الإيجار مما حدا بالسيد سعيد للتوجه للميناء وإجبارهم على تجديد العقد، بزيادة بلغت ألفان تومان²⁶.

وبالتالي فالسلطة العمانية على كل من جوادر وشهباز بدأت عام 1207هـ/ 1792م، كما إن هذا التوجه من السيد سلطان بن أحمد للسيطرة على الساحل الفارسي المحاذي للخليج، لم يكن تحركا عشوائيا، وإنما كان لتنشيط دور عمان التجاري في الخليج، من خلال فرض رسوم حماية للسفن في الخليج، فموقع عمان على مدخل الخليج العربي يتيح لها ذلك بلا شك، وبالتالي سيتعزز بالسيطرة على بعض الموانئ والجزر الاستراتيجية في الخليج. ويرى الحجري أن من العوامل العديدة التي ساعدت السيد سلطان على فرض سيطرته على الساحل الفارسي هي سيطرته المبكرة على جوادر ومعرفته بها وبأهلها منذ العام 1784م²⁷، بالإضافة إلى الاضطرابات السياسية التي شهدتها بلاد فارس آنذاك بعد مقتل كريم خان في عام 1193هـ/ 1779م، لينتهي بقيام الأسرة القاجارية فيها عام 1212هـ/ 1797م، كما أن التنافس الأوروبي في بلاد فارس بين كل من روسيا وبريطانيا وفرنسا، أضعفها سياسيا وأهكها عسكريا.

ولا نغفل كذلك أن ظهور القوى المحلية في الخليج مثل القواسم والعتوب والسعوديين لعب دورا كبيرا كذلك في تشكيل العلاقات العمانية الفارسية²⁸. وظهر هذا جليا في التعاون بين السيد سلطان والفرس لضم البحرين خاصة بعد ازدياد النفوذ السعودي في نجد والإحساء، فأرسل الفرس مساعدات مكونة من 200 من الفرسان، و2000 رجل، لكنها تأخرت في الوصول، فما كان من السيد سلطان إلا أن هاجم البحرين منفردا فلم يستطع السيطرة عليها.

ثانيا: ميناء بندر عباس:

بندر عباس هو ميناء فارسي كان محل سيادة عمانية مقابل إيجار سنوي يتم دفعه للشاه في طهران. تبدأ علاقة عمان الفعلية في القرن الثامن عشر بميناء بندر عباس حين استأجره السيد سلطان بن أحمد في عام 1209هـ/ 1794م، مما أرفد الدولة العمانية بمزيد من العوائد الممتازة قدرت قيمتها سنة 1216هـ/ 1801م، بحوالي 54 ألف روبية. لترتفع في عام 1217هـ/ 1802م، لتصل إلى 100 ألف روبية عندما سمح بإدخال الملح إلى الهند البريطانية²⁹.

ففي عام 1805م وعلى أعقاب وفاة السيد سلطان بن أحمد، والاضطرابات التي شهدتها عمان من انقاسامات داخلية داخل البيت الحاكم نفسه، استطاعت قبائل معن العربية السيطرة على ميناء بندر عباس، إلا أن السيد بدر بن سيف الذي عينته السيدة موزه بنت أحمد وصيا على الحكم حتى يبلغ الحلم السيد سعيد بن سلطان عمل على استرجاع أرض بندر عباس المؤجرة وكل الأراضي التابعة لها بمساعدة بريطانية. ويبدو أن السبب، الذي انطلق منه النقيب سيتن إلى النزول عند طلب السيد بدر بمرافقته على متن "مورنينجتون" إلى بندر عباس، خشية أن يستمال السيد بدر إلى التحالف مع القواسم والعتوب بتأثير من السعوديين، وأن ينقضَّ معهم على أسطول الشيخ ناصر من بوشهر، ويدمره³⁰.

ولم يخلو الأمر من محاولات فارسية أخرى لاستعادة السيطرة على ميناء بندر عباس، ففي العام 1820م قام الفرس بالضغط على سلطان عمان للتخلي عن إقطاعاته في بندر عباس عام 1823م. في بداية عام 1823م، وصل من شيراز إلى بندر عباس شخص يدعى زكي خان حاملاً تعليمات تتعلق باستئجار هذا المرفأ والمباني الملحقة به، اللذين كانا بيد سلطان مسقط. وقد راجت فكرة مؤداها أنه أرسل لإيجاد طريقة تنهي صك الملكية، ولدى تلقي السيد سعيد خبر وجود هذا المسؤول في بندر عباس، توجه مع سفينتين للقائه هناك، وجاءت نتيجة مناقشتهما وعدا من السلطان بدفع 1000 تومان إضافية سنوياً، خلال السنتين التاليتين، وتقديم هدية خاصة لزكي خان قيمتها 500 تومان. وقبل أن يبحر السيد سعيد إلى مسقط في رحلة العودة، زاره على متن سفينته شخص يدعى ميرزا باقر، مصطحباً حسين علي خان حاكم بندر عباس، وعلي خان حاكم ميناب، اللذين كانا قد عبرا مؤخراً عن تفضيلهما للحكم الفارسي، لكنهما باتا الآن يرغبان في أن تجري مصالحتهما مع سمّوه، وخلال ذلك اختفى هذان الشخصان ومرشدهما، وكان اختفاء الرجال الثلاثة أمراً غامضاً. ولفترة

على الأقل. وأعلن أن المركب الذي كان ينقلهم قد امتلأ ماء وغرق، لدى عودته إلى الشاطئ. لكن الاعتقاد السائد، ذلك الوقت، انهم نُقلوا بالقوة إلى زنانات في مسقط. حيث أودعوا ليحيوا حياة هي أقرب إلى الموت³¹.

وبين أعوام 1826 – 1827م، جرت العديد من الأعمال العدائية بين السيد سعيد بن سلطان وعبد الرسول شيخ بوشهر، واستمرت الاضطرابات كذلك في أعوام 1829 و1830- 1831م، حيث كاد السيد سعيد بن سلطان أن يتورط في اضطرابات حدثت في بوشهر، اما سبب هذا الاهتمام فيعود إلى زواجه الذي عقده عام 1242هـ/ 1827م على ابنة الأمير حاكم بوشهر³². يذكر عبد الله الفارسي أن هذه السيدة هي حفيدة شاه إيران فتح علي شاه، وتزوجها السيد سعيد بشرط أن تُمضي فصل الربيع من كل عام في بلد أبيها، الا انه بعد ذهاب السيد سعيد لزنجان في سنة 1247هـ/ 1832م ذهبت إلى وطنها ولم تعد، بسبب نزاع بينها وبين ابن زوجها السيد خالد³³. ولعل هذا كان عاملا في اضطراب علاقات السيد سعيد بحاكم بوشهر وقتها.

ظل الوضع متعارف عليه حتى عام 1262هـ/ 1846م، عندما قام حاكم إقليم فارس حسين علي ميرزا بإرسال قوات عسكرية إلى بندر عباس، لفرض ضريبة على سيف بن نهان الوالي العماني على بندر عباس، مما أغضب السيد سعيد بن سلطان. فعزم على إغلاق ميناء بوشهر مما أدى بالمقيم البريطاني السياسي بأن يوجه إنذارا لسيف بن نهان لإيقافه ومنعه من القيام بهذه المهمة³⁴، فحدث تدهور واضح في العلاقات العمانية الفارسية.

وتجددت المحاولات الفارسية لإنهاء السيطرة العمانية عندنا قام ناصر الدين شاه بتعيين بهرام ميرزا حاكما لإقليم فارس في عام 1270هـ/ 1853م، فشن هجوما على بندر عباس بحجة أن الوالي العماني على بندر عباس الشيخ سيف بن نهان لم يف بالتزاماته المالية كما نص عليها عقد الإيجار، فأعدَّ حملة بقيادته، وتوجه إلى بندر عباس بمساعدة حاكم بلوشستان طمهاسب ميرزا ، ولكن الشيخ سيف بن نهان نجح في التأثير على بهرام ميرزا وكسبه بإعطائه مبلغا ماليا كهدية شخصية مقابل انسحابه من بندر عباس، على الرغم من ذلك عين السيد ثوبي بن سعيد واليا على بندر عباس بناء على توجيهات والده السيد سعيد بن سلطان ، وإزاء هذه التغييرات ساءت العلاقات مجددا بين الفرس والعمانيين الذي نتج

عنه قيام حاكم اقليم فارس الجديد طمهااسب ميرزا بإرسال قوة عسكرية الى بندر عباس³⁵. ليتوجه السيد سعيد بن سلطان من زنجبار لمسقط لتأكيد السيطرة العمانية على الساحل الفارسي بتجهيز حملة إلى بندر عباس بقيادة ابنه السيد ثويني ، وكان معظم رجاله من الشرقية وجعلان ونزوى، وتمكن من طرد حاكم الميناء من قبل الفرس عباس خان وجنود حاميته وذلك في ذو القعدة 1270هـ/أغسطس 1854م. إلا أن الفرس تمكنوا من استرجاع بندر عباس مع وصول إمدادات عسكرية، مما اضطر السيد ثويني إلى الإنسحاب من القلعة إلى السفن الراسية وذلك في 9 ربيع الأول 1271هـ/ 29 من نوفمبر 1854م. والتوصل إلى اتفاق جديد زاد من قيمة إيجار الميناء، ودفع غرامة مالية قدرها سبعة وثلاثين ألف تومان كتعويض للسلطات الفارسية جراء تلك المواجهات، وأعيد تجديدها عام 1273هـ/ 1856م، وتنازل العمانيون لفارس عن جزيرتي هرمز وقشم مقابل عودة القوات العمانية إلى ميناء بندر عباس وتجديد عقد الإيجار السنوي إلى ستة عشر ألف تومان³⁶.

وقد قنَّدَ بادجر توزيع المناطق والتي عليها النفوذ العماني من الساحل الفارسي من أجل تأسيس خط تلغراف بري من البصرة إلى كراتشي ماراً عبر بندر عباس وساحل بلوشستان، بالتالي³⁷:

- 1- المنطقة من بندر عباس وسودراج Sudrej واقعة تحت نطاق سلطة حاكم عمان الذي أخذها كإقطاعات من حاكم فارس من عهد السيد سعيد بن سلطان عام 1856م/1273هـ، وحاكمها هو مير حسين.
- 2- المنطقة بين سودرج الى تيز Tiz واقعة تحت سيطرة مير عبدالله بن مير محمد، وهو أحد زعماء البلوش ذوي القوة واللباس، ولكنه أصبح تابعاً لفارس منذ عام 1848م.
- 3- بالقرب من تيز تقع شهبار، وهذه المنطقة تدخل ضمن نطاق حاكم عمان، التي تمتد سلطته فيها حتى منطقة جوار، الواقعة شرق شهبار وتخضع شهبار للعمانيين منذ عام 1792م/1207هـ، إلا أن هناك محاولات فارسية وكلائية للسيطرة عليها.
- 4- تقع جوار شرق جيوني، وهي أيضاً تابعة لسلطان عمان، ويحكمها بالنيابة عنه سيف بن سالم، ويدعي خانات كلات تبعية جوار إليهم، ويرونها مهمة إليهم، خاصة بعد الازدهار الذي حققته تحت مظلة الحكم العماني.

وتجددت المزاغم الفارسية بالميناء مرة أخرى مع إعلان إمامة عزان بن قيس، واستيلائه على مسقط عام 1868م. فقد تمسكت الحكومة الفارسية بقوة في عقد الإيجار الذي كانت قد أبرمته في بدايات العام نفسه مع سالم بن ثويني وطالبت بإلغاء العقد العماني الخاص بتأجير الميناء لأن أحد الغزاة سيطر على مسقط على حد زعمهم، وقامت بتعيين حاجي أحمد وزير سالم بن ثويني في بندر عباس قامت بتعيينه حاكما في الميناء، وسمحت لسالم بن ثويني بأن يستقر هناك بعد نفيه، ولأن البريطانيين لن يسمحوا للإمام عزان بان يرسل سفنا حربية الى بندر عباس، لم يستطع الامام أن يعيد الميناء إلى عمان ، وظلت بندر عباس بيد الفرس ، إلا أن الوثائق البريطانية تشير أن السنوات الاولى من الادارة الفارسية المباشرة كانت تغلب عليها الصفة العمانية . وذلك بسبب وجود هيئة من الموظفين العرب على رأسها حاجي أحمد³⁸.

وتعتبر إتفاقية 1285هـ/ 1868م بداية النهاية للنفوذ العماني على بندر عباس فعليا. إذ عملت بريطانيا على اتخاذها مقرا جديدا بديلا. وفي أقل من شهرين من تنفيذ الاتفاق، أُنهي تأجير الميناء لعمان. بتغيير السلاطين في مسقط، ثم لم يمنح اي إيجار اخر بعد ذلك، وهذه كانت نهاية العلاقة القائمة من زمن طويل بين مسقط وبندر عباس. فقد أثرت منذ عام 1879م مسألة تعيين موظف سياسي بريطاني في بندر عباس، أثارها العقيد روس الذي يشغل منصب المقيم في الخليج. وقد درست المسألة مجددا في اعوام 1822م، 1884م، 1885م، 1888م، 1892م. وفي عام 1900م انتدب إلى بندر عباس الملازم ف.دي. ف. هانت، من الدائرة السياسية في حكومة الهند، مساعدا للمقيم في الخليج بصورة مؤقتة، ولأسيما بالنظر إلى نمو تجارة السلاح غير الشرعية بين مسقط وبندر عباس. واستصدرت من الحكومة الفارسية براءة اعتماد نائب قنصلي باسمه، وتشمل صلاحيته مقاطعتي بندر عباس ويزد. لان النية اتجهت الى جعل مقره الصيفي في يزد. وقد الحق مساعد مستشفى هندي بنائب القنصل. وكان التفكير يتجه الى فتح مستوصف خيري يديره المساعد وانتهى الامر سنة 1905 بتعيين مقر حكومي مناسب له في أقرب مكان في المدينة³⁹.

المحور الثاني: دراسة لأهم الوثائق من مراسلات واتفاقيات حول ميناء جوادر وشهباز
وبندر عباس:

سنعتمد في هذا المحور على أبرز المراسلات حول الوجود العماني في كل من جوادر وشهبار، إذ أننا لم نجد اتفاقيات حول هذين المينائين إنما مراسلات تثبت أنهما يخضعان للسيطرة العمانية. أما فيما يتعلق ببندر عباس فعدا عن المراسلات الرسمية بخصوصه فهناك اتفاقيتان تم توقيعهما بين العمانيين والفرس برعاية بريطانية، الأولى كانت عام 1856م والثانية عام 1868م.

ولنبداً بالمراسلات حول مينائي جوادر وشهبار. فقد استطاعت البحرية العمانية منذ مطلع القرن الثامن عشر الميلادي وفي أوج نشاطها من حيث العدد والعتاد، وناقست العديد من الدول الأجنبية التي رأت في العمانيين منافساً كبيراً، هذا الأمر يبدو جلياً في المراسلات بين الوكلاء التجاريين البريطانيين والضباط البريطانيين كذلك. ويرى البعض أن نفور الفرس من البحر كان عاملاً مهماً في سيطرة العمانيين على مياه الخليج والمحيط الهندي لفترة زمنية طويلة⁴⁰، ويؤكد ذلك انتشار العنصر العربي على امتداد الساحل الغربي لبلاد فارس، ونشوء إمارات عربية سواء في بوشهر أو جزر قشم وخرج وغيرها. وقد ذكر الرحالة البريطاني ويليام جيفورد الذي زار مسقط في عهد السيد ثويني بن سعيد (1856-1866م) حيث أشار أن بلاد فارس تنازلت لمسقط باتفاقية وقعت عام 1798م عن المنطقة الممتدة بين رأس بستانه حتى جاسك، أي ضمت كل من جزر قشم ولارك⁴¹ وهرمز وتوابعها، بطول يصل إلى 200 ميل، ويضم موانئ بندر عباس وشميل وميناب⁴².

ولقد اعتمدنا في هذه الدراسة الوثائقية على المراسلات الواردة في كتاب Records of Oman، ولقد كان واضح في هذه المراسلات بين الوكيل السياسي البريطاني في مسقط وزنجبار جورج بيرسي بادجر Rev.George Percy Badger و الميجور هنري جرين Major Henry Green الوكيل السياسي في كلات و الوكيل السياسي ممثل الملكة في الهند والميجور مالكولم جرين Major Malcolm Green. وتوضح جميع هذه المراسلات أن موانئ جوادر وشهبار حتى رأس جاسك تتبع سلطة إمام مسقط. ولقد أكد بادجر ذلك حين قال أنها ظلت 70 عاماً تحت سلطة العرب.

وتشمل المراسلات التي اطلعنا عليها في التالي:

- 1- ففي رسالة مرسله من السيد هنري جرين الوكيل التجاري في كلات في 27 من مارس سنة 1801م بخصوص خط التلغراف المزمع مده من الهند للخليج عبر أراضي الساحل الفارسي وساحل مكران، توضح التقسيم السياسي لهذه المنطقة مؤكدا ان الساحل الممتد من جوادر حتى رأس جاسك يتبعان سلطان عمان السيد سلطان بن أحمد، وأن هناك صراعا من قبل خان كلات للسيطرة على هذه الموانئ، الا ان سلطان عمان نفوذه ممتد في هذه المناطق.
- 2- رسالة جورج بيرسي بادجر عام 1861م وأثناء زيارته لمسقط أرسل بتقرير حول خلاف بين السيد ثويني بن سعيد، ومير حسين حاكم جاسك، حول الأراضي التي تتبع كلا منهما، وأكد بادجر في هذه المراسلة أن المنطقة الواقعة من بندر عباس حتى 60 ميل قريبا راس جاسك تتبع سلطان مسقط، بموجب الاتفاقية الموقعه مع سلفه السيد سعيد بن سلطان عام 1856م.
- 3- يصف بادجر سلطة مسقط على ساحل مكران بأنهم سيطروا على " أفضل موانئ مكران". ثم يفصل في الفترات الزمنية لهذا النفوذ، حيث يذكر أن التطلع لهذا النفوذ بدأ منذ عهد الامام حمد بن أحمد بن سعيد ووصل أقصى درجاته في عهد السيد سلطان بن أحمد. مؤكدا أن نفوذ السيد سلطان وصل لميناء شهباز بقيادة سيف بن علي والي السيد سلطان على جوادر. وبقيت في يد العرب من ذلك التاريخ، وظلت جوادر بيد العرب سبعين عاما.
- 4- تليجرام من السيد بيبي في 11 يناير 1868، يؤكد فيه أيضا تبعية جوادر لسلطان مسقط.
- 5- رسالة للسيد من حماد بن هاشل بن راشد للسيد تركي بن سعيد بن سلطان في 30 رمضان 1294هـ/17 أكتوبر 1877م، يؤكد فيها على وصوله لجوادر وإثباته لسلطة السيد في الميناء. وداء في الرسالة إشارات تثبت النفوذ العماني هناك منها:
- أ. والي السيد تركي على جوادر اسمه خميس بن سالم، وان حماد بن هاشل بن راشد يؤكد أنه سلم الوالي سلطة الميناء.
- ب. وصول حوالي 50 رجلا منهم 5 من المشائخ من قبيلة الرند⁴³ معهم الى جوادر. ويبدو أنهم جاءؤوا مطالبين بعدد من العبيد (الخدام) وقد قام نبي بخش بمهادنتهم وافهامهم انه لا

يوجد خدام، على ضوء الغاء تجارة الرقيق. الا انهم سرقوا عددا من البقر والجمال، وقطعوا الحبال عن 4 من المراكب، وغادروا.

ثانيا: اتفاقيات بندر عباس:

جاء توقيع هذه الاتفاقية بعد الأحداث السياسية التي تحدثنا عنها سابقا. وتم توقيع اتفاقتين، الاتفاقية الأولى لبندر عباس كانت في سنة 1856م⁴⁴ مع السيد سعيد بن سلطان، أما الاتفاقية الثانية فكانت في سنة 1868م مع السيد سالم بن ثويني بن سعيد بن سلطان.

أ: اتفاقية 1856م:

جاء في مقدمة النسخة الأولى من الاتفاقية، أنه تم ترجمتها بناء على طلب صاحب السمو الملكي Tamasp Mirza Moayed Ed-Dowlah مؤرخة بتاريخ شعبان 1272هـ/ 1855م.

1- جاء في مقدمة الاتفاقية بان هذه الاتفاقية موقعة بين حكومة فارس بخصوص ميناء بندر عباس والجزر اللاحقة له وهي قشم وهرمز ومقاطعات اوسين Ossein وتازيان Tazyan وشميل Shemie وميناب Minah وخمير Khamoer وبياهان Biyahan وكل المقاطعات التابعة لها والتي تتبع السيد سعيد خان، تصبح تابعة ومستثمرة لإمام مسقط وعمان وفقا للشروط التالية.

2- المادة الأولى: يكون المسؤول عن ميناء بندر مسؤول مسؤولية كاملة وكافة موظفيه ومستشاريه يكونوا تابعين لحكومة فارس. وهذا دليل واضح على التبعية السيادية للميناء لحكومة فارس⁴⁵

3- المادة الثانية: على حاكم فارس وضع رجل امين من قبله ليقوم بعملية استلام الإيجار واحصاء الإيرادات من قبل حاكم بندر عباس، وان قيمة الإيجار تقدر ب16 ألف تومان هلي هيئة إيرادات من الميناء موزعة كالتالي:

* Revenue = 12,500 toman (هذه إيرادات صافية تدفع للخزينة الفارسية أي ديوان الشاهنشاه)

* ألفان تومان هدية لرئيس الوزراء 2,000 toman peshkash for prime minister

* الف تومان هدية للجنرال حاكم فارس =1.000 Ditto for governer- general of Fars
toman

* 500 تومان تدفع لشجاع الملك =500 toman present for Shoja-al-moolk

- 4- المادة الثالثة: جاء في هذا البند ان على صاحب السمو ردم الخندق الواقع حول الميناء ، والالتزام بعدم إعادة حفره مرة أخرى وجاءت الكلمة (never) قطعية في هذه المادة.
- 5- المادة الرابعة: نصت هذه المادة على مدة الإيجار وهي 20 عاما. أن يظل ميناء بندر عباس تابعاً لآمام مسقط وولده. وبعد انقضاء هذه المدة يقوم الآمام أو ولده بإعادة تحسين الميناء وتسليمه لحكومة فارس. كما جاء في نص هذه المآجة وضع حاكم الميناء ومستشاريه ومن معهم من الموظفين، محددآ أنه بإمكانهم الإستمرار في عملهم في حال تم تجديد الاتفاقية مع إمام مسقط، أو خضوعهم للعمل مع إدارة جديدة.
- 6- المادة الخامسة: أكدت هذه المادة مبدأ السيادة على الميناء، حيث جاء في نصها أنه ينبغي استمرار رفع العلم الفارسي على بندر عباس، وأنه سيوجد موظفين فرس⁴⁶ للحفاظ على العلم. وتستمر هذه المادة في تعزيز السلطة الفارسية فتنص على ان (هؤلاء الموظفين سيوزرو الميناء بصورة شهرية دورية لرعاية العلم الفارسي وملحقاته، والاطمئنان على أحوال الميناء وحمل الصحف للميناء. كما انه يجب إطلاق تحية في الأعياد كيوم ميلاد الشاه وإطلاق المدافع صباحا ومساء كالمعتاد.
- 7- المادة السادسة: أكدت هذه المادة على حقوق الأفراد والأقليات التي تسكن الميناء والتي كان ولاءها للشاه والحكومة الفارسية، وعدم ممارسة أي نوع من الضغط السياسي ضدهم. بل نصت على ضرورة رعايته لهم.
- 8- المادة السابعة: حددت المادة حدود سلطة حاكم بندر عباس، وهي ذات الأراضي التي كانت تتبع الميناء منذ عهد فتح علي شاه، وأنه لا يجوز له تجاوزها.
- 9- المادة الثامنة: نصت على انه حين يقرر حاكم لآرستان او الحاكم العام لفارس يقرر ان زيارة بندر عباس للترفيه وممارسة الرياضة، فان على حاكم الميناء استقبالهما بما يليق بهما.
- 10- المادة التاسعة: نصت على تقديم التسهيلات اللازمة لكل من الحاكم العام الجنرال لفارس او حاكم كرمان في حال احتآجا لها، سواء لارسال قوات الى كوتش او مكران او

بلوشستان، فعلى حاكم الميناء عدم اعترض هذا المرور، بل عليه تقديم التسهيلات لهم ولقواتهم والخدمات المناسبة التي تحتاجها هذه القوات، من تسهيلات مادية أو ضيافة. تأكيد جديد لمبدأ السيادة لأراضي بندر عباس وتبعيةها للشاه.

11- المادة العاشرة: إذا قام حاكم الميناء بأي تصرف خاطئ أو تهاون في تقديم التسهيلات والتعاون، فإنه يجب على إمام مسقط استبداله بشخص أكثر تعاون مباشرة. ليكون خاضعا للجنرال حاكم فارس وجاءت هذه العبارة بنصها في الاتفاقية هكذا (who would be obedient to the Governor-General of Fars

12- المادة الحادية عشرة: على حاكم الميناء رفض أي هجرة من مناطق لارستان وسياً Sabaa وأي مقاطعة أخرى من المقاطعات الفارسية، أو المقاطعات التي تتبع كرمان كذلك، وعلى القائمين في هذه المقاطعات إبلاغ حاكم بندر عباس مباشرة بعدم قبول هؤلاء المهاجرين وإعادتهم لمناطقهم. تأكيد السيادة والسلطة الفارسية.

13- المادة الثانية عشرة: جاء في هذا البند أن هذه الشروط تمت في حياة إمام مسقط سعيد بن سلطان ستمته الاتفاقية امام سيد سعيد خان Imam Syud Saeed Khan وأبنائه، وأن الحكومة الفارسية غير ملزمة بهذه الشروط في حالة قامت ثورة أو أي تغيير في الحكم في مسقط على خلاف أبناء السيد سعيد.

14- المادة الثالثة عشرة: اشترطت هذه المادة على السيد سعيد بن سلطان بمنع تواجد موظفين أجانب في بندر عباس والجزر التي تم ذكرها في الاتفاقية بالإضافة الى جزر شرنال وميناب. وعليه التعهد بالدفاع عن هذه الجزر برا وبحرا وامدادهم بالأسلحة والمراكب كمراكب البغلة. ويتضمن هذا الدفاع في حالات الحرب والحصار، وعليه عدم السماح لاي قوة بالاستيلاء على بندر عباس او وضع أي سلكة على الأراضي الفارسية المذكورة في الاتفاقية سواء لأغراض عسكرية أو أي غرض آخر.

15- المادة الرابعة عشر: لا يسمح لامام مسقط ترك الميناء أو أيا من الأراضي الواردة في الاتفاقية بيد أجنبي أو غيره.

16- المادة الخامسة عشرة: هذه المادة وضعت بناء على تقارير من عدد من التجار الفرس حيث تم ذكر فيها ان تجار هنود متعهدين في مسقط جعلوا وكلاء لهم في بندر عباس، وانهم دفعوا ضرائب الواجبة في ميناء مسقط للبضائع التي تذهب من بندر عباس للهند وأماكن

أخرى، وهذا اجراء عالمي أن الجمارك يتم دفعها لنفس البضائع في مكان واحد. وان هذا الاجراء الذي يحاول ان يقوم به التجار الهنود يخالف المواثيق الدولية، وعلى الامام التصدي لمثل هذا الاجراء، وأن عليه ترك عملية الاستيراد والتصدير تتم مثلما كانت في عهد سابقه الشيخ سيف ابن محنان، بأخذ العشر، ولا يتم رفعها⁴⁷.

17- المادة السادسة عشرة: يجب تحويل رؤوس أموال التجار في جزيرة قشم الى بندر عباس، وتوزيعها بين التجار هناك من قبل حاجي عبدالمحمود ملك تجار بوشهر، وتحصيل الضرائب منهم وارسالها لطهران.

من نتائج هذه الاتفاقية الرئيسية هو خروج بندر عباس والجزر المجاورة له رسميا من السيادة العمانية، بعد ان فرضت عمان سيادتها على الميناء وسيطرة عليه سيطرة تامة لقراية خمسة وسبعون عاما، ولعل القوى الأجنبية لعبت دورا كبيرا في توقيع هذه الاتفاقية، ولعل السيد سعيد بن سلطان أراد أن يخف من الضغط الممارس عليه من قوى محلية وقوى إقليمية وقوى أجنبية تحاول كل منها السيطرة على الأراضي العمانية ومقدراتها، ولا ندري هل كان يدرك أم لا، فبتوقيعه على هذه الاتفاقية وكأنه وقع على انتهاء السيادة العمانية في الخليج.

وكما يذكر سعيد الهاشي: "أن السيد سعيد تنازل عن السيادة العمانية على بعض ممتلكات عمان على الساحل الإيراني وجزر مضيق هرمز، وأنه وقع هذه الاتفاقية وهو في حالة ضعف متشبثا بمبدأ عودة هذه المدينة، وبأي ثمن كان وهو لا يدري أن هذه الاتفاقية بداية انحسار النفوذ العماني قبل انتهاء مدة الاتفاق، على الرغم أن جزيرتي هرمز وقشم كانتا تحت سيطرته ولم تصلها السيطرة الإيرانية، وكان بإمكانه ان

يرفض الاتفاقية ويكتفي بمحاصرة بندر عباس اقتصاديا ، ولكن يبدو أن السيد سعيد ضاق ذرعا، وكان وفده المفاوضات متسرعاً أكثر من اللازم، وأنه مكث في مسقط قراية السنتين بعيدا عن املاكه في شرق أفريقيا، وكما يقول رودلف سعيد أن المنافع التجارية الناجمة عن الاحتفاظ ببندر عباس تفوق خسارة الكرامة التي تضمنتها شروط إعادة⁴⁸.

ب: اتفاقية بندر عباس 15 ربيع الثاني 1285 هـ الموافق 4 أغسطس 1868:

تم تجديد اتفاقية 1856م، في عهد السيد سالم بن ثويني. ولعل تجديد اتفاقية 1856م استدعى ذلك لان في الاتفاقية السابقة لا تلزم الحكومة الفارسية الالتزام بها الام مع السيد

سعيد وابنائهم، وبالتالي لم تحدد الاحفاد كجزء من الاتفاق، ولهذا نجد الشاه قد حرك قواته للسيطرة على الميناء، ومع التدخل البريطاني لايقاف أي تحرك عسكري من قبل السيد ثويني، رعت بريطانيا تجديد توقيع اتفاقية تاجير الميناء، خاضبة أن مسقط كانت تمر بوضع اقتصادي سيء مع انفصالها عن زنجبار وانقطاع المعونة التي كانت تدفع من زنجبار لمسقط، وقد اشتملت الوثيقة على النقاط التالية:

- 1- جاء في مقدمتها تأكيد ان هذه الاتفاقية هي إعادة للاتفاقية السابقة بتأجير الميناء، موقعة من قبل الوزير حاجي أحمد نيابة عن السيد سالم، مع صاحب السمة شاه فارس.
- 2- أعقب ذلك تحديد حدود التي تشملها الاتفاقية، كما تم في سابقتها، موضحة أن هذه الاتفاقية تشمل كل من بندر عباس وجزر قشم وهرمز، ومقاطعة ياسين Yuseen، تازيان Tazian وشميل Shumeel وبيابان Biyaban، وميناب Minab، بالإضافة لميناء خمير Khumeer، وما يتبعها، جميعها تحت سلطة السيد سالم، امام مسقط، ودولة عمان، ب15 شرطا.
- 3- المادة الأولى: يتبع حاكم بندر عباس السلطة المباشرة للشاه مثله مثل بقية ولاية الأراضي الفارسية.
- 4- المادة الثانية: على إمام مسقط دفع ضريبة لطهران قدرها ثلاثون ألفا تومان كل أربعة أشهر (ارتفاع كبير عن الاتفاقية السابقة)
- 5- المادة الثالثة: يجب إبقاء الخندق حول الميناء مطمورا، وعدم إعادة حفره مرة أخرى.
- 6- المادة الرابعة: يستمر السيد سالم وأبنائه في استئجار الميناء لمدة 8 سنوات، وعليه اعادته بعد انقضاء هذه المدة للحكومة الفارسية، مع كامل التحسينات التي أقيمت في الميناء. ويمكن تجديد العقد مع أحفاد الإمام ومن يخلفه ولكن بشروط جديده واتفاقية جديده.
- 7- المادة الخامسة: يستمر رفع العلم الفارسي، مع وجود الموظفين المسؤولين عن متابعة ذلك، ويجب أن يبقى هؤلاء الموظفين ومسؤول الجوازات في أعلى شأن في الميناء. ويجب السماح بزيارة الميناء كل شهر لحمل الصحف ومتابعة رعاية العلم والموظفين الفرس. يجب استمرار تأدية التحية العسكرية في المناسبات والاحتفالات كميلاد الشاه، والاعياد الفارسية، ويجب الاستمرار باطلاق النيران صباحا مساء كما هو معتاد.

- 8- المادة السادسة: يجب الاهتمام بموظفي الشاه السابقين في الميناء، وكذلك الرعايا، ومعاملتهم معاملة خاصة.
- 9- المادة السابعة: لا يجوز لوالي الميناء ان يتدخل في الأراضي التي لم تشملها هذه الاتفاقية، بل ان حدودها كما كانت في عهد فتح علي شاه.
- 18- المادة الثامنة: نصت على انه حين يقرر حاكم لارستان او الحاكم العام لفارس يقرران زيارة بندر عباس للترفيه وممارسة الرياضة، فان على حاكم الميناء استقبالهما بما يليق بهما.
- 19- المادة التاسعة: نصت على تقديم التسهيلات اللازمة لكل من الحاكم العام الجنرال لفارس او حاكم كرمان في حال احتاجا لها، سواء لارسال قوات الى كوتش او مكران او بلوشستان، فعلى حاكم الميناء عدم اعتراض هذا المرور، بل عليه تقديم التسهيلات لهم ولقواتهم والخدمات المناسبة التي تحتاجها هذه القوات، من تسهيلات مادية او ضيافة. تأكيد لمبدأ السيادة
- 20- المادة العاشرة: إذا قام حاكم الميناء بأي تصرف خاطئ أو تهاون في تقديم التسهيلات والتعاون، فإنه يجب على إمام مسقط استبداله بشخص أكثر تعاون مباشرة. ليكون خاضعا للجنرال حاكم فارس وجاءت هذه العبارة بنصها في الاتفاقية هكذا (who would be obedient to the Governor-General of Fars
- 21- المادة الحادية عشرة: على حاكم الميناء رفض أي هجرة من مناطق لارستان وسبأ Sabaa وأي مقاطعة أخرى من المقاطعات الفارسية، أو المقاطعات التي تتبع كرمان كذلك، وعلى القائمين في هذه المقاطعات إبلاغ حاكم بندر عباس مباشرة بعدم قبول هؤلاء المهاجرين وإعادتهم لمناطقهم. تأكيد لمبدأ السيادة والسلطة الفارسية المطلقة.
- 22- المادة الثانية عشرة: تم توقيع هذه الشروط وهذه الاتفاقية بحضور الإمام الحالي لمسقط السد سيد سالم ومن يأتي من بعده. وفي حال تم السيطرة على مسقط وعمان من قبل آخرين عدا المذكورين في الاتفاقية، فإن فارس غير ملزمة بهذه الاتفاقية تماما.
- 23- المادة الثالثة عشرة: اشترطت هذه المادة على السيد سعيد بن سلطان بمنع تواجد موظفين أجنب في بندر عباس والجزر التي تم ذكرها في الإتفاقية بالإضافة الى جزر شرنال وميناب. وعليه التعهد بالدفاع عن هذه الجزر برا وبحرا وامدادهم بالأسلحة والمراكب

كمراكب البغلة. ويتضمن هذا الدفاع في حالات الحرب والحصار، وعليه عدم السماح لاي قوة بالاستيلاء على بندر عباس او وضع أي سلكة على الأراضي الفارسية المذكورة في الاتفاقية سواء لأغراض عسكرية أو أي غرض آخر.

24- المادة الرابعة عشر: لا يسمح لامام مسقط ترك الميناء أو أيا من الأراضي الواردة في الاتفاقية بيد أجنبي أو غيره.

25- المادة الخامسة عشرة: هذه المادة وضعت بناء على تقارير من عدد من التجار الفرس حيث تم ذكر فيها ان تجار هنود متعهدين في مسقط جعلوا وكيلا لهم في بندر عباس، واهم دفعوا ضرائب الواجبة في ميناء مسقط للبضائع التي تذهب من بندر عباس للهند وأماكن أخرى، وهذا اجراء عالمي أن الجمارك يتم دفعها لنفس البضائع في مكان واحد. وان هذا الاجراء الذي يحاول ان يقوم به تجار الهنود يخالف المواثيق الدولية، وعلى الامام التصدي لمثل هذا الاجراء، وأن عليه ترك عملية الاستيراد والتصدير تتم مثلما كانت في عهد سابقه الشيخ سيف ابن محنان، بأخذ العشر، ولا يتم رفعها⁴⁹.

بعد استعراضنا للاتفاقتين الموقعتان بشأن ميناء بندر عباس، يمكننا الخروج بعدد من النتائج، نوضحها في التالي:

1- جميع شروط الاتفاقيتان كانت في صالح الحكومة الفارسية، وفي كل بند من بنودها تأكيد واضح للسيادة الفارسية على هذه الأراضي، وهو أمر غير واضح حقيقة، فرغم ان الاتفاقية توضح أن بندر عباس والجزر المجاورة له تتبع سلاطين مسقط، إلا أن السيادة على الأراضي هي للحكومة الفارسية. وحددت بصورة واضحة هذا الأمر، فلا يمكن لوالي السلاطين العمانيين التصرف في الميناء، ولا استحداث مباني جديده، أو إجراء حفريات جديدة في الميناء. كما لا يمكن للولاة رفض استقبال أي وفد فارسي، بل ويجب عليهم معاملتهم معاملة رسمية.

2- لا يبدو واضحا حقيقة ما الريح الذي ستجنيه مسقط من هذه الاتفاقيات، إذا أخذنا بعين الاعتبار أن ميناء بندر عباس قد تقلصت أهميته السياسية والاقتصادية في الخليج بازدهار بوشهر وتحسن الطريق المؤدي من شيراز إلى الداخل⁵⁰. فهل كانت النظرة أبعد من مجرد لاميناء للجزر القريبة منه؟ إن صح هذا الافتراض فالاتفاقتين جردتا سلاطين

مسقط من أي سلطة حقيقة، بل منعت الهجرة وأمرت بأخذ أموال قشم لتجار بندر عباس الفرس وحمل الضرائب لطهران.

3- الواضح من الاتفاقية أن السيد سعيد أدى للفرس خدمة برعاية الميناء ومصالحه لهم، وعليه فالسيادة العمانية على بندر عباس كانت صورية، ولا قيمة سياسية حقيقية لها، فلم يكن للوكيل العماني هناك سوى دفع الضرائب لطهران كل أربعة شهور، وحماية الميناء، وكأنه بذلك يحمي الحدود البحرية الفارسية من بندر عباس على طول ساحل مكران.

4- لوحظ خلط بين الاتفاقيتين من قبل الباحثين، ولعل تكرار بعض البنود أحيانا هو السبب لذلك.

5- يرى بعض الباحثين أن هناك بندا في الاتفاقية الأولى أخرت توقيعها لستة أسابيع، ويدور محور هذه المادة حول السماح لفرنسا بإقامة وكالة تجارية في بندر عباس، ويقال ان السيد سعيد رفض هذا⁵¹

6- لقد تفادى السيد سالم ما وقع فيه السيد سعيد حين حصرت اتفاقية 1856م لزومها في السيد سعيد وأبنائه، ولهذا حين أعيد تجديد الاتفاقية نلاحظ انه تم ذكر أبناء السيد سالم وأحفاده، مع اشتراط تجديد الإتفاقية ببنود جديدة.

الخاتمة:

إن النفوذ والتفوق العماني سياسيا وعسكريا كان محل اهتمام وتقدير العديد من الباحثين، خاصة أولئك المرتبطين بالقوى الاستعمارية في منطقة الخليج والمحيط الهندي، ولهذا كانت فترة القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين محل اهتمام العديد من الباحثين ودارسي التاريخ، وقد حاولت القوى الاستعمارية السيطرة على هذه القوة البحرية العمانية او تقليل نشاطها في منطقة النفوذ الكبيرة سواء في الخليج أو في منطقة المحيط الهندي. وفي نهاية هذه الورقة خرجنا بمجموعة من النتائج نذكر أبرزها في التالي:

1- كان التفوق العسكري البحري العماني ظاهرا بصورة واضحة على امتداد ساحل الخليج والمحيط الهندي، خاصة تلك المتعلقة بالسواحل الفارسية على امتدادها من البصرة حتى منطقة بلوشستان وما جاورها حتى جوارر.

- 2- استمر نفوذ العمانيين في ساحل مكران عامة وفي جوادر وشهباز لأكثر من سبعين عاما، بداية منذ 1783م، مع دخولها ضمن حيازات السيد سلطان بن أحمد.
- 3- الرؤية الاستراتيجية والطموح السياسي الكبير للسيد سلطان بن أحمد كان دافعا لامتداد النفوذ العماني على الساحل الجنوبي من بلاد فارس من جوادر غربا حتى بندر عباس، ضامًا في ذلك عددا من جزر الخليج المهمة مثل قشم وخرج ومحاولاته للسيطرة على البحرين كذلك.
- 4- ظلت جوادر طوال تاريخ دولة البوسعيد بمثابة محل هجرة أو محل إقامة في كل مرة تسوء فيها الأحوال السياسية في عمان.
- 5- كان دخل موانئ الفارسية كبيرا فأمد خزانة الدولة العمانية بدخل كبير ساهم في تطويرها، وكان واضحا ذلك من تطور العمران والأموال التي صرفت على طلبه العلم وعلى العمران وغيرها من نواحي الحياة.
- 6- وقعت عمان اتفاقتين مع حكومتين مختلفتين في بلاد فارس حول تأجير بندر عباس وذلك بعد أن كان السيد سلطان بن أحمد أخضع الميناء لسلطته دون اتفاقيات.
- 7- الاتفاقية الأولى كانت عام 1856م والثانية عام 1868م، ولم تختلف بنودهما كثيرا، بل أكدت كل منهما على سيادة الدولة الفارسية على الميناء، سياسيا واقتصاديا، وتم رفع الأيجار من 16 ألف تومان ل 30 ألف تومان، دون وجود بنود واضحة لصالح الحكومة العمانية.
- 8- ظلت طهران تفرض سيطرتها السيادية على ميناء بندر عباس، فالاتفاقيتان أكدتتا على عدم قيام والي سلطان مسقط بأي تغيير في المدينة أو المساس بمبانها أو مواطنها. وفرضت تقديم العون السياسي والعسكري من قبل الوالي لأي أمر تطلبه طهران.
- 9- عكست اتفاقيتا بندر عباس خضوع والي سلطان مسقط للدولة الفارسية، اذ وجدنا ذلك المذكورا وعلى استحياء في أحد بنود الاتفاقية.
- 10- لم نجد أي تحليل للسبب الذي دفع السيد سالم بن ثويني لتجديد اتفاقية بندر عباس، سوى أنه كان حاميا للثغور الفارسية من جهة هرمز، ولعل البريطانيين لعبوا دورا في ذلك نتيجة تقسيم الإمبراطورية العمانية، فأردوا إنهاء النفوذ السياسي والعسكري العماني في مياه الخليج.

المصادر والمراجع:

- 1- يعتبر الحاكم الاكثر شعبية في تاريخ بلوشستان، حيث استطاع انشاء جهاز مركزي بيروقراطي غطى جميع مساحة بلوشستان ، وأسس تنظيم الشؤون المدنية والعسكرية للخانية البلوشية، وكان لديه وزير يشبه رئيس الوزراء اليوم، وله عملته النقدية الخاصة؛ للمزيد أنظر: بريسك، تاج محمد. القومية البلوشية أصولها وتطورها. ترجمة وتعليق أحمد يعقوب. دار الانتشار العربي، بيروت: 2013م، ص ص 181-182.
- 2 - <http://www.omvo.org/o/s.php?s=102> ، العلاقات العمانية الفارسية في عهد دولة اليعاربة، 2017/10/12م؛ السعدون، خالد. مختصر التاريخ السياسي للخليج العربي: منذ أقدم حضاراته حتى سنة 1971م. جداول للنشر والتوزيع، الكويت: 2012م، ص ص 207 – 208.
- 3- لمزيد من تفاصيل توليه السلطة في عمان راجع: ابن رزيق، حميد بن محمد(ت:1274هـ/). السيرة الجليّة سعد السُّعود البوسعيديّة؛ تحقيق و دراسة عبدالرحمن بن سليمان السالمي. وزارة التراث والثقافة، مسقط: 2007م، ص ص 209-241.
- 4 - ويلسون، سير أرنولد تي. الخليج العربي من العصور الاولى حتى بداية القرن العشرين، الدار العربية للموسوعات، بيروت: 2012، ص 326.
- 5 - هو السيد سيف بن علي بن محمد البوسعيدي، تم تعيينه واليا في دواير وقاندا للحملة التي ضمت شاهبار لسلطة السيد بعد ذلك، وكان السيد سيف ممن حضر اجتماع بركاء عام 11803م/ 1218هـ، ضد الهجوم السعودي على عمان. وشكل ذراع أيمن للسيد سلطان في كثير من الامور؛ أنظر: ابن رزيق، حميد بن محمد(ت:1291هـ/1874م). الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيديين. تحقيق عبدالمنعم عامر ومحمد مرسي عبدالله. ط5. ج1. وزارة التراث والثقافة. مسقط: 2001م، ص ص 384-385.
- 6 - هو ناصر خان الاول حاكم كلات ، الاخ الصغير للزعيم البراهوي، مهبط خان، وخليفته. حكم بين عامي 1750 و 1793م وكان تابعا لافغانستان ، ثم بدأ بشن سلسلة من الغزوات داخل اراضي الجشكيين، في حين كان مهبط خان تابعا لبلاد فارس، وفي النهاية حوالي 1778م استطاع أن يستولي على نصف مداخيل تلك الاقاليم الا ان ادارتها ظلت على ايدي الجشكيين (لوريمر، مج 3، ص 59). البراهويون احدى اوائل قبائل البلوش التي استوطنت ساحل مكران، ولا تعرف اصولهم الاثنية من اين، وتعددت الروايات حول ذلك ؛ أنظر: بريسك، المرجع السابق، ص 159.
- 7 - تعرف في تاريخ بلوشستان باسم خانبة بلوشستان، وخانية هي كلمة من أصل تركي-مغولي نشأت لوصف كيان سياسي يحكمه خان، وتعادل المشيخة القبلية او المملكة او الامارة ، والخانية عند البلوش نظام ملكي مشروط، اعلى سلطخ به هو الخان أي الملك، ويتم تعيينه بالوراثة باتفاق أهل الحل والعقد على تنصيبه ؛ أنظر: بريسك، المرجع السابق، ص 179.

- 8 - Records Of Oman,vol5,p605 ؛ لوريمر، جون جوردون. السجل التاريخي للخليج وعمان وأواسط الجزيرة العربية: القسم التاريخي. ترجمة جامعة السلطان قابوس. مج3. دار غارنت، لندن: 1995م، ص 59 ؛ يرى لوريمر أن خان جوادر لاسباب سياسية ربما تراجع عن مساعدة السيد سلطان فأعطاه جوادر هدية ليستقر فيها.
- 9- لوريمر، مج3، ص 59
- 10 - يعتبر نصير او ناصر خان أقوى حكام ساحل مكران، اذ ما لبثت القبائل ان تفرقت بعد وفاته مما سهل على سلاطين مسقط بسط نفوذهم على الساحل.
- 11- البلوشي، فاطمه بنت سالم. العلاقات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والخارجية بين عمان وساحل بلوشستان 1206هـ/1792م -1332هـ/1913م. رسالة ماجستير غير منشورة. جامعة السلطان قابوس، السيب: 2012م، ص31
- 12- يقال ان كامل المبلغ 7الاف، وان 3 الاف هي حصة السيد الشخصية.
- 13- لوريمر، القسم التاريخي، مج3، ص 60
- 14 - نفسه، ص 59
- 15 - Records Of Oman, vol5, p606.
- 16 - Record Of Oman,vol5,p609
- 17 - لاندون، المرجع السابق، ص ص 435 – 436.
- 18 - Records Of Oman, vol5, p610.
- 19 - Records of Oman, vol5, p610
- 20 - IBID,P611
- 21- لتفاصيل اكثر انظر: السعدون، خالد. أوراق عن تاريخ الخليج العربي. جداول للنشر والتوزيع، الكويت: 2011م، ص ص 14 – 36.
- 22- لوريمر، مج3، ص 64
- 23- لوريمر، مج3، ص 61.
- 24- لوريمر، ج 1، مج2، ص 159؛ بيت فاضل، سعاد بنت عبدالله. التنافس السياسي والصراع الداخلي في عمان خلال الفترة 1856-1868م والمواقف الخارجية منه. رسالة ماجستير غير منشورة. جامعة السلطان قابوس، السيب: 2015، ، ص ص 17 – 18.
- 25- البلوشي، المرجع السابق، ص 34
- 26 - بيت فاضل، المرجع السابق ص 19-20.

- 27- في records of oman, vol5 يرى ان جوادر دخلت في السيطرة العمانية منذ العم 1734م حتى عام 1985م) ص605) اتخذها السيد سلطان قاعدة لمحاولاته السيطرة على عمان (605) منذ عام 1792م حتى 1861م حاول خانات كلات السيطرة على جوادر واستعادتها من البوسعيد حكام عام (ص 606)
- 28 - الحجري، سالم بن مبارك. علاقات عمان الخارجية في عهد السيد سلطان بن أحمد (1206هـ/1792م - 1219هـ/1804م. رسالة ماجستير غير منشورة. جامعة السلطان قابوس، السيب: 2006م، ص 48 - 49.
- 29- الحجري، المرجع السابق، ص41.
- 30- لمزيد من التفاصيل أنظر: لوريمر، مج7، ص 292-293.
- 31- لوريمر، مج7، ص280
- 32- نفسه، ص 238 - 297.
- 33- الفارسي، عبدالله بن صالح. البوسعيديون حكام زنجبار. ط4. وزارة التراث والثقافة، مسقط: 2005م، ص 12.
- 34- بيت فاضل، المرجع السابق، ص19.
- 35 - نفسه، ص19
- 36 - نفسه، ص 20.
- 37 - البلوشي، المرجع السابق، ص41، نقلا عن bailey, vol v , p623
- 38- لاندن، روبرت جبران. عمان منذ 1856م مسيرا ومصيرا. ط6. وزارة التراث والثقافة، مسقط: 2016م، ص435
- 39- لمزيد من التفاصيل راجع: لوريمر، مج8، ص235
- 40- علي، كاظم باقر. البحرية الفارسية في الخليج العربي: دراسة لواقعها لبحري 1848-1907م. جامعة البصرة، البصرة: 1984م، ص ص 34 - 53.
- 41 - هي جزيرة في الخليج على بعد عشرين ميل جنوب شرق ميناء بندر عباس، وتقترب إلى حد ما من المدخل البحري الى ذلك المكان من الجنوب بين قشم وهرمز؛ لوريمر، القسم الجغرافي، ج4، ص1354.
- 42- علي، المرجع السابق، ص ص 67-68؛ ميناب من المناطق المهمة المحاذية لميناء بندر عباس من جهة الشرق، بحوالي 50 ميلا والى الجنوب الغربي منها تقع قرية شميل بحوالي 28 ميل؛ لوريمر، المرجع السابق، القسم الجغرافي، ج4، ص 1553.
- 43- يرد ذكر هذه القبيلة باسم (الزند)، حيث تصف كريم خان بعض المصادر والمراجع باسم كريم خان الزند، أنظر: نورس، علائ الدين. السياسة الإيرانية في الخليج العربي إبان حكم كريم خان الزند 1757-1779م. معهد البحوث والدراسات العربية، بغداد: 1982م؛ الجاف، حسن كريم. موسوعة تاريخ إيران

- السياسي من بداية الدولة الصفوية إلى نهاية الدولة القاجارية. ج3. الدار العربية للموسوعات، بيروت: 2008م، ص 135.
- 44 - اعتمدنا في هذا البحث على نص الاتفاقية الواردة في كتاب Arabian Treaties: 1600-1960.vol3 :Oman ,Yemen.Archive Editions,Oxford:1992,pp97-99. وهناك نسخة أخرى في صفحة 102 كذلك تشير لهذه الشروط بصورة أكثر تفصيلا . كما ان كيلى في كتابه بريطانيا والخليج نقل بنود الاتفاقية من كتاب الوكيل السياسي بادجر والتي كتبها اختصارا للبنود وليست هي الاتفاقية الاصلية في كتابه Imams and Sayyids Of Oman .
- 4545 - الهاشمي، سعيد بن محمد.اتفاقية عام 1856م بين عمان وايران: أسبابها ونتائجها. مجلة الدراسات الدبلوماسية: العدد السابع عشر 2002م. معهد الدراسات الدبلوماسية، الرياض:2002م، ص 197.
- 46- لعل هؤلاء الموظفين هم من الجيش الفارسي او يتبعون الديوان الملكي.
- 47- تنذكر المصادر ان السيد سعيد بن سلطان كان يفرض بين 3.5% و 5% رسوما قبل هذه الاتفاقية فارس، علي عبدالله، العلاقات العمانية الفارسية في عهد دولة آل بوسعيد1154هـ1288هـ / 1741-1871م. ص136. في نص اخر للاتفاقية كر التاجر الهندي بانه من البانيين،
- 48- الهاشمي، المرجع السابق، ص ص 205- 206.
- 49- تنذكر المصادر ان السيد سعيد بن سلطان كان يفرض بين 3.5% و 5% رسوما قبل هذه الاتفاقية فارس، علي عبدالله، العلاقاتالعمانية الفارسية في عهد دولة آل بوسعيد1154هـ1288هـ / 1741-1871م. ص136. في نص اخر للاتفاقية كر التاجر الهندي بانه من البانيين،
- 50- لوريمر ، المرجع السابق، القسم الجغرافي، ج1، ص ص 12- 15.
- 51- الهاشمي ، المرجع السابق، ص195.

الكاتب: عبد القادر عزام عوادي
 قسم العلوم الإنسانية- كلية العلوم
 الاجتماعية والإنسانية- جامعة الوادي
 عنوان المقال: دور الحاج يحيى بن
 حمو الواهج في خدمة الطلبة الميزابيين في
 تونس وعلاقته بالثورة الجزائرية .

البريد الإلكتروني: aouadi-abdelkaderazem@univ-eloued.dz

تاريخ الإرسال: 2020/03/03 تاريخ القبول: 2020/03/16 تاريخ النشر: 2020/03/31

دور الحاج يحيى بن حمو الواهج في خدمة الطلبة الميزابيين في تونس وعلاقته بالثورة
 The role of Haj Yahya Bin Hamo louadj in serving the Mozabite students
 in Tunisia and his relationship with the Algerian revolution

الملخص بالعربية:

ساهمت الكثير من الشخصيات الجزائرية في خدمة المجتمع الجزائري في عدة مجالات وجوانب، ومن هذه الشخصيات من وجد اهتماما من طرف الباحثين والمؤرخين، ومنها من لقي النسيان والتهميش في جانبهم، ربما لظروف تاريخية، أو اجتماعية، أو يرجع للشخصية في حد ذاتها التي قد تكون تعمل في صمت ومن دون لفت انتباه، ومنها شخصية الحاج يحيى بن حمو الواهج، الذي كان شخصية محورية بامتياز في العمل الخيري والثقافي والاجتماعي، وبعد ذلك في العمل الثوري والنضالي لصالح الثورة التحريرية المباركة.

الكلمات المفتاحية:

يحيى الواهج، واد مزاب، تونس، الجزائر، البعثة البيوضة، الثورة الجزائرية، إبراهيم بيوض.

Abstract :

Many Algerian personalities have contributed to serving the Algerian society in many fields and aspects, and among these figures are those who have found interest on the part of researchers and historians, including those who have been forgotten and marginalized on their side, perhaps due to historical or social circumstances, or due to the personality in itself that may be working in silence and without drawing attention, including the figure of Haj Yahya bin Hamo Al-Wahej, who was a pivotal figure with distinction in charitable, cultural and social work,

and then in revolutionary and militant work for the benefit of the blessed liberation revolution.

Keywords:

Yahiya louahdj, oued m'zab, Tunisia, algeria, algérien révolution, Ibrahim bayoudh

المقدمة

ان الحديث عن الشخصيات الغير معروفة والغير مدروسة، صعبة جدا من حيث تناول العلمي والأكاديمي، وخاصة اذا كانت هذه الشخصية متوفية ومن عاصروها أيضا رحلوا عن هذه الدنيا الفانية، والصعوبة الأخرى في كل هذا أن هذه الشخصيات قامت بأعمال جليلة ولكنها للأسف لم تؤرخ ولم توثق نظرا لطبيعة أعمالهم وأيضا لمدى اخلاصهم وصدقهم في تلك الأعمال وعدم البوح بها والتصريح بها واعتبارها أعمالا بينهم وبين الخالق فقط. وهنا يقف الباحث محتارا أمام صعوبة المهمة في التعريف بأعلام الرجال في فترات تاريخية متعددة وبين قلة المادة المتوفرة.

والشخصية التي نحن بصدد الكتابة عنها قامت بالكثير من المجهودات والتضحيات الوطنية في زمن كانت فيه الوطنية جريمة.

هناك بعض المراجع التي أشارت لبعض أعمال ونشاطات الشيخ يحيى بن حمو الواهج، سواء من حيث أعماله الخيرية تجاه الطلبة الميزابيين في تونس، أو نشاطاته ضمن الثورة التحريرية وخاصة في عملية نقل البريد وربط الاتصال بين الداخل والخارج.

ومن المصادر المتوفرة لدينا أيضا هي بعض المراسلات التي كانت بين الشيخ يحيى بن حمو الواهج وصديقه الشاعر والكاتب الشهير صالح خرفي، واستقينا منها بعض المعلومات الهامة، وسنحاول من خلال هذا المقال التعريف بشخصية يحيى بن حمو الواهج، ثم التركيز على أهم الأنشطة والأعمال التي قدمها الشيخ سواء للبعثة الطلابية في تونس، أو للثورة التحريرية.

التساؤلات:

كيف كان تواجد الشيخ يحيى الواهج في العاصمة التونسية؟ استقرارا دائما؟ أم كان متنقلا بين الجزائر وتونس؟ وما طبيعة التجارة التي كان يقوم بها؟ وفي أي مكان بالضبط كان مستقرا؟ ومكان دكانه؟

ما علاقته مع الطلبة المزابيين؟ وما الخدمات التي قدمها لهم؟ كيف كان يتواصل مع المزابيين في مزاب؟ وما هي أهم الوظائف التي أوكلت له في تلك المرحلة؟ كيف بدأت علاقة الشيخ مع الثورة التحريرية؟ من هي الشخصية التي عرفته وأدخلته في النظام؟ ماهي الشخصيات الثورية التي كان يتواصل معها؟ ما طبيعة العمل الذي كان يقوم به؟

هذه جملة من التساؤلات التي نطرحها حول شخصية الشيخ يحيى بن حمو الواهج، والتي سنحاول الإجابة عنها من خلال التعمق في بعض المصادر والمراجع التي تطرقت لهذا الموضوع أو من المراسلات الموجودة أو من بعض اللقاءات التي قمنا بها مع عينة من الطلبة المزابيين خلال قيامنا بإنجاز دراستنا حول موضوع هجرة سكان بني مزاب الى تونس، وأيضا من بعض المعلومات التي استقينها من ابنه الفاضل الأستاذ يوسف الواهج حفظه الله. ربما قبل الخوض في الحديث عن التعريف بالشيخ يحيى الواهج أود أن أنوه إلى عنصر مهم، وهو التواجد المزابي في الحاضرة التونسية خلال الفترة الاستعمارية، وكما هو معلوم أن تونس كانت قبلة للجزائريين بصفة عامة بعد احتلال الجزائر، واعتبروها كملجأ وملاذ آمن لهم، وكان من بين أبرز الفئات السكانية التي لجأت الى تونس فئة المزابيين لعدة اعتبارات.

الحضور المزابي في البلاد التونسية خلال الفترة الاستعمارية:

الحديث عن الحضور والوجود المزابي في الحاضرة التونسية خلال الفترة الاستعمارية 1881-1956، لا يمكن حصره في بضع أسطر، ولكن سأحاول تقديم مقتطفات عامة تساعد في فهم تبسيط أهم عناصر هذا المقال حتى يتسنى للقارئ الكريم الإحاطة ولو بعموميات الموضوع المطروح.

يعد الشيخ أبي زكريا يحيى الأفضلي¹ من العلماء البارزين الذين شهدتهم منطقة وادي مزاب، نظرا للعمل الجبار الذي قام به تجاه منطقتهم، ولقد تزعم حركة إصلاحية شاملة واعتبر بحق أول باعث للإصلاح في وادي مزاب، ولقد كان للشيخ أيضاً دور بارز في ربط علاقات التواصل العلمي والروحي بين وادي مزاب وجزيرة جربة، خلال القرن الثامن عشر للميلاد.

تلقى الشيخ الأفضلي مبادئ العلوم الأولى في مسقط رأسه ببني يزقن، ولكنه كان يطمح إلى ما أكثر من ذلك وشغوقا للحصول على منابع متعددة ليغترف منها العلوم والمعارف²، وعندما رأى أن منطقة مزاب لم تعد تكفي غرضه في طلب العلم، وأيضا أحس الشيخ الأفضلي أن

وطنه مزاب بدأ يدركه الجهل عزم أن يكون عالماً مصلحاً لينقذ وطنه مما هو فيه، لهذا فكر الشيخ في الرحلة نحو جزيرة جربة التونسية.

فكانت جزيرة جربة في تلك الفترة تتمتع بالعلماء المخلصين الكثيرين، ومما شجع الشيخ أيضاً للتوجه نحو جزيرة جربة هو وجود العديد من إخوانه الذين يكفلونه بأموالهم وبالأوقاف الكثيرة التي أوقفت لأمثاله من طلبة العلم، وبالفعل هاجر الشيخ إلى جزيرة جربة.

وقد أخذ الشيخ الأفضلي العلم على العديد من علماء جربة، ولكنه تأثر بشيخه يوسف بن محمد المصعبي المليكي الذي كان يعد شيخ جربة وزعيمها، لهذا أعجب به الشيخ كثيراً وجعله قدوته ومثله الأعلى، وقام الشيخ المصعبي أيضاً بتقريبه والإعتناء به، من أجل إحياء وطنه مزاب الذي يعد موطن الشيخ المصعبي أيضاً³.

مكث الشيخ الأفضلي في جربة ما يقارب اثني عشرة سنة طالباً للعلم، فجمع الشيخ الأفضلي عديد العلوم والمعارف من جربة والأزهر بمصر، وعاد إلى موطنه يحمل زادا علمياً وفكرياً، وهما كبيراً من أجل إصلاح المجتمع الميزابي والرقى به، وبعث الحركة العلمية والثقافية الراكدة في المنطقة.

فبذل جهوداً في دروسه ووعظه لإرشاد الناس إلى صالح الأفعال، وبالفعل نجح الشيخ الأفضلي في تكوين نخبة من الطلبة النجباء في الذين تحملوا عبء المسؤولية من أجل مواصلة مسيرة الإصلاح⁴.

هكذا كانت العلاقات التاريخية المشتركة بين منطقة مزاب وتونس وخاصة منها جزيرة جربة، والتي ميزتها العلاقات المذهبية بالدرجة الأولى بحكم أن كلا سكان المنطقتين يتمسكون بالمذهب الإباضي، وأيضاً المميزات اللغوية بحكم أيضاً أن أصحاب المنطقتين يتحدثون اللغة الميزابية الأمازيغية، والإرث التاريخي والحضاري المشترك كل هذه العوامل كانت مساعدة وبشكل كبير في تكوين علاقات ثنائية مميزة، غلب عليها الطابع الثقافي والديني بالدرجة الأولى ثم الطابع الاجتماعي والاقتصادي بالدرجة الثانية.

وأما في الفترة المعاصرة أو الفترة التي نحن في سياق البحث فيها، فلقد تميزت بظهور ما يسمى بالبعثات العلمية الطلابية نحو تونس، ونستطيع القول أن العامل المباشر في ظهور أول بعثة لإباضية الجزائر في تونس هو ما وقع للمدرسة الصديقية العصرية بتبسة، بعد وأدها في مهدها بطريقة مقبته، فكان رد فعل أولياء التلاميذ هو التفكير الجدي والعزم الأكيد على

تحدي هذه الخطوة الاستعمارية بإرسال أبنائهم إلى تونس لاستكمال دراستهم في مدارسها العربية العصرية المماثلة للمدرسة الصديقية، التي أرادت السلطات الاستعمارية أن تحرم أبناءهم من الدراسة والتعلم فيها.

وقبل هذه البعثة بسنة واحدة كان الشيخ إبراهيم أبي اليقظان⁵ متواجدا هناك، وكانت فكرة الخروج من وادي مزاب تراوده منذ فترة حينما طرحها على زملائه من الطلبة في سنة 1912م، وهم يدرسون في حلقة شيوخهم الحاج عمر بن يحيى، ولكن لم يوفق في إقناع رفاقه، فقدر الله وأن مرض من عينيه فكان السبب المباشر للسفر نحو تونس بحثا عن العلاج وكان ذلك في سنة 1913م، وما إن نزل هناك حتى التحق بجامع الزيتونة وواظب على حضور حلقات كبار المشايخ هناك، وهنا تواصل أولياء تلاميذ المدرسة الصديقية مع الشيخ أبي اليقظان من أجل التولي والإشراف على هؤلاء الطلبة ومتابعة دراستهم فهم لا يزالون في مرحلة دراستهم الابتدائية وبحاجة إلى الرعاية والمراقبة، فوافق الشيخ أبو اليقظان على هذا المشروع مباشرة وتشجع لفكرة، ورأى أن حلمه الماضي بدأ في التحقق⁶.

وضمت البعثة في أول الأمر حوالي أربعة عشرة طالب فمن المدرسة الصديقية نجد: دحمان بن الحاج بكير المرموري، وحمو عيسى المرموري، وسعيد بن الحاج إبراهيم المرموري ومحمد بن مسعود المرموري وبسوف بن الحاج بكير المرموري، ثم انضم إليهم طلبة جدد ميزابيون كانوا متواجدين في تونس وهم بوهون بن قاسم الزيتون وأخوه بكير ومحمد بن عمر بوعصبانة ويحيى بن الحاج يوسف مزوز وإبراهيم بن حمو بغباغة وأخوه أحمد ويحيى بورورو من غرداية ومحمد بن إبراهيم المفتون من بني يزقن ومحمد بن الحاج عمر العنق⁷.

ويمكن أيضاً أن نشير إلى الدور البارز الذي لعبه عبد الحميد بن باديس من خلال رحلته باتجاه جامع الزيتونة سنة 1908م، حيث كانت هذه الرحلة هي الجسر الذي عبرت عليه جل البعثات العلمية التي تابعت على تونس بعد هذه الرحلة⁸، ولعل فكرة البعثات العلمية الميزابية التي كان يحلم بها الشيخ أبو اليقظان تولدت لديه من خلال ما كان يتابعه من أحداث حول جامع الزيتونة وما يشهده من نهضة فكرية وعلمية هناك.

وإن لجامع الزيتونة المعمور دور كبير في استقطاب الطلبة الجزائريين إلى تونس نظرا للمكانة العلمية المرموقة التي يحتلها في نفوسهم⁹، وكان طلاب العلم من الجزائريين يرون في طلب العلم من الزيتونة واجبا لا بد منه، كما يمثل ضرورة فرضتها ظروف الاحتلال، وأيضاً من

العوامل التي جعلت الطلبة يستقرون في رحلتهم العلمية بتونس تحديداً في رحاب جامع الزيتونة، طبيعة البرامج والمناهج المدرسة والمعتمدة في الجامع، وهي البرامج والمناهج التي استقرت بعد سلسلة من الإصلاحات التي نادى بها الطلبة كما نادى بها شيوخهم، فضلاً عن وزن شيوخ الجامع وكفاءتهم الكبيرة¹⁰.

تعد الأمة الميزابية أمة تمتاز بالنشاط التجاري بشكل مميز وكبير، لهذا فلقد كانت الهجرة العمالية موجودة وبكثرة في أوساط الشباب الميزابي، حتى أننا نجد في التشريعات الخاصة بهيئة العزابة، أن المرأة تشتترط على زوجها قبل عقد القران، عند الغياب عنها لمدة زمنية لا تتجاوز الستين¹¹، وهو ما يدل على انتشار ظاهرة غياب الرجل عن المنطقة لفترات طويلة، وهذا مرده للعمل الذي يكون خارج المنطقة وخاصة في مدن الشمال الجزائري.

ونجد أن الميزابيين كان لهم أيضاً نشاط عمالي مميز في تونس خاصة فيما يخص التكفل بالحمامات وهذا النشاط ليس بالجديد عليهم، فلقد كانوا منذ الدخول العثماني للجزائر يمتنون هذه المهنة، بل وتزعموها أيضاً في الفترة العثمانية¹².

أما في تونس فكانت لهم مكانة مرموقة أيضاً، فنجد على سبيل المثال أنه في عهد الباي التونسي علي باشا (1742-1743م)، كان هناك شخص يدعى "بكير"، حيث كان المكلف بالإشراف على حمامات الباي، ويلقب بـ "معلم حمامجي"، وهذا الاسم يدل على أنه ميزابي.

فباستثناء أقلية ليست ذات أهمية تذكر. كانت تتعاطى الفلاحة، فإن الأغلبية من الميزابيين كانت إما تشتغل بالتجارة كتجارة الأقمشة وخاصة تجارة الفحم، أو تشتغل بقطاع الحمامات إلى حد اعتبار أن الميزابية كانوا محتكرين لقطاع الفحم والحمامات بتونس¹³.

وكانت الهجرة العمالية لبني مزاب مصدرها مهما من مصادر تعمير الوادي – وادي ميزاب- من خلال ما كانوا يقومون به من مجهودات في كل المجالات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، ومساعدة الطلبة الميزابيين الذين يأتون للدراسة سواء في الزيتونة أو المدن الشمالية، ومن أبرز الأمثلة أيضاً ما ذكرناه سابقاً حول تبرع الميزابيين بدار مجهزة لصالح المدرسة الصديقية، لهذا نستطيع القول أن الهجرة العمالية كانت من الأسباب التي ساعدت على نمو وازدهار الهجرات والبعثات العلمية إلى تونس.

أ – أماكن تواجد الميزابيين بتونس

كان عدد الجزائريين في تزايد مستمر، كما كانت بعض المناطق تستقطب المهاجرين بنسبة تزيد عن (71%) من مجموع المهاجرين الجزائريين وهي كل من مدينة تونس وضواحيها، والكاف وتبرسق وبزرت، استقر بهم حوالي (29140) جزائري من المجموع الكلي لإحصاء 1936م، البالغ عددهم (40816)، واستقطبت مدينة تونس لوحدها أكثر من (27%) من مجموع المهاجرين لسنة 1936م.

وهناك مناطق احتلت المرتبة الثانية من حيث استقطاب المهاجرين ما بين (1000) و(2500) مهاجر وهي كل من توزر وسوق الأربعاء ومكثر وتالة وبها حوالي (6260) مهاجر جزائري بنسبة (15.33%) من مجموع الجزائريين الواردة في تعداد 1936م.

وأما المناطق التي انتشر في الجزائريون بنسب أقل من (1000) نسمة حسب إحصاءات 1936م فهي تتركز في الجهات الجنوبية الوسطى التي لا تتوفر بها فرص العمل، وهي تعتبر مناطق طاردة للسكان حتى بالنسبة للتونسيين¹⁴.

وتعد الفئة الميزابية المهاجرة إلى البلاد التونسية من أهم الفئات التي استقرت هناك، وذلك راجع إلى العلاقات التاريخية التي تربط المنطقتين خاصة ما يخص جزيرة جربة، إذ نجد أن نسبة الميزابيين بتونس كانت 19.5% من مجموع الجزائريين المتواجدين هناك بالنسبة لإحصاء سنة 1921م، وتعتبر هذه النسبة مهمة جدا إذا علمنا أن نسبتهم في الجزائر هي 0.5%، يتركز 66.5% منهم في جزيرة جربة¹⁵.

ولقد كان هناك تطور في تعداد الميزابيين بتونس عبر مختلف السنوات، وكان تطور هذا التعداد راجع لظروف الهجرة، وعواملها من منطقة وادي ميزاب، أو الأوضاع في تونس.

السنة	العدد
1921	395
1926	205
1939	765

تطور تعداد المهاجرين بتونس خلال 1921-1936¹⁶

هذه لمحة عامة عن الحضور المزابي في الحاضرة التونسية خلال الفترة الاستعمارية، وأهم أطوارها التاريخية، وأماكن استقرارها في تونس.

التعريف بالحاج يحيى بن حمو الواهج:

أ – نسبه:

يحيى بن حمّو بن عيسى بن يحيى بن عيسى بن صالح بن عيسى بن حمّو بن زكري بن داود بن عيسى بن محمّد بن عيسى بن ينزار الباروني.

ب – مولده ونشأته:

ولد الطفل يحيى الواهج في حوالي سنة 1900م، بأحد قصور بلدة مزاب، وهو قصر غرداية، والده هو الشيخ حمو بن عيسى الواهج، وأمه القصي عائشة¹⁷. وكما ينشأ جل أبناء منطقة مزاب في مرحلتهم العمرية الأولى، على تعلم قراءة القرآن، واللغة العربية وغيرها من مبادئ التعليم، نشأ الطفل يحيى الواهج، في بلدته بريان، على يد الشيخ غرناوط أحمد بن يعقوب، والشيخ بفولولو الحاج أحمد بن الناصر وتعلم هناك بعض سور القرآن الكريم.

لم يكمل الشاب يحيى الواهج دراسته بانتظام وذلك بسبب مزاولته لمهنة التجارة منذ بداية شبابه، وربما هو الأمر الذي جعله فيما بعد يخدم اهل العلم والطلبة سواء في الجزائر أو في تونس.

ولكن بالرغم من كل ذلك أصر على التعلم خاصة لما وجد نفسه محتاجا للتعلم بسبب ظروف العمل، وجد نفسه وسط العمل أميا لا يستطيع كتابة اسم زبون أو عنوانه، أو قراءة وثيقة كالفاتورة مثلا أو التلغرام أو عند ذلك قرّر البحث عن مدرسة ليتعلّم فيها، فوجد بعد بحث مدرسة ليلية أوقاتها لا تتعارض مع مواقيت عمله، فانخرط فيها يتعلم مع أطفال صغار واصطبر أمام استهزائهم وضحكاتهم عليه، حتى وجد نفسه يستطيع الكتابة والقراءة بعد أحد عشر 11 شهرا¹⁸.

ج - رحلة البحث عن العمل:

عندما بلغ الصبي يحيى الواهج عمر 14 سنة، توفي والده الحاج حمو بن عيسى سنة 1914، فأصبحت العائلة في حاجة الى المعيل، ولقد كان الصبي يرافق أباه لخدمة الأرض والفلاحة، ولكنه توجه نحو مهنة محببة له، وهي التجارة، فقام أحد أفراد أسرته بتيسير السفر له نحو مدينة غليزان، حيث اشتغل في محل لبيع المواد الغذائية لمدة تزيد عن السنتين.

وسافر سنة 1917م من مدينة غليزان إلى مدينة العلمة حاليا (سانت أرنو) ليشغل عند أحد أبناء بلده غرداية، في متجر كبير يبيع كل شيء، وكانت له محبة لصاحب ذلك المحل الذي أخذ عنه الخبرة في ميدان التجارة.

وفي سنة 1920م، بدأت الحكومة الفرنسية ترسل إليه استدعاءات الخدمة الوطنية الواحدة تلو الأخرى، فلم يكن له بدٌ إلا الخروج من التراب الجزائري. ولكن إلى أين؟، وهو اليتيم الذي لا أهل له في أي مدينة أو بلد آخر غير مسقط رأسه.

ومع حلول سنة 1921م، بعد أن حاسبه مديره صاحب المتجر، خرج إلى محطة القطار ووقف في الطابور أمام شباك قطع التذاكر وهو لا يعلم إلى أين سيُتجه، فسمع الشخص الذي كان قبله في الطابور يطلب تذكرة إلى تونس، ففعل مثله وطلب هو الآخر تذكرة إلى تونس¹⁹.

وفي تونس اشتغل في بداية الأمر عند أحد التجار اليزجنيين القدماء بتونس، هو: عيسى الشيخ، (من عائلة مفدي زكرياء، والشيخ صالح السياسي المعروف في قيادة الحزب الدستوري بتونس)، أجيرا تسع سنين، ثم شريكا لأربع سنوات²⁰.

ليستقل بعد ذلك مفتتحا محلا خاصا به لبيع الأقمشة، وكان يقع في سوق الأقمشة المعروف بسوق الترك²¹، بتونس العاصمة بضواحي جامع الزيتونة، ولقد كان محل الحاج يحيى الواهج هو نفسه مقر سكناه، فجزء للمحل والجزء الخلفي للإقامة والسكن، ولقد كان محله كما يذكر أحد زواره " دكانه نظيف ومنظم ومرتب ترتيبا لا يضاهى، فعمي يحيى الواهج رجل مثالي مشهود له بالخفة والنظام والصرامة"²². وبقي في هذا المحل الذي شهد الكثير من الزيارات من طرف العديد من الشخصيات والطلبة وغيرهم، وكان أيضا محلا لاستقبال الرسائل والطرود التي تأتي من الجزائر نحو تونس والعكس.

وعلى عادة جميع الميزابيين لم يقم الحاج الواهج بجلب أسرته إلى تونس، لأن ذلك كان منافيا للمعتقدات والتعليمات الخاصة بالهينات العرفية المزابية، وترك زوجته وابناءه هناك في الجزائر، إلا في حالات معينة فقط كان يستقدم معه في بعض الأحيان ابناؤه من أجل التطلع عن مدينة تونس، وعن المحل والتجارة هناك.

وبعد فترة من العمل في تونس، عاد إلى الجزائر بعد الاستقلال سنة 1963م، فاشترى محلاً بالجزائر العاصمة بعدما باع محله بتونس، والمحل يقع في شارع: damrement (عبد المالك شرديب حاليا) الجزائر العاصمة، وعمل في مجال الأقمشة بالجملة، كما اشترى مسكنا في

شارع la lyre (بوزرينة أحمد حالياً)²³، وبعد طول عناء وتعب في ميدان التجارة وعدة ميادين أخرى سنتطرق إليها، عاد الشيخ يحي الواهج نحو بلدة بريان ليستقر بها الاستقرار النهائي والدائم وكان ذلك سنة 1973م، ليقى بين أهل بلدته وأصدقائه، وبين أهل بيته وأبنائه إلى وفاته في 4 اوت 1995م، عليه رحمة الله²⁴.

د- زواجه وأبنائه:

تزوج الحاج يحي بن حمو الواهج زيجتان فكانت زوجته الأولى مامة بنت اشقبقب (حيايو) أنجب منها ابنا وحيدا "محمد"، وأما زوجته الثانية موسلمال مئة بنت قاسم، أمها عائشة بنت داود كاسي وصالح، ولقد تزوج منها في 16 جوان 1946²⁵، أنجب من مئة ن كاسي 04 ذكور و03 بنات²⁶.

ولقد كان الزواج من أهم الأسباب التي جعلت الحاج يحي الواهج يستقر في بلدة بريان عوضا على بلدة مسقط رأسه غرداية، وذلك راجع تعرّفه على أحد الطلبة البريانيين بتونس في العشرينات من القرن الماضي ضمن بعثة الشيخ أبي اليقظان وهو صديق حميم لمفدي زكرياء، وهو المرحوم: عيسى بن إبراهيم عبود²⁷، فأحب هذا الأخير الواهج لنشاطه الكبير وحماسه واستقامته، فرغبه للزواج من بريان ووفّر له كل شيء يحقق له ذلك، رفقة رجل من عشيرة الشيخ الواهج فرع بريان، هو: السيد: دبوز سليمان بن باحمد²⁸؛ وهكذا استقرّ في بريان واستحسن المقام بها.

وكان (رحمه الله) شديد الحرص على تنشئة أبنائه نشأة صالحة، مبنية على الاستقامة الدينية والعقيدة الصحيحة والأخلاق الحميدة، وفق الأعراف والعادات والقيم الاجتماعية الإسلامية الراقية.

وبحكم غيابه في تونس، وأسفاره المتعدّدة بين الجزائر وتونس لتوزيع بضاعته على التجار في شمال الجزائر من عبّاية إلى منطقة وهران في الغرب الجزائري، كان يعرّج في كلّ مرّة نحو الجنوب إلى مزاب، ليتفقد أسرته، ويلتقي بالمشايخ والأعيان، ويحمل معه أمانات ووصايا طلبة البعثة العلمية في تونس وغيرها من الرسائل التي سوف نتحدث عنها لاحقا²⁹.

ومع ذلك، كلّف أحد أصدقائه الصالحين المخلصين، وهو معلّم القرآن الكريم بالمدرسة وعضو في هيئة العزابة، بمراقبة ومرافقة ورعاية أبنائه وبناته وكامل أسرته، فكان في مقام الوكيل الرسمي على الأبناء.

وكان شديد الحرص أن يعلم أبناءه كل صغيرة وكبيرة تنفعهم في الحياة بشكل عام، وكما يقول أبنة يوسف الواهج في حوارنا معه ما يلي " ... حتى الأكل باليمين ويضربنا عليها، وطريقة التسوق اليومي من السوق، وكيفية اغتنام الوقت وترتيب الأوليات وما إلى ذلك. أمّا ما يتعلّق بالدين والأخلاق والحلال والحرام فلا يتساهل فيه أبداً، أبداً."

أمّا عن تحريض الأبناء على طلب العلم، فكان حلمه الأوّل والأكبر أن يتفرّغوا لطلب العلم، فكان يشجّعهم (بنين وبنات على طلب العلم) ومن حينه للعلم وهب نفسه لحبّ وخدمة العلم وطلابه، وهو ما سنتحدث عنه في العنصر الموالي³⁰.

هـ - علاقات الشيخ الواهج مع أعيان مزاب وشخصيات جزائرية:

لقد كان للشيخ يحيى الواهج علاقات واسعة جدا، في كل قطر من أقطار الوطن تقريبا، وأيضا خارج الوطن خاصة في تونس ومصر وليبيا، وبحكم تجارته الواسعة كانت شبكة علاقاته الاجتماعية ممتدة، وأيضا عندما أصبح أبا للبعثات العلمية المزابية هناك، وأحد رجال ووجهاء البلدة الملتزمين بإصلاح المجتمع والنهضة في مزاب عامة وبريان خاصة، أكسبه ذلك علاقات كبيرة.

أما بالنسبة للمزابيين، كان يتعامل بكثرة مع أغلب الأعيان والوجهاء، خاصة المشايخ، كالشيخ أبي اليقظان، والشيخ بيوض، والشيخ عبد الرحمن بكلي³¹، الحاج أحمد أوراغ، والشيخ حمو فخار، والقائد الإصلاحي عمر بن سليمان بودي، وغيرهم كثير، وكلّ هؤلاء كانوا من زوّاره ونزلاته الدائمين في متجره ومسكنه بتونس، ثمّ بالجزائر بعد الاستقلال.

أمّا من غير المزابيين، فكان يتعامل كثيرا مع أعضاء الحكومة المؤقتة بتونس، وبعض المجاهدين من قادة الثورة على غرار رئيس الحكومة المؤقتة المجاهد يوسف بن خدة، والمجاهد الكبير عباس التركي، وبن طوبال، وهناك أسماء أخرى كثيرة خاصة بعد انخراطه في العمل الثوري كما سوف نرى لاحقا.

هذا إضافة إلى كبار الطلبة الذين تخرّجوا من معاهد تونس والجامعات المختلفة عبر العالم، مثل الدكتور صالح خرفي، ومحمّد لعساكر، وعبد الوهاب بكلي،... وغيرهم³².

دور الحاج يحيى بن حمو الواهج في دعم البعثات العلمية المزابية في تونس:

من خلال مطالعنا وقراءتنا لما بحوزتنا من وثائق ومراسلات، تبين لنا أن للحاج يحيى الواهج دور كبير واسهام بالغ في دعم البعثات العلمية، وكان له علاقة وطيدة مع هؤلاء

الطلبة، وتعددت تلك المساهمات في كثير من الجوانب، وأيضا من خلال المقابلات التي أجريناها مع بعض الطلبة يتضح مدى الحب والعاطفة التي يكنها هؤلاء الطلبة للحاج يحيى الواهج رحمه الله، الذي كان لهم بمثابة الأب والعين الحارسة لهم في تونس. وسنحاول من خلال ما تجمع لدينا من معلومات الإحاطة بتلك الجوانب المتعددة في دعم البعثات العلمية المزابية بتونس.

أ – تسفير الطلبة نحو تونس:

لقد كانت رحلة الطالب نحو تونس في تلك المرحلة التاريخية يكتسبها الكثير من المخاطر والظروف السيئة، وخاصة خلال الفترة التي نحن في صدد دراستها، وهي فترة الخمسينيات، حيث وبالأخص بعد اندلاع الثورة التونسية سنة 1952، وثورة التحرير الوطني سنة 1954، فلذلك رحلة الطالب أو البعثة العلمية بشكل عام تمر بمراحل وظروف صعبة وفي بعض الأحيان تكون الرحلات فاشلة أو تكون عبر عدة محاولات.

لذلك قام الحاج يحيى بن حمو الواهج بدور فعال في هذه العملية من خلال نقله لعدد كبير من الطلبة نحو العاصمة التونسية، وبحكم أنه كان تاجرا يتنقل بصفة مستمرة على الحدود الجزائرية التونسية وعبر نقاط التفتيش المعلومة، فلقد كان ذا وجه معلوم ومعروف لديهم، ولقد كانت حجة الشيخ في ادخال هؤلاء الأطفال مرة تحت حجة أنه ابنه، ومرة تحت حجة أنه أحد العمال الذين يشتغلون لديه في تونس، حتى أنه في أحد المرات سأله أحد رجال أمن الحدود: كم عندكم من الأبناء؟ وهو دلالة على العدد الكبير من الأطفال والشباب الذين ادخلهم الحاج يحيى لتونس تحت الحجج المذكورة، وهم لم يكونوا سوى طلبة متوجهين صوب المعاهد العلمية المعروفة في تونس، والانخراط ضمن البعثات العلمية هناك³³.

وربما القارئ الكريم لا يدرك حجم الخطورة التي قد تعترض مثل هذه العملية، خاصة في ظل ظروف استعمارية صعبة، وفي ظل رقابة عسكرية متشددة خاصة بعد اندلاع الثورة التحريرية، وغلق الحدود في ظل مشروع شال موريس المعروفة، لذلك لعب الحاج يحيى الواهج دورا كبيرا وعرض نفسه للخطر ولم يأبه لكل ما سوف ينجر وراء هذه العمليات لو تمت عملية مسألته وانكشاف أمره.

ب - الدعم المادي للبعثات العلمية المزابية بتونس:

لعبت البعثات العلمية المزابية نحو تونس دورا كبيرا وهاما في انعاش الحركة الثقافية والعلمية والاصلاحية في الجزائر عامة ومزاب خاصة، وكان لهؤلاء الطلبة اسهامات بالغة سواء في الحياة الثقافية والسياسية بتونس، أو في الجزائر، ولقد مرت البعثات العلمية بعدة مراحل بدءا بأول بعثة نحو تونس سنة 1917، بقيادة زعماء الإصلاح في مزاب من أمثال الشيوخ: أبو اليقظان، ابي إسحاق اطفيش، صالح بن يحيى، وغيرهم من العلماء، لتتوالى البعثات تترأ على حاضرة تونس، حتى وصول مرحلة ما يسمى بالبعثات البيوضية التي استمرت الى غاية الاستقلال.

وربما لو لم يكن وراء هذه البعثات العلمية، عدة أسباب للنجاح لما وصلت لتلك النتائج الهامة، ولعل من أبرز تلك العوامل والأسباب، وجود عدة شخصيات داعمة لهذا المشروع، سواء كان الدعم في شكل مادي، أو في صور معنوية، ولقد تعددت تلك الأشكال والصور، ولقد كان الشيخ يحيى الواهج من أبرز أولئك الرجال والشخصيات.

فمن خلال تواصلنا مع عديد الطلبة المزابيين، يتضح الدور الذي قام به الشيخ يحيى الواهج لصالح الطلبة في تونس، من خلال الدعم المادي، وهم يتذكرون كل تلك الجهود التي قام بها لصالحهم خاصة في الأوقات الصعبة.

ولقد تنوعت الحالة المادية لطلبة البعثة حسب ثراء أو فقر كل عائلة من عائلات الطلبة، ونجد أن العشيرة كانت تتكفل بالطلبة الذين لم يكن لديهم أموال تكفيهم من أجل الذهاب إلى تونس والدراسة هناك، ونجد أيضاً بعض الأثرياء من التجار الميزابيين كانوا يتكفلون بمجموعة من الطلبة³⁴.

فنجد على سبيل المثال السيد يحيى بن حمو الواهج، تحمل العديد من النفقات في مجال البعثات العلمية، وتكفل بنفقات الكثير من الطلبة الميزابيين أيام الأزمة الاقتصادية وانقطاع المدد عليهم، وكان رحمه الله على اتصال دائم مع أهالي الطلبة الميزابيين³⁵ في أوطانهم³⁶.

ففي رسالة قام بإرسالها الشيخ عبد الرحمن بن عمر بكلي إلى الشيخ العساكر الحاج حم، يخبره فيها عن تحمل الأعباء المالية لبعض الطلبة الميزابيين، والوقوف معهم مهما كلف الأمر، ويخص بالذكر فيها أيضاً الشيخ يحيى بن حمو الواهج في مساعدته للطلبة إذا احتاجوا إلى أي

شيء، ومما جاء في الرسالة «...، وبالفعل بحثنا المسألة على ضوء الحالة في القرارة وسير التعليم فيها فتقرر بعد دراسة ساعات مايبي:

1 أفراد البعثة كلهم يجب أن يستمروا في التعليم إلى أن يثمروا ولو أدى ذلك إلى أن يستجدي لهم استجداء، إذ من المحال أن نجد أفرادا من أبنائنا تتوفر فيهم شروط الاستعداد مثلما توفرت في هؤلاء.

2 أن يستقروا³⁷ أولا في المحل الذي يسكنه بالحاج بن عدون في العلي ريثما يوجد لهم الأخ الواهج محلا أليق.

3 أن يتولى الإشراف العام عليهم الأخ الواهج ويعينهم سيما إذا احتاجوا أمرا...»³⁸.

ومن خلال هذه الرسالة يتبين لنا مدى الاعتماد على الشيخ الواهج يحيى في التكفل بالطلبة ماديا، والاعتناء بهم في كل ما يخص ظروفهم ورعايتهم في شؤون المصاريف الخاصة بهم، وخاصة عند وقوع بعض الظروف الاقتصادية الصعبة.

ولقد كان الحاج الواهج يحيى إلى جانب كل هذه التكاليف سواء منها المادية أو المعنوية، مساهما بدرجة كبيرة في شراء دور للسكن الخاصة بطلبة البعثات العلمية، وهي المهمة التي قام بها على أحسن وجه، سواء من حيث الاستشارة أو من حيث الدعم المادي الذي كان يقدمه باستمرار³⁹.

وفي رسالة كان أرسلها الشيخ صالح الخرفي⁴⁰ عندما كان طالبا في القاهرة للشيخ الحاج الواهج في تونس يقول فيها: "... أمنية طالما تمنيناها فحمدنا الله اليوم على تحقيقها زدونا بهذه النصائح الغالية. وليكن سخاؤكم بها لا يقل عن سخائكم المادي. اننا في غربة وفي غربة قاسية بعيدين كل البعد عما يزيل صداً القلوب الا ما تتلقاه منكم الفينة تلو الأخرى فتعهدونا بذلك ولا تغفلوا عنا"⁴¹.

فيذكر هنا الشيخ صالح خرفي، بعد أن شكر الشيخ الواهج عن نصائحه للطلبة في القاهرة، طلب منه المساعدة المادية وأن يتذكرهم من سخائه وفيضه اللامتناهي، وذكره أنهم في القاهرة في غربة قاسية ولا يوجد ما يعينهم ويساعدهم ماديا الى تلك العطايا التي تصلهم من الحاج الواهج بين الفينة والأخرى.

وهي دلالة واضحة تمام الوضوح عن سخاء وعطاء الحاج الواهح لطلبة البعثة المزابية في تونس، وحتى الذين غادروا تونس ليلتحقوا بمعاهد علمية أخرى في الوطن العربي، كما فعل مع الشيخ صالح خرفي عندما غادر تونس نحو القاهرة.

ج – الدعم المعنوي لطلبة البعثات العلمية المزابية:

لم يكن للشيخ الواهح دور في الدعم المادي فقط، فلقد كان أيضا مرافقا للطلبة في مختلف مناحي حياتهم، وخاصة في الجانب النفسي والمعنوي، فكان يزورهم ويتسامر معهم، وإيسرهم على راحتهم وإزالة الشوق عنهم خاصة من هم في سن صغيرة، ويتجاذب معهم أطراف الحديث ليعرف همومهم ومشاكلهم خاصة لأولئك من في سن المراهقة والشباب.

ففي رسالة أرسلها الشيخ صالح خرفي للشيخ الواهح ذكر فيها ما يلي "... هذه هي رحلتي باختصار، ولي على الرحلة كلام كثير ليس هذا وقته، وسأخصص له رسالة مطولة أرسلها إلى البعثة لتسرد عليها، وعم الحاج في صدر الجلسة وكؤوس الشاي تدور"⁴².

وفي رسالة ثانية بعد الرسالة السابقة يقول فيها الشيخ صالح خرفي ما يلي "... أرجو أن تجمعكم رسالتي هذه في جلسة تغمرها الرحمة والسكينة، وأرجو أن لا يتخلف عنها أحد منكم لمرض، أو لوجع في فخذه، كما أرجو أن يتصدر جلستكم أبوكم الروحي السيد عم الحاج يحي الواهح وان لم يكن فأرجو له جلسة أمرح من جلستكم تحت ظلال آسيا"⁴³.

فمن خلال هذين الرسالتين يتضح لنا أن الشيخ الواهح يحي كان يجتمع مع طلبة البعثة في دار البعثة، ويتسامر معهم هناك، ويؤنسهم في وحشتهم وغربتهم، وكان كما ذكرت الرسالة يتصدر الجلسة والمجلس، وهذا كله لكي يعوض الطلبة على غياب أسرهم وذوئهم في تونس، وربما هذا الدور المعنوي كان له الأثر العميق في نفوس الطلبة ومعنوياتهم وهو الذي سيؤثر بطبيعة الحال على مسارهم العلمي والدراسي.

بالإضافة إلى المؤانسة والمسامرة، كان الشيخ الواهح يحي لا ينفك عن تقديم وتوجيه النصائح والتوجيهات لأبناء الطلبة في البعثة وهو ما تدل عليه أيضا رسائل الشيخ صالح التي كان يرسلها من القاهرة للحاج الواهح في تونس ومنها هذه الرسالة التي قال فيها: "... يا عم الحاج، يا أب البعثتين التونسية والمصرية. ان فضلك لا يغيب عن ذهننا ولا لحظة واحدة وسيكون الدافع القوي على العمل وبذل الجهود، وان نصائحك الغالية الخالدة تتمثل أمام

عيوننا في كل دقيقة وستكون هي المشعل الوضاء الذي نحمله في ظلام الغربة القاسية ولن يهديننا الا الى ما يرضي الله ورسوله"⁴⁵.

ولقد ذكر بعضا من تلك النصائح والتوجيهات التي كان يقدمها لهم الشيخ الواهج يحيى في رسالة أخرى فقال فيها "... إن نصائحك الغالية التي ودعتني بها لا تنسى، وهي دستورنا هنا في القاهرة نسير على ضوءها ونهتدي بهديها، وأنا اعتقد أن من استمسك بها فلن يخيبه الله ابدا. الصلاة جماعة والإخلاص في العمل وعدم الاشتغال بالسفاسف والتفرغ للعلم."⁴⁶

فهذه بعض من النصائح التي يقدمها الحاج يحيى الواهج لأبناءه الطلبة، وكلها كانت نصائح ايمانية وتربوية وأخلاقية، تدعو الى الحفاظ عن الصلاة في الجماعة خاصة، وهو الأمر الذي كان يشدد عنه مجلس العزابة في قصور مزاب السبعة، وقبل كل ذلك هو أمر رباني على كل مسلم، لذلك كان يشدد عليهم ويحرصهم على الحفاظ عن الصلاة في وقتها وفي جماعة، كما دعاهم الى صدق النية والإخلاص في العمل، وعدم الاشتغال بسفاسف الأمور كان ذكر، وهي نصيحة هامة للطلبة في تونس لكثرة الملهيات والمغريات في عاصمة مفتوحة على كل الأجناس في تلك المرحلة، خاصة منهم الاطراف الأوروبية، وأيضا مغريات الحياة الكثيرة سواء من لباس أو مأكّل أو مشرب أو لهو وغيرها من السفاسف كما سماها الشيخ، والتفرغ فقط للعلم وطلبه، والاهتمام بالدروس وحلقات المشايخ ورفوف المكاتب وغيرها ما ينفع الطلبة وينفع أهلهم وذوهم هناك في الجزائر عامة ومزاب خاصة.

وفي رسالة أخرى كانت في نفس السياق يقول فيها "... وقد كان للرسالة وما تحويه من نصائح أثر كبير في نفسي وفي نفس اخواني وقد سردناها جماعة وسردتها أنا أكثر من ثلاث مرات. وصايا انبعثت من قلب مخلف صاف نسأل الله أن تتلقاها قلوب مخلصه صافية. رسالة كلها عطف وحنان وابوة رقيقة. فلا فاض فو من أملى. ولا بترت يد من كتب"⁴⁷.

دور الحاج يحيى بن حمو الواهج في الثورة التحريرية:

إن المتتبع لسيرة الشيخ يحيى الواهج لا يمكن أبدا أن يجد هذا الشخص خارج دائرة دعم الثورة، وهذا الحكم عنده مبررات عدة.

أولا - أن شخصا بمكانته في الوعي والدعم الثقافي والعلمي للبعثات العلمية، التي كان المرجو منها محاربة الجهل والأمية في الجزائر ومزاب خاصة، لا يمكن أن يكون راضيا بالوضع في الجزائر وبالحالة الاستعمارية الموجودة في بلاده، وأن نفسه تتوق للحرية.

ثانياً – ان احتكاكه بشخصيات علمية مزابية كان لها دور في الوطنية والعمل النضالي مثل مفدي زكرياء والشيخ بيوض وإبراهيم غرافة من أبناء منطقتهم، مؤكداً أن هذا الأمر سوف يؤثر في الشيخ الواهج وهو صاحب العلاقات الكبيرة سواء في الجزائر أو في تونس.

ولهذا نجد أن الشيخ أول ما عرض عليه مساعدة الثورة ودعمها لم يتردد أبداً ولا لحظة في هذا الأمر وانخرط في العمل بدون أن يفكر في أي خلفيات حول ميدان تجارته ونحن نعلم أثر العمل الثوري على الجانب التجاري والمادي للتجار والمقولة المعروفة التي تقول " رأس المال جبان"، ولكن الشيخ كان شجاعاً هو وماله في خدمة الثورة التحريرية.

وقضية انخراط الشيخ في العمل الثوري ولصالح جبهة التحرير الوطني غير معروفة كثيراً وغير مذكورة بكثرة في المراجع والمصادر التاريخية، وربما يعود ذلك لأسباب لعل من أبرزها أن الحاج يحيى الواهج كان متعففاً في ذكر مناقبه وأعماله للثورة الجزائرية حتى لقيادة الثورة ذاتها. ولكن من خلال تقصي بعض المراجع حول الشيخ الواهج ودعمه للثورة، عثرت على لقاء أجراه الصحفي والمؤرخ محمد عباس مع الدكتور والمجاهد محمد لعساكر الذي كان رئيس البعثات العلمية البيوضية في تونس، وكان المسؤول عن الطلبة لصالح جبهة التحرير في تونس، فقال حول انخراط الشيخ يحيى الواهج في العمل الثوري ما يلي: " وغداة مؤتمر الصومام حل بتونس مبعوثاً من لجنة التنسيق والتنفيذ المنبثقة عن المؤتمر المجاهد إبراهيم مزهودي، فاتصل بالطالب العساكر بواسطة عباس التركي مسؤول مالية جبهة التحرير الوطني في تونس آنذاك، ليطلب منه ترشيح شخص لنقل رسالة هامة الى قيادة الثورة بالجزائر العاصمة، كان الطلب مفاجئاً ومخيفاً أول وهلة.

لكن الطالب ما لبث أن وجد الشخص المناسب: تاجر شنطة نشيط يدعى يحيى الواهج، وهو متطوع لخدمة الحركة الإصلاحية في واد ميزاب، وتميز بجهوده في تهريب طلبة المنطقة الراغبين في مواصلة الدراسة بتونس.

لم يتردد يحيى الواهج في أداء هذه المهمة الخطيرة، لأن الأمر كان يتعلق بظرف سميح عليه خواتم جيش وجبهة التحرير الوطني.

ومنذ ذلك الحين أصبحت البعثة الطلابية المزابية حلقة اتصال هامة، تمر عبرها المراسلات الرسمية وشبه الرسمية.

الرسمية مثل تبادل الرسائل بين الشيخ بيوض بالقرارة والحكومة المؤقتة بتونس.

شبه الرسمية مثل نقل رسائل شخصية من بعض المسؤولين بالخارج الى أسرهم بالداخل. وقد تلقى العساكر شخصيا رسالة شكر من الشيخ محمد يكن الغسيري، على تبليغ رسائله الى ذويه في الجزائر.⁴⁸

ومما يضيف للشهادة السابقة مصداقية أكبر وأقرب للحقيقة هي شهادة المرحوم إبراهيم بيوض رحمه الله الذي يذكر في كتابه أعماله في الثورة ما يلي: "... ولما تأسست الحكومة المؤقتة الأولى للجمهورية الجزائرية بتونس، وشرعت السلطة الاستعمارية الفرنسية في التقاط النخبة المثقفة من الجزائريين والقضاء عليهم بمختلف الوسائل والطرق كل الاخوان تخوفوا علي وجاءوني كما جاءوني مرارا من قبل، ثم جاء سفير اتصالاتنا بتونس السيد الواهح الحاج يحيى يحمل توصيات من الحكومة المؤقتة الجزائرية، ومن بعض الأصدقاء مثل السيد عباس التركي، ومن أبنائنا الطلبة في بعثة تونس وخاصة منهم العاملين في دوائر ومصالح الحكومة المؤقتة مثل الأستاذ محمد العساكر..."⁴⁹.

وفي نفس هذا السياق من نشاط وإخلاص الشيخ يحيى الواهح في خدمة الثورة التحريرية، فلقد جاء في أحد رسائل الشيخ صالح خرفي ما يلي "... وقد وجهت اليكم رسالة قبل اتصالي برسالتكم أرجو أن تكون رحلتكم وأمس فقط عقدنا جلسة عند الأخ فخار لو جعل لها عنوان لكان عنوانها (الواهح) فقد ردنا ذكر نصائحكم ونشاطكم في سبيل انقاذ (أغرسان)⁵⁰ وفي سبيل خدمة الجزائر زادكم الله شجاعة على شجاعة وأبعد عنكم كل بلاء وقد أعجب كل الاخوان بنشاطكم وشجاعتكم وتفانيكم في سبيل القضية وسفارتكم المخلصة ورفعوا أيديهم راجعين من الله أ يكلاؤكم برعايته في الحل والترحال"⁵¹

ومن ضمن الرسائل التي كان يرسلها الأديب صالح خرفي للشيخ الحاج يحيى الواهح رحمه الله مقطع يشير فيه إلى دوره في إيصال الثورة التحريرية الى منطقة القرارة وربما يقصد بذلك ان الحاج يحيى الواهح كان له الفضل في ربط التواصل بين قيادة جبهة جيش التحرير الوطني بالشيخ إبراهيم بيوض في بلدته القرارة ويقول في مقتطف الرسالة "... وجهت اليكم رسالة بعد وصول العساكر، وأبدت فيما اعجابي بشجاعتكم النادرة في إيصال (نوفمبر) إلى القرارة جعل الله النار حولكم بردا وسلاما..."⁵²

كما نجد تصريح وشهادة المجاهد الكبير الأخضر بن طوبال، أحد قيادات ثورة التحرير وزعماءها البارزين، حيث يقول: "... لقد كانت لي عدة اتصالات مع الشيخ بيوض باعتباره شخصية صحراوية، وكانت الاتصالات الكتابية والشفوية تتم بواسطة السيد الواهج يحيى"⁵³. ومن الشهادات الحية حول دور الشيخ الواهج يحيى بن حمو في الثورة التحريرية هو ما جاء في تقرير حول أحداث الثورة التحريرية بولاية غرداية للفترة ما بين 1959-1962، وهو تقرير أعدته المنظمة الوطنية للمجاهدين وصودق عليه بتاريخ 9 أكتوبر 1986، ومما جاء في هذا التقرير ما يلي: "... نقول نحن بعض الذين يحررون هذا التقرير – وقد كنا طلبة ولجائين آنذاك في تونس- إننا شهود عيان على هذه المراسلات التي كانت متبادلة بين الشيخ بيوض هنا من ميزاب وبين الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية في تونس بواسطة الاتصال المتردد بين الجزائر وتونس – بصفته تاجرا- السيد الواهج الحاج يحيى بن حمو لإبلاغها إلى مكاتب الحكومة المؤقتة والحزب بنهج الدباعين، والمنزه ما بين البلديدير وأريانة ونهج الصادقية وغيرها. كما يشهد بذلك السادة الإخوة أعضاء شركة عمر بن بكير ومن معه بباب عزون الجزائر، إذ كانوا عادة هم الوساطة بين الواهج الحاج يحيى من بران، والشيخ بيوض من القرارة"⁵⁴.

الخاتمة:

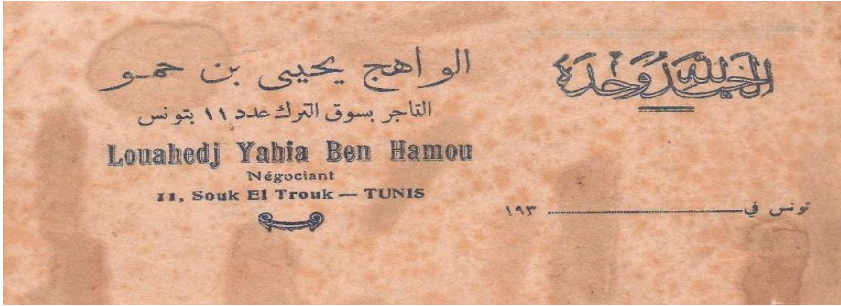
وفي الأخير ومن خلال هذه الورقة البحثية الاستقصائية حول مسيرة الراحل الحاج يحيى بن حمو الواهج، أود أن أجمل الخاتمة في نقاط استنتاجية وهي كالتالي:

- 1- لعبت الكثير من الشخصيات ذات الوزن الاجتماعي والاقتصادي والديني، دورا كبيرا في مسار الحياة النضالية والثورية وخدمة المجتمعات الجزائرية من مختلف الجوانب، ولكن نظرا لعدة ظروف سياسية واجتماعية وجدت هذه الشخصيات نفسها خارج سياق الكتابة التاريخية.
- 2- لقد كانت البعثات العلمية الجزائرية نحو البلاد التونسية، رافدا مهما من روافد النهضة والإصلاح في الجزائر خلال النصف الأول من القرن الماضي، وأيضا لعبت دورا بارزا ومهما في مسيرة النضال والبناء في النصف الثاني من نفس القرن.
- 3- تعد منطقة مزاب بالجزائر، من أبرز المناطق التي مازالت تحافظ على الهوية والقيم الوطنية والدينية للمجتمع الجزائري، وهي تعد منطقة ترمومتر بالنسبة للمجتمع الجزائري خاصة في مسألة الهوية والمذهبية والاثنية.

4- يجب على الباحثين والمهتمين امانة اللثام ونفض الغبار على كثير من الشخصيات الوطنية التي ساهمت وأثرت الحياة الاجتماعية والدينية والثقافية والاقتصادية في الجزائر ولكنها لم تجد العناية والرعاية من طرف الباحثين وبقيت شخصيات غامضة ومجهولة، في حين نجد الكثير من الوثائق والرسائل والصور والشهود الذين نستطيع من خلالها أن نبي رؤية تاريخية لتلك الشخصيات.

ملاحق:

الوثيقة رقم 1



رسالة توضح مقر محل الشيخ يحيى الواهج في تونس - سوق الترك عدد 11-

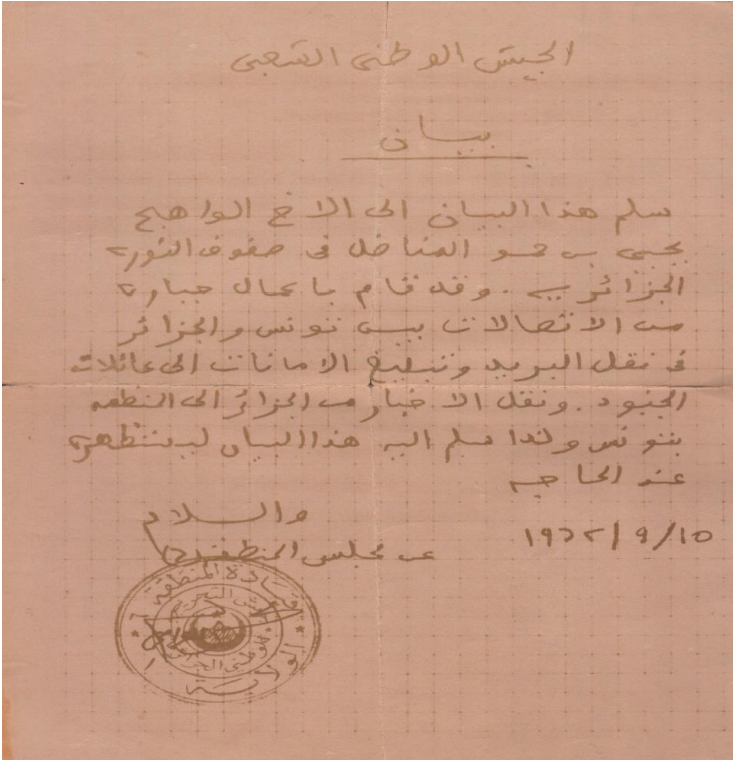
الوثيقة رقم 2



رسالة توضح مقر محل الشيخ يحيى الواهج في الجزائر بعد عودته من تونس - نهج

دمريمون عدد 1-

الوثيقة رقم 3



بيان مسلم من طرف جيش التحرير للشيوخ الواهج يحيى بن حمو يبين مهامه أثناء الثورة
التحريرية، وقد تم تسليم هذا البيان في 15-09-1962

الوثيقة رقم 4

بسم الله الرحمن الرحيم
 وعلى الله تعالى سيدنا محمد وآله
 القرارة ٤٣ - ١ - ١٩٥٧

عننا الفاضل المحترم الفيض السيد الحاج يحيى بن حمو
 السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.
 وبعد فقد وصلني جوابكم ففسرت باستعدادكم لخدمة
 العلم. وكنتم من قبل متيقنا انكم مستعدون لهذا والكثير
 وقد كتبت لكم قبل الموزن حال ما قرأت جوابكم فندرت
 عليه ترافيه ونسعت اليكم حينما يصله جوابي. وارجو
 ان تقول لها عليك ان لا تجد تلميذنا بأسرع طريقة
 يستطعمها ليستقر اليهم سعة ليدفعها اليه
 اقترح عليه هذا فان هذه الطريقة ممكنة ولو يستعملونها
 لا تجد تلاميذهم. وقد كتبت الي الموزن ليصف
 انتمه وانتمه فحار فكيته لما قرأت جوابه. وسياتيكم
 من كوش يحيى مبلغ الفخار اضعه الي دراهم الموزن
 فان لم يصلك فارجو ان تكتب الي كوش ليبلغ به
 ونعو مدبري في التل كما تعرف. كما ارجو ان تحيي الموزن
 اذا اجدته بيطمنه ويسراقب وصلها ومنزلة تجده
 في البعثة بنافس.

سلام على الملوفاية الفراء، وعلى الكفتة الصفراء
 وعلى نغرات سوق العطارين، واماوج البحر في عام
 الانف وعلى كل حال في مدينة السمير والجماعة.
 اما اهل ابن فلهون فلا تسلم على احد منهم فانهم
 في البرادة اجمعين اتعيب اجمعين والسلام
 زنون كدس

رسالة مرسلة إلى الشيخ يحيى بن حمو الواهج من بلدة القرارة، يوم 23 جانفي 1957م، حول مساعدة مجموعة من الطلبة ماديا.

الهوامش:

- 1- الشيخ أبو زكريا بن صالح الأفضلي (ولد: 1714م/توفي: 1788م)، هو من العلماء الأعلام، وكبار المشايخ في وادي مزاب إبان النهضة الحديثة، ويعد هو باعها الأول، تلقى مبادئ العلوم في مسقط رأسه ببني يزقن، ثم توجه نحو جزيرة جربة من أجل الاستزادة من مشايخها وعلماءها، ثم توجه صوب مصر للاستزادة أيضاً من علومها ومعارفها خاصة ما يخص المذهب الإباضي، ولقد كان يعتني بالمخطوطات النفيسة ويقوم بنسخها، بعد هاته الرحلة العلمية التي قام بها الشيخ الأفضلي رجع إلى مسقط رأسه وادي مزاب أين قاد هناك حركة اصلاحية شاملة، وتصدر للتدريس والتعليم وتخرج على يديه جملة من الطلبة النجباء الذين حلموا مشعل الاصلاح من بعده، بالإضافة إلى جملة من المؤلفات النفيسة في المذهب الإباضي. ينظر: جمعية التراث: معجم أعلام الإباضية، ج4، ط1، المطبعة العربية، غرداية، 1999م، ص-ص (965-967).
- 2- جمعية التراث: المرجع السابق، ج4، ص966.
- 3- محمد علي دبوب: نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ج1، عالم المعرفة، الجزائر، 2013م، ص-ص (254-255).
- 4- قاسم بن أحمد الشيخ بالحاج: معالم النهضة الإصلاحية عند اباضية الجزائر 1157هـ/1744م إلى 1382هـ/1962م، ط1، المطبعة العربية، غرداية، 2011م، ص-ص (123-125).
- 5- إبراهيم بن عيسى حمدي أبو اليقظان، (ولد: 1888م/توفي: 1973م)، من العلماء الأعلام في القرارة بميزاب، تعدت شهرته الحدود الوطنية، بدأ مشواره العلمي بالكتاب بمسقط رأسه بالقرارة، واستظهر القرآن عند الشيخ الحاج إبراهيم بن كاسي، ثم درس في معهد الشيخ عمر بن يحيى، ثم انتقل للدراسة بمعهد القطب اطفيش ببني يزقن سنة 1907م، وكان من أبرز تلامذته، وكان قد رافقه في الدراسة بالمعهد في هاته الفترة كل من الشيخ أبو اسحاق اطفيش، والشيخ سليمان الباروني، ولقد كان تواقا للسفر نحو تونس وبالفعل تمكن من ذلك سنة 1912م، وانتسب للزيتونة، ثم ترأس أول بعثة علمية ميزابية بتونس سنة 1914م، وعاد في بداية الحرب العالمية الأولى إلى ميزاب، وبعدها ترأس البعثة مرة أخرى من سنة 1917-1925م، ثم عاد إلى مزاب ووقف بجانب الشيخ ابراهيم بيوض في حركته الاصلاحية، ولقد كان من الأعضاء المؤسسين لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ويعتبر الشيخ ابو اليقظان شيخ الصحافة الجزائرية، حيث أصدر ثمان جرائد وطنية إسلامية باللغة العربية، فيما بين 1926-1938م، ولقد ترك الشيخ ابو اليقظان تراثا علميا وفكريا عاما، وتربو مؤلفاته عن 60 مؤلفا في شتى الفنون والعلوم، أصيب بالشلل النصفي سنة 1957م، ولكنه استمر بالعباء والنشاط العلمي والثقافي، إلى أن وافته المنية بمسقط رأسه بالقرارة. ينظر: جمعية التراث: المرجع السابق، ج2، (52-56).
- 6- قاسم بن أحمد الشيخ بالحاج: المرجع السابق، ص-ص (569-570).

- ⁷⁻ عبد القادر قويع: الحركة الإصلاحية في منطقتي الزيبان وميزاب بين سنتي 1920-1954م، مذكرة لنيل شهادة ماجستير في التاريخ المعاصر، اشراف: مولود عويمر، جامعة الجزائر، 2007-2008م، ص 63.
- ⁸⁻ محمد الصالح الجابري: النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس 1900-1962م، الدار العربية للكتاب، تونس، 1983م، ص 34.
- ⁹⁻ للتوسع والاطلاع أكثر حول دور جامع الزيتونة في الحياة الفكرية والعلمية والنهضة الاصلاحية بالجزائر ينظر: رابح فلاحي: جامع الزيتونة والحركة الاصلاحية في الجزائر 1908-1954م، رسالة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، اشراف: عبد الكريم بوصفصاف، جامعة منتوري- قسنطينة، 2007-2008م.
- ¹⁰⁻ علي بن حراث: أسباب تركيز الرحلة العلمية الجزائرية على تونس، الملتقى الدولي حول التواصل بين الجنوب الشرقي الجزائري وتونس، جامعة الوادي، يومي 10-11 نوفمبر 2013م، ص 6.
- ¹¹⁻ محمد علي دبوذ: هضبة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ج 1، المرجع السابق، ص 231.
- ¹²⁻ محمد وقاد: جماعة بني ميزاب وتفاعلاتها الاقتصادية والاجتماعية بمدينة الجزائر اواخر العهد العثماني (1112هـ - 1246هـ/1700م-1830م)، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، اشراف الدكتورة: فلة موساوي القشاعي، جامعة الجزائر، 2009/2010م، ص 164.
- ¹³⁻ عبد الكريم الماجري: هجرة الجزائريين والطرابلسية والمغاربة الجاؤنة إلى تونس (1831-1937)، ط 1، الشركة التونسية للنشر وتنمية فنون الرسم، تونس، 2010م، ص-ص (528-552).
- ¹⁴⁻ أحمد بن جابو: المهاجرون الجزائريون ونشاطهم في تونس (1830-1954)، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، اشراف الدكتور: يوسف منصارية، جامعة تلمسان، 2010-2011م، ص-ص (179-180).
- ¹⁵⁻ عبد القادر قويع: المرجع السابق، ص 61.
- ¹⁶⁻ Jamal hagu: les algériens originaires du sud dans la ville de tunis pendant l'époque colonial (1881-1956) (mozabites, souafas, ouarglias), mémoire DEA, université de manouba, année universitaire 2003-2004, p55.
- ¹⁷⁻ بحث غير منشور حول شخصية يحيى الواهج من اعداد الطالبة: فاطمة بنت صالح بورقيبة، سنة 2019.
- ¹⁸⁻ مراسلة مع يوسف الواهج ابن الشيخ الواهج يحيى بن حمو، حول سيرة والده، لدينا نسخة منها.
- ¹⁹⁻ مراسلة مع يوسف الواهج ابن الشيخ الواهج يحيى بن حمو، حول سيرة والده، لدينا نسخة منها.
- ²⁰⁻ مراسلة مع يوسف الواهج ابن الشيخ الواهج يحيى بن حمو، حول سيرة والده، لدينا نسخة منها.
- ²¹⁻ ينظر للوثيقة رقم 1 في الملاحق
- ²²⁻ إبراهيم بن علي أحمد مردوخ: من ذكرياتي، مخطوط غير مطبوع، ص 47.
- ²³⁻ ينظر للوثيقة رقم 2 في الملاحق

²⁴ بحث غير منشور حول شخصية يحيى الواهج من اعداد الطالبة: فاطمة بنت صالح بورقبيبة، سنة 2019.

²⁵ نسخة من عقد زواج الحاج يحيى الواهج، لدينا نسخة منه.

²⁶ نفس المرجع.

²⁷ عبود إبراهيم بن عيسى بن الحاج إبراهيم وجيلود نانة من عشيرة أت بنورة والعطف، ولد بريان خلال 1908م. وتوفي فيها يوم 29 أوت 1994م. درس في المحضرة والمدرسة الرسمية ثم جامع الزيتونة بتونس، ابتداء العمل في الثورة من سنة 1956م. بواسطة قائد البلدة الطالب بوذي عمر بن سليمان ومع مسؤولين عسكريين. كان ينقل الجنود بسيارته الخاصة ويقوم بضرورياتهم من مأكّل ومشرب إذا نزلوا عنده. أعطى مسدسا تسعيا ألمانيا إلى المسؤول علي السوطي. استمر في العمل إلى الاستقلال.

²⁸ دبوو الحاج سليمان بن احمد بن حمو. ولد خلال سنة 1877م/1294هـ بريان. عصامي التكوين في التعليم، وفي الجانب المادّي. عمل تاجرا نشطا في مجال الأقمشة بالخروب ناحية قسنطينة، وفلاحا في ناحية باللوح بعد تقاعده من التجارة. من اعيان بلده وعشيرته النشطاء في الميدان الاجتماعي خصوصا، ثمّ عيّن ضامنا للعشيرة "النشاشبة وأولاد يونس". توفي فيها يوم 26 جانفي 1950م/06 ربيع الثاني 1369هـ.

²⁹ مراسلة مع يوسف الواهج ابن الشيخ الواهج يحيى بن حمو، حول سيرة والده، لدينا نسخة منها.

³⁰ مراسلة مع يوسف الواهج ابن الشيخ الواهج يحيى بن حمو، حول سيرة والده، لدينا نسخة منها.

³¹ عبد الرحمن بن عمر بن عيسى بكلي الشهير ب" البكري" (ولد:3 اكتوبر 1909/توفي:13 جانفي 1986م)، عالم جليل وشخصية مرموقة بوادي مزاب ولد بالعطف، تعلم مبادئ القرآن الكريم والتوحيد بالمسجد العتيق بمسقط رأسه، وحفظ القرآن الكريم في مقتبل العمر، درس علوم اللغة والشريعة بمعهد عمه الشيخ الحاج عمر بن حمو بكلي، ثم سافر إلى الجزائري للاستزادة من اللغة الفرنسية، انتقل إلى تونس في اواخر سنة 1922م، حيث انظم إلى البعثة الميزابية هناك، ودرس بجامعة الزيتونة على مشاهير العلماء في تلك الفترة، ودرس في المدرسة الخلدونية العلوم العصرية، وكان له علاقات وطيدة مع الحزب الحر الدستوري بقيادة عبد العزيز الثعالبي، وكان من الأعضاء المؤسسين لجمعية العلماء وعين عضوا في لجنة صياغة قانونها الاساسي، كما زاول التجارة وكان مدعما للحركة العلمية والثقافية، وعضوا ناشطا في كل النشاطات التي تقام من طرف جمعية العلماء بالعاصمة، شارك في تأسيس جمعيات اصلاحية بمنطقة وادي ميزاب، وعند اندلاع الثورة الجزائرية كان عضو فعال في العمل السياسي بالمنطقة، وألقي عليه القبض في سنة 1957م، ولقد عين بعد الاستقلال عضوا في المجلس الإسلامي الأعلى، ولقد ترك الشيخ عبد الرحمن بكلي زاد فكري وعلمي كبير تشهد على راحة عقله وقوة ذاكرته، ينظر: جمعية التراث: المرجع السابق، ج3، ص-ص(521-528).

³² مراسلة مع يوسف الواهج ابن الشيخ الواهج يحيى بن حمو، حول سيرة والده، لدينا نسخة منها.

³³ يوسف الواهج: الحاج يحيى الواهج " المهمة الصعبة"، مقال منشور ضمن سلسلة "من سجل التاريخ"، مدونة نور القلم، تاريخ نشر الموضوع: يوم الخميس 27 أكتوبر 2016م.

- ³⁴- لقاء شفوي مع الشيخ صالح بن إبراهيم باجو، يوم 31 ديسمبر 2013م، على الساعة 10 صباحا، ببيته بالقرارة.
- ³⁵- رسالة مرسلة إلى الشيخ يحيى بن حمو الواهج من بلدة القرارة، يوم 23 جانفي 1957م. سلمت لنا من طرف يوسف الواهج، ابن الشيخ يحيى الواهج.
- ³⁶- جمعية التراث: المرجع السابق، ج 4، ص 960. لقاء شفوي مع الشيخ صالح باجو، المصدر السابق.
- ³⁷- ويقصد هنا ثلاثة طلبة جدد سوف يتنقلون إلى تونس للانضمام إلى صفوف البعثة العلمية الميزابية بتونس، وهم: ابن زايد يوسف، الأطرش إبراهيم، ومحمد العساكر، وهذا الأخير سوف يصبح رئيس البعثة العلمية هناك بتونس.
- ³⁸- عبد الرحمن بن عمر بكلي: جهمرة رسائل البكري، نشر مكتبة البكري، المطبعة العربية، غرداية، 2007م، ص-ص (178-179).
- ³⁹رسالة من طرف يوسف الواهج
- 40 صالح خرفي: (ولد:1932/توفي:1998) ولد ببلدة القرارة، التحق بمدرسة التربية والتعليم بباتنة سنة 1938م، ثم عاد إلى القرارة والتحق بمدرسة الحياة، أين استظهر كتاب الله سنة 1946م، ثم أكمل دراسته الثانوية بمعهد الحياة، غادر الجزائر متوجها نحو تونس سنة 1953م، لكي يكمل دراسته في الزيتونة والمدرسة الخلدونية هناك، ولقد كانت له نشاطات ثقافية وعلمية في تونس، ثم تنقل إلى مصر وتحصل منها على شهادة الليسانس من جامعة القاهرة سنة 1960م، ثم تحصل على الماجستير سنة 1966م، والدكتوراه سنة 1970م بنفس الجامعة، ولقد تقلد عدة مناصب علمية وثقافية في الجزائر، وساهم في الحياة الفكرية والعلمية بالمنشورات والمؤلفات التي انتجها، ينظر: قاسم أحمد الشيخ بالحاج: الشاعر صالح الخرفي صفحات في مساره الفكري والأدبي، ط1، نشر جمعية أنغام الحياة الثقافية القرارة، 2014م، ص-ص (13-30).
- ⁴¹رسالة مرسلة من طرف الشيخ صالح خرفي للشيخ الحاج الواهج يحيى بن حمو، بتاريخ: 1957/12/03 من القاهرة. لدينا نسخة منها.
- ⁴²رسالة مرسلة من طرف الشيخ صالح خرفي للشيخ الحاج الواهج يحيى بن حمو، بتاريخ: 1957/9/1 من طرابلس. لدينا نسخة منها.
- ⁴³ آسيا، هي اسم البستان الذي يملكه في بريان، مشهور بهذا الاسم إلى الآن، والاسم الحقيقي هو: صياغ، نسبة لعائلة من القرارة كانت تملك البستان وما جاوره، ومع الوقت تحول على ألسن الناس من صياغ، إلى آصياغ، ثم حذفت الغين
- ⁴⁴رسالة مرسلة من طرف الشيخ صالح خرفي للشيخ الحاج الواهج يحيى بن حمو، بتاريخ: 1957/9/10 من طرابلس. لدينا نسخة منها.
- ⁴⁵رسالة مرسلة من طرف الشيخ صالح خرفي للشيخ الحاج الواهج يحيى بن حمو، بتاريخ: 1957/9/19 من القاهرة. لدينا نسخة منها.

- ⁴⁶ رسالة مرسله من طرف الشيخ صالح خرفي للشيخ الحاج الواهج يحيى بن حمو، بتاريخ: 1957/11/22 من القاهرة. لدينا نسخة منها.
- ⁴⁷ رسالة مرسله من طرف الشيخ صالح خرفي للشيخ الحاج الواهج يحيى بن حمو، بتاريخ: 1957/12/03 من القاهرة. لدينا نسخة منها.
- ⁴⁸ محمد عباس: وداعا يا فيتنام... اهلا يا جزائر، دار هومة، الجزائر، 2013، ص 147.
- ⁴⁹ بيوض إبراهيم بن عمر: أعمال في الثورة، جمع وتعليق: محمد صالح ناصر، ط2، نشر جمعية التراث، القرارة، الجزائر، 2016، ص 143.
- ⁵⁰ كلمة ميزابية يقصد بها " الميزابيين " والمقصود هنا " في سبيل انقاذ الميزابيين وفي سبيل خدمة الجزائر...".
- ⁵¹ رسالة مرسله من طرف الشيخ صالح خرفي للشيخ الحاج الواهج يحيى بن حمو، بتاريخ: 1959/08/22 من القاهرة. لدينا نسخة منها.
- ⁵² رسالة مرسله من طرف الشيخ صالح خرفي للشيخ الحاج الواهج يحيى بن حمو، وجدنا تاريخ رسالة مكتوب 04/13 ونعتقد أن سنة الرسالة كانت في 1960، وهي مرسله من القاهرة.
- ⁵³ محمد بن قاسم ناصر بوحجام: الشيخ بيوض وقضية فصل الصحراء عن الشمال، نشر وتوزيع شركة سوفاك، ص 23
- ⁵⁴ بيوض إبراهيم بن عمر: أعمال في الثورة، جمع وتعليق: محمد صالح ناصر، ط2، نشر جمعية التراث، القرارة، الجزائر، 2016، ص 127.

د. محمد الوردي
جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس (المغرب)

عنوان المقال: معارك قبيلة
البرانس ضد الاحتلال الفرنسي ما بين
1915 و 1925

البريد الإلكتروني: elouardi2med@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2020/03/10 تاريخ القبول: 2020/03/16 تاريخ النشر: 2020/03/31

معارك قبيلة البرانس ضد الاحتلال الفرنسي ما بين 1915 و 1925

تلخيص:

إن المتصفح لوثائق الأرشيف الفرنسي الغزيرة، يقف بوضوح على مساهمة قبيلة البرانس في مقاومة الاحتلال العسكري الفرنسي، والتصدي للقوات الغازية منذ دخولها إلى بلاد الطايفة سنة 1915 إلى حدود قرب انتهاء حرب الريف سنة 1925. وتجسد معارك القصبة، وبوقلال، وعين الروح، والقطا، وكاف الغار، ووادي الجمعة، وعين الحوط، وبوهارون، وأمساف وغيرها ملاحم بطولية لمقاومة القبيلة للوجود الفرنسي والتسلط "الاستعماري" بها. الكلمات المفتاحية: المعارك، المقاومة، البرانس، الاحتلال.

Abstract: While scrutinizing the copiousness of French archives, one would easily stop at the contribution of the Branès tribe in resisting the French military colonization; as well as combating its invading forces since it infiltrated the land of Taifa in 1915 through the end of the Rif War in 1925. The total of the battles in Kasba, Boukalal, Ain Rouh, Qta, Kef El Ghar, Oued jmaa, Ain Haout, Bouharon, Amssef and others embodies heroic fierce battles for the tribe in resistance to the French presence and the colonial encroachment in it.

Key Words: the fights, resistance, Branès, occupation.

مقدمة

تعد قبيلة البرانس من أكبر قبائل شمال المغرب مساحة وسكاناً¹. تقع شمال مدينة تازة في جزء من تلال مقدمة الريف²، وتحدها بكل من قبيلة مكناسة والتسول ومريسة وصنهاجة وكزناية³، وهي مزيج من الأصول الأمازيغية والعربية، الموزعة على أربعة أقسام: ورية

وبني بويعلی وبني فقوس والطايفة⁴. وقد ظلت قبيلة البرانس قبل "الحماية" الفرنسية تشكل قوة لها وزنها، وزادت أهمية مجالها، مع اقتراب موعد احتلالها في خضم صراع المغرب مع المحتل، إذ مباشرة بعد توقيع عقد الحماية سنة 1912، والسيطرة على مدينة تازة في ماي 1914، صارت عيون قادة الاحتلال على منطقة البرانس الحيوية مطلع سنة 1915 ترصد ما كان يجري بها من تهديدات الشنكيطي⁵ للمصالح الفرنسية على امتداد ضفتي وادي لحضر بمحاذاة بلاد الطايفة⁶، وقد عُد وقتها اختراق مجال البرانس أولوية قصوى. كانت الدوافع الاقتصادية مبطنة و متممة للرغبة الفرنسية في غزو مجال البرانس، ووضع اليد على ثرواته الطبيعية الغنية وضمان تصديرها فيما بعد، وأرض البرانس ملائمة، وبإمكانها إعطاء مختلف أنواع الحبوب والمغارس، والاستفادة من مراعيها في تربية الماشية. وموقعها الجغرافي بأهمية عظيمة أيضا، فالسيطرة عليه كان يعني لفرنسا وضع قدمها في بوابة الريف، ومن ثمة استكمال مشروع هيمنتها على ممر تازة في أبعاده المختلفة.

وإذا كان مثال مقاومة البرانس للاحتلال، من المواضيع الجديدة التي لم يتكفل الكثير من الباحثين ببسط تفاصيل معاركها بدقة، فإن الموضوع الذي اخترناه لمقالنا يمكن المرء من أن يتتبع عن كثب، مجريات معارك المقاومة "البرنوسية" للتدخل العسكري الفرنسي، ويطلع على تأثيراتها في إفشال مخططات التوغل الفرنسية، التي استخدمت أمكر الوسائل وأحدث الأسلحة وأشدّها فتكا. من هنا نحاول ملامسة الأداء الميداني لمقاومة البرانس، واستيعاب مدى تأثيرها في اعتراض مشروع "الهدنة" الفرنسي وتعطيل تطبيقه، ومراقبة تحرك قوات العدو وإحصاء حركاتها وتحديد اتجاهاتها ليلا ونهارا (1915-1918)، والوقوف -بعد ذلك- على بعض محطات تأخر مقاومة الاحتلال عن الظهور بوجه مشرق إلى غاية صيف 1925، تاريخ انخراطها الفعلي في الحرب الريفية، مع التركيز -خلال هذه الفترة- على شخصية الزعيم المحلي محمد بن الأزرق الخلافي. إنها إشكالية مركزية تنبثق منها أسئلة جزئية يحاول موضوع المقال ملامستها اعتمادا على قاعدة توثيقية متينة من الأرشيفين الفرنسي والمغربي. فما مدى قدرة قبيلة البرانس على مواجهة الاحتلال العسكري الفرنسي ومعاكسته ما بين 1915 و1925؟ وهل كان باستطاعة الفرنسيين إنجاز مخططهم لغزو البرانس دون مخاطر وخسائر في عدة معارك؟

موقع قبيلة البرانس في الوسط الشمالي للمغرب⁷

أولاً: أولى المعارك سنة 1915

مثل مجال الطايفة، القريب نسبياً من مدينة تازة، نقطة تهديد أولى للفرنسيين الذين تأجج طموحهم وغرور قادتهم العسكريين في استكمال مشروع الاحتلال بالتحرك شمال تازة. وفي نطاق هذه الرغبة الجامحة حشد العقيد بيلو (Bulleux) منذ 18 يناير 1915 قوات كبيرة خرج بها من تازة يوم 21 يناير 1915. كان هدف الوحدات الفرنسية المتحركة صوب وادي لحضر، هو مباغته الشنكيطي، ودحره في أولى معارك بلاد الطايفة لوضع اليد على مرتفع باب المروج الذي اختير كنقطة ارتكاز يسهل استغلالها فيما بعد لاستكمال السيطرة على البرانس كلها⁸. وقد بدا جلياً خلال هذه الفترة أن استعدادات المقاومين لصد تغلغل العقيد بيلو الصريح تركز في قسم الطايفة⁹، ومعها يلتف جزء كبير من وربة¹⁰، وبني فقوس حول زعامة الشنكيطي¹¹، الذي اتخذ ورجاله وضعا دفاعياً على طول الكتل المطلة على الضفة اليمنى لوداي الحداد¹².

ومع تقدم حملة الاحتلال في أرجاء الطايفة في نسق سريع، اضطرت ما بين 21 و23 يناير إلى خوض معركة قصبه بني ورياغل التي تعد أول معركة حاسمة داخل مجال البرانس، وشكلت إحدى أهم الفرص التي مكنت مقاومي القبيلة من كسب غنائم مادية ومعنوية، تنوعت بين عدد من الأسلحة والمؤن والأعطية والخيام¹³، فضلاً عن إشاعة الفرع في صفوف

قوات العقيد بيلو (Bulleux) الذي اضطر إلى الانسحاب نحو تازة، وتأجيل عملية اختراق مجال القبيلة إلى شهر ماي¹⁴.

رأى الفرنسيون أنه قبل الإقدام على عملية مماثلة، لابد من تعزيز جيش الاحتلال بقوات أكثر من تلك التي حشدتها العقيد بيلو، وهكذا يظهر أن القيادة الفرنسية قد ضحّت بالعقيد بيلو قربانا لتسوية فشل خطتها الأولى بقصبة بني ورياغل، أما خلال شهر ماي 1915، فقد أضحّت مرغمة على تدشين خطة جديدة مع قائد آخر مزود بتعليمات جديدة وإمدادات، إن هي أرادت التحكم في مداخل البرانس الجنوبية وبلوغ منطقة "القلب" (باب المروج) المستعصية. كانت مهمة القائد الجديد (هنري سمون) هي رفع معنويات جنود الاحتلال التي انحطت بعد معركة القصبة، وبالإمكانات التي وفرت له رفقة العقيد دريجوان (Derigoïn)، سلك سمون (Simon) شعاب البرانس الجنوبية من جهة وادي لحضر، موظفا أسلوب التحرك السريع للانقضاض على رجال الشنكيطي، وخنقهم في رقعة ضيقة، واستطاعت قواته بلوغ المنطقة المحيطة بضريح سيدي أحمد زروق، حيث ستندلع معركة قوية هناك في 5 ماي دامت ليوم كامل، وصمد المجاهدون في وجه الجيش الفرنسي لمدة أربعة أيام متواصلة من القتال في معركة أهل تيليوان ما بين 6 و9 ماي 1915، وقد انسحب رجال الشنكيطي تحت ضغط هجوم العدو ونيران مدفيعته الحديثة، ومع ذلك أخروا بلوغ طلائع القوات الفرنسية صوب جامع الخمسين إلى أواخر ماي، وخاضوا في المنطقة معارك قوية ما بين 24 و27 ماي 1915¹⁵، وأسقطوا من الفرنسيين عددا كبيرا من الرجال بين قتيل وجريح من بينهم الملازمين: (Naluik) و(Jupon)¹⁶. ولم يمنع ذلك العقيد سيمون (Simon) من تحقيق قسط من أهدافه على أرض الواقع، وتوج مجهود العقيد دريجوان الحربي المضني بإنشاء مركز باب المروج العسكري يوم 10 يونيو 1915¹⁷.

لم يوقف إحكام السيطرة الفرنسية على منطقة باب المروج، البرانس عن المقاومة، بل ظلت بلاد وربة ملتقى لتجمع المجاهدين، ومنطلق تهديد نقط المراقبة الفرنسية المنشأة حديثا حول مرتفعات أزدم والعالية، لذلك استنفر الفرنسيون في صيف 1915 إمكاناتهم العسكرية وخططهم السياسية لإتمام مخطط التوغل في عمق مجال البرانس غير الخاضع، واختراق الجدار الدفاعي الذي وضعه الشنكيطي وعبد المالك¹⁸ وسي إبراهيم الوربي على طول مثلث: وربة- بني فقوس-بوقلال. وقد كان على العقيد دريجوان (Derigoïn) مواجهة عدة مصاعب،

واضطر أثناء مرور جنوده بأفخاذ أولاد عسى والكوزات وعبد الخالقين وأولاد كنون وبني خلد لخوض عدة معارك أهمها معركة عين الروح التي يتحدث عنها العقيد دريجوان بالقول: «وصلت الفرقة إلى عين الروح قرب وادي لحضر يوم 1 غشت (1915). حيث تعرضت لإطلاق نار من طرف كراكرة المدعمين من قبل القطا، خسرنا مخزنية قتل، فالمنطقة صعبة [...] وقربا الحرارة المفرطة التي لا تساعد على إجراء عمليات عسكرية بشكل فعال، في ظل هذه الظروف قررت سحب الفرقة باتجاه المخيم»¹⁹.

منذ ظهور عبد المالك الجزائري بتازة واستقراره بكنزانية أصبح زعيما ذا نفوذ كبير، وقد بايعه زعماء البرانس المحليين: سي إبراهيم الوري والقائد الكوراري²⁰ والحاج حمو الفزاري على الجهاد²¹، ليضع نظاما فعالا للتنسيق مع الألمان (ألبيير بارتلز). واستطاع بواسطة جهود سي إبراهيم الوري²² من إقناع بني فقوس وزعيمها مسعود حروش²³ على خوض معركة بوقلال يومي 7 و8 دجنبر 1915. ونفهم جانبا من وقائع هذه المعركة مما ورد في رسالة عبد المالك بخط يده يقول فيها: «وردت علينا الأنباء بزول العدو بعين بوقلال [...] ولما أشرفنا على أولاد بكار حمى الوطيس [...] وفي عشية النهار انكسر العدو إلى خزائنه. وفي فجر يوم الجمعة "اشتب" القتال فافترق الجمع على عشرة من القتلى ونيف. أما جهة الظلمة فتحقق موت القبطان كودير حاكم عسة باب المروج وسبعين عسكريا فرانسوايا، زيادة على قتلى أولاد بكار ومكناسة [...] ومن جهة أخرى (ظل العدو يكابد الأهوال مع) بني بويعلى الذين أنجدونا من ناحية سيدي أحمد زروق»²⁴.

لا يمكن اعتبار ما ورد في تقرير العقيد دريجوان عن معركة عين الروح وكذا ما كتبه عبد المالك عن معركة بوقلال مجرد سرد لمجريات المعركتين، بقدر ما هي جمل تحمل في طياتها بعدا تكتيكيا، يوضح المساهمة الكبيرة لقبيلة البرانس في اعتراض تقدم الفرنسيين وتصيد عناصر فرقتهم المتحركة. لقد أظهرت معركة عين الروح للفرنسيين حجم صمود المقاومة وقدرتها على التكيف مع الظروف الطبيعية والمناخية، التي لم يتحملها الطرف الفرنسي وجعلته يبرر بها انسحابه من قلب وربة نحو معسكره بجبل الحلفة. وبينت معركة بوقلال -من جانبها- مدى نجاعة أسلوب وضع الكمائن في نقط محددة (تاريش)، وانتظار أوامر سي إبراهيم الوري والحاج حمو الفزاري لمباغته القوات الفرنسية حول مركز باب المروج وحصارها في منطقة

بوقلال²⁵. ومن ثمة تكبيدها خسائر ثقيلة قدرها عبد المالك بنحو سبعين قتيلًا، ضمنهم القبطان كودير قائد مركز باب المروج.

ثانياً: معارك سنة 1916 بنجاح نسبي

ما أن بدأت سنة 1916 حتى وجه المحتل أنظاره نحو منطقة بني بويعلى غير الخاضعة لكسر شوكة مقاومتها وتطويعها، في أفق فتح الطريق نحو ورغة²⁶، خصوصاً وأن منطقة بني بويعلى الجبلية شكلت قلعة تحصنت فيها المقاومة "البرنوسية" لمواجهة حملات الاختراق التي كانت تلوح في الأفق.

دشن العقيد سيمون (Simon) الحملة الأولى بالخروج من مركز باب المروج يوم 29 يناير 1916، قاصداً منطقة القطا (وربة) القريبة من بلاد بني بويعلى. حرص قائد الحملة أن يكون هجومه مفاجئاً وسريعاً، حتى يتمكن من اختراق عمق بلاد وربة، وإيقاف مصادرها الحيوية المزودة للمقاومة، قبل الالتفاف ما أمكن حول بلاد بني بويعلى. وكما كانت دهشة الفرنسيين كبيرة عندما وجدوا أمامهم سي إبراهيم الوري على رأس رجاله خفيفي الحركة المتناثرين في مجال الكوزات الغابوي، والمستغلين له بمهارة والمستثمرين لسرعة حركتهم لتعويض نقص العتاد²⁷. وفي ترجمة لقوة معركة "القطا" نقراً في تقرير فرنسي: «كانت معركة صعبة جداً لأن المنطقة مقطوعة تماماً بكتل صخرية وأشجار الغابة. وقد تركزت مقاومة المتمردين عند لقطا وتأججت بانضمام الصهاجيين الذين كانوا عنيفين..»²⁸. لقد انتهت المعركة باستشهاد الزعيم سي إبراهيم الوري²⁹، وبترجع نسي للمقاومة وتقلص مجال مناورتها، ورغم ذلك يمكن أن نتساءل هنا كيف استطاعت المقاومة أن تنتزع الاعتراف الفرنسي بصمودها العجيب وعنفيها، وأن تجابه عدوها المتفوق تنظيماً وتسليحاً بإمكاناتها المحدودة؟ إن الصمود في معركة القطا كانت تسنده إرادة الزعيم سي إبراهيم القوية في الدفاع عن الأرض والدين، وقد كانت حمية الذود عن تلك المحرمات من المتانة، التي جعلته يستشهد وهو على رأس رجاله من الوريين والصهاجيين.

وما بين فبراير وأبريل 1916 تعددت متاعب الفرنسيين بمراكز جبل الحلفة³⁰، وباب المروج³¹ ومنطقة تايناست³²، التي ظلت عرضة لغارات المجاهدين بزعامة محمد ولد الشيخ الوري³³، والقائدين الكوراري³⁴ وعبد القادر بن زركة. ولملاحقة عناصر المقاومة وفك "عقدة بني بويعلى" التي باتت عقبة أمام تسرع وتيرة الاحتلال من وربة إلى كراكركة والبراحة وفي

اتجاهات أخرى من ورغة، بادرت القيادة العسكرية الفرنسية إلى تنظيم حملة عسكرية ثانية أواخر ماي 1916 عهدت قيادتها للعقيد شارلي (Charlet)³⁵ الذي عبأ قواته في طوابير تسيير من اتجاهات مختلفة لإخضاع بني بويعلی المتحصنين بمرتفعاتهم والمتأهبين لصد أي هجوم محتمل. جمع العقيد شارلي قواته واتجه بها صوب كاف الغار، وبعد بلوغها لخوانق المنطقة، وجدت أمامها المجاهدين الذين فرضوا عليها خوض معركة كاف الغار، ثم معارك أهل الصخرة وجنان مجبور³⁶، وفيها توالى طلاقات المجاهدين على طول طريق مرور الطوابير الفرنسية ومن أدغال الغابة ومن أعلى الأجراف المشرفة. كانت بحق مصيدة تم التخطيط لها وتنفيذها بإحكام، وانتهت بكبح جماح الفرق الفرنسية، وتقزيم سرعة تحركها وحملها على التراجع، في نكسة دلت على الصعوبات التي اعترضت الفرنسيين في احتلال المنطقة.

تحرك قوات الجنرال شارلي (Charlet) بمجال البرانس سنة 1916³⁷



ثالثا. معارك سنة 1917 بتأثير واضح

دخلت المقاومة "البرنوسية" سنة 1917، مرحلة حاسمة مع تزايد وتيرة المواجهات ضد القوات الفرنسية، التي لجأت إلى استخدام سلاح الطيران على نطاق واسع. كان زعماء المقاومة المحليين المنضمين حديثا لعبد المالك (وعلى رأسهم محمد الخلاوي والسبيعي³⁸ ومحمد الشواي)³⁹ منكبين على تجديد التنظيمات وإعادة ترتيب التحركات. وبمجرد ما تم تحديد

الأهداف بدقة جرت استعدادات اللحظات الأخيرة بخطى حثيثة مع تقدم حملة التمشيط التي قادها -هذه المرة- الجنرال شاربي (Charrier) خلال شهر أبريل في بلاد بني فقوس ووربة وبني بويعلى⁴⁰.

وزع العقيد شاربي قواته إلى فرق مشاة وخيالة مدعمين بخمس قطع مدفعية من فئة 65 وقطعتين من فئة 4175. زحفت القوات الفرنسية من اتجاهات مختلفة على البرانس وكزناية (مخيم عبد المالك)، وببلوغها مجال بني فقوس (باب مولاي علي) وجدت نفسها محاصرة من قبل مجموعة القائد الشواي واليزيد البقالي⁴²، ومجموعة الشريف الحاج الراضي المشكلة من أربعمئة مقاتل برنوسي⁴³. كان ذلك إيدانا ببدء معارك : وادي الجمعة ووادي بروم وسوق سبت وربة والترابية والفزازرة ما بين 8 و10 أبريل، وما بين 14 و17 أبريل 1917⁴⁴. والواقع أن تراجع المجاهدين في هذه المعارك وانسحابهم في كل مرة، كان "تاكتيكا" قتاليا طالما جريه لإرباك حسابات العدو، فقد انسحبوا ليجروا وراءهم جنود الاحتلال، لتحصدهم نيران المشاة المختبئين في الحشائش وبين الصخور. وعلى الرغم من نيران مدفعية الاحتلال الشديدة كان المشاة المجاهدون يرحفون إلى الأمام، للالتفاف حول الفرنسيين والاقتراب شيئا فشيئا من قلب جيشهم الذي فقد ضباطه التحكم في تسيير القتال على جهات عدة. استمر المجاهدون في مناورة الفرنسيين بسوق الجمعة يوم 8 أبريل، وعرقلت فرق منهم تقدم الفرنسيين بسوق السبت وربة يوم 9 أبريل، وبسوق ثلاثاء الترابية (بني فقوس) يوم 14 أبريل، والفزازرة (بني بويعلى) ما بين 15 و17 أبريل⁴⁵. لقد أدى هذا القتال الشرس إلى خسائر فادحة من الجانبين، وبكفي في هذا الجدول أن تكشف عن بعض الخسائر الفرنسية⁴⁶.

المعركة	عدد القتلى	عدد الجرحى	القتلى	الجرحى
8 و9 و10 أبريل	4	30	- القبطان (Quais) قائد باب المروج - الملازم فيرود (Ferraud) - لجندي سالوم (Salome) - الكومندو كاركوبينو (Carcopino) (من فرقة الخيالة)	- فواجت (Voigt) - وبيلين (Beylen) - تروهيل (Trohel)
15 و16 و17	2	-	- الرقيب بريكمي (Bruxelle) - الرقيب كريسر (Krebsler)	-

				أبريل
--	--	--	--	-------

إن ما يؤكد النتائج الهزيلة التي حققتها حملة العقيد شاربي، هو العجز الفرنسي عن تأمين تنقل فرقهم والقضاء النهائي على مقاومة بني بويعلى الذين ظل رجالهم خلال النصف الثاني من سنة 1917 يتنقلون في ربوع أراضي وربة وبني فقوس التي عُدت مندرجة في المجال الخاضع. لقد تحكّم عبد المالك في جل النقاط الحيوية بالقبيلة وصار يهدد نقط التواصل الفرنسية بين المغرب والجزائر عبر تازة⁴⁷. لذلك جاءت زيارة ليوطي (Lyauty) إلى تازة يوم 5 يونيو 1917⁴⁸ لاحتواء الوضع ورفع معنويات جنوده لفق "عقدة بني بويعلى". ولاشك أن صاحب نظرية "التسرب البطيء" قد نصح قائد عملياته الجنرال أوبر (Aubert) بالخطة المناسبة لإنجاز ذلك. حاول الجنرال أوبر البدء بالتحكم في جبل النسور⁴⁹ على رأس قوات كبيرة، وعندما حاول احتلال مجال الفزازرة اضطر لمواجهة مقاومة شرسة في معركة "عين الحوط" يوم 13 يونيو 1917. لقد كانت بحق مصيدة أخرى للفرنسيين الذين اعترفوا في تقاريرهم بسقوط أربعة عشر قتيلًا وجرح ثمانية وعشرين، على رأسهم الضابط بانثير (Panther)، والقبطان بونيشون (Bonichon)، والملازم كامليير (Cameliere). لقد بينت هذه المعارك عجز القوات الغازية عن تحقيق ما كان مخططًا لها تحقيقه، لأنها انسحبت باتجاه قواعدها الخلفية بباب المروج وجبل الحلفة⁵⁰. ولايزال بعض شيوخ بني بويعلى اليوم يتذكرون معركة "عين الحوط" بالموضع القريب من عين جارية بفخدة الفزازرة، وكيف أجهز أجدادهم على قوات العدو وحققوا انتصارًا ساحقًا عليها بإمكانات محدودة.

رابعاً: آخر المعارك سنة 1918 وتوقف المقاومة المؤقت

بدأت حدة المقاومة البرنوسية سنة 1918 تخف، وتركزت تحصيناتها في خط بوهارون-باب العشوب ذي المؤهلات الاستراتيجية والطبيعية الغنية، وضمن ذلك هدنة مؤقتة امتدت إلى حدود فصل الربيع، إذ لم تحدث مواجهات قوية بين المقاومة والفرنسيين، ولم يغامر أي فريق من الفريقين بالخروج أبعد من خطوط التحصينات. ورغم وجود بعض المناوشات هنا وهناك تأجل الحسم إلى شهري شتنبر وأكتوبر، حيث اضطر القصف الجوي⁵¹ والتقدم العسكري الفرنسي "المرن" من جتي الحبايلة وكاف الغار المقاومين إلى الانسحاب من بوهارون نحو بني كرامة وصنهاجة⁵². ومن ثمة تمكن الفرنسيون من احتلال بوهارون وكاف الغار وأسسوا هناك مركزين عسكريين⁵³.

يمكن القول إذن، إن الأداء العام للمقاومة "البرنوسية" ما بين 1915 و1918، أثر بعمق في مشروع "التهدئة" الفرنسي، بالنظر إلى أن حظوظ تحقيقها لانتصارات حاسمة في خضم صراع أوسع دام أربع سنوات، كانت موجودة لما نزلت فعلها العسكري ميدانيا، لكن، ومع ذلك، كانت خسائرها أيضا كبيرة أعاققت مبادراتها نتيجة ظروف محلية وبنوية، وأخرى لها علاقة بتفاوت الإمكانيات والوسائل، وهذا ما كان له تبعات خلال الفترة الممتدة ما بين 1919 و1924 لما أصاب المقاومة الوهن وعلقت نشاطها في سياق وضع جديد فرضته استراتيجية الضبط السياسية والعسكرية الفرنسية، قبل أن يتأجج لهيب نارها ويتصلب عودها من جديد وبحدة أكبر، بانخراطها في حرب الريف، وهذه المرة بزعامة محلية وطارئة مشتركة بين محمد الخلافي ومحمد بن عبد الكريم الخطابي.

خامسا: معارك سنة 1925 بزعامة الخلافي: تأجج المقاومة من جديد

جاء التحاق البداية البرنوسية بحركة الزعيم الريفي سنة 1925، بعد فترة عصبية من الهيمنة السياسية والعسكرية الفرنسية على العناصر الفاعلة في البرانس، وبعدما انسلك السكان وقائدهم الخلافي من القبضة الحديدية لفرنسا بدأ أداء المقاومة ما بين أواخر أبريل وغشت 1925 مشجعا للغاية لما أطبق رجال البرانس بزعامة قائدهم "المناور" حصارهم الخانق على قوات الاحتلال في أمساف والقلعة وامسيلة والشباب وبوهارون. واستشعر المحتل خطورة الموقف وكاد أن يجهض مشروعه الاحتلالي في وسط الطريق. ويشفع دور القائد الخلافي في قيادة المقاومة "البرنوسية" خلال هذه الفترة الحساسة بأن يقارن بالقادة الميدانيين الذين ساهموا في حركة المقاومة وإن بقسط ضئيل وفي وقت متأخر ووجيز وتحت ضغط ظروف شخصية وحسابات سياسية.

القائد الخلافي واسمه الحقيقي: محمد بن الأزرق البرنوسي البوسعيدي، من مواليد 1885 بدوار الخوشنة (الطايفة). نشأ في بيت أبيه الأزرق البوسعيدي، أحد أكبر أعيان قبيلة البرانس وقتها⁵⁴. وسيتحمل الابن الذكي والشجاع⁵⁵ مسؤولية أسرته وقبيلته عقب وفاة والده بسلاوان سنة 1910⁵⁶.

لقد كان لصفات الخلافي المميزة وكذا اتصاله المبكر بالفرنسيين منذ سنة 1913⁵⁷ دور حاسم في تعيينه شيخا على فخذة بوهليل سنة 1914⁵⁸، وقائدا على الطايفة ما بين 1917 و1918⁵⁹، ثم قائدا لقبيلة البرانس بموجب ظهور⁶⁰ 1921. حيث ظهر أحد أبرز مفعلي

سياسة الضبط "الأهلي" الفرنسية بالقبيلة⁶¹، قبل أن ينقلب على الفرنسيين في صيف 1925 ويتحول إلى زعيم "ناصح" في حرب الريف⁶². فما هي بعض أدواره في هذه الحرب؟

إن الحديث عن دور القائد الخلافي في حرب الريف، يقتزن بضرورة استحضار حنكة الرجل السياسية، وتمرسه في ميادين القتال، ترجمته خططه العسكرية المطبقة بجهة البرانس ما بين يونيو ونونبر 1925، وفي الهجوم الذي تقرر تنفيذه يوم 11 يوليوز 1925 على المركز العسكري الفرنسي ببوهارون. اقتاد الخلافي فرسانه الذين ألبسهم زيا "مخزينا"، صوب محيط مركز بوهارون. موهما النقيب روكسين (Roxin) بأنه عاد ليخدم الفرنسيين. وبعدهما فتح القائد الفرنسي باب المركز انقض عليه رجال الخلافي وعلى من معه وبدأ إطلاق النار، فهرب النقيب روكسن أملا الوصول إلى مركز امسيلة⁶³. غير أنه سرعان ما قتل من طرف رجال الخلافي (حميدة بن مرابط⁶⁴، وستيتو بن قدور⁶⁵ والرحموني⁶⁶). إنها معركة فاصلة، تركت صدى سلبيا في الأوساط "الاستعمارية"، حيث وصفتها بالحدث الدرامي⁶⁷.

كما خاض الخلافي معارك شهر غشت وشتنبر 1925 ضد القوات الفرنسية والإسبانية المتحالفة تحت قيادة المارشال بيتان (Pitain)، وأربكت حرب الكمان التي اتبعها رجال الخلافي التقدم الفرنسي فوق كتلة جبل سماط يوم 25 غشت⁶⁸، في حين عكست نتائج معركة جبل أمساف والمهير في أواخر غشت تحولا نوعيا في ميزان القوى لصالح الفرنسيين رغم مجهودات الخلافي المضنية، وتتضح الصورة التي تعرضها الصحف الفرنسية لهذا التحول يوم 26 غشت، قولها: "خضنا معارك قوية حول جبل أمساف، حيث قاوم البرانس على شكل أنظمة خنادق تم إعدادها بإحكام. لكن تم طردهم بفضل سلاح المدفعية"⁶⁹.

بذل الخلافي ورجاله جهودا إضافية لإيقاف زحف مجموعة العقيد دوس (Dosse) من الجهة الغربية ومجموعة العقيد كوراب (Corap) من الشرق، لكن لم يكن بمقدوره وأواخر غشت 1925 إفشال خطة الجنرال بواشو (Boichut) المحبوكة، التي فرضت عليه الانسحاب التدريجي شمالا، ومكنت الفرنسيين في شتنبر من توسيع خط الإخضاع نحو تيزي وسلي⁷⁰، ونقطة تايناست⁷¹. في حين ظل الخلافي خلال شهر أكتوبر يقود رفقة زعيبي وربة العربي التوهامي (شيخ أولاد عبو) والحاج محند الجالي⁷² (شيخ أولاد عسى) الغارات العديدة من وراء خط المراكز العسكرية الفرنسية بصنهاجة⁷³، لاختراق جهة الكوزات مجددا⁷⁴. بل وأثمرت جهوده إنشاء مجموعة "القطا" التي أزعجت الفرنسيين بمناطق بني امحمد وحجر ملول

جنوب مركز الشباب⁷⁵. وما بين نونبر وديجنبر 1925 تمكن الفرنسيون وأتباعهم (القائد الركوك) من التحكم في آخر بؤر المقاومة بالقبيلة على تخومها الشمالية مع صنهاجة، وهكذا توالت عمليات استسلام بطون القبيلة للفرنسيين الذين نجحوا في إخماد المقاومة.

خاتمة

يمكن إدراك الهزيمة التي ألحقت بالمقاومة "البرنوسية" في أواخر سنة 1925، بالنظر إلى منازلها لجيش جرار من جميع الأطياف والأصقاع، جيشاً مضمخاً بتجربة حذقها من معارك عديدة في أوروبا وجهات أخرى تحت قيادة عسكريين متخرجين من مدارس حربية حديثة، تدعمهم قوة اقتصادية ومالية لها وزنها، وإدارة قوية بقوانين مروضة من سياسة "ليوطوية" مأكرة جربت منذ سنة 1915. لقد أدى الحشد العسكري الفرنسي-الإسباني لسنة 1925 والتعبئة الفرنسية التي خصت جبهة البرانس إلى "تفتيت" بُنى مقاومة القبيلة، التي لم تستغل كل ما توفر لديها من سبل النجاح على نحو أمثل، فانطفاً وهجها تدريجياً، بسبب ترويج الفرنسيين دعاية مسعورة حول تشتت شمل أتباع الخلادي من البرانس وغيرهم من الريفيين أواخر سنة 1925، وتسخير الإدارة الفرنسية كل ما من شأنه إقناع "الأهالي" من البرانس بحتمية التفوق العسكري الفرنسي وبمحاسن نظامهم "الاستعماري"، ثم إن عناصر المقاومة قد شعرت بالإنهك جراء صراع مرير وطويل دام عشر سنوات، وتأكد لديها بأن الحدث الجلي الوحيد هو تحطم هيبة الخلادي المنبثقة من هيبة أمير الريف التي طالما وحدت صفوف البرانس بالريفيين، وجعلتهم في خندق واحد، وصار النشاط الدعائي الفرنسي عنصراً فعالاً للاقناع من أجل استمالة أعيان القبيلة بشتى الوسائل والطرق، في وقت غابت فيه سلطة زعيم محلي قوي ومؤهل لخلافة من توفي أو أفل نجمه من زعماء المقاومة المحليين أمثال: سي إبراهيم الوري، والشيوخ بوكعبيبات، وعلي الجراوي⁷⁶، ومسعود حروش⁷⁷ ومحمد الشواي، والسبيع، والحاج حمو الفزاري، والقائد الكوراري، والعربي التوهامي، والحاج محند الجالي والقاضي سي العربي النخاسي⁷⁸ والسريع⁷⁹ والخلادي. وهكذا أعلن "الفرغ الزعماتي" بالبرانس عن نصر ماحق للفرنسيين بقيادة بيتان وعن تعميق هزيمة المقاومة واستسلامها على مضض بعد معارك ضارية.

الهوامش:

- 1- انتقلت ساكنة البرانس من 21000 نسمة سنة 1899 إلى 30000 نسمة سنة 1921. وجدت القبيلة سنة 1911 5000 رجل، و11000 رجل سنة 1913، وأكثر من 9210 رجل سنة 1915.
- Mouliéras Auguste, **Le Maroc inconnu**, première partie (exploration du Rif), Librairie coloniale et Africaine, Paris, 1895, p. 359. A. M, "**Recensement Général 1921: région de Taza: Tribus des Tsouls, des Branès, des Ghiata et des Ait Telt**", Carton B 16. Direction des affaires politiques, **Organisation territoriale du Maroc à la date du 15 mars 1940**, région de Taza, édition Felix Moncho, Rabat
- 2- Campardou (J), "**Notes archéologiques sur la région de Taza**", *In Société de Géographie d'Archéologie de La province d'Oran*, t.XLI, 1921, p.188
- 3- Trenga (V), "**Les Branès: notes pour servir à une monographie des tribus berbères de la région de Fès**", *In archives Berbères*, 1915-1916, tome premier, fax 3, Ernest Leroux éditeur, Paris, p. 202
- 4- حول أصول القبيلة وتقسيماتها، أنظر مؤلفنا: قبيلة البرانس في مواجهة الاحتلال العسكري الفرنسي: دور الزعامات في قيادة المقاومة (1912-1926). نشر المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، دار أبي رقرق، الطبعة الأولى، 2017م، ص. 42-58
- 5- هو محمد المامون بن الشيخ محمد فاضل بن محمد بن عبيد "الشنكيطي"، من أبرز زعماء المقاومة البرنوسية. ولد بمدينة شنكيط سنة 1885. حفظ القرآن الكريم والمتون على يد والده. ثم انتقل إلى القرويين بفاس سنة 1907 لدراسة العلوم النحوية، والفقه والأدب. قام برحلة إلى مكة والمدينة والقدس ودمشق وبيروت...، وعاد إلى فاس سنة 1910، قبل أن يلتحق للتدريس في جامع تازة، وبعد احتلال الفرنسيين لتازة سنة 1914 بايعته قبيلة البرانس على الجهاد. أنظر: دحمان (محمد)، "المجاهد الشيخ محمد المامون بن محمد فاضل وقبائل منطقة تازة"، *مجلة النذاكرة الوطنية*، منشورات المندوبية السامية للمقاومة، عدد 2، 2001م، ص. 74-76. القرشي (سليمان)، مادة "المامون محمد بن الشيخ محمد فاضل"، ضمن *معلمة المغرب، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر*، الجزء 20، مطابع سلا، 2004م، صص. 6962-6963
- Centre des Archives diplomatiques de Nantes (CADN), "**Notice sur Chenguiti: lettre: le Lt-colonel Derigoïn commandant le territoire de Taza à monsieur le colonel commandant la région Fez**", Taza 30 avril 1915, Carton 4MA/900/53, p. 2
- C.A.D.N., "**Rapport sur la situation politique au 1 juillet 1913**", Maroc Oriental, cercle de la Moulouya, Mcoun le 1 juillet 1913, opérations militaires et de Polices 1913-1914, Carton 4MA/900/13, p. 3

-Archives du Maroc (Rabat) (A.M), **Rapport mensuel d'ensemble du protectorat, situation politique et militaire (R.M.P)**, février, 1913, p. 4

6- **Les Armées française dans la grande guerre**, tome IX, troisième volume, Imprimerie Nationale, Paris, 1939, p. 32

7- إنجاز الباحث اعتمادا على: <http://jbala.hypotheses.org>

8- C.A.D.N, "**Taza renseignements reçus de Fèz, colonne mobile Taza**", le 20 janvier 1915, à 18 H 20, télégramme N° 14 M.T, Carton 4MA/900/13B

9- A.M, R.M.P, décembre 1914, p. 3

10- C.A.D.N, "**Copie de télégramme officiel**", région Fez, le 28 décembre 1914, à 18 H, Qoutidien Politique, Carton 4MA/900/13B

11- Château de Vincennes, paris, **Service historique de l'Armée de Terre (S.H.A.T), "Rapport du chef de bataillon Moucin chef de service des renseignements sur la situation politique dans le territoire de Taza; période du 15 au 24 janvier 1915"**, série 3H, Carton 1556, p. 3

12- C.A.D.N, "**Copie de télégramme**", 22 janvier 1915, N° 46R, 4MA/900/13B, Op.Cit

13- **Archives Nationales de France (A.N.F), Rapport de Henrys 1915-1916**, Fès 19 janvier 1915, Cote 474.AP.n 109, p. 141

14- **Historique des unités de la légion étrangère pendant la guerre 1914-1918: Maroc et Orient**, Imprimerie D. Heintz, Oran, 1922, p. 33

15- **Les Armées française**, Op.cit, p. 33-34

16- (**Historique du 2ème bataillon forment corps de 1er régiment étranger**, Imprimerie Rapid, Casablanca, 1920, pp. 19-23). (**Historique sommaire du 8 e du groupe d'artillerie de campagne d'Afrique**, 22 juillet 1919). (**Les armées française**, Op.cit, p. 199). (**Historique des unités de la légion étrangère**, Op.cit, p. 12, 17)

Voinot (Louis), **Sur les traces glorieuses des pacificateurs du Maroc**, édition Charle-Lavauzelle, Paris, 1939, p. 146

17- A.M, R.M.P, juin, 1915, p. 6

18- هو حفيد الأمير عبد القادر الجزائري، ولد سنة 1868 بدمشق. قدم إلى المغرب سنة 1902، والتحق ببوعمامة لمقاومة الفرنسيين، ثم بثورة الجيلالي الزرهوني "بوحمارة" بتازة سنة 1904. عمل قائدا للشرطة الدولية في طنجة سنة 1906 قبل أن يظهر في أحواز تازة سنة 1915 ويقود قبائلها (البرانس) لجهاد الفرنسيين إلى حدود سنة 1918، إذ سينتقل إلى منطقة النفوذ الاسبانية مهددا المصالح الفرنسية، قبل أن يقتل في قرية

ميضار أواخر يوليوز 1924. أنظ: ابن منصور عبد الوهاب، أعلام المغرب العربي، الجزء الأول، المطبعة الملكية، الرباط، 1979م، ص. 320. سكيح (أحمد)، الظل الوريث في محاربة الريف، تحقيق رشيد يشوتي، منشورات المعهد الجامعي للبحث العلمي، الرباط، 2009، ص. 98. بناني (عثمان)، "مادة الجزائر عبد المالك"، ضمن معلمة المغرب، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا، 1998م، ج 9، ص. 2985-2987

19- C.A.D.N, "Lettre de Lt colonel Derigoïn commandant la territoire de Taza à monsieur le colonel commandant la région Féz", Direction des affaires indigène", 5 aout 1915, Carton 4MA/900/31, pp.1-8

20- C.A.D.N, "Agissement abdelmalek 1915", Copie de télégramme officiel, 11 novembre 1915, N 1116 R.R, Direction de l'interieur, 1MA/282/7

21- C.A.D.N, "Agissement abdelmalek 1915", copie de télégramme officiel, 14 novembre 1915, N 1136 R.R, Direction de l'interieur, Carton 1MA/ 282/7

22- E. A, "Sur le front marocain", *In Bulletin mensuel du Comité de l'Afrique française*, janvier-février 1916, p. 9

23- "Le Maroc durant les huit premiers mois de guere Sur le front marocain mai 1915-février 1916", l'action d'Abd El Malek et la situation au début l'année nouvelle, Carton 4MA/900/13, p. 16

24- أبو القاسم (سعد الله)، "وثائق جديدة عن ثورة الأمير عبد المالك الجزائري بالمغرب"، ضمن *المجلة التاريخية المغربية*، العدد 1 يناير 1974م، ص. 61-62

25- C.A.D.N, "Agissement abdelmalek 1915", copie de télégramme officiel, 4 décembre 1915, N 1201 R.R, Direction de l'interieur, Carton 1MA/ 282/7

26- Les armées francaises, Op Cit, p. 60, 67

27- C.A.D.N, "Copie de télégramme officiel", N° 13 S. F, du bivouac de Taher Safsaf le 29 janvier 1916, quotidien politique de 27 janvier 1916, Carton 4MA/900/40

28- C.A.D.N, " Copie de télégramme officiel", N° 18 S.U. 3, du bivouac de Taher Safsaf le 30 janvier 1916, quotidien du 30 janvier 1916, colonel Simon commandant groupe mobile à général Henrys, renseignements Bab Mroudj, Carton 4MA/900/40

29- C.A.D.N, "Quotidien Taza", N° 47 TA, 1^{er} fév 1916, Carton 4MA/900/40, Op Cit

30- C.A.D.N, "Copie de télégramme Officiel", 13 février 1916 à 19 H, n° 580 R, quotidien politique du 13 février 1916, colonel Simon commandant groupe mobile à général Henrys, renseignements Bab Mroudj, Carton 4MA/900/40

31- Ibid

32- C.A.D.N, "Agissement abdelmalek 1916", Bulletin de renseignements du 30 avril 1916, région de Fès, Direction de l'interieur, Carton 1MA/282/7

33- برز اسمه في الوثائق الفرنسية بعد استشهاده أخيه سي إبراهيم الوري في معركة القطا مطلع سنة 1916

34- C.A.D.N, "Agissement abdelmalek 1916", Bulletin de renseignements du 22 février 1916, Direction de l'interieur, Carton 1MA/282/7

35- **Historique sommaire du 10 groupe d'Artillerie de champagne d'Afrique**, L. Fouque, Oran, 1920, p. 3.

36- C.A.D.N, "Territoire de Taza à commandement général du nord, priorite urgent quotidien du 30 mai 1916", télégramme N° 164 TRX, Carton 4MA/900/38

- **Archives de guerre**, mis à jour a la date du 20 décembre 1918, Henri Charles-Laauzelle, Paris, p. 133

37- www.delcampe.net

38- من دوار الخوشنة. صديق الخلادي. عينه الفرنسيون سنة 1915 شيخا على بني ورياغل، قبل أن ينضم إلى الشنكيطي، ثم عاد ليخدم الفرنسيين، وبذل جهدا كبيرا لإخضاع بني بويعلى التي سيعين قائدا عليها سنة 1918. وبعد استقراره بعين الخميس. اغتيل بتدبير من عبد المالك (Mohamed S.H.A.T, Capitaine Riez", **ben Larzreq El Khalladi ancien caïd des Branes**", memento des consignes du bureau du (cercle de tainest, 1947, Carton 3H 1629, pp. 6-13

39- Ibid, pp. 11-12

40- **Archives du Maroc (Rabat) (A.M), Action allemande (1907- 1918)**, Avril 1917, Carton C 394, , p. 3

41- Ibid

42- C.A.D.N, "Agissements Abdelmalek 1917", bulletin de renseignements, région de Taza, service des renseignements, N° 663 R, Taza Le 31 mars 1917, le Lt-colonel Charlet, commandant le territoire de Taza, Carton 1MA/282/7. **A.M, R.M.P**, avril 1917, p.4

43- C.A.D.N, "Agissements Abdelmalek 1917", bulletin de renseignements, région de Taza, service des renseignements, N° 462 R, Taza le 10 mars 1917, Carton 1MA/282/7

44- **Historique des unités**, Op.cit, p.29

45- "**Sur le front marocain**", *In Bulletin mensuel du Comité de l'Afrique française*, mai-juin 1917, p. 191

46- **Historique des unités**, Op.cit, pp.20, 30-31. Voinot (L), **Sur les traces**, Op.Cit, p. 154

47- Voinot (L), **Sur les traces**, Op.Cit, p. 148

48- **Les armées française**, Op.Cit, p. 141

49- Voinot (L), Op.Cit, p. 148

- ⁵⁰- **Historique des unités de la légion étrangère**, Op.Cit, p.32. **Les armées française**", Op.Cit, p. 142. **Les Goums mixtes marocains pendant la campagne 1914-1918**, Imprimerie rapid, Casablanca, 1920, p 1. Voinot, Op.Cit, p. 149
- ⁵¹- S.H.A.T, "**Lettre de général Aubert chef de cercle de Taza à résidence général**", 6 novembre 1918, Carton 3 H 1556
- ⁵²- **Archives du Maroc (Rabat) (A.M), Action allemande (1907-1918)**, septembre 1918, Car C 394, p. 4
- ⁵³- Voinot (L), **Sur les traces**, Op.Cit, p. 149
- ⁵⁴- S.H.A.T, "**Mohamed ben Larzreq El Khalladi**", Op.Cit, p. 1-2
- ⁵⁵- Manue Georges R, **Sur les marches du Maroc insoumis**, Librairie Gallimard, 1930, p. 176-177. S.H.A.T, "**Mohamed ben Larzreq**", Op.Cit, p. 15
- ⁵⁶- **رواية شفوية**، أجريت يوم السبت 20 ماي 2017م بتازة السفلى على الساعة العاشرة صباحا مع محمد بن علال بن لزرق البوسعيدي، من مواليد دوار الخوشنة سنة 1917 (وهو ابن أخ القائد الخلادي)
- ⁵⁷- C.A.D.N, "**Le chef de bataillon Mougine, obj: "venue à Msoun du Cheikh Kelladi des Taïfa**, Carton 4MA/900/13
- S.H.A.T, "**Mohamed ben Larzreq El Khalladi** , Carton 3H 1629, Op.Cit, p. 7
- ⁵⁹- Ibid, p. 9
- ⁶⁰- "**G VI 20 R de Taza: Beni Bou Yala : lettre de général Aubert; commandant la région Taza à monsieur le commissaire résident général Rabat**", Direction des Affaires Cherifiennes, Le 14 novembre 1921, Carton 1MA/300/52
- ⁶¹- C.A.D.N, "**Lettre : le colonen Freydenberg; commandant la région de Taza à monsieur le ministre plénipotentiaire, délégué à la Résidence Général (Directeur des affaires indigènes et du service des renseignements à Rabat**", le 15 décembre 1923, Carton 1MA/100/195, p. 2
- ⁶²- S.H.A.T, "**Mohamed ben Larzreq**", Carton 3H 1629, Op.Cit, p. 23
- ⁶³- Ibid, p. 26-27
- ⁶⁴- من دوار الخندق (وربة). من أبرز رجال القائد الخلادي الذين انضموا معه إلى الثورة الريفية في شهر يونيو 1925، وشاركوا في معارك سنة 1926، وسيقتل بعد ذلك ذلك S.H.A.T, "**Mohamed ben Larzreq**", Op.Cit, p. 28
- ⁶⁵- من دوار الخندق، ومن رجال الخلادي الأوفياء الذين انضموا معه إلى الحركة الريفية في أواخر يونيو 1925 وانتقلوا معه إلى المنطقة الاسبانية بعد ذلك ذلك S.H.A.T, "**Mohamed ben Larzreq**", Op.Cit, p. 28

- 1925- من ساكنة دوار الخندق (وربة)، ومن رجال الخلادي الذين التحقوا معه إلى الثورة الريفية صيف 66
 "Mohamed ben Larzreq", Op.Cit, p. 28 S.H.A.T, وإلى المنطقة الاسبانية بعد استسلام الخطابي
- 67- Bordes (P), **Dans le Rif**, Imprimerie des mission Africaines, Lyon, 1927, p. 52
- 68- Celarié (H), **L'épopée marocain**, Librairie Hachette, 1928, p. 140-142
- 69- "**Nous occupons les anciens postes de la région des Branès**", *In Le Figaro*, 72^{ème} année, N° 240, vendredi 28 aout 1925, p. 1
- 70- ابن عزوز حكيم، معارك الثورة الريفية، مطبعة الساحل، الطبعة 2، الرباط، 1983م، ص. 220
- 71- Anonyme, "**La bataille du Riff**", *In Revue France-Maroc*, 9^{ème} année, N° 105, aout 1925, p.178
- 72- من أعيان أولاد عسى وشيخها، اشتغل مع الفرنسيين الذين عينوه عضوا بجماعة البرانس مرتين سنتي 1919 و1922. قبل أن يلتحق بالحركة الريفية سنة 1925. ويشارك الخلادي في عدة معارك. خاصة معركة 17 أكتوبر 1925، ومعارك دجنبر 1925 التي سيتشهد في إحداها هو وابنه عبد السلام.
- 73- **Archives du Maroc (Rabat) (A.M), "Situation politique 1925"**, rapport mensuel mois d'octobre 1925, Carton B 08, p. 4
- 74- S.H.A.T, "**Mohamed ben Larzreq**", Carton 3H 1629, Op.Cit, p. 32
- 75- C.A.D.N, "**Bulletin de renseignement n° 7 du 21 au 30 décembre 1925**", (confidentiel), commandement supereur des troupes du Maroc, Etat-Major, 2^{ème} bureau, N° 867/2, opérations militaire de 1925, front nord, Fès le 31 octobre 1925, Carton 1MA/100/156, p. 2
- 76- هو علي بن مطيطو الجراوي (أولاد جرو). ولد على الأرجح سنة 1850. تميز موقفه من الفرنسيين بالتذبذب. في سنة 1915 ساعدهم في عمليات إخضاع بطون وبة، وانقلب عليهم في أواخر دجنبر في معركة بوقلا. وسيلقى عليه الجنرال شارلي (Charlet) القبض أواخر ماي ومطلع يونيو 1916.
- 77- من شيوخ بني فقوس، وقد ظل موقفه من مقاومة الاحتلال غير واضح إلى حدود يوم 7 دجنبر 1915، حيث أقنعه سي إبراهيم الوربي بالمشاركة وإخوانه في معركة بوقلال، لكنه استسلم للفرنسيين في منتصف دجنبر 1915، وعاد ليدعم عبد المالك في معارك شهر مارس 1917 بوادي الجمعة (بني فقوس). ولا نعث في الوثائق الفرنسية التي اطلعنا عليها ما يبرز سيرة بعد سنة 1917
- 78- هو سي العربي النخاسي، قاضي البرانس، وصهر الخلادي، كان منزله بالنخاخصة (وربة) سنة 1925 قبيلة لزيارات زعماء المقاومة، واحتضن أسرة الخلادي عندما سافر هذا الأخير إلى تاركيست للقاء ابن عبد الكريم. قبل أن يبرز اسمه في الثلاثينيات كأحد العدول في محكمة وربة، "**Mohamed ben Larzreq**", S.H.A.T, Op.Cit, pp. 25, 41
- 79- ينتهي إلى فخذة أولاد كنون (وربة)، انضم إلى الحركة الريفية منذ أواخر يونيو 1925، وساعد الخلادي في مواجهات غشت. ومع تقدم الفرنسيين في شهر أكتوبر حاول الالتحاق بالخلادي بالمنطقة الاسبانية، غير أن

الريفيين منعه وسجنوه في تاركيست. وبعد انتهاء حرب الريف عينه الفرنسيون شيخا على تربيعةين (وربة)
S.H.A.T, "Mohamed ben Larzreq", Op.Cit, pp. 24, 31, 33)

عنوان المقال: دور الجزائر في دعم حركات التحرر
في العالم و مناهضة الاستعمار في القارة السمراء "
قضية الصحراء الغربية انموذجا"

الكاتب: أ/ محمد بن ترار
طالب دكتوراه جامعة شلف

البريد الإلكتروني: bentrar1974@yahoo.fr

تاريخ الارسال: 03/01/2020 تاريخ القبول: 19/02/2020 تاريخ النشر: 2020/03/31
دور الجزائر في دعم حركات التحرر في العالم و مناهضة الاستعمار في القارة السمراء "
قضية الصحراء الغربية انموذجا"

الملخص بالعربية: تقدم المداخلة الدور الفعال التي لعبته الجزائر في دعم حركات التحرر بأفريقيا وتصفية الاستعمار ، والدور الذي لعبته الدبلوماسية الجزائرية بعد الاستقلال في إرساء الامن والاستقرار بالقارة السمراء ، من خلال دعم الشعوب المستضعفة في التحرر والاستقلال .

وتناقش المداخلة قضية الصحراء الغربية المدعومة من قبل الجزائر ، والتطرق لأهم المواقف الجزائرية في المحافل الدولية لدعم القضية الصحراوية مع الوقوف عند اهم الحوادث والاحداث المتعلقة بالقضية من الاستقلال الى يومنا هذا واهم النتائج التي تم تحقيقها بناء على المواقف والجزائرية والاطروحات السياسية التي قدمتها الدبلوماسية الجزائرية لحل المشكل . كلمات مفتاحية: الدبلوماسية الجزائرية، حركات التحرر، تصفية الاستعمار، الاستقلال، الامن والاستقرار، المحافل الدولية، الاطروحات السياسية.

مقدمة

تلعب الجزائر دورا فعالا في حل الازمات في الساحل الافريقي بالطرق السلمية ودعم حركات التحرر بأفريقيا من اجل تصفية الاستعمار ، وتشجيع البلدان على تسير امورها بنفسها ، وتشجيع العمليات التحريرية بطرق سلمية ، والقضاء على كافة اشكال العنف والحروب وفقا لما جاء في بيان أول نوفمبر 1954 وما نجم عنه من دعم لمبادرات حق تقرير المصير للدول المستعمرة¹ و تعتبر قضية الصحراء الغربية إحدى أواخر المعائل التي تستوجب الاستقلال والتي لقيت دعما كبيرا من قبل الدولة الجزائرية منذ استقلال الجزائر سنة 1962 باعتبارها احد اهم القضايا الراهنة رفقة القضية الفلسطينية التي تلقى دعم الدولة الجزائرية الحديثة بمختلف حكوماتها المتعاقبة²، و ذلك منذ اندلاع الازمة الصحراوية التي أعلنت فيها الجبهة

الشعبية لتحرير الساقية الحمراء و وادي الذهب عن تأسيس دولتهم والاستقلال عن التبعية المغربية ، التي اعترفت بها حوالي 80 دولة في 27 فبراير 1976 على رأسها مدغشقر، بنين ، موزمبيق، الجزائر والهند وبعد عام 2000 تضاعف عدد الدول المعترف بها منهم جنوب افريقيا وكينيا....³.

والتي تطورت الى قضية دولية تلقت الدعم والسند من قبل الدول الراضية للاستعمار ، وكانت القضية التي شطرت مواقف دول القارة الافريقية والعالم الى جناحين ، جناح مؤيد للقضية الصحراوية والذي تزعمه الجزائر واسبانيا ، وجناح مؤيد للمغرب بالحماية على الساقية الحمراء و وادي الذهب بزعامة النيجر وفرنسا ودخلت حرب المصالح السياسية الساحة لتبقى القضية على أدراج هيئة الأمم المتحدة منذ أكثر من 10 سنوات بين جذب ورد في المواقف خاصة وان هذه القضية كانت سببا في اندلاع حروب إقليمية على غرار حرب الرمال سنة 1963⁴ وواقعة أمقالا سنة 1976⁵ بدعم من أطراف بعيدة عن المنطقة على غرار مصر وفرنسا والولايات المتحدة الأمريكية ، ومن خلال دراستنا هذا سنحاول ان نقف على موقف الجزائر من القضية الصحراوية تاريخيا وسياسيا وما هي القواعد التي بنت عليه الجزائر موقفها ، وهو الأمر الذي يستوجب علينا أن نطرح الإشكاليات الأساسية التي نبي عليها المداخلة ، والمتمثلة في الاتي:

هل كانت الصحراء الغربية قبل الاستعمار الاسباني إقليم حر؟ وماهي الدوافع التي بنت عليها الجزائر قناعاتها السياسية لدعم القضية الصحراوية؟ وكيف كانت السبل في ذلك؟

1-جدلية الاعتراف بالصحراء الغربية ككيان أم كدولة وموقف الجزائر منه ؟

تختلف الدراسات القانونية حول قضية اعتراف الجزائر بالصحراء الغربية ففي الوقت الذي يرى الجناح السياسي للدولة الجزائرية أن الاعتراف الدولي بدولة جديدة يعتبر في الآونة الأخيرة من احدى الشروط الرئيسية لوجود هذه الدولة في المجتمع الدولي وقبولها من كافة أعضاء المجتمع الدولي أو غالبية أعضائه ، أو من أكثرهم قوة و نفوذا⁶ ، وهو ما يتحقق في قضية الصحراء الغربية الذي تعترف بها دول كبرى ومن مختلف انحاء العالم ، على رأسها غالبية الدول الافريقية القريبة من موقع القضية وعمقها لأنها تتعلق بشعب افريقي الذي كان مستعمرا من قبل الاسبان ، وبعد الاستقلال أعلنت الجبهة الشعبية لتحرير الساقية الحمراء و وادي الذهب عن قيام دولة مستقلة وذات سيادة في 27 فبراير 1976 ليصدر في اليوم الموالي دستور الدولة وسرعان ما نالت اعتراف جملة من الدولة على رأسها الجزائر ، مدغشقر ،

الموزمبيق والهند لتتوسع القائمة بعد 24 سنة الى غالبية الدول الافريقية⁷، وهو ما يحقق المبدأ الأول الذي بنت عليه الدولة الجزائرية موقفها المنبثق من بيان ؟أول نوفمبر وما تلاه من السياسة الخارجية للدولة الجزائرية ، خاصة وان اغلبية الدولة التي تعترف بالصحراء الغربية كدولة هي دول افريقية وتقاسم الجزائر نفس الأفكار والمبادئ زيادة على دول وقفت ضد المغرب في حرب الرمال سنة 1963 وواقعة امقلا سنة 1976⁸. وما يضاعف من قوة الموقف الجزائري في هذه القضية هو قرار محكمة العدل الدولية التي انعقدت ما بين 25 جوان الى غاية 30 جويلية من سنة 1975⁹ والتي خلصت بعد المداولات الى ان كل الوثائق التي تم فحصها وخصوصا المراسلات الخاصة بتطبيق معاهدة تطوان 1860 وكذا الاتفاق الاسباني المغربي سنة 1900 وما تبعها من رسائل الاتفاق الذي عق بين فرنسا والمانية سنة 1911 لا تشكل قرينة قوية لضمان الاعتراف بسيادة المغرب على الصحراء الغربية ولا يعتبر دليل على وجود سلطة فعلية لسلطان المغرب في إقليم الصحراء الغربية.¹⁰

من جهة أخرى نجد الرأي المخالف مبني على اتفاقية مدريد¹¹ والذي خلص بعد اكثر من يومين من التفاوض الى اتفاقية المبادئ التي تقسم الأرض الصحراوية بين المغرب وموريتانيا في حين تستفيد اسبانيا اقتصاديا وعسكريا من خلال الترخيص لإقامة قاعدتين عسكريتين مقابل جزر الكناري والسماح لأسطولها البحري بالصيد في المياه الإقليمية الصحراوية ، زيادة على ضمان استغلال الفوسفاط من مناجم بوكراع ، هذا الرأي ورغم تدويله من قبل الجناح المدعم للمغرب لكنه بطريقة معاكسة يدعم الموقف الجزائري بقوة بحكم انه يخالف المادة 77 من الميثاق الاممي لان اسبانيا لم تحل ملف الصحراء الغربية ضمن مجلس الوصاية؟؟¹²

2-جدلية الاعتراف بالصحراء الغربية بين التاريخ والقانون والسياسة واثره على الموقف الجزائري :

يختلف الدارسون للقضية الصحراوية من مؤيدين للاعتراف بها كدولة مستعمرة تستوجب الاستقلال، أو الذين يحاولون فرض تبعيتها للمغرب عبر بوابة الحكم الذاتي ، في طريقة الاعتراف ، فإذا اجمع السياسيون ورجال القانون أن الاعتراف الدولي باي دولة يستوجب ان تكون ذات تموقع في المجتمع الدولي ،وتكون لديها رقعة جغرافية وقيادة شرعية معترف بها ، زيادة على ان تقبل من كافة أعضاء المجتمع الدولي أو من غالبية أعضائه من ذوي القوة والنفوذ والتأثير ، وهو ما يتوفر في قضية الصحراء الغربية التي تملك رقعة جغرافية كانت محتلة من قبل الاسبان وقيادة التي ظهرت ، سنة 1976 ضمن الجبهة الشعبية لتحرير

الساقية الحمراء ووادي الذهب والتي لقيت اعترافا دوليا ، جعل الجزائر تتخذ قرارها بدعمها مع الدول الأوتل بحكم ان المبدأ صحيح والشروط الأساسية متوفرة خاصة في اعتراف أعضاء الوحدة الافريقية بالصحراء الغربية .

هذا وقد أعطى اعتراف منظمة الوحدة الافريقية بدولة الصحراء الغربية تعريزا للموقف الجزائري الذي أعتبر صائبا ، خصوصا بعدما تم الاعتراف بالصحراء الغربية كدولة ذات عضوية كاملة في الاتحاد الافريقي وتم منحها مقعدا مثل باقي الدول ذات السيادة والكيانات ، الامر الذي اعتبره المغرب استفزاز وانسحب من عضوية منظمة الوحدة الافريقية سنة 1984 والذي يعتبر اول انسحاب من عضوية المنظمة ، والذي اكد المغرب انه خروج لمثاق المنظمة على المبادئ التي تنص على احترام السيادات الدولية وكياناتها واسس للتمرد من قبل مختلف التنظيمات ، واثار المغرب القلاقل حول هذه القضية واعتبر الاعتراف بدولة ليس لها وجود على الأرض ولا كيان على الخريطة.¹³

هذه الرؤيا التي يعتبرها السياسيون العرب يتقدمهم الدكتور حسن شبكشي¹⁴ خطأ جسيما ويربط الصحراء الغربية على انها جزء من المغرب مغللا تحليله بميثاق الدار البيضاء¹⁵ ، مؤكدا ان الصحراء الغربية هي مجرد جماعات تقيم بمخيمات تندوف بالحدود الغربية الجزائرية ، وبالتالي فإن الاعتراف بها من قبل أعضاء الوحدة الافريقية غير مقبول ، لعدم توفر شرط أقامه أصحاب الدوى (البوليساريو) فوق الأرضية التي تقيم وطنا به¹⁶ ، وبالتالي حسب أصحاب هذه النظرية ان علاج هذا المشكل كان يستوجب ان يكون وفقا للسبل المتاحة وكذا طريقة التعايش لفصول القضية¹⁷.

هذه التبريرات التي حاولت المغرب تسويقها منذ سنة 1984 الى يومنا هذا اصطدمت باعتراف أكبر مؤسسة اشتراكية دولية في العالم وهي هيئة الأمم المتحدة التي تعمل الى حسم قضية الصحراء الغربية ، الى غاية اليوم من خلال طرح خيار الاستفتاء الذي تحاول المغرب اجهاضه ، هذه الهيئة التي اعتبرت القرار الجزائري عين الصواب من خلال الموقف المبدئي مع حق الشعوب في تقرير مصيرها ، وأكدت ذات الهيئة ان ما قامت به منظمة الوحدة الافريقية هو عين الصواب ، بحكم انها صادقت على قرارها بعد الأخذ بعين الاعتبار إرادة شعب هذا الإقليم الافريقي ، ومن باب الحفاظ على السلم وأمن افريقيا وسلامتها واحتراما لحق تقرير الشعوب لمصيرها والتصرف في شؤونها وعدم المساس بالحدود الموروثة عن العهد الاستعماري التي تعتبر من الأركان الأساسية في اصدار القرارات وهو المبدأ الذي اقرته في ميثاق المنظمة

الافريقية ضمن التمهيد في الفقرة السابعة، والذي طبقه بكل حزم خلال اجتماع منظمة الوحدة الافريقية بالقاهرة سنة 1964 وهو القرار الذي صادق عليه رؤساء الدول في اجتماعه خلال سنة 1965.¹⁸

وفي الجانب التاريخي فقد غدت محكمة العدل الدولية وبناء على طلب الجمعية العامة للأمم المتحدة خلال جلساتها الـ 27 المنعقدة للنظر في قضية الصحراء الغربية في الفترة الممتدة ما بين 25 جوان و30 جويلية موقف الجزائر، وفندت رؤى كل من موريتانيا والمغرب السيادية على الإقليم الصحراوي من خلال الوقوف على انه مستعمرة اسبانية منذ 1884 واجابت عن أسئلة التبعية لها بالنفي وصادقت على 1960/12/14 الذي يحمل الإعلان حول منح الاستقلال للبلاد والشعوب الراضخة تحت الاستعمار بعد خروجه والعمل على تطبيق حق تقرير المصير، واعتبرت أن جباية الضرائب لفائدة سلطان المغرب من سكان منطقة الصحراء الغربية غير كاف لأخذه كدليل يضمن تبعية إقليم الصحراء للمغرب ولا لموريتانيا بحكم ان الشيخ ماء العينين كان يعمل بإقليم الساقية الحمراء تحت امانة السلطان.

3. دور الجزائر في تراجع موريتانيا عن تقسيم الصحراء الغربية ودعم الجوار للقضية:

لعبت الدولة الجزائرية وعلى رأسها الرئيس الراحل هواري بومدين دورا فعالا في الغاء اتفاقية مدريد وتراجع موريتانيا وعلى رأسها المختار ولد دادة عن أطماعهم في ارض الصحراء الغربية، هذا وكانت موريتانيا قد اختلفت مع الجزائر خلال صيف سنة 1975 فارتمت في أحضان المغرب وراحت تصادق على قبول تقسيم الصحراء الغربية مع المغرب بوساطة اسبانية التي تحاول السيطرة على المنطقة في مجال الصيد وتحافظ على مكانتها الاقتصادية، هذا الاختلاف ظهرت بوادره بقوة في لقاء بنواحي بشار الذي لم يعامل فيه هواري بومدين المختار ولد دادة كرئيس، بل ان الجزائر قامت بحجز طائرة المختار ولد دادة مقابل ديون موريتانيا ما جعل الأمور الموريتانية تتعقد خاصة في ظل وقف الدعم الجزائري.¹⁹

امام هذا الوضع لم يجد المختار ولد دادة غير الاتصال بالزعيم معمر القافي شارحا له الظروف التي تنتظر موريتانيا في المستقبل القريب، الذي وعد بدعمه خاصة بعدما استعمل الرئيس الموريتاني الخديعة مدعيا ان المغرب يحاول اقتحام حدوده والسيطرة على أجزاء من ترابه، ليضمن الحصول على شحنة من الأسلحة لدخول الصحراء الغربية، هذا التصرف الذي قلب الموازين السياسية بالمنطقة وخلق تحركات اجتماعية كادت ان تعصف بكيان موريتانيا من الحركة الشعبية الداخلية التي قادها الزوج (السكان الاصليون لموريتانيا

²⁰الذين يرفضون كل أشكال التعايش مع مواطني الصحراء الغربية أو ما يعرفون بسكان الساقية الحمراء ووادي الذهب لأنها تهدد كيانهم وتقلب موازين القوة في البلاد ، خصوصا وان سكان الساقية الحمراء اكثر عدد وبالتالي سيسيطرون على الحكم في موريتانيا. هذا وكانت هذه الحركية الاجتماعية سببا في تهديد العلاقات ما بين موريتانيا والمغرب من خلال واقعة البساط الأحمر في مطار بموريتانيا ²¹التي اعتبرا الحسن الثاني إهانة له رغم تأكيد حاكم نواديبو الزنجي انه كان في التنظيف ، الا القضية كانت مفتعلة في لقاء كان من المفروض انه يدرس قضية تقسيم الصحراء الغربية ما بين موريتانيا والمغرب بواسطة إسبانية ، هذه الحادثة غيرت سير القضية خاصة وان اللقاء لم يدم اكثر من نصف ساعة ، ولم يسمح فيه لممثل الصحراويين بالدخول للاجتماع وحضوره ولا حتي تفويض من ينوب عنه وتقديم مذكرة .

هذا ويتضح من خلال اللقاء الموريتاني المغربي الأخير الطموح المغربي في ابتلاع الصحراء الغربية ، حيث تؤكد بعض الكتابات ان المغرب كان وراء حركة الزنج الموريتانيين لقطع الطريق امام نواكشط في الطموح بالصحراء الغربية خاصة وان كل منهما كانت تدعي ضمها من اجل الحفاظ على الوحدة الإقليمية ما خلق كيانا جديدا كشف دوافع الطرفين واطماعهما التي تحولت الى صراع غير معلن وسرعان ما تم إعلانه من قبل المغرب ، من جانب آخر فقد كلف دعم موريتانيا للمسيرة الخضراء تدهور الأوضاع الداخلية لموريتانيا ما أدى الى انقلاب 15/07/1978 الذي أطاح بنظام المختار ولد دادة و تكلم بوقف العمليات الصحراوية بالأراضي الموريتانية وانتهى بتنازل موريتانيا عن اطماعها في الصحراء الغربية من خلال اجتماع منظمة الوحدة الافريقية بمنروفيا عام 1979 ووقعوا اتفاق السلام في الجزائر خلال نفس السنة. ²²

هذا الاتفاق جعل موريتانيا تنسحب من المخطط وتشجع الصحراويين على المحافظة على وجودهم والاعتماد على جماعة الشيوخ الصحراويين الذين أقاموا لقاء في منطقة "القلعة" ²³ وجمع أكثر من 60 شيخا ورئيسا للقبائل وتخلله تأسيس مجلس للجماعة الصحراوية يتكون من حوالي 100 عضو واصدروا خلاله بيانا تاريخيا تمسكوا به باستقلالهم عن كل من موريتانيا والمغرب واكدوا التفاهم حول جبهة البوليساريو وتشكيل المجلس الوطني الصحراوي المؤقت. ²⁴

هذا التحول من قبل الجناح الموريتاني الذي رجع الى علاقاته مع الجزائر التي لعبت دورا فعالا في المنطقة من خلال جمع المواقف العربية أتجاه القضية فكان اللقاء الأول مع الزعيم الليبي معمر القذافي سنة 1975 بمنطقة حاسي مسعود والذي خلص الى دعم منظمة البوليساريو ، كما أقامت ليبيا علاقات معها تخص الدعم المادي والعسكري وتحولت طرابلس الى قاعدة أساسية لجبهة الساقية الحمراء ووادي الذهب ، حيث تمكن الصحراويين من بث اول برنامج أداعي من طرابلس بعنوان "الساقية الحمراء ووادي الذهب في طريق التحرير" والذي ترك اثارا كبيرة بالمنطقة واحتج بشأنه المغرب احتجاجا كبيرا.²⁵ هذا وقد ظلت ليبيا صاحب اهم موقع دعم للقضية الصحراوية بمعية الجزائر طيلة عشرية من الزمن الى غاية أواخر 1983 اين بدأت تجنح ليبيا نحو الحياد، من جهتها لعب مصر دورا كبيرا في دعم حق تقرير مصير الشعب الصحراوي وكانت مصر بصفقتها الصديقة التقليدية للجزائر فكانت تؤيد أفكار التحرر وطالبت سنة 1981 بضرورة تنظيم استفتاء في الصحراء الغربية حول تقرير المصير تشرف عليه هيئة الأمم المتحدة أو أي هيئة دولية ، من جانب اخر أيدت دول المشرق العربي اتفاق مدريد وطالبت اسبانيا بقبول طلب المغرب لتقسيم الصحراء وقد تزعمت هذه الفكرة اغلب دول المشرق العربي وعلى رأسهم الكويت التي دعمت المغرب بقوة.²⁶ من جهتها منظمة التحرير الفلسطينية اخذت موقفا الى جانب المغرب من خلال رسالة ياسر عرفات الى الملك الحسن الثاني في 1975/11/11، ورغم ان منظمة التحرير الفلسطينية كانت في غنى عن ارقام نفسها في هذا الملف لكي لا تخسر الاجنحة المدعمة لاستقلال الصحراء الغربية في دعم القضية الفلسطينية لكن ياسر عرفات تدخلت لكسب دعم الرباط وجاء ضد قرارات هيئة الأمم المتحدة التي تعتبر إقليم الصحراء الغربية اقليما متنازع عليه ، هذا وقد كان للجزائر دورا كبيرا في التحول الدولي لدعم الصحراء الغربية التي أصبحت اليوم بأجماع دولي على انها قضية تصفية استعمار.

الخلاصة:

ان المتفحص لمسيرة الجزائر في دعم قضية الصحراء الغربية كقضية تصفية استعمار يقف أن الموقف الجزائري لم يتغير ولم يتزحزح رغم ان الخصم في القضية دولة شقيقة مجاورة وهي المغرب التي كان لها دور وعلاقات تاريخية قديمة في مجال دعم الثورة وكذا تقرير المصير، ما يشير ان القضية مستمدة من مبدأ أساسي ووثيقة دستورية التي بنيت عليها الثورة التحريرية وهي بيان أول نوفمبر الذي حددت فقراته السياسة الخارجية للجزائر الداعمة للدول

المستعمرة لتحقيق استقلالها ، ورغم ما دفعته الجزائر من خسائر بشرية وعسكرية وسياسية في سبيل التخلي عن دعم هذه القضية على غرار أحداث حرب الرمال 1963،. معارك مقالا سنة 1976 لكن الموقف الجزائري لم يتزعزع كما انه يدعم كافة المنظمات التحريرية في العالم على غرار القضية الفلسطينية .

هذا ورغم التحول السياسي والفتور في العلاقات الذي يشهده الواقع السياسي مع المغرب طيلة عقدين من الزمن ورغم عودة العلاقات من خلال فتح الحدود البرية ما بين الجزائر خلال أواخر الثمانينات وعودة العلاقات الدبلوماسية ما بين البلدين الا ان الموقف لم يتغير رغم المحاولات ، لتشهد المنطقة إعادة اغلاق الحدود في 1994/08/24 بعد أحداث فندق افني بمراس لكن ذلك أيضا لم يغير من الموقف ما يؤكد أن الدبلوماسية الجزائرية تعتمد على المواقف وليس على المتغيرات لأنها منبثقة من تاريخ عريق وثابتة على قواعد متينة ومبادئ لا تستوجب التراجع الا بزوال الاستعمار

قائمة المصادر والمراجع:

- صالح فركوس، تاريخ الجزائر من ما قبل التاريخ إلى غاية الاستقلال ، دار العلوم للنشر، الجزائر، 2005
- طاهر مسعود، نزاع الصحراء الغربية بين المغرب والبوليساريو ، دار المختار ،دمشق ، سوريا 1997.
- محمد بادي ، مصطفى الكتاب ، النزاع على الصحراء الغربية بين القوة وقوة الحق ، مكتبة الأسد ،دمشق ، سوريا 1998
- محمد المجذوب ، التنظيم الدولي ، النظرية والمنظمات العالمية والإقليمية المتخصصة ، ط07، منشورات الحلبي الحقوقية ، بيروت لبنان، 2002.
- الدكتورعلي حسن الشيكشي محلل اقتصادي سعودي من مواليد 1964/05/17 شغل عضو شركة عكاظ للصحافة والنشر مشهور بكتابه " قراءة في كف افريقيا الذي طبعه سنة 1998
- عبد الوهاب بن منصور ، ملف الصحراء المغربية الغربية ، أمام مؤتمر القمة العشرين لمنظمة الوحدة الافريقية المنعقد باديس ابابا12 نوفمبر 1984، المطبعة الملكية الرباط، المغرب 1984،
- علي حسن شيكشي ، قراءة في كف افريقيا ، دار النهار ، دم ، 1998 ،

- . مذكرة خاصة حول الصحراء الغربية ، الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية .
 محمد سعيد القشاط : الاسراب الجانحة ، دار العلوم العربية ، بيروت لبنان ، 1989 .
 . نبيه الاصفهاني ، محور الصراع في الصحراء الغربية ، مجلة السياسة الدولية ،
 العدد، 1975/01/29 ،
 - ميلود بن غربي ، موقف الجزائر من نزاع الصحراء الغربية في اطار المتغيرات الإقليمية
 والتحديات الوطنية ، كنوز الحكمة ، الجزائر ، 2011
 . ميلود بن غربي ، الصحراء الغربية والحل المفقود ، مقال صحفي بجريدة الاخبار اللبنانية ،
 2007/01/13
 . مجلة السياسة الدولية المصرية ، العدد 44 ، ابريل 1976
 الهوامش

- 1- صالح فركوس ، تاريخ الجزائر من ما قبل التاريخ إلى غاية الاستقلال ، دار العلوم للنشر ، الجزائر ،
 2005، ص433
 2- مجلة السياسة الدولية المصرية ، العدد 44 ، ابريل 1976 ص 221، 220
 3- ميلود بن غربي ، موقف الجزائر من نزاع الصحراء الغربية في اطار المتغيرات الإقليمية والتحديات الوطنية
 ، كنوز الحكمة ، الجزائر ، 2011 ص74
 4. حرب الرمال هي حرب اندلعت ما بين الجزائر والمغرب في شهر أكتوبر من سنة 1963 غاية واستمرت الى
 غاية 1964/02/20 وذلك بعد زحف الجيوش المغربية على منطقة تندوف وحاسي بيضة بدعم من فرنسا
 ينظر "Ottaway1970P166"
 5- واقعة أمقالا هي معركة اندلعت ما بين 03 الوية من الجيش الجزائري وعناصر من البوليساريو في يناير من
 سنة 1976 بعد اعتراض الجيش المغربي لقاطلة مؤن جزائرية كانت في طريقها الى البوليساريو ما تسبب في
 مقتل ما يقل عن 400 قتيل و 106 سجين وانتهت في 15 فبراير 1976 ينظر " MOURICE BARBIER.LE
 "CONFLIT DU SAHARA OCCIDENTAL.PARIS.1982 P185
 6. ميلود بن غربي ، المرجع السابق ص 75.
 7. محمد بادي ، مصطفى الكتاب ، النزاع على الصحراء الغربية بين القوة وقوة الحق ، مكتبة الأسد ، دمشق ،
 سوريا 1998 ، ص ص 83، 82
 8. ميلود بن غربي ، مرجع سابق ص75
 9. محمد بادي ومصطفى الكتاب ، مرجع سابق ، ص 63

10. طاهر مسعود، نزاع الصحراء الغربية بين المغرب والبوليساريو، دار المختار، دمشق، سوريا، 1997، ص 38
11. هو اتفاق عقد في مدينة مدريد بتاريخ: 14 نوفمبر 1975 جمع 03 دول موريتانيا، اسبانيا والمغرب، ينظر ميلود بن غربي ص 64¹¹
12. محمد المجدوب، التنظيم الدولي، النظرية والمنظمات العالمية والإقليمية المتخصصة، ط07، منشورات الحلبي الحقوقية، بيروت لبنان، 2002، ص 282
- 13¹³. ميلود بن غربي، مرجع سابق، ص ص77، 78
- 14 الدكتور علي حسن الشبكشي محلل اقتصادي سعودي من مواليد 1964/05/17 شغل عضو شركة عكاظ للصحافة والنشر مشهور بكتابه "قراءة في كف افريقيا الذي طبعه سنة 1998
15. ميثاق الدار البيضاء، انبثق عن لقاء جرى سنة 1961 بالمغرب برئاسة محمد الخامس وحضرته وفود مصر، سوريا ليبيا، غانا، مالي والحكومة المؤقتة الجزائرية
16. عبد الوهاب بن منصور، ملف الصحراء المغربية الغربية، أمام مؤتمر القمة العشرين لمنظمة الوحدة الإفريقية المنعقد باديس ابابا 12 نوفمبر 1984، المطبعة الملكية الرباط، المغرب 1984، ص ص 170، 171
17. علي حسن شبكشي، قراءة في كف افريقيا، دار النهار، دم، 1998، ص ص 344، 345
18. مذكرة خاصة حول الصحراء الغربية، الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية، دن، دت، ص 37 45، 46، 47
19. ميلود بن غربي، مرجع سابق ص ص 66 67
20. محمد سعيد القشاش: الاسراب الجانحة، دار العلوم العربية، بيروت لبنان، 1989، ص 341
- 21- جرت هذه الحادثة في مطار بموريتانيا بعدما رفض حاكم نوادييو فرش البساط الأحمر الذي يعد من الإجراءات الدبلوماسية تحت اقدام الحسن الثاني الذي حضر للحوار حول تقسيم الصحراء ينظر ميلود غربي ص 69
22. نبية الاصفهاني، محور الصراع في الصحراء الغربية، مجلة السياسة الدولية، ع29، 39/01/1975، ص 151
22. القلته، هي بلدة صغيرة تقع بالجنوب الشرقي للصحراء الغربية على الحدود مع الجزائر.
23. محمد بادي ومصطفى الكتاب، مرجع سابق ص 82
- 24- ميلود بن غربي، مرجع سابق ص 71
25. ميلود بن غربي، الصحراء الغربية والحل المفقود، مقال صحفي بجريدة الاخبار اللبنانية، 13/01/2007

عنوان المقال: معاهدة وادي عربة "جنور
و آفاق"

د. عبد الله احمد حسن عبد الله
المؤسسة: جامعة فيلادلفيا الأردن

البريد الالكتروني: abdalla200585@yahoo.com

تاريخ الإرسال: 2020/12/24 تاريخ القبول: 2020/02/12 تاريخ النشر: 2020/03/31
معاهدة وادي عربة "جنور و آفاق"

الملخص:

جاءت هذه الدراسة لتسلط الضوء على معاهدة وادي عربة التي تعتبر هي "معاهدة السلام الأردنية الإسرائيلية" بحد ذاتها، وسوف تتطرق هذه الدراسة إلى جذور تلك الاتفاقية وإلى أهم الدوافع التي دفعت الجانب الأردني لتوقيع تلك الاتفاقية عام 1994م مع الجانب الإسرائيلي، وأيضاً ستسلط هذه الدراسة الضوء على أهم المؤتمرات السياسية الدولية التي ساهمت في دفع مسيرة السلام بين الجانبين، ابتداء بمؤتمر مدريد للسلام عام 1991م، الذي كان بمبادرة أمريكية، وصولاً إلى مؤتمر واشنطن عام 1993م حتى إعلان اتفاقية وادي عربة عام 1994م، التي تنص على تحقيق سلام عادل بين الجانبين، وجاء التوقيع على تلك الاتفاقية بسبب الظروف الصعبة التي كان يمر بها الأردن من النواحي السياسية والاقتصادية والعسكرية، حيث كان عقد معاهدة السلام خياراً استراتيجياً لضمان عدم خسارة الأردن مزيداً من أراضي المملكة، وبموجب تلك الاتفاقية استطاع الأردن استرداد الأراضي الأردنية التي احتلتها إسرائيل وبخاصة منطقتي "الباقورة والغمر"، وأيضاً استرد الأردن مياه نهر الأردن التي قامت إسرائيل بتحويلها إلى المستوطنات الإسرائيلية وأرواء أراضي النقب.

كلمات مفتاحية: معاهدة وادي عربة، مسيرة السلام، إسرائيل، دوافع السلام

Summary of English : Wadi Arabah Treaty: Roots and Prospects

This study sheds light on the Wadi Arabah Treaty, which is considered the Jordanian-Israeli peace treaty in itself. This study will address the roots of that agreement and the most key motives behind the Jordanian side's decision to sign that agreement in 1994 with the Israeli side. Also, this study will explore the most significant

international political conferences that contributed to advancing the peace process between the two sides, starting with the Madrid Peace Conference in 1991, which was an American initiative, and the Washington Conference in 1993, leading to the declaration of the Wadi Arabah Agreement in 1994. Of note, this said agreement provides for achieving a fair peace between the two sides. The signing of that agreement was because of the difficult circumstances that Jordan was going through in terms of political, economic and military aspects, where the completion of the peace treaty was a strategic option to ensure that Jordan does not lose more of its lands. According to the said agreement, Jordan was able to restore the Jordanian lands occupied by Israel, especially "Baqoura, Ghumar" regions, along with the waters of the Jordan River that Israel had converted into Israeli settlements beyond the Naqab lands.

Key words: Wadi Araba Treaty, Peace Process, Israel, Peace Motives

مقدمة

لم يكن هناك اي معاهدة اردنية اسرائيلية قبل سنوات التسعينيات من القرن العشرين بسبب قيام اليهود باحتلال الاراضي الفلسطينية واقامة دولة اسرائيل على ارض فلسطين العربية عام 1948م، فضلا عن الاعتداءات الاسرائيلية على مياه نهر الاردن وتحويلها للمستوطنات اليهودية وانشاء مشاريع زراعية وصناعية تحتاج لكميات كبيرة من المياه تخدم المشروع الاسرائيلي. وكذلك قامت اسرائيل بالاعتداء على سكان قرى الضفة الغربية التي كانت تابعة الى الأردن بموجب وحدة الضفتين عام 1950م، ومن ثم جاءت حرب حزيران عام 1967م، وبموجبها احتلت اسرائيل الضفة الغربية التابعة للأردن وهذا الشي ادى الى توتر العلاقات بين الجانبين حتى ظهور المبادرات الامريكية مرة اخرى بعد انتهاء حرب الخليج عام 1991م، التي تدعو الدول العربية لإقامة سلام مع اسرائيل من اجل انتهاء حالة الحروب مع الدول العربية والتوجه نحو السلام والاستقرار في المنطقة العربية . وبوجب ذلك بدأت اتفاقية السلام الاردنية الاسرائيلية تلوح في الافق ورأى الاردن ضرورة التوجه الى السلام من اجل التخلص من اغلب المشاكل التي كانت تعانيه سواء أكانت سياسية او عسكرية او اقتصادية وخصوصا عندما خرج الاردن

بخسائر اقتصادية بعد تلك الحرب، واغتنت الحكومة الأردنية الفرصة التي قدمتها الولايات المتحدة الأمريكية تحت اسم " مبادرة السلام " القائمة على قراري مجلس الامن الدولي 242 و338 وعلى الارض مقابل السلام، وإعادة الحقوق المشروعة للفلسطينيين .

أولاً: دو افع السلام.

قبل التطرق لتفاصيل المفاوضات الأردنية الإسرائيلية خلال سنوات التسعينات، لابد من معرفة الدوافع التي دفعت الجانب الأردني لإجراء مفاوضات تهدف إلى الوصول إلى اتفاق موثق ومعترف به يحمل اسم معاهدة السلام:

دو افع الجانب الأردني:

1- فك الارتباط القانوني بين الضفتين:

بعد سبعة وثلاثين عاماً من الاتفاق والوحدة والارتباط بين الضفة الغربية والضفة الشرقية، جاء قرار فك الارتباط وكان في 1988/7/31م. في ذلك اليوم أعلن الملك الحسين قرار الأردن فك العلاقة القانونية والإدارية بين الضفتين الشرقية والغربية ومنح السلطة الفلسطينية الإدارة المباشرة لرعاياها بدل من الإدارة الأردنية⁽¹⁾.

وعندما جاء قرار فك الارتباط لقد تم إلغاء برامج خطط التنمية في الضفة الغربية، وقامت الحكومة أيضاً بالدعوة إلى إبراز الهوية الفلسطينية، لكي تتولى منظمة التحرير جميع الأعمال بالضفة الغربية⁽²⁾.

ويبدو أن هذا الدافع دفع الأردن إلى إجراء محادثات مع إسرائيل في سنوات التسعينات من القرن الماضي، والتوقيع على معاهدة السلام الأردنية الإسرائيلية، ولابد الحديث

إلى أن الأردن في معظم محادثاته مع إسرائيل كان يطالب بإعادة الضفة الغربية التي انتزعتها إسرائيل في حرب 1967م، وكان هذا السبب عائقاً أمام إجراء محادثات سلام بين الدولتين، لكن نتيجة لقرار فك الارتباط القانوني بين الضفة الغربية والشرقية، لقد سقط هذا المطلب من المطالب الأردنية خلال محادثاته مع إسرائيل، وأصبح يطالب بالسلام الحقيقي منذ ذلك التاريخ.

2- الدافع الاقتصادي:

نتيجة لقيام أزمة الكويت وحرب الخليج عامي 1990-1991م، وقف الأردن بجانب الشعب العراقي، ونتيجة لذلك تم إقفال جميع منافذه البرية والبحرية على الخليج العربي، وأغلق الخليج أسواقه في وجه الأردن⁽³⁾.

وقد أسفرت تلك الأزمة عن تكبد الأردن خسارة بنحو ملياري دولار، كما نشأ عنها ارتفاع في نسبة البطالة وخاصة في قطاع النقل⁽⁴⁾، وازدادت نسبة الفقر وغلاء المعيشة، وتوقف المساعدات الخارجية وتراكم الديون⁽⁵⁾.

ونتيجة لهذه الخسائر أدرك الأردن أنه يجب إقامة معاهدة سلام مع إسرائيل من أجل تعويض خسارته التي تكبدها نتيجة لحرب الخليج⁽⁶⁾.

ويرى المسؤولون الأردنيون أن فتح الأجواء الإسرائيلية أمام الطائرات الأردنية، وإمكانية استخدام الموانئ الإسرائيلية على البحر المتوسط، سيؤمن للمملكة الأردنية منفذاً ثميناً يؤدي إلى تحسين الاقتصاد⁽⁷⁾.

واعتقد الأردن أن السلام مع إسرائيل هو طريق لفك الحصار على ميناء العقبة، والحصول على المساعدات الاقتصادية، وقد تبين للأردن أن الذي سيفتح طريقه إلى إقامة علاقات مع بعض الدول العربية الغاضبة أو فك الحصار عن ميناء العقبة أو زيادة المساعدات الاقتصادية هو إظهار استجابة حقيقية للشروط الصهيونية الأمريكية⁽⁸⁾.

3- انهيار المعسكر الشيوعي الاتحاد السوفياتي عام 1989م كقوة لها وزنها ودورها، مما أدى إلى نهاية الحرب الباردة، وهذا جعل الولايات المتحدة الأمريكية أن تتبنى عملية السلام في منطقة الشرق الأوسط بهدف حماية مصالحها في المنطقة⁽⁹⁾.

في ذلك الوقت أرادت الولايات المتحدة أن تظهر دورها السياسي في محاولة التوصل لإنهاء الصراع العربي- الإسرائيلي، كان الدافع العام لهذه المحاولة هو تغير سياسيتها الشرق أوسطية وخاصة أن لها حلفاء جدد أكثر نشاطاً، مما دفعها إلى القيام بمحاولة لإحلال السلام، والعمل على جعل دول المنطقة تعيش بأمن واستقرار⁽¹⁰⁾.

ولابد الإشارة إلى أن زعيم هذه المحاولة كان الرئيس جورج بوش الذي طرح المبادرة على أربعة مبادئ أساسية:

- 1- مقايضة الأرض بالسلام.
- 2- عقد اتفاقيات أمنية مشتركة.

- 3- الاعتراف بإسرائيل.
- 4- حفظ الحقوق السياسية للفلسطينيين.
- هذه المبادئ الأربعة هي مستمدة من قراري مجلس الأمن الدولي 242-338⁽¹¹⁾.
- يرى الباحث، أنه بسبب الدعم الأمريكي لعملية السلام، وافقت الأردن على إجراء مفاوضات مع إسرائيل من أجل التوصل إلى عقد اتفاقية سلام مستندة لقرارات مجلس الأمن 242-338.
- 5- تقدم الوفود الفلسطينية والسورية واللبنانية لإجراء محادثات مع إسرائيل، لإعادة حقوقها من أجل السلام ، وهذا ما حصل في مؤتمري مدريد وواشنطن، وأن تقدم الدول العربية في مفاوضاتها مع إسرائيل دفع الأردن لتوقيع معاهدة السلام⁽¹²⁾.
- ثانياً: انعقاد المؤتمر الوطني الأردني:**
- نتيجة لنشوب حرب الخليج عام 1991، التي سببت للأردن أزمة اقتصادية خانقة، وارتفاع في مستوى البطالة، والآثار السلبية الأخرى التي سببها الحرب⁽¹³⁾.
- أدرك الملك حسين أنه يجب الخوض في مسيرة سلام مع إسرائيل من أجل القضاء على الحروب والمشاكل الناتجة عنها، بدأ الملك حسين بهذه المسيرة بتاريخ 1991/10/12م، عندما قام بإلقاء خطاب في قصر الثقافة بمدينة الحسين للشباب على أعضاء المؤتمر الوطني العام، حيث وجه الملك خلال المؤتمر خطاباً قومياً شاملاً إلى أبناء الأسرة الأردنية الواحدة⁽¹⁴⁾.
- وحضر المؤتمر ممثلو كافة التيارات السياسية والحزبية والعشائرية، وبرعاية الملك حسين بن طلال حيث وفق على اعتبار خيار السلام الأردني هو الخيار الاستراتيجي ولا يخرج عن المسار العربي، وإن الأردن سيشارك في مؤتمر مدريد للسلام⁽¹⁵⁾.
- وإن مؤتمر السلام سيعمل على استرجاع الأرض من إسرائيل والحديث حول الأمن الإقليمي والسلام بين دول المنطقة وحل مشكلات البيئة والمياه والتنمية الاقتصادية وغيرها.
- وأن السلام لا يمكن أن يتحقق إلا عن طريق المفاوضات مع إسرائيل من أجل حل جميع المشاكل المشتركة⁽¹⁶⁾
- وبعد ذلك تحدث الملك حسين عن الأسس التي ستتبع في مؤتمر السلام وكانت كالتالي:
- 1- ستجري مفاوضات السلام في مسارين:

- أ- مسار فلسطيني- إسرائيلي.
- ب- مسار عربي إسرائيلي، وذلك من خلال لجان ثنائيه تشكل لهذه الغاية، إذ سيكون هناك لجنة سورية إسرائيلية ولجنة لبنانية إسرائيلية، ولجنة أردنية فلسطينية مشتركة إسرائيلية.
- 2- بحث قضايا إقليمية ذات اهتمام مشترك لدول المنطقة في لجنة ثالثة موسعة تشارك فيها، بالإضافة إلى أطراف المفاوضات الثنائية، وكذلك دول مجلس التعاون الخليجي وهذه القضايا: حل مشكلات البيئة والمياه وتقليص الدمار الشامل وتحقيق التوازن الاقتصادي والاجتماعي بين شعوب المنطقة من خلال برامج تنمية مشتركة شاملة⁽¹⁷⁾.
- 3- سيكون قرارا مجلس الأمن 242-338، هما الأساس الذي سيعقد عليه المؤتمر والأساس الذي ستجري عليه المفاوضات، وسينعقد المؤتمر برعاية الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي، وستمثل فيه الأمم المتحدة بمندوب عن الأمين العام وسيقوم الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة باطلاع الأمين العام للأمم المتحدة على سير المفاوضات.
- 4- ما يتوصل إليه المتفاوضون من اتفاقيات ترد في النهاية إلى الأمم المتحدة.
- 5- يتدارس الوفد الأردني الفلسطيني المشترك أردني، غير أن الفريق الأردني في الوفد هو الذي يبحث في البعد الأردني، بينما يقوم الفريق الفلسطيني في الوفد ببحث البعد الفلسطيني وستوفر المحادثات الثنائية لكل من الفريقين فرصة طرح كل القضايا المركزية التي تشكل موضوع اهتمام كل منها.
- 6- ستتاح للأردنيين والفلسطينيين، كما لسائر الأطراف فرصة قيام كل فريق بالإدلاء ببيان واف يتضمن آراءه ومواقفه.
- 7- البعد الفلسطيني في المفاوضات هو الوحيد الذي سيبحث في مرحلتين: الأولى مرحلة الاتفاق على عناصر المرحلة الانتقالية، والثانية مرحلة الاتفاق على الحل النهائي وهناك ترابط بين المرحلتين يتمثل ببدء المفاوضات على المرحلة الثانية في السنة الثالثة من تنفيذ المرحلة الأولى، وستمثل مفاوضات الحل النهائي موضوع القدس العربية التي ينطبق عليها قرار مجلس الأمن 242 انطباقه على الضفة الغربية المحتلة⁽¹⁸⁾.
- 8- إن الإطار المرجعي لإجراء مفاوضات المرحلة الأولى لن يؤثر أو يحكم مسبقاً على الطريقة التي ستتبع لحل المشكلات ذات الصلة بالمرحلة اللاحقة إلى مرحلة الحل النهائي وهذا مبدأ أساسي.

9- قرار 242 كما تفهمه الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي والعالم ينطبق على سائر الأراضي العربية التي احتلت في حرب 1967م بما فيها القدس العربية.

10- أكدت الولايات المتحدة للأردن بأنها ستبذل وسعها لإنهاء المفاوضات المتعلقة بالفترة الانتقالية خلال عام واحد، وهذا يعني أنه ليس من المستبعد أن تشهد بعد عام واحد من بداية المفاوضات بداية إنهاء الاحتلال الإسرائيلي في الوقت الذي يبدأ فيه الأخوة الفلسطينيون في الضفة الغربية وقطاع غزة ممارسة مسؤولياتهم في الحكم على أنفسهم⁽¹⁹⁾.

وبعد نهاية المؤتمر الوطني بستة أيام وجهت الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي للعرب وإسرائيل المشاركة في مؤتمر مدريد الذي سيعقد في 30 تشرين الأول 1991 خارج إطار الأمم المتحدة، وحمل هذا المؤتمر اسم مؤتمر " سلام الشرق الأوسط" الذي ورد ذكره في رسالة التطمينات الأمريكية لإسرائيل يوم 18/10/1991م، وشارك في المؤتمر أطراف النزاع بحضور مراقبين⁽²⁰⁾.

وبعد اختيار الأردن للمشاركة في المفاوضات مع إسرائيل، وجه جلاله الملك حسين رسالة ملكية بتكليف الدكتور عبد السلام المجالي، لكي يرأس الجانب الأردني في مؤتمر مدريد للسلام بتاريخ 26 تشرين أول 1991م⁽²¹⁾.

وفي 27 تشرين الأول رد عبد السلام المجالي على رسالة الملك بقبوله بالتكليف بأن يرأس الوفد الأردني والحديث عن السلام في المنطقة⁽²²⁾.

ثالثاً: مشاركة الأردن في مؤتمر مدريد للسلام:

بدأت المفاوضات العربية الإسرائيلية في 30 تشرين أول 1991، في العاصمة الإسبانية مدريد، حيث دارت المحادثات بين جميع الأطراف المشاركة، والحديث عن المشاكل السابقة ويجب إيجاد حلول لهذه المشاكل عن طريق تفعيل السلام في المنطقة⁽²³⁾.

وكان المؤتمر تحت رعاية الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفياتي برئاسة جورج بوش الرئيس الأمريكي وميخائيل غورباتشوف، حيث افتتح الرئيسان المؤتمر بالقاء كلمتان عن مشاكل الشرق الأوسط، ويجب البدء بالمفاوضات بين العرب وإسرائيل، من أجل تحقيق السلام في المنطقة⁽²⁴⁾.

وحضر المؤتمر الوفد الأردني الفلسطيني برئاسة الدكتور كامل أبو جابر وزير الخارجية، وترأس الجانب الأردني الدكتور عبد السلام المجالي، وترأس الوفد السوري فاروق الشرع، وترأس

الوفد المصري عمرو موسى وزير الخارجية، ترأس الوفد الفلسطيني الدكتور حيدر عبد الشافي، وترأس الوفد اللبناني فارس بوبز وزير، وأما عن الجانب الإسرائيلي ترأس الوفد رئيس إسحاق شامير⁽²⁵⁾.

وحضر المؤتمر ممثلون عن المجموعة الأوروبية ومثلتها هولندا برأسه هانس بروك، ومثل مجلس التعاون الخليجي الأمين العام للمجلس عبد الله بشارة، فضلاً عن مشاركة اتحاد المغرب العربي ومثله الأمين العام للاتحاد محمد عمامو⁽²⁶⁾.

وانتهت جميع هذه المفاوضات بتوقيع الجانب الفلسطيني على اتفاق غزة وأريحا الذي يمنح للفلسطينيين إقامة حكم ذاتي بموجب القرار⁽²⁷⁾.

وخلال المؤتمر تحدث الدكتور كامل أبو جابر عن السلام، وإن السلام لا يتحقق إلا عن طريق المفاوضات بين العرب وإسرائيل، استناداً إلى قراري 242-338، وتحدث عن التنمية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي لا تتحقق إلا عن طريق الأمن والاستقرار في المنطقة⁽²⁸⁾.

وأما المطالب الإسرائيلية فقد كانت تتجه نحو التشدد والتعصب ومطالبة العرب الاعتراف كلياً بوجود إسرائيل، ووقف الانتفاضة، وإجراء مفاوضات مباشرة منفردة مع إسرائيل⁽²⁹⁾.

أما بخصوص المرحلة الثانية من الاتفاقية كانت في يوم 3/11/1991 م، حيث عقدت جلسة بين الوفد الأردني والوفد الإسرائيلي الذي كان يرأسه (روبشتان) وكان رئيس الوفد الأردني الدكتور المجالي، وأيضاً عقدت جلسات ثنائيه بين الوفود العربية والوفد الإسرائيلي، وخلصت هذه الجولة بوجود مصاعب جمة وتكون كما يلي:

- 1- تمسك الوفد الإسرائيلي بأن تكون الجولان جزءاً لا يتجزأ من إسرائيل.
 - 2- اعتبار نهر الأردن الحدود الشرقية لدولة إسرائيل.
 - 3- استمرار إسرائيل في بناء المستوطنات في الأراضي العربية.
- وعلى أثر تمسك إسرائيل بهذه المبادئ لقد انقطعت المفاوضات العربية الإسرائيلية، لكن تدخلت الولايات المتحدة الأمريكية⁽³⁰⁾، لدفع مسيرة المفاوضات إلى الأمام، وفي 13/1/1992 استأنفت المفاوضات الأردنية الإسرائيلية، حيث تم الاتفاق على مسارين واحد أردني والآخر

فلسطيني، وبعد ذلك تم عقد المؤتمر في موسكو وحضر المؤتمر مندوبون عن 40 دولة، وتم تشكيل مجموعة من لجان التنمية والمياه والاقتصاد والتسليح ومشكلة اللاجئين⁽³¹⁾.

وبعد تولي حكومة حزب العمل في إسرائيل برئاسة اسحاق رابين استأنفت جميع الأطراف محادثاتها في واشنطن يوم 1992/8/24م، ونتيجة لذلك استطاع الوفد الأردني والوفد الإسرائيلي إلى وضع جدول أعمال مشترك يرضي جميع الأطراف مستمد من القرارات الشرعية لمجلس الأمم، وكان هدف الطرفين من استمرارية المفاوضات تحقيق الأمور الآتية:

- 1- إعادة ترسيم الحدود بين الأردن وإسرائيل.
- 2- إبعاد فكرة الوطن البديل عن الأردن.
- 3- ضمان أمن وسلامة الوطن والمواطنين.
- 4- الحصول على الحقوق المائية وتقسيم مياه نهر الأردن وبحيرة طبريا ونهر اليرموك وبناء السدود.

5- استرداد أراضي محتلة تقارب مساحتها من 381 كم².

6- التقارب والتمثيل السياسي والعيش بأمن وسلام⁽³²⁾.

ويبدو أن مؤتمر مدريد يعتبر انطلاقة جديدة في مستقبل العلاقات العربية الإسرائيلية بشكل عام والعلاقات الأردنية الإسرائيلية بشكل خاص، وإن المؤتمر رسم آفاقاً مستقبلية حول الحديث عن المشاكل الأردنية المعلقة مع إسرائيل.

وظهرت نتائج مؤتمر مدريد إلى حيز الوجود في المحادثات التي جرت في واشنطن خلال عامي 1993-1994.

رابعاً: المفاوضات الأردنية الإسرائيلية في واشنطن:

نتيجة لانعقاد مؤتمر مدريد لقد بدأت اللقاءات الأردنية الإسرائيلية تظهر إلى حيز الوجود، حيث بدأت الجولة الثانية من المفاوضات في 10 كانون الأول 1991م من محادثات السلام الأردنية الإسرائيلية، واستمرت على فترات متقطعة خلال عامي 1991-1992 حيث اشتملت على (11) جولة تفاوضية بين الوفدين، ونتج عن هذه المفاوضات الاتفاق على جدول الأعمال الأردني الإسرائيلي الذي تم توقيعه في 3 أيلول 1993⁽³³⁾.

وبعد أن كلف الملك الحسين الدكتور عبد السلام المجالي بتشكيل الحكومة بتاريخ 1993/5/29م، أسندت رئاسة الوفد الأردني إلى الدكتور فايز الطراونة السفير الأردني في

واشنطن، الذي رئس الجانب الأردني في المفاوضات مع الجانب الإسرائيلي حتى توقيع المعاهدة الأردنية الإسرائيلية في 26 تشرين أول 1994⁽³⁴⁾.

وفي 14 أيلول لقد تم التوقيع على الاتفاق المبدئي بين الجانب الأردني برئاسة الدكتور فايز الطروانة وعن الجانب الإسرائيلي إلياكمر وبنشطان رئيس الوفد الإسرائيلي⁽³⁵⁾ وفيما يلي النص الكامل لجدول الأعمال المشترك في المسار الأردني الإسرائيلي في مفاوضات السلام⁽³⁶⁾:

1- الهدف:

أ- تحقيق السلام العادل والدائم والشامل بين الدول العربية والفلسطينيين وإسرائيل وفقاً لما تقرر في دعوة مدريد.

ب- العناصر الأساسية لمفاوضات السلام بين الأردن وإسرائيل:

1- البحث عن خطوات للوصول إلى حالة سلام تستند إلى قراري مجلس الأمن 242 و338 بجميع جوانبها.

2- الأمن:

أ- الإحجام عن أعمال أو نشاطات من أي طرف، وقد تؤثر عكسياً على أمن الطرف الأخر أو تحكم مسبقاً على النتيجة النهائية للمفاوضات.

ب- تهديدات تمس الأمن، ناتجة عن جميع أنواع الإرهاب.

ج- تعهد:

-الالتزام المتبادل بأن لا يهدد أي طرف الأخر عن طريق استخدام القوة وعدم استخدام الأسلحة من جانب أي طرف ضد الطرف الأخر بما في ذلك أسلحة الدمار الشامل التقليدية وغير التقليدية⁽³⁷⁾.

– تعهد متبادل، وبأسرع ما يمكن وقبل أي شيء آخر، العمل نحو جعل الشرق الأوسط خالياً من أسلحة الدمار الشامل، والأسلحة التقليدية، ونبغي تحقيق هذا الهدف في سياق سلام شامل ودائم ومستقر يتسم ببند استخدام القوة والوفاق والانفتاح.

ملحوظة: من الممكن تنقيح الفقرة (ج-2) الواردة أعلاه وفقاً للاتفاقيات المتعلقة بذلك والتي سيتم التوصل إليها من قبل مجموعة العمل المتعددة الأطراف الخاصة بالحد من التسليح والأمن الإقليمي.

– يتم الاتفاق المتبادل على ترتيبات آمنة وتدابير بناء الثقة والأمن.

3- المياه:

أ- ضمان حق كل طرف في حصصه من المياه.

ب- البحث عن طرق لتلافي نقص المياه.

4- اللاجئين والمهجرون: الوصول إلى حل عادل ومتفق عليه للجوانب الثنائية لمشكلة اللاجئين والمهجريين وفقاً للقانون الدولي.

5- الحدود ومسائل الأراضي: تسوية مسائل الأراضي وتعيين وترسيم علامات حدودية متفق عليها للحدود الدولية بين الأردن وإسرائيل، وذلك بالرجوع إلى تعريف الحدود تحت الانتداب وذلك دون الإضرار بوضع أي من الأراضي التي أصبحت تحت سيطرة الحكومة العسكرية الإسرائيلية عام 1967م وعلى كل من الجانبين أن يحترم ويلتزم بالحدود الدولية المذكورة أعلاه⁽³⁸⁾.

6- البحث في إمكانية التعاون الثنائي المستقبلي في إطار إقليمي حينما كان ذلك مناسباً وذلك في المجالات التالية:

أ- الموارد الطبيعية: المياه، الطاقة، البيئة، تطوير وادي الأردن.

ب- الموارد البشرية: العمل والعمال، الصحة والتعليم، السيطرة على المخدرات.

ج- البنية التحتية: النقل برأً وجواً، الاتصالات.

د- المجالات الاقتصادية بما في ذلك السياحة.

7- وضع مراحل للنقاشات والاتفاق وتنفيذ البنود الواردة سابقاً، بما فيها الآليات المناسبة للمفاوضات حول مجالات معينة.

8- مناقشة المسائل المتعلقة بكلا المسارين حسيماً يتم إقرارها بشكل مشترك من قبل المسارين.

9- ومن المؤمل في نهاية المطاف وبعد التوصل إلى حلول مرضية للطرفين بالنسبة لعناصر هذه الأجندة أن تتوج هذه المحاولة باتفاقية سلام⁽³⁹⁾.

وبعد الحديث عن عناصر المفاوضات بين الدولتين، لقد ازدادت الاجتماعات الأردنية الإسرائيلية في واشنطن، حيث عقدت اجتماعات أردنية إسرائيلية، اشترك فيها الجانب الأردني برئاسة الأمير الحسن بن طلال، وعن الجانب الإسرائيلي شمعون بيرس رئيس وزير خارجية دولة إسرائيل، وكان اللقاء الأول في 1 تشرين أول 1993، حين تحدث الأمير حسن عن الثوابت

الأردنية التي لن يتخلى عنها الأردن مثل إعادة حقوق الشعب الفلسطيني تمشياً مع القرارات الشرعية الدولية المتمثلة بقراري 242-338⁽⁴⁰⁾.

وكان اللقاء الثاني بتاريخ 3 تشرين الأول 1994م، وعلى أثر اللقاء تم إقرار البيان الأردني الإسرائيلي الأمريكي المشترك، الذي يتطرق بصورة تفصيلية للحديث عن أسس السلام والعلاقات السياسية والاقتصادية بين الدولتين⁽⁴¹⁾.

ونتيجة لاستمرارية المحادثات الأردنية الإسرائيلية، لقد اتفق الطرفان على تحديث البيان السابق بتطوير العلاقات بين الدولتين، حيث أقر الملك الحسين ورئيس الوزراء الإسرائيلي اسحاق رابين وبحضور الرئيس الأمريكي بل كلينتون، نص إعلان واشنطن بتاريخ 25 تموز 1994م، وفيما يلي نص الإعلان⁽⁴²⁾:

1- أكد الطرفان على وضع حد لإراقة الدماء والأحزان عن طريق التوصل إلى إقامة سلام عادل ودائم وشامل بين الدول العربية والفلسطينيين وإسرائيل.

2- سيواصل البلدان مفاوضاتهما لإحلال السلام بين دولة إسرائيل وجيرانها العرب على أساس قراري مجلس الأمن الدولي 242-338.

3- تحترم إسرائيل الدور الحالي والتاريخي الخاص للملكة الأردنية الهاشمية في الأماكن المقدسة الإسلامية في القدس.

4- اعتراف البلدان بحقهما والتزامهما بسلام مع بعضهما البعض، وكذلك مع باقي الدول ضمن حدود أمنة ومعترف بها، ويؤكدان على اعترافهما بسيادة كل دول المنطقة ووحدة أراضيها واستقلالها السياسي.

5- يرغب البلدان بتطوير علاقات حسن الجوار والتعاون بينهما وصولاً لتحقيق الأمن الدائم ولتفادي التهديدات واستخدام القوة بينهما⁽⁴³⁾.

وأيضاً تحدث الملك الحسين واسحاق رابين، عن كيفية تطوير ترابط العلاقات بين الدولتين، لكي يتم تجاوز الحواجز النفسية والابتعاد عن الحرب، وأكد الطرفان أنه لا يتم تجاوز تلك الأمور إلا عن طريق مايلي:

1- التعاون في مجال الاتصالات عن طريق ربط خطوط الهاتف بين الأردن وإسرائيل بشكل مباشر⁽⁴⁴⁾.

- 2- التعاون في المجال الاقتصادي عن طريق تسهيل عبور البضائع بين الدولتين بإنشاء نقاطي عبور جديدتين واحدة في الشمال والثانية في الجنوب(العقبة- ايلات).
 - 3- التعاون المشترك في إنشاء شبكات كهربائية للربط بين الدولتين.
 - 4- إعطاء حرية المرور بين الأردن وإسرائيل للسواح.
 - 5- استئناف المفاوضات وتسريعها من أجل فتح ممر جوي بين الدولتين.
 - 6- التعاون الأمني بين الدولتين من أجل مكافحة الجرائم والتهرب وستشترك الولايات المتحدة في هذا العمل.
 - 7- تستمر المفاوضات المتعلقة بالشؤون الاقتصادية تمهيداً للتعاون الثنائي المستقبلي بما ذلك إلغاء سائر أنواع المقاطعة الاقتصادية⁽⁴⁵⁾.
- حيث تميزت النصوص التي تضمنها إعلان واشنطن، بأنها نصوص تقريرية، حيث لا يمكن تنفيذها بصورة فورية ولكنها تحتاج إلى تحديد وتفصيل لكثير من النقاط وتوضيحها بجانب تحليل للأسس والمبادئ ووضعها موضع التنفيذ في الواقع، وقد أكد الإعلان هذا المفهوم من خلال نصوصه التي أكدت على أن هناك عدة مفاوضات للوصول إلى صيغة نهائية في اتفاق السلام، وبالتالي يعتبر إعلان واشنطن من طبعة اتفاقيات السلام ويتضح هذا في الآتي⁽⁴⁶⁾:
- 1- جاء بإعلان واشنطن نصوص تعتبر أساساً يقوم عليه التفاوض لعقد اتفاق سلام نهائي، حيث اعتبرت قراري مجلس الأمن الدولي 242-338 في سائر اتفاق جوانها أساس المفاوضات التي تحقق اتفاق سلام، وفقاً للاحترام والاعتراف الكامل بسيادة كل دول المنطقة ووحدة أراضيها واستقلالها السياسي.
 - 2- احتوى اتفاق إعلان واشنطن على نصوص توضح طبيعته كاتفاق مبدئي تعقبه مفاوضات واجتماعيات للأطراف الأردنية والإسرائيلية، حيث نص على أن يواصل البلدان بشكل حثيث مفاوضاتهما للوصول إلى حالة سلام كما نصت الفقرة الأولى على أن الأردن وإسرائيل " يسعيان إلى معاهدة سلام بين البلدين"⁽⁴⁷⁾.
- خامساً: المفاوضات الأردنية الإسرائيلية في وادي عربة:
- في 1994/7/18م، بدأت في منطقة الحدود الأردنية الإسرائيلية على بعد 13 كيلو مترا شمال مدينة العقبة المفاوضات الثنائية الأردنية الإسرائيلية لبحث عدد من القضايا

الرئيسية في جدول الأعمال المشترك لاستعادة الحقوق الأردنية وتحقيق السلام العادل والشامل في المنطقة وتتناول المفاوضات قضايا المياه والطاقة وترسيم الحدود والبيئة والأمن⁽⁴⁸⁾. وخلال المؤتمر ألقى رئيس الوفد الأردني الدكتور فايز الطراونه كلمة على الحضور، تعطي تصور كامل لعملية السلام وحلولاً للمشاكل التي تشترك بين العرب وإسرائيل⁽⁴⁹⁾.

وفي 1994/7/20 أعلن الدكتور فايز الطراونه البيان الختامي المشترك لمفاوضات وادي عربة، وجاء في البيان أن المفاوضات الأردنية الإسرائيلية ستعقد باستمرار وبالترتيب مرة تلو الأخرى، وأكد أيضاً أن المفاوضات في الجلسة المقبلة ستكون في منطقة مصانع البوتاس الأردنية التي تقع جنوب البحر الميت⁽⁵⁰⁾.

وأضاف البيان أن الجانبين أكدا على مواصلة أعمال اللجان الفرعية التي تم تشكيلها من قبل، وهي لجان الحدود والأمن والبيئة والمياه والقضايا المتعلقة بها كالطاقة وجدول الأعمال الفرعية الخاصة بكل لجنة، والتي وقعت في واشنطن في السابع من شهر حزيران الماضي وجاء في البيان أنه تم تقسيم العمل إلى ثلاث لجان فرعية رئيسية هي لجنة الحدود والأمن والمياه والبيئة وقضايا الطاقة وقد اتفق الجانبان على مايلي:

1- استئناف المفاوضات في 1994/8/8 م، بحيث تعقد الاجتماعات على شكل لقاء افتتاحي يتبعه اجتماع اللجنة العامة ثم اجتماعات اللجان الفرعية وأية مجموعات أخرى يتم الاتفاق عليها.

وستجري المفاوضات القادمة بين الجانبين بالتناوب في منطقة البحر الميت من الجانب الإسرائيلي وفي موقع شركة البوتاس الأردنية بحيث تكون أولى الجلسات القادمة في الجانب الإسرائيلي، وفيما يتعلق بلجنة الحدود فإن اجتماعها القادم سيعقد في موقع المفاوضات الحالي في وادي عربة.

2- تبدأ لجنة الحدود وأعمالها بمناقشة خرائط مشتركة ومواد إضافية أخرى أعدها فريق خبراء مشترك وفق مذكرة تم إعدادها لهذه الغاية، وقد تم الانتهاء من الإجراءات التفصيلية المتعلقة بإنتاج الخرائط الخاصة بالحدود الأردنية الإسرائيلية .

وسيطلق على اللجان الفرعية للحدود اسم لجنة المحافظة على الحدود وإدارتها/ بعد أن تتوج المفاوضات بمعاهدة سلام كما نصت على ذلك الأجندة المشتركة.

3- الأمن: ركزت المناقشات التفصيلية للفريقين الأردني والإسرائيلي في لجنة الأمن على مراجعة المضامين العملية للعناصر التي تشكل بنود الأجنحة الفرعية للأمن كما أقرت في واشنطن في السابع من حزيران حيث أن المراجعة الدقيقة لهذه المضامين تشير هناك تفهماً واسعاً لهذه المسائل.

ووافق الجانبان على مواصلة مناقشاتهم في الجلسة الثنائية المقبلة بغية الوصول إلى اتفاق حول المفاوضات المدرجة على جدول الأعمال الفرعية للجنة الأمن.

وأعرب الجانبان عن ارتياحهما الكامل للروح البناءة الرائعة التي سادت جو المناقشات، الأمر الذي كان له الأثر في تسهيل إحراز تقدم في هذه المسألة المهمة.

4- المياه: ويندرج تحت هذا البند ما يلي:

أ- وافقت اللجنة الفرعية للمياه والطاقة والبيئة بعد مداواتها على الاعتراف المتبادل بالحصص الحقيقية لكلا الجانبين من مياه نهري الأردن واليرموك.

وأن يلتزم الجانبان ويحترمان بشكل كامل الحصص الحقيقية التي يتم التفاوض بشأنها وفقاً للمبادئ التي تم قبولها من الجانبين.

ب- التأكيد على أهمية الحد من هدر مصادر المياه إلى أدنى مستوى من خلال سلسلة من الإجراءات المتعلقة باستعمالات المياه.

ج- التأكيد على أهمية توفير مصادر مياه إضافية للاستعمال في أسرع وقت ممكن.

د- الاتفاق على تبادل المعلومات المتوفرة حول مصادر المياه وتطويرها.

هـ- اتفق الجانبان على مبدأ معالجة المياه على طول الحدود بالكامل بشكل شمولي وكلي كما في ذلك إمكانية نقل المياه عبر الحدود.

و- القبول بمبدأ الكف عن إلحاق الضرر من أي الجانبين بمصادر مياه الجانب الآخر.

5- البيئة: يقر كل من الأردن وإسرائيل بأهمية بيئة المنطقة وحساسيتها البيئية العالية والحاجة لحماية البيئة ودرء الخطر عن صحة سكانها كما يقر الجانبان بأهمية المصادر الطبيعية وحماية تنوع الحياة البيئية وضرورة تحقيق نمو اقتصادي بيئي بين المبادئ التنموية المستخدمة. وفي ضوء ما ورد ذكره، فإن الجانبان يتفقان على التعاون في القضايا المتعلقة بحماية البيئة بشكل عام والقضايا التي يمكن أن تؤثر عليها وقد تم تحديد مجالات التعاون هذه والتي

يجب أن تعكس تفهما متبادلاً يفضي إلى إجراء استفتاء للاتفاق في الوقت المناسب على النشاطات والمشروعات وفقاً لإبعادها الجغرافية.

6- الطاقة: ناقش الطرفان قضايا الطاقة ضمن إطار تعاون مستقبلي ثنائي، يشمل توليد الطاقة الشمسية كمصادر للطاقة بالإضافة إلى الربط الكهربائي المشترك وأخيراً اتفق الطرفان على استمرار المفاوضات حول القضايا الاقتصادية من أجل الإعداد لتعاون ثنائي مستقبلي.

وفي 8 آب 1994 جرى افتتاح المعبر البري بين الأردن وإسرائيل في وادي عربة الذي يربط العقبة بايلات ليكون بذلك أول تطبيق عملي لإعلان واشنطن التاريخي.

وقد تم افتتاح هذا المعبر بمشاركة سمو الأمير الحسن ولي العهد ممثلاً عن الملك حسين واسحاق رابين رئيس الوزراء الإسرائيلي ووارنكريستفو وزير الخارجية الأمريكي⁽⁵¹⁾.

وفي 16 تشرين أول 1994 تم استئناف المفاوضات الأردنية الإسرائيلية حيث التقى الملك حسين باسحاق رابين في عمان، بحضور سمو الأمير الحسن ولي العهد ورئيس الوزراء الأردني عبد السلام المجالي وعدد من المسؤولين الأردنيين والإسرائيليين للحديث عن مسيرة المفاوضات الأردنية الإسرائيلية في إطار إعلان واشنطن.

وفي اليوم التالي وقع الدكتور المجالي رئيس الوزراء والسيد اسحاق رابين الأحرف الأولى لمعاهدة السلام الأردنية الإسرائيلية، بحضور الملك حسين وسمو الأمير الحسن وشمعون بيبرس وزير خارجية إسرائيل⁽⁵²⁾.

وعلى أثر ذلك ألقى الملك حسين خطاباً على الجموع فقال فيه " أرجو أن تكون هذه المعاهدة الهدية التي أعبر فيها عن عرفاني لكل الأردنيين شياً وشباباً...نساءً ورجالاً، ولكل أعضاء هذه الأسرة الحبيبة التي اعتر ما حييت بانتقائي لها"⁽⁵³⁾.

وفي 26 تشرين أول 1994م جرى توقيع معاهدة السلام بين المملكة الأردنية الهاشمية ودولة إسرائيل في احتفال رسمي على المعبر الجنوبي شمال مدينة العقبة، وحضر الملك الحسين وسمو الأمير الحسن والرئيس الأمريكي وليم كلنتون والرئيس الإسرائيلي عيزر وايمان ووزير الخارجية الأمريكي وارن كريستوفر، ووزير الخارجية الإسرائيلي شمعون بيبرس، ووزير الخارجية الروسي أندريه كوزاريف وعدد من المدعوين من كبار المسؤولين في الدول العربية⁽⁵⁴⁾.

ووقع الاتفاقية عن المملكة الأردنية الهاشمية دولة رئيس الوزراء عبد السلام المجالي، وعن الجانب الإسرائيلي السيد اسحاق رابين رئيس وزرائها⁽⁵⁵⁾.

وتضمنت المعاهدة مقدمة، وثلاثين مادة، وخمسة ملاحق تعالج قضايا الحدود والأراضي والأمن والبيئة والمخدرات والمياه وغيرها وأربع محاضر متفق عليها بين الطرفين، وتعتبر المواد والملاحق والمحاضر أجزاء رسمية من المعاهدة تحمل الإلزامية ذاتها⁽⁵⁶⁾.

مضامين معاهدة وادي عربة:

وفيما يلي تحليل لإبراز مضامين معاهدة السلام الأردنية الإسرائيلية وتكون المضامين على النحو الآتي:

1- المضامين السياسية.

2- المضامين المتعلقة بالعلاقات الطبيعية بين الأردن وإسرائيل.

3- المضامين القانونية.

1- المضامين السياسية:

خلال تتبع معاهدة السلام الأردنية الإسرائيلية، نجد أن المعاهدة احتوت على الكثير من المضامين السياسية التي تهدف بصورة أساسية إلى إنهاء حالة الحرب بين الدولتين وإحلال السلام في المنطقة ومن هذه المضامين:-

1- الاعتراف (إنهاء الصراع العربي الإسرائيلي)

في البداية لقد أكد الجانبان الأردني والإسرائيلي على ضرورة تحديد الهدف المشترك بين الدولتين لتحقيق السلام العادل والشامل المبني على أساس قراري مجلس الأمن الدولي 242-338، كما جاء في المادة رقم (1) من اتفاقية السلام، جاء تفسير الهدف تحت المادة رقم (2) والتي تعرف (بالمبادئ العامة) والتي تنص على ما يلي:

- أن يحترم الطرفان سيادة كل منهما وسلامته الإقليمية واستقلاله السياسي.

- الاعتراف بحق العيش بسلام وأمان ضمن حدود أمنة ومُعترف بها.

- تنمية علاقات حسن الجوار والتعاون بينهما لضمان أمن دائم.

- الابتعاد عن القوة التي لا تفسر عن أية نتائج كانت⁽⁵⁷⁾.

2- الأمن: الامتناع عن استخدام القوة واللجوء إلى الطرق السلمية.

نصت المادة رقم (4) على التعاون الأمني بين الدولتين من أجل تعزيز أمن المنطقة والتعاون في تطوير المصالح المشتركة للرفق بها إلى أعلى المستويات، ضمن إقامة أهداف مشتركة على الصعيد الإقليمي لتحقيق السلام المشترك⁽⁵⁸⁾.

وأيضاً أكد الطرفان على الالتزام بإقامة مؤتمر الأمن والتعاون في الشرق الأوسط على غرار مؤتمر هلسنكي، الذي نفذ بنجاح لتحقيق الأمن ولاستقرار في المنطقة⁽⁵⁹⁾.

3- ترسيم الحدود الدولية:

من الجدير بالذكر أنه لم تكن هنالك حدود بين الأردن وفلسطين أبان الحكم العثماني، وبعد سقوط الدولة العثمانية على أيدي دول الحلفاء عام 1917، قامت بريطانيا بإعطاء وجود لليهود من خلال وعد بلفور، الذي ينص على إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، غير أن المغفور له الملك المؤسس عبد الله بن الحسين أصر على انقاذ شرق الأردن من وعد بلفور، واقنع بريطانيا بذلك، فجاء نص المادة (25) من قانون صك الانتداب مستثنياً شرق الأردن من وعد بلفور عام 1922م⁽⁶⁰⁾.

وبموجب هذه المادة تم تحديد حدود الأردن بخط من نقطة واقعة على خليج العقبة، بمسافة تبعد ميلين إلى الغرب من مدينة العقبة، ماراً بوادي عربة، بمنتصف البحر الميت نحو الحمة شمالاً حتى التقائه مع منتصف نهر اليرموك فالحدود السورية⁽⁶¹⁾.

وبموجب اتفاقية الهدنة عام 1949، تم اقتطاع منطقة الباقورة بمسافة 830 دونم من الأراضي الأردنية، وفي عام 1950 قامت إسرائيل بالاستيلاء على أراضي الباقورة⁽⁶²⁾.

ونتيجة للمفاوضات الأردنية الإسرائيلية تم تحديد الحدود الدولية بين الدولتين وترسيمها ووضع خرائط لها كما جاء في المادة رقم (3)، وكذلك الملحق (1-أ)*⁽⁶³⁾.

وخلال المفاوضات أصر الجانب الأردني على عودة جميع أراضيه المحتلة ومنها منطقة الباقورة/ نهارييم (נהריים) إلى السيادة الأردنية، وأما بخصوص نهري الأردن واليرموك أكد الطرفان على الأخذ بعين الاعتبار بأن يكون خط الحدود المجرى الرئيسي لتدفق كل من نهري الأردن واليرموك⁽⁶⁴⁾.

وتنطبق هذه الحالة على البحر الميت أيضاً، وأما بخصوص وادي عربة- منطقة الغمر- قامت إسرائيل باحتلالها سنة 1970، ولم يستطع الأردن استعادتها إلا عن طريق المفاوضات مع إسرائيل بشكل رسمي وعلني عام 1994، حيث استطاع الأردن أن يستعيد هذه المنطقة بموجب الملحق رقم (1-ب) ج حيث تم ترسيم الحدود المبينة في خرائط الصور الجوية⁽⁶⁵⁾.

4- النصوص التي تتعرض لصوره العلاقات بين الأردن وفلسطين.

ويتضمن هذا البند كل من:

- مشكلة اللاجئين والنازحين.

وتم الاستنتاج من خلال مفاوضات السلام أن إسرائيل لا تريد إرجاع اللاجئين إلى أراضيهم التي احتلتها عام 1948 وكذلك النازحون عام 1967، إذ أصر الجانب الإسرائيلي على عقد مفاوضات بشأن هذه القضية من أجل تثبيت الفلسطينيين المهجرين في الأراضي التي هجروا إليها أثناء الحروب، عن طريق إعطائهم تعويضات مادية مقابل التخلي عن أراضيهم.

- الأماكن الدينية.

وأكدت المادة التاسعة على أهمية الأماكن المقدسة وأن (تحتزم إسرائيل الدور الخاص للملكة الأردنية الهاشمية في الأماكن الإسلامية المقدسة في القدس)⁽⁶⁶⁾.
وسيمنح كل طرف لطرف الآخر حرية الوصول للأماكن ذات الأهمية الدينية، وسيقوم الطرفان بالعمل على تعزيز حوار الأديان بهدف العمل على تفاهم ديني، وحرية العبادة والتسامح والسلام⁽⁶⁷⁾.

يرى الباحث أن اهتمام الأردن بالأماكن المقدسة في القدس كان من زمن طويل وأصر الجانب الأردني خلال مفاوضاته مع إسرائيل في مختلف الأوقات على التمسك بالقدس وضمها إلى الأردن وعدم تركها بيد إسرائيل، وأكد الجانب الأردني أنه لم يبرم سلام مع إسرائيل قبل أن تحل مشكلة القدس، وكذلك مشكلة اللاجئين الفلسطينيين التي اعتبرت من الثوابت الأردنية أثناء مفاوضاته مع إسرائيل. وخلال محادثات السلام عام 1994م تغيرت الأوضاع، حيث تم استثناء القدس من المفاوضات، وأكد اسحاق رابين انه يجب ان يتم تأجيل مشكلة القدس إلى إشعار آخر.

7- المياه:

بدأت محاولات اليهود في استغلال مياه نهر الأردن في عهد الإمارة منذ عام 1926، على يد المهندس اليهودي بنجاسروتيرغ الذي منح امتياز تأسيس شركة توليد الكهرباء عند ملتقى نهري اليرموك والأردن، وبما أن معظم أرض المشروع تقع في منطقة التقاء النهرين شرق الأردن طلب صاحب الامتياز استغلال نحو 50.000 دونم من أراضي شرق الأردن للمشروع، واستمر المشروع الذي بدء تشغيله عام 1936 حتى عام 1948، حيث دمرته الحرب التي أسفرت عن قيام دولة إسرائيل على أرض فلسطين⁽⁶⁸⁾.

وفي الخمسينات والستينات من القرن الماضي، استمرت إسرائيل في نقل مياه نهر الأردن إلى المستوطنات اليهودية وإلى صحراء النقب، عن طريق شبكة من الأنابيب الناقلة للمياه⁽⁶⁹⁾. وهذه الانتهاكات الإسرائيلية سببت للأردن أزمة مائية خانقة، وأدرك الجانب الأردني أن الحل هو التفاوض مع إسرائيل لكي يتم استرداد حقوقه من المياه وهذا ما حصل في معاهدة السلام الأردنية الإسرائيلية.

وجاء في المادة السادسة في اتفاقية السلام الأردنية الإسرائيلية، أنه يجب تحقيق تسوية شاملة ودائمة لكافة مشاكل المياه القادمة بين الطرفين، بموجب هذه المادة لقد استعاد الأردن نصيبه من مياه نهري اليرموك والأردن⁽⁷⁰⁾.

حيث أن الأردن لم يأخذ شيئاً من مياه نهر الأردن قبل معاهدة السلام فبعد المعاهدة لقد تغيرت الأوضاع إلى الأفضل حيث حصل الأردن على 10 مليون متر مكعب سنوياً "من مياه تحلية من ينابيع مالحة في حوضه، وحصل على 60 مليون متر مكعب من مياه الفيضانات والسدود بما في ذلك فيضانات نهر الأردن، وسيأخذ الأردن من نهر الأردن 70 مليون متر مكعب سنوياً بعد المعاهدة⁽⁷¹⁾.

وأيضاً جاء في المادة السادسة تحت ملحق (2) الخاص بالأمر المتعلقة بالمياه، حصول الأردن على مياه إضافية عن طريق التعاون الأردني الإسرائيلي لإيجاد مصادر لتزويد الأردن بكميات إضافية مقدارها 50 مليون متر مكعب⁽⁷²⁾.

أما بخصوص نهر اليرموك، كان نصيب الأردن من مياه النهر قبل معاهدة السلام 120 مليون متر مكعب فبعد المعاهدة تغيرت الأوضاع إلى الأفضل فحصل الأردن على مجموع 215 مليون متر مكعب من المياه.

وبموجب الفقرة (3) من المادة السادسة، أكد الطرفان على أنه يجب البحث عن وسائل وطرق جديدة لمواجهة شح المياه والأزمة الناتجة عنها، وفيما يلي الأمور التي تباحث بها الجانبان⁽⁷³⁾

- تنمية الموارد المائية الموجودة منها والجديدة، والعمل على زيادة وفرة كميات المياه بما في ذلك تحقيق التعاون على المستوى الإقليمي، كما هو ملائم، وجعل ما يهدر من الموارد المائية الحد الأدنى وذلك من خلال مراحل استخدامها.
- منع تلوث المياه

- التعاون المتبادل في مجال التخفيف من حدة النقص في كميات المياه.
- نقل المعلومات والقيام بنشاطات البحوث والتطوير المشتركة في المواضيع المتعلقة بالمياه، فضلاً عن استعراض إمكانات تعزيز عملية تنمية الموارد المائية واستخدامها⁽⁷⁴⁾.
- وجاء تفصيل المادة السادسة في الملحق رقم (2) من اتفاقية السلام المتعلق بأمور المياه، حيث تباحث الطرفان حول تشغيل وصيانة الأنظمة وكيفية التخزين حماية مصادر المياه من التلوث، وأيضاً اتفق الطرفان على حماية المياه الجوفية وكيفية توزيع مياهها⁽⁷⁵⁾.
- يرى الباحث أن مشكلة المياه بين الأردن وإسرائيل هي مشكلة سياسية قديمة، حيث تطرق الطرفان في كافة الاجتماعات والحوارات بينهم حول مشكلة المياه وربطها بالأمور السياسية لأن معظم الصراعات بين العرب واليهود كان حول المياه، وأصر الجانب الأردني في مختلف الأوقات بالمطالبة بإعادة مياه التي انتهكتها إسرائيل.
- ويمكن أن تكون أيضاً مشكلة المياه مشكلة اقتصادية واجهت الأردن منذ أمد طويل حيث تعطلت الزراعة في غور الأردن بسبب انتهاك إسرائيل للمياه، فبعد توقيع المعاهدة اخذ الأردن حصته من المياه، فنتج عن ذلك ازدهار في الزراعة التي أدت إلى الزيادة في الاقتصاد.

2- العلاقات الطبيعية بين الأردن وإسرائيل

- ورد في معاهدة السلام عدة مواد تشمل إقامة علاقات طبيعية بين الدولتين من أجل تقوية الاقتصاد والحد من مشكلة البطالة وأكد الطرفان على ما يلي:
- 1- إقامة علاقات اقتصادية:

جاء في المادة السابعة من معاهدة السلام الأردنية الإسرائيلية ذكر التنمية الاقتصادية والرفاهية باعتبارها دعامتين للسلام والأمن والعلاقات المنسجمة بين الدول والشعوب، وأكد الجانبان أنه يجب تعزيز التعاون الاقتصادي بينهما على المستوى الإقليمي⁽⁷⁶⁾.

ولتحقيق هذه الأهداف يتفق الجانبان على ما يلي:

- أ- إزالة كافة أوجه التميز التي تعتبر حواجز في وجه إقامة علاقات اقتصادية طبيعية.
- ب- إنهاء المقاطعات الاقتصادية
- ج- أن يقوم الطرفين بعقد اتفاقيات تتعلق بالتعاون الاقتصادي وبما في ذلك التجارة وإقامة مناطق تجارة حرة والاستثمار والعمل المصرفي، والتعاون الصناعي والعمالة، وذلك لأغراض ترويج علاقات اقتصادية مفيدة تقوم على مبادئ يتم الاتفاق حولها.

د- التعاون ثنائياً في المحافل المتعددة الأطراف من أجل تعزيز ودعم الاقتصاد⁽⁷⁷⁾.
ومن خلال التطرق للعلاقات الاقتصادية بين الأردن وإسرائيل ظهرت مجالات التعاون بين الدولتين بما يلي:

أ- التعاون الزراعي: ورد في نص المادة (22) في اتفاقية السلام الأردنية الإسرائيلية (التعاون في المجال الزراعي بما في ذلك الخدمات البيطرية، وحماية النباتات، والتقنية الحيوية والتسويق، وسيقومان بالتفاوض بهدف التوصل إلى اتفاق في غضون 6 أشهر من تاريخ تبادل الوثائق"⁽⁷⁸⁾.

ويذكر مركز التعاون الدولي أنه تم افتتاح مزرعة أردنية إسرائيلية في شهر تشرين الأول 1998 في منطقة الكرك، لتربية مواشي (اواسي) وفي إطار ذلك، سلمت إسرائيل للأردن (220) ماشية لإنتاج وتصنيع الحليب بشكل مكثف علماً بأن مواشي (اواسي) تعطي كمية تعادل أربعة أضعاف الكمية التي تنتجها المواشي المحلية.⁽⁷⁹⁾

ب- التعاون البيئي والصحي:
أوضحت المادة الثامنة عشر على التعاون البيئي بين الأردن وإسرائيل، عن طريق المحافظة على الطبيعة، ومحاربة التلوث وجاء في الملحق رقم (4) من اتفاقية السلام، تفصيلاً لصورة الاتفاق البيئي⁽⁸⁰⁾.

وبعد توقيع المعاهدة لقد تطور التعاون في المجال البيئي ليشمل التعاون في مكافحة الذباب المنزلي (سوسة الكف الحمراء وذبابة الفاكهة الأوسطية) في شمالي منطقة البحر الميت⁽⁸¹⁾.

وأما بخصوص التعاون الصحي، أوضحت المادة (21) على التعاون في هذا المجال، وأكدت هذه المادة أن سيتم التعاون في المجال الصحي بعد انتهاء المفاوضات أي بعد تسعة أشهر من الاتفاق⁽⁸²⁾.

هـ- التعاون في مجالات الطاقة:
وكذلك أكدت المادة التاسعة عشر من معاهدة السلام الأردنية الإسرائيلية، على ضرورة التعاون في مجال استغلال الطاقة الشمسية والربط الكهربائي بين البلدين عند التوقيع على معاهدة السلام، وأيضاً سيتم التوصل إلى اتفاقيات ذات علاقة في مجال الطاقة خلال 6 أشهر من تاريخ تبادل الوثائق.

د- تنمية أخدود وادي الأردن:

أوضحت المادة العشرين على تعهد الطرفان بتنمية أخدود وادي الأردن، وتطويره وإنشاء مشاريع مشتركة في المجالات الاقتصادية والبيئية، والمشاريع المرتبطة بالطاقة والسياحة، ضمن اللجنة الاقتصادية الثلاثية الأردنية- الإسرائيلية الأمريكية بهدف التوصل إلى خطط إستراتيجية لتنمية الأخدود⁽⁸³⁾..

هـ- السياحة:

أن يعمل الطرفان على تشجيع السياحة المتبادلة والسياحة من الدول الأخرى وفق ما جاء في المادة السابعة عشرة⁽⁸⁴⁾.

2- النقل والطرق والمواصلات:

شهدت العلاقات الأردنية الإسرائيلية الاهتمام بعملية النقل البري والجوي بين البلدين، والاهتمام بإنشاء الطرق لتسهيل العبور من وإلى الطرف الآخر، وأوضحت المادة (13) باعتراف الطرفان بالاهتمام المتبادل بإقامة علاقات حسنة في مجال النقل، وفتح وإقامة طرق ونقاط عبور بين بلديهما، وسيأخذان بالاعتبار إقامة اتصالات برية واتصالات بالسكك الحديدية، وأكد الطرفان على إقامة طريق سريع يربط الأردن ومصر وإسرائيل بالقرب من ايلات وصيانته، وتنفذ هذه الاتفاقية بعد 6 أشهر من تبادل الوثائق⁽⁸⁵⁾.

ومن خلال هذا البند تتضح أمور المواصلات بما يلي:

أ- الطيران المدني:

نصت المادة الخامسة عشر على اتفاق البلدين على الطيران المدني كونهما طرفين في اتفاقية خدمات المرور الجوي الدولي (ترانزيت) واتفاقية الطيران الدولي لعام 1944 (اتفاقية شيكاغو)⁽⁸⁶⁾.

وبعد عقد اتفاقية السلام الأردنية الإسرائيلية، لقد بقيت مجريات المفاوضات بين الدولتين مفتوحة وتوصل الطرفان إلى تفعيل الخطوط الجوية في العاشر من آذار 1995م⁽⁸⁷⁾

ب- حرية الملاحة والوصول إلى الموانئ:

أوضحت المادة الرابعة عشر على اعتراف كل طرف بحق سفن الطرف الآخر بالمرور البري في مياهه الإقليمية وفقاً لأحكام القانون الدولي، وسيمنح كل طرف السفن الأخرى أن يكون

لها منفذاً في موانئه، وكذلك للسفن والبضائع المتجهة إلى الطرف الآخر وبالعكس. ويعتبر الطرفان مضيق تيران وخليج العقبة ممرات مائية دولية مفتوحة لكل الأمم للملاحة فيها والطيران فوقها بدون إعاقة أو توقف⁽⁸⁸⁾.

3- العلاقات الثقافية والعلمية:

نصت المادة العاشرة على اعتراف الطرفين بإقامة تبادل ثقافي وعلمي في كافة الحقول، ويتفقان على إقامة علاقات ثقافية طبيعية بينهما، وأن هذا التبادل يقود الطرفين إلى إنهاء حالات التوتر في مسيرة السلام⁽⁸⁹⁾.

4- التفاهم المتبادل وعلاقات حسن الجوار لتحقيق السلام:

وجاءت معاهدة السلام الأردنية الإسرائيلية، لتوضح طبيعة العلاقات تحت بند التفاهم المتبادل وعلاقات حسن الجوار، حيث أكد الطرفان بتفعيل هذا البند بعد ثلاثة أشهر من تاريخ التصديق على هذه المعاهدة⁽⁹⁰⁾.

وأكد الطرفان على الحد من سباق التسلح، وإيجاد منطقة خالية من التحالفات والائتلافات العدوانية في الشرق الأوسط، وإيجاد منطقة خالية من أسلحة الدمار الشامل سواء منها التقليدية أو غير التقليدية في الشرق الأوسط ضمن سلام شامل ودائم⁽⁹¹⁾.

3- المضامين القانونية:

- خلال محادثات السلام الأردنية الإسرائيلية لقد تم الاتفاق على النصوص القانونية التي تثبت شرعية المعاهدة بين الدولتين، وتكمن المضامين القانونية الأساسية بما يلي:
- 1- التشريعات: أوضحت المادة (26) على تعهد الطرفين خلال ثلاثة أشهر من تبادل وثائق التصديق على هذه المعاهدة بتبني التشريعات الضرورية لتنفيذ المعاهدة، وإنهاء أي التزامات دولية وإلغاء أي تشريعات تتناقض مع هذه المعاهدة.
 - 2- التصديق: أكد الطرفان التصديق على المعاهدة ضمن المصلحة والإجراءات الوطنية، ويتم التصديق بعد تبادل الوثائق، مع اعتبار جميع الملاحق والذبول والمرفقات في المعاهدة جزءاً منها.

وتم كتابة نصوص المعاهدة في اللغة العربية والانجليزية والعبرية متساوية في المضامين، وإذا ظهر أي خلاف في تفسير النصوص يتم الرجوع الى النص الانجليزي الذي يعتبر النص الفاصل بين النصوص.

وبعد الإقرار على هذه المعاهدة قام السيد رئيس الوزراء الأردني عبد السلام المجالي بالتوقيع على المعاهدة، وأما عن الجانب الإسرائيلي وقع رئيس الوزراء اسحاق رابين عليها وكان رئيس الولايات المتحدة الأمريكية بيل كلنتون على شاهدةا هذه المعاهدة⁽⁹²⁾.

نتائج الدراسة

1- استطاعت الوفود الأردنية خلال مفاوضات السلام مع إسرائيل، أن تسترد حقوقها التي انتهكها إسرائيل مثل الحقوق المائية، وقد استعاد الأردن السيادة الرسمية على منطقة الباقورة في 1995/2/9م، ومنطقة الغمر في 1995/1/3، كما تم تبادل بعض المناطق بين الجانبين. حيث تم مبادلة خمسة كيلومترات مربعة جنوب البحر الميت تقع بالقرب من مشروع البوتاس الفلسطيني، كانت إسرائيل احتلتها عام 1948 وتستغلها من خلال بناء ملاحات تابعة لشركة أملاح البحر الميت الإسرائيلية بأرض إسرائيلية مساحتها (7.5) كم تقع غرب خط الانتداب⁽⁹³⁾.

ويجدر بالذكر أن أفراد إسرائيليين كانوا يملكون (6000) دونم مجاورة للباقورة موضوعة تحت بند حراسة أملاك العدو في دائرة الأراضي والمساحة في الأردن، وقد سمح لمواطنين أردنيين باستثمار حوالي (5000) دونم منها وبقي (1000) دونم في منطقة حرام الملاصقة للباقورة، مزروعة بالغام قد أصبحت ملكاً للأردن⁽⁹⁴⁾.

2- استطاع الأردن من خلال مفاوضات السلام أن يثبت الحدود الأردنية بشكل رسمي، والحد من الطموحات التي تستهدف وجود الأردن وكيانه.

3- وأيضاً استطاع الأردن إنهاء الحصار الذي ترتب عليه أثناء حرب الخليج، وشطب الديون الأمريكية التي تراكمت عليه على مر سنوات من الزمن⁽⁹⁵⁾.

بالرغم من الإيجابيات التي حققتها معاهدة السلام الأردنية الإسرائيلية لقد ظهرت سلبيات المعاهدة بعد عشرة سنوات من توقيعها حسب ما ذكر كامل أبو جابر رئيس الوفد الأردني الفلسطيني المفاوض عام 1994.

"وبرغم الأهداف الأمّالة لاتفاقية وادي عربة إلا أنه بات واضحاً أن الحقوق الأردنيّة لم تسترد بعد، فالمياه ما زالت منهوبة ولم يصل الأردن منها إلا الملوّث، والبيئة الأردنيّة تلوّثت بإشعاعات مفاعل ديمونة، والمصانع الإسرائيليّة على أرض الأردن والأسرى الأردنيون ما زالوا يقبعون في سجون الاحتلال، دون أن تجد مطالب الخارجيّة الأردنيّة بشأنهم أية استجابة، والأوضاع الاقتصاديّة زادت تردياً، والبطالة والفقر ما زالوا مشكلتين رئيسيتين يعاني منها الأردن"⁽⁹⁶⁾.

وقال كامل أبو جابر " أن معاهدة السلام ما هي إلا هدنة طويلة المدى مع الجانب الإسرائيلي موقع عليها بشكل رسمي " وذكر أيضاً لم يحقق الأردن والوطن العربي أي هدف استراتيجي أو اقتصادي أو اجتماعي كما هي باقي المعاهدات الموقعة مع إسرائيل، " مؤكداً أن أوضاع الصراع العربي الإسرائيلي لم تزال كما كانت عليه قبل عام 1994 وربما أسوأ بكثير نتيجة لتدهور الأوضاع في الأراضي الفلسطينية"⁽⁹⁷⁾

هوامش الدراسة:

- (1) سليمان الصمادي، الأردن مائة عام من التحدي والعطاء (أريد: مؤسسة حمادة، 2002) ص110
- (2) سليمان الموسى، تاريخ الأردن في القرن العشرين ج 2 (عمان: مكتب المحتسب، 1996) ص502-503
- (3) جريدة الدستور، العدد 9761 (25 تشرين أول 1994) الثلاثاء، انظر: ممدوح نوفل، الانقلاب- أسرار مفاوضات المسار الفلسطيني الإسرائيلي "مدريد- واشنطن" (عمان: دار الشروق للنشر والتوزيع، 1996) ص50.
- (4) جريدة الرأي، العدد 7766 (8 تشرين الثاني 1991) الجمعة.
- (5) نظام عساف، الأحزاب السياسية الأردنيّة 1994-1992 قضايا ومواقف (عمان: مركز الريادة للمعلومات والدراسات، 1998) ص195
- (6) جريدة الرأي، العدد 7766 (8 تشرين الثاني 1991).
- (7) جريدة الدستور، العدد 9761 (25 تشرين أول 1994) الثلاثاء.
- (8) عساف، مرجع سابق، ص159.
- (9) عايش، مرجع سابق ص 85.
- (10) الصمادي، مرجع سابق.
- (11) المرجع نفسه، ص 122-123 وانظر: نوفل، مرجع سابق، ص 40.

- (12) مقابلة مع مسؤول الدراسات الإسرائيلية (محمد الشبار) في وزارة الخارجية الأردنية بتاريخ 2007/7/2م، الساعة 11 صباحاً.
- (13) 'يسو' بيلين، 'يغعت בשלום (تل-أبيب: ידיעות אחרונות – ספרי חמד، 1997) عم" 48. وانظر: جريدة الراي، العدد 7766 (7 تشرين الثاني 1991). وانظر: جريدة الدستور، العدد 9762 (26 تشرين أول 1994).
- (14) صدقي الضاهر، وثائق عربية- وثائق يارنغ السرية (عمان: مطابع الدستور التجارية، 1997، وانظر: جريدة الرأي، العدد 7740 (12 تشرين أول 1991) لمزيد من التفضل انظر: سميع المعاينة، التسوية السياسية للصراع العربي الصهيوني (عمان: دار البشير للنشر والتوزيع 1993) ص 73.
- (15) البدارين، اتفاقية السلام الأردنية مع إسرائيل، ص 92
- (16) خطاب جلالة الملك حسين أمام المؤتمر الوطني الأردني في تاريخ 1991/10/12م انظر: الطاهر، وثائق عربية، ص 13-25.
- (17) المصدر نفسه .
- (18) جريدة الدستور، العدد 9762، (26 تشرين الأول 1994) الأربعاء.
- (19) الظاهر، وثائق عربية، ص 13-25، وانظر: جريدة الدستور العدد 9762، (26 تشرين أول 1994).
- (20) كلمة الدكتور أحمد صدقي الدجاني حول الصراع العربي الإسرائيلي طبيعته ومستقبله انظر: التصور العربي للسلام، بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي عقدها منتدى الفكر العربي/ عمان، اللجنة المصرية للتضامن في القاهرة شهر آذار 1997، ص 152. وانظر: جريدة الرأي، العدد 7757 (29 تشرين أول 1991)
- (21) جريدة الرأي، العدد 7754، (26 تشرين أول 1991م) وانظر: جريدة الدستور العدد 9762 (26 تشرين أول 1994).
- (22) جريدة الدستور، العدد 9763، (27 تشرين أول 1994) وانظر: عبدالله المجالي ومحمد العبادي، مسيرة السلام الاردنية- الإسرائيلية 1991-1994 (عمان: المؤلف، 1994)، ص 21-22.
- (23) جريدة الرأي، العدد 7747 (19 تشرين أول 1991). وانظر: معاهدة السلام بين المملكة الأردنية الهاشمية ودولة إسرائيل 26 تشرين الأول 1994، مصدر سابق، ص 25. وانظر: علي الدن هلال، الجامعة العربية والسلام العربي الإسرائيلي، مجلة عالم الفكر، العدد 25، 1997، ص 15.
- (24) جريدة الرأي العدد 7757 (29 تشرين أول 1991)، لمزيد من التفصيل انظر: نص كلمة الرئيس الأمريكي، جورج بوش، في افتتاح مؤتمر مدريد 1991/10/30، وكذلك نص كلمة الرئيس السوفياتي غورباتشوف في افتتاح المؤتمر، خليل حسين، المفاوضات العربية الإسرائيلية وقائع ووثائق، ص 245-240، 252-242.

- (25) جريدة الرأي، العدد 7755 (27 تشرين أول 1991)، جريدة الدستور، العدد 9762 (26 تشرين الأول 1994) لمزيد من التفصيل انظر: عدنان السيد حسين، التسوية الصعبة- دراسة في الاتفاقيات العربية الإسرائيلية (بيروت: مركز الدراسات الاستراتيجية والبحوث والتوثيق، 1998م) ص75.
- (26) المجالي والعبادي، مرجع سابق، ص 20.
- (27) البدارين، اتفاقية السلام الأردنية الإسرائيلية، ص76.
- (28) جريدة الرأي، العدد 7766، (7 تشرين الثاني 1991) وانظر: نص كلمة وزير الخارجية الأردني كامل أبو جابر في افتتاح مؤتمر مدريد بتاريخ 31 تشرين الأول 1991م، وانظر: خليل حسين، المفاوضات العربية الإسرائيلية وقائع ووثائق، ص 270-277.
- (29) الصمادي، مرجع سابق، ص 125.
- (30) جريدة الرأي العدد 7762، (3 تشرين الثاني 1991).
- (31) الصمادي، مرجع سابق، ص 125-126.
- (32) المرجع نفسه.
- (33) المجالي والعبادي، مرجع سابق، ص35.
- (34) المرجع نفسه، وانظر: جريدة الدستور، 9762، 26 تشرين أول 1994).
- (35) جريدة الدستور، العدد 9762 (26 تشرين أول 1994).
- (36) اللجنة الإعلامية الأردنية، معاهدة السلام بين المملكة الأردنية الهاشمية ودولة إسرائيل ، مصدر سابق ، ص 107-108-109.
- (37) مجلة الدراسات الفلسطينية- جدول الأعمال الأردني الإسرائيلي، مجموعة وثائق مفاوضات السلام، العدد (16) سنة 1993.
- (38) دار الناس للصحافة والنشر، صانع السلام (عمان: دار الناس للصحافة والنشر، 1996)، ص56-57.
- (39) النص الكامل لجدول أعمال المفاوضات على المسار الأردني- الإسرائيلي، انظر: دائرة المطبوعات والنشر، معركة السلام ووثائق أردنية -المسار الأردني الإسرائيلي من مؤتمر مدريد إلى إعلان واشنطن، ج1 (عمان: منشورات دائرة المطبوعات والنشر، 1994م) ص 27-28.
- (40) ملحق جريدة الدستور، العدد 9762 (26 تشرين أول 1994م).
- (41) المصدر نفسه.
- (42) دائرة المطبوعات والنشر، معركة السلام- ووثائق أردنية، ص 85-86.
- (43) دار الناس للصحافة والنشر، صانع السلام، ص74-75.
- (44) الدستور، مصدر سابق، ص132-133.
- (45) المرجع نفسه.
- (46) إيناس جابر أحمد، اتفاقيات السلام العربية الإسرائيلية في ضوء قواعد القانون الدولي، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الإسكندرية كلية الحقوق، 2004- ص 253.

(47) المصدر نفسه.

(48) دائرة المطبوعات والنشر، معركة السلام- وثائق أردنية، ص45.

(49) كلمة الرئيس الوفد الأردني المفاوض الدكتور فايز الطروانة في محادثات وادي عربة، المصدر نفسه.

(50) البيان الختامي لمفاوضات وادي عربة 1994/7/20، حول إعلان الدكتور فايز طروانة رئيس الوفد الأردني

الختامي المشترك لمفاوضات وادي عربة، نقلاً عن الوثائق العربية، مصدر سابق، ص 68-69.

(51) جريدة الدستور، العدد 9762 (26 تشرين أول 1994) وانظر: صانع السلام، مرجع سابق، ص 94.

(52) المجالي والعبادي، مرجع سابق، ص 72 وانظر: صانع السلام، مرجع سابق، ص 73.

(53) انظر الملحق رقم (3).

(54) הרב ישראל מאיר לאן , אל תשלח ידך אל הנער (ישראל : ידיעות אחרונות – ספרי

חמד , 2005) "עמ" 256 . وانظر: محمد عايش، معاهدة وادي عربة دراسة تحليلية، ص 57. وانظر: حلال

مرجع سابق، ص19.

* وفي 25 تشرين أول لقد حصل اجتماع بين الملك حسين واسحاق رايبين بحضور الملكة نو وتحدث رايبين عن

معاناة اليهود في المنطقة وأنه يريد السلام . انظر: "لاها رבין" ، هولכת بدرنو ، שם . "עמ" 274-275.

(55) جريدة الدستور، العدد 9762، (26 تشرين أول 1994). وانظر: صانع السلام ، مرجع سابق، ص 117.

(56) اللجنة الإعلامية الأردنية، معاهدة السلام، مصدر سابق، ص7، وانظر: طلافحة والشرعة، مرجع سابق،

ص114.

(57) ملحق الجريدة الرسمية، العدد 4001 (10 تشرين الثاني 1994).

(58) المصدر نفسه.

(59) عبد السلام المجالي، رحلة عمر- من بيت الشعر إلى سدة الحكم (بيروت: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر،

2003) ص 254-255.

(60) اللجنة الإعلامية الأردنية، معاهدة السلام بين المملكة الأردنية الهاشمية ودولة إسرائيل، ص 12.

(61) "אורי שגיא ، אורות בערפל (ישראל : ידיעות אחרונות – ספרי חמד. 1998) "עמ" 214.

(62) "שגיא ، שם . "עמ" 216. وانظر: اللجنة الإعلامية الأردنية، مصدر سابق، ص 12.

* الملحق(1-أ) يتضمن الحدود الدولية بين الأردن وإسرائيل ، وينص على مايلي :

1-تم الاتفاق بموجب المادة (3) من المعاهدة على ان الحدود الدولية بين الدولتين تشكل من القطاعات التالية:

أ- نهري الأردن واليرموك.

ب- البحر الميت والملاحات.

ج- وادي عربة/منطقة هاعرفا.

د- خليج العقبة .

(63) ملحق جريدة الدستور، العدد 9762 (26 تشرين أول، 1994)

مدارات تاريخية – دورية دولية محكمة ربع سنوية

- (64) انظر ملحق رقم (4) باللغة العبرية.
- (65) ملحق الجريدة الرسمية، العدد 4001 (10 تشرين الثاني 1992).
- * أن منطقة الباقورة هي أراضي أردنية بموجب الحدود الدولية التي رسمت سنة 1952، وأيضاً يقول الجانب الإسرائيلي أن منظمة الباقورة هي أملاك إسرائيلية لأنه تم ضمها لإسرائيل بموجب معاهدة الهدنة سنة 1949، وأصبحت ملكاً إسرائيلياً، سنة 1950، انظر: **שגיא . ש . לאמ" 216**.
- (66) ملحق الجريدة الرسمية، العدد 4001 (10 تشرين الثاني 1994).
- (67) المصدر نفسه.
- (68) دويكات، مرجع سابق، ص 92.
- (69) العكور، مرجع سابق، ص 120-121.
- (70) انظر ملحق رقم (4) باللغة العبرية.
- (71) اللجنة الإعلامية الأردنية، معاهدة السلام بين المملكة الأردنية الهاشمية ودولة اسرائيل، ص 15-16.
- (72) انظر ملحق رقم(2) الجريدة الرسمية، العدد 4001 (10 تشرين ثاني 1994).
- (73) انظر ملحق رقم (4) باللغة العبرية.
- (74) المصدر نفسه.
- (75) ملحق الجريدة الرسمية، العدد 4001 (10 تشرين ثاني 1994).
- الملحق رقم(2) الخاص بأمور المياه.
- (76) انظر المادة رقم (9) في ملحق رقم (4) باللغة العبرية.
- (77) جريدة الدستور، العدد 9762 (26 تشرين أول 1994).
- (78) نص المادة رقم (22) الخاصة بالزراعة من اتفاقية السلام الأردنية الإسرائيلية.
- (79) WWW.MFA.GOV.il
- (80) اللجنة الإعلامية الأردنية، معاهدة السلام ما هي، مصدر سابق، ص 48.
- (81) WWW.MFA.GOV.il
- (82) الحباشنة، مرجع سابق، ص 96. وانظر: ملحق رقم (5) الخاص بالصحة.
- (83) انظر ملحق رقم (4) باللغة العبرية.

- (84) المصدر نفسه.
- (85) نص المادة (13) من اتفاقية السلام الأردنية الإسرائيلية انظر: جريدة الدستور، العدد 9762 (26 تشرين أول 1994م).
- (86) نص المادة (15) من اتفاقية السلام الأردنية الإسرائيلية.
- (87) ملحق الجريدة الرسمية، العدد 4106 (16 آذار 1996) ص 788.
- (88) نص المادة (14) من اتفاقية السلام الأردنية الإسرائيلية- باللغة العبرية.
- (89) نص المادة (10) من اتفاقية السلام الأردنية الإسرائيلية- باللغة العبرية.
- (90) أحمد القضاة، معركة السلام المعاهدة الأردنية الإسرائيلية وثائقها وأبعادها الإستراتيجية، (عمان: دائرة، المطبوعات والنشر، 1994) ص 302.
- (91) ملحق جريدة الدستور، العدد 9762 (26 تشرين الأول 1994).
- (92) المصدر نفسه،
- (93) محمد رجا ربابعة، اتجاهات معلمي إقليم جنوب الأردن نحو تغيرات متوقعة في محتوى مناهج مرحلة التعليم الأساسي نتيجة لتطبيق معاهدة السلام الأردنية- الإسرائيلية، مجلة دراسات العلوم التربوية، العدد (2) 2004م، ص 367.
- (94) المصدر نفسه. وانظر: الخارطة.....
- (95) جريدة الرأي، العدد 7766 (8 تشرين الثاني، 1991).
- (96) www. Alahi @ ammannet. Net
- (97) المصدر نفسه

عنوان المقال: صدقة من أحط الدين بماله
 "من نوازل الرحلة الحجازية للفتية الولاتي
 الشنقيطي بتندوف (1912 م / 1330 هـ)
 تحقيق ودراسة

الكاتب: د/ بريك الله حبيب
 المركز الجامعي تندوف

البريد الإلكتروني: habibo1980td@gmail.com

تاريخ الإرسال: 04/03/2020 تاريخ القبول: 18/03/2020 تاريخ النشر: 2020/03/31
 "صدقة من أحط الدين بماله" من نوازل الرحلة الحجازية للفتية الولاتي الشنقيطي
 بتندوف (1912 م / 1330 هـ) تحقيق ودراسة

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين القائل في كتابه الكريم: ﴿ قل هل يستوي الذين يعلمون
 والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب ﴾
 والصلاة والسلام على سيد الخلق محمد عليه أفضل الصلاة والسلام
 وعلى آل بيته الطاهرين وأصحابه الكرام.
 تأتي هاته الرحلة التي أقدمها في مجملها على نسق ما جاءت به الرحلات
 العلمية التي ألفها الحجاج المسلمون والعلماء الذين سبقوا الفقيه الولاتي، والتي
 كان لهم فيها محطات علمية سواء من حيث الاهتمام بالمراكز العلمية التي يمرون
 بها، أو ينزلون فيها للراحة والتعلم والتعرف من خلالها على رجالات العلم والفقه
 والفكر والساسة وتبادل العلوم والمعارف والكتب والتأليف في جميع المجالات.
 وقد أقدمت على تحقيق هذا السفر من رحلة الولاتي لما له من أهمية
 علمية وتاريخية وأخرى تعليمية، وتبرز هاته المكانة التي كانت تحظى بها تندوف
 وما جاورها من البلاد الأخرى في القرن الرابع عشر الهجري في كلام المختار السوسي
 في كتابه سوس العالمية⁽¹⁾ حيث يقول . رحمه الله : «تقع هذه المدرسة . المدرسة
 الجكانية . في تندوف في التخوم السوسية الصحراوية، وكان آل بلعش منذ
 أسسوا تلك المدينة على يد قومهم تاجكانت رفعوا هناك راية التدريس، فدرس فيها
 كل من مرَّ بهم من فطاحلة الشناقطة كمحمد يحيى الولاتي وأمثاله، بل قيل إن

محمود التركي مصحح القاموس المحيط درس هناك أيضا حين سافر إلى الشرق».

وكما شجعتني على نشر هاته المخطوطة كوني ابن هاته البلدة الطيبة . تندوف . وأحد قاطنيها والتي عرفت منذ القدم بعلمها وعلمائها الذين حازوا من الفضل ما حازوا وجابوا البقاع طلبا للعلم والمعرفة وتحقيقا منهم لقوله صلى الله عليه وسلم: ﴿ اطلبوا العلم ولو بالصين ﴾.

ولعل من بين الأسباب التي دفعتني أيضا إلى تحقيق ودراسة هذا الجزء من رحلة الولايتي هو ما تحويه من فوائد جمة في جميع جوانبها التعليمية منها والتاريخية والدينية، وحتى الاقتصادية، ولنقل كذلك ماهية الأسباب والدوافع التي تركت الدكتور محمد حجي .رحمه الله . يتباطأ عن تحقيق هذا الجزء بعد ما كان حقق الجزء الأول منها .

ثم مساهمة مني في نشر تراثنا الإسلامي الذي يزخر بكنوز بين طيات مخطوطاتنا والتي لا يعرف قيمتها إلا من خاض غمار بحرهما وأزال ظلمة جهلها. و محاولتي إبراز ولو جانب من جوانب نبوغ الفقيه الولايتي في التأليف والإبداع، وكذلك محاولتي لإظهار العمق التعليمي والتاريخي لمنطقة تندوف التي كانت محط أنظار العلماء من كل حذب وصوب ومركز إشعاع ينير جهة الغرب، بدأً من أزواد بمالي مروراً بولاية في موريتانيا فتندوف في الجزائر وصولاً إلى سوس في المغرب ، ومحاولتي إتمام ما أنجزه الدكتور محمد حجي .رحمه الله . وإخراجه للناس في عمل متكامل مثله مثل الأعمال الأخرى المحققة كرحلة الوريكي وغيرهم . وقد يسر الله لي الوقوف على ثلاث نسخ، واحدة منهم كاملة واثنين ناقصين لا يوجد بهما الجزء الثاني من الرحلة موضوع البحث، أما الكاملة فهي نسخة عبد السلام ابن سودة المحفوظة بالخزانة الحسنية بالرباط تحت رقم:11039.

*ويقع هذا الجزء الذي هو موضوع التحقيق في آخر المخطوطة وهذه النسخة الوحيدة الكاملة من الرحلة الحجازية، تقع في 73 لقطه (146) صفحة.

بحيث تبتدئ بصفحة 481 كما هو مثبت في الصفحة الأولى وتنتهي بصفحة 627.

* خطها: مغربي واضح

* مسطرتها: عشرون سطرا في كل صفحة.

* عدد الكلمات في كل سطر يتراوح ما بين 10.07.

* أما تاريخ نسخها: فلا أثر له.

* ناسخها: محمد يحيى كما هو مثبت في آخرها.

* توجد بها تعقيبة.

وقد كتب على هوامشها كلمة «صح» وهي علامة الصحة وكلمة «بلغ» و سيعتملها الناسخ عند انتهائه من فقرة أو إجابة على مسألة جديدة.

أوراقها جيدة إذ لم يظهر على الصورة أي أثر للتآكل أو أي تخريب لها أو تأثير بعوائد الزمان، ما عدا بعض الأسطر المشطوبة عليها في أول صفحة منها كما ستجده في النماذج المرفقة منها، خالية من التهميش، جيدة الخط ومقرؤة.

بدايتها: وَأَتْحَقَّقْنَا عَابِدِينَ جَمَلٍ فَحَلِّ ذُلُولٍ وَحَنْبَلٍ جَيِّدٍ، وَرَوَّدْنَا فَخْرَجَنَا مِنْهُ لِيَثْمَانَ لِيَالٍ بَقِيَيْنَ مِنْ جُمَادَى الْآخِرَةِ مِنَ الْعَامِ السَّادِسِ عَشْرَ بَعْدَ ثَلَاثِمِائَةٍ وَالْأَلْفِ، قَاصِدِينَ تَنْدُوفٍ.

نهايتها: إِذَا وَقَعَ مِنْ صَبِيٍّ أَوْ مَجْنُونٍ أَوْ نَائِمٍ أَوْ غَافِلٍ أَوْ مُكْرَهٍ وَاللَّهِ أَعْلَمُ وَصَلَى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ كُلَّمَا ذَكَرَهُ الدَّاكِرُونَ وَكُلَّمَا غَفَلَ عَنْهُ الْغَافِلُونَ وَحَسَبْنَا اللَّهُ وَنَعَمَ الْوَكِيلِ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ وَأَخْرُ دَعَوَانَا أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ كَتَبَ هَذَا مِنْ نُسخَةِ الْمُؤَلِّفِ عُبيدَ رَبِّهِ مُحَمَّدَ يَحْيَى أَنْتَهَى وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

* أما النسخة الثانية: فهي النسخة الموريتانية المحفوظة عند حفدة

المؤلف، وتقع في 343 ورقة (686) صفحة من القطع المتوسط.

* خطها مغربي صحراوي مليح.

* ناسخها: محمد الأمين بن سيدي باريك كما هو مثبت في آخرها.

* تاريخ نسخها: 11 ربيع الثاني عام 1342هـ.
 وكتب في النهاية: « هذا آخر الجزء الأول »، تقل به الأخطاء إلا صفحات مسودة في
 النسخة المصورة انطمست فيها كلمات أو سطور.
 وقد ألحق بأول المخطوطة فهرس الرحلة في أربع صفحات بخط وضعه
 حفيد المؤلف مروان بن سيد محمد بتاريخ 17 ذي الحجة 1403هـ.
 * أما النسخة الثالثة فهي نسخة دار الكتب القومية بمصر، المحفوظة
 برقم 1519 تاريخ تيمور عربي، وتقع في 55 ورقة (110) صفحة من القطع المتوسط.
 وقد جاء على الغلاف مايلي: رحلة محمد بن يحيى بن محمد المختار بن عبد
 الله النفاع بن أحمد.

* نوع الخط: نسخ.

* مقاسها: 21 / 13.5 سم.

* عدد الأسطر: 22 سطر.

* لون المداد: أسود.

* حالتها: سئية.

* أما ناسخها وتاريخ نسخها: فلا أثر لهما.

بدايتها: بَعْدَ الْحَمْدِ لِلَّهِ وَقَدْ خَرَجْنَا لِحَجِّ بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ وَاعْتِمَادِ وَزِيَارَةِ

نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ.

نهايتها: عَلَيْهِ صَلَاةُ اللَّهِ مَا رَاحَ بَارِقُهُ ... وَتَمَّ الرِّضَا عَنْ صَحْبِهِ الْأَنْجُمِ ... قَدْ

يَنْتَهِي الْجُودُ وَالْمَجْدُ.

منهجي في التحقيق:

اعتمدت في تحقيق هذا الكتاب على نسخة وحيدة مصورة عن أصل

محفوظ بالخزانة الملكية بالرباط برقم 11039.

ترجمة الفقيه الولايتي⁽²⁾

اسمُهُ وَنَسَبُهُ:

جاء تعريف الفقيه الولايتي في بعض كتبه، بقوله: «يقول أفقر العبيد إلى مولاه الغني به عمن سواه: محمد يحيى بن محمد المختار بن الطالب عبد الله، الولايتي وطنا، الداودي نسباً»⁽³⁾. فكتفى في ذكر نسبه. رحمه الله على جده الأول: الطالب عبد الله⁽⁴⁾، ثم أشار بعد ذلك إلى موطنه ونسبه الشريف⁽⁵⁾.

غير أننا نجد حفيده وبعض تلاميذه وغيرهم تجاوز في نسبه إلى جده الثاني، والبعض الآخر اقتصر على جده الأول غير أنه أضاف ذكره كنيته، ولقبه، فكان حاصل ما ذكره بمجموعه مايلي⁽⁶⁾: هو: الفقيه أبو عبد الله محمد يحيى بن محمد المختار بن الطالب عبد الله النفاع بن أحمد حاج، الداودي ثم الجعفري، الحوضي ثم الولايتي. وزاد حفيده: وأولاده يكونونه: بابا، بتفخيم الباءين⁽⁷⁾.

وهذا الإطلاق. الفقيه. يُظهر انتمائه للعلماء الأجلاء الموسوعيين الذين داع صيتهم في العلوم الشرعية⁽⁸⁾، وليس ببعيد عنه، إذ المتأمل لكتبه وتأليفه، المتنوعة في مختلف العلوم والفنون يدرك بأنه كان من أجمع علماء عصره للعلوم الشرعية. أما اسمه «محمد يحيى»، وقع في شجرة النور⁽⁹⁾: محمد بن يحيى، وهو خطأ ظاهر، لأن أباه ليس يحيى، وإنما هو محمد المختار، وهو اسم مركب، وكذلك اسمه مركب هكذا: محمد يحيى، كما صرح بذلك هو بنفسه.

وهذا القدر من الاسم غالباً ما كان يكتفى الفقيه الولايتي به في توقيعاته وفتاويه، فتجده يقول بعد إنهاء الفتوى ونحو ذلك: أفتى به عبد ربه محمد يحيى بن محمد المختار، غفر الله له ولوالديه وللمسلمين جميع الأوزار، أمين⁽¹⁰⁾، ونحو ذلك.

مولده ونشأته العلمية⁽¹¹⁾:

ولد الفقيه محمد يحيى بن المختار الولايتي في ولاتة سنة 1259هـ⁽¹²⁾،

الموافق لسنة 1842م.

نشأ الولاتيفيبيت علم وفضل وشرف، فأكب على الطلب والتحصيل منذ صغره، وعرف منه الذكاء والفتنة وهو دون العشرين من عمره، ولا غرابة في ذلك، إذ أن أجداده كلهم كانوا علماء مشهورين في بلاده، وأبوه محمد المختار وعمه المرواني كانا عالمين جليين.

في بلدته ولاته حَصَلَ الفقيه علومه وظهر عليه حبه للعلم والتحصيل، هذا إلى جانب هاته الهمة العالية التي جعلته حريص كل الحرص على الاستفادة والاستزادة كان كثير المطالعة والبحث.

فظهر كثيرا من الذكاء والحفظ، حيث أنه قام شرح العديد من المنظومات في شتى فنون العلم نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر ما يلي:

* شرح منظومة السيوطي في البيان.

رحلته:

تُعَدُّ رحلة الفقيه الولاتي الحجازية من أهم أحداث حياته التي كان لها بالغ الأثر في تكوينه الفكري، وصقل مواهبه، لما اشتملت عليه من أحداث ومناظرات ومحاورات علمية جليلة دارت بينه وبين علماء الأقطار التي مر بها في ذهابه وإيابه، كما أبرزت هذه الرحلة مكانة الفقيه الولاتي العلمية التي تبوأها عند علماء عصره، فحيثما حل ونزل لقي الحفاوة والإجلال والإكبار من أعيان تلك الديار.

والمتتبع لرحلة الفقيه يجد أحداثها ومراحلها تتسلسل تسلسلاً كرونولوجياً دقيقاً ذهاباً وإياباً⁽¹³⁾: فقد خرج فقيهما من ولاتة (7 رجب 1311هـ، الموافق: 14 أبريل 1894م) على الإبل قاصداً بيت الله الحرام وخلالها أنشد العلامة محمد المختار ابن نبالة عالم تَشَيَّتْ وفقمها البيتين التاليين:

لَيْنَ غَابَ عَنِّ وَالَاتَ يَحْيَى فَايَّهَا تَغْيِبُ عَنْهَا نُورُهَا وَسَبَابُهَا
وَعُيْبَ عَنْهَا نَحْوُهَا وَبَيَانُهَا وَعُيْبَ عَنْهَا فِقْمُهَا وَصَوَابُهَا

وفي هذه المرحلة التي مرَّ فيها ببعض القرى والمدن كأغريجيت وتشتيت وشنقيط وكلميم وتَزَزَّوَالَتْ والصورة قام الفقيه الولاتي بتدريس بعض العلوم

وأخذ عليه أعيان تلك الديار، ونظم خلالها بعض القصائد، وألف بعض التأليف، وأجاب عن أسئلة المستفتين، من أهمها أسئلة الأودوي.

محمد يحيى في الرباط، حيث التقى بسلطانها آنذاك: عبد العزيز، الذي أحسن منزلته وأكرمه وأمدّه بزاده نحو الجحاز بعد مقام خمسة أشهر بها، وفي هذه الفترة أخذ عنه بعض العلماء علم البيان من تلخيص القزويني وبعض علم أصول الفقه، كما درسوا عليه تأليفه: «منبع الحق والتقى الهادي إلى سنة النبي المنتقى»، وغيره من مؤلفاته الأخرى.

محمد يحيى في البقاع المقدسة حيث أقام بها ستة أشهر، وأدى خلالها فريضة الحج التي أنشأ الرحلة من أجلها.

محمد يحيى بالمدينة المنورة حيث درس بها الموطأ وعقود الجمان في علم البيان للسيوطي والورقات في أصول الفقه، وذلك من خلال شروحه لهذه الكتب كشرحه ألفية السيوطي وشرحه نظم الورقات.

وقد أجاب على أسئلة كثيرة طرحت عليه آنذاك من بينها سؤال عن جواز الحكم بالضعيف من مذهب مالك للقاضي المالكي، وعن جواز حكمه أيضاً بغير قول إمامه كالحنفي مثلاً للمالكي.

محمد يحيى بمصر حيث اجتمع بعلماء الإسكندرية، وناقش بعض علماءها في مختلف الفنون، وطرخوا عليه مختلف الأسئلة، أهدوا إليه كتباً كثيرة، وأخذ عنه بعض أولئك العلماء، من بينهم العالم حسن شحاتة الذي أجازه إجازة شاملة في جميع مروياته من الحديث والفقه والنحو والبيان والأصول، لعلمه بأهليته بذلك، كما هو مثبت في نص الإجازة⁽¹⁴⁾.

محمد يحيى بتونس التقى خلالها بعدد كبير من علماءها وكبرائها، الذين شهدوا له بالفضل والتفوق، وخلال إقامته أجاب عن أسئلة كثيرة، وألف رسالته الموسومة بـ: «حسام العدل والإنصاف في إبطال شهادة رؤية النار وسماع صوت

المدفع وضرب التلغراف».

عودة الفقيه الولاقي إلى المغرب مارا بمرسيليا فطنجة منتهيا باجليم فتندوف وهو الجزء الذي يهمننا في هذا التحقيق وبذلك تكون نهاية الرحلة برجوعه إلى بلده ولاتة يوم: 6 شوال 1317هـ.

مؤلفاته:

تعد الكتابة والتأليف أهم ظاهرة في حياة الولاقي، ودليلنا على ذلك وفرة تأليفه التي ناهزت المائة⁽¹⁵⁾، حيث طرق أبواب كل الفنون كتابة وتأليفا وإبداعا، فترك لنا خزنة عامرة، كلها في غاية الحسن والإفادة، حيث اتسمت بوفرة تأليفها، وحسن صياغتها، واستقلالية آراءها، كما امتاز أسلوبه فيها بالوضوح والسلاسة، وقرب الأفكار مع العمق وفصاحة اللغة، ويجد القارئ لكتابة الولاقي إضافة إلى يجد إلى وفرة المادة العلمية الغزيرة متعة الأداء وجمال الأسلوب⁽¹⁶⁾.

ومما تجدر الإشارة إليه أن الفقيه الولاقي .رحمه الله .غالبا ما يسمى كتبه، فإذا أراد الإعراب عن عنوان كتاب من كتبه . رحمه الله . صدر اسمه بقوله: وسميته بكذا، فمن ذلك قوله . رحمه الله . في ديباجة شرحه مراقي السعود: « أما بعد، فيقول أقر العبيد على مولاه الغني عمن سواه محمد يحيى بن محمد المختار بن الطالب عبد الله الولاقي ... هذا تقييد مبين مفيد وضعته على ألفية سيدي عبد الله العلوي الوحيد المسماة: مراقي السعود لمبتغي الرقي والصعود... وسميته ب: فتح الودود بسلم الصعود إلى مراقي السعود...»⁽¹⁷⁾.

وإليك ما استطعت الوصول إليه من تأليف حسب فنونها:
*القرآن وعلومه⁽¹⁸⁾:

1. التيسير والتسهيل لمعرفة أحكام التنزيل.

*الحديث وعلومه:

5. نور الحق الصبيح في شرح بعض أحاديث الجامع الصحيح.

*الفقه:

10. منبع الحق والتقى الهادي إلى سنة النبي المنتقى⁽¹⁹⁾.

*القواعد الفقهية:

14. البحر الطامي ذو اللجج على بستان فكر المهج.

*أصول الفقه:

18. فتح الودود بسلم الصعود على مراقي السعود.

*اللغة وعلومها:

30. نظم معاني الحروف من مغنى اللبيب⁽²⁰⁾.

*مجموعة تأليف رسائل وفتاوى وقصائد وردود وفنون مختلفة:

46. نظم مكفرات الذنوب⁽²¹⁾.

*وهذا سرد لبقية الرسائل والردود والفتاوى بحسب ترتيبها الهجائي⁽²²⁾:

ولعل هذه بعض تأليفه وفتاويه ورسائله التي وفقني الله للوصول إليها .

وقد خاض الفقيه الولائي في غمار العلم : التأليف والشرح والتعليق

والتقييد والاختصار والنظم ونحو ذلك، وقليل هم من وفقوا لمثل ذلك.

وتصانيفه. رحمه الله. كما هو واضح من عرضها. من حيث منهجها العام تنقسم إلى

مؤلفات مستقلة وأخرى تابعة.

. أما المؤلفات المستقلة، ونعني بها: التأليف التي كان هو المصمم فيها لمنهج

التأليف تصورًا وترتيبًا، ثم إخراجًا وطريقةً، ككتاب: حسام العدل والإنصاف

القاطع لكل مبتدع متبع الأعراف، ونحوه.

. وأما التبعة فالمراد بها: المؤلفات التي ارتبط فيها بمن سبقه بحيث يكون

دور الفقيه الولائي فيها الشرح والتعليق والإضافة والتكميل والتقييد والاستدلال

والتنظير، فمنها: نور الحق الصبيح، والمواهب التليدة، والبحر الطامي وغيرها.

وهذه التأليف في الغالب هي شاملة لجميع الفنون والعلوم وهو دلالة على

موسوعية علم الولائي .

وفاته:

حياة الفقيه الولائي كانت حافلة بالإنجازات عامرة بالنشاط العلمي، لم يفتر ولم ينقطع عن دوره الريادي العلمي في بلده ولاتة، وبقي على حاله يفرق ساعاته بين التدريس والقضاء احتساباً حتى أصابه شلل في أعضائه أخيراً، ولم يزل كذلك حتى توفي في شهر رمضان سنة ألف وثلاثمائة و ثلاثين هجرية الموافق للعام ألف وتسعمائة وإحدى عشرة ميلادي.

وهذا هو الصحيح المعتمد من الأقوال في تأريخ وفاته، وعليه نصّ بعض تلاميذه وحفيده وأغلب مترجميه⁽²³⁾.

وقيل: بأنه توفي في أواخر شعبان من السنة نفسها⁽²⁴⁾.

وقيل: في ذي الحجة من سنة ألف وثلاثمائة وتسع وعشرين هجري⁽²⁵⁾.

وغير هؤلاء كثير.

[جَوَابُ النَّازِلَةِ الثَّانِيَةِ]

وَإِنَّمَا السُّؤَالُ الثَّانِي فَجَوَابُهُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ هُوَ أَنَّ مَنْ أَحَاطَ الدَّيْنُ بِمَالِهِ قَدْ اِخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِيهِ، هَلْ تَجُوزُ لَهُ مِنْ مَالِهِ صَدَقَةُ التَّطَوُّعِ أَوْ لَا؟ فَذَهَبَ مَالِكٌ وَالشَّافِعِيُّ فِي إِحْدَى الرَّوَايَتَيْنِ عَنْهَا أَنَّهُمَا تَجُوزُ لَهُ مُطْلَقًا أَي قَلِيلَةً كَانَتْ أَمْ كَثِيرَةً مَا لَمْ يَحْجُرْ عَلَيْهِ الْحَاكِمُ.

[دَلِيلُ الْمَالِكِيَّةِ]:

أَمَّا الرَّوَايَةُ عَنْ مَالِكٍ بِذَلِكَ فَقَدْ نَقَلَ الْمَازِرِيُّ⁽²⁶⁾ عَنْ مَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ أَنَّهُمَا قَالَا: «إِنَّ الْمَدِينِ الَّذِي أَحَاطَ الدَّيْنُ بِمَالِهِ لَا يَمْنَعُهُ مِنَ التَّبَرُّعِ إِلَّا تَحْجِيرُ الْحَاكِمِ، وَقَرَّرَ ذَلِكَ صَاحِبُ التَّكْمِلَةِ وَالشَّيْخُ سَالِمٌ⁽²⁷⁾ وَنَقَلَهُ عَبْدُ الْبَاقِي الرَّزْقَانِي فِي شَرْحِهِ عَلَى الْمُخْتَصَرِ عِنْدَ قَوْلِهِ: «لِلْغَرِيمِ مَنْعٌ مَنْ أَحَاطَ الدَّيْنُ بِمَالِهِ مِنْ تَبَرُّعِهِ وَنَصُّهُ ظَاهِرٌ قَوْلِ الْمُصَنِّفِ لِلْغَرِيمِ: مَنْعٌ مَنْ أَحَاطَ الدَّيْنُ بِمَالِهِ مِنْ تَبَرُّعِهِ أَنَّ ذَلِكَ بِلَا حَاكِمٍ وَهُوَ الَّذِي فِي ابْنِ عَرَفَةَ⁽²⁸⁾⁽²⁹⁾ وَغَيْرِهِ، وَرَدَّ صَاحِبُ التَّكْمِلَةِ ذَلِكَ وَتَبِعَهُ الشَّيْخُ سَالِمٌ بِقَوْلِ

المَازِرِيِّ: اتَّفَقَ مَالِكٌ وَالشَّافِعِيُّ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ لِلْحَاكِمِ فَقَطُ»⁽³⁰⁾. انتهى. وَسَلَّمَهُ الْبَنَانِيُّ فِي حَاشِيَتِهِ.

[جَوَازُ التَّصَدَّقِ بِالْقَلِيلِ]:

وَالرَّوَايَةُ الْمُقَابِلَةُ لِهَذِهِ الرَّوَايَةِ عَنِ مَالِكٍ: «أَنَّ مَنْ أَحَاطَ الدَّيْنَ بِمَالِهِ لَا يَجُوزُ لَهُ مِنَ الصَّدَقَةِ إِلَّا الْقَلِيلُ الَّذِي جَزَتْ الْعَادَةُ بِهِ كإِعْطَاءِ كِسْرَةٍ وَنَحْوِهَا لِسَائِلٍ وَأَنَّ مَا زَادَ عَلَى الْقَلِيلِ لِلْغَرِيمِ أَنْ يَمْنَعَهُ مِنْهُ بِلَا حَاكِمٍ إِذَا كَانَ يُجْحِفُ»⁽³¹⁾ بِقَضَاءِ الدَّيْنِ عِنْدَ حُلُولِهِ وَهُوَ الَّذِي فِي مُخْتَصَرِ ابْنِ عَرَفَةَ وَغَيْرِهِ.

[جَوَازُ التَّصَدَّقِ بِالكَثِيرِ]:

وَأَجَازَ بَعْضُ الْمَالِكِيَّةِ لَهُ أَنَّ يَتَّصَدَّقَ بِالكَثِيرِ مِنْ مَالِهِ الَّذِي يُجْحِفُ بِقَضَاءِ الدَّيْنِ إِذَا كَانَ يَرْجُو حُصُولَ مِثْلِ مَا تَبَرَّعَ بِهِ عِنْدَ حُلُولِ الدَّيْنِ أَوْ عِنْدَ قِيَامِ رَبِّهِ بِطَلْبِهِ فَإِنْ تَصَدَّقَ بِمَا يُجْحِفُ بِقَضَاءِ الدَّيْنِ عِنْدَ حُلُولِهِ أَوْ عِنْدَ قِيَامِ رَبِّهِ بِطَلْبِهِ وَهُوَ لَا يَرْجُو حُصُولَ مِثْلِهِ عِنْدَ حُلُولِ الدَّيْنِ أَوْ عِنْدَ قِيَامِ رَبِّهِ كَانَ مَا جُوزَ مِنْ جِهَةٍ وَآثِمًا مِنْ جِهَةٍ؛ بِنَاءً عَلَى قَاعِدَةِ الشَّيْءِ الْوَاحِدِ بِالشَّخْصِ الَّذِي لَهُ جِهَتَانِ كَالصَّلَاةِ فِي الدَّارِ الْمُغْصُوبَةِ ذَكَرَهُ الرَّهْمُونِيُّ⁽³²⁾ وَاسْتَظْهَرَهُ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ⁽³³⁾.

[دَلِيلُ الشَّافِعِيَّةِ]:

وَإِنَّمَا الرَّوَايَةُ بِذَلِكَ عَنِ الْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ فَقَدْ نَقَلَهَا أَصْحَابُ مَذْهَبِهِ.

فَفِي فَتْحِ الْبَارِي عَلَى صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ لِلْإِمَامِ ابْنِ حَجَرٍ عِنْدَ قَوْلِ الْبُخَارِيِّ: «بَابُ لَا صَدَقَةَ إِلَّا عَنِ ظَهْرِ غَنَى وَمَنْ تَصَدَّقَ وَهُوَ مُحْتَاجٌ أَوْ عَلَيْهِ دَيْنٌ فَالِدَيْنِ أَحَقُّ أَنْ يُقْضَى فِي الصَّدَقَةِ وَالْعَتَقِ وَالْهَبَةِ وَهُوَ رَدُّ عَلَيْهِ لَيْسَ لَهُ أَنْ يُتْلَفَ أَمْوَالُ النَّاسِ إِلَى آخِرِهِ مَا نَصَّهُ، أَمَّا قَوْلُهُ وَهُوَ رَدُّ عَلَيْهِ فَمُقْتَضَاهُ أَنَّ الدَّيْنَ الْمُسْتَعْرِقَ لَا يَصِحُّ مِنْهُ التَّبَرُّعُ، لَكِنْ مَحَلُّ هَذَا عِنْدَ الْفُقَهَاءِ إِذَا حَجَرَ عَلَيْهِ الْحَاكِمُ بِالْفَلَسِ، وَقَدْ نَقَلَ فِيهِ صَاحِبُ الْمُغْنَى وَغَيْرُهُ الْإِجْمَاعَ عَلَيْهِ فِي حُمَلٍ إِطْلَاقِ الْمُصَنَّفِ أَيُّ الْبُخَارِيِّ عَلَيْهِ»⁽³⁴⁾. انتهى.

وَفِي إِرْشَادِ السَّارِيِّ لِلْقَسْطَلَانِيِّ عِنْدَ التَّرْجَمَةِ الْمُدْكُورَةِ مَا نَصَّهُ: «مُقْتَضَى

قَوْلِهِ وَهُوَ رَدُّ عَلَيْهِ أَنَّ الدَّيْنَ المُسْتَعْرِقَ مَانِعٌ مِنْ صَحَّةِ التَّبَرُّعِ لِكِنَّ مَحَلَّهُ إِذَا حَجَرَ عَلَيْهِ الْحَاكِمُ بِالْفَلَسِ وَقَدْ نَقَلَ صَاحِبُ الْمُعْنَى وَغَيْرُهُ الإِجْمَاعَ عَلَيْهِ فِي حَمَلِ إِطْلَاقِ الْمُؤَلَّفِ يَعْنِي البُخَارِيَّ عَلَيْهِ⁽³⁵⁾. انتهى.

[جَوَازُ التَّصَدُّقِ مَعَ الكَرَاهَةِ]:

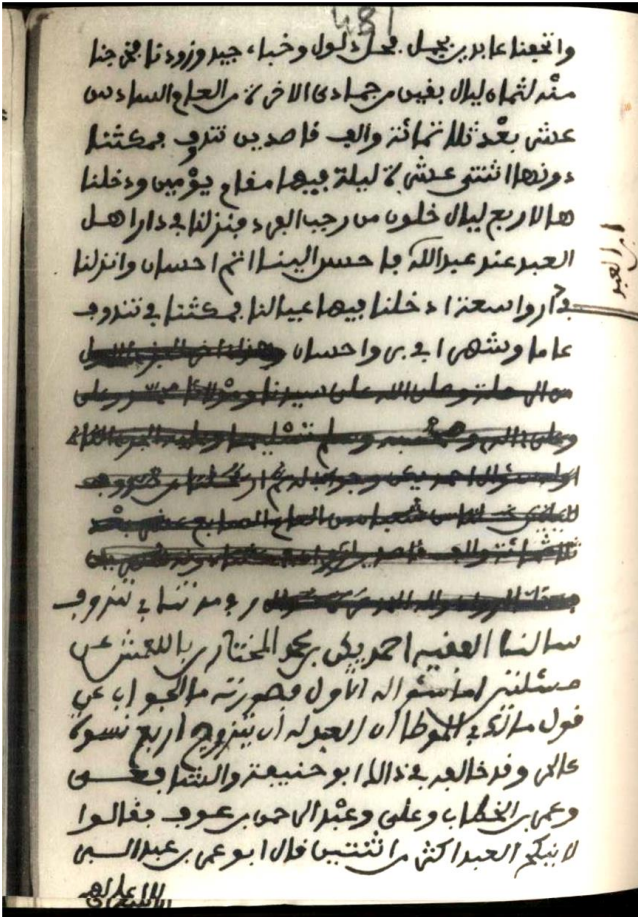
وَفِي الفَتْحِ⁽³⁶⁾ أَيْضًا فِي شَرْحِ حَدِيثِ لَا صَدَقَةَ إِلاَّ عَنِ ظَهْرِ غَنَى مَا نَصَّهُ قَالَ النُّوويُّ: «مَذْهَبُنَا أَنَّ التَّصَدُّقَ بِجَمِيعِ المَالِ مُسْتَحَبٌّ لِمَنْ لَا دَيْنَ عَلَيْهِ وَلَا عِيَالٌ لَهُ يَصْبِرُونَ وَيَكُونُ هُوَ مِمَّنْ يَصْبِرُ عَلَى الإِضَاقَةِ والفَقْرِ، فَإِنْ لَمْ يَجْمَعْ هَذِهِ الشُّرُوطَ فَهُوَ مَكْرُوهٌ»⁽³⁷⁾. انتهى.

فَمَفْهُومُ كَلَامِهِ أَنَّ تَصَدَّقَ المَدِينُ الَّذِي أَحَاطَ الدَّيْنُ بِمَالِهِ بِجَمِيعِ مَالِهِ أَوْ جَلَّهَ جَائِزٌ مَعَ الكَرَاهَةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَفِي المِهْجِ لِلنُّوويِّ⁽³⁸⁾ فِي بَابِ صَدَقَةِ التَّطَوُّعِ مَا نَصَّهُ: «وَمَنْ عَلَيْهِ دَيْنٌ أَوْ لَهُ مَنْ تَلَزَّمَهُ نَفَقَتُهُ يُسْتَحَبُّ لَهُ أَنْ لَا يَتَصَدَّقَ حَتَّى يُؤَدِّيَ مَا عَلَيْهِ»⁽³⁹⁾. انتهى. فَمُقْتَضَاهُ أَنَّهُ يَجُوزُ لَهُ التَّصَدُّقُ مَعَ الكَرَاهَةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

أَفْتَى بِهِ عَبْدُ رَبِّهِ مُحَمَّدٌ يَحْيَى بْنُ مُحَمَّدٍ المُخْتَارِ عَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ جَمِيعِ الأَوْرَارِ آمِينَ، وَكَتَبَ نَاقِلًا مِنْ حَظِّهِ أَوَاسِطَ رِبْعِ الثَّانِي مِنْ عَامِ 1312 هـ عَبْدُ رَبِّهِ أَحْمَدُ يَكْنَى بِنُ مُحَمَّدٍ المُخْتَارِ بْنِ بَلْعَمَشَ لَطَفَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِمُ وَالْمُسْلِمِينَ آمِينَ

ملحق الصور



المصادر والمراجع المطبوعة

1. إتحاف المطالع بوفيات أعلام القرن الثالث عشر والرابع عشر لعبد السلام بن سودة، ومعه سل النصال للنضال بالأشياخ وأهل الكمال فهرس الشيوخ لابن سودة، من موسوعة أعلام المغرب.

2. إرشاد الساري للقسطلاني، دار الكتاب العربي، الطبعة السابعة، سنة الطبع 1323هـ.
3. الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام للعباس بن ابراهيم المالبي قاضي مراكش، راجعه عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، المغرب، سنة الطبع 1977م.
4. الأعلام للزركلي، دار العلم للملايين، الطبعة الثامنة، بيروت، لبنان، سنة الطبع 1989م.
5. تاريخ النحو العربي في المشرق والمغرب لمحمد المختار ولد أباه، المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، دار التقريب بين المذاهب الإسلامية.
6. الرحلة الحجازية لمحمد يحيى بن محمد المختار، تخرّيج وتعليق: د. محمد الحجي، دار الغرب الإسلامي بالإشتراك مع معهد الدراسات الإفريقية بالرباط، المغرب، الطبعة الأولى، سنة الطبع 1990م.
7. سير أعلام النبلاء للدهبي، تحقيق وإخراج شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الرابعة، بيروت لبنان، سنة الطبع 1986م.
8. شجرة النور الزكية في طبقات المالكية لمحمد مخلوف، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى سنة 1349هـ.
9. الضوء اللامع لأهل القرن التاسع للحافظ السخاوي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، مصر.
10. لسان العرب لابن منظور، دار صادر، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان. سنة الطبع 2000م.
11. المعسول لمحمد المختار السوسي، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، المغرب. سنة الطبع 1382هـ.
12. مكانة أصول الفقه في الثقافة المحظية الموريتانية لمحمد محفوظ بن أحمد، المكتب العربي للخدمات الثقافية، الطبعة الأولى، سنة الطبع

1416هـ، 1996م.

13. نيل السول شرح مرتقى الوصول للعلامة الولاتي، تقديم. العلامة محمد مايابي الشنقيطي، المطبعة المولوية، الطبعة الأولى، فاس، المغرب. سنة الطبع 1337هـ.
14. هدية العارفين للبيغدادى، دار الفكر، بيروت، لبنان. سنة الطبع 1982م.
15. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان، دار صادر، بيروت، لبنان. سنة الطبع 1968، 1972.

المصادر المخطوطة

1. مختصر ابن عرفة. المحفوظة بالخزانة الوطنية بتونس
2. التكملة للمشذالي. المحفوظة بالخزانة العامة بالجزائر العاصمة
3. الرحمة للصفدي.

(1) سوس العالمية: 166، هذا الكتاب مطبوع قديماً بالمغرب وهناك نسخة منه في المكتبة الوطنية بالحامة بالجزائر العاصمة برقم: 5297/18.

(2) وقد اعتمدت في ترجمة الشيخ على ترجمة لنفس العلامة تحقيق الباحث الدكتور: مراد بوضاية.

(3) فتح الودود: 2، وراجع الرحلة: 290، وغيرها من كتبه المطبوعة في ديوانته.

(4) وعلى هذا اقتصر بعض مترجميه، انظر: ترجمة الولايتي للعلامة ابن مابابن: مقدمة فتح الودود، إتحاف المطالع بوفيات أعلام القرن الثالث عشر والرابع: 8/2867، الأعلام للزركلي: 142/7، دليل مؤرخي المغرب لابن سودة: 397.396، معجم المؤلفين: 3/769.

(5) وإلى هذا أشار المراكشي في الإعلام: 7/180.

(6) انظر المصادر السابقة، والمعسول: 8/281، شجرة النور الزكية: 435، ترجمة الولايتي لحفيده بابا محمد عبد الله، مكانة أصول الفقه في الثقافة المحظية الموريتانية: 195.

(7) ترجمة الولايتي لحفيده في مقدمة نيل السول.

(8) تاريخ النحو العربي: 613.

(9) شجرة النور الزكية: 435.

(10) الرحلة الحجازية: 100، 110، 114، 185، 203 وغيرها، وانظر: نص إجازته لتلميذه حسن شحاتة في الإعلام: 7/142.

(11) انظر: في الكلام عن نشأته العلمية: الرحلة الحجازية له، المعسول: 8/281، ترجمة الولايتي لحفيده بابا محمد عبد الله في مقدمة نور الحق الصبيح، وفي مقدمة نيل السول، الأعلام: 142/7، في مكانة أصول الفقه في الثقافة المحظية الموريتانية: 195.

(12) ترجمة الولايتي لحفيده بابا محمد عبد الله في مقدمة نور الحق الصبيح، وفي مقدمة نيل السول، بلاد شنقيط: 529.

¹³ من كتاب الفقيه الولايتي الرحلة الحجازية ومقدمة محققة، ومقال الأستاذ أحمد الأزمي: دور الرحلة الحجية المغربية، وترجمة الولايتي لحفيده.

(14) النص، صورة منه في الأعلام للزركلي: 7/142.

(15) انظر: مقدمة الرحلة الحجازية لمحمد حجي: 9، المعسول: 8/286، مقدمة فتح الودود لمحمد حبيب بن مابابن، تاريخ النحو العربي في المشرق والمغرب: 613، سرد مؤلفات الولايتي لحفيده في آخر نيل السول.

(16) مكانة أصول الفقه في الثقافة المحظية الموريتانية: 195.

(17) فتح الودود: 2.3.

(18) استقيت أسماء مؤلفاته في علوم القرآن من المعسول: 8/286، لائحة مؤلفات الولايتي لحفيده في آخر نيل السول، وبلاد شنقيط: 205.

- (19) الرحلة:158، الإعلام للمراكشي:7/180، المعسول:8/285، لائحة مؤلفات الولاّتي لحفيده في آخر نيل السول.
- (20) المعسول:8/286، لائحة مؤلفات الولاّتي لحفيده في آخر نيل السول، بلاد شنقيط: 624،604.
- (21) المعسول:8/286.
- (22) انظر: هذه اللائحة في بلاد شنقيط:604، 605، ومسرّد كتب الولاّتي لحفيده في آخر: نيل السول، وبعضها مستقى من كتاب الولاّتي: الرحلة الحجازية.
- (23) المعسول:8/285، ترجمة حفيده، إتحاف المطالع:8/2867، مكانة أصول الفقه: 190، بلاد شنقيط: 604، الأعلام الشرقية:1/403، الأعلام للزركلي:7/142.
- (24) شجرة النور:435، إتحاف المطالع لابن سوّدة 2867، الإعلام للمراكشي:7/181.
- (25) المعسول:8/285، معجم المؤلفين:3/769.
- (26) هو: أبو عبد الله محمد بن علي بن علي بن محمد التميمي، المازري المالكي، له شرح صحيح مسلم وسنّاه: كتاب المعلم بفوائد مسلم وعليه بنى القاضي عياض كتاب الإكمال، ت: 536 هـ. وفيات الأعيان:4/285.
- (27) هو: سالم بن محمد بن محمد بن عزّ الدين بن ناصر الدين أبو النجا السنهوري المصري الفقيه المالكي له شرح على مختصر خليل في الفقه، ت: 1015 هـ. طبقات المالكية:116.
- (28) هو: محمد بن محمد بن محمد بن عرفة أبو عبد الله الورغي، المالكي، من تصانيفه: المختصر، والحدود، ت:803 هـ. الضوء اللامع:10/240، 242.
- (29) المختصر لابن عرفة لا يزال مخطوطة وقد بحثت عنه ولم أوفق في إيجاده، إلا أنه قد تم تحقيق الجزء الأول منه طبعة دار المدار الإسلامي، سنة 2003م، وسوف يتم تكملته تحقيقه الأجزاء المتبقية كما أشار إلى ذلك محققوه.
- (30) لعل الولاّتي يقصد هنا بصاحب التكملة الفقيه: أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم المُشَدَّالِي وكتابه غير مطبوع.
- (31) جحف: ج، ح، ف، بمعنى الإضرار، ومنها أجحف بهم الدهر أي استأصلهم، ويقال جُحَافٌ أي شديد يذهب بكل شيء، والسنة المجحفة أي المضرة. لسان العرب لابن منظور:3/82.

(32) هو: شرف الدين يحيى بن أبي بكر بن عبد الله التونسي المالكي المعروف بالرهوني، ت: 773هـ. هدية العارفين: 2/527.

(33) إذا لم تكن صدقة التطوع تضر بمال المدين أو تذهب به كله فلا بأس بالقليل أو بالكثير منها إذا كان يرجو حصولها عند حلول الدَّيْنِ أو عند قيام ربه – الدين - بطلبه، أما إذا كان لا يُرْجَى حصولها سواء عند حلول الأجل أو قيام رب الدين بطلب دينه فإنها تجوز مع الكراهة كما جاء في النص ولعل هذا هو ما أراد الولا تي قوله في النص.

(34) فتح الباري: 3/346، وفيه: "وهو محتاج أو أهله محتاج "مكان" وهو محتاج أو عليه دين".

(35) إرشاد الساري: 3/29، باب وجوب الزكاة. والذي فيه: "الإجماع "مكان" الإجماع عليه".

(36) يقصد هنا بالفتح فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني.

(37) فتح الباري: 3/347، كتاب الزكاة. رقم الحديث (1426).

(38) هو: محي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف النووي، له تصانيف كثيرة منها: روضة الطالبين والمنهاج، ت: 676هـ. سير أعلام النبلاء: 17/321.

(39) المنهاج للنووي: 135، كتاب قسم الصدقات، فصل صدقة التطوع.

الكاتب: د. عادل النفاثي
 كلية العلوم الانسانية والاجتماعية
 بتونس.
 عنوان المقال: دور الجغرافيا المغربية في
 تصحيح معارف أوروبا حول إفريقيا: كتاب
 "وصف إفريقيا" للحسن الوزان
 الفاسي (Léon l'Africain) أنموذجا

البريد الإلكتروني: adel.nafeti@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2019/09/07 تاريخ القبول: 2019/12/12 تاريخ النشر:
 2020/03/31

دور الجغرافيا المغربية في تصحيح معارف أوروبا حول إفريقيا: كتاب "وصف إفريقيا"
 للحسن الوزان الفاسي (Léon l'Africain) أنموذجا

The role of Maghreb geography in adjusting Europe's knowledge about
 Africa: "The description of Africa" book written by Hassan Wazzan al Fessi a
 model.

الملخص بالعربية:

صدر كتاب "وصف إفريقيا" للحسن الوزان الفاسي في منتصف القرن السادس عشر بمدينة روما، والذي مثل آنذاك نقطة فارقة في تاريخ المعرفة العالمية الأوروبية. حيث حرر ذلك الأثر إفريقيا من عُقال تمثلات أوروبا الكلاسيكية، التي صورتها كقارة جامعة لمتناقضات طبيعية وبشرية. فهي قطعة من جهنم بسبب اشتداد الحرّ فيها، وحاضنة لمجوعات بشرية لم تبلغ مرحلة الأدمية بعد، ذلك ما فسر حسب ظنهم عدم تشكل حضارات عريقة كالتي ظهرت في آسيا وأوروبا. ولقد أخذت تلك التمثلات في التبدّل حال اطلاع الأوروبيين على مدونة الحسن الوزان الفاسي الذي بيّن استنادا إلى جملة من المصادر العربية، ومن خلال خبرته بأخبار القارة تهاقت التمثلات الأوروبية، مبرزا رسوخ الظاهرة البشرية بإفريقيا، دارسا لمختلف أقاليمها ومواردها وخصائصها الطبيعية والثقافة المادية واللامادية، ما جعل الأوروبيين يعيدون النظر في صورة إفريقيا والانكباب على دراستها من زاوية جديدة.

كلمات مفتاحية: أدب الرحلة – إفريقيا – البحر الأبيض المتوسط – الثقافة – الوصف.

Abstract :

"The description of Africa" book was published in the middle of the sixteen century in Rome; it represented a milestone in the history of European scholarly knowledge since that book contributed in liberating Africa from classic European representations that depicted it as continent full of natural and human contradictions. Africa was considered as a piece of hell because of its extreme heat and its incubation of groups of human beings that had not yet reached the stage of humanism.

In fact this is what explained why no genuine civilizations were as it happened in Asia and Europe.

The European representations had gradually changed since the European writers and geographers were exposed to al Hassan el Wazzan el Fessi' s book, in which revealed, based on a number of Arab sources and his own knowledge of the continent' s news. The unjustified European representations highlighting the rooted human phenomenon in Africa and studying its different regions, resources, cultural, natural, material and human characteristics. All this urged the Europeans to adjust the image of Africa and restudy it from a new angle.

Key words: travel literature – Africa – the Mediterranean Sea – the culture – the description.

مقدمة:

لم تكن إفريقيا المتاخمة لأوروبا غائبة عن اهتماماتها وعن علومها في كل مراحل تاريخها، فقد مثلت دوماً إحدى شواغلها المعرفية وبخاصة الجغرافية منذ بدايات تشكل الرصيد المعرفي الأوروبي القديم. وارتقت المعطيات الجغرافية والبشرية الواردة فيه حول إفريقيا إلى مكانة الحقائق الثابتة، فنُظر إليها بكثير من الاحترام والتبجيل استمر لقرون

طويلة. فبدا المجال الإفريقي فيها مجالاً طرفياً عنيفاً، قاحلاً ومنغلقاً، يصعب الولوج إليه بسبب ارتفاع حرارة مناخاته وصحاريه الممتدة وغلبة الجذب على الخصب. واستمر حضور تلك التمثلات في الآداب اليونانية وتسرب البعض منها إلى مؤلفات الرحلة والجغرافيا العربيتين إلى حين صدور كتاب "وصف إفريقيا"¹ للجغرافي الغرناطي الأصل، المغربي المنشأ والتكوين: الحسن بن محمد الوزان الفاسي² أو ليون الإفريقي Léon l'Africain كما لُقّب في أوروبا، حيث أحدث مؤلفه حال صدوره في منتصف القرن السادس عشر ضجة كبرى في الأوساط الأوروبية، وشدّ انتباه العديدين من المهتمين بالشأن الجغرافي عامة والشأن الإفريقي خاصة.

وتزامن ظهور مؤلف الحسن الوزان الفاسي مع سياقات أوروبية مخصوصة، تميزت بتشوّف تلك القارة إلى معرفة بقية أجزاء العالم بطريقة جديدة ومغايرة لما تم توارثه من صور كلاسيكية قديمة، بعد أن بيّنت الكشوفات الحديثة محدوديتها وضبابيتها. فظهر اتجاه أوروبي قوي مقبل على تنوع مصادر المعرفة ومنفتح على دراسة المصادر الجغرافية والتاريخية غير الأوروبية وخصوصاً منها المغربية، بعد أن أثبتت المغاربة نبوغهم في مجال الجغرافيا الوصفية من خلال مدوناتهم العديدة في مجالي الرحلة والجغرافيا. ورفعت الجغرافيا الأوروبية الحديثة عن نفسها حرج تقديس مؤلفات الجغرافيا الإغريقية والرومانية، واقتنع المهتمون بها والفاعلون فيها بضرورة مقارنة المعطيات التي تضمنتها مع مصادر أخرى مختلفة، خاصة وأن المعلومات التي كانت بحوزة الأوروبيين عن إفريقيا قبل صدور كتاب الوزان الفاسي لم تتعدّ الأجزاء الشمالية والساحلية، وهي متسمة بغلبة الطابع الانطباعي على الطابع العلمي الموضوعي. وما عدا ذلك فإن بقية مكونات الصورة عن دواخل القارة كانت غائمة اختلط فيها الواقعي مع الخيالي، والحقيقي مع الأسطوري.

لقد استفاد الحسن الوزان الفاسي - وهو بإيطاليا على غرار المبدعين الأوروبيين - من ظرفية عصر النهضة الأوروبي الذي وفر مناخات معرفية ضرورية لتدوين مؤلف جغرافي يعنى بأحوال إفريقيا بمنأى عن كل ضغوطات قد يتعرض إليها لو كان مكان التدوين مكاناً آخر. فقد كان الكاتب على دراية بمنافع النهضة الأوروبية التي أحسن توظيفها وملاءمتها مع مكتسباته المعرفية ومع تجاربه الذاتية ومغامراته في الفضاء الإفريقي، ما أكسب أثره "وصف إفريقيا" قيمة معرفية قصوى أهلته لأن يُترجم إلى عدّة لغات، ومن ثمة شيوعه في أوساط الكتاب

والمكتبات الأوروبية والذي حفّر على معاودة الاهتمام بموضوع إفريقيا والكتابة فيه من قبل الأوروبيين أنفسهم ولكن من وجهة نظر مخالفة لما تم توارثه. ولدراسة تطوّر مدلول إفريقيا في مؤلفات الكتاب الأوروبيين القدامى إلى حين صدور مؤلف "وصف إفريقيا" وأثره في المعرفة العاملة الأوروبية الكلاسيكية، قسمنا ورقتنا إلى قسمين: تضمن القسم الأول مكانة إفريقيا في الموروث الجغرافي الكلاسيكي الإغريقي والروماني بالوقوف عند منتقيات من مؤلفات الجغرافيين والرحالة الإغريق والرومان في الفترتين القديمة والوسيط. ثم تطرقنا في القسم الثاني إلى مظاهر تجديد المعرفة الجغرافية حول إفريقيا في مؤلف "وصف إفريقيا" مع الوقوف عند مضامينه الطبيعية والبشرية وأهم المحطات التاريخية والسمات الثقافية للشعوب الإفريقية.

1- صورة إفريقيا في الموروث الجغرافي الإغريقي والروماني:

تطلّع الفكر الفلسفي الإغريقي الشغوف بالملاحظة والاستفهام منذ القرن السادس ق.م، إلى استيعاب وتدبير حصاد مغامرات بعض المغامرين والرحالة³، وإلى كشف النقاب وتوسيع دائرة المعرفة الجغرافية في الكثير من أنحاء الأرض حول بلاد الإغريق. فكانت وجهتهم نحو أوطان الحضارات القديمة في آسيا وإفريقيا، ودونوا في شأنها عديد المؤلفات الواصفة لطبيعتها ولطبائع الأقوام وأهوائهم وعوائدهم. لذلك حفلت السرديات الإغريقية وفيما بعد الرومانية بشروح متنوعة لما شاهده المستكشفون الأوروبيون عامة وما عاشوه في تلك البقاع الغنيّة بمتناقضاتها⁴. وفي خضم تلك السرديات مثلت مصر الاستثناء الإفريقي، إذ حظيت - على خلاف بقية الأقاليم الأخرى - بمكانة مميزة، لا لانتمائها الجغرافي وموقعها المطل على المتوسط مهد تكوّن الحضارات القديمة وحسب، بل أيضا لاشعاعها الحضاري وعراقته، وخصوبة أراضيها، وسيلان نيلها وسخائه، و"قداسة مياهه"، التي بلغ صداها ضفاف المتوسط الشمالية عندما زعمت المسيحية أن منابع الأنهار الكبرى تنطلق من الفردوس⁵.

1 - الجغرافيا الطبيعية لإفريقيا: إفريقيا أرض المتناقضات

كانت المعلومات المتداولة ضمن المؤلفات الجغرافية الكلاسيكية حول الطبيعة الإفريقية شحيحة⁶، بدعوى هامشية المجال: سكانا وطبيعة، بحيث لا يستحقان اهتماما بالغا. ما جعل إفريقيا دون القارتين الأخرين مكانة. فقد أبدى هيرودوت⁷ Hérodote تعجبه

من "الناس الذين يوزعون الأرض إلى ثلاثة أقسام: ليبيا وآسيا وأوروبا، ويدققون حدودها، والحال أن الاختلافات بين هذه الأقسام الثلاثة ليست صغيرة. فمن ناحية الطول فأوروبا تعادل القارتين معاً، لكن من ناحية العرض، فيبدو لي أنه لا يجب أن نقارن بينهما"⁸. ولقد دعم المؤرخ ايتكوس استير⁹ Ethicus Ister تعجب هيرودوت الذي يبين فيه أنه من الخطأ اعتبار إفريقيا قارة منفصلة بذاتها شأنها شأن آسيا وأوروبا، بل هي امتداد طبيعي لجنوب أوروبا، لا تشكل وحدة طبيعية أو بشرية مستقلة. فأراضيها فقيرة وريثة ومناخها جاف ومجالاتها مجهولة وكل مجهول خطير¹⁰، على عكس أوروبا وآسيا المشهورتين بحضارتهما وإنجاهما لأبطال ورموز خلدت اسم القارتين في التاريخ¹¹.

قسمت الجغرافيا الأوروبية القديمة المجال الإفريقي إلى قسمين: حوى القسم الأول مجالاً شاسعاً أطلق عليه الكتاب الإغريق مصطلح "أثيوبيا"، وقد شمل كل المجالات الجغرافية الواقعة جنوب مصر. ولكن أحالت مفردة "الأثيوبيين" على عديد المعاني، وأثارت التباساً بين المؤرخين والجغرافيين القدامى. فالنسبة إلى هيرودوت فإن الأثيوبيين هم مجموعات بشرية ذات بشرة سوداء من جراء أشعة الشمس المحرقة التي يربها الكاتب سواد بشرة السكان المحليين¹²، وصنّفهم إلى: أثيوبي الشرق ذوي الشعر الناعم، وأثيوبي الغرب ذوي الشعر. وهو تصنيف يشبه إلى حد ما تصنيف بليينوس الذي أكد أن نهر النيل هو الحدّ الفاصل بين أثيوبيا الشرقية وأثيوبيا الغربية. أما بطليموس¹³ Ptolémée فقد قسم أثيوبيا إلى قسمين: أثيوبيا الشمالية الواقعة جنوب مصر، وعرفت باسم بلاد النوبة Nubie، وأثيوبيا الجنوبية المعروفة ببلاد الحبشة Abyssinie وهي مجالات ظلت مجهولة لم تذكر الجغرافيا القديمة عنها معطيات كبرى.

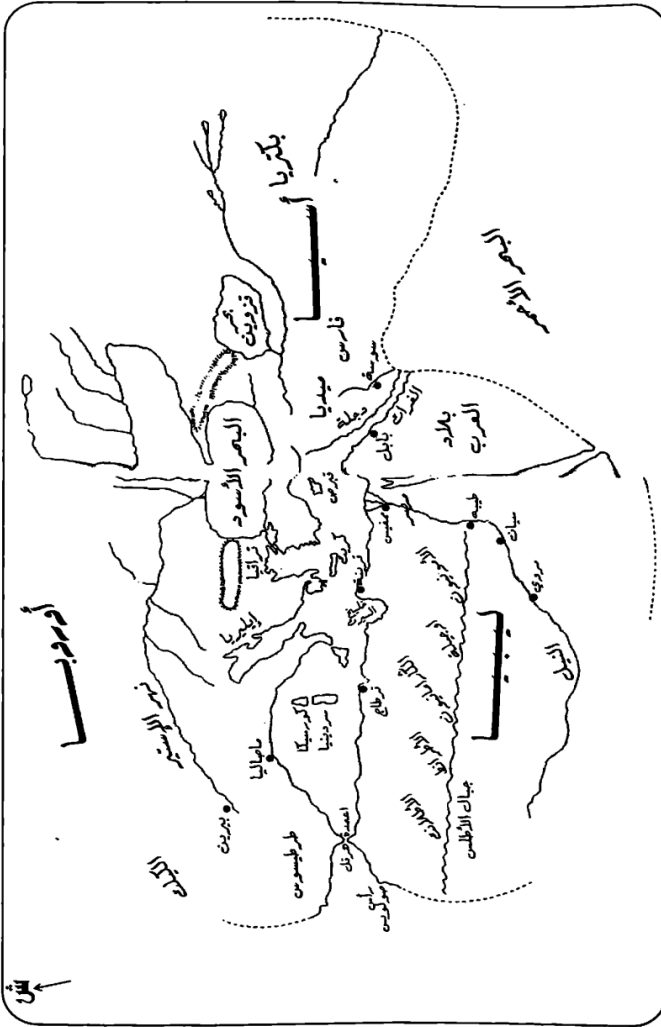
ومثلما أحال موقع أثيوبيا ومدلولها على خلافات في الآراء وعدم اتفاق بين الجغرافيين القدامى، فقد أحالت تلك المصادر ذاتها على أحكام متباينة حول ذلك الإقليم. فبالنسبة إلى سترابون Strabon فإن أثيوبيا بلد قاحل وفقير تسكنه مجموعات بشرية بائسة، وحسب بليينوس Plin L'ancien فإن أثيوبيا مأهولة بكائنات أشبه بالوحوش. ورجح كتاب الفترة الوسيطة مثل بوميوس¹⁴ Boemus ومانستر¹⁵ Munster وجود منطقتين من العالم سميتا بأثيوبيا: واحدة بإفريقيا وأخرى بآسيا، وهو ما يحيلنا على التداخل في أذهان الكاتبين بين الهند بآسيا وأثيوبيا بإفريقيا.

ووسمت المصادر نفسها المجال الجغرافي الإفريقي الثاني بلبيبا، وهو مجال شاسع امتد من رأس صولبيوس Soloeis على السواحل الشمالية المغربية المطلّة على المحيط الأطلسي غربا إلى الصحراء المصرية شرقا. وفيه ظهرت مجموعات بشرية أمازيغية متنوعة من ذوي البشرة البيضاء أطلق عليهم تسمية ليبو Lebou أو لوبيين حسب زعم هيرودوت¹⁶. وعلى خلاف الإقليم الأول تبدو المعطيات الواردة في المصادر المذكورة حول ليبيا¹⁷ أو بلاد الأمازيغ أكثر إسهابا، حيث فصل بعضهم الحديث عن أقاليمها. فقد انفرد بطليموس بالحديث عن منطقة ليبيا الداخلية¹⁸، والتي قسّمها إلى ثلاث مقاطعات وهي: ليبيا القوريناية¹⁹ Libye Cyrénaïque ولبيا المارمريكية²⁰ Libye Marmarique ولبيا. وحملت بداية الفترة الوسيطة مسميات جديدة، عندما استخدم ايتكوس Ethicus اسم طرابلس Tripolitaine في إشارة إلى حضور المدن الثلاث المشهورة²¹. وتم إفراد إقليم نوميديا²² Numidie بحيز جغرافي مخصوص لم يكن محل إجماع الجغرافيين، ولم يتم ذكره في جميع المصادر المعروفة. أما بالنسبة إلى بقية المجال فقد قسم بين الولايتين الرومانيتين المشهورتين: موريطانيا الطنجية وموريطانيا القيصرية وفق ما أورده كل من بليوس وبتليموس وصولان وكابيللا²³ Capella ومونستر Munster.

وعلى خلاف مصر المعروفة بانفتاحها على بقية حضارات العالم القديم حدّ التأثير فيها بفضل ما اكتسبته من رقيّ حضاري، فإن بقية مجالات إفريقيا وفق الرواية الاغريقية قد أثرت الانغلاق على ذاتها ورفضت التواصل مع محيطها وكأنها تخشى غزو الحضارات الأخرى الأقوى منها. فوجد قداماء الجغرافيين في ذلك الانغلاق خير مبرر لجهلهم بخصائص تلك القارة إلى بدت لهم رافضة لاستقبال زوّارها. فقد استخدمت سلاح حرارة المناخ للاحتماء من فضول المستكشفين والرحالة الطامحين في نقل مشاهداتهم إلى مواطنهم. إفريقيا من وجهة نظر إغريقية هي قطعة من جهنم، بسبب وجود الجبال البركانية ووجود نهر يسى الليتون Lethon الذي يشبه في تسميته نهر الليتي Léthé كهر مستعر وفق الرواية المسيحية²⁴. وساهمت الحيوانات البرية في تقوية الستار الذي حجب إفريقيا عن العالم، فهي كائنات تهدد أمن جميع البشر الذين يقصدون القارة من الأجانب و من المحليين وفق ما ذهب إليه هيرودوت²⁵. إفريقيا أرض منطوية على ذاتها بسبب اختفائها وراء سلاسل جبلية عالية، ساندت مجهودات الصحراء والبحيرات والسبخ على إحكام الغلق وقطع الطريق أمام

الوافدين. واستطرد الكتّاب القدامى في ذكر مساوئ المجال الإفريقي، فألح مونستر إلى حيوية المجال، فهو متحرك غير مستقر مثلما هو الحال في خليج السرت، فرماله متحركة غير ثابتة بفعل حركة غير عادية للبحر، سرعان ما يتقدم لمسافات طويلة، وفي لمح البصر يتراجع لمسافات أطول، ويتغير عمقه بين يوم وآخر بسبب حركة الرياح والأمواج.

اتخذت إفريقيا في المصادر الإغريقية ملامح قارة المتناقضات والمتضادات العنيفة، فالقارة التي اتسمت بالجذب والقحولة والانغلاق وحرارة مناخها، وتحوي نقيض ذلك: مناطق خصبة ورطبة شبيهة بما وجد في الجنة. فالحصول على غلال طيبة المذاق حسب بليينوس في مرتفعات الأطلس لا يستحق عناء القيام بأشغال فلاحية مرهقة. ففي تلك الجبال تنبت ثمار تلقائية ذات نوعية حسنة. وتدعم هذا الرأي في الفترة الوسيطة عندما تحدث ميلا عن احتواء إفريقيا لجزر من الذهب شهبها بجنة الوثنيين. ووصف المؤرخ جاك سينو Jaques Signot من جهته إقليم البيزسيوم²⁶ Byzacium على أنه جنة الأرض. وتحدث مونستر على وجود واحة خلاية بجوار معبد جوبيتار عمون في ليبيا بالقرب من سيرتا²⁷ Syrtes. عموماً، ومن خلال ما تم عرضه من صور للجغرافيا الطبيعية كما وردت في المصادر الأوروبية القديمة، فإنه من اليسير تبين ضبابية معارفها وخلوها من الدقة العلمية، علاوة على اقتناع كتّابها بالإخلالات التي تضمنتها²⁸. والتي فسرها هيرودوت باشتداد الحرّ وامتداد الصحاري، الذي أوقعه في سرد أخبار غير دقيقة أو مجانية للواقع. كما أغفلت ذات المصادر الحديث عن دينامية الحركات البشرية والمبادلات التجارية بين الأقاليم، فبدت إفريقيا مجالاً يجمع جزراً بشرية متفرقة تعيش منعزلة عن بعضها البعض، وهو تمثل سينفيه الوزن الفاسي في وصفه لإفريقيا.



خريطة رقم 1 : العالم كما تصوره هيروdot، عن (هيروdot، ترجمة عبد الإله الملاح، أبو ظبي، 2001)

2 - شعوب إفريقيا ليست كسائر شعوب العالم: فصل هيروdot القول في المجموعات البشرية التي سكنت إفريقيا، وتبين له أنها مختلفة عن بقية شعوب العالم، نتيجة تميزها بعدة خصائص لا توجد عند نظرائها من سكان أوروبا وآسيا. ففي كتابه الرابع

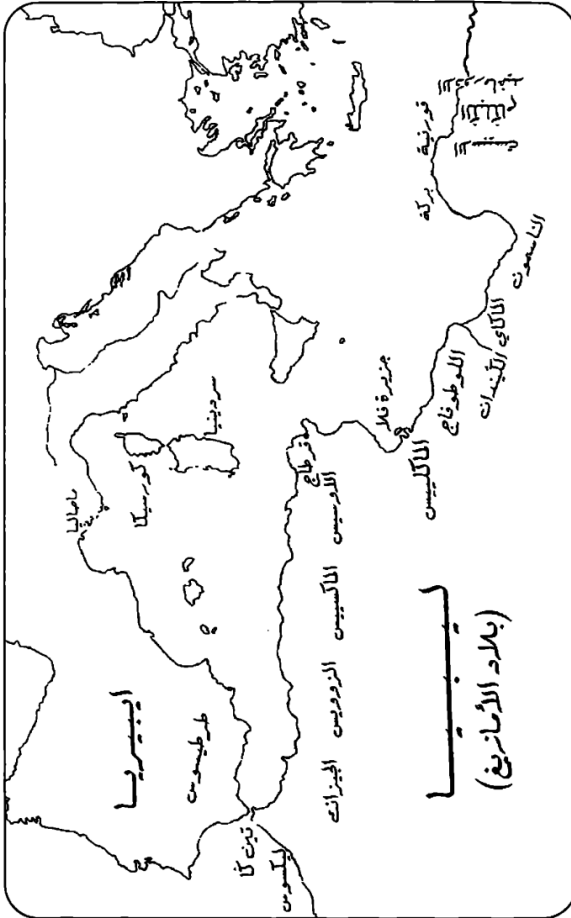
من مؤلفه "التواريخ" ذكر الكاتب عديد المجموعات البشرية التي استوطنت إفريقيا ومنها: الغيلغام Les Gilgames والأوشيز Les Auschises والأطلسيين Les Atlantes والبليميس Satyres والإيجيبين Les Aegyptans واللوطوفاجيون les Lotophages وأسماء شعوب أخرى جمعت بينها غرابة بنيتها الجسدية التي لا تشبه بقية البشر. فقد ذهب الخيال هيرودوت إلى رسم صور غير مألوفة لسكان إفريقيا التي زارها وزعم لقاء عدد من سكانها. "فالبليميس لهم عيون في صدورهم، والهيمنتوبود لهم سيقان لينة مثل الثعابين، ومن الناس من لهم رؤوس كلاب، أو لا رؤوس لهم. عيونهم في صدورهم على الأقل حسب ما يقوله عنهم الليبون، والرجال متوحشون والنساء متوحشات"²⁹. وقد سار الكاتب على ما سار عليه الكتاب الآخرون في تبرير وجود تلك المخلوقات. وقد أرجعوا إلى هيمنة الجفاف، وندرة الأمطار، وقلة منابع المياه إلى درجة اجتماع الحيوانات والبشر على نفس النبع المائي، وهو ما جعلهما يتعايشان إلى حد لا يمكن فيه الفصل بينهما. ولقد دفع ذلك الجوار إلى حدوث ألفة غريبة بين الحيوانات والبشر بلغت مرحلة غير معقولة وغير مسبوقة في تاريخ الإنسانية، ما تسبب في حدوث تزواج غير طبيعي بين صنف الكائنات، وظهور مخلوقات مشوهة في شكل وحوش. يشتغل أغلبها بالسحر والشعوذة، متخذين من المغارات والكهوف مساكن لهم ويقتاتون من أكل لحوم الثعابين والفيلة والنعام كتلك الكائنات التي كانت تعمر حسب ميلا منطقة برقة³⁰.

لقد ظلت الشعوب الإفريقية وفق الرواية الإغريقية القديمة تراوح المرحلة البدائية من التاريخ الإنساني. فلم تواكب النسق التطوري، ولم تؤسس لغة واضحة الحروف والمقاطع والمعاني، لتكون قادرة على تأمين تواصل سليم فيما بينها ومع محيطها الخارجي. فما استخدمته شعوب الغارامانيون Les Garamantes والسنوتيفليان Les Cynotéphaliens كلغة للتواصل هي مجرد غمغمات شبيهة بأصوات الخفافيش وفق رأي هيرودوت³¹. وتفتقد بعض القبائل الإفريقية الأخرى حسب ميلا Mela للأفواه مثل شعوب سكنة الكهوف Troglodytes³²، وهو ما أجأها إلى استخدام الإشارات.

كما عمت توصيفات عادات الأفارقة وسلوكياتهم الغريبة معظم المؤلفات الجغرافية القديمة، فبدت في معظمها مشينة تفتقد للقيم الإنسانية النبيلة. فقد استرعى المباح

الجنسي عند الأفارقة اهتمام هيرودوت الذي تحدث عن ميل نساين إلى البغاء العلني حتى وإن كانت الواحدة منهن في ليلة زفافها. فلم يكن في تلك المجتمعات أدنى انزعاج من وجود أطفال مجهولي النسب. فحياتهم الجنسية أشبه بعالم الحيوان وفق ما أورد الكاتب بقوله: "من عادات رجال الناسمونيين³³ أن يتخذ كل واحد منهم عددا كثيرا من الزوجات. وفي مجال العلاقات الجنسية، فقد كانت المرأة مشاعة عندهم مثل ما هو موجود لدى الماسجيت³⁴ Massagètes. وإذا ما أراد أحد منهم معاشر امرأة فإنه يغرس عمودا أمام المكان الذي يوجد فيه إشارة إلى رغبته في امرأة تشاركه الفراش. وعندما يتزوج شخص من الناسمونيين لأول مرة، فمن عادات القوم إقامة حفل خاص بذلك يتعاقب خلاله الضيوف واحدا تلو الآخر على العروس، وبعد مضاجعتها يقدمون لها هدايا أتوا بها من دورهم³⁵". ولقد أسهبت المؤلفات الجغرافية القديمة في إبراز عجيب عادات الأفارقة وغيرها، ومنها ما تعلق بكيفية إبرام العقود والمواثيق بينهم، فيعقدونها بتبادل الشرب من أيدي بعضهم بعضا، وإذا لم يجدوا شرابا سائلا فإنهم يلتقطون بعض التراب من الأرض ويسفونه³⁶.

فمن خلال ما تقدم من أفكار، فإن آراء هيرودوت كغيره من كتاب الفترة القديمة كانت حاملة بدورها لمواقف مناهضة للأفارقة إلى حدّ التناقض، إذ ما حاجة شعوب لاتزال تعيش مرحلة الحياة الجنسية المشاعة والجماعية تنظيم علاقات اجتماعية وجنسية ضمن مؤسسة الزواج. ألا يحيل هذا التناقض على تلك النظرة الدونية التي حملتها الحضارة الإغريقية عن باقي الشعوب التي تعيش خارج الوعاء الحضاري الإغريقي؟



خريطة رقم 4: توطين المجموعات البشرية الأمازيغية حسب هيرودوت.

خريطة رقم 2: توطين المجموعات البشرية الأمازيغية حسب هيرودوت (ورد بأحادية هيرودوت عن الليبيين، ص 136)

وفي نهاية هذا العرض، وفي سعينا لفهم أسس الصورة التي رسمها التراث الجغرافي الإغريقي والروماني في فترتيه القديمة والوسيلة إلى حدود القرن السادس عشر عن إفريقيا، نلاحظ أنها صورة هلامية مليئة بالتشويبات والتوصيفات التي تتجاوز المعقول العلمي، ونعزو

ذلك إلى طبيعة المصادر التي استندت في تليفيق صورها إلى رحلات محدودة داخل المجالات الإفريقية والتي عرقلت مسيرتها جملة من التحديات الصعبة في البر والبحر. حيث واجه المستكشفون والرحالة التحدي الصحراوي، الذي مثل سدا وحاجزا مانعا لتوغلهم في اتجاه دواخل القارة. وفي ظل غياب معطيات دقيقة وعوز اخباري ومتون قادرة على تأمين سرد تاريخي مستمر ومترايط، لجأ المؤرخون والجغرافيون الإغريق ومن بعدهم الرومان إلى سد تلك الفجوات والثغرات بتركيب تمثالات من محض خيالهم أو من نسج خيال ممن استمعوا إليهم لتكون مكونات الصورة متكاملة وذات معنى، مؤسسة بذلك ما سمي بالتاريخ الأسطوري L'histoire mythique. ولكن أخذت الوقائع والمعطيات والأنساق الثقافية الأوروبية بالتغيّر منذ بداية القرن السادس عشر عندما بدأت تهب رياح النقد والمراجعات على تمثالات تلك الصورة المتوارثة والذي تزامن مع ظهور مؤلف "وصف إفريقيا" الذي قدم قراءة مجدّدة لإفريقيا.

II – المشاهد الطبيعية والبشرية والثقافية في "وصف إفريقيا"

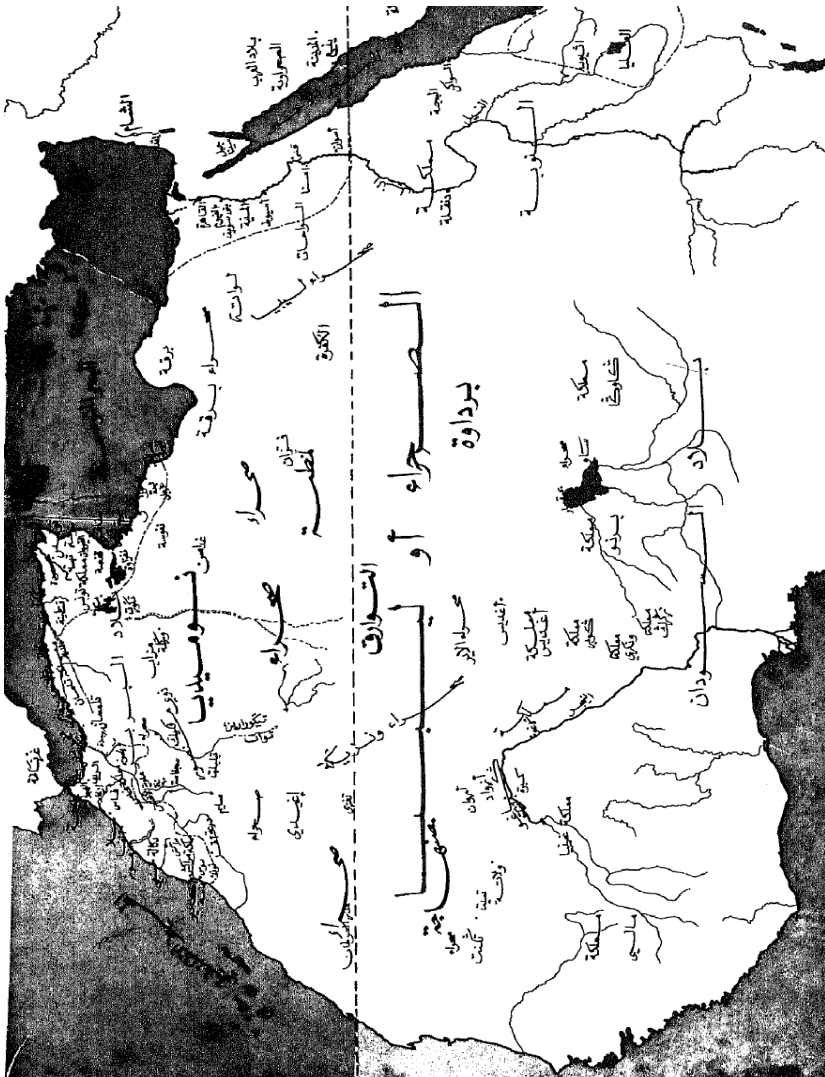
إن اختزال ما كتبه الفاسي (عاش حسب التقريب بين 1488 – 1554) حول المعطيات الطبيعية والبشرية والثقافية الإفريقية في عدد محدود من الصفحات لأمر صعب المنال، على اعتبار وفرة المادة وكثرة التفاصيل المفيدة لكل متعش لمعرفة أحوال إفريقيا القرن السادس عشر في أدق تفاصيلها. ولكن نكتفي بإبراز بعض المعطيات التي بدت لنا فريدة عند مقارنتها بما سبق من توصيفات أوروبية أوردناها في القسم الأول من هذه الورقة.

1 – المشهد الطبيعي الإفريقي:

حرص الوزان الفاسي على تحديد أقسام إفريقيا الأربعة كما تمثلها من خلال علامات تضاريسية واضحة تحدد بداية كل قسم ومنتهاه، مُسهباً وبطريقة علمية في توصيف الخصائص الطبيعية لكل اقليم، متجنباً بذلك الأحكام العامة كالتالي وجدناها في المؤلفات الأوروبية. ولقد اتبع الفاسي في تقسيمه لمجالات إفريقيا تقسيماً عمودياً انطلق فيه بقسم بلاد البربر الذي يبتدئ: "شرقا من جبل ميبس آخر قمم الأطلس على بعد نحو ثلاثمائة ميل من الاسكندرية. ويحدها شمالا البحر الأبيض المتوسط من جبل ميبس إلى أعمدة هرقل، وتمتد غربا من هذا المضيق إلى آخر قمم الأطلس على طول ساحل المحيط، أي إلى أقصى

الجهة الغربية لهذه الجبال، حيث تقع مدينة ماسة وتنتهي جنوبا قرب الأطلس على السفوح المواجهة لبحر المتوسط³⁷. ويعم تلك الأقاليم مناخ بارد في فصل الشتاء، على طول ساحل بلاد البربر إلى حدود الجبال الواقعة فيه، مع تساقط الثلوج في بعض الأوقات. وتنتبت في جميع هذه الجبال الحبوب والفاواكه، وخاصة الشعير، الذي يصنع منه الخبز في معظم أوقات السنة³⁸.

ونجد بعد ذلك، إقليم بلاد الجريد الذي يتوافق مع التسمية الرومانية نوميديا، ويمتد على المجالات الواقعة جنوبي سلسلة الأطلس و"يبتدئ شرقا بالواحات، وهي مدينة تقع على بعد نحو مائة ميل من بلاد مصر، ويمتد غربا إلى نون على ساحل المحيط، ويصل شمالا إلى سفح الأطلس الجنوبي، ويطلق العرب نفس الاسم على جميع هذه البلاد المنتجة للتمر لأن موقعها واحد"³⁹. وهي بلاد جافة وحارة، توجد بها أنهر قليلة تنبع أيضا من الأطلس وتجري نحو صحراء ليبيا حيث تختفي في الرمال، ويكوّن بعضها بحيرات. ليس بهذه البلاد سوى القليل من الأراضي التي يمكن زراعتها، لكن فيها كمية عظيمة من النخيل وبعض أشجار الفواكه⁴⁰.



ومن وراء بلاد الجريد يوجد إقليم الصحراء المترامي المعروف بليبيا ، ويطلق عليه بالعربية اسم الصحراء أي القفر وفق تعليل ليون الإفريقي، الذي "يبتدئ شرقا بتخوم الواحات، ويمتد غربا إلى المحيط. ويجاور نوميديا في الشمال بلاد النخيل، وفي الجنوب أرض السودان التي تبتدئ شرقا بمملكة ولاتة الواقعة على شاطئ المحيط"⁴¹. وهي الأخرى بلاد كلها صحراء ورمال، لا نهر فيها ولا ماء باستثناء بعض الآبار ذات الماء المالح الأجاج. وفي بعض النواحي لا يوجد الماء في طول مسافة سفر ستة أيام أو سبعة. وتكثر في الصحراء الحيوانات الضارة⁴². ومن بعدها نجد أقاليم بلاد السودان الواقعة وراء الصحراء التي تمتد شرقا بمملكة كاوكا ويمتد غربا إلى مملكة ولاتة، ويتاخم في الشمال صحراء ليبيا، وينتهي جنوبا إلى المحيط في مواقع لا نعرف عنها غير ما يرويه التجار الذين يأتون إلى مملكة تنبكتو، وهو كثير⁴³. والبلاد الواقعة في أرض السودان شديدة الحرارة، إلا أن بها شيئا من الرطوبة بسبب (نهر) النيجر، وكل الأقاليم المجاورة لهذا النهر تصلح جدا للزراعة، وتنمو فيها الحبوب بكثرة وتوجد بها من الماشية أعداد لا تحصى⁴⁴.

ورغم تشديد الكاتب على أفراد كل قسم بمجمل خصائصه الطبيعية والمناخية قبل الانتقال إلى بقية التفاصيل الأخرى، فإن الوزن الفاسي عاد في القسم الأخير من مؤلفه إلى الحديث بأكثر تفصيل عن بقية مكونات المشهد الطبيعي وخصائصه المناخية في عموم إفريقيا. فبيّن خصائص أنهارها وجبالها ووديانها وحيواناتها ونباتها. فبالنسبة إلى الأنهار فقد عدد الفاسي أبرزها وعرف بها مثل: نهر سبو وأم الربيع والملوية ودرعة ونهر النيجر والنيل وشلف ومجردة، محددًا لمنابعها ومصباتها وأشكال استغلالها وأهم الأحداث التاريخية التي وقعت بالجوار منها، معرجا في بعض الأحيان على أصل التسميات. ثم ذكر أصنافا من حيوانات إفريقيا مركزا بالأساس على تلك التي لا توجد في أوروبا، فقام بتبويبها إلى حيوانات برية: كالفيلة والأسود والزرافة والجمال والأبقار والخيول المختلفة دون أن يغفل عن ذكر الحيوانات الصغرى: كالغنم والماعز والقرود والأرانب وقطط الزباد وأصناف من الثعابين. وتعرض بالحديث عن الحيوانات المائية مهتما بالضخمة منها كسمك العنبر وفرس البحر وثور البحر والتمساح وما إلى ذلك من حيوانات وجدت في النهرين العظيمين النيجر والنيل. ثم استعرض خصائص أشهر الطيور بالقارة في الأقاليم المختلفة كالنعامة والنسر والباز والخفاش والبيغاء. كما استعرض بعض معادن إفريقيا كالمح والكلح والفضة والذهب

والنحاس وغيرها، وأشار إلى نباتات تستخرج منها مواد صناعية كالصمغ والقطران وإلى بعض الفواكه كالموز والتفاح والتمر والجميز أو التين المصري.

تعكس وفرة المعطيات الطبيعية والمناخية الواردة في "وصف إفريقيا" الاهتمام الشديد من قبل الأفارقة وخاصة المغاربة بالظواهر الطبيعية والمناخية والتي من خلالها وضعوا روتنماة أعمالهم. فقد كان المغاربة مولعين بتتبع روتنماة الفصول وما يصحبها من تقلبات جوية وذلك لحرصهم على ترتيب أنشطتهم الزراعية والبحرية التي مثلت مورد معاشهم الأول في ظل تهديدات المجاعات المتواترة. ولقد أبدوا نفس الانشغال بمناخات المناطق الجبلية وخاصة منها الأطلسية والمناطق الصحراوية لتحديد أزمته عبور التجار عبرها نحو الصحراء لممارسة النشاط التجاري مع واحات الصحراء وأقاليم بلاد السودان⁴⁵. كما عكس إصرار ليون الإفريقي على ذكر تفاصيل الطبيعة الإفريقية وعيه بعدد الأخطاء العلمية التي كانت قد تسربت إلى المؤلفات الأوروبية، فوجد في تدوينه لمؤلفه فرصة لتصويبها⁴⁶.

2 – المشهد البشري في إفريقيا:

قدم الكاتب في بداية مؤلفه قراءته التاريخية لتعمير المجال الإفريقي من قبل المجموعات البشرية الأولى ما يعكس التزامه بذلك الترابط المهجي بين المعطين التاريخي والجغرافي لدراسة المجال. فليون الإفريقي كان على علم مرة أخرى بالأخطاء الأوروبية التي طالت أيضا الجغرافيا البشرية الإفريقية. إذ كان الأوروبيون يزعمون "أن إفريقيا في القديم كانت خالية من السكان باستثناء أرض السودان، ومن المؤكد لديهم أن بلاد البربر ونوميديا لم تكن كل منهما مسكونتين طوال عدة قرون،⁴⁷" وذلك لعدم توافق الشروط الطبيعية للاستقرار البشري مثلما سبق أن بينا. كما طالت بعض الأخطاء المؤلفات الجغرافية العربية على غرار ما ذكرته تلك المصادر حول خصائص اللغة الأمازيغية وأشكال التواصل بين مستخدميها بقول الكاتب "ويعرف سكانها البيض بالبربر، وهي كلمة مشتقة حسب رأي بعضهم من الفعل العربي بربر بمعنى همس لأن اللهجة الإفريقية كانت عند العرب بمثابة أصوات الحيوانات العجموات"⁴⁸.

فالنسبة إلى المسألة الأولى حول أصل الظاهرة البشرية في المجال الإفريقي وتاريخها، فإنها لاتزال إلى اليوم محل جدل بين الباحثين، إذ لم تتوصل البحوث العلمية بعد إلى حسم هذا الموضوع، وهو ما فتح الباب أمام الفرضيات المتعددة. ومنها ما طرحه الوزان الفاسي حول أصول "البربر" كتسمية رومانية واصل العرب اعتمادها لاحقا أو اللوبيين وفق التسمية الاغريقية. فالفرضية الأولى تحيل على كون السكان الأصليين لإفريقيا "ينتمون إلى الفلسطينيين الذين هاجروا إلى إفريقيا حين طردهم الآشوريون، فأقاموا بها لوجودتها وخصبها"⁴⁹. وتحيل الفرضية الثانية على "أن أصلهم راجع إلى السبئيين الذين كانوا يعيشون في اليمن قبل أن يطردهم الآشوريون أو الأثيوبيون منها... أما الافارقة السود بمعنى الكلمة فإنهم جميعا من نسل كوش بن حام بن نوح. ومهما اختلفت مظاهر الأفارقة البيض والسود فإنهم ينتمون تقريبا إلى نفس الأصل"⁵⁰. وبقطع النظر عن وجهة رأي الحسن الوزان الفاسي حول أصول سكان قارته وما طرحه من نقاش بين باحثي عصره أو قبله، فإن تناوله للموضوع يتفق مع جمهور العلماء العرب ممن تناولوا ذلك الموضوع على غرار ابن الكلبي والجرجاني والطبري وابن خلدون، فلا غرو أن تناوله كان يحتكم إلى قدر كبير من الموضوعية العلمية بخلاف المصادر الإغريقية التي مالت إلى استخدام الأساطير في ظل فقدانها للمعرفة الجغرافية والميدانية.

وبخصوص اللغة وأدوات التواصل عند الأفارقة، فقد فند الحسن الوزان الفاسي رواية غياب لغة خاصة بسكان شمال إفريقيا مثلما زعمت المصادر الأوروبية القديمة وأيضا بعض المصادر العربية، بدعوى أن العرب الفاتحين عند حلولهم بالمنطقة لم يجدوا إلا الكتابة اللاتينية⁵¹، مبرزا اختفاء الأبجدية البربرية نتيجة لطمسها من قبل الرومان كما فعلوا مع الأبجدية الفينيقية حال انتصارهم على قرطاج، ووضعا مكانها عناوينهم وحروفهم حتى يخلدوا وحدهم⁵². وهو أمر أثبتته الدراسات المعاصرة التي أكدت تواصل استخدام اللغة الأمازيغية القديمة عند بعض القبائل الصحراوية والتي تدعى بلغة تيفيناغ عند الطوارق⁵³.

ومن خلال ما قدمه الوزان الفاسي من شروح حول المسألة السكانية في إفريقيا، فإنه يمكننا الوقوف عند جملة الاستنتاجات التالية وهي: أن قساوة المناخ والجفاف الذي تحدثت عنه المصادر الكلاسيكية وإليه أرجعت فقدان أشكال حياتية عادية، حائلة دون انتظام

حضارات عريقة كحضارة مصر والعالم الإغريقي، لم تكن في واقع الأمر حائلا لبناء صلات اقتصادية وحركات هجرية ضخمة بين الأقاليم الإفريقية الأربعة. لقد رسم الأفارقة منذ العهد البوني أو حتى قبله طرقا تجارية عديدة تربط بين الصحراء والموانئ المتوسطية. ودحض الفاسي فكرة خلاء المنطقة من السكان، فحتى الجبال وخاصة منها الأطلسية ورغم قسوة مناخها، فإنها كانت مناطق معمورة ذات كثافة سكانية عالية تجاوزت أحيانا كثافة السهول المحاذية لها. واستقبلت السهول الخصبة بصنمها: الساحلية والداخلية، نشوء عديد القرى والبلدات والحواضر، وتشكيل كيانات سياسية متحضرة. وهوما يحيلنا على عراقلة الظاهرة في إفريقيا استمرت عبر القرون ولم تنقطع حتى في أحلك أوقاتها على غرار تقلبات القرن السادس عشر، القرن العصب الذي أثر في نسق الأحداث بشمال إفريقيا والمتوسط.

ولكن لم تكن الصورة ببلاد المغرب وإفريقيا شديدة القتامة مثلما صورت ذلك عديد المصادر، فقد نسب الحسن الوزان - الذي كان معاشيا لتلك التقلبات - الأمور، مينا في أكثر من موضع مدى ازدهار بعض الأقاليم والحواضر التي استفادت من أزمة أقاليم أخرى أو من حيوية نشاط القرصنة أو نتيجة لدور الزوايا المتنامي الذي واكب ازدهار التدين الشعبي وإسهاماته في نشر مناخات آمنة في تلك الأقاليم، وما رافقه من ازدهار للمبادلات التجارية بين حواضر بلاد المغرب ومدن الصحراء وبلاد السودان.

إن صورة إفريقيا البشرية كما قدمها الكاتب كانت حاملة لكثير من التجديد إذا ما قارناها بما أوردناه حول مضامين الصورة الأوروبية القديمة، إلا أن ذلك لا يجعلنا نغفل عن تبنيه لبعض الأحكام الدونية على سكان إفريقيا جنوب الصحراء. فقد نعت سكان منطقة بورنو على سبيل المثال ب" أنهم يعيشون كالهائم لأهم لا يعتقدون في أي واحدة من الديانات السماوية"⁵⁴. وهو أمر لا يثير كثيرا من الغرابة في رأينا على اعتبار تواتره في عدد غير قليل من مؤلفات الرحلة والجغرافيا المغربية والأندلسية والعربية حول الشعوب الإفريقية من أمثال ابن حوقل وابن بطوطة والإدريسي عن سكان شرق إفريقيا وهي مؤلفات لم تخل من إبراز للمركزية المغربية والعربية تجاه بقية الشعوب الأخرى وخاصة الشعوب الإفريقية الواقعة جنوب الصحراء. وكذلك بسبب غياب التواصل المباشر بتلك المجالات النائية، فاكتفى فيها الكاتب بتكرار ما سمعه من التجار الذين التقى بهم⁵⁵.

3 – مشاهد ثقافية من إفريقيا:

لم يكتف ليون الإفريقي أثناء دراسته لإفريقيا بتقديم بسطة تاريخية عامة حول تاريخ القارة وإرفاقها بدراسة جغرافية شاملة أتت على الجوانب الطبيعية والمناخية والنباتية والحيوانية وحسب، وتجاوز ذلك وغاص في مكونات المشهد الثقافي لساكلي القارة بجميع مكوناته المادية وغير المادية⁵⁶.

أ – الثقافة المادية

الثقافة المادية وفق تعريف فرناند برودال Fernand Braudel هي الناس والأدوات المستخدمة لأجل تحقيق الإنسان لوجوده الطبيعي⁵⁷. أي كل ما ينتجه الإنسان من وسائل لتحقيق ذاته وضمن بقائه. ونظرا لوفرة المعطيات الواردة في مؤلف "وصف إفريقيا" حول الثقافة المادية الإفريقية إرتأينا تصنيفها إلى ثلاثة مجالات.

* طعام الأفارقة وغداؤهم: تكفل ليون الإفريقي بوضع تدقيقات جد مفيدة حول الأنظمة الغذائية للأفارقة وأطعمتهم وعوائدهم في الطبخ وطقوس الأكل عندهم، مبرزاً تمايز الأطباق لدى الأعيان وعامة الناس والفقراء. وحملت سرديته إحالات عن مكونات الأطعمة الإفريقية التي كانت في مجملها معتمدة على منتجات محلية وهي أساساً: القمح والشعير والزيتون والحليب والزبدة والتمر والتين، وزيت الزيتون وزيت الهران. ويتناول عامة الناس في بعض المناسبات، ووجهاء المدن في سائر الأيام أصناف عديدة من لحوم الأغنام والطيور والطراند، ويقبل سكان المناطق الساحلية والمجاورة للأنهار الكبرى والبحيرات على استهلاك الأسماك. وفي العموم، فقد كانت جلّ الأغذية والأطعمة الإفريقية في المجالات المنتجة للحبوب تعتمد بالأساس على تغلية أصناف مختلفة من الدقيق في شكل عصيدة والبازين، وعلى طبخ أصناف مختلفة من الخضروات في شكل مرق. وامتاز طعام الكسكسي بتوصيف مخصوص من قبل الرحالة العربي بوصفه الطعام الأكثر تداولاً وقد فاقت شهرته مجالات المغرب لتصل إلى جزر المتوسط. وأما بالأقاليم الجافة والصحراوية التي تعتمد تربية الماشية فإن استهلاك اللبن الطازج ومشتقاته والتمور هو الملاذ الأول لأجل توفير حاجياتهم الغذائية.

*مكونات اللباس: حظيت مكونات اللباس الإفريقي من غطاء الرأس إلى الساقين بعناية كبرى من قبل الوزان الفاسي، متوقفا في كثير من الأحيان عند إبراز الاختلاف بين مكونات اللباس اليومي في الفضاءات العمومية وملابس الفضاءات الخاصة، وألبسة المناسبات: كملابس صلاة الجمعة وملابس التنقل إلى الحمام خاصة لدى النسوة وملابس الأفراح والأعياد، وحتى ملابس الأتراج. كما عرج الكاتب على ذكر أنواع المنسوجات والأقمشة المستخدمة⁵⁸ في صناعة الملابس والحياكة.

ورغم تشابه أردية سكان المغرب، فإن الكاتب قد أغنى نصه ببعض المقارنات بين ألبسة سكان الحواضر الكبرى على غرار مدينتي فاس وتونس وتلمسان للوقوف عند عناصر التشابه والاختلاف فيها. وشدد كذلك على الفروق البارزة في الملبس بين سكان الحواضر وسكان المداشر والجبال الفقيرة والقبائل الصحراوية، واختصاص أهل العلم والتجارة والحرف والجند بأزيائهم المميزة دون بقية الناس. ومهما يكن من أمر فقد مثل اللباس عنوانا بارزا للانتماء الاجتماعي، فملابس أعيان المدن وأرديتهم تختلف عن لباس عامة الناس، خاصة بعد إقبال الأثرياء على اقتناء الملبوسات الوافدة من المدن الإيطالية والإسبانية، مستفيدين من تكثف المبادلات التجارية بين ضفتي المتوسط منذ القرن الرابع عشر. ورغم الاختلاف الظاهر في المظهر الخارجي بين مختلف الأصناف الاجتماعية والحرف فقد مثل البرنس - الذي ينسج من الصوف أو وبر الجمال⁵⁹ - لباسا جامعاً لسكان بلاد البربر: الفقراء والأغنياء على حدّ السواء، حيث يقوم بوظيفته حماية الجسم من البرد ويمثل عنوان الإلتزام إلى ثقافة مغربية مخصصة.

* المنشآت المعمارية : استقطبت حواضر إفريقيا الكبرى مثل فاس ومراكش وتلمسان وتونس والقاهرة وتنبكتو منشآت معمارية قديمة عاكسة للإرث العمراني الذي تم تدعيمه بمنشآت حديثة تستجيب لحاجيات ساكنها. وفي ظل ظرفية أمنية مضطربة كالتى عايشتها المنطقة في القرن السادس عشر مثلت الأسوار الخارجية مركز اهتمام سكان المدن قصد حمايتهم من الأخطار الخارجية أو من أعمال الحرابة التي تشنها القبائل الثائرة بين الحين والآخر. كما حفل "وصف إفريقيا" بصفحات عديدة تبرز خصائص الفن المعماري والزخرف المغربي والإفريقي لعدد من المنشآت المعمارية الشهيرة كالجوامع والمساجد والقصور السلطانية والحمامات والفنادق والمدارس والأسواق والدكاكين والطواحين

والمستشفيات وغيرها من البناءات. ولقد انتهت تلك العروض إلى إبراز اختلاف المشهد العمراني بالقرى الجبلية مقارنة بما وجد في الحواضر، حيث كانت مساكن الجبليين تميل إلى بساطة التصميم، وخلوها من كل زخرفة أو فن معماري أصيل، إذ كانت غاية ساكنها لا تتجاوز الاستغلال والكين على حدّ تعبير ابن خلدون⁶⁰. فهي ملاجئ للاحتماء من أذى العوامل الطبيعية والحيوانات البرية، وأيضا من بطش الحكام وجامعي الضرائب. أما المجموعات القبلية الطّاعة في الصحراء، فقد آثرت سكن الخيام تمسكا بعبادة الأجداد. فتصنع تلك الخيام من نسيج أسود من الصوف وشعر الماعز وغيرهما وكذلك من نسيج سعف النخيل، ويكون كل ذلك مجموع هذا النسيج الخشن المتراص جدا، حيث يقاوم المطر وحرارة الشمس⁶¹.

ب - الثقافة اللامادية

كانت مقارنة الحسن الوزان الفاسي شاملة مست جوانب متعددة من الثقافات الإفريقية، لم يهمل فيها الحديث عن جوانب مختلفة من الثقافة اللامادية: كالحياة الروحية والمنظومات القيمة التي يحتكم إليها سكان كل منطقة من القارة، والأشكال الاحتفالية والفرجوية وطقوس الأفراح والأتراح وجوانب من الحياة الفكرية والعلمية بكبرى الحواضر.

فعلى المستوى العقائدي والروحي أسهب الحسن الوزان الفاسي في الحديث عن مسألة الولاية والصلاح والكرامات، وهذه الظاهرة تحيلنا علنا لتصوف الشعبي أو التدين الشعبي على حدّ توصيف الباحث لطفي عيسى، بوصفه تدينا يمتزج فيه أداء الشعائر الدينية المألوفة عند عموم المسلمين مع طقوس أخرى تعود في كثير من الأحيان إلى أشكال تدين قديمة سابقة لظهور الإسلام: كالإنشاد والرقص والشطح المصحوب في معظم الأحيان بالصراخ وتمزيق الثياب والغناء واستعمال بعض الآلات الموسيقية للتطريب مثل الربابة والشبابة والدف⁶². فلم يكتف الفاسي بوصف مدى انتشار تلك الظواهر في مجالات المغرب بل تجاوز ذلك إلى البحث في جذور تشكّلها وخصائصها وأدوارها ودواعي انتشارها. باعتبار تمكن التدين الشعبي في زمن الفاسي من فئات بشرية واسعة، فانتشر فكرك وكاعتقاد عند العامة والفئات المحرومة، وتحول عدد من الفقهاء والعلماء لسان دفاع عن معتنقي ذلك

الصنف من التدين، ومباركة أصحاب القرار الذين استخدموا رموز الصلاح في فرض الطاعة لأولي الأمر⁶³.

ورصد الفاسي عادات الزواج في مدينة فاس ذاكرا تفاصيله، فكانت الاحتفالات تمتد لسبعة أيام تقام فيها الولائم والأفراح والسهرات والرقص والغناء بالتوازي بين داري أهل العروسة والعريس، وتوزع فيها اللحوم المشوية والفطائر والعسل. ومن جهة ثانية وصف الوزن الفاسي طقوس الموت في مدينته فاس كبيئة كان الموت فيها يحصد آلاف الأرواح نتيجة شيوع أشكال تطبيب تقليدية في ظل تواتر الأوبئة، وهو ما خلّف وهنا ديمغرافيا في المنطقة تواصل إلى الفترة الاستعمارية. ففي ذلك المناخ الحزين يرتدي أهل الميت لباسا خشنا وتلطح الوجوه بسواد القذور ويحضر مجموعة من المخنثين لضرب الدفوف وإنشاد مجموعة من الأنظمة الحزينة، وتتكفل النسوة بالعويل وخذش الصدور والخدود وتنف الشعور والنواح لمدة سبعة أيام وثلاثة أيام عند حلول الأربعين⁶⁴.

المدينة المغربية هي ليست فضاء للعمل أو العبادة وحسب بل خصص ساكنوها فيها أوقاتا وأفضية للتسلية للكسر مع النمطية اليومية، ولتستعيد النفوس الرغبة في العمل والتكسب. فقد اهتم ليون الإفريقي بطرق اللعب والتسلية والعروض الفرجية التي تقام في ساحات المدينة أو بالتوازي مع انعقاد الأسواق الأسبوعية. وقام بتصنيفها إلى صنفين: صنف أول من الألعاب يشارك فيها عليّة القوم واعتبرهم أناس "مهذبين من ذوي البيئات الحسنة" الذين يقبلون على لعبة الشطرنج في القصور والبلاطات، ومتابعة العروض الفرجية التي ينظمها السلطان المغربي بالقصبة السلطانية. وصنف ثان هي ألعاب عامة الناس، ويغلب عليها الطابع التنافسي العنيف كالمبارزة بالعصي والتراشق بالحجارة. وبعض العروض الشعبية كمشاهد يومية تعقد بصفة تلقائية بساحات الحواضر المغربية ورحبائها وعند أبواب المدن وفيها ينشد المنشدون قصائد وأغنيات وهم يلعبون بالدف والربابة والقيتار وغيرها من الآلات⁶⁵.

خاتمة

تشكلت معارف الأوروبيين حول إفريقيا طبيعة وسكانا، وتعلقلوها من خلال ما نقلته الآداب اليونانية واللاتينية القديمة، التي لم تتطرق في واقع الأمر إلى موضوع إفريقيا بصفة

مباشرة، بل كان في شكل فقرات متناثرة وردت بصفة عرضية أو من باب الاستطراد. كما لا ينبغي أن يغيب عن أذهاننا الصعوبات التي واجهها محبرو تلك الفقرات في استقاء معلوماتهم، وهو ما دفعهم إلى تكرار ما تم تداوله أو ما أنتجته المخيلة الأوروبية المتمترسة وراء مركزيتها المتعالية. فكان صوت الأفارقة وحديثهم عن قارتهم في تلك المصادر مغيبا، وكأهم شخصيات ثانوية تكتفي بالمتابعة والإنصات لمن يتحدث عنها بالنيابة.

ثم أخذت النظرة الأوروبية حيال إفريقيا في التغير حال صدور مؤلف "وصف إفريقيا"، الذي كتبه رحالة عربي من أصول إفريقية، عُرف بسعة اطلاعه وإلمامه بمصادر المعرفة العالمية العربية والأوروبية، وهو ذو خبرة بأخبار القارة وتفصيلها وتاريخها ما أهله أن يكون أفضل المتحدثين عنها، وجعل الأوروبيين ينجذبون إلى روايته التي كتبها بأسلوب يستجيب للذائقة الأدبية والفكرية الأوروبية، ما فسر سرعة انتشار كتابه ورواجه في جميع أصقاع أوروبا، محققا لتحولات معرفية كبرى.

فمن تلك التحولات يمكن ذكر الدور الريادي للوزان الفاسي في تحرير مصطلح "إفريقيا" من عقال التمثلات الأوروبية المغلوطة التي التصقت بالأذهان حول الطبيعة والسكان مبرزا أن تلك القارة قد احتضنت حضارات ومجتمعات لا تقل قيمة عما وجد بأوروبا وآسيا. وحرر الكاتب أيضا مجال امتداد مصطلح "إفريقيا" من مجال جغرافي ضيق شمل في بداية ظهوره ما تبقى من الإرث المجالي القرطاجي، ثم تمدد مدلوله مع مقدم العرب والمسلمين ليشمل أجزاء واسعة من "شمال إفريقيا المفتوحة" قبل ولادة مصطلح عربي وسم المنطقة ببلاد المغرب. وقد مدد الحسن الوزان الفاسي مفردة إفريقيا - رغم بعض الالتباس والتردد - على كامل إفريقيا بدءا من بلاد البربر إلى ما وراء الصحراء أي إلى منتهى أفق رؤية الفاسي للمجالات الإفريقية.

لقد عكس مؤلف "وصف إفريقيا" براعة صاحبه في دقة الوصف وتنوعاته الأسلوبية التي مكنته من تجاوز مجرد الإخبار بأحوال إفريقيا إلى تقديم عروض مركبة شكّلها الكاتب في مشاهد ثقافية تحيل قارئها على خصوصيات المجتمعات وثقافتها، وتبرز مدى انصهار عدة أجناس بشرية بطريقة سلسة وسلمية وإنتاجها لأنماط ثقافية تراعي خصوصياتها المحلية. ولقد دفعت القراءة المميزة لإفريقيا من قبل الحسن الوزان الفاسي وسهولة ترجمته - رغم

بعض المآخذ الواردة فيه - الأوروبيين إلى إعادة الاهتمام بموضوع إفريقيا بعدما ذهب في ظنهم أن كتاب التاريخ والجغرافيا القدامى قد استوفوا مهمتهم.

وفي خضم ذلك، وبعد حوالي نصف قرن من كتابة "وصف إفريقيا" ظهر مؤلفاً آخر عنى بأخبار القارة وسم بـ "إفريقيا"⁶⁶ للكاتب الإسباني مارمول كارخال⁶⁷ ومن المصادفة أن كاتبه ينحدر بدوره من مدينة غرناطة ولكن بعد تنصيرها من قبل ملوك إسبانيا، ما جعل مؤلفه يحمل رؤية أوروبية أخرى تتقاطع أحيانا مع عروض الوزان الفاسي وتختلف معها أحيانا أخرى. ولكنهما ظلا من أهم المصادر الجغرافية والتاريخية الأوروبية حول إفريقيا إلى حين انطلاقة أوروبا نحو إفريقيا وميلها إلى تبني معارف جديدة تنبئ على الزيارات الميدانية بتنظيم رحلات استكشافية برية وبحرية، وتأسيس جمعيات جغرافية وتوجيه الباحثين في العلوم الانسانية نحو مجتمعات إفريقيا لغايات استكشافية واستعمارية.

الهوامش:

1 - ظهر "وصف إفريقيا" سنة 1550 بروما ضمن موسوعة "الزحلات والنصوص الجغرافية" بالبندقية والتي كانت تسمى بالإيطالية «*Dell navigazioni et viagg*» تحت إشراف الإيطالي جون باتيستا راميزيو. وكان الهدف من وضعها تجديد معارف أوروبا والاستفادة من التحول المعرفي بفضل الاكتشافات الجديدة، التي كان لها صدى كبير وانطلاقة جديدة لعلم الجغرافيا عند الأوروبيين. ولقد سعى واضعها أن يكون مجدداً وباعثاً لجغرافيا حديثة قاطعة مع أخطاء القرون الماضية، وأقرب ما تكون إلى الواقع اعتمادا على مشاهدات الرحالة ونتائج المكتشفين والملاحه.

2 - خاض عديد الباحثين في رسم سيرة ذاتية للحسن الوزان الفاسي منذ خروجه من غرناطة في صباه إلى حين أسره في البحر وانتقاله للعيش في إيطاليا، وللوقوف عند تفاصيل حياته التي شأها بعض الغموض يمكن العودة إلى المراجع التالية:

* - تقديم الكاتبين محمد حجي ومحمد الأخضر لكتاب وصف إفريقيا، ترجمه إلى العربية كل من محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983.

* - النفاثي(عادل)، المجتمع والجغرافيا الثقافية لبلاد المغرب، حضريات في أدب الرحلة، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2015.

* - خالد(الطاهر)، " مساهمة الحسن بن محمد الوزان في التأريخ لبلاد السودان من خلال كتاب وصف إفريقيا"، المجلة التاريخية الجزائرية، العدد04، الجزائر 2017.

- * Zhiri(O), *L'Afrique au miroir de l'Europe: Fortunes de Jean Léon l'Africain à la Renaissance*. Ed. Librairie Droz, Genève, 1991.
- * Massignon(L), *Le Maroc dans les premiers années du XVI^e siècle : tableau géographique d'après Léon L'Africain, Alger – Jourdon. 1906.*
- 3 - نظم قدماء اليونان رحلات استكشافية برية وبحرية إلى إفريقيا وتعتبر رحلة هيروdot أشهرهم.
- 4 - أعشى (مصطفى)، أحاديث هيروdot عن الليبيين، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 2009، ص 19 – 20.
- 5 - حميدة(عبد الرحمان)، أعلام الجغرافيين العرب ومقتطفات من آثارهم، دار الفكر بدمشق، 1995، 62.
- 6 - يعد وصف هيروdot لسكان المغرب القديم من أقدم المصادر الكلاسيكية حيث تناولها بشيء من التفصيل خاصة فيما يتعلق بصفاتهم وبعض أنواع نشاطاتهم. فقد اشار في كتابه الثاني المتعلق بمصر أكثر من مرة إلى جيرانها بالغرب، ومال إلى مزيد التفصيل في كتابه الرابع الذي حوى ثلاثين فقرة حول الأفاقة.
- 7 - عاش بين 480 – 425 ق.م
- 8 - هيروdot، كتاب التواريخ، ترجمة عبد الإله الملاح، المجمع الثقافي أبو ظبي ، 2001. الكتاب الرابع، الفقرتان 42 و43.
- 9 - عاش في القرن الثامن ميلادي وكان أحد رموز المعرفة التاريخية والجغرافية خلال الفترة الوسيطة.
- 10- Zhiri(O), *L'Afrique au miroir de l'Europe: Fortunes de Jean Léon l'Africain à la Renaissance*, op Cit p 16.
- 9- Ibid. P15.
- 12 - أزايكو(علي صدقي)، تاريخ المغرب والتأويلات الممكنة، مركز طارق بن زياد، الرباط 2002. ص 10.
- 13 - عاش بين 63 م – 161 م
- 14 - عاش بين 1485 - 1535
- 15 - عاش بين 1488 - 1552
- 16 - هيروdot، كتاب التواريخ، م س، الكتاب الرابع، الفقرة 168.
- 17 - يطلق هيروdot كلمة ليبيا في أغلب الأحيان للإشارة إلى الأمازيغ السكان الأصليين لشمال إفريقيا وأحيانا أخرى على كامل القارة. أنظر أعشى (مصطفى)، أحاديث هيروdot عن الليبيين، م س، ص 27.
- 18 - لوبيا أو ليبيا وهي تسمية اطلقت على منطقة شاسعة تمتد على طول المتوسط من مصر شرقا إلى رأس صولويس غربا، ويتكون من اسم الشعب الذي يسكن المنطقة، وفق ما دلت عليه الوثائق المصرية التي دونت في القرنين الثالث عشر والثاني عشر قبل الميلاد تحت اسم الليبو Lebuو. ومن المحتمل أن الإغريق قد استعاروا واستخدموا نفس المفهوم.

- 19 - إقليم برقة بشمال شرق ليبيا اليوم.
- 20 - هذا الإقليم غير مذكور بكثرة في الجغرافيا الكلاسيكية ما عدا بطليموس الذي تحدث عن بلاد المارمديين Les Marmarides والذي حدده بين ليبيا قورينائية وبين مصر، انظر :
- Gibrat (J- B), *Géographie ancienne, Sacrée et profane*, tome IV. P 207.
- 21 - لبدة الكبرى، أويا او طرابلس حاليا، و صيراتة.
- 22 - هي مملكة أمازيغية بشمال إفريقيا امتدت على شرق الجزائر وغرب تونس، تأسست سنة 202 ق.م. ويبدو ان أصل الكلمة بربرية امتزج مع اللفظة الإغريقية نومادس التي تدل على الرعاة الرحالة، وسنلاحظ أيضا أن الحيز المجالي الذي تغطيه نوميديا وفق المصادر الأوروبية ليس هو ذاته عند ليون الإفريقي. فنوميديا كما حددها ليون الإفريقي تمتد أساسا على إقليم الجريد التونسي أي بداية الصحراء الإفريقية الكبرى بعكس ما حددته المصادر الأوروبية القديمة.
- 23 - عاش بين 360 – 428 م
- 24 - هيروdot، كتاب التواريخ، م س، الكتاب الثاني، الفقرة 31.
- 25 - أعشى (مصطفى)، أحاديث هيروdot عن الليبيين، م س، ص 85.
- 26 - وهو ما يقابل اليوم مجال البلاد التونسية.
- 27 - خليج السرت بليبيا اليوم.
- 28 - فعند ركوبه للنيل تمهيا لهيروdot أن مجراه ينبع من ليبيا أي بلاد الأمازيغ، فذكر: "عرفنا مجرى النيل على مدى رحلة امتدت أشهر سواء في ركوب النهر أو السير برا، وهو الزمن الذي تستغرقه الرحلة للذهاب من الإيليفانتين Eléphantines إلى بلاد الفارين Transfuges والشيء المؤكد أن نهر النيل يتجه من الغرب إلى الشرق إلا أنه خارج هذه المنطقة ليس هناك أي شخص يمكنه أن يقول شيئا مؤكدا بسبب حرارة المنطقة الصحراوية." هيروdot، التواريخ، م س، الكتاب الثاني، الفقرة 33.
- 29- هيروdot، كتاب التواريخ، م س، الكتاب الثاني، الفقرة 191.
- 30- نفسه، الكتاب الثاني، الفقرة 33.
- 31- نفسه، الكتاب الرابع، الفقرة 183.
- 32- نفسه، الكتاب الرابع، الفقرة 174.
- 33 - شعب من الشعوب الأمازيغية، مزارعون ومربو ماشية.
- 34 - قبائل أوروبية رحل تنحرك في المجال الممتد بين بحر آرال وبحر قزوين.
- 35 - نفسه، الكتاب الرابع، الفقرة 173.
- 36 - نفسه، الكتاب الرابع، الفقرة 172.
- 37 - الوزان الفاسي(الحسن)، "وصف إفريقيا" م س، ج 1، ص 28.
- 38 - نفسه، ص 72.
- 39 - نفسه، ص 29.

- 40 - نفسه، ص 75.
- 41 - الوزان الفاسي (الحسن)، "وصف إفريقيا" م س، ص 75.
- 42 - نفسه، ص 76.
- 43 - نفسه ص 29.
- 44 - نفسه، ص 77.
- 45 - النفاتي(عادل)، المجتمع والجغرافيا الثقافية لبلاد المغرب، حفريات في أدب الرحلة، م س، ص 151.
- 46 - ومن تلك الأخطاء ذكّر الرحالة اختلاف الجغرافيين حول منبع نهر النيجر التي زعمت المصادر الأوروبية أنه: يشق أرض السودان ويخرج من فلاة تدعى ساوو نابعا من بحيرة عظيمة، وهو فرع من فروع النيل، يغيب تحت الأرض ثم يخرج منها ليكون هذه البحيرة. ويرى البعض أنه ينبع في جبال تقع إلى جهة الغرب، ثم يسيل نحو الشرق ليتحول إلى بحيرة، وهذا غير صحيح؛ فإننا سرنا في النهر شرقا من تمبكتو واتبعنا مجرى المياه إلى مملكة جني ومملكة مالي، وكلتاها واقعتان غربي تمبكتو". الوزان الفاسي (الحسن)، "وصف إفريقيا"، م س، ج 1، ص 30.
- 47 - نفسه، ص 34.
- 48 - الوزان الفاسي (الحسن)، "وصف إفريقيا"، م س، ص 34.
- 49 - نفسه، ص 35.
- 50 - نفسه، ونفس الصفحة.
- 51 - نفسه، ص 69.
- 52 - نفسه، ص 117.
- 53 - النفاتي(عادل)، المجتمع والجغرافيا الثقافية لبلاد المغرب، حفريات في أدب الرحلة، م س، ص 35.
- 54 - الوزان الفاسي(الحسن)، "وصف إفريقيا" م س، ج 2، ص 176.
- 55 - - الوزان الفاسي(الحسن)، "وصف إفريقيا"، ج 1، ص 33.
- 56 - اعتبر الباحث مايك كرانغ أن المشهد الثقافي هو تشكيل جماعي للأرض على مرّ الزمن، وهو ليس نتاج عمل فردي، بل هو مشترك جماعي يبني على فترات زمنية طويلة يعكس معتقدات وممارسات وتقنيات مجتمع أو ثقافة ما. ومن هذا الباب يمكن قراءة المشاهد الثقافية كمنصوص توضّح معتقدات الشعوب وتاريخها العام والمستويات الحضارية التي بلغتها. كرانغ(مايك)، الجغرافيا الثقافية، ترجمة سعيد منتاق، إصدارات عالم المعرفة، الكويت 2005، ص 14.
- 57 - Braudel(F), *Civilisation matérielle: économie et capitalisme*, Armand Colin, Paris, 1979.Tome I.P 115.

- 58 - كانت صناعة المنسوجات رائجة في عديد المدن والأقاليم الإفريقية، فبالإضافة إلى ازدهارها بحواضر المغرب تحدث ليون الإفريقي عن ازدهار صناعة النسيج في مدن بلاد السودان على غرار تنبكتو ومملكة كوبر وبلاد النوبة.
- 59 - الوزان الفاسي(الحسن)، "وصف إفريقيا" م س، ج 1، ص 252.
- 60 - ابن خلدون، المقدمة، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2007. ص 135.
- 61 - مارمول كاريخال، إفريقيا، ترجمة محمد حجي وآخرون، الرباط 1984، ج 1، ص 100.
- 62 - عيسى(لطفي)، مغرب المتصوفة، الانعكاسات السياسية والحراك الاجتماعي من القرن 10 م إلى القرن 17 م، منشورات مركز النشر الجامعي بكلية العلوم الانسانية والاجتماعية بتونس 2005. ص 575.
- 63 - النفاتى(عادل)، المجتمع والجغرافيا الثقافية لبلاد المغرب، حفريات في أدب الرحلة، م س، ص 135.
- 64 - الوزان الفاسي(الحسن)، "وصف إفريقيا" م س، ج 1، ص 232.
- 65 - نفسه، ص 276.
- 66 - "إفريقيا" هو كتاب في ثلاثة أجزاء من تأليف الكاتب الإسباني "مارمول كاريخال"، انتهى من تأليفه فيما بين سنتي 1571 و1573، كُتِبَ باللغة الإسبانية وطبع بأمر ملكي. نُشر الجزء الأول والثاني بغرناطة سنة 1573 والجزء الثالث سنة 1599 بمالقة. وفي خصوص ترجمة مؤلف "إفريقيا" إلى اللغات الأخرى، فقد أقدم "نيكولا بيير دي بلانكور –Nicolas Pierre de Blancore" على ترجمة هذا الكتاب إلى اللغة الفرنسية ونشره سنة 1667 في ثلاثة مجلدات.
- 67 - كاتب غرناطي ولد فيما بين 1520 – 1524، شارك في حملة شارل الخامس على مدينة تونس سنة 1535، وأسر فيما بين أربعينات القرن 16 م وخمسيناته من قبل الوطاسيين ثم السعديين في المغرب الاقصى. للمزيد حول هذا الموضوع يمكن العودة إلى النفاتى(عادل)، المجتمع والجغرافيا الثقافية لبلاد المغرب، حفريات في أدب الرحلة، م س.

الكاتب: ل.م.د / أيوب شرقي
جامعة البليدة 2

عنوان المقال: انتشار اللغة العربية في غرب
افريقيا

البريد الإلكتروني: Ayoubchargui0@gmail.com

تاريخ الارسال: 2020/01/25 تاريخ القبول: 14/02/2020 تاريخ النشر: 2020/03/31

انتشار اللغة العربية في غرب افريقيا

الملخص بالعربية: يعتبر إقليم السودان الغربي من أهم أقاليم الصحراء الكبرى ، وذلك لما يمتاز به وما يتوفر عليه من إمكانيات جعلته يختلف عن باقي الأقاليم الأخرى ، وبعد هذا الاقليم كذلك من بين أكبرها في افريقيا حيث يضم عدة ممالك وامبراطوريات ، هذا ما يمكنه من ربط علاقات تجارية

و اقتصادية مع دول الشمال ، وقد أثمرت تلك العلاقات التي كانت في بداية القرن الثاني هجري ما يوافق الثامن ميلادي إلى انتشار الثقافة العربية على يد التجار في منطقة غرب إفريقيا ، فبدخول الاسلام واللغة العربية أحدث منعرجا حاسما في تاريخ هذه المنطقة ، فبعدها كان المجتمع الإفريقي يعيش حياة بدائية تحكمها الوثنية إذ كان فكره منحصرًا في طقوس معينة، و أصبح الفرد الإفريقي يسعى جاهدا من أجل النهوض إلى حياة يسودها العلم والمعرفة، وهذا بفضل تأثير الإسلام على فكرهم، وقد أبدى الأفارقة رغبتهم الشديدة من أجل تحصيل العلم والتعمق فيه ، وأصبحت ممالك غرب إفريقيا آنذاك تعج بالعلماء والفقهاء والأئمة وكذلك بالمدارس التعليمية التي تعقد فيها حلقات الدروس ، وبذلك عرفت ممالك غرب إفريقيا ومدنها حركة علمية متطورة و بالتالي أمد هذا الإقليم للحضارة الإسلامية والعربية بعدا سودانيا ، لكن بظهور الاستعمار الاوروبي في المنطقة سعى الى تشتيت المسلمين الافارقة ، واحداث القطيعة بين المسلمين العرب والأفارقة.

كلمات مفتاحية: افريقيا، ممالك، امبراطوريات، اللغة العربية، المسلمين

Abstract : The western Sudan region is considered one of the most important regions of the Sahara, due to its advantages and the possibilities it has that made it different from the rest of the other regions. This region is also among the largest in Africa, where it includes several kingdoms and empires, this enabled him to link commercial relations

And economic with the countries of the North, and those relations that were in the beginning of the second century AH resulted in What corresponds to the eighth century AD to the spread of Arab culture at the hands of merchants in the West African region. With the introduction of Islam and the Arabic language, it created a decisive turning point in the history of this region. After the African society lived a primitive life ruled by paganism, as its idea was restricted to certain rites, and the African individual sought Striving for the advancement of a life of knowledge and knowledge, thanks to the influence of Islam on their ideas, and Africans have expressed their strong desire to acquire knowledge and deepen in it, and the kingdoms of West Africa then became filled with scholars, jurists and imams, as well as educational schools where seminars are held. Drew Q: Thus, the kingdoms of West Africa and its cities knew a sophisticated scientific movement and thus this region provided the Islamic and Arab civilization with a Sudanese dimension, but the emergence of European colonialism in the region sought to disperse African Muslims, and the events of the rupture between Arab and African Muslims.

Key Words: Africa, kingdoms, empires, Arabic, Muslims.

المقدمة:

ان قارة افريقيا بشكل عام ومنطقة غرب افريقيا بشكل خاص تتميز بالعديد من اللهجات واللغات المحلية ، من بينها : لغة الهوسا والفولانية والماندينكية ، ايضا لغة الطوارق واليوروبا والولوف والتي تتجاوز 30 لغة حسب رأي بعض الباحثين وهي منتشرة في دول وممالك السودان الغربي ، حيث كان لبعض هذه اللغات تأثير عربي منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولكن مع دخول اللغة العربية في المنطقة واندماج المسلمين بالأفارقة ظهر تأثيرها أكبر على هاته اللغات المحلية في كلماتها وبعض مفرداتها، وقد وضعنا لهذه المقالة الإشكالية الأتية: كيف انتشرت اللغة العربية في السودان الغربي؟

أولا – عوامل وأسباب انتشار اللغة العربية في غرب إفريقيا

اللغة العربية واسعة الانتشار في قارة افريقيا ، وتعتبر لغة أم لعدد كبير من الشعوب الافريقية وكما تعتبر أيضا لغة اتصال وتواصل بين العديد من القبائل الأفريقية التي لازالت تحتفظ بلغتها الخاصة بها¹.

1- العوامل :

لقد ساهمت عدة عوامل مختلفة أدت الى انتشار الثقافة العربية في منطقة غرب أفريقيا ، ويمكننا أبرزها في ما يلي :

أ- التجارة :

لقد أدرك التجار المسلمون أنه من واجب المسلمين أن ينشروا الاسلام في كل زمان ومكان. و لقد كان للقوافل التجارية العابرة للصحراء دورا مميزا في انجاز تلك المهمة ، خاصة وأن هذه التجارة ازدهرت بفضل دخول الإبل ، فلقد كانت القافلة السالكة لهذه الطريق الطويل

و الشاق تحمل دليلا يقود القافلة أو كما يذكره ابن بطوطة فيسميه التكتشيف ، الذي لا تسلك الصحراء بدونه ثم تنطلق القافلة فتقطع مسافات طويلة تتعرض فيها القافلة إلى العديد من المخاطر مثل ندرة الماء، بالإضافة إلى الرياح والضياع وقطاع الطرق².

ولقد ساهم التجار في عملية التواصل مع منطقة غرب افريقيا نتيجة التعاملات التجارية التي نشأت بينهم عبر قرون طويلة، فكانت الأسواق مرتعاً لعملية التواصل أين احتل المترجمين أغلب تلك الأماكن إذ أملت الضرورة على ايجاد لغة للتواصل فيما بينهم³. وهذه العلاقات التجارية التي كانت بين شمال افريقيا ومنطقة الغرب الافريقي ربطت بين الشعوب⁴.

ولقد كان الفضل لتطور نظم التجارة وطرقها في العهد الاسلامي لعقبة ابن نافع الفهري كان ذلك في اواخر الحكم الأموي⁵، حيث حفر سلسلة من الأبار تصل بين واحات افريقيا ومنطقة أودغشت مما مهد الطريق أمام القوافل التجارية التوغل في غرب افريقيا بعد ان كانت مصورة في الساحل⁶. وكان للتجارة مع بلدان غرب افريقيا أهمية كبيرة مع دول شمال افريقيا لان منطقة غرب افريقيا لديها مناجم الذهب⁷.

ومن أهم الطرق التجارية التي سلكها التجار المسلمون و القوافل التجارية ما يلي:

1-الطريق الساحلي الذي يبدأ من مدينة مراكش و يمر بمدينة أودغشت⁸ وينتهي إلى مدينة

- كومي صالح⁹ على منحي النيجر.
- 2- الطريق الذي يبدأ من فاس و يمر بمدينة سجلماسة¹⁰، كما يتصل ببنغازة¹¹ و يمر بمدينة ولاية¹² و ينتهي إلى مدينة تمبكتو فجي فغاو بالسودان الغربي.
- 3- الطريق الذي يبدأ بمدينة تلمسان، و يمر على توات و ينتهي بمدينة تمبكتو.
- 4- الطريق الذي يبدأ من مدينة القيروان و يمر بواحة الجريد و يتفرع لمدينة غدامس و فرع آخر إلى رفلة و سوس، ثم ينتهي إلى بلاد السودان¹³.
- 5- الطريق الذي يبدأ من مدينة طرابلس بليبيا و يمر بواحة فزان و ينتهي في المنطقة المحيطة بحيرة تشاد حيث كان الشريان الرئيسي في الإسلام في مملكة برنو-كانم و يتفرع منه فرع إلى مدينة غدامس.
- 6- الطريق الذي يبدأ من مدينة مصر و يتفرع لعدة فروع من أهمها طريق يمر بواحة سيوة و زويلة و تادمكة و مملكة برنو-كانم و يستمر حتى غاو و تمبكتو.
- 7- الطريق الذي يبدأ من الإسكندرية بمحاذاة ساحل البحر المتوسط، يتفرع لعدة فروع أهمها الذي يتجه إلى الجنوب.
- 8- الطريق الذي يبدأ من الموانئ الهامة في شمال الجزائر، و يمر بتقورت و ينتهي ببلاد السودان¹⁴.
- 9- طريق مدينة الجزائر تمبكتو، و يمر على البليدة وبوغار والاغواط وغرداية والقليلة، وعين صالح، و أكابلي اين يلتقي بطريق توات الى تمبكتو، وقد سلكه الفرنسيون خلال القرن التاسع عشر للميلاد.
- 10- طريق طرابلس تمبكتو، و يمر على سناون و غدامس و تماسين والبيوض أين يتصل بطرق قسنطينة الى تمبكتو ولهذا الطريق فرع من غدامس الى غات، و بوير عيسو، و أقادز، ثم الى سوكوتو، و كاتسينا غربا، و الى اقاديم، و ماو شرقا¹⁵.
- إن أهمية هذه الطرق التجارية تتغير تبعا لقيام الممالك و انهيارها فيتم تفوق تجارة طريق على آخر، كما ان الطرق التجارية من أهم العناصر في توصيل الأفكار والثقافات بين إقليم وآخر، لذلك تعتبر الطرق الرئيسية بين السودان الغربي و المناطق المجاورة لها، تعتبر الشرايين التي تنقلت عبرها الثقافة العربية الإسلامية، لذا نجد أن ولاية القيروان قد سعوا إلى إحكام العلاقات بين المغرب و ديار المسلمين ببلاد السودان، بأن حفروا سلسلة من الآبار على طول

الطريق الموصل بين واحة المغرب و مدينة أودغشت مما سهل انتقال التجار العرب إلى أقصى ديار المسلمين ببلاد السودان¹⁶.

أ- الملوك :

لقد كان للجهود التي قام بها كل من التجار ، وقع كبير في نشر التعليم والثقافة العربية الإسلامية في غرب إفريقيا، بالإضافة إلى دور ملوك و سلاطين غرب إفريقيا في تطوير و ازدهار الحركة العلمية والفكرية.

و في مقدمتهم نذكر منسى موسى ملك مملكة مالي، و الذي يذكره الفتاش على أنه من أعظم ملوك السودان الغربي و أكثرهم شهرة و كرما إذ كان يعتق كل يوم نفسا، و على أنه صنف ضمن سلاطين الأربعة سلطان الأعظم سلطان بغداد، و سلطان مصر و سلطان برنو و سلطان مالي¹⁷.

و ما زاد من شهرته أكثر أو ما عرف به، هي رحلته إلى الحج التي كانت في سنة 1323م و أعتبر موكب حجه من أروع مشاهد الحج، بحيث جهز لهذه الرحلة حوالي ثمانين ألف جندي¹⁸

ما يلاحظ بأن رحلته إلى الحج، لم تكن تتوقف على أداء المناسك الدينية فقط بل أبعد من ذلك، إذ استغل تواجده في الحجاز و لاحظ ما كانت عليه البلاد من تقدم و تطور في الحركة العلمية، فجلب معه الكتب لبلاده معظمها كتب الفقه و لهذا اعتبرت رحلته مادة غزيرة للأدب كما حرص على بناء المساجد باعتبارها مدارس تعليمية و دينية، فأتى بالمهندس و المعماري أبو إسحاق الساحلي الذي وضع تصميم كل من قصره و بناء "مسجد غاو"¹⁹.

كما أرسل منسى موسى بعثات طلابية سودانية للدراسة في الأزهر، إذ أنشأ للطلاب السودانيين بالقاهرة نزل "لوكاندة صغيرة" من أجل أن يقيموا فيه أثناء رحلتهم التعليمية بالإضافة إلى هذا فقد استغل تواجده بمصر واقتنى العديد من الكتب الدينية ليوفرها لطلبة مملكته، و قد كانت له الحرية المطلقة في اقتناء العديد من الكتب، نظرا للامتيازات التي قدمها لملك مصر إذ زودهم بقدر كافي من الذهب²⁰.

و من بين ملوك مالي الذين كان لهم دورا بارزا في نشر التعليم و الثقافة العربية الإسلامية المنسى سليمان أخ المنسى موسى و الذي حذا حذو أخيه في اهتمامه بهذا المجال، إذ في عهده زار الرحالة ابن بطوطة بلاد مالي و يقول ابن بطوطة سليمان بفتح الميم و سكون النون وفتح السين المهمل معناه سلطان و وصفه على أنه بخيل على عكس أخيه المنسى موسى²¹.

و حاول المنسى سليمان الحفاظ على عظمة الإمبراطورية، فلما أسلم أحاط نفسه بالعلماء و الفقهاء و الأئمة والقضاة و الكتاب، فاجتمع ما كان لأخيه في المجال الثقافي و العلمي، فقام سليمان بن ابي بكر ببناء المساجد و الجوامع و المنارات، و عين فيها عددا من الأئمة و الخطباء و الفقهاء من أجل تعليم الناس و وعظهم، و أقام بها الجمع و الجماعات و الأذان، كما قام بجلب

عدد من العلماء و الفقهاء المسلمين من مذهب الإمام مالك رضي الله عنه، و هذا يبرز مدى تأثرهم بهم و على مدى اعترافهم على المستوى الفكري و العلمي لهم²².

اعتماد الممالك السودانية اللغة العربية لغتها الرسمية في المراسلات و التدوين بين الملوك و السلاطين داخل حدود المملكة أو خارجها، كمالك كانم - برنو و باقرمي في تشاد، و الممالك السكتية²³.

ج- الطرق الصوفية :

ارتبط ازدهار الثقافة الإسلامية العربية في إفريقيا، و في غربها، بالذات بانتشار الطرق الصوفية²⁴، حيث وجدت هذه الطرق فراغا في وسط المجتمع السوداني فنشرت العديد من الطرق منها القادرية و التجانية و ما انبثق عنهما من طرق فرعية، و قد أدت هذه الطرق دورا كبيرا في نشر الثقافة العربية في هذه الجهات أولا، و في مقاومة الاستعمار لاحقا²⁵.

1- الطريقة التجانية :

تنسب هذه الطريقة إلى الشيخ أبو العباس أحمد بن محمد المختار بن السالم التيجاني، بقرية عين ماضي بالجزائر. تنقل في مختلف البلاد الإسلامية في كل من تلمسان و مكة و المدينة المنورة و القاهرة، و تتلمذ على يد شيوخهم²⁶.

رأى اتباع هذه الطريقة أن الجهاد لنشر الإسلام و الثقافة العربية واجب و أن التسامح القادري لم يثمر في بعض الجهات الصحراوية، لذلك عملوا على تدريب مورديهم على فنون الحرب، كما اعتمدوا على شن الحروب و الغارات في نشر طريقتهم و الإسلام، لذا وصفها البعض بالتشدد و التزمّت²⁷.

و انتشرت الطريقة التيجانية في السودان الغربي على يدي عمر الفوتي ، و هو الحاج عمر بن سعيد بن عثمان الفوتي الفولاني²⁸.

ولد الفوتي في السنغال سنة 1797م، درس على يد الشيخ عبد الكريم بن أحمد حيث أخذ عنه أورايد التيجانية، ذهب إلى الحج سنة 1820 م حيث وسع مداركه العلمية هناك ورجع مارا

ببلاد برنو وبلاد الهوسا داعيا لطريقته ووقع خلاف بينه وبين الطريقة القادرية التي كانت تسود تلك الديار ، ولما وصل الى بلاد السنغال أعلن الجهاد ضد الاستعمار الفرنسي ، الى ان قتل الحاج عمر في سنة 1864م²⁹

2- الطريقة القادرية :

لقد كانت الطريقة القادرية هي أولى الطرق التي انتشرت في غرب إفريقيا و تنتسب هذه الطريقة إلى الشيخ الإمام أبو محمد عبد القادر بن أبي صالح موسى بن عبد الله بن يحيى المعروف بعبد القادر الجيلاني نسبة إلى جيلان بالعراق، والذي ولد سنة 1078م³⁰. كان انتشار الطريقة القادرية في السودان الغربي خلال القرن الخامس عشر ميلادي، على يد مهاجرين من توات، حيث اعتبرت ولادة أولى وجهاتهم، ثم مدينة تمبكتو، وانتشر مورديها في السودان الغربي من السنغال إلى غاية مصب نهر النيجر³¹.

وما زاد في اتساع و انتشار الطريقة القادرية في بلاد السودان هو أولا ما كان يراه كل مسلم أنه واجب عليه أن يرتبط بإحدى الطرق، فكانت الطريقة القادرية ملاذ العديد من المسلمين³²، أما ثاني أمر زاد في انتشار القادرية هو ظهور مجموعة من العلماء والفقهاء منهم العالم أحمد البكاي الذي قاد جموع القادرين لمحاربة الوثنيين، كما كانت لأحمد البكاي طريقة خاصة به هي الطريقة البكائية³³.

و بالإضافة إلى هذا الأخير لدينا العالم الجلي عبد الكريم المغيلي الذي نقل الطريقة القادرية إلى بلاد الهوسا³⁴.

والذي كان ينشر مبادئ الدين الإسلامي الصحيحة، التي تدعو إلى الحب و التسامح و التعاون، حيث كان يقوم بإرشاد الناس إلى المنهج الصحيح، و بهذا فقد صوب المغيلي العديد من المفاهيم التي كانت في أذهان مختلف شرائح المجتمع السوداني سواء العامة أو الملوك المتعلمين و الجهلة³⁵.

3- الأسباب :

إذا تحدثنا عن سبب انتشار اللغة العربية وازدهارها في السودان الغربي فإننا نجملها في الأسباب التالية:

أ - العلاقات التجارية بين التجار المسلمين وتجار السودان الغربي، هذه العلاقة الوطيدة بين هذين العنصرين خير دليل على أن التجارة عامل أساسي في ازدهار اللغة العربية، حيث كان

التاجر المسلم يستعمل لغته المحلية، ويتعامل بها مع التجار السودانيين لذلك أصبحت اللغة العربية لغة التعامل والتخاطب اليومي، مما يؤكد على وصول لغة الضاد إلى السودان الغربي على أيدي التجار العرب.

و الذين كانوا يتعاملون مع تجار غرب إفريقيا بطريقة سلمية طيبة و احترام كبير³⁶.
ب- اهتمام الملوك السودانيين بالعلم حيث عملوا على تشجيع الطلبة على التعليم وإرسالهم إلى

مختلف حواضر العالم الاسلامي كالجامع الأزهر بمصر والقرويين بفاس...الخ.
من هؤلاء الملوك نذكر الأسقية محمد التوري، الذي لا يخفى علينا دوره في دعم انتشار اللغة والثقافة الاسلامية، حيث عمل على تشجيع العلماء والنهوض بالمستوى الثقافي بمملكته متأثراً بما وصلت إليه البلاد الاسلامية من تطور وحضارة، حيث عندما ذهب إلى الحج أوقف بساتين للحجاج والطلاب السودانيين، وعند عودته من الحج جلب معه الكتب الفقهية³⁷.

ج- كما كان للحجاج دور كبير في نقل اللغة العربية والثقافة الاسلامية إلى القارة، فكان الحجاج عند عودتهم من البقاع المقدسة إلى بلدانهم يعملون على نشر العلم الذي حصلوه كما يأتون ببعض الكتب الاسلامية والعربية هذا ما عزز ازدهار اللغة العربية التي أصبحت لغة الدين والثقافة، وبالتالي أصبح الحرف العربي هو الذي تكتب به أشهر اللغات الافريقية مثل الهوسا و الفلانية والسواحلية، وبفضل اللغة العربية والثقافة الاسلامية أصبحت منطقة غرب إفريقيا على درجة عالية من الحضارة والتقدم³⁸.

د- عامل آخر ساهم في انتشار اللغة العربية هو أن التعليم في مختلف أنماط التعليم الاسلامي (المساجد، الزوايا، الكتاتيب، المحاضر) كان لا يتم إلا باللغة العربية، التي كانت مقدسة عند مسلمي غرب إفريقيا عامة³⁹، وأحسن دليل على التلاميذ كانوا يكتبون بالعربية هو ما ذكره محمود كعت الذي يقول: أن التلاميذ كانوا يقرؤون القرآن الكريم ويكتبونه على الألواح⁴⁰ ويمكن اعتبار عامل عدم جواز ترجمة القرآن وكتابته بغير اللغة العربية التي نزل بها، بالإضافة إلى عدم جواز القراءة في الصلاة بغير العربية من أهم العوامل التي ساهمت في انتشارها⁴¹.

ثانيا- اسهامات العلماء المغاربة والأفارقة في نشر اللغة العربية

1- المغاربة :

عرفت منطقة غرب إفريقيا تطورا في الحركة العلمية والثقافية وذلك نتيجة جهود مجموعة من العلماء الذين صمموا على نشر الإسلام والحرف العربي ومن هؤلاء العلماء ما يلي:

أ- عبد الكريم المغيلي :

هو محمد بن عبد الكريم بن محمد بن عمر بن مخلوف بن الحسن بن يحيى بن علي بن محمد بن أحمد بن عبد القوي بن العباس بن عطية بن مناد بن السري بن قيس ابن قيس ابن غالب ابن ابي بكر ابن ابي بكر مكررة ابن عبد الله ابن ادريس ابن عبد الله الكامل ابن الحسن المثني السبط بن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم⁴².

ينسب الى قبيلة مغيلة تقطن نواحي تلمسان ، ولا نعلم تاريخ ولادته بالضبط⁴³ . وقد رجح الأستاذ مقدم مبروك في كتابه "الامام المغيلي وأثره الاصلاحى " أنه ولد عام 1427 م ، وقال لتطابقه مع الاحداث و خاصة مراسلاته وتنقلاته لاصقاع العالم وخاصة افريقيا الغربية⁴⁴.

نقل المغيلي معارفه على يد علماء تلمسان و منهم الشيخ الثعالبي، وقد نبغ في مختلف العلوم الشرعية واللغوية، أهل لتولي مهمة التدريس بإجازة كثير من العلماء، فتولى التدريس بالمسجد الكبير بتلمسان⁴⁵.

و نتيجة جور حكام تلمسان و سكوت العلماء على ذلك، قرر المغيلي السفر إلى فاس، ثم توجه إلى توات حيث دخلها في منتصف شعبان 856هـ حيث استوطن أولاد سعيد ضواحي تميمون ثم انتقل إلى تمنطيط، أين وجد اليهود الذين عكروا صفو توات، إذ تجاوزوا الحدود الشرعية⁴⁶، لكنه أقام عليهم لتفطنه لمشروع اليهود بالمنطقة، فألزمهم الذل و الهوان و قاتلهم و هد كنائسهم⁴⁷.

و من خلال التصرف الذي قام به المغيلي إزاء اليهود نستنتج دهاء المغيلي الذي أفسد مشروع اليهود، حيث لولا المغيلي لكانت اليوم أقلية يهودية بمنطقة تمنطيط، و بهذا سجل المغيلي عمل جبار في سجل أعماله الجبارة.

وقد أشتهر بمنائواته لليهود ، وهدمه كنائسهم في توات بالجزائر قرب تلمسان ، والزاهمهم الذل بل وقتلهم بعد أن رأى منهم ما رأى⁴⁸.

و بعد نجاحه في القضاء على نشاط اليهود، رحل المغيلي إلى بلاد التكرور فوصل إلى بلاد كانو و كاتسينا، و اجتمع بسلطانها الحاج محمد، حيث عمل على الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر⁴⁹.

حيث عمل المغيلي على نشر الإسلام الصحيح و القضاء على الجهل و الأمية، كما اشتغل بالتدريس، و كان ذلك في المسجد المعروف بمسجد الكرامة إذ وفد إليه عدد كبير من الطلاب من أقطار السودان الغربي.

كما شغل منصب قاضي حيث قام بالإفتاء في العديد من الأمور و المسائل⁵⁰، وخلال إقامته في كانو طلب منه سلطانها الحاج محمد تأليف أجابه فيه عن مجموعة من الأسئلة⁵¹، تمثلت تلك في مؤلف جاء تحت عنوان: فيما يجب على الحكام من ردع الناس عن الحرام⁵².

رحل المغيلي إلى غاو في مطلع القرن السادس عشر واتصل بأمبرها الأسقية محمد التوري، فقربه إليه، واستشاره في قضايا ومسائل كثيرة، حيث قدم له سبعة أسئلة و طلب منه أن يجيبه عليها، وتمثلت تلك الأسئلة في كتاب أسئلة الأسقية وأجوبة المغلي⁵³. وتوفي محمد بن عبد الكريم المغيلي في توات سنة 909هـ⁵⁴.

ومن أبرز الكتب والرسائل التي خلفها الشيخ المغيلي نذكر ما يلي :

- البدر المنير في علوم التفسير .
- مفتاح النظر في علم الحديث .
- التعريف فيما يجب على الملوك .
- مقدمة في العربية .
- مصباح الأرواح في أصول الفلاح ، في الاعتقاد ، مخطوط ضمن مجموع بالخزانة العامة بالرباط رقمه : 266 د.
- أجوبة على أسئلة الأسقيا (الاسكيا حاكم دولة سنغاي) وهي رسالة في السياسة الشرعية ، نشرها عبد القادر زبادية ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر 1974 م .
- رسالة في الامامة ، وهي في السياسة الشرعية ، مخطوطة في الخزانة العامة بالرباط تحت رقم : 1816 د ، وكذلك تحت رقم : 364 د .
- رسالة الى أمير مدينة كانو ، وهي في السياسة الشرعية نشرها الاستاذ رايح بونار ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر ، 1968 م .

- رسالة في اليهود ، وهي في السياسة الشرعية ، نشرها الأستاذ رايح بونار ، تحت عنوان مصباح الأرواح ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر ، 1986م ، - استنصاح السودان أحد فقهاء توات وتلمسان ، رسالة في امور السلطنة ، تحقيق احمد العلمي حمدان .
- مجلة كلية الاداب بفاس ، العدد الخاص بالعلاقات المغربية الافريقية ، 1979م⁵⁵ .

ب- لقد حظي علماء توات الذين انتقلوا إلى السودان الغربي بحفاوة كبيرة ، حيث يذكر عبد الرحمان السعدي أن كثيرا من علماء توات استقروا في تمبكتو و منهم الشيخ أبا القاسم التواتي الذي كان محل احترام و تقدير الجميع حيث السلطان الحاج موسى كان يحرص بعد كل صلاة على الملاقاة به للتسليم عليه و التبرك به⁵⁶ .

كما يذكر صاحب كتاب فتح الشكور " البرتالي " أسماء شخصيات تواتية كان لهم تأثير في بلاد السودان الغربي ، و منهم العالم سيدي مولاي الزيدان و العالم الحاج أحمد ابن الحاج أمين الملقب بالتواتي الغلاوي و الذي كان يشرف على ركب الحجيج ببلاد التكرور .

و من هنا يتضح لنا أن علماء توات كان لهم مكانة مرموقة لدى حكام و ملوك السودان ، كما لقوا ترحيبا واحتراما من طرف السكان المحليين ، و هذا نظرا لما تميزوا به من أخلاق و تواضع و هذا ما ساعدهم على تبليغ رسالتهم المتمثلة في نشر الإسلام و الثقافة العربية و مختلف المعارف .

و ما يشهد لعلماء توات في نقل الثقافة العربية الاسلامية إلى بلاد السودان الغربي ، هو ما قاموا به من أعمال و التي تتمثل في فتح المدارس و الرباطات ، حيث نقلوا كثيرا من المخطوطات العربية كما اشتهروا أيضا بتدريس علوم الدين و اللغة و التصوف و الزهد⁵⁷ .

و قد نتج عن نشاط علماء توات مجموعة من التلاميذ الذين تولوا هم الآخرين فيما بعد التعليم و التأليف و التي امتلأت بها مكتبات و خزائن دول غرب إفريقيا ... في كل من مالي ، غانة ، نيجيريا و النيجر ، حيث وجد في مكتبة أحمد بابا التمبكتي بمالي ما يعادل 127 مخطوطو مكتبة ماما حيدة بمالي حوالي 84 مخطوط ، و مكتبة غانة حوالي 31 مخطوط و مكتبة كادونا و بادان بنيجيريا حوالي 6 مخطوطات⁵⁸ .

2- الأفارقة :

من العلماء الذين ساهموا في نشر الثقافة العربية الإسلامية في السودان الغربي نجد من أبرزهم :

أ – أحمد بابا التمبكتي التكروري (1556م- 1627م):

هو أبو العباس أحمد بابا بن أحمد بن أحمد بن عمر بن محمد بن أقيت بن عمر بن علي بن يحيى بن كدالة بن مكي بن نيق بن لف بن يحيى بن نشت بن تنفر بن حيراي بن النجر بن ابي بكر بن عمر الصنهاجي الماسني السوداني التكروري التمنبكتي⁵⁹.

ولد ونشأ في تنبكتو سنة 1556م في اسرة بني أقيت المسوفين المعروفين بانتسابهم الى العلم ، وحظوة أغلبهم بمكانة اجتماعية عالية بين سكان الاقليم لاشتغالهم بالقضاء والتعليم واعتبارهم من اهل الفتيا والشورى ، تلقي احمد بابا تعليمه في البيئة السودانية التكرورية على يد والده ، الذي اخذ عنه الحديث والمنطق ، وأخذ النحو من عمه ابي بكر بن أقيت⁶⁰.

وأحمد بابا يعد من أشهر علماء التكرور في الفقه والادب والحديث ، وكان يسكن في مدينة تنبكتو يمارس فيها التدريس والتأليف حتى أخذ أسيرا عام 1002 هـ الى مراكش ، على اثر التوسع الذي قامت به الدولة السعدية لضم الصحراء وبلاد السودان اليها ، وقد ألمه الاسر والاعتقال كثيرا

وادی الى ضياع كتبه التي بلغت 1600 مجلد ، وأحمد بابا مؤلف لما يزيد على اربعين كتابا في طليعتها :

- نيل الابتهاج بتطريز الديباج .
- كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج⁶¹
- جلب النعمة ودفع النقمة بمجانبة الظلمة أولى الظلمة .
- المطلب والمأرب في أعظم أسماء الرب .
- استقراء الظرفاء .
- النكت الوفية بشرح الألفية .
- فتح الرزاق في مسألة الشك في الطلاق .
- ترتيب جامع المعيار للونشريسبي⁶².

ب- الشيخ عبد الرحمان السعدي (1596م- 1655م):

هو عبد الرحمان بن عبد الله بن عمران بن عامر بن الحاج المتوكل ، ولد حسب البرتلي في كتابه فتح الشكور بقوله: ((مولده ليلة الاربعاء ليلة الفطر عام أربعة وألف ، تولى امامة

مسجد سنكري في السادس والثلاثين ، وألف تاريخ السودان ، ولم أقف على تاريخ وفاته . ولكنه كان حيا عام خمسة وستين بعد الالف))⁶³ .

تربى الشيخ في عائلة اشتهرت بالعلم والفقه ، فدرس على يد والده الفقيه عبد الله بن عمر الذي أخذ العلم عن شيخه القاضي التنبكي محمود بن عمر بن محمد أقيت بن عمر بن علي بن يحيى الصنهاجي التنبكي ، فأخذ عنه البيان المنطق⁶⁴ . كما حفظ الشيخ عبد الرحمان السعدي القرآن الكريم على يد الشيخ أحمد بابا التنبكي وغيره من العلماء والفقهاء ، اشتغل السعدي طوال حياته بالدعوة والارشاد في عدة مناطق وجهات من السودان الغربي ، فاشتغل بتحرير العقود في مدينة جني الى جانب وظيفته امام في جامع سكري بمدينة جني سنة 1627م ، وأستمر في ذلك قرابت عقدين من الزمن ثم استدعاه الباشا محمد بن عثمان حاكم تنبكتو سنة 1646م وعينه ناظرا لخارجيته واستمر السعدي في ذلك الشغل حتى توفي سنة 1655م بمدينة جاو ، فسمح له ذلك المنصب بالتنقل بكثرة في أنحاء مملكة سنغاي لمعالجة المشاكل والقضايا والاطلاع على مجريات الامور⁶⁵ .

ومن ابرز مؤلفات الشيخ عبد الرحمان السعدي ، كتابه المشهور تاريخ السودان والذي أتم تأليفه في 27 اكتوبر 1652م⁶⁶ .

ج- عثمان بن فودي القادري (1754م – 1817م) :

هو عبد الله بن محمد الملقب فودي بن عثمان بن صالح بن هارون بن غورط بن جب بن محمد بن تنبو بن ماسر بن بوب باب بن موسى جكل ، وكلمة فودي باللغة الفولانية تعني : الفقيه⁶⁷ .

ولد الشيخ بقرية طفل ولاية سوكتو ، في نيجيريا الحالية ، يوم 17 نوفمبر 1754م وينحدر من عائلة مثقفة توارثت العلم والثقافة خلفا عن سلف منذ القرن الخامس عشر الميلادي ، حفظ الشيخ عثمان القرآن الكريم على يد والده الشيخ محمد فودي ودرس العلوم العربية الاسلامية على الشيخ عبد الرحمان حمدا. وتجول في عدة مدن وبلدان افريقيا لتوسيع أفاقه العلمي ، والفكري والأدبي⁶⁸ .

كانت له اسهامات من خلال مؤلفاته في علوم القرآن واللغة العربية وأدائها وعلوم الحديث والفقه وحتى في الفلك والمنطق حيث بلغ عدد مؤلفاته 170 كتابا مع وجود اختلافات حول هذا الرقم ،⁶⁹ ومن ابرز مؤلفاته نذكر :

- ارسال الأمة تيسير الملة .
- هداية الطلاب .
- توقيف المسلمين على مذهب المجتهدين .
- نور الألباب .
- أصول الولاية .
- احياء السنة واخامد البدعة .
- البحر المحيط في النحو والصرف⁷⁰ .
- نصائح الأمة المحمدية .
- وثيقة أهل السودان⁷¹ .

د- الشيخ عمر الفتوي تال⁷² (1795م- 1864م):

ولد الشيخ ابو حفص عمر بن سعيد الفتوي الطوري الكدوي بفوتا تورو اقليم بشمال السنغال

من ابوين منحدرين من جد واحد ، ووالده هو سعيد بن عثمان بن مختار سنب ، وكان والده سعيد عالما تقيا ورعا زاهدا متوكلا على الله ، حافظ لكتاب الله مجاب الدعوة ، حفظ الشيخ عمر الفتوي القران الكريم في سن ثمان سنوات على يد الامام قري حماد ، وهو من أهل حلوار . كما يعتبر الشيخ عمر بن سعيد الفتوي من الشيوخ المهمين في زيادة انتشار اللغة العربية والثقافة الإسلامية إذ لعب دورا هاما في نشر الطريقة التجانية في السودان الغربي خصوصا بعد إقامة دولته والتي كان حكمها الشريعة الإسلامية، ولغتها الرسمية اللغة العربية، كما كانت له مؤلفات عدة ومن أشهرها "كتاب الرماح حزب الرحيم في نحور حزب الرحيم" ، وغير ذلك من الكتب ، وجلها في الدعوة وتهذيب الأخلاق⁷³.

ه- محمود كعت : (1498م- 1593 م)

ولد عام 1498م ، كان عالما فقيها وقاضيا عادلا ، سكن بتمبكتو وعاصر الأسقيا الحاج محمد (1493-1528م) ، حفظ القرآن الكريم على يد أبيه كما أخذ عنه مبادئ اللغة والفقه والحديث والتفسير والتاريخ ، اضافة الى جملة من سير الفقهاء والعلماء ، سافر الى مصر وحظر حلقات العلم بالأزهر ، ثم سافر لأداء فريضة الحج عام 902هـ وبعدها عاد الى تمبكتو لتدريس الفقه والحديث والمنطق والتاريخ ، وقد تخرج على يديه العديد من العلماء من بينهم أحمد بابا التمبكتي (1556م – 1627م).

ألف كتابه في تاريخ دولة صنغاي وسماه الفتاش وعنوانه الكامل : " تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس وذكر وقائع التكرور وعظائم الأمور وتعريف أنساب العبيد من الأحرار) ، وقد بدأ تأليف كتابه عام 1519 م غير انه توفي قبل اكماله في عام 1593 م فقام أحد أحفاده باستكمال التأليف لمدة ست سنوات التالية لوفاته الى غاية 1599 م⁷⁴ .
وقد ساهم علماء التكرور أيضا في نشر الثقافة العربية الإسلامية في السودان الغربي و من هؤلاء نذكر:

- الحاج أحمد بن عمر بن محمد أقيت بن عمر بن يحي أكدالة الصنهاجي التمبكتي:

يعرف بالحاج أحمد، هو من أهل الخير و الدين و العلم، عرف عنه قراءة قصائد مدح الرسول صلى الله عليه و سلم كما كان بارع في الفقه و النحو، عندما ذهب إلى الحج عام تسعين و ثمانمائة وهناك التقى بكل من العالم جلال السيوطي و الشيخ خالد الأزهري إمام النحو، من بين الذين درسوا عنده الفقيه محمود إذ قرأ عليه المدون وغيرها طلب للإمامة في إحدى المساجد لكنه أبى، و لقد توفي يوم الجمعة في ربيع الثاني عام ثلاثة و أربعين و تسعمائة، أي عن عمر يناهز ثمانين عاما⁷⁵.

بالإضافة إلى علماء آخرين ضاع صيتهم في المجال العلمي و الفكري في غرب إفريقيا مثل أحمد بن محمد بن سعيد، عالم و فقيه، حفيد الفقيه محمود بن عمر، انتفع الناس بعلمه الثري حيث درس مختصر خليل و المدونة على يد جده المذكور أنفا، درس عنده محمد بغيغ و أخوه أحمد موطأ الإمام مالك و المدونة و مختصر خليل⁷⁶ .

- سيدي أحمد الكبير الكنتي :

يسميه سعيد القشاطر صاحب كتاب أعلام من الصحراء أحمد البكاي، هو أحمد بن محمد بن الشيخ سيدي المختار الكنتي، ولد هذا الأخير بتمبكتو و نشأ بها، و تعلم بها و حفظ القرآن الكريم على يد والده محمد الذي هو من أهل العلم و الصلاح، ينتسب أحمد البكاي إلى قبيلة كنتة العربية

و التي تنتسب إلى عقبة بن نافع الفهري، عرف عن أحمد البكاي حبه للشعر، حيث كان يرد على أحمد السالم الذي كان يهجو قبيلة البكاي، كما يعد البكاي صاحب الطريقة القادرية

بتمبكتو، و لقد التف حوله جمع كثير من الموردين الذين أصبحوا يجاهدون في سبيل نشر كلمة الحق وإعلاء راية الإسلام⁷⁷.

توفي أحمد البكاي بتمبكتو وكان ذلك سنة 1865م وقد خلف وراءه مجموعة من الكتب منها كتاب السراج المنير في دياجي البدع في الدهور⁷⁸.

وكان ساموري توري آخر الشخصيات الاسلامية السودانية التي قامت بمحاولات نشر الثقافة العربية الاسلامية في المنطقة ، وولد ساموري بين سنتي (1832-1835م) في غينيا العليا ، وفي سنة 1865م اعلن الجهاد ضد الزنوج الوثنيين ، وقد واجه الفرنسيين في عدة معارك بين سنوات 1891-1898م الى ان القي عليه القبض ونفي الى الغابون وتوفي بها سنة 1900م⁷⁹.

هؤلاء بعض العلماء وغيرهم من الذين ساهموا بفعالية في نشر الثقافة العربية سواء من خلال حكومات وممالك اسلامية قد أقاموها والتي اعتمدوا فيها اللغة العربية كلغة رسمية أو من خلال دروسهم العلمية وبنائهم للمراكز الحضارية التعليمية كالمساجد والمدارس القرآنية والتعليمية أهمها من خلال مؤلفاتهم التي وللأسف لم يطبع الكثير منها. الخاتمة: في الأخير خرجنا ببعض الاستنتاجات وهي:

- ان افريقيا عموما شكلت مجالا خصبا لانتشار الثقافات العربية والاسلامية نتيجة القرب الجغرافي ، وكذا نتيجة الاحتكاك المتبادل بين المغاربة والافارقة عن طريق وسائل ووسائط عديدة أهمها التجار والاسلام والعلماء والفقهاء والطرق الصوفية .
- ان وصول الثقافة العربية الى غرب افريقيا ساعد على التعريف بالمنطقة أكثر وأعطى دفعا للشعوب الافريقية الواقعة جنوب الصحراء ، ويعد ذلك حدثا هاما على قارة افريقيا .
- تقبل سكان غرب افريقيا لمنهج التعليم العربي الاسلامي ، وسهولة دراسته .
- شكلت اللغة العربية إحدى أهم مظاهر الحضارة العربية في إفريقيا وأفرزت لنا مع مرور الوقت ثقافة جديدة عرفت لدى المؤرخين بالثقافة العربية- الإفريقية نتيجة تزاوج تلك الموروثات الحضارية.

الهوامش:

- 1 - محمد علي رجب ، انتشار الاسلام في افريقيا ، تاريخ الشعوب الافريقية 1، دار التعليم الجامعي ، ط1، الاسكندرية، 2015م ، ص 130.
- 2 - حولية المؤرخ، العدد، 05 الرحلة التجارية بين تلمسان و ممالك بلاد السودان، لطيفة بن عميرة، جامعة الجزائر، دار الطباعة، ص 85.
- 3- Henri Barth ، Voyages et découvertes dans l'Afrique septentrionale et centrale pendant les années 1849 à 1855, Tome 1, Bruxelles yp. de A. LACRO, Paris, 1863, P 252
- 4 - عبد الله عبد الرزاق ، المسلمون والاستعمار الأوروبي لافريقيا ، سلسلة المعارف ، عدد 911، المجلس الوطني للثقافة والفنون ، الكويت ، 1989م ، ص 10.
- 5 - أبو اسحاق ابراهيم بن محمد الفارسي الأصبخري ، المسالك والممالك ، مكتبة الجيني ، (د ط) ، القاهرة ، مصر ، 1999م ، ص 99.
- 6 - عبد الرحمان بن محمد ابن خلدون ، المرجع السابق ، ص 334.
- 7- Histoire de l'Humanite , Editions UNESCO , volume IV , 600- 1492. 2000.Paris 07 SP. P39.
- 8 - أودغشت : تقع بين بلاد الزنوج جنوبا و سجلماسة شمالا، على بعد 51 يوم من سجلماسة و 15 يوم من غانة، أسست في القرن الثامن ميلادي شمال غرب افريقيا، تقع آثارها اليوم جنوب موريتانيا الحالية. للمزيد أنظر: البكري و ابن الحوقل أبي القاسم النصي ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت، 1992، ص16.
- 9 - كومي صالح : بالنسبة لحدودها فكانت تتصل من غربها ببلاد مقرازة ومن شرقها ببلاد ونغازة ومن شمالها بالصحراء المتصلة بين أرض السودان و أرض البربر، و تتصل بجنوبها بأرض الكفار من اللملمية و غيرها، يصل المسافرين إليها بعد مسيرة أربعة عشر يوما من أودغشت و 4 أيام من سامقندي و خمسة عشر يوما من كوغة و عشرة أيام من تادمكة. للمزيد أنظر: الإدريسي ، نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، المجلد الأول، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1422 هـ، 2002 ص 24.
- 10 - سجلماسة : تقع هذه المدينة في قلب الصحراء الكبرى، ليس بها عمران، تبلغ المسافة بينها و بين غانة مسيرة شهرين في رمال ، بها الحدائق الجميلة، أحسن المدن، بها التمر وبها الجمال و التجار. للمزيد أنظر: فيج جي دي ، المرجع السابق ص 210.
- 11 - نغازة : يذكرها ابن بطوطة بفتح التاء المثناة و الغين المعجم و ألف و زاي مفتوح، من عجائبها أن بناء بيوتها و مسجدها من حجارة الملح و سقفيها من جلود الجمال و لا شجر فيها و إنما بها رمل فيه معدن الملح، بها عبيد من مسوفة يعيشون مما يجلب إليهم من تمر درعة و سجلماسة، قعد بها ابن بطوطة 10 أيام، كما يوجد بها الذهب. للمزيد أنظر : ابن بطوطة ، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، (د ن) ، ط1، 1322، ج2، ص 231.

- 12- ولاتة: هي أول عمالة في السودان قعد فيها ابن بطوطة 50 يوما ، قال ابن بطوطة أكرمني قاضها محمد بن عبد الله بن ينومر أهلها حسان مصرية، أكثر سكانها من مسوفة، بينها و بين سجلماسة مسيرة شهرين كاملين. يذكرها ابن بطوطة ايولاتن. للمزيد أنظر: ابن بطوطة ، المصدر السابق ، ص 237.
- 13- أحمد محمد المعقلي ، امة التجارة ، دور التجار في نشر الدعوة الاسلامية في افريقيا ، المؤتمر للنشر ، السعودية ، 1998م ، ص 128.
- 14- أحمد محمد المعقلي ، المرجع السابق ، ص 128.
- 15- عطية عبد الكامل ، " الروابط التجارية بين شمال وجنوب الصحراء الكبرى من خلال المصادر العربية والرحالة الاوروبيين بين القرنين 15م و 19م " ، دورية كان التاريخية ، ع: 23، مارس 2014م ، ص 54/53.
- 16- عطية عبد الكامل ، المرجع السابق ، ص 121.
- 17- القاضي محمود كعت ، تاريخ القتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابلر الناس ، دار هوداس ، (د ط) 1964م ص153.
- 18- ابن خلدون ، المصدر السابق ، ص 418.
- 19- دنيس بولم ، المرجع السابق ، ص 50.
- 20- فيج جي دي ، المرجع السابق ، ص 58.
- 21- ابن بطوطة ، المصدر السابق ، ص 237.
- 22- الفلقشندي ، المصدر السابق ، ص 297.
- 23- الفاتح الشيخ يوسف ، مظاهر الحضارة الإسلامية في الممالك الإفريقية ، مجلة قراءات إفريقية، العدد الرابع عشر، ديسمبر 2012، ص 4-5.
- 24- الطرق الصوفية: هي جماعات المتصوفين والتصوف علم من العلوم الشرعية الحادثة من الملة مبدأ هذا العلم الكعوف والانقطاع لله تعالى ، والابتعاد عن الدنيا وزخرفها ونبد هوى النفس والانفراد في خلو العبادة . للمزيد ينظر: ابن خلدون ، المقدمة ، دار الكتب اللبنانية ، (د ط) ، بيروت ، 1982م ، ص 868.
- 25- عطا الله شوقي الجمل ، الأزهر ودوره السياسي في غرب افريقيا ، دار مصر للنهضة ، (د ط) ، 1998م، ص106.
- 26- سبنسر ترمنجهام ، الفرق الصوفية في الإسلام. تر: عبد القادر البحراوي، دار المعرفة الجامعة، (د ط)، 1994م ص 206.
- 27- عبد الله سالم بازينة ، المرجع السابق ، ص 207.
- 28- سبنسر ترمنجهام ، المرجع السابق ، ص 178.
- 29- محمد السعيد القشاط ، أعلام من الصحراء، دار الملتقى، ط1، 1997م، بيروت، ص133.
- 30- عبد الله سالم بازينة ، المرجع السابق ، ص 204.
- 31- نفسه .
- 32- عطاالله شوقي الجمل ، المرجع السابق ، 106.

- 33 - القشاط ، المصدر السابق ، ص 61.
- 34 - عبد الله سالم بازينة ، المرجع السابق ، ص 206.
- 35 - عباس عبد الله ، الدور الحضري لإقليم توات و تأثيراته في بلاد السودان الغربي من القرن 9-10هـ / 15-16م ، رسالة لنيل شهادة الماجستير ، قسم العلوم الإنسانية- السنة الجامعية 2000-2001 م ، ص 116.
- 36 - سليمان يوسف ، منابر العلم والثقافة في افريقيا جنوب الصحراء ، حاضرة تمبكتو، مجلة الدراسات الإفريقية ، العدد الأول، جامعة أبو القاسم سعد الله كلية العلوم الإنسانية و الإجتماعية، ماي 2015م، ص 160.
- 37 - القاضي محمود كعت ، المصدر السابق ، ص 153.
- 38 - يعقوب علي ، جهود العلماء الأفارقة في نشر الثقافة العربية الاسلامية غرب افريقيا انموذجا ، مجلة قراءات افريقية ، العدد 03 ، ديسمبر 2008م ، ص 17.
- 39 - عطية مخزوم الفيتوري ، المرجع السابق ، ص 287.
- 40 - محمود كعت ، المصدر السابق ، ص 180.
- 41 - عمار هلال ، الطرق الصوفية ونشر الاسلام والثقافة العربية في غرب افريقيا السمراء ، منشورات وزارة الثقافة والسياحة مديرية الدراسات التاريخية و احياء التراث ، (د ط) ، الجزائر ، (د ت) ، ص 59.
- 42 - حاج احمد نور الدين ، المنهج الدعوي للامام المغيلي من خلال الرسائل التي بعثها للملوك والامراء والعلماء ، ماجستير العلوم الاسلامية ، اشراف مولود سعادة ، جامعة الحاج لخضر باتنة ، 2010م-2011م ، ص 26.
- 43 - محمد بن عبد الكريم المغيلي ، أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي ، تج: عبد القادر زبادية ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع (د ط) ، الجزائر ، 1974 م ، ص 08.
- 44 - مقدم مبروك ، الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي وأثره الاصلاحى بأمارات وممالك أفريقيا الغربية خلال القرن الثامن والتاسع والعاشر للهجرة ، دار الغرب للنشر والتوزيع ، ط1 ، (د ب) ، 2002م ، ج1 ، ص 49.
- 45 - عبد الله مقلاتي ، رموم محفوظ ، دور منطقة توات الجزائرية في نشر الإسلام والثقافة العربية بإفريقيا الغربية ، ط1 الشروق الجزائر ، 2009م ، ص 100.
- 46 - عبد الله مقلاتي ، المرجع السابق ، ص 100.
- 47 - ابن مريم ، البستان في ذكر الأولياء و العلماء بتلمسان ، المطبعة الثعالبية، (د ط) ، الجزائر ، 1626م ، ص 130.
- 48 - عبد الكريم المغيلي ، تاج الدين فيما يجب على الملوك والسلطين ، تج : محمد خير رمضان يوسف ، دار ابن حزم ، ط1 ، بيروت ، 1994م ص 9.
- 49 - نفسه ، ص 200.
- 50 - مبارك بن الصافي جعفري ، المرجع السابق ، ص 295.
- 51 - ابن مريم ، المصدر السابق ، ص 200.
- 52 - مبارك بن الصافي جعفري ، المرجع السابق ، ص 256.

- 53- يعي بوعزيز ، تاريخ إفريقيا الغربية الإسلامية من مطلع القرن 16 الى مطلع القرن 20م ، المرجع السابق ، ص 37.
- 54- محمد بن عبد الكريم المغيلي ، المصدر السابق ، ص 08.
- 55- بدري محمد فهد ، المرجع السابق ، ص 122-124.
- 56- عبد الرحمان السعدي ، تاريخ السودان ، (د د ن) ، (د ط) باريس ، 1981م ، ص 222/237.
- 58- عبد الله مقلاتي ، رموم محفوظ ، المرجع السابق ، ص 138-139.
- 59- احمد بابا التنبكتي ، نيل الابتهاج بتطريز الديباج ، تق : عبد الحميد عبد الله الهرامة ، منشورات كلية الدعوة الإسلامية ، ط 1 طرابلس ، 1989م ، ج 1 و 2 ، ص 11.
- 60- نفسه ، ص 12.
- 61- بدري محمد فهد ، المرجع السابق ، ص 131-133.
- 62- أحمد بابا التنبكتي ، المصدر السابق ، ص 17.
- 63- البرتلي ، المصدر السابق ، ص 176.
- 64- خير الدين الزركلي ، الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين ، (د د ن) ط 3 ، (د ب) ، (د ت) ، ج 7 ، ص 84.
- 65- يعي بوعزيز ، تاريخ إفريقيا الغربية الإسلامية ...، المرجع السابق ، ص 207.
- 66- نفسه ، ص 207.
- 67- عمر آدم محمد ، اسهامات الشيخ عبد الله بن محمد فودي في العلوم العربية والإسلامية ، مؤتمر دولي ثالث في اللغة العربية بعنوان الإستثمار في اللغة العربية ومستقبلها الوطني والعربي ، دبي ، 7 – 10 ماي 2014م ، ص 06.
- 68- يعي بوعزيز ، تاريخ إفريقيا الغربية الإسلامية ...، المرجع السابق ، ص 118.
- 69- ابن فودي الشيخ عبد الله ، لمع البرق فيما الذي تشابه من الفرق ، تح: أبي بكر عبد الملك ، شركة سيفاوا للطباعة صكتو ط 1 ، نيجيريا ، 6471 م . ص 40 – 42.
- 70- يعي بوعزيز ، المرجع السابق ، ص 123.
- 71- محمد شقرون ، الاسلام الأسود جنوب الصحراء الكبرى ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، (د ط) ، بيروت ، (د ت) ص 61.
- 72- ينظر للملحق رقم 05 ص 94.
- 73- هارون المهدي ميغا ، المراسلات العلمية وأثرها التعليمي والدعوي بغرب إفريقيا ، مجلة قراءات إفريقية ، ع: الثالث

- ديسمبر 2008م، ص 7-10.
- 74- عبد الرحمان عمر الماحي ، الدعوة الاسلامية في افريقيا الواقع والمستقبل ، ديوان المطبوعات الجامعية ، (د ط) الجزائر ، (د ت) ، ص 113.
- 75- البرتلي ، المصدر السابق ، ص 28.
- 76- البرتلي ، المصدر السابق ، ص 28.
- 77- محمد السعيد القشاط ، المرجع السابق ، ص 11.
- 78- نفسه ، ص 11.
- 79- العدد 87 و 88 عام 1980م ، ص 97.

الكاتب: د. خميس أحمد أرحومه
 استاذ مساعد قسم التاريخ كلية الآداب (بوزن) 249هـ / 863م (الدوافع - الأهمية)
 جامعة طبرق- ليبيا

البريد الإلكتروني: Kbootruba@yahoo.com

تاريخ الإرسال: 2019/12/11 تاريخ القبول: 2020/02/16 تاريخ النشر: 2020/03/31

معركة مرج الأسقف (بوزن) 249هـ / 863م (الدوافع - الأهمية)

Battle of the Maraj Alasqif (Poson) 249A.H/863A.D

(Motives-Importance)

الملخص بالعربية:

كانت الصراعات والحروب هي النمط الأكثر شيوعاً في العلاقات بين الشرق والغرب، ويقف موضوع هذا البحث حول أحد تلك الشواهد التي وقعت في لقاء بين كيانين سياسيين أحدهما مثل الغرب وهو الإمبراطورية البيزنطية، والآخر مثل الشرق وهو الخلافة العباسية الإسلامية.

كان هذا اللقاء سنة 249هـ / 863م في معركة عرفت باسم مرج الأسقف Poson وعلى الرغم من قلّة المعلومات الواردة بين طيات المصادر حول أحداث هذه المعركة إلا أن هذا الأمر لم يقف حائلاً دون الخوض في تفاصيل هذه الواقعة المهمة. ولعل الغموض الذي خيم عليها كان السبب الكامن خلف اختيارنا لها كموضوع بحث نهدف من خلاله الكشف عن تفاصيل الأحداث ومجرياتها، وتسليط الضوء على أهم النتائج المباشرة وغير المباشرة التي أسفرت عنها منوهين على اعتمادنا في سبيل ذلك على المنهج التاريخي السردى التحليلي المقارن. وقد وصلت هذه الدراسة إلى نتائج عدة هي

أن هذه الدراسة أوضحت مجريات الأحداث العسكرية لأحدى المعارك ذات الأهمية في الصراع المحتد بين الدولتين ومدى التنافس على السيادة والسيطرة بينهما. وتبين أهمية هذه المعركة من حيث المشابهة في نتائجها وأثارها لتلك المعارك الكبرى، كمعركة بواتيه التي أوقفت تقدم القوات الإسلامية إلى حين في أوروبا، وكذلك أوقفت معركة مرج الأسقف تقدم القوات الإسلامية في آسيا. كما تشابهت مع نتائج معركة اليرموك التي أنتصر فيها المسلمون، حيث إن نتيجتها فرضت على الإمبراطورية البيزنطية المهزومة وضع المدافع لا المهاجم، وهذا

ما حدث عقب هذه الواقعة حيث منحت نتيجتها القدرة للقوات البيزنطية المنتصرة في الهجوم وأوقفت غارات المسلمين البرية على بيزنطة وجعلتهم في موضع الدفاع لا الهجوم. تبين من خلال هذه الدراسة أن انتصار بيزنطة في هذه المعركة كان فعلا نقطة تحول في الصراع بين الشرق والغرب، حيث إنها شكلت منعطفًا جديدًا في العلاقات بين الدولتين الإسلامية والبيزنطية، وأثرت بشكل مباشر في كفتي ميزان القوى بينهما فرجحت كفة القوات البيزنطية على كفة قوات الخلافة الإسلامية.

نتيجة أخرى هي إن ما أسفرت عنه هذه المعركة شكل نقطة الإفاقة التي شهدتها قوات الإمبراطورية البيزنطية في عهد الأسرة المقدونية التي أعقبت الأسرة العمورية في حكم الإمبراطورية فبادرت بالهجوم على الثغور الإسلامية. وأيضًا من خلال تتبع سير الأحداث السابقة واللاحقة لمجريات معركة مرج الأسقف يتبين عمق ذلك الصراع الأيديولوجي، وكذلك السياسي ومحاوله كلا الطرفين بسط النفوذ على أكبر مساحة للاستئثار بموارد هذه المساحة وذات الوقت لنشر الفكر الديني وضم أكثر عدد إليه سواء باعتناقه أو مناصرته.

Abstract :

The conflicts, war is a pattern most common in the relations between the East and West, hence the subject of this research one of the evidence for that conflict between , the West, "Byzantine Empire" and the East "caliphate Abbasid" The both sides met in a battle in 249 Ah / 863AD, known as a battle of Maraj Alasqif (Poson) despite the lack of information about the battle in the sources, However, this has not deterred the writer to highlight this topic as well as show importance of this battle . Perhaps this is the reason behind my selection of this topic as subject of research, this study aims to disclosure of event details and highlight the most important results direct and indirect. This paper depend in the historical narrative analytical comparative. This study led to several results : The study indicated a military action as well as an important battle that happened between the east and the West and shows how to compete on sovereignty and control between them. Firstly, Importance of this battle that the similarity of its results to other a great battles, for instance the battle of Poitiers that stopped the Islamic

conquest in Europe, likewise the battle of Poson stopped the progress of Islamic army in Asia. A similarity also to the battle of Yarmuk which the Muslims gained a victory over the Byzantine Empire, as the result they put the Byzantine Empire in position of defender instead of attacker, likely that's what happened after the battle of Maraj Alasqif (Poson) where the Byzantine victory stopped the Muslims raids. Secondly, this study provides a clear evidence that this battle was actually a turning point in the conflict between the East and West, where it is formed a turn for a new in the relations between the two-state namely the Islamic caliphate and Byzantine empire, and influenced directly in the balance of power in the region by the superiority forces Byzantine over the forces caliphate Islamic. Thirdly, this battle from a point of departure forces Byzantine Empire in the era of the Macedonian family to attack the Islamic region. Finally, through track progress of past events and subsequent of battle of Poson I found that it's represent in a depth the conflict ideological and political as well as the both parties tried to control the larger area to have an advantage of the resources of that area and to spread religious thought.

مقدمة

مثلت الصراعات والحروب نمطا من أنماط العلاقات بين الشرق والغرب في العصر الوسيط، ويبدو هذا ظاهرا لجميع المهتمين بهذا الشأن والمتابعين لأحداث تلك الفترة؛ حيث كانت الصراعات هي السمة الغالبة على طبيعة تلك العلاقة، ولا يوجد في الحقيقة تفسير واضح محدد يمكن التعاطي معه على أنه سببا لتغلب هذا الأسلوب دون غيره؛ إلا احتمال أن يكون ناتجا عن تضارب مصالح أو اختلاف أيديولوجي بين الطرفين، وعدم قدرة تلك الأطراف أن صح التعبير على إيجاد قواسم مشتركة في غالب الأحيان تمكنهم من الوصول لتوافق مادي أو فكري على حد سواء، فلجئوا من ثم إلى فرض إرادتهم مسخرين في سبيل تحقيقها كل ما كانوا يمتلكونه من عدة وعتاد. و في غمرة مجريات الأحداث التاريخية ما يؤكد ذلك، فهذه المعركة التي نحن بصدد تناولها يمكن أن تكون أحد الشواهد لما نرمي إليه، فلقد حدثت بين كيانين سياسيين يمثل كل منهما طرفا من أطراف الصراع "الغربي - الشرقي"

ويقصد بهما الإمبراطورية البيزنطية، والخلافة الإسلامية اللتان خاضتا العديد من المعارك ضد بعضهما البعض طيلة فترة وجودهما.

وعلى الرغم مما تمثله هذه المعركة من أهمية إلا أن الكثير من الغموض قد خيم على تفاصيلها ولا نعلم سببا بعينه يكمن خلف عدم تناول معظم المؤرخين البيزنطيين لأحداثها بشكل واضح وصريح كغيرها من المعارك التي نشبت بين القوات البيزنطية وقوات الخلافة الإسلامية، إلا ما كان يكنه مؤرخي بيزنطة والذين كان غالبيتهم من مؤرخو الكنيسة ومن الفريق الداعم لما عُرف في التاريخ بالأيقونات أي عبادة الصور، لقائد المعركة أو الإمبراطور الذي تنسب إليه وهو المنتهي إلى الأسرة العمورية المعادية للأيقونات.

كذلك يبدو أن المؤرخين المسلمين لم يكن لديهم كثير الحماس أيضا لذكر تفاصيل هذه المعركة فإكتفوا بالإشارة إليها في أحداث السنوات التي تناولوها ولم يفرّدوا لها مساحة كبيرة كما كان دأبهم في تناول مثل هذه الأحداث المهمة.

ولعل معرفة أسباب وقوع هذه المعركة كان الدافع لاختيار هذا الموضوع، فالوقوف على أهم نتائج هذه المعركة المباشرة وغير المباشرة هي الهدف من هذا البحث رغم قلّة المصادر وشح المعلومات الواردة عن هذه الموقعة. منوهين على أتباعنا في سبيل الوصول إلى ذلك على المنهج التاريخي السردى التحليلي المقارن.

قبل الحديث عن مجريات هذه الواقعة نجد من الأهمية بمكان أن نسلط الضوء على الحياة السياسية التي كانت تعيشها الإمبراطورية البيزنطية تحت حكم الأسرة العمورية، والخلافة الإسلامية التي كانت تمثلها الأسرة العباسية. وذلك لكي يتبين ويتضح للمتتبع البيئة السياسية التي كانت عليها الدولتان قبل نشوب المعركة بينهما.

الأحوال السياسية في الإمبراطورية البيزنطية والخلافة العباسية قبيل المعركة أولا - الإمبراطورية البيزنطية

عانت الإمبراطورية البيزنطية من صراعات طال أمدها حول المشكلة الدينية المتمثلة في عبادة الإيقونات⁽¹⁾ شغلتها عن الكثير من الأمور الأخرى المهمة للدولة فأضعفت مركزها فيما تبقى لها من ممتلكات في جنوب إيطاليا وأسهمت في تعميق الخلاف والانشقاق بين الكنيسة الشرقية والغربية من جهة وبين الإمبراطور والبابوية في روما من جهة أخرى، وانقسم بسبب هذا الخلاف المجتمع المسيحي إلى مناصر ومناهض لذلك الاعتقاد منذ زمن الإمبراطور ليو الثالث الايسوري Leo III The Isaurian (717-741م) الذي تزعم المعسكر اللايقوني وأثار

ضدها حرباً مقدسة كانت على حد قول ثيوفانس أكثر "انعداماً للرحمة"⁽²⁾ أما الطرف الأخر فقد تزعمه بادئ الأمر بابا القسطنطينية جرمانوس Germanus (715-730م) مع غالبية الرهبان⁽³⁾ والكثير من العامة والنساء، واضطرب المجتمع البيزنطي وأضحى العداء والكره بين الطرفين سافراً جلياً، ولعل في الرواية المتعلقة بالأحداث التي أعقبت أوامر الإمبراطور ليو الثالث سنة 726م تبيان لذلك. إذ قضت تعليماته بضرورة إنزال أيقونة السيد المسيح الموجودة على مدخل القصر الإمبراطوري، وبما أن هذه الأيقونة تحظى بمكانة خاصة لدى عامة الجمهور الذين قاموا بقتل بعض القائمين على إزالة هذه الصورة⁽⁴⁾، كانت ردة فعل الإمبراطور الانتقامية التي راح ضحيتها الكثير تعكس مدى حدة

الخلاف والانقسام الديني بين الطرفين، خصوصاً أن مناصري عبادة الصور اعتبروا من قُتل منهم في تلك الأحداث شهداء.⁽⁵⁾

ظل الصراع اللاأيقوني مستمراً طيلة عهد الأسرة الايسورية (717-813م) والأسرة العامورية (820-867م) مع تباين مستوياته من حيث القوة والضعف، فالمتتبع لهذه القضية يجد أنها اشتدت في عهد بعضهم وعلى وجه الخصوص الرجال منهم مثل ليو الثالث و قسطنطين الخامس Constantine V (741-775م) وثيوفيليس Theophilus (829-842م) في حين أن الأمر اختلف زمن النساء اللواتي كن مع عبادة الصور وهن الإمبراطورة ايرين Irene (797-802م) والإمبراطورة ثيودورا Theodora (842-856م) التي تولت العرش كوصية على ابنها ميخائيل الثالث Michael III (856-867م) عقب وفاة أبيه سنة 842م وكان أول أعمالها هو عقد مجمع ديني سنة 843م وضعت بموجبه حدا لهذه المشكلة التي استمرت ما يربو عن القرن من الزمان وذلك منذ سنة (736-843م).⁽⁶⁾

ولم تكن القضية اللاأيقونية التي عانت منها الإمبراطورية البيزنطية وهددت استقرارها وأمنها هي فقط المشكلة الوحيدة أمامها بل داهمها الكثير من المخاطر الخارجية التي أرقت مضجعها وتسببت في إرهابها وضعفها وأدى إلى خوض غمار حروب طويلة ضد أولئك الطامعين في الاستيلاء على إرثها الحضاري والمادي كالبلغار والروس والصقالبة والمسلمين وغيرهم، وعلى الرغم مما شكلته هذه العناصر من ضغط شديد على الإمبراطورية إلا أن المسلمين كانوا يمثلون في تلك الفترة أكبر خطر واجهته الإمبراطورية. وذلك لأنهم منذ تأسيس دولتهم وانطلاق حركة الفتوحات الإسلامية التوسعية على حساب الكيانات السياسية المعاصرة والمجاورة لهم والتي من بينها الإمبراطورية البيزنطية الواقعة إلى جهة الغرب منهم

تمكنوا من الاستيلاء على بلاد الشام ومصر وأسيا الصغرى، بل أزداد الخطر الإسلامي على النفوذ البيزنطي بعد اهتمام المسلمين بسلاح البحرية⁽⁷⁾ وامتلاكهم لأسطول قوي استطاعوا بفضل الاستيلاء على العديد من الجزر التي كانت تابعة للإمبراطورية من بينها جزيرة كريت التي استولوا عليها سنة 827م وجزيرة صقلية التي سقطت عاصمتها سيراكوزا سنة 831م.⁽⁸⁾ وعلى الرغم من المحاولات الكثيرة التي بذلت زمن الإمبراطور ميخائيل الثاني والإمبراطور ثيوفيلوس لاسترجاع ما خسرتة الإمبراطورية من مواقع إلا أن جهودهم لم تكلل بالنجاح، حيث كان المسلمون وعلى الرغم من تفرقهم على جانب من القوة مكنتهم من الدفاع ولو إلى حين عن تلك الجزر، وقبل الاسترسال في هذا الجانب نسلط الضوء على الخلافة الإسلامية كيما نقف على أهم المراحل التي كان لها دورا بارزا في مجريات الأحداث.

ثانيا- الخلافة الإسلامية

كأي كيان سياسي مرت الخلافة الإسلامية بأطوار متباينة في القوة والضعف وكان أوج تماسكها وقوتها إبان الخلافة الراشدة (11-40هـ/ 632-661م) وأوائل الخلافة الأموية (41-132هـ/ 661-950م) التي أسسها معاوية بن أبي سفيان (41-60هـ/ 661-680م) ثم جدد تأسيسها مروان بن الحكم (64-65هـ/ 684-685م).⁽⁹⁾ إلا أن الحسد بين الأسرة الحاكمة وسوء سلوك العمال والأمرء وعلى وجه الخصوص أولئك الذين هم بعيدون عن مركز الخلافة في دمشق وما نتج عن ظلمهم من ردة فعل من قبل السكان واستغلال ذلك الأمر من قبل دعاة العباسيين⁽¹⁰⁾ أسهم في إسقاط الأسرة المروانية الأموية من الحكم وانتقلت الخلافة إلى بني العباس (132-923هـ/ 750-1517م)⁽¹¹⁾ الذين ثبتوا دعائم حكمهم على كافة الرقعة التي كان يسيطر عليها الأمويون باستثناء الأندلس التي تمكن عبد الرحمن بن معاوية (113-172هـ/ 731-788م) أحد أحفاد مروان بن الحكم من الاستئثار بها.⁽¹²⁾

على أية حال استمرت سياسة الخلافة الإسلامية عهد الأسرة العباسية مع الإمبراطورية البيزنطية على ما كانت عليه زمن الخلفاء السابقين وأن اختلفت نسبيا، حيث اتسمت سياستهم بحرب مفتوحة يتخللها فترات قصيرة من السلام والهدوء، وكانت لعوامل الضعف والقوة دورا كبيرا في رسم تلك السياسة، كما أن كفة الميزان لتلك الحروب غالبا ما جاءت في صالح المسلمين⁽¹³⁾ غير أن كثرة الفتن والثورات⁽¹⁴⁾ التي عصفت بالخلافة العباسية ناهيك عن انتشار ظاهرة الاستئثار من بعض الولاة بما تحت أيديهم من مدن وأقاليم وحصولهم على شبه استقلال عن السلطة المركزية التي كانت هي ذاتها محل أطماع لأولئك

الولاية وذلك ابتداء من عهد الخليفة المنتصر (247-248هـ/ 261-262م) الذي تأمر مع الأتراك على قتل والده الخليفة المتوكل سنة 247هـ/ 861م⁽¹⁵⁾ وما ترتب على ذلك من فتح الباب أمام تحكم الأتراك فيه، وفي غالب من أتى من الخلفاء من بعده ولم يتوقف الأمر على جنس الأتراك فقط إنما تعداهم إلى العديد من الأعراق الأخرى التي تمكنت من السيطرة على غالبية الخلفاء في تلك الفترة والتحكم في شخصهم، ومن ثم الاستحواذ على السلطة في الدولة وتسخير ذلك لتحقيق طموحات وأمجاد شخصية وتكوين أسر حاكمة بشكل مباشر أو عن طريق الهيمنة على الخلفاء مثل الأسرة الطاهرية في خراسان (207-259هـ/ 820-872م)⁽¹⁶⁾ والأسرة الصفارية التي قامت على أنقاضها (253-290هـ/ 867-903م)⁽¹⁷⁾ والأغلبية التي نشأت في أفريقيا حوالي سنة (184-296هـ/ 800-909م)⁽¹⁸⁾ وغيرها، كل ذلك أثر بشكل أو بآخر في إرهاب الدولة وإضعافها بسبب التنافس الذي نهى بين أمراء هذه الأسر الطامعين وما دار بينهم من صراع حول مناطق بسط النفوذ.

وعلى هذا الأساس يمكن وضع تصور عام للحال التي كانت عليها الدولة الإسلامية أبان فترة وقوع المعركة حيث أختل توازن الخلافة نتيجة لسيطرة الأتراك على الخلفاء، وانقسام الجيش والناس بين مناصر للخليفة ومعاد له طمعا في أموال الأتراك أو خوفا من سطوتهم. أما على الجانب الآخر تمكن الإمبراطور ميخائيل الثالث Michael III سنة 856م من التفرد بحكم الإمبراطورية بعد ان تخلص من وصاية والدته تيودورا Theodora (842-856م) وشقيقها براداس Bardas وبتروناس Petronas.⁽¹⁹⁾

وما أن سيطر ميخائيل الثالث على مقاليد العرش في الإمبراطورية ورسخت قدماءه في الحكم حتى قام برفقة خاله برداس وبتروناس سنة 245هـ/ 859م بقيادة حملة عسكرية نحو سمساط واقتربوا من آمد ثم خرجوا من الثغور الجزرية ونهبوا بعض القرى وأسروا حوالي عشرة آلاف شخص ورجعوا من حيث أتوا، وعلى الرغم من خروج عمر بن عبد الله الأقطع أمير ملطيه خلفهم إلا انه لم يتمكن من اللحاق بهم.⁽²⁰⁾

وعظم الإمبراطور البيزنطي هذا الانتصار وأمر بنقش خمسة نقوش تجسده وتحفظ مفاخره على أسوار قلعة أنقره عند ترميمها.⁽²¹⁾

ولم تتوقف الأعمال الحربية بين الإمبراطورية البيزنطية والخلافة الإسلامية سوى مدة قصيرة ساد فيها السلام وتبادل الطرفان فيها فداء أسراهم في شهر مارس سنة 860م وما أن دخل صيف ذات السنة حتى عزم الإمبراطور ميخائيل الثالث على غزو المسلمين فخلف

نسياتاس اوريفاس على القسطنطينية، واتجه إلى الشرق ولكن وقبل أن يبدأ عملياته العسكرية بشكل قوي وصلت إليه الأخبار من قبل نائبه في القسطنطينية تحمل الأنباء عن الخطر الروسي الذي بات يهدد العاصمة، مما اضطره إلى العودة وترك قسم كبير من جيشه في آسيا الصغرى وبصعوبة بالغة تمكن من دخول القسطنطينية حيث انضم إلى جنوده المدافعين عنها.⁽²²⁾

علم عمر أمير ملطية بعودة الإمبراطور إلى عاصمته لمواجهة ما يهدق بها من أخطار، فقاد حملة واسعة وناجحة حيث تمكن خلالها من أسر أكثر من سبعة آلاف واسترد كل ما وقع تحت يد ميخائيل الثالث قبل عودته⁽²³⁾ ولا يعني هذا أن عمر كان يخشى جيش الإمبراطور ولا يرغب في مواجهته إنما تزامن رجوع الأخير مع استكمال استعدادات الأمير للحرب، وذلك لأن أمير ملطية كان من قادة الصوائف والشواتي وهي حملات عرفت منذ زمن عمر بن الخطاب وازدادت أهمية ونشاطا زمن معاوية بن أبي سفيان ومن جاء بعده، وقد عرفت بهذا الاسم لثبات موعد خروجها من كل عام، فالصوائف تلك التي تخرج في فصل الصيف ويبدأ توقيتها من منتصف شهر يوليو وحتى منتصف شهر سبتمبر والشواتي وهي التي تخرج في فصل الشتاء ويبدأ خروجها من آخر شهر فبراير وحتى أوائل شهر مارس وكان يتعهد بهذه الحملات أمراء الثغور التي من بينها ملطية إمارة عمر⁽²⁴⁾ وهي من أهم ثغور الخلافة الإسلامية أمام البيزنطيين ولذا اهتم بها الخلفاء بشكل خاص فأمر من بينهم الخليفة أبوجعفر المنصور (136-158هـ / 753-774م) سنة 139هـ / 756م بتجديد بناؤها وجعل فيها حامية كبيرة يربو عدد جنودها على أربعة آلاف مقاتل وذلك لحمايتها من محاولات البيزنطيين الاستيلاء عليها لأهمية موقعها وكثرة خيراتها⁽²⁵⁾

مهما كان من أمر، انطلق الجيش البيزنطي إلى الشرق بعد وصول الأنباء عن تحركات المسلمين، فعبر الطريق المؤدي إلى منطقة الفرات العليا مرورا بانقرا وسباستيا حيث استقر في دازيمون - التي مني فيها ثيوفليس بهزيمة كبيرة على يد الافشين- في انتظار وصول أمير ملطية الذي كان متجها إلى أماسيا.⁽²⁶⁾

وكان على الأمير أن يسلك في سبيل الوصول إلى أماسيا احد طريقيين، الأول أن يتجه شمالا إلى دازيمون ثم ينحرف إلى الغرب على طريق غزبورا، أو الطريق الثاني الذي يذهب باتجاه الغرب إلى فيريس(بولوس) ثم سيبا ستوبليس (سولو سيراي) وزيلا، ومنها إلى أماسيا. إلا أن الطريق الأول كان من الصعب المرور منه لوجود فرقة من الجيش البيزنطي في أحد

الحصون القريبة من دازيمون، تمنع الأمير من المرور من هذا الجانب، ولذا كان من الطبيعي أن يسلك الطريق الثاني إلا أن هذا الأمر أيضا لم يتم بهذه الصورة حيث إن عمر أظهر عبقرية عالية اعترف بها العدو قبل الصديق حين غير بشكل نهائي ومفاجئ طريقه إلى أماسيا رغم المخاطر التي قد تواجهه أثناء مسيره بالجيش بين الدروب الجبلية ، فقام بعبور تلال Akdagh التي انحدرت به على دازيمون وتمكن من الاستيلاء على تشوناريون التي تمثل موقع استراتيجي ومهم وهو يقع بالقرب من مكان وجود الجيش البيزنطي ، حيث نشبت معركة بين الطرفين انتهت بهزيمة الإمبراطور الذي لم ينج بنفسه إلا بصعوبة بالغة فلجأ إلى تل أنزون وتمت محاصرته لساعات من قبل جنود الأمير غير أن قلّة المياه والمؤن دفعتهم إلى الانسحاب وترك الإمبراطور⁽²⁷⁾

أعقبت صائفة عمر عدة صوائف منها ما قاده وصيف التركي سنة 248هـ/861م حيث تمكن في هذه الحملة من فتح أحد حصون الدولة البيزنطية ويذكر الطبري⁽²⁸⁾ إنه كان يسمى فرورية. كذلك الحملة التي قادها جعفر بن دينار سنة 249هـ/862م وافتتح فيها أيضا حصنا آخر لم يذكر اسمه.⁽²⁹⁾

وبعد تلك الإنجازات قام الأمير عمر بقيادة حملة عسكرية واسعة توغل بها في بلاد البيزنطيين⁽³⁰⁾ فقام بتخريب أرميناك، وتقدم حتى بلغ ساحل البحر الأسود حيث تمكن من الاستيلاء على ميناء مدينة أميسوس أكبر الموانئ الواقعة على ساحل آسيا الصغرى في كبادوكيا، الأمر الذي كان له شديد الأثر على البيزنطيين إذ ما أن وصلت أخبار انتصارات الأمير إلى مسامع الإمبراطور حتى قام على الفور بتجهيز جيش كبير⁽³¹⁾ اختلف حول قيادته ففي حين ذكر الطبري⁽³²⁾ إنه أي الإمبراطور كان من يتولى القيادة جاءت رواية أوردها فازيليف⁽³³⁾ مفادها إنه أسند قيادة الجيش إلى خاله بتروناس، ووضع تحت إمرته كافة القوات الآسيوية وأضاف إليها أيضا الأوربية. وفي الجانب الآخر كان عمر قد استولى على أميسوس، وهناك وصلت إليه الأخبار عن تلك التجهيزات الكبيرة التي قام بها الإمبراطور وتوليته لبترonas على رأس جيش متجها إلى الشرق، وعلى الرغم من نصح قادة الجيش للأمير بالرجوع من ذات الطريق الذي جاء منه إلا أنه رفض ذلك وأصر على مواصلة تنفيذ خطته التي خرج من أجلها، فانطلق من أميسوس عبر طريق يوصله إلى الضفة الغربية لنهر هاليس لكي يصل إلى بوزن، وفي المقابل قرر بتروناس قطع الطريق أمامه، فاستولى على المنطقة الواقعة بين بحيرة تاتا ونهر هاليس.⁽³⁴⁾

كما قامت مجموعة أخرى من قواته المكونة من الأرميناك وبوفلاجينية وغيرهم بإغلاق طريق العودة على عمر بعد مروره من الناحية الشمالية، في ذات الوقت أغلقت قوة أخرى من جيوش الأناضول وكبادوكيا معززة بقوات أخرى طريق الجنوب والجنوب الشرقي، زامن هذا التقدم من جهة الغرب لقوات بتروناس الرئيسية، حيث نشب القتال بينه وبين قوات الأمير حول الاستيلاء على تلة تمتاز بموقع استراتيجي يمنح أفضلية في القتال لمن يسيطر عليه، وتمكن بتروناس من هزيمة عمر والسيطرة على قمة تلك التلة.⁽³⁵⁾

وهنا يمكن تصور الحال التي أصبح عليها أمير ملطية وقواته، فهو محاصر من جهة الشمال والجنوب الشرقي و يتعرض لهجوم القوات البيزنطية البالغ عددها خمسون ألفاً⁽³⁶⁾ من جهة الغرب تلك القوات المتمركزة على قمة التلة، بحيث صارت أعلى من قوات الأمير التي أصبحت عرضة لأسهم ورماح البيزنطيين.

وعلى هذا وبعد أن بلغ اليأس من الأمير في إخراج قواته من ذلك المأزق ورأى نفسه قد نفذت منه كل السبل لم يجد أمامه بدا من الهجوم على بتروناس الذي انقض عليه بكل قواته حيث أسفر ذلك على مقتل عمر وغالبية من معه ولم ينج من بينهم إلا ابنه وعدد قليل جدا من الفرسان، الذين تعرضوا هم أيضا لهجوم آخر من القوات التي كانت تساند الجيش الرئيسي لبيزنطة وأخذوا أسرى وسلموا إلى بتروناس.⁽³⁷⁾

هذا النصر الكبير الذي حققه الجيش البيزنطي أثار حفيظة الأمير علي بن يحيى الذي وصلت إليه الأنباء وهو في طريق عودته من أرمينيا متجها إلى ميافارقين، فقرر مواجهة الجيش البيزنطي في من معه من الجند وخاصة بعد أن علم أنهم أباحوا حرم المسلمين على الحدود الجزرية، فتقابل الجيشان في موقعة عرفت باسم مارتيربوليس، حيث دارت الدائرة على الأمير يحيى الذي استشهد ومعه حوالي أربعمائة من رجاله.⁽³⁸⁾

وعلى الرغم من الانتصار الذي حققه الجيش البيزنطي ظلت الحدود في آسيا الصغرى بين الدولتين على ما هي عليه إذ ما استثنينا بعض الحصون التي تمكن المسلمون فيما بعد من إسقاطها وضمها إلى أملاكهم حيث رسخت أقدامهم في قبادوقيا شرق نهر هاليس.⁽³⁹⁾

وقد أسفرت هذه المعركة على نتائج عدة منها:

- أن هذه الهزيمة التي مني بها المسلمون وما انتهت إليه من قتل قائدهم الأمير عمر بن عبد الله الأقطع، عدّها البيزنطيون وعلى الأخص الإمبراطور ميخائيل الثالث تاراً لما لحق به و بأبيه الإمبراطور ثيوفيلس من هزائم ساحقة على يد المسلمين.

- مجد الإمبراطور هذا الانتصار وألفت من أجله أنشودة تم أنشادها في الساحة العامة في العاصمة، ذكر منها "احتفل بموت الأمير في ساحة المعركة"⁽⁴⁰⁾ وذلك لأنه أمر نادر الحدوث في الحرب مع المسلمين.

- توقفت الغارات الإسلامية البرية على بيزنطة.

لم ينعم الإمبراطور بهذا الانتصار ولم يشار إليه بالبنان من قِبل رجال الدولة التابعين للكنيسة ومعتقداتها المخالف للإمبراطور اللأيقوني، بل وأهمل جل المؤرخين الحديث بالتفصيل عن هذه المعركة و هذا الانتصار العظيم لبيزنطة على القوات الإسلامية، ولعل ذلك يرجع سببه إلى أن غالبيتهم كانوا من مناصري عبادة الأيقونات، واكتفى بعضهم بالإشارة إليها، كما أن المؤرخين المسلمين لم يتناولوا بإسهاب كما تعودنا عليهم تفاصيل هذه المعركة بل اكتفوا بالإشارة إلى ذكرها من حيث الزمن والأطراف والمكان والنتيجة فقط ومروا عليها مرور الكرام، ويبدو ذلك كان بسبب خسارة الجيش الإسلامي واستشهاد أميره أحد رموز الجهاد المدافعين عن الثغور الإسلامية في تلك الفترة.⁽⁴¹⁾

على أية حال قامت فتنة داخلية في الخلافة الإسلامية أدت إلى إجبار الخليفة المستعين على التخلي عن الخلافة فولي من بعده المعتز وذلك سنة 252هـ/866م.⁽⁴²⁾

كما أنه بعد أربعة سنوات وبعد مأدبة عشاء وليلة شراب قام باسيل وهو سانس خيل الإمبراطور ثم نديمه باغتيال ميخائيل الثالث في 23 أو 24 سبتمبر سنة 867م وأصبح هو الإمبراطور بعده.⁽⁴³⁾ وما أن تهيأت له الظروف المواتية لمحاربة المسلمين وبعد تحقيقه لانتصار حاسم على البيالصة حتى زحف نحو الشرق وتمكن 873م من الاستيلاء على زبطرة وسميساط وأن لقي هزيمة كبيرة على يد المسلمين حين حاول الاستيلاء على حصن ملطية.

ولم تكن هذه الحملة إلاً بداية لسلسلة من الحملات البيزنطية على الأطراف الشرقية.⁽⁴⁴⁾

خاتمة

يمكن القول إن هذه الدراسة أوضحت مجريات الأحداث العسكرية لأحد المعارك ذات الأهمية في الصراع المحتد بين الدولتين ومدى التنافس على السيادة والسيطرة بينهما. وتبين أهمية هذه المعركة من حيث المشابهة في نتائجها وأثارها لتلك المعارك الكبرى، كمعركة بواتيينه التي أوقفت تقدم القوات الإسلامية إلى حين في أوروبا، وكذلك أوقفت معركة مرج الأسقف تقدم القوات الإسلامية في آسيا.

كما تشابهت مع نتائج معركة اليرموك التي أنتصر فيها المسلمون، حيث إن نتيجتها فرضت على الإمبراطورية البيزنطية المنهزمة وضع المدافع لا المهاجم، وهذا ما حدث عقب هذه الواقعة حيث منحت نتيجتها القدرة للقوات البيزنطية المنتصرة في الهجوم وأوقفت غارات المسلمين البرية على بيزنطة وجعلتهم في موضع الدفاع لا الهجوم.

تبين من خلال هذه الدراسة إن انتصار بيزنطة في هذه المعركة كان فعلا نقطة تحول في الصراع بين الشرق والغرب، حيث إنها شكلت منعطفا جديدا في العلاقات بين الدولتين الإسلامية والبيزنطية، وأثرت بشكل مباشر في كفتي ميزان القوى بينهما فرجحت كفة القوات البيزنطية على كفة قوات الخلافة الإسلامية.

نتيجة أخرى هي إن ما أسفرت عنه هذه المعركة شكل نقطة الإفاقة التي شهدتها قوات الإمبراطورية البيزنطية في عهد الأسرة المقدونية التي أعقبت الأسرة العمورية في حكم الإمبراطورية فبادرت بالهجوم على الثغور الإسلامية.

وأیضا من خلال تتبع سير الأحداث السابقة واللاحقة لمجريات معركة مرج الأسقف يتبين عمق ذلك الصراع الأيديولوجي، وكذلك السياسي ومحاوله كلا الطرفين بسط النفوذ على أكبر مساحة للاستئثار بموارد هذه المساحة وذات الوقت لنشر الفكر الديني، وضم أكثر عدد إليه سواء باعتناقه أو مناصرتة.

الهوامش

(1) وهي عبادة التماثيل والصور ويرى البعض أن ظهور هذه الحركة كان ناجما عن تأثر الإمبراطور ليو الثالث بالديانة اليهودية والإسلامية اللتين تحرمان عبادة الصور وخاصة بعد أن أصدر الخليفة الأموي يزيد بن عبد الملك (720-724م) مرسومه الذي نص على إزالة كافة الصور الموجودة في الكنائس داخل بلاد الإسلام، إضافة إلى حدوث ظاهرة طبيعية تمثلت في اندلاع بركان في بحر إيجه سنة 726م فسر على انه غضب الهي بسبب عبادة الأيقونات؛ ونشير إلى وجود أصل في اعتراض اللايقونيين على الأيقونات في الكتاب المقدس المسيحي حيث ورد فيه "لا يكن لك آلهة أخرى أمامي. لا تصنع لك تمثالا منحوتا ولا صورة ما مما في السماء من فوق وما في الأرض من تحت وما في الماء من تحت الأرض. لا تسجد لهن ولا تعبدهن. لأنني أنا الرب إلهك إله غيور.. = سفر الخروج الإصحاح العشرون.

Theophanes: the Chronicle, trans. Cyril Mango and Roger Scott, Clarendon press. Oxford, 1997, pp. 555;

نقفور: التاريخ المختصر 602-769م، ترجمة هاني عبد الهادي البشير، القاهرة، دار النهضة العربية، 2007، ص 95-96.

Vasiliev, A. A.: " The Iconoclastic Edict of the Caliph Yazid II, A. D. 72" , DOP, vol.9(1956)pp.25-26.

(2) Theophanes: Op Cit, p. 559.

(3) Vasiliev A. A. : History of the Byzantine Empire 324- 1454, Madison, 1952, p.253.

(4) Theophanes:, Op Cit, p. 559-560, See also Ostrogorsky G.: History of the Byzantine State, Translate Joan Hussy,Rutgers University press, New Jersey, 1957. P.162, Vasiliev: History of the Byzantine Empire, p.252.

(5) Theophanes: Op Cit, pp.559-560.

أنظر أيضاً أومان: الإمبراطورية البيزنطية، ت مصطفى طه بدر، دار الفكر العربي، مصر، 1953، ص 152.

(6) Vasiliev: History of the Byzantine Empire , p. 254, See also, Ostrogorsky G: Op Cit, p.195.

حسني محمد ربيع: دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، القاهرة، دار النهضة الغربية، 1983، ص 136-137.

(7) لم يمتلك المسلمون أسطولاً بحرياً حتى زمن الخليفة عثمان، وذلك لان الخليفة عمر كان يرفض حمل المقاتلين في البحر مخافة علمهم ولذا أمر معاوية عندما طلب منه الإذن للغزو في البحر لتلك المناطق الساحلية التي تهدد الحدود الإسلامية آنذاك ، أن يحصن الثغور ويرم حصونها رافضاً لطلبه ، ولما جاء عثمان وافق على طلب معاوية، ومنذ ذلك الحين بدأ المسلمون في الاهتمام بالأسطول البحري بعد أن خاضوا معركة ذات الصواري سنة 34هـ = الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير: تاريخ الأمم والملوك تاريخ الطبري، عمان، بيت الأفكار الدولية، بدون تاريخ، ص 739: البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر: البلدان وفتوحها وأحكامه، تحقيق سهيل زكار، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1992، ص 149-150.

(8) Bury: A History of the Eastern Roman Empire from the fall of Irene to the Accession of Basil I 802-867A.D, London, 1912, pp.289, 304.

أنظر أيضاً أسمت غنيم: تاريخ الإمبراطورية البيزنطية 324-1453، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، 1990، ص 66-68.

(9) انظر أبو الفداء إسماعيل بن كثير: البداية والنهاية، تحقيق رياض عبد الحميد مراد ومحمد حسان عبيد، ط2، دمشق، دار ابن كثير للطباعة والنشر، 2010، الجزء 7-8.

(10) أبو عبد الله الذهبي: دول الإسلام، بيروت، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، 1985، ص 73-74. انظر أيضاً: أمينة بيطار: تاريخ العصر العباسي، ط4، دمشق، منشورات جامعة دمشق، 1997، ص 12-10.

(11) عبد الرحمن السيوطي: تاريخ الخلفاء، بيروت، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، 2003، ص 204-205.

(12) السيوطي، المرجع السابق، ص 207؛ أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي: التنبيه والأشراف، بيروت، دار صادر، 1893، ص 331-323.

(13) أمينة بيطار: المرجع السابق، ص 188-189، 190-191، 216-191.

(14) (11) من أخطر هذه الفتن وأشهرها:

1- الفتنة بين الأمين والمأمون، وهي التي نشبت سنة 195-198هـ/810-813م بسبب وراثة عرش الخلافة بعد وفاة هارون الرشيد الذي جعل ابنه الأمين خليفة من بعده، ثم أوصى بالعهد لابنه الأخر المأمون ومن بعده المعتصم، إلا أن التنافس بين الأخوة من جهة وبين حزبي العرب والفرس من جهة أخرى، أدى إلى نشوب الحرب اثر إعلان الأمين الذي يمثل الحزب العربي البيعة لابنه موسى بدل المأمون الذي يمثل حزب الفرس، واستمرت رحى الحرب لمدة ثلاث سنوات خسر في نهايتها الأمين حياته وتولى المأمون الخلافة = اليعقوبي، أحمد بن ابي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح: تاريخ اليعقوبي، تحقيق عبد الأمير مهنا، بيروت، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، 1993، 383/2، 387 وما يليها؛ ابن العبري، أبو الفرج جمال الدين: تاريخ الزمان، ترجمة اسحق أرملة، بيروت، دار الشرق، 1986، ص 21.

2- بابك الخرمي: صاحب مذهب المزدكية، وهو مذهب إباضي، ظهر أمر بابك هذا سنة 210هـ/816م، زمن خلافة المأمون وكثر أتباعه واستمرت ثورته حوالي عشرون سنة، اضطربت بسببها أحوال الخلافة والرعية، إلا أن الخليفة المعتصم استطاع أن يضع حدا له ويقضي على فتنته حينما أرسل إليه قائد جيوشه الافشين، الذي تمكن من هزيمته وصلبه على أسوار سامراء على أثر معركة فاصلة سنة 222هـ/837م= ابن العبري، مرجع سابق، ص 31، 27؛ اليعقوبي، مرجع سابق، 419/2؛ البلخي، أحمد بن سهل: كتاب البدء والتاريخ، تحقيق خليل عمران المنصور، بيروت، دار الكتب العلمية، 1997، 298-300، الدينوري، أبو حنيفة: الأخبار الطوال، دون مكان، دون تاريخ، ص 260.

(15) ابن الوردي، زين الدين عمر بن المظفر: تاريخ ابن الوردي، بيروت، دار الكتب العلمية، 1996، 220/1.

(16) الطاهرية وهي تنسب إلى طاهر بن الحسين احد قادة المأمون والذي تمكن من هزيمة جيوش الأمين والقضاء عليه فاستعمله المأمون على خراسان وأعمالها وعلى الشرطة في بغداد وتوارث أبناءه ولايته حتى قضى عليهم وعلى سلاطهم الصفريون= أنظر إلى: مسكويه، أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب: تجارب الأمم وتعاقب الهمم، تحقيق سيد كسروي حسن، بيروت، دار الكتب العلمية، 2003، 392/3 وما يليها.

(17) الصفارية وهي تنسب إلى يعقوب وأخيه عمرو بن الليث اللذان كانا يعملان في الصفر بسجستان، حيث التحق يعقوب برجل كان يقود متطوعين لمقاتلة الخوارج يدعى صالح المطوعي وقد أبلى معه بلاء حسنا حتى جعله في مقام الخليفة عنه، وبعد وفاته تولى أمر المتطوعين رجل آخر يدعى درهم الذي استمرت مكانة يعقوب عنده على ما كانت عليه زمن صالح إلى أن قبض على درهم هذا من قبل أمير خراسان فتولى الأمر من بعده يعقوب وعظم أمره = أنظر إلى، ابن الأثير، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد

الواحد الشيباني : الكامل في التاريخ، تحقيق محمد يوسف الدقاق، بيروت، دار الكتب العلمية، 1987، 193/6؛ مسكويه: مرجع سابق، 207/4.
 (18) الأغالبة وهي تنسب إلى إبراهيم بن الأغلب الذي ولاه الرشيد على إفريقية سنة 184هـ/ 800م = الطبري، مرجع سابق، ص 1676؛ ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، دون تاريخ، 92/9.

(19) Alexander P. Kazhdan : Oxford Dictionary of Byzantium , New York, Oxford, 1991., V.2,

P.1364.

انظر أيضا

محمد محمد مرسي الشيخ: تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، ط3، دون مكان، 1993، ص 177-178، 180.
 (20) الطبري: مرجع سابق، ص 1914.

أنظر أيضا

Bury: Op Cit, p. 279, Warren Treadgold: A history of the Byzantine state and Society, California, Stanford Junior University, 1997,p.451, Ostrogorsky G: Op Cit, p. 201.

(21) فازيليبف: العرب والروم، ترجمة محمد عبدا لهادي شعيرة، دار الفكر العربي، 1934، ص 206-207.

(22) Bury: Op Cit, p. 281, also Warren Treadgold: Op Cit,,p.451.

فازيليبف المرجع السابق، ص 214.

(23) المرجع نفسه، ص 214.

(24) الطبري: المرجع السابق، ص 692؛ قدامه بن جعفر: الخراج وصناعة الكتابة، تحقيق محمد حسين الزبيدي، العراق، دار الرشيد للنشر، 1981، ص 192-193، كذلك أفرح أحمد القططي: الثغور الشامية في العهد الأموي (41-132هـ/ 661-749م) رسالة ماجستير قسم التاريخ والآثار، كلية الآداب، الجامعة الإسلامية، غزة، 2016، ص 79، 80.

(25) ابن حوقل، ابو القاسم النصيبي: كتاب صورة الأرض، بيروت، منشورات دار مكتبة الحياة، 1992، ص 166؛ البلاذري، مرجع سابق، ص 221-222، كذلك كي لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد، بغداد، انتشارات الشريف الرضي، 1954، ص 152-153.

(26) Bury: Op Cit, p.281.

(27) Ibid, p.282.

(28) مرجع سابق، ص 1928.

(29) المرجع نفسه، ص 1936.

(30) (اليعقوبي، مرجع سابق، 461/2).

أنظر أيضا

Warren Treadgold: Op Cit, p.452.

(31) فازيليف: مرجع سابق، ص 219-220.

(32) مرجع سابق، ص 1936.

(33) مرجع سابق، ص 220.

(34) Bury: Op Cit, p.282.

(35) Ibid: p.283-284

(36) الطبري: مرجع سابق، ص 1936.

انظر أيضا السيد الباز العريبي: الدولة البيزنطية 323-1081م، بيروت، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، 1982، ص 302.

(37) فازيليف: مرجع سابق، ص 223-224.

(38) الطبري، مرجع سابق، ص 1936.

انظر أيضا السيد الباز العريبي: مرجع سابق، ص 302-303.

Bury, Op Cit, p.284.

(39) السيد الباز العريبي: مرجع سابق، ص 304.

(40) Bury, Op Cit, p.284, see also Vasiliev: Op Cit, V1, p.277

(41) يذكر الطبري أنهما أي عمر بن عبد الله الأقطع و علي بن يحيى الأرمني " وكانا نايين من أنياب المسلمين، شديدا بأسهما، عظيما غناؤهما عنهم في الثغور التي هما بها" = الطبري، مرجع سابق، ص 1936.

(42) الطبري: المرجع السابق، ص 1969 وما يليها.

(43) Ostrogorsky G: Op Cit, p.206.

(44) Ibid: p.211.

عنوان المقال: الدولة والمجال: العلاقة

الكاتب: أ/ محمد اغزيف

والمفهوم

جامعة القاضي عياض/ المغرب

البريد الإلكتروني: oughzifmed@gmail.com

تاريخ الارسال: 21/11/2019 تاريخ القبول: 12/02/2020 تاريخ النشر: 2020/03/31

الدولة والمجال: العلاقة والمفهوم

State and territory: Relationship and Concept

الملخص بالعربية: تكمن أهمية الطرح الإشكالي لمعنى الدولة والمجال في تلك العلاقة المتبسة والمعقدة التي تربط بين المفهومين. إذ أن توضيح دلالتيهما ومحاولة الاقتراب من المقصود بهما يساهم، بدرجة كبيرة، في تحديد معالم الترابطات والتشابكات التي تنسج العلاقة بين الدولة والمجال. وفهم تعقيدات هذا الترابط من شأنه تبيان الهاجس المتحكم في تدبير الدولة لمجالها الترابي، وتحديد حجم الرهانات والتحديات التي تتعلق بالنهوض بالتنمية المجتمعية والمجالية على حد سواء. كما من شأنه أيضا معرفة كيفية تمرير سلطة الدولة عبر المجال انطلاقا من مختلف الأجهزة والفاعليات التي تدور في فلكها لضبط المجتمع ومراقبته.

من هذا المنطلق اكتسب طرح التساؤل عن الدلالة والعلاقة الرابطة بين المفهومين شرعيتها فأى علاقة تربط مفهوم الدولة بمفهوم المجال الترابي؟ وإلى ماذا يشير كل واحد منهما؟

إن الإلحاح والتركيز على إعطاء دلالة لمفهوم الدولة في المغرب يحمل في مضمونه أمرين أساسيين: الأول، أهمية الرجوع إلى التاريخ ودور تعرجاته وتطوراته في إرساء الثوابت المؤسسة لعلاقة الدولة بالمجال الترابي (موضوع الفقرة الثانية).

والأمر الثاني، يسمح بإدراك أساليب تدبير كل دولة لألياتها المجتمعية وكيفية تصريف سلطتها بناء على ذلك، لأن تشكل الدولة يتحدد أساسا من خلال الشروط الاجتماعية الداخلية الخاصة بكل مجتمع على حدة. مما يعني أن من بين شروط فهم كيفية تدبير الدولة المغربية لمجالها الترابي والمجتمعي لا بد من استحضار تعقيدات ممارسة السلطة في التجربة

السياسية المغربية ودور الأفكار والمفاهيم والتصورات التي تساهم في صياغتها وعلى رأسها هنا مفهوم المخزن الذي يحيل إلى تلك الصورة المعقدة والمتشابكة لتشكل الدولة والسلطة المرتبطة بها في شموليتها، مما مفاده أن أي تحليل يريد فهم الدولة كمفهوم يجب عليه استحضار دلالات مفهوم المخزن. (الفقرة الأولى).

كلمات مفتاحية: الدولة - السلطة - المجال - النظام السياسي المغربي.

Abstract : The importance of the question of the meaning of the State and the sphere lies in the complex and interlinked relationship between the two concepts. The clarification of their meaning and the attempt to approach their meaning contribute significantly to the identification of associations and interrelationships that are conducive to the relationship between the State and the sphere. Understanding the complexities of this interdependence would demonstrate the concern that the State is managing its territorial domain, and determine the scale of the stakes and challenges of promoting both community and community development. It would also be interesting to know how the authority of the State could be passed through the field from various organs and actors involved in the administration to control and monitor the community.

Key Words: State- authority- - Moroccan political system- territory

الفقرة الأولى: الدولة والمخزن أهمها يحدد الآخر

في الوقت الذي كانت فيه أوروبا تعرف نشأة الدولة الوطنية بمفهومها الحديث، ونهضة فكرية أخذت على عاتقها تدعيم وتأسيس هذا الصرح المؤسساتي، من خلال النقاشات والأفكار التي عملت على تحديد العناصر والمقومات الجوهرية التي بدونها لا يستقيم اعتبار دولة ما دولة قائمة الذات¹. وحددت أهم هذه العناصر في وجود شعب فوق مجال ترابي مضبوط الحدود تمارس داخله الدولة سيادتها وسلطانها على مجموع هذا التراب، كانت الدول الإسلامية، والمغرب من بينها، تعيش ضبابية على هذا المستوى، إذ كانت تتمسك بخصوصية

الإطار الثقافي السياسي الإسلامي وعدم صلاحية نقل المفاهيم والمؤسسات من مجال ثقافي إلى آخر مغاير. وهذا التصور للسلطة هو السائد في مجموع العالم العربي الإسلامي كما ينسجم مع المحيط الطبيعي والظروف الاجتماعية والاقتصادية لهذه البلدان، هكذا يطرح بأن مفاهيم "السيادة" و"المشروعية" و"الأمة" و"المجال"، وبالتالي "الدولة" مفاهيم غربية محضة لا يمكن نقلها إلى هذا الحيز الغريب والفريد الذي تمثله السياسية الإسلامية، بيد أنه إذا كان هذا النزوع الفكري يفرز شمولية منهجية تؤدي إلى جمود في التحليل واختزاله في صيغ جاهزة مكررة، حيث يجعل مفهوم الدولة الإسلامية، في تحليل المجتمع المغربي، من الثقافة بنية تحتية جديدة، فإن هذه الأخيرة بسبب ما تتعرض له من ضغوطات الواقع الملموس تجعلها في تغير دائم ومستمر.²

إذا كان أغلب الباحثين يقرون بأن الدولة في المغرب تشكل بنية فوقية خاصة تستلزم مقارنة متفردة تلغي أي تماثل مع الدولة الأوروبية التي ظلت تعتبر الدولة مجرد اشتقاق للمجال الاقتصادي في صيغته الرأسمالية العالمية وما واكبها من مؤسسات سياسية³، حيث تظهر الدولة ككيان مستقل يضيف طابعا مؤسسيا على المصلحة العامة للرأسمال، لذلك يلزم عليها أن تكون مفصلة فعليا عن المصالح الرأسمالية الفردية كما يلزم أيضا أن تأخذ بعين الاعتبار المصالح المادية للعمال من أجل الحصول على إجماع إيديولوجي لجميع أعضاء المجتمع⁴، فإنه سيكون من المجازفة اعتبار الدولة في المغرب تستمد جوهرها فحسب من تناقضات المجتمع الاقتصادي ومن هيمنة طبقة اجتماعية على طبقات أخرى أو من المنظومة الرأسمالية العالمية⁵. والسبب في ذلك يرجع إلى خصوصية كل دولة على حدة. فالوقائع التاريخية - يوضح أحمد الحارثي - تبين أن انبثاق الدولة في غير المجتمعات الغربية، عموما، لم يكن قط معاصرا لتكون الرأسمال العالمي، فإذا كان ذلك صحيحا، إلى حد ما، بالنسبة لبعض المجتمعات التي تم صنع الدولة فيها من طرف القوات الأجنبية، فإن الأمر لا ينطبق على المجتمعات التي كانت تتوفر على بنية سياسية قبل حلول الرأسمالية العالمية، وبعدها الاستعمار، بعدة قرون فيها، كما هو الحال بالنسبة للمغرب، وغيره من الحضارات كمصر والصين على سبيل المثال لا الحصر⁶. وبالتالي فطبيعة الدولة وكذا خاصية النظام السياسي وعلاقته بمجاله التراثي وبالمجتمع لا يمكن إدراكها فقط من خلال زاوية الاقتصاد الرأسمالي

العالمي، بل يجب، إضافة إلى ذلك، الإلحاح والتركيز على الخصوصية التاريخية لكل تشكيلة اجتماعية على حدة بهدف الإلمام بدرجة نفوذ هذه الأخيرة وقابليتها للتأثير⁷، ومعرفة طرق تدبير كل دولة لألياتها المجتمعية وكيفية تصريف سلطتها بناء على ذلك، لأن تشكل الدولة يتحدد أساسا من خلال الشروط الاجتماعية الداخلية الخاصة بكل مجتمع على حدة.

بناء على ما سبق، كتب إدمون عمران المليلح بصدد تقديمه لقراءة في أطروحة بول باسكون المنجزة حول حوز مراكش المائي ما يلي: "لا وجود للدولة، إذن. في المنطلق في شكلها المؤسسي، لكن هناك زمرة اجتماعية ذات بنية محددة مع صلاحيات سلطوية لا تقل عنها تحديدا ولها تمثلات دينية معينة أيضا. إن للوضعية قيمة النموذج بعيدا عن النظام المرجعي المغربي. وهو بالتالي نموذج مجتمع بدون دولة بل وضد الدولة. ويمكننا بواسطة هذا النموذج أن ندرس سيرورة تشكل دولة وسلطة ممركتين"⁸. بعبارة أخرى إن للدولة في المغرب خصوصية متميزة يجب أن تؤخذ دائما بعين الاعتبار، وهو ما يزيكه الأستاذ ادريس بنعلي، حيث يدعوا إلى أنه على أي تحليل يكون موضوعه الدولة في المغرب يجب أن يأخذ في حسبانها المعطى الأساسي الذي يقدمه الواقع المغربي، كتفرد سياسي يعبر عن ذاته كليا في مفهوم "المخزن" كبنية فوقية سياسية - إيديولوجية تمتد جذورها إلى ماض بعيد وتستمر إلى يومنا هذا في شكلها التاريخي⁹، فهذا المفهوم/ الظاهرة كان هو الاسم الذي يطلق على جهاز الدولة في مرحلة ما قبل الاستعمار كما تقول الأستاذة رحمة بورقية، وإن وقفت لتتساءل: هل نحن فعلا أمام دولة، أم أمام مخزن، أم أمام شكل من أشكال الدولة؟¹⁰

قبل تقديم الإجابة عن هذا السؤال، تدعو، الأستاذة رحمة بورقية، إلى استحضار الخصائص التي حددت وجود الدولة في الحقل الغربي والتي لخصها فولتير بقوله: "الأمة هي مجموعة من الناس يقيمون فوق تراب محدد، ويكونون جماعة سياسية تتميز بوعيا بوحدها وإرادة العيش الجماعي"¹¹. وانطلاقا من هذه العناصر (الإقليم، الشعب، الحكومة، السيادة أو إرادة العيش المشترك) حاول المفكر المغربي عبد الله العروي، بدوره، في أطروحته حول الأصول الثقافية والاجتماعية للوطنية المغربية تحديد مفهوم الدولة المغربية، فرغم إقراره بكون البلاد - خلال القرن 19 الإطار الزمني لأطروحته - حرمت من العناصر المؤهلة للوحدة

والاستقرار والامتزاج، وكان المستوى التقني بها متدنيا، إلا أن "الإنسان المغربي كان ينفرد بلباسه ولهجته وبمجال مسعى له حدود اعتبره مجاله الخاص"¹². يعني كل هذا، أنه على أي تحديد لمفهوم الدولة في المغرب يجب عليه استحضار الصورة المعقدة لتشكّل الدولة والسلطة المرتبطة بها في كليتها، لأنه لا يوجد مركز سلطوي مستقل بما فيه الكفاية تجاه قبائل لم يكتمل بعد تكوينها وقابلة لأن تطوق بدقة¹³.

إذا كان تحليل براديجم الدولة يرتبط إلى هذه الدرجة بمفهوم "المخزن" فما المراد بهذا الأخير وما المقصود به؟ وما دام أن المخزن يحيل إلى نوع من السلطة فإن هذه الأخيرة تقتضي مبدئيا توفر مجال من العلاقات لتمارس فوقه – أي ما يسمى بالمجال السياسي الذي يتحدد بمجال ترابي معين الحدود- فما هو المجال الذي تمارس فوقه سلطة المخزن؟ وما هي حدوده؟ وهل المقصود بالمجال فقط التراب بحدوده الجغرافية أم البشر أيضا – كمجتمع مغربي وكعنصر دائم التحرك- يوجد فوق هذا التراب؟

يتفق جل الباحثين على أن جعل "المخزن" كموضوع للدراسة يتحدى التحليل والتفكير، لصعوبة تحديد مغزاه بدقة وبساطة، وذلك لاعتبارات متعددة: أولا، لأنه ينفذ للمجتمع في جوانبه الأكثر عمقا وحميمية، فهو في ذات الوقت داخله وفوقه، كما أنه يقوم على تمثيل المجتمع عضويا ويرغب في أن يظل فوق الانفلاتات والتناقضات التي تخترقه. ولأنه ثانيا، مفهوم لا يمكن تحديده عبر الجهاز المفاهيمي للعلوم الاجتماعية فهو ليس بمفهوم اقتصادي يمكن اختزاله إلى اشتقاق للسوق أو الرأسمال، كما أنه ليس بمفهوم اجتماعي أو سياسي يمكن الإحاطة به عبر الدولة والسلطة والطبقة...¹⁴

إن أهم خاصية تميز "المخزن" المغربي هي عراقته وعمقه التاريخي، إذ له تاريخ يشمل عدة قرون يستمد منه مشروعيته ومبرر وجوده، ويفسر أصله التاريخي – السياسي جزءا كبيرا من تجذره في واقع البلاد. فهو كما يصفه الأستاذ ادريس بنعلي، "لم يكن المخزن نتاجا مباشرا للاستقلال السياسي، أي أنه ليس منتوجا زرعت بذوره خلال المرحلة الاستعمارية وما تخللها من صراع سياسي من أجل التحرر ... إنه وليد المجتمع المغربي، خرج من صلبه في زمن معين من تطوره، فاكتمت شرعية تبدو أزلية تأصلت أسسها في المجتمع وترسخت في مخيال

الطبقات الشعبية التي تقر له بالقدرة على تجسيد الوحدة الوطنية وتفوض له أمر استعمال بعض الرموز الروحية...¹⁵.

ونظرا لما تكتسيه مؤسسة المخزن من أهمية في تحليل وفهم النظام الاجتماعي والسياسي المغربي فقد كانت مجالا استقطب اهتمام عدد كبير من الباحثين والدارسين مغاربة وأجانب مما كانت محصلته في الأخير بروز عدة نظريات حول هذه المؤسسة فالعالم الفرنسي كوتيهيه والمؤرخ هنري طيراس، قالوا بنظرية "المخزن – القبيلة" استنادا إلى أعمال ابن خلدون الذي يربط السلطة السياسية وممارستها بالمجتمع القبلي العصبوي. ومضمون هذه النظرية أن التعارض أو الصراع المستمر بين سكان البوادي الرحل وأهل الحواضر المستقرين هو الأصل الذي يؤدي إلى قيام السلطة السياسية وبالتالي إلى خلق المخزن أو "الدولة". وطالما أن هذه السلطة تنبني على أساس قبلي في قيامها وترسيخ كيانها، فإن المخزن بالنتيجة يكون قبليا في بنياته، وهو ما تبرزه تسمية العصبويات التي حكمت التاريخ السياسي المغربي: كالمخزن أو الدولة الموحدية المصمودية، والآخر المرابطي الصنهاجي، ثم المريني الزناتي...، فالمخزن بهذا الشكل هو مخزن (دولة) القبيلة أو الاتحاد القبلي المهيمن في حقبة تاريخية معينة¹⁶.

هناك نظرية أخرى تنبني مفهوم "المخزن الفيودالي" انطلاقا من التشابه الكبير بين النظام الفيودالي والمخزن المغربي، وأبرز من دافع عن هذا الطرح روبرت مونتاني في كتابه "البربر والمخزن في الجنوب المغربي"، رغم إقراره بوجود فوارق كبيرة بين النظامين، إلا أن ذلك لا يلغي في نظره أوجه التشابه بينهما¹⁷.

بدوره صاغ الباحث الأمريكي كليفورد كيرتز تصورا نظريا يقوم على اعتبار "المخزن" "الزاوية"، انطلاقا من الواقع المغربي الذي يزخر بعدد وتشعب الزوايا، ولما رأى أن هذه الأخيرة لا تكتفي بالمجال الديني وحده لتتدخل في المجال السياسي والاجتماعي، ولدعم موقفه هذا يرجع الباحث إلى التاريخ المغربي لتقديم أمثلة عما ذهب إليه، ليذكر أن المخزن المرابطي أو الموحدية انطلاقا من "رباطات" دينية أو زوايا تطلعت للسلطة السياسية وأنشأت بنايات إدارية واجتماعية كونت مخزنا، كما أن الزاوية الدلائية في القرن 17 تعد أبرز مثال في هذا الصدد،

حيث كان لها مخزنها بإداراته المتعددة، بسلطانه، بإقليمه، بأعيانه، بولاته، وبجيسته وعاصمته¹⁸.

ومن جهته، يضيف الأستاذ عبد اللطيف أكنوش بعد استقرائه للتاريخ الشرفاوي في المغرب ما يسميه "بالمخزن الشرفاوي"، الذي ظهر في المغرب ابتداء من وصول السعديين إلى الحكم في بداية القرن 16 إلى غاية تاريخنا هذا. ومعناه يعرف ويفهم في مقابلته وتضاده "بالمخزن – القبيلة"، و"المخزن الفيودالي"، و"المخزن الزاوية". لأنه لا يعبر في نظره، عن رغبة قبيلة معينة في السلطة العليا، ولا يرتبط بهيكله نظام حقوق فيودالي، ولا بزواية قائمة بذاتها. فبدل الدعوة والعصبية التي تطبع "المخزن القبيلة"، يلتجئ "المخزن الشرفاوي" إلى إنتاج "سياسة دينية". وعضو الجهاد الهجومي الذي كان في الماضي يخدم الأغراض المادية للقبائل، يلتجئ هذا المخزن للجهاد الدفاعي الذي من شأنه جمع كل القبائل المغربية وخلق شروط الدولة – القومية. وعضو السلطة السياسية القبلية، يلتجئ إلى سلطة الأشراف التي تبحث باستمرار على تركيع كل القبائل ونزعها الطبيعية في الاستقلال الذاتي. وذلك قصد بناء دولة ممركرة وقوية¹⁹.

إن الغرض من الدلالات السابقة التي حاولت الاقتراب من مفهوم المخزن يكمن في البحث والبرهنة على الخصوصية التي تميز الدولة المغربية. بشكل يعبر فيها المخزن عن الدولة ككيان عريق ومؤسسة سياسية مستقلة كما يعني في الوقت نفسه الطريقة والأسلوب الذي تدبر به الدولة مجالها الترابي، من خلال ما يتضمنه هذا المفهوم من علاقات السلطة وتشابكات النفوذ. ليتأكد في نهاية المطاف ما يثبت وجود بنية سياسية منظمة في المغرب القديم عبر محاولة رصد العناصر المادية والمعنوية التي تتشابه فيها الدولة المغربية مع الدولة بمفهومها الغربي الحديث: كالإقليم، والرعايا، والجيش، ونظام حكم، وإدارة ومؤسسات اجتماعية وثقافية، وجباية وتشريع... وهي كلها عناصر عملت مختلف السلالات التي تعاقبت على الحكم بالمغرب على تطويرها وتثبيتها وضمان استمراريتها على مدى عدة قرون²⁰. وفي هذا السياق اعتبر بعض الباحثين²¹ القرن 16 الميلادي التاريخ الذي بدأ يتكون لدى المغاربة "شعور وطني" قوامه ربط مفهوم الأمة بالأرض والدولة بالوطن. ذلك أنه، بالإضافة إلى حركة

التوسع الاستعماري التي كان المغرب يواجهها على شواطئه في الشمال والغرب، كان هناك تهديد آخر من الشرق يتمثل في احتلال الأتراك العثمانيين للجزائر وطموحهم إلى الاستيلاء على المغرب. لقد أصبح المغرب بفعل العاملين السابقين يدل على رقعة من الأرض معينة يجب الدفاع عنها ضد تهديد الآخر الأوروبي والآخر العثماني سواء بسواء. فقد كان المغاربة من قبل يعترفون بالخلافة العباسية، اسميا على الأقل، أما عندما وضع الأتراك العثمانيين حدا نهائيا لهذه الخلافة وأخذوا يحكمون كسلطين، أي بالقوة وحدها، فلم يعد هناك ما يبرر ولاء الحكام في المغرب لغير المغرب نفسه: المغرب الذي أصبح يعني رقعة من الأرض معينة يجب الدفاع عنها مما سيجعله في حالة حرب مستمرة مع جيرانه، وهذا شيء ستنعكس آثاره بقوة على أوضاعه الداخلية²²، وهو ما أعطى لدولة المغرب وجودا سابقا، حتى إن التدخل الاستعماري في المغرب وجد في مواجهته مجتمعا يتوفر على بنية سياسية توحى بالاستمرارية وترجع بجذورها إلى أزمنة عريقة²³، فسلطات الحماية لم تجد نفسها أمام فراغ مؤسسي، لهذا السبب عملت، على الأقل طيلة المرحلة الأولى لهيمنتها على المغرب، على احترام المؤسسات المغربية الموروثة والتي كانت ما تزال آنذاك قائمة، بل أكثر من ذلك أنها أحيت المؤسسات المخزنية العتيقة وقامت بمأسستها خلال تواجدها في المغرب؛ أولا انسجاما مع مقتضيات معاهدة الحماية ل 30 مارس 1912، وثانيا لاحتفاظ تلك المؤسسات التي تفاعل معها المجتمع المغربي طيلة قرون عديدة، في نظرها، على القوة الكافية التي تجعلها أهلا للاحترام وأهلا أيضا للمحافظة على حقها في الوجود²⁴. فالمغرب بلد حافظ على استقلاله ووحدة كيانه طوال ما يزيد على 14 قرنا إذ لم يسبق له أن اندمج لا في الإمبراطورية العباسية ولا في الدولة الفاطمية، التي كانت في وقت من الأوقات الدولة المهيمنة في المغرب الكبير، كما أنه لم يقع قط تحت النفوذ المباشر وغير المباشر للدولة العثمانية، بل لقد حافظ على استقلاله ووحدة كيانه، حتى في القرن 19 الذي اشتد فيه وطيس الاستعمار في آسيا وإفريقيا، بل وفي المغرب العربي، حيث كان المغرب آخر دولة استعمرت، وبموجب عقد حماية وليس بموجب هزيمة عسكرية أو انفكك داخلي. وفوق ذلك كان المغرب من الدول القلائل التي استرجعت استقلالها في أقصر مدة وبأقل الخسائر²⁵.

إجمالاً كان المغرب يتميز ككيان سياسي واجتماعي وثقافي واضح المعالم، مما جعل ملامح مفهوم الدولة في صيغتها العامة تكاد تكون مكتملة؛ حيث كان السلطان يعد أعلى سلطة في البلاد، يستمد مشروعية حكمه من الأصول والأسس الشرعية التي تنبني عليها كل نظم الحكم في البلاد الإسلامية، فضلاً عن تقاليد وأعراف وقواعد مرعية وعريقة في القدم، كانت تحد من سلطة السلطان المغربي وتلزمه، من وقت لآخر، باستشارة العلماء والفقهاء، أو أعضاء الجماعات القبلية، أو فئات اجتماعية أخرى من ذوي الاختصاص (كالتجار، باشوات وعمال المدن، وقواد القبائل) حول قضايا معينة أو نوازل طارئة.

كما أن السلطان المغربي لم يكن يستمد حكمه وشرعيته من تفويض إلهي، أو كان حكمه استبدادياً مطلقاً، أو طبقياً تسلطياً. بل كان هذا الحكم مؤسساً على البيعة كالتزام صريح وتعاقد متين بين السلطان الجديد ورعاياه، مما كان يسمح بتحديد الحقوق والواجبات المتبادلة بين الطرفين.

زيادة على المقومات الفكرية والأسس الرمزية المشار إليها أعلاه، هناك بعض المميزات والممارسات التي تعتبر من صميم اختصاصات الدولة المستقلة، من ذلك الرقعة الترابية التي كان يشملها نفوذ وسلطة السلطان، مادية كانت أو روحية، وحرته في سك العملة كلما اقتضت الحاجة ذلك، وتوفره على قوة عسكرية، بغض الطرف عن نقائصها ومثاليها، ظلت تمثل أداة في يد المخزن لتنفيذ أوامره، والإسهام في نشر الأمن واستتبابه، والدفاع عن حوزة البلاد، إن دعت الضرورة إلى ذلك، كما كانت تساعد في تحصيل الضرائب وغيرها من الفروض والواجبات التي كان يسنها المخزن. ومع ذلك تجدر الإشارة إلى إن الدولة المغربية لم تكن قائمة فقط على العنف بل تملأ وظائف وطنية واجتماعية لازمة لحياة البلاد، وهي التي مكنتها من الحصول على الشرعية في نظر السكان المتطلعين لتحكيم وموازنة المخزن ضمن منظور ذاتي وشخصي ومتغير للشرعية السلطانية التقليدية المتميزة تماماً عن الشرعية الغربية القائمة على عناصر غير شخصية وعامة ودائمة²⁶.

إلى جانب القوة العسكرية كان المخزن السلطاني يعتمد في تدبير شؤون البلاد على جهاز بيروقراطي مركزي، مكون ممن كان ينعت بموظفي "دار المخزن" ويسمون أيضاً بـ

(أصحاب الخناجر، أصحاب الشكارة). إلى جانب أجهزة أخرى على المستوى المحلي كالخليفة والقائد والباشا والمحاسب... الخ، فضلا عن فاعلين آخرين يشكلون امتدادات محلية للسلطان يجسدها قواد القبائل وممثلي الشأن الديني من شيوخ الزوايا والفقهاء والعلماء. ورغم المؤاخذات والملاحظات التي يمكن تسجيلها على هذا الجهاز الإداري بوصفه جهازا عتيقا وبسيطا يقوم على المركزية المفرطة، وينعدم فيه التحديد الدقيق للاختصاصات وتنقيح المركزية إلى المستوى المحلي عن طريق "الحركة" متى عجزت العاصمة عن ضبط القبائل، لا يرقى إلى مستوى الأنظمة الإدارية والسياسية المعروفة آنثذ في أوروبا. إلا أنه مع ذلك كان بالفعل أداة ملائمة ووسيلة فعالة في تسيير شؤون البلاد وتأمين استمرارية مؤسساتها، بعيدا عن فضولية وتدخلات الأجانب، على الأقل خلال الثلث الأول من ق 20.

خلاصة ما سبق هي أن الدولة المغربية المعاصرة لم تقم في فراغ، ولا من فراغ، فهي تحمل معها استمرارية تاريخية جعلت منها دولة الماضي في الحاضر، ولم يشكل حصولها على الاستقلال سنة 1956 إلا مجرد استرجاع لما سلبته منها معاهدة الحماية، التي فرضتها عليها فرنسا سنة 1912، من عناصر السيادة ومظاهرها²⁷.

إن التحليل أعلاه بقدر ما بين العلاقة التي تربط بين مفهوم الدولة ومفهوم المخزن وحدد عناصر الأولى من خلال هذا الأخير، بقدر ما يدفع بالتحليل إلى مستوى آخر يصب في صلب موضوعنا وهي تلك العلاقة الرابطة بين الدولة والمجال، ذلك أن دراسة مفهوم "المخزن" تحيل إلى البعد الأنثروبولوجي للسلطة الذي يركز على الطابع الخفي والاستراتيجي للسلطة في المجتمعات التقليدية، والمغرب نموذج حي في هذا الصدد، الأمر الذي يقتضي البحث عن السلطة لا في مراكزها وأجهزتها المعهودة كالدولة والنخبة وأجهزة ووسائل القمع المختلفة فحسب، وإنما في جل مظاهر الاجتماعي والديني والرمزي²⁸.

في هذا الإطار قام الأستاذ عبد الله العروي بالتمييز بين معنيين لمفهوم "المخزن": "المعنى الضيق ويتعلق الأمر بالمشتغلين بالجهاز الإداري (البيروقراطية) والجيش وكل من يتقاضى راتباً من الخزينة السلطانية، وهو ما يتطلب التمييز بينهم وبين من يتم تعويضهم عن خدماتهم من مال الأعباس، وهو حال المشتغلين في الوظائف التي احتضنتها الحواضر. ويؤوّل

لهذا المخزن بالدرجة الأولى أمر الحفاظ على النظام في الحواضر وإلى حد ما في البوادي". والمعنى الواسع يجعل دلالة "المخزن" تنطبق على مجموع الفئات التي يتم من بينها اختيار أعضاء المخزن في معناه الضيق، وهي الخاصة وقبائل الكيش والشرفاء والمرابطون المنتشرون في البوادي، وهم إجمالاً من يحظون "بالصلات" (الهدايا) ويحوزون على ظواهر التوقير والاحترام أو بإمكانهم الحصول عليها، ومن يعتبرون أنفسهم جزءاً من المخزن تأسيساً على إقراره لهم بفضائل لا تتوفر في العامة". وانطلاقاً من هذه الدلالة الواسعة اكتسب المخزن ميزة أساسية تمكن بفضلها من فرض نفسه بشكل شبه مستديم على المناطق الخارجة عن سلطته بالاعتماد على مؤسسات محلية كالزوايا والزعامات المحلية مما جعل التمرد الذي يتعرض له من حين لآخر يكتسي طابعاً نسبياً بالنظر لما تحتله هذه المؤسسات من مكانة داخل المخزن بمعناه الواسع، فضلاً عن أن أقصى ما تطمح إليه هو تهيئة نفسها، بوعي منها أو بدونه، للارتقاء في أحضانها من خلال أخذ نصيب لها في المشاركة في التدبير، وهو الأمر الذي تحصل عليه في غالب الأحيان²⁹. بعبارة أخرى إننا لسنا هنا أمام كيان محصور في مجموعة خاصة، بل على العكس، نحن أمام مبدأ للسلطة يتمظهر في كل مكان، بما في ذلك الأماكن التي لا يحل بها أبداً المركز الملكي رغم تنقلاته الشهيرة. من هنا فإن الدولة هنا – كما يعبر عنها لفظ المخزن – لا تقابل مصطلح "الكيان السياسي" "Etat/State" كما يعرفها قاموس العلوم السياسية الأوروبي؛ إنها تدل أولاً وقبل كل شيء، عن الدور وتوسعا هي الجماعة التي يأتي دورها في الإمساك بشؤون الأمة³⁰.

وداخل نفس الإطار ينتصب الدين الإسلامي كقطب رحي يجمع المغاربة على أساس وحدة ثقافية روحية أكثر منها وحدة إدارية، لكنه يوفر مجالاً واسعاً لممارسة السلطة واكتساب الشرعية. "فالشعور الديني هو الوحيد الذي يضمن التضامن بين المغاربة" يقول Doutré، ويضيف: "فبما أن الدولة المغربية لها طابع ديني بالأساس فإن فكرة القومية قد عوضتها بالإيمان وبالتالي يختلف المغرب عن الدولة الأوروبية لا بفهمه للسيادة فحسب، وإنما كذلك بالكيفية التي يضبط بها حدود ممارسة هذه السيادة. إن هذه الأخيرة لا تبدو للمغاربة كحدود محددة بشساعة تراب يكون دولة المغرب... كما أن سلطة الإمام تمتد نظرياً إلى كل المسلمين، ولكنها تشمل عملياً كل القبائل التي تصلي باسمه"³¹. هنا يبرز الدين أو المشروعية

الدينية لتمنح "المخزن خصوصيات تجعل سلطته تستمد مشروعيتها من عنصر ميتا-اجتماعي، غير أن النظام لا يعتمد في تأكيد شرعيته في الحكم على السند الديني لوحده. فالمخزن يعي جيدا أن الإمامة الدينية وحدها لا تضمن له البقاء والاستمرار، بل عليه أيضا إحاطة نفسه بمؤسسات سياسية واقتصادية واجتماعية قوية.

إن المزايا التي يوفرها المجال الديني للسلطان لا تصبح ذات فعالية إلا إذا تحولت إلى ملكية مخزنية قوية، لأن سلطة المرجعيات الدينية أمر نسبي وذات دلالات رمزية لا أكثر، ولا تتحول إلى رصيد إيجابي إلا حين يعمد الفاعلون السياسيون إلى ترجمتها على أرض الواقع كأسس للشرعية في الحكم والحق في ممارسة السلطة. لذلك يجد النظام نفسه مضطرا باستمرار إلى توطيد خطابه السياسي بالإشارة إلى تحقيق منجزات اقتصادية ومشاريع تنمية وحلول مستقبلية، ناهيك عن اعتماد خطط الحضور البيروقراطي الناجعة³².

إن استعراض التشابكات والتقاطعات التي تنسج العلاقة بين الدولة والمخزن في التجربة السياسية المغربية، كما جاء ذلك في التحليل أعلاه، تحيل مباشرة إلى أهمية العمق التاريخي في تشكيل ثوابت الدولة المغربية.

الفقرة الثانية: ثوابت الدولة المغربية كأسس لتحديد المجال الترابي

إذا كانت الدولة المغربية دولة عريقة الجذور في التاريخ فإن هذا لم يكن ليتحقق لها لو لا قدرتها ومرونتها في طريقة تدبيرها للمجال الترابي. فعلى مدى القرن 19 مثلا، عرف تنظيم المجال في المغرب تقلبات لم يسبق لها مثيل لكن تنظيم ووجود الدولة ظلّا ثابتين لا يتزعزحان. فالعلاقات بين المجال وتنظيم السلطة في مغرب ما قبل الاستعمار تظهر، اليوم، معقدة، لأن طبيعة العلاقة الموجودة بين سكان المغرب وحكامه آنذاك، وإن كانت تتميز عن نظيرتها في الدول الأوروبية، فإن ذلك لا يعني انتفاء مفهوم الدولة في المغرب، فمن ثوابت الوضعية التاريخية للمغرب، كما يحددها الأستاذ محمد عابد الجابري³³. سوف نركز هنا على ثلاثة منها فقط، وذلك لعلاقتها المباشرة بصلب الموضوع. وأول هذه الثوابت نجد "استمرارية الدولة الوطنية" فيه منذ ما قبل الفتح الإسلامي له، هذه الدولة كانت دولة وطنية قائمة الذات تدخل

في علاقة الند للند مع الدول المعاصرة لها، بمعنى أن حاكمها ومسيرها من سكان المغرب أنفسهم ولم يكونوا قط "دخلاء" على المغرب، ولا من المحتلين ولا من الغزاة، ولا حتى من "المهاجرين" فالمغاربة على مر قرون خلت كانوا يجمع بينهم شعور قوي من "الوطنية"، بحيث جعلهم قادرين على الوقوف قاطبة وبشكل فعال ضد المخططات الاستعمارية الأوروبية في الشمال³⁴، والتدخلات العثمانية في الشرق. فالدولة في المغرب كانت دائما من أبناء المغرب ودولة من المواطنين المغاربة، لكن اكتمال كيانها واكتساب سلطتها للقوة إنما تم مع دولة المرابطين الذين نضجت على يدهم "ثوابت الوضعية التاريخية في المغرب" وعلى رأسها "الدولة الوطنية المغربية". هكذا كانت الدولة المغربية من بين قلة من الدول التي حافظت على كيانها واستمراريتها لقرون عديدة، غير أن هذا الوجود لمعنى الدولة تميز بخصوصيات فريدة بالنسبة للدولة في المغرب:

أولا، وهذا يحيلنا إلى الثابت الثاني للوضع التاريخي للمغرب ككيان سياسي وهو ثابت "الرقعة الجغرافية" لما يمكن تسميته بالمغرب الأصل والتي لها بعدان: البعد الأول يحدد ثبات مغرب الحد الأدنى الذي لا يقبل النقصان هو "المغرب الأقصى". ويحده المؤرخون ضمن حدود ثابتة هي: المحيط الأطلسي غربا، البحر الأبيض المتوسط شمالا، ما وراء ملوية إلى تلمسان شرقا، والقبائل الصحراوية جنوبا. وربط المَعْلَم الأخير بالقبائل الصحراوية يبرز خاصية أساسية تميز الحدود، في الماضي، هي كونها بشرية تقوم على الولاء أكثر من كونها جغرافية، وبفعل ذلك تظل في حركة دائمة تبعا لطبيعة العلاقة القائمة بين مختلف الوحدات الاجتماعية المشكلة للقيادة الواحدة، أو لطبيعة العلاقة القائمة بين القيادات المجاورة³⁵. والبعد الثاني يتجسم في تحرك الرقعة الجغرافية لما يمكن تسميته بالمجال الحيوي للمغرب، والذي يتميز بالتغير إما بالامتداد أو النقصان حسب قوة الدولة، بحيث قد يمتد إشعاعها إلى الأندلس كما قد تصل سلطتها إلى جنوب الصحراء، مما يؤدي إلى خلق الضبابية والغموض على مستوى الحدود؛

ثانيا، يبرز هذا الغموض في كون المجالات الحدودية المغربية لم تعرف الاستقرار والثبات³⁶ ولا الوضوح التام حتى لدى بعض السلاطين أنفسهم؛ فعدم الثبات والاستقرار تمثل

في المد والجزر تبعاً لقوة الدولة وضعفها، وعدم الوضوح تبرره المقاييس المعتمدة من لدن المخزن في تحديد امتدادات سلطاته عبر المجال وهو ما يحيلنا إلى طبيعة انتظام السلطة بين الدولة والسكان والمجال الترابي؛

ثالث المميزات، نوعية الآليات التي تربط المخزن السلطاني بالسكان ومن خلالهم بالمجال الترابي، والتي تتمثل أساساً في تعدد صورها وتكامل أدوارها؛ بينما هو ذو بعد رمزي كالبيعة والخطبة باسم السلطان يوم الجمعة والدعاء له... وبين ما يشكل طابعاً مادياً كتعيين وتزكية قواد القبائل وشيوخها ورؤساء الزوايا وتوظيف العلماء والفقهاء، في كل نواحي البلاد بما في ذلك مجال الهوامش، واستخلاص الجبايات...، وهي باختصار ما يشكل أساس "الشرعية الوطنية في المغرب" ككتابت ثالث؛

رابعاً، كان المخزن خلال القرن 19 يسير بشراً في شكل تنظيمات اجتماعية قبلية، ولم يكن يسير مجالاً تريبياً محددًا بدقة³⁷، وكانت أدوات استجلاء سلطته تتركز على مجالين أساسيين: المجال الديني والروحي، ثم الفرض الجبائي، فعلى أساس هاذين العنصرين كانت تتحدد الامتدادات المجالية للسلطة المخزنية. فأين يتجلى ذلك؟

إجمالاً، إذا كان مفهوم الدولة يتحدد بشكل دقيق في الفقه القانوني والسياسي الغربي ولا يثير أي غموض، فإن تحديد الدولة في الفكر العربي الإسلامي له عناصر تقليدية غير تلك المعتمدة حديثاً من طرف الفكر السياسي الغربي، تنطبق هذه الملاحظة أيضاً على مفهوم الدولة في المغرب؛ فما يحدد جوهر الدولة في المغرب، كما يلخصها مفهوم المخزن، هما عنصرَي الولاء والخضوع للسلطين. ويظهر هذا الولاء وهذا الخضوع في بعدين إثنين: الأول زمني، والثاني روعي ديني أو رمزي.

يتجلى البعد الزمني في تأدية الضرائب الشرعية والمكوس لفائدة بيت المال، فعلى أساس الخضوع الجبائي كانت القبائل زمن السلطين تتوزع بين مجالين: مجال يأوي قبائل تنصاع لأوامر المخزن السلطاني فتؤدي ما يفرضه عليها الحكام من ضرائب وإتاوات ومكوس، وغالباً ما تكون تلك القبائل تستقر في المجال الجغرافي الساحلي والمحاذي للمدن العواصم التي

تكون مقر استقرار السلاطين، نظرا لما تتميز به من سهولة تضاريسها، وكانت هذه القبائل معروفة ب"قبائل المخزن" أو "قبائل الضريبة" إن صح هذا التعبير. ومجال آخر يكون مسرحا للصراع بين القبائل والمخزن السلطاني، يتميز، عموما، بوعورة تضاريسه وقساوة مناخه، وهو ما يسهل على القبائل رفض الخضوع الجبائي للمخزن وعدم الانصياع لأوامره، لذلك كانت تسمى "ببلاد السيبة"³⁸، لما تتميز به من استقلال عن الحكم المركزي، وإن كانت تخضع لسلطته الروحية والدينية.

ويتمثل البعد الروحي الديني أو الرمزي في الخضوع للنفوذ الديني للسلطان وهو العنصر المشترك بين جميع القبائل المغربية، مما يضفي عليه أهمية بالغة جدا في علاقته بتحديد المجال الترابي للدولة المغربية. وتظهر هذه الأهمية في ضرورة التمييز بين العنصرين التاليين: الاعتراف بالسلطة الدينية للسلطان من جهة، والخضوع للنفوذ الديني للسلطان من جهة ثانية.

فمجرد الاعتراف بالسلطة الدينية للسلطان كأمر للمؤمنين. يبين مدى شساعة النفوذ الروحي للسلطان كما يحدد الإشعاع الديني لهذا الأخير كأمر للمؤمنين، إذ قد يمتد هذا الاعتراف وبالتالي هذا الإشعاع إلى قبائل وشعوب غير مغربية بالأساس، وهو ما يشترك فيه السلطان مع الزوايا، كالقبائل الإفريقية مثلا، حيث لا تصلها سلطته ولا يمتد إليها الخضوع لنفوذه حتى الديني منه.

أما الخضوع الديني للسلطان فله ميزتين اثنتين: الأولى تعكسها مقتضيات هذا الخضوع ومنها الدعاء للسلطان وتقديم البيعة له واللجوء إليه عند التنازع قصد التحكيم. والميزة الثانية تتجسد في الآثار البالغة الأهمية التي تترتب عن الخضوع الديني للسلطان، وعلى رأسها رسم معالم الحدود الحقيقية لامتداد السلطة السياسية المباشرة للحكم السلطاني، مما مفاده انمحاء التمايزات الوهمية بين بلاد السيبة وبلاد المخزن ونسبية الحدود بينهما فإذا كانت هذه الأخيرة تتنازع في تأدية الضرائب للمخزن فإنها لا تتنازع في الخضوع لنفوذه. وهناك فرق جلي بين المنازعة في الضريبة بل وحتى رفض أدائها، وبين رفض النفوذ السياسي للسلطان الذي كان محل إجماع القبائل المغربية، الأمر الذي ميز حدود الدولة المغربية جغرافيا عبر

التاريخ، عكس ما كانت تدعيه الحماية من سيادة الفوضى والتسيب في مغرب القرن 19 وموظفة إياه كسلاح للغزو الاستعماري.

في الخلاصة نتبين أن العنصرين السابقين المتمثلين في الخضوع للفرض الجبائي المخزني كسلطة مادية، والخضوع للنفوذ الديني للسلطان كأمر للمؤمنين عنصران يكتسيان بالغ الأهمية من زاوية دورهما في تحديد الامتدادات المجالية للنفوذ السلطاني المغربي: فإذا كان العنصر الأول يضيق من المجال السلطاني، بحيث يحصره في حدود القبائل الخاضعة للمخزن، والتي كانت تستقر جغرافيا في المدن الساحلية قريبا من مقر عاصمة السلطان، مما يضطره في حال رغبته الاستزادة في مداخيل بيت المال وتوسيع نفوذه إلى ركوب صهوة جواده للقيام ب"الحركة" داخل نفوذ القبائل التي تنعت بالسيبية، فإن العنصر الديني على العكس يوسع المجال السلطاني، ليشمل قبائل المخزن وقبائل السيبية في بوتقة واحدة، كما يقوي من شرعية السلطان الدينية كأمر للمؤمنين.

وبالتالي فالعنصرين السابقين يكمل بعضهما البعض الآخر، وليس بينهما أي تعارض؛ فما يفقده السلطان من ضرائب وإتاوات يربحه على شكل قيم رمزية تعزز من شرعيته السياسية وتجعله رمز الوحدة الوطنية، وتوسع نفوذ مجاله السياسي، فبناء على آثار العنصرين السابقين تحدد تعامل الدولة في علاقتها مع المجال والسكان، فهي تزوج بين المركزة السياسية القوية مع المجال الخاضع للنفوذ من جهة، وبين توظيف "الحركة" والتنقل والوفود واستعمال القوة في ضبط المجال الذي كانت فيه القبائل تحظى بنوع من "اللامركزية القسرية" أو "الواقعية" الناتجة بحكم الواقع، في تدبير شؤونها المحلية، لأن المخزن كان مضطرا لذلك وليس مخيرا.

ومن بين الأمور التي تجدر الإشارة إليها والتي يستدعيها المسار التاريخي العريق للمغرب والانعراجات التي عرفها التاريخ السياسي لدولته وشعبه هي أنه لا يمكن فهم أي جانب من جوانب تاريخه هذا فهما دقيقا طالما تم ذلك بمعزل عن محيطه الجيوسياسي، أي دون نأخذ في الحسبان الجوار الأوروبي للمغرب وضغوطه عليه وعدائه له. خاصة وأن النشاط العسكري والاقتصادي الأوروبي ترك آثارا متراكمة على الحياة المغربية، ليغمر فجأة كيانه الاجتماعي

والسياسي بعد 1930، محدثا بذلك تغييرا جذريا مهما على شتى المستويات. وبالتالي فمن شأن أي تحليل ينجز بدون مراعاة هذا العنصر الحاسم أن يقود في كثير من الحالات إلى نتائج غير موضوعية³⁹.

فالدولة بمفهومها "الحديث" قامت في الأقطار العربية ومن بينها المغرب أثناء خضوعها للاستعمار الأوربي، مع الإشارة إلى أن دور الاستعمار بالنسبة للدولة المغربية أنه قام فقط بدور كاشف وليس منشيئ، بمعنى أنه لم يخلقها من عدم وإن ساهم في إرساء المؤسسات الحديثة بها. لأن السمة الأكثر ارتباطا بالدولة المغربية هو استمرارها لقرون طويلة، لم تعرف خلالها فترة انحلال كلي، بما في ذلك حتى المراحل التي خضعت فيها للاستعمار⁴⁰، مما مكّنها من التفرد بميزة خاصة تعكسها آليات وطرق حضورها داخل المجتمع وتدير شؤونه. وعندما استقلت هذه الدول ورثت بنيات الدولة الحديثة التي غرسها الاستعمار، فكان الاستقلال عبارة عن "تأميم" هذه البنيات. أما العلاقات بين الدولة والمجتمع فقد بقيت تسري في القوالب نفسها التي كانت تسري فيها سلطة دولة الاستعمار، قوالب وأجهزة مهمتها احتواء المجتمع والهيمنة عليه. وحتى المؤسسات التمثيلية التي تركتها الدول الاستعمارية لم يكن الغرض منها تمكين المجتمع من مراقبة الدولة بقدر ما تم توظيفها من قبل الدولة لمراقبة المجتمع⁴¹، وهو ما جعل الدولة تتقمص دور الدولة البوليسية.

وبعد الحصول على الاستقلال خضع مفهوم الدولة المغربية لتطور ملموس، ففي عقد السبعينات طُبعت الدراسات التي تناولت موضوع الدولة بنزوعات نظرية قوية لا أثر لها على التطورات العملية والتاريخية، ولا على المواقف العملية، بحيث كانت الدولة مجرد تكثيف لكل ما هو سياسي، كالحظة للتأمل، وتعطيل الفعل، كذات منفصلة نسبيا عن الرهانات الجارية، على عكس هذا العقد تميز عقد الثمانينات بالنظر إلى الدولة انطلاقا من التغيرات السياسية الملموسة في الاقتصاد، الإدارة، الدفاع...، ما جعل أدارها تتكيف وواقع نمط الدولة – العناية، وتم ربط نزاع طابع التقديس عن الدولة مباشرة بمسألة الخاص- العمومي، المركزي- المحلي، الوطني- الدولي... بعدما أكد التطور المجتمعي أن مشكلة الدولة تصاغ

كمشكلة تندرج في قلب الرهانات التي تمثل الحيز المناسب لدراسة السلوكيات الجارية، لا كمشكلة تصاغ في قوالب نظرية خالصة⁴².

وهكذا، تقود سيرورة التطور بشكل تدريجي، إلى صياغة نموذج للتحديث وإلى إعادة تحديد دور الدولة في المجتمع بشكل يفضي إلى تأسيس نظام علاقات يقوم على المسؤولية والمساواة المتبادلة، مع التشديد أساسا على مفهوم جديد للسلطة وعلاقتها مع المجال، وهي القضية المفتاح لتغيير في الأفق يتوخى تحديد جهاز إداري محلي وجهوي ومركزي مصمم لكي يكون أداة تسمح باندماج أفضل للدولة في المجتمع مبني على احترام القانون والثقة المتبادلة. وهو ما يشكل في المجمل إكراه تدبير الدولة للمجال كموضوع مفتوح للبحث والدراسة سوف نخصص له لأهميته مقال علمي خاص.

لائحة المراجع:

¹ يمكن الرجوع في هذا الصدد إلى مفكري عصر النهضة في أوروبا كجون لوك وبودان وهوبس وغيرهم الذين خصوا مفهوم العقد الاجتماعي والسيادة وكذا الدولة بنظريات فكرية جد مهمة. كما يمكن الرجوع كذلك لفقهاء القانون الدولي وعلماء السياسة لمزيد من التفصيل في العناصر المادية والمعنوية لمفهوم الدولة.

² عبد الله ساعف، اضطرابات الدولة: حول العلاقة بين الدولة "البنوية" والدولة "المتغيرة"، في جدلية الدولة والمجتمع بالمغرب، ببيير سلامة وبرهان غليون... وآخرون، افريقيا الشرق، ط، الثانية، 1994، ص، ص، 249-250.

³ للمزيد من التفاصيل حول هذه النقطة يمكن الرجوع إلى أحمد الحارثي، عناصر أولية لمقاربة إشكالية الدولة، في جدلية الدولة والمجتمع بالمغرب...، مرجع سابق، ص، 85-107.

⁴ المرجع نفسه، ص، 94.

⁵ ادريس بنعلي، الدولة وإعادة الانتاج الاجتماعية بالمغرب: حالة القطاع العمومي، في جدلية الدولة والمجتمع بالمغرب، ببيير سلامة وبرهان غليون... وآخرون، افريقيا الشرق، ط، الثانية، 1994، ص، 215.

⁶ أحمد الحارثي، عناصر أولية لمقاربة إشكالية الدولة، في جدلية الدولة والمجتمع بالمغرب...، مرجع سابق، ص، 99.

⁷ المرجع نفسه، ص، 101.

⁸ إدمون عمران المليح، مفهوم الدولة في المغرب في: بول باسكون أو علم الاجتماع القروي، بول باسكون، إدمون عمران المليح... وآخرين، منتدى ابن تاشفين: المجتمع والمجال، بدون طبعة ولا تاريخ النشر، ص، 116.

⁹ ادريس بنعلي، الدولة وإعادة الانتاج الاجتماعية بالمغرب: حالة القطاع العمومي...، مرجع سابق، ص، 215.

- ¹⁰ رحمة بورقية، "الدولة والسلطة والمجتمع: دراسة في الثابت والمتحول في علاقة الدولة بالقبائل في المغرب"، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط. الأولى، فبراير 1991، ص.ص، 7-8. وكذا ص، 23.
- ¹¹ ذكرته رحمة بورقية نقلا عن زيغلر Ziegler، مرجع سابق، ص، 23.
- 12 Abdallah LAROUÏ : « Les origines sociales et culturelles du nationalisme marocain (1830-1912) », centre culturel arabe, Casablanca, 3ème édition, 2009, P.P, 65-66.
- ¹³ إدمون عمران المليح، مفهوم الدولة في المغرب، مرجع سابق، ص، 117.
- ¹⁴ ادريس بنعلي، الدولة وإعادة الإنتاج الاجتماعية بالمغرب: حالة القطاع العمومي ...، مرجع سابق، ص، 216.
- ¹⁵ Driss Benali, « Etat et reproduction sociale au Maroc : le cas du secteur public », Annuaire de l'Afrique du Nord, 1987, p. 120.
- ¹⁶ راجع عبد اللطيف أكنوش، تاريخ المؤسسات والوقائع الاجتماعية بالمغرب، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، دون سنة النشر، ص 119.
- ¹⁷Robert Montagne, Les Berbères et le Makhzen dans le sud marocain : essai sur la transformation politique des Berbères sédentaires, Paris, 1930 pp. 358-359.
- ¹⁸ عبد اللطيف أكنوش، تاريخ المؤسسات...، مرجع سابق، ص ص 119-120.
- ¹⁹ المرجع نفسه، ص 120.
- ²⁰ أحمد الحارثي، "عناصر أولية لمقاربة إشكالية الدولة"، في: جدلية الدولة والمجتمع بالمغرب...، مرجع سابق، ص، 102.
- ²¹ محمد عابد الجابري، "المغرب المعاصر: الخصوصية والهوية.. الحداثة والتنمية"، مؤسسة بنشرة للطباعة والنشر، الدار البيضاء، ط. الأولى 1988، ص ص 129-151.
- ²² المرجع السابق، ص 129.
- ²³ المرجع نفسه، ص، 101.
- ²⁴Michel Rousset, « Les Institutions Administratives Marocaines », Publisud, collection « Manuels 2000 », Paris, 1991, p 21.
- ²⁵ محمد عابد الجابري، "المغرب المعاصر..."، مرجع سابق، ص 116.
- ²⁶ هند عرب، "المخزن في الثقافة السياسية المغربية"، دفاتر وجهة نظر، العدد (4)، ط. الأولى 2004، ص 64.
- ²⁷ محمد عابد الجابري، "المغرب المعاصر: الخصوصية والهوية..."، مرجع سابق، ص 125.
- ²⁸ رحمة بورقية، "الدولة والسلطة والمجتمع..."، مرجع سابق، ص، 11.
- ²⁹Abdallah LAROUÏ : Les origines sociales et culturelles..., Op.cit, pp. 154-155.
- ³⁰ عبد الله حمودي، الشيخ والمريد: النسق الثقافي للسلطة في المجتمعات العربية الحديثة، ترجمة عبد المجيد جحفة، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط. الثالثة، 2003، ص ص 75-73.
- ³¹ ذكرته رحمة بورقية، مرجع سابق، ص، 26.

³² محمد الطوزي، الملكية والاسلام السياسي في المغرب، ترجمة محمد حاتي وخالد شكراري، مراجعة عبد الرحيم بنحادة، نشر الفنك، مارس 2001، ص 69.

³³ لمزيد من التفاصيل حول هذه الثوابت المحددة في خمسة وهي بالإضافة إلى الثلاثة المشار إليها أعلاه: الطابع المحارب للدولة المغربية والطابع المقاوم للشعب المغربي، العلاقة الجدلية بين بين البادية والمدينة في عملية التغيير والمقاومة، يمكن الرجوع إلى محمد عابد الجابري، "المغرب المعاصر: الخصوصية والهوية، الحداثة والتنمية"، مؤسسة بنشرة للطباعة والنشر، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، نونبر 1988، ص 116 وما بعدها.

³⁴ جرمان عياش، "دراسات في تاريخ المغرب"، الشركة المغربية للناشرين المتحدين، الرباط، ط. الأولى، 1986، ص 8.

³⁵ علي المحمدي، "السلطة والمجتمع في المغرب، نموذج أيت باعمران"، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1989، ص، 23.

³⁶ عكاشة بحراب، "المجالات الحدودية في تاريخ المغرب"، مداخلة في ندوة دولية. تحت عنوان "الدولة والمجتمع في المغرب: تحديات العالم المعاصر"، من تنظيم مركز محمد حسن الوزاني للديمقراطية والتنمية البشرية، فاس 25-26-27 نونبر 2010، قام بجمع ونشر نصوص الندوة السادة: محمد معروف الدفالي، حسن الوزاني الشاهدي وأنطوان فلوري، ص، 70.

³⁷ Amina AOUCHAR, « L'organisation de l'espace dans la haute Moulouya depuis la fin d XIX^e siècle », In : la question régionale et les enjeux de développement au Maroc, acte de colloque organisé par l'Institut Universitaire de la Recherche Scientifique (Rabat, les 10 et 11 décembre 1999), Edition OKAD, Juillet 1999, P. 16.

³⁸ تجدر الإشارة إلى ضرورة التمييز بين "القبائل الراضية لأداء الضريبة" وبين القبائل المعفاة من هذا الواجب الجبائي، فإن كانت تشترك في عدم أداء الضريبة، فإنهما يختلفان فيما بينهما جوهريا؛ ومناطق التميز بينهما هو أن القبائل المعفاة مصدره قرار أو ظهور سلطاني (قبائل النايبة مثلا) ولكنها تبقى خاضعة تماما لسلطة المخزن، بل إن سبب إعفائها هو هذا الخضوع التام، بينما "قبائل السيبة" يكون مصدر عدم أداؤها للضرائب هي إرادتها المنفردة النابعة من عدم الانصياع للقرار السلطاني وأوامره، على هذا المستوى فقط، بيد أنها تقبل بسلطته الروحية.

³⁹ جرمان عياش، دراسات في تاريخ المغرب...، مرجع سابق.

⁴⁰ SAAF Abdallah, Maroc : « l'espérance d'Etat moderne », édition Afrique orient ; Casablanca, 1999, p. 47.

⁴¹ محمد عابد الجابري، "الديمقراطية وحقوق الإنسان"، كتاب في جريدة، من إصدار منظمة اليونسكو سنة 1996، العدد 95، 05 يوليوز 2006

⁴² عبد الله ساعف، "اضطرابات الدولة: حول العلاقة بين الدولة "البنوية" والدولة "المتغيرة"..."، مرجع سابق، ص، 250.

الكاتب: د/ نور الدين مسعودي
جامعة المديّة – الجزائر-
عنوان المقال: القبائل الهلالية ضمن
المشاريع السياسية للدولة الحمادية
(405-547هـ/1014-1152م)

البريد الإلكتروني: messaoudinour68@gmail.com

تاريخ الإرسال: 03/03/2020 تاريخ القبول: 16/03/2020 تاريخ النشر: 2020/03/31

القبائل الهلالية ضمن المشاريع السياسية للدولة الحمادية

(405-547هـ/1014-1152م)

Hilalian tribes are among the political projects of The Hammadi state

405-547/1014-1152)

الملخص بالعربية: يتضمن هذا البحث دراسة حول انخراط القبائل الهلالية ضمن المشاريع السياسية للدولة الحمادية، وذلك بتجنيدهم في صفوف الجيش الحمادي، للاستفادة من قدراتهم القتالية كي تكون سندا لهم لتحقيق مشاريعهم التوسعية لبط نفوذهم على بلاد المغرب، وللوقوف على هذه المعطيات قمنا باستقراء مختلف المصادر التي تطرقت للموضوع ومقارنتها.

كلمات مفتاحية: القبائل الهلالية، بلاد المغرب، بني حماد، الزيريين.

This research includes a study on the implication of the Hilalian tribes in **Abstract** : the political projects of The Hammadi state, that it is a question of recruiting them in the ranks of the army of Hammadi, and of profiting from their capacities of combat to support them in the realization of their expansionist projects in order to extend their influence on the Maghreb countries. Subject and compare them.

Key Words: the Hilalian tribes, the Maghreb countries, bani Hammad, the Zirids

تعتبر الهجرة الهلالية التي شهدتها بلاد المغرب خلال القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، حدثا بالغ الأهمية لما أحدثته من تغييرات سياسية واقتصادية واجتماعية في المنطقة، فبدخول قبائل بني هلال¹ إلى إفريقية انهارت سلطة الزييين²، وانقسمت إمارتهم إلى ما يشبه دويلات الطوائف ببلاد الأندلس، وتطلع الحماديون³ للتوسع على حساب بني عمومهم الزييين، في حين ظهرت دولة المرابطين، وكثفت قبيلة زناتة حملاتها على الجميع، فاستغل الهلاليون هذا الوضع لعرض خدماتهم العسكرية، فهل تمكن الحماديون من توظيفهم في صفوف جيوشهم، والاستفادة من قدراتهم القتالية لتحقيق أهدافهم السياسية؟.

أ- علاقة بني حماد بجيرانهم في ظل تحرش الهلاليين بأراضي المغرب الأوسط:

غلب الطابع العدائي على العلاقات السياسية الزيرية الحمادية. منذ انفصال حماد بن بلكين(405-419هـ/1014-1029م)⁴ عن بني عمه الزييين، حتى وإن تخللت ذلك فترات عرفت نوعا من التصالح بينهما، تبعا للظروف التي كانت تمر بها كلتا الدولتين، والتي فرضت عليهما السعي نحو إيجاد تقارب بينهما، إلا أنّ حسن العلاقات اقتصر على المصاهرات وتبادل السفارات، دون أن يرقى إلى مستوى التعاون أو التحالف لمواجهة مختلف التحديات، فبعد وفاة حماد استلم الحكم ابنه القائد(419-446هـ/1028-1054م)⁵، الذي تصفه المصادر بأنه كان «سديد الرأي، عظيم القدر»، ويصفه ابن خلدون بأنه كان جبارا، وعرف عهده استقرارا بفضل جهود والده من قبل في توطيد أركان دولته، تلك الجهود التي كان للحاكم الحمادي الجديد القائد، مساهمة كبيرة في تجسيدها، حيث يعتبر هو مهندس الصلح الذي تم بين والده حماد والمعز بن باديس، وفي أول مشكلة واجهته مع العدو التقليدي زناتة، أظهر القائد حنكته السياسية، فعندما زحف إليه أمير فاس، حمامة بن زيري بن عطية الزناتي سنة 430هـ/1039م، استعمل القائد الحيلة والدهاء وقام باستمالة بعض الزناتيين، وسرّب إليهم الأموال، فما كان من حمامة إلا مصالحته والدخول في طاعته⁶.

أما علاقته مع الزييين، فإنّ المصادر تذكر بأن القائد بقي على اتصال مع المعز بعد صلح 408هـ/1018م، حيث يقول النويري: «وبقي القائد يتردد على المعز»، ولكن ودائما حسب النويري فإن القائد كان يتحين أي فرصة للتخلص من تبعات ذلك الصلح «يضمّر الغدر وخلع

طاعة المعز والعجز يمنعه»⁷، ففي الوقت الذي كان فيه المعز يتأهب لإعلان القطيعة مع الفاطميين، خالفه القائد وأعلن عصيانه، مما جعل المعز يتحرك نحو القلعة في سنة 432هـ/1041م، التي ظل محاصراً لها مدة سنتين، ثم انتهى هذا الحصار بالتصالح بين الطرفين⁸.

وعندما استنجد المعز بالقائد لإمداده عسكرياً أثناء الزحف الهلالي، رأى الأمير الحمادي أنه من واجب التضامن العائلي أو الشعور بالخطر المشترك، أن يستجيب للنداء الزبيري، فأوفد إليه ألف فارس، رغم أنهم تخاذلوا في معركة حيدران، وبعد أن رأى ما حلّ بأبناء عمومته، أيقن القائد أنّ الدور سيكون عليه إن لم يتدارك الموقف بسرعة، فراجع طاعة الفاطميين، ووصله من المستنصر لقب شرف الدولة، الذي كان للمعز سابقاً⁹، وفي رسالته إلى صاحب اليمن يذكر المستنصر الفاطمي أنّ وفداً كان من ضمنه ابن حماد أخ صاحب القلعة، انتقل إلى قابس لمقابلة مكي الدولة الحسن بن علي بن ملهم، لتقديم فروض الولاء والطاعة، وطلب العفو من أمير المؤمنين: «وخرج إليه ابن بلكين صهره على أخته، وابن يلمو الذي هو مقدم قومه، وابن حماد الذي هو أخو صاحب قلعة كتامة مستأمنين، وبغفو أمير المؤمنين لائذين، وعلى بابه ترسلاً في مثله عن صنهاجة وافدين»¹⁰. وكان الحماديون أكبر مستفيد من الاجتياح الهلالي لإفريقية، فالمصادر تتحدث عن انتقال الكثير من أهل إفريقية بعد خرابها إلى بلاد بني حماد، مما ساهم في إعمار بلادهم وكثرة أموالهم¹¹، ويقول البكري: «فلما كان خراب القيروان انتقل إليها أكثر أهل إفريقية، وهي اليوم مقصد التجار وبها تحل الرجال من العراق والحجاز ومصر والشام وسائر بلاد المغرب، وهي اليوم مستقر مملكة صنهاجة»¹².

وعلى عكس فترة حكم القائد التي دامت سبعاً وعشرين سنة، فإن خليفته محسن (446-447هـ/1054-1055م) لم يدم حكمه إلا ثمانية أو تسعة أشهر، فقد لقي حتفه بسبب عصيانه لأوامر والده القائد الذي كان قد أوصاه بأن يحسن لأعمامه، وأن لا يغادر القلعة إلا بعد تمام ثلاث سنوات من حكمه¹³، لكنه خالف ما أمره به والده وعزم على عزل أعمامه من أعمالهم، وقتل أربعة منهم، وعندما ثار عليه عمه يوسف بن حماد بسبب ذلك، خرج محسن من القلعة لمحاربتة، وأرسل في طلب بلكين¹⁴ ابن عمه محمد بن حماد، ويفيدنا ابن خلدون برواية عن عملية توظيف للعرب الهلالية من قبل الأمير محسن، حيث أرسل رجلين من عرب بني هلال هما خليفة بن بكير وعطية الشريف، وأمرهما بقتل بلكين في طريقهما، لكن الرجلين

أخبرا بلكين بالمؤامرة وتحالفا معه وتعاهدوا جميعا على قتل محسن، ولما اكتشف هذا الأخير أمرهم فرّ إلى القلعة، إلا أنّ بلكين أدركه قبل أن يدخلها ففضى عليه واستولى على القلعة¹⁵، وبذلك يكون بلكين قد وصل إلى الحكم بمساعدة الهلاليين.

ويظهر أنّ بني حماد ساروا على نفس السياسة التي انتهجها أبناء عمومهم في القيروان من قبل، فعملوا على إدخال الهلالية في خدمتهم، وهكذا نرى بلكين بن محمد يخرج سنة 450هـ/1058م، ومعه جماعات من الأثيغ وعدي لحرب زناتة، وبفضلهم تمكن من كسر زناتة وقتل أعداد كثيرة منهم¹⁶. ورَدًا على التوغّل المتكرر للمرابطين¹⁷ في الجزء الغربي لحدود الدولة الحمادية، جهّز بلكين بن محمد في سنة 454هـ/1062م، جيشا لوضع حد لهذه الأطماع، وعندما سمع يوسف بن تاشفين¹⁸ بخروجه، اضطر للانسحاب إلى الصحراء، في حين دخل هو مدينة فاس¹⁹ التي تعهد له أشرفها على الالتزام بالولاء، وتقديم فروض الطاعة، وفي طريق عودته من هذه الحملة فاجأه ابن عمه الناصر بن علناس²⁰ وقتله انتقاما لأخته التي قتلها بلكين، واستولى على الحكم²¹.

وأول عمل قام به الناصر(454-481هـ/1062-1088م) بعد استيلائه على الحكم هو توزيع الأموال على الهلاليين والزناتيين الذين كانوا موالين لبلكين، وبذلك أمن غدرهم وكسبهم إلى صفه: «وأمر لحينه بخزائن بلقين فأهنيها دُوبان العربِ وصُقُورَة زناتة، فاستخلص بذلك غيوبهم، وأمّال إليه قلوبهم»، ولتأمين دولته عهد بالقسم الغربي من مملكته إلى أخيه كُتاب وكانت إقامته في مليانة، وعين أخاه رومان على ولاية حمزة، وأسند ولاية نقاوس إلى أخيه خزر، وولاية قسنطينة إلى أخيه بلبار، وعلى الجزائر ومرسى الدجاج لابنه عبد الله، وعلى أشير لابنه يوسف. وعلى إثر انتهائه من الإصلاحات الداخلية لدولته، وجّه الناصر حملة عسكرية إلى بسكرة قادها وزيره خلف بن أبي حيدرة، وكان يحكمها بنو جعفر، وعندما أقدم بلكين على قتل مقدّمها جعفر بن أبي رُمان، قاموا بخلع طاعة بني حماد، فتمكن خلف من إخضاعها، وقام بترحيل بني جعفر وعددا من أعيان المدينة إلى القلعة، فقتلهم الناصر وصلبهم، وبوشاية من قادة صنهاجة قام الناصر بقتل وزيره خلف بن أبي حيدرة، وولّى مكانه أبا بكر بن أبي الفتوح المعروف باسم أحمد بن جعفر بن أفلح، وأثناء قيامه بحملة تفقدية بالمغرب، استولى علي بن ركان بمعونة إخوانه من عجيسة على تاقربوست، فرجع الناصر من المسيلة، ونازلهم واسترد منهم تاقربوست، وذبح علي بن ركان بيده. وعلى صعيد العلاقات الزيرية الحمادية في

عهد الأميرين الجديدين تميم والناصر، اللذين ارتقيا إلى سدة الحكم في عام واحد وهو سنة 454هـ/1062م، فكانت العلاقة بينهما سيئة للغاية بسبب تدخل الناصر في شؤون إفريقية عن طريق المتمردين على السلطة الزيرية، حيث كتب إليه حمو بن مليل البرغواطي صاحب صفاقس، بالطاعة والولاء، وبعث له هدية، كما وفد إليه أهل قسنطينة ومقدمهم يحيى بن واطاس لتقديم شواهد الإخلاص، أما تونس فلم تكتف بالدخول في طاعة الحماديين، بل وفد شيوخها على الناصر طالبين منه تعيين وال عليها، فوئى عليهم عبد الحق بن عبد العزيز بن خراسان²²، وبالتالي لم يكن مستبعدا أن تنشب حربًا بين الطرفين في أي لحظة.

ب- معركة سببية وإقرار الهلاليين على مجالات بني حماد:

لم تسعفنا المصادر المغربية بمعلومات وافية حول أول احتكاك بين تميم والناصر، ومن حالفهما، اللهم إلا ما ذكره ابن عذارى بقوله: «وفي سنة 457هـ/1065م، كُسر عسكر الناصر بن حماد، وكان قد خرج في عدد كثير من صنهاجة وزناتة وعدي والأثيج، فلقبتهم رياح وزُغبة وسُليم، فانهزم الناصر، وقُتل من أصحابه خلقٌ كثير»²³، أما ابن خلدون فيرى أنّ هذه الحرب كانت نتيجة للفتن والحروب التي وقعت بين قبيلة رياح من جهة والأثيج من الجهة المقابلة، فوفد على الناصر رجال من الأثيج يطلبون منه الدعم ضد رياح حلفاء تميم «فأجابهم ونهض إلى مظاهرتهم في جموعه من صنهاجة وزناتة»²⁴.

أما المصادر المشرقية فقد أعطتنا معلومات دقيقة حول أسباب المعركة، ومجرياتها، فابن الأثير والنويري يذكران أنّ تميم وصلته أخبار بأن: «الناصر بن علناس يقع فيه في مجلسه ويذمه، وأنه عزم على المسير ليحاصره بالمهدية، وأنه حالف بعض صنهاجة وزناتة وبني هلال، ليعينوه على حصار المهدية». ودائما حسب الرواية المشرقية التي تذكر أنّ تميم عندما تأكد من صحّة المعلومات الواردة إليه، لجأ إلى الحيلة والدهاء، وذلك بإثارة حلفائه وأصحابه الرياحيين ضدّ الناصر بن علناس، فاستدعى أمراء بني رياح، وقال لهم: «أنتم تعلمون أنّ المهدية حصن منيع أكثره في البحر، لا يقاتل منه في البر غير أربعة أبراج يحميها أربعون رجلا، وإنما جمع الناصر هذه العساكر إليكم»²⁵، فانطلت عليهم الحيلة، وطلبوا منه المساعدة، فأمر لهم بعشرة آلاف دينار، لكل أمير منهم ألف دينار، وألف درع، وألف رمح، وألف سيف هندي، ومن جهتهم لجأ قادة بني رياح إلى نفس الأسلوب الذي استعمله معهم تميم، حيث أرسلوا شيخين

إلى حلفاء الناصر من العرب الهلالية يلومونهم على مساعدتهم له، ويخوّفونهم منه، ومما قالوا لهم: «كيف وقعتم في هذا الأمر وأردتم تلاف ملككم؟ هذا الناصر قد سمعتم غدر جده حماد لباديس، وغدر بنيه بعضهم بعضاً، وقد اتفق مع زناتة، فإذا وطئ بلدنا بصنهاجة وزناتة قاصدا تميم بن المعز- وتميم في حصن منيع بالمهدية لا يقدر عليه- فعندها يملك بلاد إفريقية ويخرجنا وإياكم عنها»، فافتنع قادة بني هلال بكلام الشيخين، وقالوا لهما: «والله لقد صدقتم. فإذا التقينا فقاتلونا فإننا نهزم ونرجع عليهم. فإذا ملكنا رقايعهم كان لنا من الغنيمة الثلث ولكم الثلثان»²⁶، ويبدو أنّ تميم قد عقد اتفاقاً مماثلاً مع المعز بن زيري بن عطية الزناتي، أو أنّ هذا الأخير جمعته المصلحة مع رباح²⁷. حيث أرسل إلى من مع الناصر من زناتة فوعده بأن يهزموا²⁸. وبهذا الشكل صارت المعركة محسومة لحلفاء تميم الذين شرعوا في حشد قواتهم انتظاراً للموقعة الحاسمة، فاحتوى معسكرهم قبائل رباح وزغبة وسُلَيم، بينما في الجهة المقابلة احتوى معسكر الناصر إلى جانب قواته النظامية المتكونة من العبيد، وصنهاجة، وزناتة، قبائل عُدي والأثيخ، وكانت المواجهة قرب قرية سببية²⁹، القريبة من الأربس³⁰، في عام 457هـ/1065م³¹.

كانت المعركة سريعة وحاسمة، ودارت كما خطط لها تميم، فحسب الخطة المرسومة حمل بنو رباح على الأثيخ وعدي، وحملت زناتة، بقيادة المعز بن زيري على أبناء قبيلته المتحالفين مع الناصر، فانهمزت الطائفتان المتحالفتان مع الناصر كما وقع الاتفاق، وتبعتهن في الهزيمة عساكر الناصر، وأسفرت المعركة عن خسائر فادحة في معسكر الحماديين. حيث بلغ عدد القتلى أربعة وعشرون ألفاً، ولم ينج الناصر إلا بأعجوبة صحبة عشرة فرسان حسب النويري، ومائتين حسب ابن خلدون³²، بينما قُتل أخوه القاسم بن علناس الذي ضحّى بنفسه في سبيل مملكة أخيه، وفي ذلك يذكر صاحب الاستبصار أنّ أخاه هذا نهأ عن قتال العرب، وقال له: «أقم أنت ببلادك وابعث إليهم وصانعهم يأتوك خاضعين وفي جبانك طامعين، فهذا من خلق العرب قديماً فلا تلقاهم»، ويُستشف من هذه الرواية مدى سعي الناصر لاصطناع الهلاليين وإحاقهم بخدمته كجنود، ويضيف نفس المصدر أنه بعد تأكد القاسم بن علناس من الهزيمة، قال لأخيه الناصر: «أعطني تاجك والراية أقم على الجيش، وانج بنفسك، فإن كانت السلامة فمن الله، وإلا بقيت أنت للناس، فليس منك الخلف»³³.

ويصف لنا ابن خلدون ما نتج عن هذه المعركة، بقوله: «واستباحث العرب وزناتة خزائن الناصر ومضاربه. وقُتِل أخوه القاسم ونجا إلى قسنطينة ورياح في اتباعه»³⁴، وبعد استيلائهم على جميع ما كان في المعسكر من مال وسلاح ودواب، أرسلوا الألوية والطبول، وخيام الناصر بدواها إلى ابن عمه تميم، فردّها وقال: «يقبح بي أن أخذ سلب ابن عبي»، وهي حركة من تميم تدل على ندمه، وشعوره بتنامي قوة الهلاليين³⁵، التي أصبحت تهدد كيان البيت الزيري بشقيه، وهو ما يرر التوجه الدبلوماسي الذي انتجته الطرفان بديلا عن الصراع والمواجهة. يتبين لنا مما سبق ذكره أنه إذا كانت معركة حيدران سنة 443هـ/1052م، سمحت للهلاليين من التوغل في أراضي إفريقية، وبعبارة أخرى إقليم بني زيري، فإنّ معركة سببية 457هـ/1065م، سمحت لهم بالانتشار في أراضي المغرب الأوسط، وإقرارهم في إقليم الحماديين.

أما عن تقدم الهلاليين نحو بلاد المغرب الأوسط وما انجرّ عنه من نتائج، فيقول ابن خلدون: «ثم لحق بالقلعة فنازلوها وخرّبوا جنباتها وأحبطوا عروشها، وعاجوا على ما هنالك من الأمصار، ثم طبنة والمسيلة فخرّبوها وأزعجوا ساكنيها»، ويضيف ابن خلدون: «وعطفوا على المنازل والقرى والضياع والمدن فتركوها قاعًا صفصفًا أقر من بلاد الجنّ وأوحش من جوف العير، وغوّروا المياه واحتطبوا الشجر وأظهروا في الأرض الفساد»، ويقول في موضع آخر: «ولما دخل الهلاليون إفريقية وغلبوا المعز وقومه عليها واقتسموا سائر أعمالها، ثم تخطوا إلى أعمال بني حمّاد فأحجروهم بالقلعة، وغلبوهم على الضواحي»³⁶. إلا أنّ ما ذكره الإدريسي عن مدن وحصون بلاد المغرب الأوسط بعد هجرة الهلاليين، يدل على حسن علاقات أهلها مع العرب، إلى درجة أنهم كانوا يشتركون في الزراعة والتجارة، فيقول عن قسنطينة: «ومدينة القسنطينة عامرة وبها أسواق وتجار وأهلها مياسير ذوو أموال وأحوال واسعة ومعاملات للعرب وتشارك في الحرث والادخار»، ويصف حصون المغرب الأوسط بقوله: «وجميع هذه الحصون أهلها مع العرب في مهادنة وربما أضّر بعضهم ببعض غير أنّ أيدي الأجناد فيها مقبوضة وأيدي العرب مطلقة في الإضرار وموجب ذلك أن العرب لها دية مقتولها وليس عليها دية فيمن تقتل»³⁷.

وتجسيدا لرغبة الطرفين في الصلح، كلّف الناصر وزيره أبي بكر بن أبي الفتوح للوساطة بينه وبين تميم، وكان هذا الوزير محبا لدولة تميم، وكان يشير على الناصر بأن لا يحارب ابن عمه، وأن يتفقا على العرب كي يسهل عليهما إخراجهم، ومباشرة بعد تلقيه أوامر الناصر

بالسعي لإصلاح ذات البين، أوفد الوزير رسولا إلى المهديّة، يعتذر ويعرض الصلح، فوافق تميم وأرسل من جهته رسولا إلى الناصر يدعى محمد بن الببيع³⁸. غير أنّ السفير الزيري، سمح لنفسه بتجاوز مهمته عندما أشار على الأمير الحمادي، ببناء مدينة بجاية³⁹، واتخاذها مقرا جديدا للدولة، نظرا لقرب موضعها من إفريقية، وهو ما يُسهّل رغبة الناصر في الاستيلاء على المهديّة، إلا أنّ الأمير تميم اكتشف خيوط هذه المؤامرة، وبمجرد عودة السفير محمد بن الببيع من القلعة، أقدم على قتله⁴⁰، وهذه الحادثة كان لها أثر كبير على العلاقات الزيرية الحمادية، التي ظلّت متوترة إلى غاية سنة 470هـ/1078م، وهو تاريخ عقد الصلح بين الدولتين⁴¹.

ونتيجة لضغط الهلالية المستمر على بلاد الناصر بن علناس، بعد أن «ملكوا علمهم الضواحي، يتحيفون جوانهم ويقعدون لهم بالمرصاد، ويأخذون لهم الأتاوة على التصرف في أوطانهم»⁴²، وما نشأ عن ذلك من فوضى، حيث انقطعت الصلة بين المدن بسبب انتشار ظاهرة قطع السبيل، واضطر الفلاحون إلى الفرار من الضواحي، فوقفت التجارة والفلاحة، وانحصرت العمارة والأمن في السواحل⁴³، ويقول صاحب الاستبصار: «فلما نجا المنصور⁴⁴ إلى القلعة، نزلت عليه جيوش العرب وضيّقوا عليه ببلاده، فكان يصانهم حتى ضاق ذرعاً بهم، وكان لا يقدر على التصرف في بلاده، فطلب موضعا يبني فيه مدينة ولا يلحقه فيها العرب، فدلّ على موضع بجاية». وفي سنة 460هـ/1068م، افتتح الناصر جبل بجاية، واختط به المدينة، وسمّاها الناصرية باسمه، ولكن غلب على المدينة اسم القبيلة التي كانت تقيم بها وهو بجاية، وبعدما عمّر الناصر عاصمته الجديدة، نقل إليها ذخائره واستقر بها سنة 461هـ/1069م، ونقل إليها الناس وأعفاهم من الخراج، وشهدت المدينة في عهده ازدهارا كبيرا، فقد بنى بها قصر اللؤلؤة، وأنشأ بها دارا لصناعة المراكب، واستفحل ملك الحماديين، وبلغت دولتهم من القوة ما جعلها تتفوق على دولة بني زيري في المهديّة حسبما ذكره ابن خلدون⁴⁵.

ج- التحالف الحمادي الهلالي:

لم تكن هزيمة سببية الناصر بن علناس (454-481هـ/1062-1088م) عن الاستعانة بالهلالية مرة أخرى، لتحقيق أطماعه السياسية في إفريقية، وما كان منه إلا إتباع أسلوب ابن عمه تميم مع الهلاليين، عن طريق التحالف مع بعضها ضد البعض، ورغم ما فعلته الأثيج في معركة

سببية، إلا أنّ الناصر عمّق صلته بهذه القبيلة، واختصها دون سائر العرب بالتراسة والإقطاعات⁴⁶، وصار يعتمد عليها في كل حملاته العسكرية، فيذكر ابن عذارى أن الناصر حاصر سنة 460هـ/1068م، الأريس ومعه الأثيخ وافتتحها وأمن أهلها وقتل عاملها ابن مكرز، كما حاصر بهم في السنة نفسها مدينة القيروان ودخلها، وبايعه أهلها إلا أنه لم يمكث بها خوفاً من غدر الهلاليين، فعاد إلى قلعته سنة 461هـ/1069م⁴⁷. وفيما كان الصراع محتدماً بين الصنهاجيين، كان العرب الهلالية بدورهم يتصارعون فيما بينهم بهدف الهيمنة على البلاد، ففي سنة 466هـ/1074م، وقيل 467هـ/1075م، نشبت حرب شديدة بين زغبة ورياح، وانتهت بانتصار رياح وطرد زغبة من إفريقية، فقام الرياحيون بمساومة الناصر بن علناس لشراء القيروان التي كانت حينها في حيازة زغبة، وبذلك فرض الحماديون سلطتهم على إفريقية ولو لفترة، ويصف ابن خلدون الموقف في إفريقية في تلك الآونة بقوله: «وصارت صاغية أهل إفريقية إلى بني حماد ملوك القلعة وملوك القيروان»⁴⁸.

وأما عن صراع الحماديين مع زناتة في عهد الناصر، فقد غلب الطابع العدائي بين الطرفين، ولم يأل الناصر جهداً في مقاومة زناتة، فقد قام بعدة حملات عسكرية على المغرب الأوسط⁴⁹، وذكر ابن خلدون أنّ المنتصر بن خزرون الزناتي وجد بني عدي في طرابلس عندما أخرجهم الأثيخ وزغبة من إفريقية، فقام بتجنيدهم ليتجهوا معه إلى غزو المغرب، وسار بهم حتى استقر بالمسيلة، ودخلت جحافلهم إلى أشير، ويبدو أن المنتصر لم يقو على المواجهة، فحينما خرج إليه الناصر، لاذ بالفرار إلى الصحراء، لكن بمجرد عودة الناصر إلى القلعة، استأنف المنتصر وحلفاؤه الهلاليين أعمال السلب والنهب، وأمام صعوبة إخضاعه اضطرّ الناصر إلى استعمال الحيلة والدهاء، حيث عرض على المنتصر الصلح مقابل إقطاعه ضواحي الزاب وريغة، وفي نفس الوقت أوعز إلى عامل الحماديين على بسكرة عروس بن سندي، أن يستدرج المنتصر ويقوم بقتله، وفي سنة 460هـ/1068م، وصل المنتصر إلى بسكرة فخرج إليه عروس وأشار إلى حشمة بقتل المنتصر عند انكبابه وذويه على الطعام ففعلوا، ثم أرسلت رأسه إلى الناصر فنصبه ببجاية⁵⁰. وبعث أهل الزاب⁵¹ إلى الناصر؛ أنّ الزناتيين وبني غمرت ومغراوة، تحالفوا مع الأثيخ ونهبوا بلادهم، فأرسل ابنه المنصور⁵² على رأس الجيش فخرّب ورغلان بلد المنتصر بن خزرون الواقعة جنوب بسكرة، ثم وجّه جنوده إلى ورقلة وعيّن على رأسها عاملاً، وقفل راجعاً مُحتملاً بالغنائم والسبي، وبلغه أنّ بني توجين الزناتيين، قد ظاهروا بني عدي الهلاليين

على الفساد وقطع السبيل، فبعث إليهم ابنه المنصور فقبض على أميرهم مناد بن عبد الله، وأخيه زيري وعمّهما الأغلب وحمّامة، وأحضرهم إلى الناصر فوّخهم ثم قتلهم⁵³. ولم تنحصر العلاقات الحمادية الزناتية، في الخلاف والعداء، وإنما تخللت ذلك فترات عرفت نوعاً من التصالح بينهما، حيث يذكر ابن خلدون أنّ بني ومانو⁵⁴ الذين كانت لهم الرئاسة على زنّانة، تزوج الناصر إحدى بناتهم وكانت أخرى عند ابنه المنصور. هذه الأحداث تعطينا صورة واضحة عن الفوضى التي شهدتها المغرب الأوسط في تلك الفترة، ويعود السبب على وجه الخصوص إلى تلك التحالفات التي أبرمتها بطون من قبيلة زنّانة مع الهلالية، اقتداءً بأعدائهم الصنهاجيين⁵⁵.

ولما توفي الناصر سنة 481هـ/1089م، قام بالأمر من بعده ابنه المنصور فسار وفق سياسة أبيه⁵⁶، فقد استطاع استغلال القبائل الهلالية أحسن استغلال، حيث صالحهم على أن يجعل لهم نصف غلّة البلاد من تمرها وبرّها وغير ذلك، فأقاموا على ذلك باقي أيامه وأيام ابنه العزيز، وأيام يحيى⁵⁷، واستملّ الأمير الحمادي عهده بمواجهة تمرد عمّه بلبار في قسنطينة، فوجّه إليه المنصور جيشاً بقيادة أبي يكي بن محسن بن القائد بن حماد، فقبض على بلبار ووجّهه إلى القلعة، وأقام أبو يكي واليًّا على قسنطينة بإذن من المنصور، وعهد بولاية بونة⁵⁸ إلى أخيه ويغلان، إلا أنه في سنة 487هـ/1094م، تعرّض البيت الحمادي لمحاولة انقلابية كبيرة قادها أبو يكي، حيث كلّف أخاه ويغلان بالذهاب إلى تميم في المهديّة عارضاً عليه تسليم بونة، فقبل تميم ذلك العرض، وأوفد مع ويغلان ابنه أبو الفتوح كي يستلم المدينة، ومن جهة أخرى تمكن أبو يكي وأخاه ويغلان من توظيف عدد كبير من الهلالية في صفوفهم، وتبادلوا الرسائل مع المرابطين في المغرب الأقصى، ولم يتأخر الرد الحمادي على هذه التطورات، فقد سرح المنصور عساكره إلى بونة لاسترجاعها، وبعد سبعة أشهر من الحصار، تمكن الجيش من اقتحامها، وقبضوا على أبي الفتوح بن تميم ووجّهوه إلى القلعة حيث أمر المنصور بسجنه، ثم نازلت عساكره قسنطينة، فاضطر أبو يكي للخروج والتحصن بقلعة في جبل أوراس، فتوجهت إليه العساكر واقتحموا عليه قلعته وقتلوه، أما قسنطينة فقد استولى عليها أحد رجالات قبيلة الأثيج يُدعى صُلَيْصِل بن الأحمر، فسأومه المنصور كي يتنازل له على المدينة مقابل المال، فعادت قسنطينة إلى ممتلكات المنصور من جديد⁵⁹.

أما على صعيد الصراع مع زناتة، فقد ساءت العلاقة بين المنصور وبين أصحابه من بني ومانو، بسبب تحالفهم مع المرابطين، فعندما غزا قائد الجيش المرابطي مزدي بن تبتلكان، تلمسان سنة 472هـ/1080م، تمكن من الاستيلاء عليها، لتتخذ منذ سنة 474هـ/1082م، قاعدة لجنـد المرابطين وعتادهم بالمنطقة⁶⁰، ونصّب يوسف بن تاشفين على المدينة عاملاً له يدعى محمد بن يغمر المسوفي، فأخذ هذا الأخير في الإغارة على ممتلكات الحماديين، حيث استولى على وهران⁶¹، وجبال الونشريس، وشلف⁶² وتنس⁶³، إلى أن نازل الجزائر سنة 475هـ/1083م⁶⁴، ويبدو أن هذا الغزو كان بمساعدة قبيلة بني ومانو، الأمر الذي أغضب المنصور فسوّى جيشاً إلى بني ومانو وخرّب حصون ماخوخ، وضيّق على ابن يغمر المسوفي، فاضطرّ يوسف بن تاشفين إلى التصالح معه ووضع حدّاً للغارات المرابطية على الممتلكات الحمادية، إلا أن المرابطين لم يلتزموا بهذا الصلح، فسرعان ما عادوا إلى الإغارة على بلاد المنصور، فبعث إليهم ابنه الأمير عبد الله، ولما سمع به المرابطون رجعوا إلى مراكش، في حين شنّ عبد الله غارة على قبيلة بني ومانو المتمردة، وتمكن من فرض سيطرته على المغرب الأوسط، وعاد إلى بجاية⁶⁵، وبعد وفاة ابن يغمر المسوفي خلفه على تلمسان أخوه تاشفين، فغزا أشير وافتتحها وخرّبها، وكان لقبيلة بني ومانو بقيادة ماخوخ دور في ممالأته وإمداده، فحقد عليهم المنصور وخرج لغزوههم، لكنه هُزم أمامهم، فوئى راجعاً إلى بجاية وأول ما دخل قصره قام بقتل زوجته أخت ماخوخ، انتقاماً من أخيها، وكان لا بد من مواجهة عسكرية بين الحماديين والمرابطين، نتيجة للتوتر المستمر للعلاقة بين الجانبين، بداية بالتواجد المرابطي المستمر على جزء معتبر من القسم الغربي للدولة الحمادية منذ سنة 472هـ/1080م⁶⁶، ثم توترت العلاقات أكثر حين لجأ أمراء الطوائف المخلوعين إلى المغرب الأوسط، حيث قبل المنصور استضافة ولي عهد ألمرية⁶⁷ معز الدولة بن صمادح، وأهله وبعض رعيته، الذي لجأ إليه فراراً من قوات المرابطين التي استولت على ملكه في الأندلس، فأقطعه المنصور منطقة تدلس⁶⁸ التي أقام بها حتى آخر حياته⁶⁹.

وفي سنة 496هـ/1103م، حشد المنصور قواته لغزو تلمسان، وقد اشتملت جيوشه بالإضافة إلى الصنهاجيين والزناتيين، تحالف كبير من القبائل الهلالية متمثلة في الأثيخ ورياح وزغبة وربيعة والمعل، وزحف على تلمسان على رأس عشرين ألف مقاتل، وكي يتحكم في زمام المعركة، اعتمد خطة بمقتضاها جعل جزءاً من جيشه يسبقه ليدخل في مناقشات مع جيش

المرابطين على مشارف تلمسان، على أن تباغت قواته المتبقية مؤخرة جيش ابن يغمر. ونجحت الخطة؛ حيث غادر تاشفين تلمسان متوجهاً إلى منطقة تُسَالَة المحاذية لتلمسان، فالتحم مع مقدمة الجيش الحمادي، بينما تمكن القسم الثاني من عساكر المنصور، من ضرب مؤخرة الجيش المرابطي ملحقاً به هزيمة نكراء، فأجبرت قواته على اللجوء إلى جبل الصخرة المحاذي لمدينة تلمسان، وبينما دخلت قوات المنصور إلى تلمسان لتهنئتها، خرجت إليهم زوجة تاشفين بن يغمر، وتقدمت للمنصور والتمست منه الرحمة، متوسلة له بوشائج صنهاجة بأن يطلق الأسرى، فأكبر قصدها وأكرم موصلها، وأفرج عن كل الأسرى، وأجلى جنوده من تلمسان في صبيحة نفس اليوم وولى راجعاً إلى القلعة⁷⁰.

ويبدو أن القبائل الهلالية كان دورها حاسماً في تحديد نتيجة تلك المعركة، ولئن أحجمت المصادر عن ذكر أعدادهم في صفوف الجيش الحمادي، إلا إجمالاً ضمن باقي الأصول الأخرى المكونة للجيش، حيث أحصى ابن الخطيب قوات الحماديين بأثنتي عشر محلة، أي ما يعادل أربعة وعشرين ألف مقاتل⁷¹، والمؤكد أنّ عدد الهلاليين في صفوف القوات الحمادية كان كبيراً ومؤثراً، وما الرسالة التي بعثها يوسف بن تاشفين إلى المنصور بن الناصر يؤنبه بسبب اعتماده على العناصر الهلالية إلا دليلاً لتأكيد ذلك، فردّاً على رسالة وردت إليه من المنصور الحمادي لم تنف على نصها، بدأ يوسف بن تاشفين رسالته إلى المنصور بتذكيره بوصول كتابه الذي أرسله إليه، ثم خاطبه بلهجة صريحة وقاسية، متهماً إياه بالتجني، ومعاتبا إياه بسبب تحالفه مع الهلاليين: «إلى صاحب قلعة حماد وصل كتابك الذي أنفذته من وادي منى⁷² صادراً عن الوجهة التي استظهرت عليها بأضدادك وأجحفت بطارفك وتلادك... وجدناك تتجنى وتُتربّ على من لم يستوجب التثريب... تستدعي ذؤبان العرب وصعاليكهم من مبتعد ومقرب، فتعطيهم ما في خزائنك جزافاً، وتنفق عليهم ما كنزه أوائلك إسرافاً، وتمنح أهل العشرات مئين وأهل المئين آلافاً، كلّ ذلك تعترضد بهم، وتعتمد على تعصبهم لك وتآلبهم، وتعتقد أنهم جُنّتك من المحاذير، وحماك دون المقادير...»⁷³.

وهناك تساؤل أثاره الدارسون حول عدم مواصلة المرابطين زحفهم نحو الشرق، وتفضيلهم الشمال، خصوصاً وأنّ إمارة بني حماد تراجعت قوتها، وصارت في متناول المرابطين، فهناك من يفسر ذلك بتمكن الحماديين من ردع جيوش المرابطين التي اضطرت للتراجع⁷⁴، بينما عزا البعض ذلك إلى إبقاء المرابطين على صلات القربى بينهم وبين بني حماد⁷⁵، في حين رد طرف

ثالث ذلك إلى استغاثة أمراء الأندلس بالمرابطين⁷⁶، وفي تقديرنا فإن هزيمة تلمسان، وما رآه قادة الجيش المرابطي من شراسة المقاتل الهلالي، وخشية من اجتياحهم للمغرب الأقصى، هذه الأسباب مجتمعة هي التي فرضت على المرابطين توقيف مشروعهم التوسعي في المغرب الأوسط.

وبعد وفاة المنصور سنة 498هـ/1105م، خلفه ابنه باديس⁷⁷ على العرش الحمادي، وكان كما وصفته المصادر شديد البأس، عظيم السطوة، سريع البطش، ولم يُعمر في الحكم طويلاً، فقد دامت عهده ثمانية أشهر فقط، بدأها بالتنكيل برجال حكمه، حيث أعدم على قتل عبد الكريم بن سلمان وزير أبيه المنصور، ولما غادر القلعة للاستقرار في بجاية، قتل عاملها، ثم امتدّت إساءته إلى أخيه العزيز حيث نفاه إلى جيبل بعدما عزله عن الجزائر التي كان والياً عليها في عهد والدهما المنصور، ولقي باديس حتفه قبل أن يستكمل سنة من حكمه، ويقال أنّ أمه هي التي سمّته لأنه كان يهددها ويتوعدها. وبعد وفاة باديس ولي بعده الحكم أخوه العزيز(498-515هـ/1105-1121م)، وقد استدعاه من جيبل قائد الأسطول الحمادي علي بن حمدون فتمت مبايعته، وكانت سياسته شبيهة بسياسة والده وجده الناصر، حيث عمل على التقرب من جميع جيران مملكته، فقد صالح زناتة وتزوج ابنة الزعيم الزناتي ماخوخ اقتداءً بوالده وجده⁷⁸، وتقرب من أبناء عمومته الزيريين، وتمتينا للروابط التي أصبحت قائمة بين الطرفين، تزوج الأمير الحمادي العزيز ببدر الدجى ابنة الأمير يحيى بن تميم ودخل بها سنة 509هـ/1116م، إلا أنّ هذا الصلح لم يمنع العزيز من تجهيز أسطول إلى جربة، فتمكن من إخضاعها وإدخالها في طاعته، كما نازل تونس فاضطر صاحبها أحمد الخراساني إلى الدخول في طاعته⁷⁹.

وأما على صعيد العلاقات مع المرابطين، فوفاة يوسف بن تاشفين سنة 500هـ/1107م، تسببت في اختلال أحوال الدولة المرابطية، وواجه خليفته علي بن تاشفين مشاكل كثيرة يلخصها المراكشي بقوله: «فظهرت في بلاده مناكر كثيرة، وذلك لاستيلاء أكبر المرابطين على البلاد ودعواهم الاستبداد، وانتهوا في ذلك إلى التصريح، فصار كلٌّ منهم يُصرح بأنه خير من علي أمير المسلمين وأحق بالأمر منه، واستولى النساء على الأحوال وأُسندت إليهن الأمور»⁸⁰، ونتيجة لهذه الظروف لم يعد حكام المرابطين يتطلعون إلى التوسع على حساب جيرانهم الحماديين. أما الهلاليين فإنهم بسبب غياب الأمير الحمادي عن القلعة وإقامته الدائمة في بجاية منذ تربعه

على العرش، قاموا بالإغارة على القلعة «فاكتسحوا جميع ما وجدوه بظواهرها، وعظم عيئهم»⁸¹، ولم تنجح الحامية التي تركها الحماديون في القلعة من صد عدوانهم، وعندما بلغ الخبر إلى العزيز(498-515هـ/1105-1121م)، جهّز جيشاً بإمارة ابنه يحيى(515-547هـ/1121-1152م)⁸² وقائده علي بن حمدون، وعند وصولهم إلى القلعة أمّنوا الهلاليين، وعاتبوهم على فعلهم وولّوا عائدين إلى بجاية، وفي سنة 515هـ/1122م، توفي العزيز فخلفه ابنه يحيى، وتصفه المصادر بأنه كان مستضعفاً مغلباً للنساء مولعاً بالصيد واللبو، لا ينظر في شيء من أمور مملكته، وترك أمور الدولة بيد عائلة بني حمدون⁸³، وهو أول من ضرب السكة من الأمراء الحماديين، وكتب على أحد وجهيها: «واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون»⁸⁴. وعلى الوجه الآخر: «بسم الله الرحمن الرحيم ضرب هذا الدينار بالناصرية سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة». ويبدو أنّ علاقته مع أبناء عمومته في المهديّة لم تكن على ما يرام، فقد كان يحيى يتطلع للتوسع على حساب المدن الواقعة تحت سيطرتهم أو التي يسيطر عليها العرب، فعندما شقّ عليه ابن مروان عصا الطاعة في توزر، وجّه يحيى قائده مطرف بن علي بن حمدون على رأس جيش لتأديبه، فاستولى مطرف على المدينة، وقبض على ابن مروان وأرسله إلى يحيى فسجنه في الجزائر إلى أن هلك في معتقله، وبعث مطرف ابنه إلى تونس فافتتحها ونازل المهديّة فامتنعت عليه⁸⁵.

وتذكر المصادر أنّ وفداً من عرب بني هلال وفد على يحيى بن العزيز طالبين منه مساعدة عسكرية لامتلاك المهديّة، تاركين أولادهم عنده كرهائن، وحسب ابن الأثير فإن سبب ذلك هو النفوذ المتزايد لأحد الأمراء العرب لدى الأمير الزيري الحسن بن علي، فحسده غيره من العرب⁸⁶، بينما يذكر التجاني أنّ السبب يعود لخلاف بين الحسن وبين ابن عمه يحيى بن العزيز⁸⁷، في حين يُدّعى ابن أبي دينار السبب إلى الصلح الذي أبرمه الأمير الزيري الحسن بن علي مع صاحب صقلية رجار مخافة من شره، ولشعوره بالعجز عن مواجهته عسكرياً، فلم يُرض هذا الصلح المهين أهل المهديّة، وقاموا بمكاتبة الأمير الحمادي يحيى بن العزيز وأطمعوه بتسليم المهديّة⁸⁸. فأرسل يحيى سنة 529هـ/1135م، أسطولا في البحر وجيشاً في البر قائده الفقيه مطرف بن حمدون وانظم إليه جمع كثير من عرب بني هلال، حتى نزلوا على المهديّة وحاصروها برا وبحرا، وأظهر مطرف أنه يريد استلام المدينة دون قتال، وبعد حصار دام سبعين يوماً نشب القتال بين الطرفين إلا أنّ مطرف فشل في اقتحام المهديّة لحصانتهما، وفي

تلك الأثناء وصلت نجدة بحرية من رجار صاحب صقلية، وأمام هذه التطورات اضطر الجيش الحمادي للانسحاب. وكانت نتائج هذه الحملة وخيمة على الجانب الحمادي، فمن جهة ساهمت في تعميق حدة الخلاف بين الحماديين والزيريين، كما أنها فتحت على الحماديين باب الصراع مع النورمان، ففي سنة 537هـ/1143م، بعث رجار حملة عسكرية إلى جيجل وكانت تابعة للحماديين، فأخذها عنوة وسفك دماء أهلها وسبى حريمها وأحرقها بالنار⁸⁹، واستولى سنة 539هـ/1145م، على مدينة برشك⁹⁰ الساحلية وقتل أهلها وسبى حريمها وباعهم بصقلية⁹¹.

وفي سنة 546هـ/1152م، عزم الخليفة الموحي عبد المؤمن على فتح بجاية، وكان لما أراد السير إليها، اتجه من مراكش⁹² إلى سبتة⁹³ فظن الناس أنه يريد العبور إلى الأندلس، وأوقف حركة القوافل إلى شرق المغرب، وهي خطة أراد من خلالها عبد المؤمن مباغته الحماديين، وسار من سبتة سنة 547هـ/1153م، فلم يشعر أهل بجاية إلا وهو في أعمالها⁹⁴. وكانت القبائل العربية أكثر القبائل دفاعا عن الدولة الحمادية، وظلوا يقاومون حتى بعد أن استسلم بنو حمّاد، حين خانهم وزيرهم أبو محمد ميمون بن علي بن حمدون، الذي فرّ إلى بني سُليم، فكتب إليه عبد المؤمن بالأمان، فترك العرب وبني حمّاد والتحق بعبد المؤمن، وفتح له باب بجاية عاصمة بني حمّاد⁹⁵، أما يحيى فقد فرّ إلى قسنطينة وكان بها أخوه الحسن بن العزيز، فأقام بها أياما إلى أن دخل في طاعة الموحيين، ووصل إلى الخليفة عبد المؤمن فأكرمه، ورحل معه إلى مراكش، ثم أسكنه بمدينة سلا إلى أن توفي ودُفن في مقابرها الجوفية مما يلي البحر، وبذلك انقرضت دولة بني حماد⁹⁶.

خلاصة القول أن الحماديين نجحوا في استمالة القبائل الهلالية اقتداء ببني عمومتهم الزيريين في وقت مبكر، واستطاعوا توظيفهم في مشاريعهم التوسعية على حساب الزيريين وفي حروبهم مع عدوهم التقليدي زناتة، ثم مع دولة المرابطين، كما استعانوا بهم للوصول إلى سدة الحكم، وعانى حكام بني حماد من المزاج المتقلب للهلاليين، وخصوصا قدرتهم على التكيف والتحالف مع أي جهة تدفع لهم أكثر، إلا أنّ ما يحسب للهلاليين، هو أنهم كانوا أكثر القبائل دفاعا عن الدولة الحمادية أمام الموحيين، وظلوا يقاومون حتى بعد أن استسلم بنو حمّاد.

الهوامش:

¹- الهلالية وبني هلال؛ تسمية أُطلقت على القبائل العربية التي اجتاحت بلاد المغرب الإسلامي في بداية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، وشملت لفظة الهلالية باقي القبائل العربية المتحالفة مع الهلاليين من باب إطلاق اسم الجزء على الكل، ولأنّ الرياسة حينها كانت لقبيلة بني هلال صارت القبائل المتحالفة معهم مندرجة في جملتهم، ويرى أحد الباحثين أنّ هناك عامل مساعد على استئثارهم بالشهرة يتصل بالاسم « هلال» وسهولة دورانه على الألسنة. انظر: عبد الرحمن بن خلدون: ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، مراجعة: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، 2000، ج 6، ص 23؛ وعبد الحميد يونس: الهلالية في التاريخ والأدب الشعبي، كتب عربية، ص 52؛ وحسن علي حسن: الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس «عصر المرابطين والموحدين»، ط 1، مكتبة الخانجي بمصر، 1980، ص 307.

²- الزيريين: نسبة إلى زيري بن مناد بن منقوش بن صنهاج الأصغر، من تلكاتة وهي فرع من قبيلة صنهاجة، وكان من أعظم ملوك البربر، وأول من ملك من الصنهاجيين بالمغرب الأوسط، وكانت بينه وبين الزناتيين حروباً كثيرة، وعند قيام الدولة الفاطمية كان زيري من مناصريها، ودعمهم أيام ثورة أبي يزيد الخارجي فكافأه الفاطميون بتوسيع نفوذه، واستخلاف ابنه بلكين على بلاد المغرب، وكانت نهايته على يد قبيلة زناتة. انظر: ابن خلدون: العبر، ج 6، ص 202 وما بعدها؛ وشمس الدين بن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تج: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ج 2، ص 343؛ وشهاب الدين النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، تج: عبد المجيد ترحيني، دار الكتب العلمية، بيروت، ج 24، ص 85 وما بعدها.

³- الحماديون: نسبة إلى المؤسس حماد بن بلكين(405-419هـ/1014-1029م) الذي قاد حركة انفصالية ضد بني عمه الزيريين، وقام ببناء القلعة سنة 398هـ/1008م، معلنا بذلك عن قيام كيان سياسي جديد، مخالفاً لكل ما يمت لدولة ابن أخيه باديس بصلة، فقد أظهر السّنة، وخلع طاعة العبيديين، وأعلن تبعيته لآل العباس. انظر: ابن خلدون: العبر، ج 6، ص 228؛ ولسان الدين ابن الخطيب: أعمال الأعلام فيمن بويغ قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يتعلق بذلك من الكلام، تج: سيّد كسروي حسن، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003، ج 2، ص 322.

⁴- حماد(405-419هـ/1014-1029م): هو حماد بن بلكين بن زيري بن مناد، كان نسيج وحده، وفريد دهره، وفحل قومه، درس الفقه والجدل في القيروان، وكان شجاعاً جواداً، وداهية حصيافاً، وأخباره مشهورة، وهو الذي بنى القلعة المنسوبة إليه، فاتخذ بها القصور العالية، والقصاب المنيعه، والمساجد الجامعة، والبساتين الأنيقة، ونقل إليها الناس من سائر البلاد، توفي سنة 419هـ/1029م. انظر: ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ج 2، ص 328-329؛ وابن خلدون: العبر، ج 6، ص 229.

⁵- القائد بن حماد(419-446هـ/1028-1054م): ولي الحكم بعد وفاة والده حماد سنة 419هـ/1028م، كان جباراً، سديد الرأي، عظيم القدر، خلغ دعوة العبيديين كما فعل ابن عمه المعز بن باديس، إلا أنّ ابن خلدون

- يقول أنّ القائد راجع دعوة العبيديين لما نقم عليه المعز، ولقبوه شرف الدولة، توفي سنة 446هـ/1054م، وخلفه ابنه محسن. انظر: العبر، ج6، ص229؛ وابن الخطيب: أعمال الأعلام، ج2، ص329.
- 6- ابن خلدون: العبر، ج6، ص229؛ وابن الخطيب: أعمال الأعلام، ج2، ص329.
- 7- نهاية الأرب: ج24، ص114، 122.
- 8- أبو الحسن علي بن الأثير: الكامل في التاريخ، تج: أبي الفدا عبد الله القاضي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987، ج8، ص248؛ وابن خلدون: العبر، ج6، ص229.
- 9- ابن خلدون: العبر، ج6، ص20، 229؛ ومارسيه جورج: بلاد المغرب وعلاقتها بالمشرق الإسلامي في العصور الوسطى، تر: محمود عبد الصمد هيكل، منشأة المعارف، الإسكندرية، دت، ص227.
- 10- السجلات المستنصرية: تحقيق: عبد المنعم ماجد، دار الفكر العربي، 1954، ص44.
- 11- ابن الأثير: الكامل، ج8، ص372.
- 12- أبو عبيد الله البكري: المسالك والممالك، تج: أدريان فان ليفون وأندرى فيري، الدار العربية للكتاب، 1992، ص710.
- 13- ابن الأثير: الكامل، ج8، ص317؛ وابن خلدون: العبر، ج6، ص229؛ وابن الخطيب: أعمال الأعلام، ج2، ص329.
- 14- بلكين بن محمد (447-454هـ/1055-1062م): هو بلكين بن محمد بن حماد بن بلكين بن زيري، ملك القلعة إثر تخلصه من محسن بن القائد سنة 447هـ، كان شهماً حازماً سقاًكاً للدماء، كثير الغزو، قتله ابن عمه الناصر بن علناس انتقاماً منه على قتل أخته. انظر: ابن خلدون: العبر، ج6، ص229؛ وابن الخطيب: أعمال الأعلام، ج2، ص330-331.
- 15- العبر، ج6، ص229.
- 16- ابن الأثير: الكامل، ج8، ص297؛ والنويري: نهاية الأرب، ج24، ص121.
- 17- المرابطين: نسبة للرباط الذي أسسه زعيمهم عبد الله بن ياسين (ت 451هـ/1059م) في أعالي حوض نهر السنغال، ونظراً لجهادهم وصبرهم أطلق عليهم تسمية المرابطين، ويعتبر يوسف بن تاشفين (454-500هـ/1062-1106م) أبرز وجوه هذه الحركة، فهو الذي أسس مراكزها واتخذها عاصمة للدولة، وغزا الأندلس وأخضعها لسلطته بعد معركة الزلاقة الشهيرة. انظر: ابن خلدون: العبر، ج6، ص242 وما بعدها؛ ومبارك بن محمد الميلي: تاريخ الجزائر في القديم والحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، ج2، ص281 وما بعدها.
- 18- يوسف بن تاشفين (454-500هـ/1062-1106م): أبو يعقوب يوسف بن تاشفين بن إبراهيم بن تومرت بن ورتاقت بن منصور بن مصالة بن منصور بن أمية بن وانصال اللمتوني الصنهاجي الحميري، أمير المسلمين وملك المثلثين، كان رجلاً خيراً صالحاً شجاعاً مرابطاً مجاهداً، كان زاهداً في الدنيا، لباسه الصوف وأكله الشعير ولحوم الإبل وألبانها، خُطب له في بلاد المغرب على نحو ألفي منبر، كان محباً للعلماء مكرماً للصلحاء، توفي بمراكش وعمره مائة سنة. انظر: ابن خلكان: المصدر السابق، ج7، ص112؛ وعلي بن أبي زرع: الأنييس

- المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972، ص136؛ وابن الخطيب: أعمال الأعلام، ج2، ص388، 393.
- 19- فاس: هي قطب بلاد المغرب الأقصى وقاعدته، وهي عبارة عن مدينتان بينهما نهر كبير، تسمى الأولى عدوة الأندلسيين وأُسست سنة 192هـ، وتسمى الثانية عدوة القرويين وأُسست سنة 193هـ، في عهد إدريس الثاني. انظر: أبو عبد الله الشريف الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2002، ص242؛ ومحمد بن عبد المنعم الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، تج: إحسان عباس، ط2، مكتبة لبنان، بيروت، 1984، ص434.
- 20- الناصر بن علناس(454-481هـ/1062-1088م): هو الناصر بن علناس بن حماد بن بلكين بن زيري بن مناد، وصل إلى الحكم في سنة 454هـ بعد انتقامه من بلكين بن محمد بن حماد، الذي قتل أخته، كان جريئاً على سفك الدماء، شديد الغيرة على النساء، عظم شأن آل حماد في أيامه، فبنى المباني العجيبة المؤنقة، وشيّد المدائن العظيمة. وهو الذي بنى مدينة بجاية وسماها الناصرية، وبنى بها قصر اللؤلؤة، وغزا المغرب، توفي سنة 481هـ. انظر: ابن خلدون: العبر، ج6، ص229، 232؛ وابن الخطيب: أعمال الأعلام، ج2، ص333.
- 21- أبو الحسن بن بسام علي الشنتريني: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تج: إحسان عباس، ط1، دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1979، القسم الأول، المجلد الأول، ص190؛ وابن خلدون: العبر، ج6، ص229؛ وابن الخطيب: أعمال الأعلام، ج2، ص330؛ وموسى هيصام: الجيش الجزائري في العهد الحمادي، منشورات مديرية الثقافة، المدينة، 2008، ص118.
- 22- ابن خلدون: العبر، ج6، ص217، 230؛ وروجي إدريس: نفسه، ج1، ص304.
- 23- أبو عبد الله بن عذارى المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تج: س. كولان وإيفي بروفنسال، ط3، دار الثقافة، بيروت، 1983، ج1، ص299.
- 24- ابن خلدون: العبر، ج6، ص230.
- 25- الكامل، ج8، صص372-373؛ ونهاية الأرب، ج24، ص122.
- 26- النويري: نهاية الأرب، ج24، ص123.
- 27- روجي إدريس: المرجع السابق، ج1، ص306.
- 28- ابن الأثير: الكامل، ج8، ص373؛ والنويري: ونهاية الأرب، ج24، ص123.
- 29- سَيِّبِيَّة: مدينة قديمة، من أعمال القيروان، ذات أنهار، ومياه سائحة، يسكنها العرب والبربر. انظر: الاستبصار، ص161؛ وشهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الحموي: معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1977، ج3، ص186.
- 30- الأربس: مدينة وطاء من الأرض، تقع غربي جبل زغوان، بينها وبين باجة مرحلتان، ومن الأربس إلى القيروان ثلاث مراحل، وهي مسورة ولها ريبض كبير، ولها معدن حديد وهي على مزارع الحنطة والشعير، وبأرضها يكثر الزعفران. انظر: البكري: المصدر السابق، ص706؛ والإدريسي: نزهة المشتاق، ص292.
- 31- ابن عذارى: البيان، ج1، ص299؛ ابن الأثير: الكامل، ج8، ص372؛ والنويري: نهاية الأرب، ج24، ص122.

- 32- الكامل، ج 8، ص 373؛ ونهاية الأرب: ج 24، ص 123؛ والعبر: ج 6، ص 230.
- 33- مجهول: الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق: سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1985، ص 129.
- 34- العبر: ج 6، ص 27.
- 35- ابن الأثير: الكامل، ج 8، ص 373؛ والنويري: نهاية الأرب، ج 24، ص 123-124؛ وهيصام: المرجع السابق، ص 115.
- 36- العبر: ج 6، ص 27؛ ج 7، ص 61.
- 37- نزهة المشتاق، ص 263، 265.
- 38- ابن الأثير: الكامل، ج 8، ص 373؛ والنويري: نهاية الأرب، ج 24، ص 124.
- 39- بجاية: مدينة عظيمة، تقع ما بين جبال شامخة، ويحيط بها البحر من ثلاث جهات، وهي مدينة الغرب الأوسط وقاعدة ملك بني حماد، شيدها الناصر بن علناس، وعمرت بخراب القلعة، وأهلها تجار مياسير، وبها من الصناعات والصناعات ما ليس بكثير من البلاد. انظر: الإدريسي: نزهة المشتاق، ص 260؛ والاستبصار: ص 129-130؛ والحموي: المصدر السابق، ج 1، ص 339.
- 40- ابن الأثير: الكامل، ج 8، ص 374-375؛ والنويري: نهاية الأرب، ج 24، ص 125، 126، 124.
- 41- ابن عذارى: البيان، ج 1، ص 300.
- 42- ابن خلدون: العبر: ج 6، ص 27.
- 43- الملي: المرجع السابق، ج 2، ص 185.
- 44- أطلق صاحب الاستبصار على الناصر اسم المنصور، وكما هو معروف تاريخيا الناصر هو الذي جرت في عهده معركة سيبية.
- 45- العبر: ج 6، ص 231، 232؛ والاستبصار، ص 129، 130.
- 46- ابن خلدون: العبر، ج 6، ص 27؛ وعبد الحلیم عويس: دولة بني حماد صفحة رائعة في تاريخ الجزائر، ط 2، دار الصحوة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1991، ص 134.
- 47- ابن عذارى: البيان، ج 1، ص 299؛ وابن الخطيب: أعمال الأعلام، ج 2، ص 333.
- 48- ابن الأثير: الكامل، ج 8، ص 408؛ وابن عذارى: البيان، ج 1، ص 300، وابن خلدون: العبر، ج 6، ص 217.
- 49- روجي إدريس: المرجع السابق، ج 1، ص 323.
- 50- ابن خلدون: العبر، ج 6، ص 231؛ ج 7، ص 59؛ وروجي إدريس: المرجع السابق، ج 1، ص 323.
- 51- الزاب: كورة عظيمة ونهر جزار في بلاد المغرب، بينه وبين القيروان عشرة مراحل، ويضم مدن كثيرة أهمها المسيلة ونقاوس وطبنة وبسكرة وتهودة وغيرها. انظر: الحميري: المصدر السابق، ص 281؛ والحموي: المصدر السابق، ج 3، ص 124.
- 52- المنصور(481-498هـ/1088-1105م): هو المنصور بن الناصر بن علناس، كان صغيرا عندما ارتقى إلى الحكم سنة 481هـ/1088م، خلفا لوالده الناصر؛ إذ أن أمه بلارة بنت تميم تزوجت سنة 470هـ/1077م، وقد

- وصلته كتب الملوك بالتعزية بأبيه والتهنئة بالملك، منهم يوسف بن تاشفين وجدّه لأمه تميم بن المعز، اقتضى آثار أبيه في الحزم والعزم والرئاسة، وكان جماعاً مولعاً بالبناء، وتشديد المصانع واتخاذ القصور. انظر: ابن الأثير: الكامل، ج 8، ص 455؛ وابن خلدون: العبر، ج 6، ص 232؛ وحسن حسني عبد الوهاب: شهبيرات التونسيات، المطبعة التونسية، تونس، 1934، ص 52؛ وروحي إدريس: المرجع السابق، ج 1، ص 325.
- 53- ابن خلدون: العبر، ج 6، ص 231؛ وروحي إدريس: المرجع السابق، ج 1، ص 324.
- 54- بني ومانو: إحدى قبائل زناتة، وكانت رفقة قبيلة يلومي أوفر بطون زناتة وأشدّهم شوكة، ومواطنهم جميعاً بالمغرب الأوسط، وكان الصنهاجيون يستعملونهم في حروبهم، وكانت رئاسة بني ومانو في بيت منهم يعرفون ببني ماخوخ. انظر: ابن خلدون: العبر، ج 7، ص 74-75.
- 55- ابن خلدون: العبر، ج 6، ص 233؛ وروحي إدريس: المرجع السابق، ج 1، ص 324.
- 56- ابن الأثير: الكامل، ج 8، ص 455؛ وابن خلدون: العبر، ج 6، ص 232.
- 57- عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تح: محمد سعيد العريان، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 1963، ص 294؛ وعويس: المرجع السابق، ص 146.
- 58- بونة: مدينة قديمة من بناء الأهل وفيها آثار كثيرة، تقع على نحر البحر ويطل عليها جبل زغوغ وهو كثير الفلاح، وكانت للمدينة أسواق حسنة وتجارة مقصودة، وبها معادن الحديد، ولها أقاليم وأرض واسعة تغلبت عليها القبائل العربية. انظر: الإدريسي: نزهة المشتاق، ص 291؛ والاستبصار، ص 127.
- 59- ابن خلدون: العبر، ج 6، ص 232-233؛ وروحي إدريس: المرجع السابق، ج 1، ص 326.
- 60- ابن أبي زرع: الأئيس، ص 143؛ وابن خلدون: العبر، ج 6، ص 233؛ وهيصام: المرجع السابق، ص 118.
- 61- وهران: هي مدينة على ضفة البحر بناها جماعة من الأندلسيين البحريين بالاتفاق مع قبائل البربر المجاورين لها، وعلى المدينة سور متقن من التراب، وبها أسواق وصناعات كثيرة. انظر: الإدريسي: نزهة المشتاق، ص 252؛ والاستبصار، ص 133.
- 62- شلف: مدينة قديمة فيها آثار، واليها ينسب النهر الكبير. انظر: الاستبصار: ص 171.
- 63- تنس: هي مدينة قديمة على مقربة من ضفة البحر، عليها سور حصين، وبها مسجد جامع وأسواق كثيرة، ولها نهر يسمى تامن، وهي كثيرة الزرع رخيصة الأسعار. انظر: الإدريسي: نزهة المشتاق، ص 251؛ والاستبصار، ص 133.
- 64- ابن أبي زرع: الأئيس، ص 143؛ وابن خلدون: العبر، ج 7، ص 75؛ وهيصام: المرجع السابق، ص 118.
- 65- ابن خلدون: العبر، ج 6، ص 233؛ وروحي إدريس: المرجع السابق، ج 1، ص 327.
- 66- العبر: ج 7، ص 75؛ وهيصام: المرجع السابق، ص 118.
- 67- ألمرية: مدينة محدثة بالأندلس، أمر ببنائها الأمير الناصر لدين الله عبد الرحمن بن محمد، سنة 344هـ/956م، وهي من أشهر مراسي الأندلس وأعمرها، ومن أجل أمصارها وأشهرها. انظر: الحميري: المصدر السابق، ص 537.

- 68- تدلس: هي مدينة لها سور حصين وديار ومنتزهات، تبعد عن بجاية بسبعين ميلا، وعن مرسى الدجاج بأربعة وعشرين ميلا. انظر: الإدريسي: نزهة المشتاق، ص 259.
- 69- ابن أبي زرع: الأنيس، ص 155؛ وابن خلدون: العبر، ج 6، ص 234؛ والقادري بوتشيش: تاريخ الغرب الإسلامي قراءات جديدة، ط 1، دار الطليعة، بيروت، 1994، ص 83.
- 70- ابن خلدون: العبر، ج 6، ص 234؛ وابن الخطيب: أعمال الأعلام، ج 2، ص 333؛ وروجي إدريس: المرجع السابق، ج 1، ص 330؛ ورشيد بورويبة: الدولة الحمادية، تاريخها وحضارتها، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1977، ص 77.
- 71- أعمال الأعلام، ج 2، ص 333؛ وهيصام: المرجع السابق، ص 47.
- 72- وادي منى من أحواز طنجة. انظر: ابن أبي زرع: الأنيس، ص 143.
- 73- أبو نصر بن خاقان: قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، ط 1، مكتبة المنار، الأردن، 1989، ص 310-311؛ وابن بسام: المصدر السابق، القسم الثاني، المجلد الأول، ص 257 وما بعدها.
- 74- القادري بوتشيش: المرجع السابق، ص 84؛ وعويس: المرجع السابق، ص 142.
- 75- حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين، صفحة مشرقة من تاريخ المغرب في العصور الوسطى، دار الفكر العربي، القاهرة، ص 206.
- 76- عبد الله العروي: مجمل تاريخ المغرب، ط 2، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2000، ج 2، ص 118.
- 77- باديس: هو باديس بن المنصور بن الناصر بن علناس، كان شديد البأس، عظيم السطوة، سريع البطش، هلك قبل أن يستكمل سنة من حكمه، ويقال أن أمه قتلته بالسم لأنه كان يهددها ويتوعدها. انظر: ابن خلدون: العبر، ج 6، ص 234؛ وابن الخطيب: أعمال الأعلام، ج 2، ص 334.
- 78- ابن خلدون: العبر، ج 6، ص 234؛ وابن الخطيب: أعمال الأعلام، ج 2، ص 334.
- 79- ابن عذارى: البيان، ج 1، ص 306؛ وابن خلدون: نفسه، ج 6، ص 234؛ وعويس: المرجع السابق، ص 150.
- 80- المراكشي: المعجب، ص 241؛ وعويس: المرجع السابق، ص 149.
- 81- ابن خلدون: العبر، ج 6، ص 235.
- 82- يحيى (515-547هـ/1121-1152م): هو يحيى بن العزيز بن المنصور بن الناصر بن علناس، طالت سنوات حكمه حيث بلغت اثنتان وثلاثين سنة، تصفه المصادر بأنه كان فاضلا حلما، فصيح اللسان والقلم، مليح العبارة بديع الإشارة، وكان مولعا بالصيد واللبو، وهو آخر ملوك بني حماد. انظر: ابن الأثير: الكامل، ج 9، ص 372؛ ابن خلدون: العبر، ج 6، ص 235؛ وابن الخطيب: أعمال الأعلام، ج 2، ص 334.
- 83- ابن الأثير: الكامل، ج 9، ص 372؛ ابن خلدون: نفسه، ج 6، ص 235؛ وابن الخطيب: نفسه، ج 2، ص 334.
- 84- سورة البقرة، الآية 281.
- 85- ابن خلدون: العبر، ج 6، ص 235؛ وعويس: المرجع السابق، ص 156.
- 86- الكامل، ج 9، ص 285.

- 87- عبد الله بن محمد التجاني: رحلة التجاني، تقديم: حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، تونس، 1981، ص339-340.
- 88- أبو عبد الله بن أبي دينار: المونس في أخبار إفريقية وتونس، ط1، مطبعة الدولة التونسية، تونس، 1286هـ، ص90؛ وممدوح حسين: الحروب الصليبية في شمال إفريقية وأثرها الحضاري، ط1، دار عمار للنشر، الأردن، 1998، ص206.
- 89- ابن الأثير: الكامل، ج9، ص285-286؛ والتجاني: الرحلة، ص340؛ وابن خلدون: العبر، ج6، ص215؛ وابن أبي دينار: المونس، ص90-91؛ وعويس: المرجع السابق، ص162.
- 90- برشك: مدينة صغيرة تقع على ضفة البحر، عليها سور من تراب، وتبعد عشرين ميلا عن شرشال. انظر: الإدريسي: نزهة المشتاق، ص257-258.
- 91- ابن الأثير: الكامل، ج9، ص334.
- 92- مراكش: مدينة كبيرة قديمة فيها آثار، تقع شمال أغمات، أسسها يوسف بن تاشفين سنة 470هـ، انظر: الحميري: المصدر السابق، ص540.
- 93- سبتة: مدينة قديمة سكنها الأول، فيها آثار كثيرة، ويحيط بها البحر على ثلاث جهات، وهي تقابل الجزيرة الخضراء. انظر: الحميري، نفسه، ص303.
- 94- أبو بكر علي البيهقي: أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1971، ص73؛ وابن الأثير: الكامل، ج9، ص372.
- 95- ابن عذارى: البيان (قسم الموحدين)، ص46-47؛ وابن أبي زرع: الأنيس، ص193؛ وبشير عبد الرحمن: العرب في عصر الموحدين بين الخضوع والتمرد، مجلة كلية الآداب- جامعة الرقازيق- مصر، عدد57، 2011، ص77.
- 96- التجاني: الرحلة، ص334؛ وابن عذارى: البيان (قسم الموحدين)، ص46.

قائمة المصادر والمراجع:

1- قائمة المصادر:

- ابن الأثير، أبو الحسن علي: الكامل في التاريخ، تج: أبي الفدا عبد الله القاضي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987.
- الإدريسي، أبو عبد الله الشريف: نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2002.
- ابن بسام، أبو الحسن علي الشنتريفي: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تج: إحسان عباس، ط1، دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1979.
- البكري، أبو عبيد الله: المسالك والممالك، تج: أدريان فان ليوفن وأندري فيري، الدار العربية للكتاب، 1992.
- البيهقي، أبو بكر علي: أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1971.

- الحيمري، محمد بن عبد المنعم: الروض المعطار في خير الأقطار، تح: إحسان عباس، ط2، مكتبة لبنان، بيروت، 1984.
- ابن خاقان، أبو نصر: قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، ط1، مكتبة المنار، الأردن، 1989.
- التجاني، عبد الله بن محمد: رحلة التجاني، تقديم: حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، تونس، 1981.
- ابن خلدون، عبد الرحمن: ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، مراجعة: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، 2000.
- ابن الخطيب، لسان الدين: أعمال الأعلام فيمن بوع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يتعلق بذلك من الكلام، تح: سيّد كسروي حسن، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003.
- ابن خلكان، شمس الدين: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت.
- ابن أبي دينار، أبو عبد الله: المونس في أخبار إفريقية وتونس، ط1، مطبعة الدولة التونسية، تونس، 1286هـ.
- ابن أبي زرع، علي الفاسي: الأئيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972.
- الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت: معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1977.
- ابن عذارى، أبو عبد الله المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تح: ج. س. كولان وإ. ليفي بروفنسال، ط3، دار الثقافة، بيروت، 1983.
- السجلات المستنصرية: تحقيق: عبد المنعم ماجد، دار الفكر العربي، 1954.
- مجهول: الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق: سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1985.
- المراكشي، عبد الواحد: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تح: محمد سعيد العريان، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 1963.
- النويري، شهاب الدين: نهاية الأرب في فنون الأدب، تح: عبد المجيد ترحيني، دار الكتب العلمية، بيروت.
- 2- المراجع:**
- بشير عبد الرحمن: العرب في عصر الموحدين بين الخضوع والتمرد، مجلة كلية الآداب- جامعة الزقازيق- مصر، عدد57، 2011.
- حسن حسني عبد الوهاب: شهبيرات التونسيات، المطبعة التونسية، تونس، 1934.
- القادري بوتشيش: تاريخ الغرب الإسلامي قراءات جديدة، ط1، دار الطليعة، بيروت، 1994.
- حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين، صفحة مشرقة من تاريخ المغرب في العصور الوسطى، دار الفكر العربي، القاهرة.
- حسن علي حسن: الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس «عصر المرابطين والموحدين»، ط1، مكتبة الخانجي بمصر، 1980.

- رشيد بورويبة: الدولة الحمادية، تاريخها وحضارتها، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1977.
- عبد الحميد يونس: الهلالية في التاريخ والأدب الشعبي، كتب عربية.
- عبد الحليم عويس: دولة بني حماد صفحة رائعة في تاريخ الجزائر، ط2، دار الصحوة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1991.
- عبد الله العروي: مجمل تاريخ المغرب، ط2، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2000.
- ممدوح حسين: الحروب الصليبية في شمال إفريقية وأثرها الحضاري، ط1، دار عمار للنشر، الأردن، 1998.
- مارسية جورج: بلاد المغرب وعلاقتها بالمشرق الإسلامي في العصور الوسطى، تر: محمود عبد الصمد هيكل، منشأة المعارف، الإسكندرية، د ت.
- مبارك بن محمد الميلي: تاريخ الجزائر في القديم والحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب.
- موسى هيصام: الجيش الجزائري في العهد الحمادي، منشورات مديرية الثقافة، المدية، 2008.

عنوان المقال: انحسار التشيع في إفريقيا:
بحث في الأسباب والمظاهر

الكاتب: د/ صلاح الدين العامري
المعهد العالي للحضارة الإسلامية بتونس

البريد الإلكتروني: Slaheddine.alamri17@gmail.com

تاريخ الإرسال: 18/01/2020 تاريخ القبول: 22/02/2020 تاريخ النشر: 2020/03/31

انحسار التشيع في إفريقيا: بحث في الأسباب والمظاهر

الملخص بالعربية: ندرج دراسة انحسار التشيع في إفريقيا ضمن جهود إعادة فهم التاريخ الإسلامي وتفكيك نصوصه. ويثير التعامل مع هذه النصوص مجموعة من الإشكالات المنهجية، وي طرح عددا من الأسئلة. ومن بين الإشكاليات: كيف نفهم النص التراثي اليوم؟ وما موقع الباحث المعاصر من جهود المدارس التاريخية الحديثة مثل مدرسة الحوليات الفرنسية وجهود مؤرخين مشهورين مختصين في تاريخ الأديان؟ ومن بين الأسئلة: هل نعتبر النص التراثي حقيقة مطلقة ونهائية لأحداث الماضي؟ وهل يحق للباحث المعاصر أن يعيد تقييم الموروث المنهجي في الفضاء العربي الإسلامي خاصة في تعامله مع النص التاريخي في ضوء المفهوم الجديد لفلسفة التاريخ؟

كلمات مفتاحية: التشيع، إفريقيا، التاريخ الجديد، النص التراثي.

Abstract : We include the discussion of the decline of Shiism in Ifriqi'a as part of modern efforts to understand Islamic history and break down its texts. Dealing with these texts raises a set of methodological problems, and raises a number of questions. Among the problems: How do we understand the heritage text today? What is the location of the contemporary scholar from the efforts of modern historical schools such as the French Yearbook School and the efforts of famous historians specialized in the history of religions? Among the questions: Do we consider the heritage text an absolute and final fact of the events of the past? Does the contemporary researcher have the right to re-evaluate the

methodological heritage in the Arab-Islamic space, especially in its dealings with the historical text in light of the new concept of the philosophy of history ?

تمهيد

مثلما كان ظهور التشيع في بلاد الغرب الإسلامي مفاجئاً ومُكثِّفاً وفاعلاً، كان انحساره أسرع ولافتاً للنظر. وستتركز ورقتنا على مسار هذا التحوّل في إفريقيّة تحديدًا. ورأينا من المفيد دراسة هذا الانحسار من خلال التطرّق إلى أسبابه ومظاهره. ونفترض أنّ أسباب أفول التشيع في إفريقيّة متعدّدة. وأهمها العاملان الاجتماعي والسياسي. وتتعدّد مظاهره أيضا سياسيا وفكريًا واجتماعيًا.

1. في المنهج

لا يطرح استخدام مفاهيم مثل التشيع والتاريخ والانحسار والإسلام المبكر والإسلام الرسمي والإسلام السيّ وغيرها على التحليل التاريخي مجرد مسائل على علاقة بالمنهج الذي يمكن اعتماده، بل يثير أيضا مجموعة من القضايا النظرية. ومن هذه الزاوية نرى أنّ الحديث عن انحسار التشيع في إفريقيّة يعني الاشتغال بنصوص تاريخية قديمة تبدأ من القرنين الرابع والخامس/ العاشر والحادي عشر، وربما قبل هذا التاريخ. ويثير التعامل مع هذه النصوص مجموعة من الإشكالات المنهجية، ويطرح عددا من الأسئلة. ومن بين الإشكاليات: كيف نفهم النص التراثي¹ اليوم؟ وما موقع الباحث المعاصر من جهود المدارس التاريخية الحديثة مثل مدرسة الحوليات الفرنسية وجهود مؤرخين مشهورين مختصين في تاريخ الأديان؟ ومن بين الأسئلة: هل نعتبر النصّ التراثي حقيقة مطلقة ونهائية لأحداث الماضي؟ وهل يحقّ للباحث المعاصر أن يعيد تقييم الموروث المنهجي في الفضاء العربي الإسلامي خاصة في تعامله مع النص التاريخي في ضوء المفهوم الجديد لفلسفة التاريخ²؟ وباعتبار أنّ المفهوم الكلاسيكي للتاريخ هو العناية بدراسة أحوال الإنسان في الماضي هل يمكن أن يتجرّد المؤرّخ من أفكاره ومكتسباته الإيديولوجية حين يكتب تاريخا؟ وهل أنّ المؤرّخ مثل عامل المناجم مثلما يرى المؤرّخ إيمانويل لوروي لادوري Emmanuel Le Roy Ladurie، تتمثّل وظيفته الأساسية في استخراج المعطيات إلى السطح ليشغل بها مختصّون من تخصصات معرفية أخرى مثل الأنثروبولوجيا والسوسيولوجيا والاقتصاد والمناخ وغيرها³؟

ولضبط المنهج الذي ننوي اعتماده في مقارنة النصّ التراثي عامة والنصّ التاريخي خاصة نحتاج إلى الانطلاق من مرجعيتين مهمتين في دراسة النصوص القديمة. وهما أعمال

مؤرخ الأديان مرسيا إلياد Mercia Eliad وجهود مدرسة الحوليات الفرنسية⁴. وتبني مقاربتنا المنهجية على فرضية نعدّ بموجها النصوص التراثية نماذج خطابية مُتخيلة لحقيقة الأحداث المذكورة وليس حقيقتها النهائية.

ويميّز مرسيا إلياد في هذا السياق بين صنفين من الإنسان: إنسان قديم يتحصّن ضدّ التاريخ ويتخذ منه موقفاً سلبياً بسبب خوفه من التجدد والتغيير فتكون حياته دائرة مغلقة، وإنسان حديث يضيف على وجوده معي بالعيش داخل التاريخ الحسيّ الرّمزيّ المتحوّل، ويعمل على أن يكون فاعلاً في تجديد البنى الفكرية والثقافية. ومن المهمّ أن لا يفكر الباحث في النصوص التراثية مثل الإنسان البدائي الذي تحدّث عنه مرسيا إلياد. فخصوصية هذا الإنسان أنّه لا يعرف مسلماً واعياً أو فعلاً معيّنًا دون أن يكون سلفه الأول قد قام به⁵. والمقصود في هذا السياق التمسك بالتقليد ورفض التجديد رهبة الضياع. ولا يجد الإنسان البدائي عند إلياد حرجاً في رفض الزمن الحسيّ التاريخي وهو ما يوصد أبواب التجديد والتجدد تفاعلاً مع السياق المتحوّل.

وإذا مائل الباحث المعاصر في النصوص التراثية الإنسان البدائي فهو يرفض أن يكون كائناً تاريخياً ويرفع نصوصاً بشرية إلى مرتبة المقدّس، أي إنّه يرفض أن يكون كائناً خارج الذاكرة يستثمرها ويعيد هيكلتها وفق مقتضيات السياق المتحوّل. ويسهم الباحث بإعادة في تحنيط الذاكرات الفردية والجمعية وتكليس فكره، فيكون على هامش التّاريخ وهو المطالب بالفعل فيه. فالمؤرّخ الحقيقي حسب بيغي Biguet هو الذي يبعث حياة جديدة في أحداث الحياة وليس ذاك الذي يقتلها ويحوّلها إلى مومياء مقدّسة⁶. ويتطوّر العلوم لم يعد ممكناً تزكية نَصَب الماضي وأثريّاته ذاكرة وتحويلهما إلى وثائق وحثها على التكلّم وهي الخرساء بما يحقق الانسجام والاستقرار، وهي التي تلمح صمتاً ما لا تجهر به علناً.

ويمثل ظهور مدرسة الحوليات في فرنسا منعرجاً حاسماً في فلسفة التاريخ. ويمكن التّاريخ لظهورها بصدور العدد الأول من دورية «حوليات التاريخ الاقتصادي والاجتماعي» سنة 1929. وسرعان ما استقطب هذا العدد بمحتوياته نخبة من الباحثين الفرنسيين فحوّلوا الدورية إلى مدرسة فكرية. وميّزت أدبياتها بين صنفين من التاريخ: تاريخ تقليدي تركّزت اهتمامات رواده على الأفراد والفئات العليا من المجتمع مثل الملوك والوزراء وقواد الثورات،

واهتمت بالوقائع الكبرى والمؤسسات الرسمية، وتاريخ اجتماعي يضمّ في الوقت نفسه التاريخ الاقتصادي والتاريخ الثقافي ويُسمّى «تاريخ الذهنيّات»⁷.

وفي إطار تجديد مفهوم التاريخ في أدبيات الحوليات عدّ كلود شميت Jean-Claude Schmitt التّاريخ القديم عمليةً تبريريةً للتحوّلات التي عرفتها العقيدة أو العقل لدى جماعة ما، وتنميطاً لمسار نفوذ الجهات الرّسمية في المجتمع مثل الملوك وكبار القوّاد والبورجوازين، أي هو تاريخ المركز والعناصر الفاعلة. وأكّد شميت Schmitt ضرورة تجاوز التاريخ الذي كتبه السّلالات الحاكمة والتّاريخ الدّيني الذي أشرف على تدوينه رجال الكنيسة والمجامع الدّينية. وتساءل في حيرة: "هل يمكن للمؤرّخ [ومؤرّخ الأديان خاصّة] أن يؤسّس لطموحه في كتابة تاريخ «أصيل» و«كليّ» بصورة مشروعة في المركز؟"⁸.

ومن بين أهمّ منجزات جماعة التاريخ الجديد وضع الوثيقة التاريخيّة موضع استفهام واتهام. وأسهم ميشال فوكو Miche Foucault في توسيع دائرة هذا التحوّل في كتابه حفريات المعرفة⁹. وباعتبار أنّ الوثيقة ضالّة المؤرّخين استنطقوها وطرحوا عليها أسئلة وسألوها عمّا تريد وعمّا إن كانت تقول الحقيقة فعلا، وما إذا كانت تقول الصّدق أو تزيفه؟ والهدف من هذه الأسئلة وغيرها هو إعادة بناء الماضي¹⁰. وهذا ما نحتاج إليه في دراسة النصوص التّراثيّة المتعلّقة بانتشار الحالة الشيعيّة وانحسارها في إفريقية.

وفي الإطار ذاته يؤكّد بول ريك ور Paul Ricœur، أنّ الكتابة الموصولة بالذاكرة تكون عادة متخفّفة من قيود المرّجع والإحالة لانبنائها على التخيل¹¹. ولم يعد التّاريخ في الدّراسات الحديثة بهذا المعنى يساوي سلسلة من اليقينيات الوثوقيّة، بل هو مجموعة عمليّات عقليةً عمليةً تقودها نخبة توظّف المخيالين الفردي والجمعي في اتجاه خلق نصوص موحّدة. واستنادا إلى هذا المعطى المنهجي حدّر ميشال فوكو Miche Foucault من الخطابات التّاريخيّة التي تتصنّع الموضوعيّة وتهمل حضور الأنا الكاتب بسياقاتها المتعدّدة. ونبّه إلى أهميّة الوعي بالأنا المبتوث في كلّ خطاب¹². والنتيجة أنه لا معنى للحديث عن حقائق مطلقة ونهائيّة في نصوص تعرض أحداثا تاريخيّة كان المؤرّخون طرفا فيها من أيّ موقع، أو نقلوها بوسائط على مراحل زمنيّة متباعدة.

ويحقّق توظيف المناهج الحديثة في دراسة النّصوص التّراثيّة نتائج مهمّة. ومن بينها الحدّ من سلطة النصّ على الدّارس. وهي سلطة فرضتها الضوابط الموجّهة لعملية التلقّي التي كرّستها المناهج القديمة والإيديولوجيات الثقافية التقليديّة. وإذا أقدم الباحث على هذه

الخطوة يكون قد استعاد سلطة مفقودة تمنحها إياه المناهج الحديثة. ويكتمل التحرر من سلطة الموروث المنهجي حين يُكتسب الوعي بأنّ المعاني هي الصور الحاصلة في الأذهان عن الأشياء الموجودة في لحظة تاريخية ما وليست حقائقها النهائية الثابتة¹³، وحين يعتمد الباحث التأويل القائم على قوة المنطق لا قوة الموروث في التلقي الحرّ للنصوص وتطويعها وفقاً لمكتسباته الفكرية وآلياته المنهجية ومهاراته الذهنية. ولا يعني اكتساب هذه الآليات وإحكامها في تلقّي النصوص تحصيل المعاني النهائية لها. فالباحث المعاصر غير مطالب بتحقيق هذه النتائج في منطِق المقاربات الحديثة.

إنّ القيمة المضافة للنص والمحققة للذة هي القراءة المتفاعلة مع سياقها الثقافي، والمجدّدة لآلياتها. وتقوم أساساً على التحرر من سلطة الموروث وفق شروط موضوعية تراعي الثابت والمتحوّل. ولا يعني التحرر من سلطة الموروث أنّ لذة النصّ تُطلب بالقطع مع التراث، بل هي تُدرك حين يكون التراث ممتدّاً بواسطة تجديد الآليات والمضامين. فالأسئلة القديمة ليست دائماً بلا جدوى، فجدواها تتحقّق كلّما استجابت لأسئلة تطرحها المناهج الحديثة¹⁴. والدليل أنّ الثقافات المتزعمّة لعملية البناء الحضاري الإنساني والمساهمة بفاعلية في مراكمة تقدّم البشرية، هي الثقافات التي تحيي تراثها على أساس الفهم الموضوعي وتعمل على تطوير معانيه بشكل مستمر¹⁵. فالنهضة الفكرية الأوروبية لم يكن لها أن تتحقّق لو لا أن توفّرت مناهج بحث حديثة أفقدت الكنيسة سيطرتها على السلطة السياسية والاجتماعية وجردتها من احتكار أدوات صناعة الثقافة. وإذا توفّر هذا الإطار البحثي في الثقافة العربية يصبح النص مشروعاً مفتوحاً يتميز بالحركة وعدم الثبات. ويضمن هذا الانفتاح الدلالي للنص البقاء والاستمرار، استناداً إلى أن النص مفتاح لكل من استطاع قراءته. وتكون القراءات بهذه الشروط بدايات لا تنتهي.

II. أسباب انحسار التشيع في إفريقية

إنّ المقصود بالتشيع في هذا السياق هو التشيع السياسي الذي ظهر في إفريقية تحت راية الفاطميين نسبة إلى فاطمة الزهراء ابنة نبي الإسلام (ص). ويجدر التذكير بأنّ هذه الحركة السياسية الدينية بقيادة أبي عبد الله الشيعي استثمرت الأفضية العاطفية التي هيأها داعيان استقرّاً بين منطقتي تالة والجريد في إفريقية ومنطقة سوجمار في المغرب الأوسط (بين سوماتة والرّاب الجزائرية حالياً). وقال القاضي النعمان (ت.351هـ/962م) في هذا السياق: "قدم إلى المغرب سنة خمسة وأربعين ومائة رجلان¹⁶ من المشرق قيل إنّ أبا عبد الله جعفر بن محمّد

(صلوات الله عليه) بعثما وأمرهما أن يبسطا ظاهر علم الأئمة (صلوات الله عليهم) وينشرا فضلهم"¹⁷.

وباعتبار أنّ كتاب افتتاح الدعوة¹⁸ للنعمان هو المصدر الوحيد لأخبار هذه المرحلة، فإنّ الباحث غير مخير في اعتماده لدراسة الحالة الشيعية في المرحلة الممتدة من قبل ابتداء الدعوة إلى استقرارها بين المهديّة والقاهرة. ولزيد الإحاطة بالصورة المرسومة في هذا المصدر يحتاج الباحث إلى الاستئناس بما ورد في المصادر اللاحقة بهذه المرحلة، مع الوعي بأنّ الوثيقة التاريخية لا تحمل حقائق نهائية، بل تمثّلات لها.

ومن المصادر اللاحقة بالمرحلة المدروسة الكامل في التاريخ لابن الأثير (تد630هـ/1232م). وقال في الدولة الشيعية بإفريقية: "هذه دولة اتسعت أكناف مملكتها، وطالت مدتها فإتها ملكت إفريقية هذه السنة [296هـ/909م] وانقضت دولتهم بمصر سنة سبع وستين وخمسائة"¹⁹. ومثلما يبيّن هذا الخبر وغيره فإنّ ظهور هذه الدولة المنتشعة وانقراضها حدثا بسرعة. ومن سرعة البداية والنهاية نستطيع أن نتبيّن طبيعة النظام وسياسته وأهدافه ونستجلي خصوصيات العنصر البشري وأساسا طبائع البربر ومزاجيتهم. فهم متقبّلون ومنفلتون من كلّ حصر وانضباط. وقد أسهما هذان العاملان – طبيعة النظام وطبائع البربر- بشكل فاعل في سرعة الظهور والانقراض. وسنركّز أساسا على الانحسار الذي أدّى إلى انقراض التشيع السياسي في إفريقية.

1- العامل الاجتماعي

تؤكد المصادر التاريخية²⁰ أنّ البربر الذين يمثّلون العنصر البشري الأساسي في بلاد المغرب وإفريقية يتميزون بميلهم الفطري إلى الثورة والصدام في الدّاخل والخارج، وبعدم اكتراثهم بتوحيد الصفوف والجهود لاتخاذ قرارات موحّدة في حالات الحرب والسلم. ويضاف إلى ذلك اختلاف الطبائع بين القبائل الثلاث الرئيسية. ففي حين تميل قبيلتنا كتامة وصهاجة إلى الاستقرار والتحضّر، فإنّ زناتة تميل إلى البداوة وعدم الاستقرار. وقد ولّدت هذه الاختلافات حروبا عدّة بين القبائل الثلاثة. ونظرا إلى انتشار هذا العنصر على كامل بلاد المغرب بأقسامها الثلاثة، فإنّه لم يكن من السهل على أيّ وافد أن يتمكّن ويتنفّد ويستمرّ في المنطقة دون مباركة البربر.²¹

وتذكر المصادر التراثية أنّ رسولّي جعفر الصادق (148هـ/765م) – إذا صحّت العلاقة بين الجانبين- استقرّا في مناطق النفوذ البربرية²²، وأن الدّاعية أبا عبد الله الشّيعي بدأ رحلته

إلى المغرب باقتناص برابرة شمال إفريقيا في موسم الحج وإثارتهم بعلمه وزهده وتقواه وحبّه لآل البيت، فاستجابوا لإثارته وعرضوا عليه العودة معهم، بل ألحوا عليه ونصروه إلى أن أعلن خلافة الفاطميين وأسس دولتهم²³. ومثلما كان البربر سندا للداعية الشيعي وإنجاح مساعاه فإنّ تخلفهم عن الدولة الشيعية بعد انتقالها إلى مصر عجلّ بانهيار التشيع السياسي في إفريقية ثم انحساره وانقراضه.

وقد لعبت قبيلة زناتة دورا أساسيا في انحسار التشيع في إفريقية باعتبارها اختارت الوقوف ضدّ التشيع السياسي الوافد من الشرق. وفي المقابل ساندته كتامة وصنهاجة العدوان المنافسان. وقد اعتنقت بطون زناتة المذاهب التي ظهرت في المنطقة باستثناء التشيع الإسماعيلي²⁴. وحافظت هذه القبيلة البربرية على موقعها الموالي للفاتحين الأوائل ودعمتهم بما يحتاجون إليه من مقاتلين وعتاد. وأخذت عنهم العادات والتقاليد مثل سكن الخيام وتربية الإبل وركوب الخيل والترحال وإيلاف الرحلتين، حتّى وصفت بأنّها "أشبه البربر بالعرب"²⁵. وقد بلغ التنافس الاجتماعي بين القبائل البربرية في ولاءاتها للعرب المتنافسين أن انتسبت صنهاجة إلى حمير من اليمن وانتسبت زناتة إلى بني أمية من العدنانية²⁶. وأخذت هذه الرغبة بعدا عمليّا بأن استماتت زناتة في الولاء لبني أمية رغم سقوط عرشهم في المشرق والمغرب وسيطرة التشيع السياسي على مناطق نفوذهم. والسبب في ذلك حسب ابن خلدون (ت.808هـ/1406م) أنّ مغراوة الزناتية كانت موالية للخليفة الراشدي الثالث عثمان بن عفان²⁷. ولعبت قبيلة زناتة دور الحاضنة الاجتماعية لعدد من الثورات على الفاطميين والموالين لهم. وكان دورها حاسما في مساندة المعزّ بن باديس (ت.456هـ/1064م) حين خلع الطاعة للعبيديين بعد خروجهم إلى مصر وعودته إلى الحضن العباسي السنيّ سنة 440هـ/1048م²⁸. وقال فيه عباس الدّهبي (ت.748هـ/1347م): "كان ملكا مهيبا، وسريّا شجاعا، علي الهمة محبّا للعلم، كثير البذل مدحه الشعراء، وكان مذهب الإمام أبي حنيفة قد كثر بإفريقية، فحمل أهل البلاد على مذهب مالك حسما للخلاف"²⁹.

وكان لسياسة الحيف والتسلط التي مارسها التشيع السياسي في إفريقية وحلفاؤه دور مهم في تحقّر هذه الطبقات إلى الثورات أو مساندتها والتعاطف معها. وأخذ هذا الحيف بعدين أساسيين أحدهما اقتصادي والآخر ثقافي اجتماعي. ففي المستوى الاقتصادي عانى السكّان من كثرة الضرائب التي فرضها الفاطميون بمقادير مبالغ فيها. وتذهب هذه الضرائب إمّا مكافأة

للموالين وتطوعا للمعارضين واستمالتهم، وإما لتجهيز الجيوش لقتال المناوئين وتوسيع دائرة النفوذ والسيطرة.

وذكر ألفريد بل Alfred Bel أنّ التجاوزات التي حدثت كانت باجتهاد من ولادة الفاطميين وممثلهم أكثر من كونها سياسة رسميّة متّبعة³⁰. وإن كان هذا الاستنتاج مقبولا انطلاقا مما عُرف به البربر، فإنّه لا يعبر عن كامل الحقيقة إذا اختبرناه من خلال الأهداف المعلنة من قبل الفاطميين. ويقطع النّظر عن الأمر بهذه السياسة، فقد أُلحقت ضررا واضحا بأهل إفريقية والمغرب عامّة وأدّت إلى نقص حادّ في المواد الغذائية وارتفاع ثمنها إن وُجدت³¹. وقد ولّد هذا السلوك تمللا ونقمة في قلوب العامّة وحفّزهم للوقوف في وجه الغزاة المشاركة للتخلّص من حيفهم.

وفي المستوى الثقافي الاجتماعي أبدى القائمون على التشيع السياسي شدة مغلّفة باللّين، أساسها الترهيب والترغيب، في التعامل مع المعطى الثقافي العقدي. فمهما كانت قيمة أهداف العبيديين السياسيّة، فإنّه لا يمكن استبعاد الجانب العقدي الذي تجلّى في أسماء الخلفاء ومرجعياتهم المذهبيّة وفي آليات بناء سلطتهم. وكان طبيعيا أن تُستهدف الثقافة المذهبيّة ذات الطابع السنيّ ورموزها. وقد صرّح تميم بن المعزّ الفاطمي بهذه الخلفيّة المذهبيّة في الردّ على الشعراء العباسيين قائلا [من المتقارب]:

أَلْأَقْلُ مَنْ ظَلَّ مِنْ هَاشِمٍ	وَرَامَ اللَّحَاقَ بِأَرْثَابِهَا
أَوْسَطُهَا مِثْلُ أَطْرَافِهَا	أُرْوُوسُهَا مِثْلُ أَذْنَائِهَا؟
أَعْبَاسُكُمْ كَأَنَّ سَيْفَ النَّبِيِّ	إِذَا أُبْدِتِ الْحَرْبُ عَنْ نَابِهَا
أَعْبَاسُكُمْ كَوْصِي النَّبِيِّ	وَمُعْطَى الرَّغَابِ لَطْلَافِهَا ³² .

وتحدّثت المصادر التاريخيّة عن عمليات تضييق وتصفية لحقت الفقهاء والقضاة الذين تمسكوا بمذهبيهم السنيّ. وهذا طبيعي باعتبار أنّ أهل إفريقية تشبّعوا بالمذهب وأصبح جزءا من هويتهم وصارت مدينة القيروان رمزا له³³. وقد أثبت التاريخ أنّ الجماعات المضطّدة في عقائدها تزداد تمسكا بها مهما كانت بساطتها، بل تغالي فيها غالبا. فالسّنات لم يجبر اليهود على ترك عقائدهم واضطهاد المسيحيين لم يحمّ الإمبراطورية الرومانيّة وإمبراطورها من الانصياع لتعاليم رسل المسيح واضطهاد الشيعة وإقصائهم منذ واقعة كربلاء لم يمنعهم من إقامة دول شيعيّة كبرى.

2- سياسة الفاطميين

حين اعتبرنا التشيع الفاطمي في إفريقية وبلاد المغرب الإسلامي تشيعاً سياسياً كُنّا ندرك حقيقة هذه الحركة المنطلقة من الشرق رغم خلفيتها المذهبية. فالخلاف انطلق من السقيفة سياسياً وتواصل كذلك إلى الوقت الحاضر. ولا تمثل الصراعات الفكرية القائمة بين الفقهاء إلاّ وجهاً من وجوه الصراع السياسي القبلي Tribal. فالثورات الشيعية المتواصلة منذ واقعة كربلاء سنة 61هـ/681م كان هدفها قيادة المسلمين دفاعاً عن فكرة أحقية علي بن أبي طالب وأبنائه بالإمامة³⁴.

ولم يكن ممكناً تحقيق هذا الهدف دون حوض حروب قاسية وعنيفة تكون نتيجتها نصراً أو هزيمة. وتدور الصراعات ذات الطابع العقدي وفق مبدأ الثالث المرفوع (Tiers exclu)، أي أن يصير كل طرف على صحة رأيه ولا يعير الرأي المقابل اهتماماً لأنه خاطئ في تقديره ولا إمكانيةً لرأي ثالث تعديلي في المنافسة. ونرجح أنّ التشيع السياسي الفاطمي لم يحد عن هذه القاعدة في التعامل مع منافسيه المذهبيين والسياسيين. والدليل تركيز العبيديين المفرط على تكوين جيوش قوية عدّة وعتادا ونجاحها في فرض سيطرة واسعة في أوقات وجيزة.

ولئن أدت سياسة القوة إلى تحقيق نجاحات كاسحة وسريعة وأسهمت في جعل سلطة الفاطميين من أقوى الأنظمة السياسية التي مرّت بالمنطقة، فإنّها تسبّبت في تكوين معارضات متعدّدة وولاءات مشبوهة مثل ولاء المعز بن باديس الصنهاجي. فقد انقلب هذا الزعيم النافذ على العبيديين بمجرد خروجهم إلى مصر وعاد إلى الحضن العباسي. وقد حافظت قبيلة زناتة على ولائها القديم الأمويين وعملت على إثارة الحروب ودعم التمرد على الولاة الذين عيّنهم الفاطميون قبل خروجهم إلى مصر سنة 326هـ/938م³⁵.

وكان المعزّ الفاطمي عند خروجه إلى مصر متوجّساً من الاضطرابات التي ستحدثها الجماعات الراضية لسلطتهم وسياساتهم³⁶. وتلخّص وصيته لنائبه في سردانيا هذا التخوّف. ومما جاء فيها عدم رفع الجباية على أهل البادية وعدم رفع السيف في وجه البربر- يقصد صنهاجة وكتامة- وعدم تولية إخوته. وفي المقابل طالبه بغزو زناتة بين المغربين الأوسط والأقصى. وأدى انشغال الفاطميين بمصر ورغبتهم في السيطرة على المشرق إلى تراجع نفوذهم في المغرب وظهور نزعات تمرد من قبل الولاة والقبائل. فبعد أن كان علاقتهم جيدة بالزيريين مثلاً انقلبت الصداقة عداء والولاء براءة³⁷.

وهذه طبيعة السياسة، فالصداقة فيها غير دائمة والعداوة ليست أبدية، والمصلحة أساسها والمنفعة هدفها. ولذا يميل السياسيون إلى حيث تتحقق أحلامهم. ومع ما يمكن أن يكون ارتكبه التشيع السياسي في إفريقية من عسف، فإننا نرى ضرورة تنسيب ما أوردته المصادر التراثية اللاحقة بهذه المرحلة باعتبارها كتبت التاريخ الذي أرادت وبالأسلوب الذي اختارت. وقلّما كان خطاب المنتصر عقلائيًا. وهذا ما ذهب إليه نجم الدين الهنتاتي مثلا حين دعا إلى وجوب التعامل بحذر مع المصادر المالكية التي تريد ثلب الدولة الفاطمية بأساليب منها المبالغة. وعدّ ظاهرة اضطهاد العلماء مسألة دارجة في تاريخ إفريقية وعدّد أمثلة جرت في عهد الأغالبة الذين ألحقوا بالمذهب السني³⁸.

III. مظاهر انحسار التشيع في إفريقية

لا نبالغ إذا قلنا إنّ التشيع السياسي الذي ظهر في إفريقية وبلاد المغرب كان يحمل بذور انحساره منذ المراحل الأولى لظهوره. والسبب في تقديرنا هو الخلفية التاريخية التي رافقت هذا الظهور. ويعود التاريخ البعيد لهذه الحالة إلى ما حدث في سقيفة بني ساعدة وربّما إلى ما قبلها أيضا. فمهما اختلف التقييم فلا يمكن التشكيك في حركات الاضطهاد الممنهجة ضدّ الشيعة على امتداد الثلاثة القرون الأولى. وقد وُلد هذا المعطى حركة فعل وردّ فعل بين هذه الجماعة الدينية والإسلام الرسمي الذي اتخذ من التسنن شعارا له³⁹. ونظرا إلى تشيع التونسيين بمذهب الفاتحين الذين رسموا صورة سلبية للتوار الشيعة بالتركيز على مواقفهم من الخلفاء الراشدين الثلاثة – أبو بكر وعمر وعثمان- كان من اليسير إحياء هذه الحالة في كلّ مرّة لمقاومة العبيديين⁴⁰.

وقد نتج عن هذا العامل مظاهر لانحسار التشيع في إفريقية. ففي المستوى السياسي بدأ الانحسار مع قرار المعز الفاطمي الاتجاه نحو الشرق والاستقرار بالقاهرة. ومن الطبيعي أن يبعث بعد الخلافة الرغبة في التمرد لسببين أحدهما طبع البربر الثوري وتمسكهم وميلهم إلى النظام القبلي الرافض للسلط المركزية الجامعة والآخر الثأر من تسلط الفاطميين طيلة وجودهم بإفريقية عسكريا واقتصاديا وثقافيا. وتحقق انحسار التشيع السياسي مع تمرد المعز بن باديس مثلما بيّنا سابقا.

وفي المستوى الاجتماعي تعرض المتشيعون للفاطميين للحصار والتنكيل والقتل. ومات منهم الكثير في أكثر من موقع من البلاد⁴¹. وعادت غالبية التونسيين للاعتقاد في أدبيات المذهب السني بتأثير من فقهاء القيروان. وصار من تبقى من الشيعة أقلية بين أهل إفريقية. وفي المستوى الثقافي العقدي صار المذهب السني المالكي المذهب الرسمي والأغلي في البلاد رغم وجود مذاهب أخرى مثل الحنفيّة، بل صارت المالكيّة جزءاً من هويّة التونسيين إلى اليوم. وقد جعل أحد الشعراء مذهب مالك وراثاً شرعياً لروح النبوة فقال [من الطويل]:

وَعَلَّمَ الْجَجَائِزِينَ بِالْغَرْبِ يَنْتَبِي	إلى خَيْرِهِمْ فِعْلاً وَأَطْيَبِهِمْ خُبْرًا
وَأَقْوَمِهِمْ طُرًّا لِسُنَّةِ أَحْمَدَا	وَأَعْظَمَهُمْ لَهَّ فِي دِينِهِ نَصْرًا
وَأَوْسَعِهِمْ عِلْمًا وَأَصْدَقِهِمْ نَقْيًا	وَأَوْزَعِهِمْ جَهْرًا وَأَوْزَعِهِمْ سِرًّا ⁴² .

الخاتمة

ليس من السهل الحديث في تاريخ الجماعات الدينية والجزم بما وقع لها أو عليها في التاريخ البعيد. فتاريخ هذه الجماعات مثل فكرها فإمّا يكون لها أو عليها. ولهذا السبب افتتحنا المقال بمدخل منهجي يبيّن رؤيتنا للتعامل مع النصوص التراثية. ومع ذلك يمكن القول إنّ انحسار التشيع السياسي في إفريقية أملتّه عوامل موضوعيّة منها طبيعة البربر المنفلتة وطبيعة النظام السياسي- الديني الوافد من المشرق بأفكار جديدة وخلفيات لم يعيشها أهل إفريقية. ونقصد أساساً تاريخيّة الصراع الذي انطلق من سقيفة بني ساعدة بسبب خلافة الرسول (ص). ورغم سرعة انتشار التشيع الفاطمي وتوسّعة بشكل غير مسبوق في المنطقة، فإنّ رهاناته السياسيّة التي أهملت الرؤية الثقافيّة الفكرية كانت العنصر الأبرز في انحساره واندثاره رغم بعض الآثار الفولكلوريّة الموجودة إلى اليوم بمناسبة عاشوراء.

الهوامش

1 - النصّ التاريخي هو وجه من وجوه النصّ التراثي.

2 - تسعى فلسفة التاريخ إلى إباطة اللثام عن الروابط الممتدّة بين الأحداث والوقائع. وهدفها الكشف عن المجموعات النمطيّة من المؤثّرات المتحكّمة في سير الحركة التاريخيّة. وهدفها استخلاص السنن والنواميس التي تحكمها واستخراج النتائج الممكنة من دراسة آية حالة. وتطوّر مفهوم فلسفة التاريخ في الدراسات

الحديثة في مستويين: أحدهما دراسة المناهج والطرق والأساليب المستخدمة للتحقق من الوقائع التاريخية. ويتمثل المستوى الثاني في تقديم قراءة لمسار التاريخ وتسمى الفلسفة التأملية. ينظر في هذا: - فريديريك هيغل، محاضرات في فلسفة التاريخ – العقل في التاريخ-، بيروت، دت، ط2، ج1، ص30. - خالد طحطح، الكتابة التاريخية، المغرب، دار توبقال للنشر، 2012، ط1، ص ص 14-15. 3- ينظر:

- Emmanuel Le Roy Ladurie, *Le Territoire de l'historien*, tome I, Collection Bibliothèque des Histoires, Gallimard 1973.

- François Dosse, *Renaissance de l'événement*, Presses Universitaire de France – PUF édition, Paris, 2010.

4 - - يُنظر في ذلك فصل «الحواليات» ضمن:

- Jacques Le Goff, Jacques Chartier et Jacques Revel, *dirs, La nouvelle histoire*, les encyclopédies du savoir moderne, La Bibliothèque du CEPL (Paris Retz, 1978), pp 26-33.

- غي بوردي، «مدرسة الحواليات الفرنسية»، ضمن عمل جماعي بعنوان المدارس التاريخية (1983)، ترجمة العروسي الميزوري، ضمن «المجلة التاريخية المغربية»، تونس، 1999، ع 95-96، ص ص 605-628.

5 - مرسيا إلياد، أسطورة العود الأبدي، ترجمة نهاد خياطة، دمشق، دار طلاس، 1987، ط1، ص10.

6 - François Dosse, *Renaissance de l'événement*, op, cit, p47-48.

7 - فيليب آرياس، «تاريخ الذهنيات»، ضمن كتاب التاريخ الجديد، إشراف جاك لوغوف، ترجمة وتقديم محمد الطاهر المنصوري، بيروت، المنظمة العربية للترجمة، 2007م، ط1، ص282.

8 - جون كلود شميت، «تاريخ الهامشيين»، ضمن كتاب التاريخ الجديد، ص437.

- يمكن التوسع حول المهتمش من التاريخ بالعودة إلى:

- Arnaud Fossier et Sylvain Parent, Entretien avec Jean-Claude Schmitt ;

<http://traces.revues.org/2203>.

- Michel de Certeau, *L'Absent de l'histoire*, repères, Sciences humaines et idéologie ; 4 ([Tours]: Mame [1973].

9 - Miche Foucault, *L'archéologie du savoir*, Edition Gallimard, 1969.

10 - ميشال فوكو، حفريات المعرفة، ترجمة سالم يفوت، بيروت- لبنان، الدار البيضاء – المغرب، 1987، ط2، ص8 (ترجمة للنسخة الصادرة سنة 1972 عن دار Gallimard).

11 - يعتبر المؤرخ الأمريكي هايدن وايت Hayden White القول التاريخي قولاً تخيليّاً. ويدفع هذا التمثّل إلى ضرورة الوعي بالفاصل بين ما وقع في التاريخ وما كُتِب عنه. تمكن العودة إلى هذا الطرح ضمن كتابه:

- *Metahistory, Historical Imagination In nineteenth- Century Europe*, The Johns Hopkins Press, Baltimore and London, 1973, p5.

- ويُنظر أيضا:
- Tzvetan Todorov: *Fiction et Vérités*, L'Homme 29^e Année, N° 111112/, Littérature et anthropologie (jul-dec) 1989, pp7-33.
- Paul Ricœur: *La mémoire, L'histoire, L'oubli*, Ed. seuil, 2000.
- 12 - يقول ميشال فوكو Michel Foucault: "إنّ ما نضع عليه علامة استفهام هو الفكرة القائلة إنّ التتالي مطلق والتعاقب تسلسل أولي مباشر لا ينفصم، يخضع له الخطاب بفعل قانون تناهيه، وكذلك الفكرة القائلة إنّ ليس للخطاب إلا شكل واحد ونظام تعاقب وحيد".
- *L'archéologie du savoir*, p15.
- 13 - حازم بن محمد القرطاجي: *منهاج البلغاء وسراج الأدباء*، تحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، تونس، 1966م، ص18.
- 14 - عبد الهادي عبد الرحمان: *سلطة النص*، ص25.
- 15 - عبد المجيد الشرفي: «في قراءة التراث الديني، الإتقان في علوم القرآن نموذجاً»، ضمن في قراءة النص الديني، تونس، الدار التونسية للنشر، 1990م، ط2، ص28.
- 16 - ذكر القاضي نعمان أنّ الرجلين هما أبو سفيان والحلواني ولم يذكر شيئا حولهما سوى كونهما يمانيين. افتتاح الدعوة، ص27. وعنه أخذ جلّ المؤرّخين كلّ حسب موقعه من الجماعة الشيعية.
- ينظر مثلا: فرحات الدشراوي: *الخلافة الفاطمية بالمغرب 296-365هـ/909-975م*، التاريخ السياسي والمؤسسات، نقله إلى العربية حمّادي الساحلي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1994م، ط1، ص78.
- 17 - القاضي نعمان: *كتاب افتتاح الدعوة*، ص26-27.
- 18 - تحدّث فرحات الدشراوي عن كتاب افتتاح الدعوة فقال: "لم أكد أفرغ من النظر في الكتاب في بداية سنة 1957 حتى أدركت أنّ "الافتتاح" هو أهمّ المصادر الأصلية لمعرفة أمر الفاطميين بالمغرب، وأنّه "المفتاح" لاقتحام ما كان مجهولا من تاريخهم ببلادنا، واستجلاء حقيقة دعوتهم وإبراز ما شغ من نور الحضارة في عهدهم"، مقدمة افتتاح الدعوة، ص-أ.
- وأثنى عليه محمد الطالبي في سياق حديثه عن المصادر الشيعية المتعلقة بهذه المرحلة من التاريخ الوسيط فقال: "باستثناء "الافتتاح" للقاضي نعمان، وكان تأليفا لا تُقدّر قيمته، وقد نقل عنه المؤرّخون والمؤالون"، الدولة الأغلبية، التاريخ السياسي، 184-296هـ/800-909م، تعريب المنجي الصيّادي ومراجعة حمّادي الساحلي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1415هـ/1995م، ط2، ص18.
- 19 - ابن الأثير: *الكمال في التاريخ*، نظمه أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية، دت، ج2، ص22.
- 20 - لمزيد الإحاطة بطبائع البربر تمكن العودة إلى كتاب مجهول المؤلف بعنوان: *مفاخر البربر*، دراسة وتحقيق عبد القادر بويابة، الرباط، دار أبي قراقرز للنشر، 2005، ط1.
- 21 - حسين مؤنس، «ثورات البربر في إفريقية والأندلس بين سنتي 102-136هـ/721-753م»، *مجلة كلية الآداب*، جامعة فؤاد الأول، مج1، ج1، القاهرة 1948، ص153.

- 22 - القاضي النعمان: كتاب افتتاح الدعوة، ص 27.
- 23 - م.ن، ص 27.
- 24 - يوسف إبراهيم السنوسي، زناتة والخلافة الفاطمية، القاهرة، مكتبة سعيد رأفت، 1986، ط 1، ص 95.
- 25 - م.ن، ص ص 54-55.
- 26 - م.ن، ص 54.
- يُنظر أيضا: محمد حسين الفرح، عروبة البربر، اليمن، وزارة الثقافة، 1431هـ/210م، ط 1، ص 50.
- 27 - عبد الرحمان بن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر وأخبار العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1983، ج 6، ص 311.
- 28 - محمد علي الصلابي، الدولة الفاطمية، القاهرة، اقرأ للنشر والتوزيع، 2006، ط 1، ص 95.
- 29 - عباس الذهبي، سير أعلام النبلاء، أشرف على التحقيق شعيب الأرنؤوط، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1417هـ، ط 11، ج 18، ص 140.
- 30 - ألفريد بل، الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1987م، ص 201.
- تمكن العودة أيضا إلى كتابه:
- Alfred Bel, *La religion musulmane en Berbérie : esquisse d'histoire et de sociologie religieuses* (T. Ier), Paris, P. Geuthner, 1938.
- 31 - ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 6، ص 238.
- 32 - محمد عبد الغني حسن: تميم بن المعز أمير الشعاع، الرياض، دار الرفاعي، 1980م، ص 10.
- 33 - نجم الدين الهنتاتي، المذهب المالكي بالغرب الإسلامي إلى منتصف القرن الخامس الهجري- الحادي عشر الميلادي، تونس، تبر الزمان، 2004، ص 156.
- تمكن العودة أيضا إلى: محمد الطالبي، الدولة الأغلبية، التاريخ السياسي، 184-296هـ/800-909م، تعريب المنجي الصيادي ومراجعة حمّادي الساحلي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1415هـ/1995م، ط 2، ص 729.
- 34 - تمكن العودة إلى أطروحتنا: صناعة الذاكرة في التراث الشيعي الاثني عشري: زيارة المرقد أنموذجا، الدار البيضاء- بيروت، مؤمنون بلا حدود للنشر والتوزيع، 2016، ص 317.
- 35 - محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني (مشهور بابن أبي دينار): المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، تحقيق محمد شمام، تونس، المكتبة العتيقة، 1967م، ط 2، ص 47.
- 36 - أبو علي منصور الجوزري، سيرة الأستاذ جوذروه توقيعات الأئمة الفاطميين، تحقيق محمد الكامل حسن ومحمد عبد الهادي شعيرة، القاهرة، 1954، ص 107.
- 37 - شهاب الدين النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق حسين النصار، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب، 1402هـ/1983م، ج 24، ص 184.
- 38 - نجم الدين الهنتاتي، المذهب المالكي بالغرب الإسلامي، ص 159.

39 - يقول محمد الطالبي: "حاول الحاكم الأغليي مواجهة العدو في ميدانه بالذات. وقد مرّ بنا أنّ زيادة الله الثالث اعتقد أنّ من واجبه منذ أن تولّى الحكم، العودة بالعمل بمذهب أهل السنة للحصول على تأييد العامة الذين وجّههم الفقهاء وأحاطوا بهم"، الدولة الأغليية، ص725.

40 - أبو العباس أحمد محمد بن محمد المراكشي (المعروف بابن عذارى): البيان المغرب في أخبار المغرب، تحقيق أمروس هويس مراندة وآخرين، تطوان- المغرب، دار كارما دينيس للطباعة، 1965م، ج1، ص137.

41 - يُنظر حول جهود استئصال الشيعة: علي محمد الصلابي، الدولة الفاطمية، القاهرة، مؤسسة إقرأ للنشر والتوزيع، 1427هـ/2006م، ط1، ص95.

- يقول ابن أبي الضياف في ترجمة محرز بن خلف: "ذكر أن أهل تونس لما قتلوا الروافض (الشيعة) القتلّة المعروفة - وحدّثوا أنّ شيخهم محرز بن خلف حملهم على ذلك- وُرُفعت القصّة إلى باديس بن زيري أمير إفريقية، حنق على التونسيين وعزم على القصد إليهم وقال: تكون الأرض ولا تكون تونس. فجزع أهل تونس وفزعوا إلى شيخهم محرز، وحدّثوه بما بلغهم، فأنسهم وقال لهم: بلى تكون الأرض ولا باديس": إتحاف أهل الزّمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، تحقيق رياض المرزوقي، تونس، الدار التونسية للنشر، 1989م، ج1، ص169.

42 - محمد المختار العبيدي، الحياة الأدبية بالقيروان في عهد الأغالبة، تونس، مركز الدراسات الإسلامية بالقيروان ودار سحنون للنشر والتوزيع، 1994م، ط1، ص77.

الكاتب: أ/ نبيل شريخي

المدرسة العليا للأساتذة آسيا جبّار –

قسنطينة

عنوان المقال: الحج في مجتمع المغرب
الأوسط، خلال القرنين الثامن والتاسع
الهجريين (14 و15م)، بين مشقة الرحلة،
والشوق إلى المقصد

البريد الإلكتروني: charikhin@yahoo.com

تاريخ الإرسال: 13/02/2020 تاريخ القبول: 11/03/2020 تاريخ النشر: 2020/03/31

الحج في مجتمع المغرب الأوسط، خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين
(14 و15م)، بين مشقة الرحلة، والشوق إلى المقصد

الملخص بالعربية: يعتبر الحج ركنا من أركان الإسلام الخمسة التي يسعى المسلم لأدائها، ما جعل أفراد مجتمع المغرب الأوسط على غرار جموع المسلمين يتوجهون إلى زيارة الحرمين الشريفين، ويسعون في سبيل ذلك إلى توفير ما تحتاجه هذه الرحلة من مال واستطاعة، وتحمل المشاق التي تعترضهم؛ ونحاول من خلال هذه المساهمة التعرف على قيمة الحج عند أفراد مجتمع المغرب الأوسط، خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين (14 و15م)، وكيف كان يتم الاستعداد له؟ وما هي الظروف التي ميّزت رحلة الحج؟ وما هي مختلف العلاقات التي أقامها حجيج المغرب الأوسط أثناء أدائهم لركن الحج؟
كلمات مفتاحية:

Abstract : The pilgrimage is one of the five pillars of Islam that the Muslim seeks to perform, which made the members of the community of the Middle Maghreb like the masses of Muslims go to visit the two holy mosques, and seek to do so to provide the needs of this journey of money and ability, and bear the hardships they face; This contribution is to recognize the value of pilgrimage among the members of the Middle Maghreb community during the 8th and 9th Hijri centuries (14 and 15 AD), and how was it prepared? What were the circumstances that characterized the pilgrimage? What are the different relations that Hajjij Al-Moustah established during their pilgrimage?

حرص المغاربة على أداء الحج باعتباره الركن الخامس من أركان الإسلام، كما تشوّقت نفوسهم إلى زيارة مهد الرسالة التي دخلت ديارهم، وقد عبّر عن تلك الرغبة المؤرّخ ابن سعد التلمساني(ت901هـ/1496م)، واعتبرها علامة من علامات حبّ الله تعالى، وحبّ رسول الله صلى الله عليه وسلّم⁽¹⁾، كما نلمس تلك الرغبة من سؤال أمير المؤمنين علي بن يوسف بن تاشفين(476-537هـ/1083-1143م) إلى القاضي أبي الوليد بن رشد الحفيد(ت595هـ/1198م)، عن الأفضل لأهل الأندلس، الحج أم الجهاد؟⁽²⁾

وكان خروج أفراد من أسر المغرب الأوسط إلى الحج، وتكرار بعضهم لهذه الشعيرة الدينية عدّة مرّات⁽³⁾، مع تحمّل الكثير من المشاق، ومصاعب الطريق، وتباعد المسافة، يعكس من جهته ذلك الشوق الكبير إلى البقاع المقدّسة؛ فقد حجّ ابن مرزوق الجد (ت681هـ/1282م) مرتين⁽⁴⁾، كما ذكر ابن قنفذ القسنطيني(ت810هـ/1407م) أنّ أحد أعلام مدينته، قام بالحج ثمانية عشر مرّة⁽⁵⁾، وعزم الشيخ إبراهيم التازي(ت866هـ/1462م) معاودة الحج، والإقامة في الحرمين نهائياً⁽⁶⁾، وكانت أمنية البعض أن يموت أثناء حجه، ويدفن في الحرمين⁽⁷⁾، أو ببيت المقدس⁽⁸⁾.

وزيادة عن كون الحج ركنا أساسيا من الدين؛ فقد كانت الرحلة إليه، عن طريق البر أو البحر، مناسبة اجتماعية، ومظاهرة ثقافية، وسوقا اقتصادية، وعنصرا مهماً في حركة الناس وتنقلهم⁽⁹⁾، وكان مسير الحجاج المغاربة إلى بيت الله الحرام، يتم عن طريق القوافل⁽¹⁰⁾، أو ما عرف بـ"ركب الحج"⁽¹¹⁾؛ وتتكوّن القافلة للحج من أعداد كبيرة، ويتولى أشخاص إعدادها وتشكيلها، لتكون جاهزة للانطلاق، وأخذ الاستعدادات المطلوبة لذلك، مثل التزوّد بالمرائب كالإبل والخيول، وتوفير الماء والطعام، والمواد الضرورية، كالخيام والأمتعة المختلفة⁽¹²⁾.

ويلتحق حجّاج البلد بهذه القافلة، بعد الاتفاق وتحديد مكان الاجتماع، ويسير فيها أيضا الحجّاج من خارج مناطقهم⁽¹³⁾؛ و أكد ابن مرزوق الخطيب(ت781هـ/1379م) ذلك بقوله "...سافر الركب الذي كنّا معهم من مكة إلى مصر، وكانوا من خيار أصحابنا المصريين، وأهل الإسكندرية، والمغاربة"⁽¹⁴⁾، إلا أنّ الحاج كان يحرص على التماس رفقائه في السفر⁽¹⁵⁾، والذين كان يفضل أن يكونوا من أهل بلده، أو من المغاربة عموماً⁽¹⁶⁾.

ويلتزم صاحب الحملة بتوصيل الحاج إمّا ذهاباً أو إياباً، أو كليهما معاً، وقد تدفع الأجرة مقدّماً، أو تؤجّل إلى ما بعد العودة إلى البلد، كما كانت هناك القوافل الرئيسية أو الأُميرية؛ والتي يقودها الأمراء أو الحكّام، أو من ينوبهم من القادة، للوصول إلى الأماكن المقدّسة، وتتوفر

في هذه الأخيرة العناصر الضرورية والمستلزمات الكاملة، كوجود الجنود، والأطباء، والأدلاء، والخدم، وتوافر الدواب، والماء، وهي أكبر حجما، وتنظيما، وأكثر أمنا من القوافل الأخرى⁽¹⁷⁾. وكانت ركاب الحج المغربية تنطلق منذ أواسط الدولة الموحدية، بمبادرة من بعض الصلحاء، قبل أن يبادر المرينيون بالإشراف على تنظيم وتوجيه ركب الحج، على عهد السلطان يوسف بن يعقوب، أيام كان محاصرا تلمسان سنة 703هـ/1304م⁽¹⁸⁾، وصار ذلك من مآثر السلطان أبي الحسن "...فكان يجهز الركوبات دائما من المغرب...[و] يعين في كل سنة ركبا متوجّها"⁽¹⁹⁾.

وحرصت الدول على إظهار قوتها من خلال الإشراف على ركب الحج، وقام بعض السلاطين والأمراء على مرافقة قوافلهم، والإشراف عليها بأنفسهم، أو خط مصاحف وإرسالها إلى المساجد الثلاثة⁽²⁰⁾، ولم تمدنا المصادر التاريخية، ولا المادة النوازلية بأرقام محددة، عن عدد الحجاج الذين كانوا يتوجهون سنويا من أجل الحج، سواء في الركب السلطاني، أو القوافل الأخرى، لكن المؤكد فيها أنها كانت بأعداد كبيرة؛ فقد وصف أحدها بأنه "ركب عظيم"⁽²¹⁾.

وذكر الفقيه أبو محمد عبد النور العمراني (توفي بعد 750هـ/1349م) أنّ ركب السلطان أبي عنان (749-759هـ/1348-1357م) "...استفاض في آلاف كثيرة تزيد عن العشرين ألفا من رجال وخيل"⁽²²⁾، كما ذكر الحجاج المتفردين، المتوجهين بصفة فردية للحج، دون أن يكونوا مع تلك الركاب⁽²³⁾، ومن جهته وصف ابن مرزوق الخطيب ركب الحج من تلمسان عام 733هـ/1333م، بأنه كان مكوّنا من "...ثلاثمائة مسكن ما بين خباء وقيطون، وفي كل قيطون وخباء جماعة، ما عدا ما انضم إليهم بعد خروجهم، فكان ما يقرب من مائتي فارس وثمانين، وجماعة من الرماة"⁽²⁴⁾.

وكانت الرحلة إلى الحج تعرف مرحلتين برية وبحرية؛ ينطلق فيها الركب من بلاد المغرب، ليصل إلى صحراء برقة، وطرابلس، والإسكندرية، فالقاهرة⁽²⁵⁾، مروراً بتلمسان⁽²⁶⁾ وبيجاية، وقسنطينة⁽²⁷⁾، وبونة⁽²⁸⁾، وتونس⁽²⁹⁾، ليكون السفر بحرا من مصر إلى جدّة، في مراكب تحجز الأماكن فيها مسبقا⁽³⁰⁾، كما تجدر الإشارة إلى أنّ الحجاج المغاربة لجأوا إلى استعمال الطريق البحري؛ فالرحالة محمد بن جبير الأندلسي (ت 614هـ/1217م)، ومن معه من الحجاج المسلمين، توجهوا إلى الديار المقدّسة، وعادوا منها إلى بلادهم على متن سفينة، أو بالأحرى سفن تابعة للغرب المسيحي؛ فقد أبحروا على متن مراكب جنوبية، من سبتة إلى الإسكندرية، ومن عكة إلى سيناء، فقرطاجنة⁽³¹⁾.

إنّ استعمال الحجّاج المسلمين لمراكب نصرانية، سببه وضع الأسطول البحري لدول المغرب، والذي كان عاجزا عن القيام بهذا الدور، وهي مسألة أثارت جدلا خصبا بين العلماء، ورفعت في شأنها أسئلة كثيرة⁽³²⁾، لخصتها العبارة التي جاءت في سؤال إلى الفقيه ابن رشد(ت520هـ/1126م)، "...وجرت العادة عندنا بالسفر في البحر في مراكب النصارى، ويكرونها للمسلمين من إفريقية إلى الإسكندرية، إلى ناحية بلاد المغرب"⁽³³⁾.

ويجب التأكيد من جهة أخرى، على أنّ إقبال حجّاج الغرب الإسلامي على استعمال الطريق البحري، بدأ بعد اختلال الأمن في الطرق البرية التقليدية⁽³⁴⁾، ما جعل النّاس يسألون "...عن سقوط فرض الحج في هذا الزمان"⁽³⁵⁾؛ فبينما أرجعه أبو عبد الله محمّد المازري(ت536هـ/1141م) إلى الظروف التي يتنبؤها الحاج في طريقه⁽³⁶⁾، فإنّ الفقيه عبد النور محمّد العمراني(توفي بعد750هـ/1349م) أفى بأنّ "...فريضة الحج ساقطة عن أهل هذا الأفق منذ زمان، فكيف اليوم بما استفاض وشاع من غلبة خوف الطريق من بلد رياح إلى أقصى إفريقية..."⁽³⁷⁾

وكانت الظروف التي يعيشها الحاج - أثناء رحلته- صعبة جدا؛ فطريق المسافرين لم يكن آمنا على عمومه⁽³⁸⁾، وتتضاعف فيه أعمال الإغارة والنهب ضد قوافل الحجيج، لعلم قطاع الطرق على ما كانت تحمله من أموال وزاد ومتاع، فكانت هجمات اللصوص أكبر خطر يهدّد المسافرين برا⁽³⁹⁾، وهذا ما دفع الحجيج سنة 796هـ/1394م، بأن يشتكوا إلى الإمام ابن عرفة(ت803هـ/1401م) بما تقوم به القبائل العربية من نهب وسلب لهم⁽⁴⁰⁾، ما أدخل الخوف في نفوس الحجّاج⁽⁴¹⁾، واضطّروهم إلى دفع المغارم، مقابل المرور بأمان من تلك المسالك⁽⁴²⁾، كما لم يخل السفر عن طريق البحر، من أخطار تهدّدت الحجيج؛ كخطر اجتياح البحر، وغرق المراكب، وموت من عليها⁽⁴³⁾، وقد صرّحت إحدى النوازل، عن غرق سفينة حجّاج مغاربة قرب الإسكندرية عام 779هـ/1377م⁽⁴⁴⁾.

وزيادة على المشاكل العويصة التي واجهت الحجيج في تحضيرهم لرحلتهم؛ والمتمثلة في تنظيم القوافل، أو المشكل المالي، الذي يجعل الحاج في حاجة إلى العائلة أو الأصدقاء من أجل تمويل رحلته، وهو ما قد يضطر لجمعه لعدّة سنوات، فإنّه كثيرا ما كان المبلغ المالي قليلا جدّا، مقارنة مع الأفق الجغرافي للرحلة ومسافتها الطويلة، فكان ذلك يدفع الحاج إلى التوقف في مختلف مدن شمال إفريقيا، من أجل ربح نقود إضافية لإتمام رحلته، فمارس عدد من الحجيج المغاربة بمجرد وصولهم إلى الحجاز، بعض الأعمال قصد توفير ما يلزمهم من مال⁽⁴⁵⁾،

كما كانوا يحملون عند عودتهم سلعا "...من العقيق والعلك والفلفل والعود والمسك"⁽⁴⁶⁾، لبيعها، وتغطية نفقات ما تبقى من الرحلة.

ورغم ما حمله حجّاج المغرب الأوسط من زاد ومؤونة⁽⁴⁷⁾؛ كالطعام المعروف بـ"الفداوش"، و"المحمّصة"⁽⁴⁸⁾، فإنّهم كثيرا ما نقص غذاؤهم وماؤهم، وهو الأمر الذي تناقلته الكثير من روايات الحجّيج، خاصّة عند مرور القوافل بالصحاري، وكان بقاؤهم أياما دون أكل أو شرب، يضطرهم إلى تأجبر دليل من أبناء المنطقة، ليدلهم على آبار ومنايع الماء⁽⁴⁹⁾. ونظرا لطول الرحلة⁽⁵⁰⁾ وظروفها - التي ذكرنا بعضها سابقا- فقد لحقت الحجّيج مشاق كثيرة أثناءها، وتسبّبت في مرض الكثير منهم بأمراض متنوّعة؛ كالحمّى، وأذى تعب الطريق، وضيق الخيم في الركب أحيانا، والزحام أثناء تأدية المناسك⁽⁵¹⁾، إلى هلاك عدد من الحجّاج؛ فقد مات بعضهم في الطريق⁽⁵²⁾، وآخرون في الحجاز، ودفنوا هناك⁽⁵³⁾.

وكثيرا ما كان الحجّيج يتكون أسرهم وعائلاتهم دون نفقة، و دفع الحرص على توفير مال الرحلة، بالكثير من الحجّاج إلى إهمال نسائهم وأبنائهم⁽⁵⁴⁾، وهو ما كان سببا للشكوى بالزوج من ذلك؛ والذي نقلته إحدى النوازل⁽⁵⁵⁾، كما كانت للرحلة آثار اجتماعية وخيمة، كان أبرزها انقطاع الحاج عن أسرته، ما يجعله يعاني من قلق وحريرة كبيرين على أفرادها⁽⁵⁶⁾، فكثيرا ما يموت أحدهم، ولم يعلم الحاج بذلك، بسبب طول الرحلة ومسافتها⁽⁵⁷⁾.

إنّ ما اعتاد المغاربة من إقامته كاحتفال بركن الحج، قبل ذهاب الحاج، بالاستعداد، وتجهيز الثياب البيض، وعقد جلسات الحناء، ثمّ استقبال مواكب الحجّاج عند عودتهم بالأنشيد والأفراح⁽⁵⁸⁾، يؤكّد لنا ذلك الوضع النفسي والاجتماعي الذي يعيشه أفراد المجتمع، أثناء أداء بعضهم لهذه الفريضة، وعودتهم سالمين من تلك الرحلة الطويلة، الشاقة، غير الآمنة المسلك، فكان جديرا بأن يستقبل بمثل هذه الطريقة، لكن - في المقابل - ورغم تلك الحفاوة، وذلك الحب لأداء الحج وتكراره عدّة مرّات، فقد كان البعض يكتّم أمر حجّه عن أفراد المجتمع⁽⁵⁹⁾، والذي لعلّه يكون لطرد الرياء على هذا العمل.

وعلى الرغم من تلك المشاق والصعوبات، فقد كانت للرحلة إلى الحج فوائد جمّة⁽⁶⁰⁾؛ فهي فرصة لطلب العلم، ولقاء العلماء؛ فكثيرا ما جلس الحجّاج للتعلّم⁽⁶¹⁾، وقام العلماء منهم بالتعليم أثناء حجّهم، كما فعل إبراهيم التازي بتدريسه بالحرم الشريف⁽⁶²⁾، وأمّ بعضهم النّاس⁽⁶³⁾، وإلى جانب ذلك نسجت علاقات اجتماعية مع أفراد من مجتمعات أخرى؛

فشاركوهم أكلهم، وعاداتهم، وتقاليدهم⁽⁶⁴⁾، وسمحت تلك الرحلة للكثيرين، بالتنقل وزيارة مختلف الأماكن⁽⁶⁵⁾، والتي كانت من أكبر الأمنيات عند البعض، كزيارة بيت المقدس⁽⁶⁶⁾. مما سبق تبين لنا تلك المنزلة التي كان يحظى بها الحج في نفوس سكان بلاد المغرب الأوسط، في أواخر الفترة الوسيطية، ولم تمنعهم مختلف العوائق والصعوبات؛ كقلة المال، وغياب الأمن في الطرق، وعدم توفر ما ينقلهم، إلى أن يتشوقوا لإتمام أحد أركان الدين الإسلامي، وهو الحرص والمنزلة نفسها التي ما زال يحملها أفراد المجتمع لهذا الركن في وقتنا الحاضر.

الهوامش

- (1)- فمن "...سكن قلبه حبّ الله تعالى، وحبّ رسول الله صلى الله عليه وسلّم، تاقّت نفسه لهذه الأماكن المشرفة، والمشاهد المعظمة؛ لأنّ الطواف ببيت الله الحرام، والصلاة فيه من أعظم القربات، كما أنّ الوقوف بعرفة من أحسن الطاعات، وأمّا زيارة قبره صلى الله عليه وسلّم فهي من سنن الإسلام، وشرائع الدين". انظر: - محمّد بن سعد الأنصاري: روضة النسر في التعريف بالأشياخ الأربعة المتأخرين، مراجعة وتحقيق: يحي بوعزيز، ط01، المؤسسة الوطنية للطبع والإشهار، الجزائر، 2004م، ص69، 70.
- (2)- أبو العباس أحمد الونشريسي: المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، إشراف: محمّد حجّي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 1401هـ، 1981م، 432/1، 433.
- (3)- أبو عبد الله محمّد بن مرزوق: المناقب المرزوقية، دراسة وتحقيق: سلوى الزاهري، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 1429هـ/2008م، ص147.
- (4)- نفسه: ص178.
- (5)- وهو المعروف بأبي العباس أحمد بن يوسف، انظر: - أبو العباس أحمد بن قنفذ: أنس الفقير وعزّ الحفير، نشر وتصحيح: محمّد الفاسي، أدولف فور، المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، المملكة المغربية، 1965م، ص61.
- (6)- ابن سعد: المصدر السابق، ص145.
- (7)- ابن مرزوق: المصدر السابق، ص253.
- (8)- نفسه: ص292.
- (9)- حبيبة وداعة الحسنوي: "الحج وأثره في دعم الصلوات العربية- الإفريقية، ودور فزان في تسهيل قوافل حجاج السودان حتى القرن الثامن"، ضمن: أعمال ندوة التواصل الثقافي الاجتماعي بين الأقطار الإفريقية على جاني الصحراء، تنظيم كلية الآداب تطوان- المغرب- وكلية الدعوة الإسلامية طرابلس- ليبيا، أيام

- 14-12 ماي 1998م، مراجعة وتقديم: عبد الحميد عبد الله الهزامة، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ليبيا، ط01، 1999، ص83.
- (10) - يرد معنى القافلة في المصادر اللغوية، بأنه ابتداء السفر والرجوع منه، أي الذهاب والإياب، فالقول هو الرجوع من السفر، واشتق اسم القافلة من ذلك، لأنهم يقفلون تفاعلاً بقفلها عن سفرها الذي ابتدأته، والقافلة هي الرفقة. انظر:
- مجد الدين محمد الفيروز أبادي: القاموس المحيط، تحقيق: محمد نعيم العرقسوسي، ط08، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 1426هـ/2005م، ص1049. وانظر أيضاً:
- أبو الفضل جمال الدين بن منظور: لسان العرب، ط01، دار صادر، بيروت، لبنان، (د.ت)، 560/11.
- (11) - ابن مرزوق: المصدر السابق، ص178-197-250-294.
- (12) - رشيد بن محمد بن عساكر: قوافل الحج المارة بالعراض من خلال وثيقة عثمانية أشارت إلى جد الأسرة السعودية وشيخ الدرعية سنة 981هـ/1573م، درة تاج للنشر والتوزيع، الرياض، 1426هـ/2005م، ص15، 16.
- (13) - نفسه: ص16.
- (14) - ابن مرزوق: المصدر السابق، ص250.
- (15) - أبو زكرياء يحي المازوني: الدرر المكنونة في نوازل مازونة، تحقيق: مختار حساني، مراجعة: مالك كرشوش الزواوي، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، الجزائر، 2009، 13/2، 14.
- (16) - وهو ما ذكره لوالده بقوله "...لا أجد أولى بالإنسان من صنفه وأهل بلده، وغدا يسافر المغاربة، وهم من بلدنا...معهم أسافر، وهما أولى لي...". انظر: - ابن مرزوق: المصدر السابق، ص250.
- (17) - رشيد بن محمد بن عساكر: المرجع السابق، ص20، 22.
- (18) - عبد الرحمان المودن: البوادي المغربية قبل الاستعمار، قبائل إيناون والمخزن بين ق16 و19م، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سلسلة رسائل وأطروحات(25)، جامعة محمد الخامس، الرباط، 1995م، ص118.
- (19) - أبو عبد الله محمد بن مرزوق: المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، دراسة وتحقيق: ماريا خيسوس بيغيرا، تقديم: محمود بوعباد، وزارة الثقافة، الجزائر، 2007م، ص385.
- (20) - نفسه: ص385.
- (21) - ابن سعد: المصدر السابق، ص194.
- (22) - الوثريسي: المصدر السابق، 1/441.
- (23) - نفسه: 1/442.
- (24) - ابن مرزوق: المناقب، ص198.
- (25) - نفسه: ص253، 255، 303، 304.
- (26) - هذا بالنسبة لمراكب المغرب الأقصى، وكانت هناك مراكب تخرج من تلمسان. انظر: - نفسه، ص198.

(27)- نفسه: ص301، 302.

(28)- ابن سعد: المصدر السابق، ص194.

(29)- ابن مرزوق: المناقب، ص302.

(30)- ابن سعد: المصدر السابق، ص139، 140.

(31)- محمّد الأمين البزاز: "حول نقل البحرية المسيحية لحجاج الغرب الإسلامي تأملات في رحلة ابن جبير"،

ضمن: "الغرب الإسلامي والغرب المسيحي خلال القرون الوسطى"، تنسيق: محمّد حمام، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم 48، 1995م، ص83.

(32)- جاء السؤال "...هل يسوغ ركوب البحر، والغالب عليه الغرور والخوف من الروم، وتضاربت حوله آراء

العلماء، فهناك من أفى بالكراهة، وأفى بذلك القباب أحد قضاة فاس، وابن إدريس أحد فقهاء بجاية، وهناك من أفى بجواز الركوب إذا كان الحاكم المسلم قويا يخاف النصارى منه، إذا غدروا أو أسأؤوا العشرة"،

انظر:- الونشريسي: المصدر السابق، 436/1.

(33)- نفسه: 436/1.

(34)- محمّد الأمين البزاز: "حول نقل البحرية المسيحية لحجاج الغرب الإسلامي..."، ص83.

(35)- سئل عن هذه المسألة الفقيه ابن رشد، فأجاب بسقوط الحج "في زماننا هذا عن الأندلس لعدم

الاستطاعة، وهي القدرة على الوصول مع الأمن على النفس والمال، كما أجاب أبو بكر الطرطوشي "بأنه حرام على أهل المغرب، فمن خاطر وحج، فقد سقط فرضه، ولكنه أثم بما ارتكب من الغرر". انظر:- الونشريسي:

المصدر السابق، 432/1، 433/1.

(36)- أجاب بالقول أنّ "هذا السؤال لا يخفى جوابه، ولا يمكن محصّل أن يطلق القول فيه، ولكن الذي لا

يخفى أنّ الحاج متى وجد السبيل، ولم يخف نفسه وماله، أن يفتن في دينه، وأن يقع في منكرات، أو إسقاط واجبات من صلوات أو غيرها، فإنه لا يسقط وجوب عنه..."

انظر:- نفسه: 433/1، 434.

(37)- نفسه: 441/1.

(38)- ابن قنفذ: المصدر السابق، ص26.

(39) – Manuala Marin: « **Le pèlerinage des saints** », mélanges Halima Ferhat, Association Marocaine pour la recherche historique , Institut études Africaines, Université Mohammed 5, Souissi, Rabat, 2005, p.13.

(40)- انظر:- المازوني: المصدر السابق، 368/4، وأيضا:- الونشريسي: المصدر السابق، 438، 435/2، 153/6،

156.

(41)- ابن مرزوق: المناقب، ص251.

(42)- نفسه: ص254.

(43) – Manuala Marin: « **Le pèlerinage des saints** », p.12.

(44) - الونشريسي: المصدر السابق، 4/490.

(45) - Manuala Marin: « **Le pèlerinage des saints** », pp.10,12.

(46) - ابن مرزوق: المناقب، ص 254.

(47) - نفسه: 236.

(48) - نفسه: ص 197.

(49) - Manuala Marin: « **Le pèlerinage des saints** », pp.13,14.

(50) - كانت الرحلة تدوم لأشهر؛ فقد ذكر ابن مرزوق مثلا خروجهم من تلمسان أول محرّم، ووصولهم إلى القاهرة في جمادى الآخرة، كما كانت تدوم أياما إن لم تتخللها توقفات طويلة في الطريق، وتصل في هذه الحالة إلى اثني عشر يوما. انظر: - ابن مرزوق: المناقب، ص ص 198-252.

(51) - نفسه: ص 226، 227، ص ص 231، 233، ص 249، ص 251.

(52) - نفسه: ص 300، 301. انظر أيضا:

- Manuala Marin: « **Le pèlerinage des saints** », p.15.

(53) - نفسه: 271، 272.

(54) - Manuala Marin: « **Le pèlerinage des saints** », p.17.

(55) - الونشريسي: المعيار، 5/147.

(56) - ابن مرزوق: المناقب، ص 249.

(57) - Manuala Marin: « **Le pèlerinage des saints** », p.16.

(58) - عباس الجارري: "الحضور الديني في العادات والتقاليد المغربية"، ضمن: "العادات والتقاليد في المجتمع المغربي"، ندوة لجنة القيم الروحية والفكرية، مراكش، 26 شوال 1428هـ/07 نوفمبر 2007م، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، سلسلة ندوات، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 2008م، ص 59.

(59) - ابن سعد: المصدر السابق، ص 118.

(60) - أفرد ابن سعد جزءا في كتابه، لتبيان فضل الحج، انظر: - ابن سعد: نفسه، ص ص 70، 78.

(61) - ابن مرزوق: المناقب، ص ص 198-208. وأيضا: - ابن سعد: نفسه، ص ص 140-141-143.

(62) - نظر: - ابن سعد: نفسه، ص 138.

(63) - نفسه: ص 138.

(64) - ذكر ابن مرزوق جانبا من العلاقات الاجتماعية أثناء إقامته هو ووالده بالقاهرة، والتي طال مكثهم فيها لسنتين ونصف، وحول بعض الجوانب من هذه العلاقات، ومخالطة أهل المدن التي يجتازها الحجيج، انظر:

- ابن مرزوق: المناقب، ص 198، ص ص 231، 233.

(65) - انظر بعض الأمكنة التي زارها حجيج المغرب الأوسط، ووصفهم لما حدث لهم فيها، أو وصفها:

- نفسه: ص ص 231، 233، ص ص 253، 255، ص ص 301، 302.

- ابن سعد: المصدر السابق، ص 194.

(66)- كانت من أمنيات حجاج المغرب الأوسط، زيارة بيت المقدس، وهذا ما ذكره ابن مرزوق على خالته أم الفتح، التي سألت الله عزوجل أن تموت في بيت المقدس، فماتت هناك سنة 724هـ/1324م، ودفنت هناك. انظر:

- ابن مرزوق: المناقب، ص 292. وأيضا: ابن سعد: نفسه، ص 43.

قائمة المصادر والمراجع:

01/ المصادر:

- ابن سعد محمد الأنصاري: روضة النسرين في التعريف بالأشياخ الأربعة المتأخرين، مراجعة وتحقيق: يحي بوعزيز، ط 01، المؤسسة الوطنية للطبع والإشهار، الجزائر، 2004م.

- ابن عساكر رشيد بن محمد: قوافل الحج المارة بالعراض من خلال وثيقة عثمانية أشارت إلى جد الأسرة السعودية وشيخ الدرعية سنة 981هـ/1573م، دة تاج للنشر والتوزيع، الرياض، 1426هـ/2005م.

- ابن قنفذ أبو العباس أحمد: أنس الفقير وعزّ الحقيير، نشر وتصحيح: محمد الفاسي، أدولف فور، المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، المملكة المغربية، 1965م.

- ابن مرزوق أبو عبد الله محمد: المناقب المرزوقية، دراسة وتحقيق: سلوى الزاهري، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 1429هـ/2008م.

_____ :المُسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، دراسة وتحقيق:

ماريا خيسوس بيغيرا، تقديم: محمود بوعباد، وزارة الثقافة، الجزائر، 2007م.

- ابن منظور أبو الفضل جمال الدين: لسان العرب، ط 01، دار صادر، بيروت، لبنان، (د.ت).

- الفيروز آبادي مجد الدين محمد: القاموس المحيط، تحقيق: محمد نعيم العرقسوسي، ط 08، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 1426هـ/2005م.

- المازوني أبو زكرياء يحي: الدرر المكنونة في نوازل مازونة، تحقيق: مختار حساني، مراجعة: مالك كرشوش الزواوي، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، الجزائر، 2009.

- الونشريسي أبو العباس أحمد: المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، إشراف: محمد حجي، وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 1401هـ، 1981م.

02/ المراجع:

أ – باللغة العربية:

- البزّاز محمد الأمين: "حول نقل البحرية المسيحية لحجاج الغرب الإسلامي تأملات في رحلة ابن جبير"، ضمن: "الغرب الإسلامي والغرب المسيحي خلال القرون الوسطى"، تنسيق: محمد حمام، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم 48، 1995م.

- الجراري عباس: "الحضور الديني في العادات والتقاليد المغربية"، ضمن: "العادات والتقاليد في المجتمع المغربي"، ندوة لجنة القيم الروحية والفكرية، مراكش، 26 شوال 1428هـ/07 نوفمبر 2007م، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، سلسلة ندوات، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 2008م.
- الحسنواوي حبيبة وداعة: "الحج وأثره في دعم الصلوات العربية- الإفريقية، ودور فزان في تسهيل قوافل حجاج السودان حتى القرن الثامن"، ضمن: أعمال ندوة التواصل الثقافي الاجتماعي بين الأقطار الإفريقية على جانبي الصحراء، تنظيم كلية الآداب تطوان- المغرب- وكلية الدعوة الإسلامية طرابلس- ليبيا-، أيام 14-12 ماي 1998م، مراجعة وتقديم: عبد الحميد عبد الله الهزامة، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ليبيا، 01، 1999.
- المودن عبد الرحمان: البوادي المغربية قبل الاستعمار، قبائل إيناون والمخزن بين ق 16 و19م، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سلسلة رسائل وأطروحات (25)، جامعة محمد الخامس، الرباط، 1995م.
- ب – باللّغة الفرنسية:

– Manuella Marin: « Le pèlerinage des saints », mélanges Halima Ferhat, Association Marocaine pour la recherche historique , Institut études Africaines, Université Mohammed 5, Souissi, Rabat, 2005.

د.فارس كعوان
المؤسسة: جامعة سطيف 2
عنوان المقال: التعريف بمخطوط " ذكر الحيل المطلوب استعمالها لحفظ سكان إقليم افريقيا " لمحمد السعدي اليعلاوي
إقليم افريقيا " لمحمد السعدي اليعلاوي
الترجمان الشرعي بأقبو

البريد الالكتروني: fares_kaouane@yahoo.fr

تاريخ الإرسال: 2020/03/03 تاريخ القبول: 2020/03/18 تاريخ النشر: 2020/03/31

التعريف بمخطوط " ذكر الحيل المطلوب استعمالها لحفظ سكان إقليم

افريقيا " لمحمد السعدي اليعلاوي الترجمان الشرعي بأقبو

ملخص بالعربية:

عرفت الجزائر خلال مختلف مراحل تاريخها حركة واسعة لتدوين المخطوطات في شتى العلوم العقلية والنقلية، وبرزت مخطوطات عديدة لأعلام بعضهم معروف، و لكن عددا كبير منهم لا يزال مغمورا ، ولا يرد له ذكر في كتب التراجم.

وحتى تكون النظرة للتاريخ الجزائري موضوعية، ينبغي على الباحثين إمطة اللثام عن الآثار المغمورة لمختلف أعلام الجزائر حتى يتسنى فيما بعد وضع فهرس تتضمن أعمالهم، وتنفض الغبار عن جوانب من حياتهم.

وفي هذا الإطار نشير أن خزائن المخطوطات بالجزائر والعالم لا تزال تضم عددا من المخطوطات النادرة والهامة في موضوعها، والتي يسهم إخراجها في تصحيح بعض المفاهيم، وتوضيح الرؤى حول مختلف الفترات التاريخية.

نفتح في هذه الورقة العلمية تقديم مخطوط جزائري نادر يعود لسنة 1895 كتبه محمد السعدي بن محمد يحيى بن الصالح الزيتوني اليعلاوي أصلا الترجمان الشرعي بأقبو بجاية وهو تعريف لكتيب فرنسي ألفه السيد فردناند دو بهاكل وقد جاء اسم المخطوط هكذا: " ذكر الحيل المطلوب استعمالها لحفظ سكان إقليم إفريقيا".

الكلمات المفتاحية:

المخطوط / افريقيا/ الجزائر/اليعلاوي/ الترجمان الشرعي/ أقبو/ بجاية/ السلطات الفرنسية.

Abstract:

The occupation of Algeria in 1830 marked an important stage for the French to be able to penetrate inside Africa. Some French explorers have hired a number of people in Algeria to translate their works into Arabic, a language widely spoken among Africans due to the spread of religious education. In this article, we propose to present a rare Algerian manuscript dating from 1895, which represents the Arabic translation of a work written in French by M. Ferdinand de Béhagle.

Key words : Manuscript / Africa / Algeria / Al-Yalawi / Legitimate translators / Akbo / Bejaia / French authorities.

مقدمة:

ساهم المترجمون الجزائريون في عهد الاحتلال الفرنسي في أعمال الترجمة من العربية إلى الفرنسية والعكس، ولكن الأعمال المترجمة من الفرنسية إلى العربية قليلة جداً لأن هدف الفرنسيين لم يكن خدمة اللغة العربية بالترجمة إليها وإنما نقل العلوم والمعارف والآداب الفرنسية للجزائريين لزرع ثقافة الانهيار بالحضارة والمدنية الفرنسية، وخلق جيل مرتبط بالفرنسيين.

ومن بين الأعمال النادرة المترجمة من الفرنسية إلى العربية والتي ظلت مخطوطة وغير معروفة على نطاق واسع هذا المخطوط الذي نقدمه اليوم.

دوافع تحرير المخطوط:

ذكر صاحب المخطوط في الورقة الأولى منه انه سافر إلى باريس في شهر افريل سنة 1895 وهناك التقى بالسيد دي بهياقل صاحب الرحلات الكثيرة إلى إفريقيا، وبمجرد عودته إلى الجزائر راسله دي بهياقل وطلب منه تعريب محاضراته في شأن دين الإسلام وصلاحيته لسكان إفريقيا ويقول " ولم تسعني مخالفته فأجبتة لذلك وأسعفته لمراده وان كنت لست أهلاً لذلك لأنني قصير الباع قليل الاطلاع واستعملت فكري وبذلت جهدي حسب الطاقة والإمكان مع شغل البال فيما أنا بصده من أمر وظيفي والقيام به في جل الأحيان"¹.

واستجاب صاحب المخطوط لطلب السيد دو بهياقل الفرنسي Ferdinand de Behagle² وهذا كان أمراً معروفاً في تلك الفترة حيث كان الضباط والمستعربون الفرنسيون

يُكلفون عددا من الجزائريين بتأليف الكتب في مواضيع يختارونها لهم أو يترجمون لهم أعمالهم ليسهل تسريب أفكارهم إلى المجتمعات المراد اختراقها.³

عنوان المخطوط:

جاء عنوان المخطوط في الورقة الثالثة منه هكذا: " ذكر الحيل المطلوب استعمالها لحفظ سكان اقليم افريقيا " وهو ترجمة غير حرفية للعنوان الأصلي لمقال فردناند دي بهائل: Des moyens de combattre la dépopulation en Afrique: ويمكن تعريبه هكذا: " طرق محاربة نقص السكان في إفريقيا".⁴

و قد نشر هذا العمل في كتاب مستقل في نفس السنة أي سنة 1895 بباريس نظرا لأهميته البالغة ومكانة صاحبه في حركة التوسع في القارة الإفريقية.⁵

تاريخ نسخ المخطوط:

حُرر هذا المخطوط كما جاء في آخر ورقة منه في اليوم الأول من رجب سنة 1313 هـ/ الموافق لـ 17 ديسمبر 1895.

صاحب المخطوط:

ورد اسم صاحب المخطوط كاملا في آخر صفحة هكذا:
"كتبه محمد السعدي بن محمد يعي بن الصالح الزيتوني اليعلاوي أصلا المترجمان الشرعي بأقبو ببجاية".⁶

وقد بحثنا مطولا عن ترجمة لهذة الشخصية غير أننا لم نتمكن من العثور سوى على معلومات قليلة جدا ومتناثرة في عدد من المصادر.

ينسب صاحب المخطوط لمنطقة بني يعلى⁷ شمال سطيف، وهي منطقة جبلية أنجبت عددا كبيرا من العلماء، وكانت تشتهر بكثرة مساجدها و زواياها، و يحدها في الشمال الشرقي جبال البابور، وفي الجنوب والغرب تحدها جبال البيبان.⁸

وقد ساهم عدد من أفراد أسرة صاحب المخطوط في خدمة الإدارة الفرنسية، حيث كان شقيقه يشغل منصب قايد منطقة قرقور شمال سطيف وقتل من طرف سكان المنطقة. وكان ابن أخته سي بوجاوي، أيضا يشغل منصب مترجم في الجيش الفرنسي، وقد أرسل في مهمة إلى الكونغو، ولكنه لم يتحمل مناخها فتقرر إرجاعه للجزائر.⁹

وأما صاحب المخطوط فكان من الذين درسوا وتخرجوا من المدارس الفرنسية، وهو ما أهله فيما بعد لشغل منصب هام وحساس هو منصب المترجم الشرعي، وكونه مترجما

شرعيا يعني إتقانه للغتين العربية والفرنسية بطلاقة، وإتقانه للشؤون الفقهية أيضا، ويستفاد من عدد من المصادر التي رجعنا إليها أن صاحب المخطوط شغل منصب الترجمان الشرعي في منطقة آقبو ببجاية، لمدة طويلة تجاوزت العشر سنوات حتى وفاته سنة 1898. وقد التقى به بلقاسم بن سديرة¹⁰ وكان من ضمن الأشخاص الذين ساعدوه في جمع المعلومات أثناء إعداده لكتابه " مهمة في بلاد القبائل " الذي أصدره سنة 1887 وقال عنه حينها انه يشغل منصب ترجمان شرعي في آقبو.¹¹

والمعروف أن المترجمين القضائيين يحتلون الرتبة الثانية في الأهمية بعد المترجمين العسكريين¹² كما أن المترجم القضائي يلتحق لمدة سنة واحدة بدروس المدارس الشرعية الفرنسية في الجزائر للاطلاع على الشريعة الإسلامية وبمرافعات القضاة لتعلم القانون الفرنسي.¹³

وقد كان صاحب المخطوط عضوا نشيطا في إحدى الجمعيات الفرنسية وهي المعروفة باسم: " La Section du Forez du Club Alpin Français " وكان منضوبا في هذه الجمعية ضمن فرع بلاد القبائل الصغرى Section de la Petite-Kabylie التي كانت تضم سبعة أعضاء كانوا منخرطين قبل انعقاد دورة 15 ابريل 1884.¹⁴

أوردت إحدى الصحف خبر وفاة صاحب المخطوط يوم السبت 19 نوفمبر 1898 غريفا قرب إدارة مصنع الجير بأقبو ببجاية، وتساءلت الصحيفة ما إن كانت وفاته نتيجة حادث أو عملية انتحار، وقالت أن البعض يرجح الاحتمال الأخير لأنه منذ وفاة شقيقه قايد قرقور وهي الحادثة التي تركت ألما عميقا في نفسه.

وقالت ذات الصحيفة أن الضحية كان من المفروض أن يتناول الغداء مع رفاقه على الساعة: 11:00 لكن رفاقه انتظروه حتى منتصف النهار.

وبعد منتصف النهار بنصف ساعة انتشر خبر وفاته في كامل المنطقة، ولما تم سحب جثته لم يعثر إلا على سرواله وقميص كان يرتديه، ومعنى هذا أنه تعرض لسرقة أغراضه الأخرى.¹⁵

مكان وجود المخطوط:

المخطوط موجود ضمن رصيد المكتبة الوطنية بباريس وهو يحمل رقم: Arabe 6990 ويبدو أن هذا المخطوط قد نقل من الجزائر إلى باريس ضمن المخطوطات العربية التي نقلت

إليها منذ الاحتلال، وقد اهدى للمكتبة الوطنية بباريس سنة 1977 من قبل السيد بيود M. Bioud.

ويمكن للباحث الاطلاع على ميكروفيلم للمخطوط وهو بالأبيض والأسود ورقمه في قاعة المطالعة هو MFILM Arabe 6990 .

كما يوجد المخطوط في شكل ميكروفيلم وحمل رمزاً لمن يريد استنساخه من

الباحثين هو R 84113 وقد صار المخطوط متاحاً إلكترونياً منذ تاريخ: 2019/02//27.¹⁶

إهداء المخطوط:

جاء في الورقة المرقمة برقم 1 إهداء من صاحب المخطوط إلى أحد الفرنسيين وهو السيد المستشار داندري ديرينوار M. le Conseiller d'Andrée de Renoard وقال الزيتوني

أن هذا عربون وفاء وتقدير وتذكاري إلى ذلك السيد ووصف نفسه بخادمكم الزيتوني ، ولعل صاحب المخطوط قد درس عند ذلك السيد الفرنسي وبقي على علاقة وطيدة به.¹⁷

حجم المخطوط:

يضم المخطوط بين دفتيه 93 ورقة من المخطوط وهو مصور بطريقة ورقتين في كل صفحة فجاء مجموع الصفحات بقلم الرصاص 48 صفحة، ونلاحظ أن إحدى الصفحات تم تصويرها مرتين وهي الصفحة المرقمة برقم 39.

أهمية المخطوط:

رغم أن المخطوط هو ترجمة عربية لدراسة فرنسية، وليس تأليفاً محضاً لصاحبه، إلا أنه مهم في بابه وذلك أن الترجمة من الفرنسية للعربية في العهد الاستعماري كانت قليلة حيث " لم تكن الترجمة من الفرنسية للعربية هدفاً للفرنسيين " كما صرح الدكتور سعد الله، الذي وضح أن " ما ترجم من و ما حرص عليه الفرنسيون حتى يصل إلى الجزائريين هو نوع معين من المعارف، أي القرارات الرسمية والإجراءات الصحية والنصائح المتعلقة بالفلاحة وتربية الحيوانات والأخبار الدعائية المضادة لإشاعات محلية أو واردة من المشرق والترغيب في تعلم اللغة الفرنسية وعلومها."¹⁸

ولكن أين يمكن تصنيف المخطوط دراسته، هل هو في باب الدعاية؟ أم له هدف آخر

مهم للفرنسيين في توسعاتهم الاستعمارية.

لقد صرح صاحب المخطوط في بداية مخطوطه أن دو بهافل هو الذي طلب منه تعريب دراسته، فانكب الزيتوني على إنهاؤها في نفس سنة صدورها أي سنة 1895، وهذا يعني أن الفرنسيين كانوا بحاجة لشخصيات إسلامية تسهل عليهم عملية اختراق المجتمعات الإفريقية المسلمة، واستعانوا في هذا بعدد من المترجمين وكان من بينهم إسماعيل بوضربة¹⁹ الذي قام برحلة إلى غات ووضع دراسة مهمة عن عدد من المناطق التي زارها في إفريقيا. وصف المخطوط:

كتب المخطوط بخط مغربي جميل هو اقرب إلى خطوط المستعربين الفرنسيين منه إلى الخط الجزائري، وقد جاء وصف المخطوط في دليل المخطوطات بالمكتبة الوطنية بباريس على النحو التالي:

"خط المخطوط مغربي نسخ بعناية، وحره اسود، بعض الكلمات كتبت بلون ذهبي أو احمر وجاء العنوان الرئيسي للمخطوط بشكل مربع مقوس في قسمه الأعلى تعلوه سارية براس مدبب وهلال،

والمخطوط كله كتب داخل إطار غليظ، كما نلاحظ أن للمخطوط ترقيما آخر شطب بالقلم، وهو يبدأ من الصفحة المرقمة برقم: وبعض الكلمات كتبت بالذهب أو باللون الأحمر، والعناوين مزخرفة داخل إطار مربع تخللته بعض الأشكال الدائرية ونصف الدائرية والزخارف الإسلامية.

و كانت بداية كل فصل حسبما جاء في وصف المخطوط تكتب بخط مختلف وبألوان مختلفة هي: الذهبي والأحمر والأخضر والأسود، ونهاية الفصول جاءت بشكل مربع ينتهي بنهاية على شكل مثلث.²⁰

ونلاحظ أن الصفحة رقم 2 من المخطوط تحمل في الأسفل رقما كتب بقلم الرصاص هو : 857 ، ولا ندري هل هو ترقيم قديم للمخطوط على يد مالكة الأول الذي أهداه للمكتبة الوطنية أم هو رقم كان موجودا في المخطوط الأصلي.

وتحمل عدد من صفحات المخطوط ترقيما مزدوجا يبدأ من الصفحة رقم 4 التي تحمل ترقيما مشطبا بالقلم هو: 5، وهكذا نجد كل صفحة لها رقم ظاهر ورقم آخر مشطب على النحو التالي: 07/05 و 09/6 و 11/7 و 13/8 و 15/9 و 17/10 و 19/11.

ولكن الترقيم يتغير بعدها على النحو التالي في الصفحة 12 حيث يظهر ترقيم آخر هو 31 وليس 21 كما هو مفروض ثم يستمر ذلك الترقيم على هذا النحو: 33/13 و 35/14

و37/15 و39/16 ويعود الترتيب مرة أخرى مضطرباً في الصفحة 17 التي يقابلها ترقيم 31 الذي كان يقابل صفحة 12.

مضمون المخطوط:

يضم المخطوط عدداً من الفصول:

الفصل الأول وهو تحت عنوان: "في عدد سكان إفريقيا"²¹

وفي هذا الفصل استشهد المؤلف بآية قرآنية هي الآية الخامسة من سورة البقرة وهي قوله تعالى: "أأنذرتهم أم لم تنذرتهم لا يؤمنون"²².

ويتحدث في هذا الفصل عن ما سماه جهود الجماعة الإفريقية في فرنسا في شان إيجاد حيل تجلب العمارة بإقليم إفريقية وتحفظ أهلها من نقصان، ويقول المؤلف وهو دي بهافل أن هذا الأمر لم ينتبه له احد من قبل وانه أثناء إقامته بإفريقيا وشواطئها مدة ثلاثة عشر سنة انتبه لأهمية هذه المسألة الهامة .

وقال أن عدد سكان مصر وتونس والجزائر هو في زيادة لا نقصان بعد الاحتلال، ودخول أجناس عديدة أجنبية إلى بلادهم واختلاطهم معهم لم يكن سببا في دمارهم، ولو كانت تلك الأجناس الداخلة عليهم ذوات أديان مختلفة".²³

وهذا الرأي يحمل مغالطة كبرى، إذ تجمع غالبية الدراسات أن عد سكان إفريقيا قد تناقص بشكل كبير بفعل أعمال الإبادة التي مارستها الدول الاستعمارية.

الفصل الثاني: وجاء بعنوان: "في ذكر العلل التي يحتمل أن تكون سببا لتقصان العمارة"²⁴. وقال في هذا الفصل أن "كثرة السكان بالمدن الكبار [كذا] تغير الهواء وتفسده، والاضطراب الذي يعتري الإنسان ولا يفارقه بسبب شغل البال والأمراض البدنية وغيرها التي تنشأ من ذلك الاضطراب والمصائب التي تصيب العباد حال الخدمة وتفنيهم أكثر من الخدمة جميع ذلك أسباب لهلاك المتمدنين..."²⁵

و وضّح أن سكان بلاد المغرب لم يلحقهم هذا فأرضهم في غاية الخصب وهي توفر لهم الأرزاق التي يحتاجونها.²⁶

كما تحدث عن المجاعات التي تصيب الدول الإفريقية وحلل أسبابها الطبيعية والبشرية، وقال ان الحروب هي في الغالب التي تسبب المجاعات وليست الطبيعة وحدها.²⁷

الفصل الثالث: بعنوان: "في ذكر الحيل التي تضاد الحرب بإفريقيا."²⁸

وفي هذا الفصل تحدث عن حالة سماها " الإهمال والتوحش " وهي التي تصيب سكان إفريقيا البدائيين، الذين قال عنهم أنهم لا تحكمهم أي قوانين ولا يوجد امن بينهم. ولاحظ أن الأفارقة المسلمين أكثر تنظيماً من الوثنيين حيث أن " للمسلمين قواعد بالدين وشريعة تأمرهم بتقوى الله.."²⁹

وجاءت في المخطوط عبارة هامة هي : وفي غالب الأوقات المسلمون لا يقتلون سكان البلد التي فتحوها وكلما تمكن لهم حفظهم فعلوا واستخدموهم والدليل على ذلك هو ان القوم المعروف بالفولب الذي فتح في عصرنا هذا الوطن الكائن بقبلة بورنو المنتهي إلى رأس جبال فسحة الكونغو لم يهلكوا أرباب الوطن الذين هم من عباد الأصنام.³⁰

الفصل الرابع: جاء بعنوان: "في ذكر مناهج التمدن"³¹.

تحدث فيه عن انتشار المسيحية في عدد من مناطق إفريقيا وهي المناطق المطلّة على البحر المتوسط ثم توسعها إلى مناطق داخلية، وانتشار الكنائس في عدد من المناطق، ثم انتقل إلى الحديث عن انتشار الدين الإسلامي في القارة الإفريقية، وقال في هذا الصدد: " وقد تحققنا ان دين المسيح زايل لا محالة في جميع الأماكن التي وجد فيها الإسلام بإفريقيا."³²

الفصل الخامس: بعنوان: " في ذكر دين المسيح."³³

ذكر في هذا الفصل أن دين المسيح لم يتمكن من الانتشار بشكل كبير حتى وقته، ويقول في مبرر هذا بقلة فهم الأفارقة للكتب الدينية: " واعلم أن التوراة والإنجيل يعسر فهمهما على العقول غير الكاملة كعقول سكان افريقيا فيطلب في حقهم الزمان الطويل لتلطف عقولهم حتى يتمكن لهم دين المسيح."³⁴

الفصل السادس: جاء بعنوان: " في ذكر دين الإسلام."³⁵

في هذا الفصل استشهد بعدد من الآيات القرآنية للدلالة على أن دين الإسلام دين تسامح وهو يدعو للحوار مع أهل الأديان الأخرى وخاصة المسيحية.³⁶

ووضّح أن التوحيد هو الركن الأعظم في دين الإسلام، وختم الفصل بقوله: " والحاصل انه لما كان التمدن الإسلامي واقيا لعباد الأصنام من كثرة العيوب الملازمة للإنسان ومانعا لهم من الأمراض كان الواجب اختياره لهم لحفظهم وكثرة نسلهم، لأنه أصلح وأسرع من كل شيء لذلك."³⁷

الفصل السابع: وجاء بعنوان: "في ذكر العبودية."³⁸

وقال في هذا الفصل أن العبودية ليست سببا في نقصان عدد سكان إفريقيا رغم انه ذكرها في مكان آخر ضمن العلل التي تؤدي إلى نقصان السكان، وقال أن هذه الظاهرة موجودة منذ الأزل.

وأضاف أن تغيير مكان عمل العبيد ونقلهم إلى بلدان لم يألفوا مناخها هو السبب في موتهم وليست العبودية كظاهرة في حد ذاتها.³⁹

الفصل الثامن: وجاء بعنوان: " في ذكر الزواج." ⁴⁰

وتحدث في هذا الفصل عن عادة تعدد الزوجات وهي التي اقرها الإسلام وتعمل بها بعض الشعوب الإفريقية كوطن السودان ، وذكر أن بعض زعماء القبائل تجاوزوا الحد المعروف فكان لبعضهم ألف زوجة⁴¹، وقال أن بعضهم كان له ألف من الجوارى وهن ليست زوجاته، إذ يبيع لهن أحيانا الزواج بغيره.

وقدم مثالا نقله عن الرحالة الألماني المستكشف بارط الذي قال له أن صديقه الحاج البشير وزير سلطان مملكة بورنو كان له ثلاثمائة زوجة وترك بعد وفاته ثلاثة وسبعينا ولدا ذكورا ونحو الخمسين بنتا.

وقال أن المسلمين أكثر أولادا من النصارى، ومعنى هذا حسبه أن من أسباب زيادة سكان إفريقيا انتشار ظاهرة تعدد الزوجات.

وقدم بعض الأمثلة من الجزائر عن كثرة الأولاد في العائلات التي توجد فيها ظاهرة تعدد الزوجات ، فقال أن الشيخ محمد بن بنونور الساكن في بلدية عطية المختلطة وهو متزوج بأربع نساء، قد بلغ عدد أولاده وأحفاده 172 ، وله ولد رضيع رغم انه كان شيخا طاعنا في السن، كما ان جاره الشيخ السعيد كان له مع إخوته 204 من الأولاد والأحفاد.⁴²

وكان عدد أفراد أسرة بن حبيص المقيمين بـفج امزالة" فرجية حاليا" قد بلغ 298 فردا يدعون أن جدهم واحد.⁴³

الفصل التاسع: وهو " خاتمة الكتاب." ⁴⁴

وفيها وضح أن البلدان الإفريقية المسلمة الواقعة تحت الاحتلال الفرنسي هي أفضل حالا من غيرها ، وذلك على حد زعمه لانتشار التمدن بها واعتناء الفرنسيين بأحوالهم على عكس باقي الأمم المتوحشة التي لم تدخل في طاعة الفرنسيين.

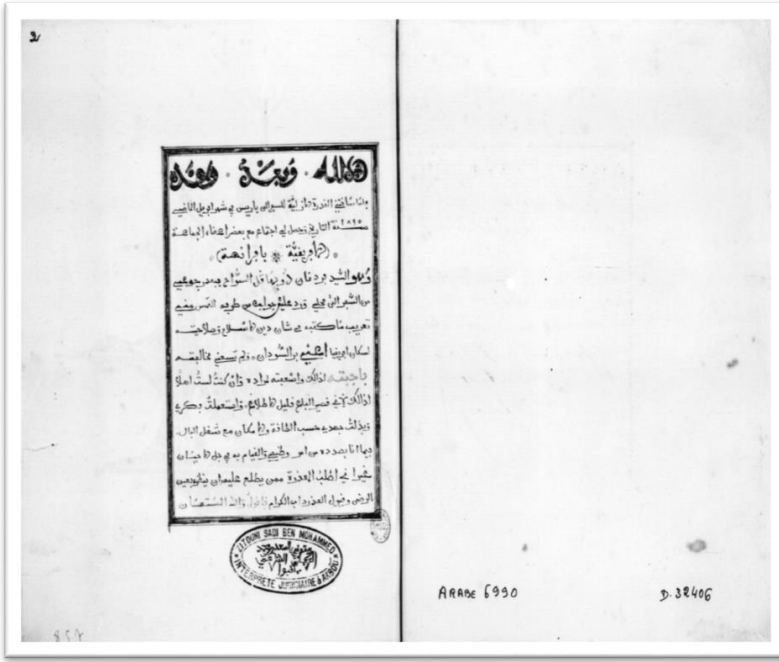
وقال أن الفرنسيين بذلوا جهدهم في نشر الإسلام في القارة الإفريقية تحت نظرهم وولايتهم كما قال، " وعمارة المغرب بالتمدن الإسلامي تحت نظر افرانسة وحمايتها." ⁴⁵

خاتمة:

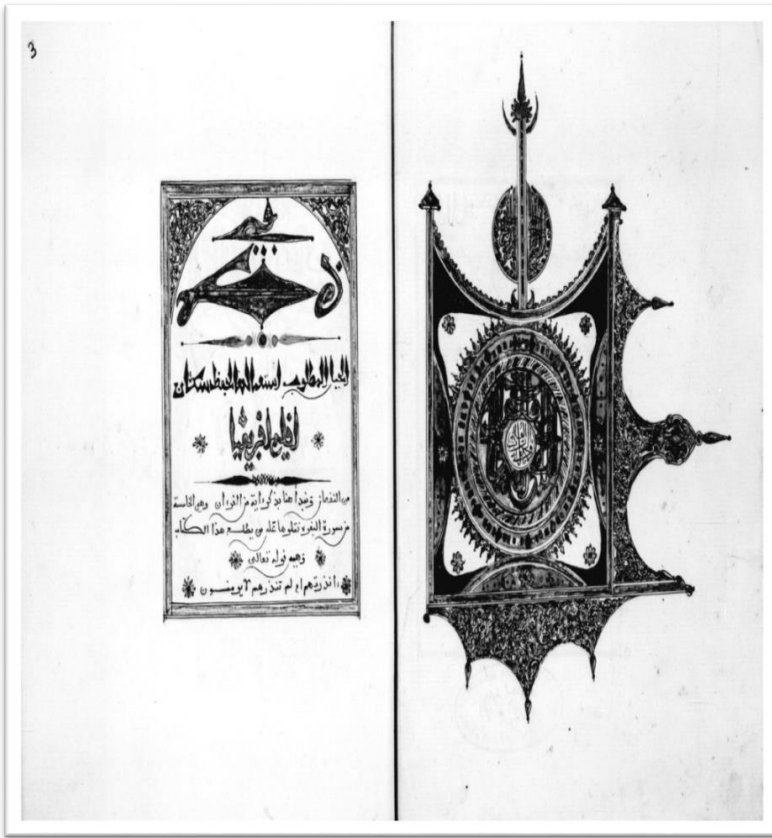
في ختام هذه الدراسة التي أردنا فيها تقديم لمحة عن مخطوط نادر مع التعريف بصاحبه المغمور، خلصنا إلى جملة من النتائج نلخصها في النقاط التالية:

- تتمثل القيمة الكبرى لهذا المخطوط هو أنه جهد لجزائري زمن الاحتلال في الترجمة من الفرنسية للعربية، والمعروف أن الفرنسيين في الغالب كان يهتمهم ترجمة بعض الأعمال العربية للفرنسية وليس الترجمة من الفرنسية للعربية.
- كتب المخطوط بخط صاحبه، ولم نتمكن من مقارنته مع النص الأصلي الذي نشر في نفس السنة أي سنة 1895 إلا أننا عرفنا دقة الترجمة والتحكم في الأفكار الأساسية للنص الفرنسي.
- تضمن المخطوط عددا من المعلومات التاريخية الهامة عن صاحب المخطوط الذي ذكر اسمه كاملا ووظيفته كما أورد حتى ختمه كمتراجم شرعي في منطقة آقبو ببجاية شرق الجزائر.
- يجمل المخطوط أفكار المترجم وصاحب النص، ويبدو من النص أن المترجم كان حافظا للقرآن الكريم مطالعا على كتب التراث العربي، كما يظهر من أسلوبه أنه متأثر بطريقة ابن خلدون فعباراته كلها مستوحاة من المقدمة: العمارة والعمران والتمدن والتوحش، وقد حاول الدفاع عن الإسلام من التهم المنسوبة إليه وهي إبادة الشعوب الوثنية التي خضعت لسلطة الإسلام في القارة الإفريقية.
- جاء في المخطوط عدة إشارات يفهم منها ان سياسة فرنسا تجاه دول إفريقيا عموما والجزائر على وجه الخصوص هي قائمة على أساس التمدن وتهذيب الناس، وان عدد السكان قد زاد مع الوجود الفرنسي، ولم ينقص.
- كما استخدم الكاتب بعض الآيات القرآنية للحث على التقارب بين المسلمين والنصارى وإزالة كل أشكال العداوة والخلاف بينهم.

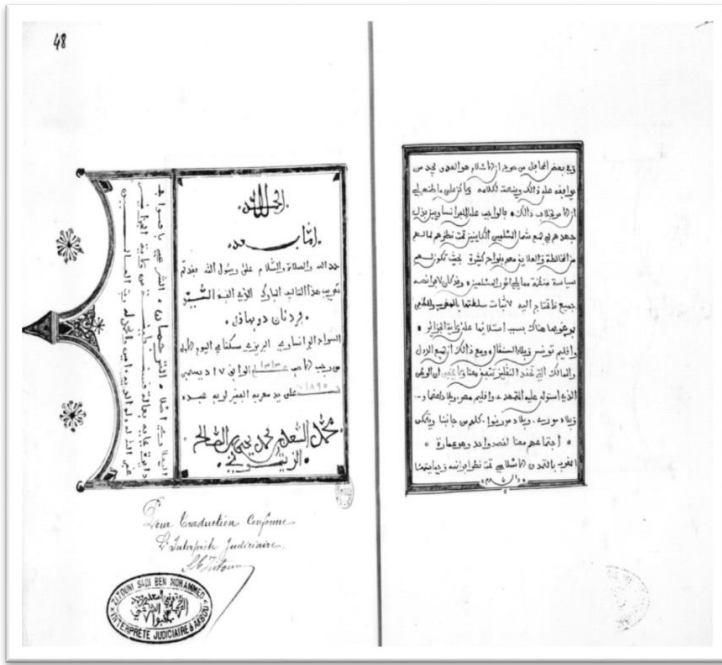
الورقة الثانية من المخطوط:



الورقة التي يظهر فيها عنوان المخطوط:



الورقة الأخيرة من المخطوط ويظهر فيها ختم وتوقيع صاحب المخطوط



صورة الطبعة الأصلية لكتاب دي بهاهل الصادرة سنة 1895



صورة الجنرال فرديناند دي بهاول وهو من طلب من صاحب المخطوط ترجمة عمله إلى
العربية



1 - المصدر نفسه ، الورقة رقم 02 ب.

2 - فرديناند دي بيهافل (1857-1899) هو احد ابرز رواد الاستعمار والاستكشاف الفرنسي للقارة الإفريقية ، عمل في الجزائر بين سنوات 1885 - 1891 أرسل في مهمة الى Oubangui-Chari بين عامي 1892-1893 ، وقتل بأمر من السلطان راجح ، انظر:
 . 57, p 1992 Pierre Kalk: Histoire centrafricaine, L'Harmattan,

3 - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي ، ج 7، دار البصائر، الجزائر، ط6، 2009، ص 343.

4 - p.30 Extrait des Bulletins et mémoires de la Société africaine de France, avril-mai 1895,

5 - نشره في كتاب مستقل في نفس السنة:

Béahgle, Ferdinand de: Des moyens de combattre la dépopulation en Afrique, Paris: J. André: - 1895.

6 - محمد السعدي الزيتوني اليعلاوي: المصدر السابق ، الورقة رقم 48 ب.

7 - منطقة بني يعلى شمال سطيف اصل تسميتها حسب مولود قايد من شخص يدعى يعلى و هو أمازيغي متعلم انتقل إلى المنطقة للإقامة بها، واعتمد المؤلف في هذا الخبر على الروايات المتداولة بين أهالي المنطقة العارفين بتاريخها، وذكر مصاهرة يعلى لبعض أسر المنطقة ووفاته بعد مدة، وبناء الأهالي ضريحا على قبره لا يزال موجودا بتاوريرت، وتركة ذرية هي التي شكلت أسلاف الفروع القبلية الموجودة ببني يعلى كأيت سعيد أو يعلى و أيت عثمان وأيت مسعود التي تقيم بقنزات وأيت المشري وأيت حمادة التي تقيم في تيمناقش، وذكر بعض الواقدين إلى المنطقة للاستقرار بها وعلى رأسهم المرابطين والأشراف الذين يحضون بمكانة هامة عند أهالي المنطقة. انظر:

8 - 3.0 Mouloud Gaid: Monographie des Beni-Yala, imprimerie algérienne, Alger : 1953, p.

9 - 427 Comité du Maroc : Bulletin du Comité de l'Afrique française, Paris. 1897, p.

10 - يعد أبو القاسم بن سديرة من بين علماء الجزائر المتميزين خلال الفترة الاستعمارية " 1845 - 1901" تولى بعد عودته من فرنسا مهمة التدريس بمدرسة تكوين المعلمين كأستاذ للغة العربية الدارجة سنة 1869 بعد أن عين في 1866 كمراقب بنفس المدرسة، وكان أيضا أستاذا للشريعة بالمدرسة الشرعية بالجزائر، كلف من الحاكم العام لويس تيرمان سنة 1886 بدراسة ميدانية بمنطقة القبائل وبجاية لجمع المعطيات حول الهجات البربرية، قدم خدمات كثيرة لمجال الاستعراب الفرنسي في الجزائر وكذا الدراسات البربرية والدراسات المعجمية التي كان أحد أبرز روادها قبل ظهور ابن شنب توفى بن سديرة بعد أن أصيب بمرض في مدينة الجزائر في 30 نوفمبر سنة 1901 ودفن بها انظر: فارس كعون: من المصادر الألفية النادرة للتاريخ الثقافي للجزائر أواخر القرن 19 م كتاب الرسائل في جميع المسائل لبلقاسم بن سديرة، ضمن كتاب جماعي بعنوان مصادر تاريخ الجزائر ، منشورات مخبر بحث الحضارة الإسلامية بالاعواط ، 2019، ص 231.

11 - Belkassem ben Sedira: Une mission en Kabylie sur les dialectes berbères et l'assimilation des indigènes, Alger, librairie Adolphe Jourdan, Alger, 1887 , p LXIX

- 12 - محمد الصالح بكوش: الترجمة في الجزائر أثناء الاحتلال الفرنسي، دار التنوير، الجزائر، ط 2013، ص 186.
- 13 - المرجع نفسه، ص 188.
- 14 - L'Oued-Sahel : journal politique, littéraire, commercial et agricole, 21 é Année, n 1318, Paris, 1884 Club alpin français, bulletin mensuel, p 120 .
- 15 - L'Oued-Sahel : journal politique, littéraire, commercial et agricole, 21 é Année, n 1318, 01-1898, p 11 -20Dimanche le
- 16 - Bibliothèque nationale de France : Département des manuscrits. Arabe 6990 .
- 17 - محمد السعدي الزيتوني اليعلاوي: المصدر السابق ، الورقة رقم 01 ب.
- 18 - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 6، دار البصائر، الجزائر، ط6، 2009، ص 181.
- 19 - إسماعيل بوضرية هو ابن احمد بوضرية ولد بمارسيليا سنة 1820 وعمل مترجما لدى الفرنسيين كلفه الحاكم العام راندون بجمع أخبار الصحراء أثناء ثورة محمد بن عبد الله ، فقام برحلته التي نشرت سنة 1858، انظر حوله:
- أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 7، دار البصائر، الجزائر، ط6، 2009، ص 461 – 462.
- 20 - انظر الورقات: 4 أ، 7 ب، 12 أ، 16 أ، 21 أ، 27 ب، 34 أ، 43 أ، 46 أ.
- 21 - من الورقة 3 ب الى الورقة 7 أ.
- 22 - محمد السعدي الزيتوني اليعلاوي: المصدر السابق ، الورقة رقم 03 ب.
- 23 - المصدر نفسه ، الورقة رقم 04 ب و 05 أ.
- 24 - من الورقة 7 ب الى الورقة 11 ب.
- 25 - محمد السعدي الزيتوني اليعلاوي: المصدر السابق ، الورقة رقم 07 ب.
- 26 - المصدر نفسه ، الورقة رقم 08 ب.
- 27 - المصدر نفسه ، الورقة رقم 11 أ.
- 28 - من الورقة 12 أ الى الورقة 15 ب.
- 29 - محمد السعدي الزيتوني اليعلاوي: المصدر السابق ، الورقة رقم 12 ب.
- 30 - المصدر نفسه ، الورقة رقم 13 ب.
- 31 - من الورقة 16 أ إلى الورقة 20.
- 32 - محمد السعدي الزيتوني اليعلاوي: المصدر السابق ، الورقة رقم 19 ب.
- 33 - من الورقة 21 أ الى الورقة 27 أ.
- 34 - محمد السعدي الزيتوني اليعلاوي: المصدر السابق ، الورقة رقم 24 ب.

- 35 - من الورقة 27 إلى الورقة 33.
- 36 - محمد السعدي الزيتوني اليعلاوي: المصدر السابق ، ورقة 27 ب إلى ورقة 29 أ
- 37 - المصدر نفسه ، الورقة رقم 33 ب
- 38 - من الورقة 34 أ إلى الورقة 42 ب.
- 39 - محمد السعدي الزيتوني اليعلاوي: المصدر السابق ، الورقة رقم 37 أ و 37 ب.
- 40 - من الورقة 43 أ إلى الورقة 45 ب.
- 41 - محمد السعدي الزيتوني اليعلاوي: المصدر السابق ، الورقة رقم 43.
- 42 - محمد السعدي الزيتوني اليعلاوي: المصدر السابق ، الورقة رقم 45 أ و 45 ب.
- 43 - المصدر نفسه ، الورقة رقم 45 ب.
- 44 - من الورقة 46 أ إلى الورقة 48 ب.
- 45 - محمد السعدي الزيتوني اليعلاوي: المصدر السابق ، الورقة رقم 48 أ.

الكاتب: أ.د/ قاسم عبد سعدون الحسيني
 عنوان المقال: حركة الاسترداد
 جمهورية العراق جامعة ميسان / كلية الأسبانية *Al reconquista*
 التربية / قسم التاريخ (الريكونيكيستا) قراءة في المصطلح والمضمون

البريد الإلكتروني: ukm_2012@yahoo.com

تاريخ الارسال: 19/09/2019 تاريخ القبول: 18/12/2019 تاريخ النشر: 2020/03/31

حركة الاسترداد الأسبانية *Al reconquista* (الريكونيكيستا) قراءة في المصطلح

والمضمون

Al Reconquista Read the term and content

الملخص بالعربية:

شهدت الكتابات التاريخية التي تناولت تاريخ الأندلس طوال القرون الثمان التي شغلها الوجود الإسلامي في بعض أجزاء شبه الجزيرة الأيبيرية ، نشاطاً ملموساً في الجانب البحثي ، بيد أنه لا يزال الغموض يكتنف الكثير منها ولا سيما ما يتعلق بحدود أو امتداد الوجود الإسلامي في مناطق شبه الجزيرة الأيبيرية ولا سيما المناطق الشمالية من أسبانيا النصرانية وتحديداً منطقة اشتوريس *Asturias* التي ظلت في حكم المجهول في الكتابات التاريخية الإسلامية بسبب قلة المعلومات التاريخية حول تلك المرحلة التأسيسية من عمر مملكة اشتوريس *Asturias* . إذ نالت هذه المنطقة شهرة واسعة في الكتابات التاريخية الأسبانية كونها المنطقة الأولى التي شهدت انطلاق أول حركة مقاومة للوجود الإسلامي في شبه الجزيرة الأيبيرية عُرفت بحركة الاسترداد الأسبانية (الريكونيكيستا) *Al Reconquista* (98-897هـ / 717-1492م) ، تزعمها القائد الثوري المدعو بلاي *Pelay* ، الذي كان ولا يزال محل قداسة واحترام من قبل الباحثين الأسبان ، إذ كان له دورٌ كبيرٌ في تأسيس هذه الحركة التي أخذت قادتها على عاتقهم مهمة قومية كبرى تمثلت بمقارعة الوجود الإسلامي في شبه الجزيرة الأيبيرية ، وإنهاءه من كامل التراب الأيبيري ، علماً أنّ هذه الحركة مرت بأكثر من دور قبل أن تتبلور وتفرض نفسها ، فأتسّع نطاقها وتعرزت أركانها ، واتخذت مخططات شاملة محكمة استطاعت من خلالها تحقيق

نجاحات عسكرية كبرى مستغلة ضعف الكيان السياسي في الأندلس الإسلامية . ومن هنا انبثقت أهمية الموضوع كونه من المواضيع المختلف عليه عند جمهور الباحثين ولا سيما في ما يتعلق بتفسير مصطلح الاسترداد وتحديد سنوات انطلاقه ، لذا جاءت هذه الدراسة لتكشف النقاب عن حقبة تاريخية مهمة استطعنا أن نحدد ما هية الاسترداد ومفهومه كونه حركة وطنية كانت اسبانيا وما تزال تعظمها وتتغنى بها إلى يومنا هذا .

Abstract :

The historical writings on the history of Andalusia during the eight centuries occupied by the Islamic presence in some parts of the Iberian Peninsula, witnessed significant activity in the research side, but there is still a lot of ambiguity surrounding them, especially with regard to the limits or extension of Islamic presence in the regions of the Iberian Peninsula Especially the northern regions of Christian Spain, specifically the region of Asturias, which remained in the rule of the unknown in the Islamic historical writings due to lack of historical information about that founding phase of the age of the Kingdom of Asturias Asturias. This region became famous in Spanish historical writings as the first region to witness the first movement of resistance to the Islamic presence in the Iberian Peninsula known as the Spanish Reconquista (98-897 / 717-1492), led by the revolutionary leader called Pelay He was, and still is, the subject of holiness and respect by the Spanish researchers, as he had a great role in the establishment of this movement, whose leaders took upon them a major national task of combating the Islamic presence in the Iberian Peninsula and ending it from the entire Iberian territory. More than one role But to crystallize and impose itself, Votsa scope and strengthened its pillars, and has taken a comprehensive schemes in which the Court was able to achieve major military successes taking advantage of the weakness of

the political entity in the Islamic Al-Andalus. Hence, the importance of the subject emerged as a controversial topic among the research public, especially with regard to the interpretation of the term recovery and determine the years of its launch, so this study came to unveil an important historical era we were able to determine what is the recovery and the concept of being a national movement was Spain and still great And sings it to this day

يمثل الوجود الإسلامي في الأندلس امتداداً لحركة التوسع العسكري التي انطلقت من شبه الجزيرة العربية ، إذ نجح المسلمون في السيطرة على معظم نواحي شبه الجزيرة الأيبيرية ، فأقاموا في بعض مناطقها مدة تقارب ثمان قرون (92هـ-897 هـ / 711-1492م)¹ ، إلى أن اضطروا إلى إخلائها كلياً في أواخر القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي 897 هـ/ 1492 م، وهنا صار لزاماً علينا أن نفرق بين مفهومين يتعلقان بهذا الحدث المهم في تاريخنا الإسلامي ، وأن نحدد المنطلقات التي على أساسها يتم التعامل مع تلك المفاهيم، والتسميات فحينما يطلق المؤرخون العرب والمسلمون تعبير الفتح الإسلامي لاسبانيا فأهم ينطلقون من منطلقات قومية عربية ودينية إسلامية ، في المقابل فإن المؤرخون الأسبان وربما المتعصبون منهم بشكل خاص يطلقون على ذلك الحدث تعبير الغزو الإسلامي لاسبانيا وهم أيضا ينطلقون من منطلقات قومية اسبانية ودينية مسيحية .

² ، ومن نافلة القول أن هذا المصطلح لا يرد في المصادر العربية بتاتاً، ولا نعثر على ما يقابله أو يقوم مقامه، أو يشابهه في دلالاته ، علماً أنها كانت مشروعاً مشتركاً بين مكونات المجتمع النصراني ، تمخض عنه نضالاً ساهم في ولادة اسبانيا الجديدة ، بعد أن خاض رواد هذه الحركة حروباً مقدسة بالنسبة لهم سعوا من خلالها للدفاع عن سلامة ، وأراضي اسبانيا وتخليصها من سلطان المسلمين³.

وقد رافق قيام هذه الحركة دعم ديني كبير أسهم في إنجاحها ، وتطورها بحيث أقدم الكثير من شباب أوروبا ، للانضمام والانخراط إلى جانب الأسبان ومشاركهم في الحروب التي وقعت بينهم وبين المسلمين في شبه الجزيرة الأيبيرية لذلك شكلت هذه الحروب لحظة حاسمة

في تحديد الهوية الأسبانية والدفاع عن النصرانية واسترداد اسبانيا لحظيرة الكنيسة ، وعودتها نصرانية مثل ذي قبل⁴ ، فلا غرابة أن يرتبط مصطلح الاسترداد *Al reconquista* (الريكونيكيستا) ، مع القومية الأسبانية⁵ ، الأمر الذي أكد عليه المؤرخين الأسبان الذين سعوا جاهدين على جعل هذه الحركة اسبانية خالصة دون تدخل أو مساعدة أطراف أو قوى خارجية أخرى⁶ ، مؤكدين أن اشتوريس *Asturias*⁷ هي النافذة التي انطلق منها تيار هذه الحركة التي أخذت تزداد سطوعاً وانتشاراً بشكل سريع⁸ ، مستغلة خلافات القوى الإسلامية التي حكمت الأندلس في تلك الفترة ، ومعتبرين أن قضيتهم قضية اسبانية ووطنية بحته منوطة بملوكها القوط⁹ وحدهم دون غيرهم ، الأمر الذي يرفضه البعض معترضاً بأن تلك الحركة ارتبطت بالفكرة القومية وي طرح موقفاً متطرفاً من ذلك مؤكدين أن الأسبان لم يكن قصدهم من هذه الحركة أو من حروبها فتح بلادهم أو استردادها ، وإنما الإغارة على المسلمين وسلب ونهب ما بأيديهم والانتقام منهم¹⁰ ، ولا يبدو ذلك صحيحاً إذ أن المتتبع لهذه الحركة يجد أنها انطلقت من مفهوم قومي وديني، وأن نتائجها قد غيرت التاريخ الإسلامي بشكل كبير ، وأن أثرها لم يكن محصوراً على التراب الأيبيري فقط بل امتد إلى مناطق واسعة من العالم الإسلامي فقد أندفع الأسبان من منطلقات دينية وقومية ووسعوا نفوذهم خارج شبه الجزيرة الأيبيرية .

ونظراً لأهمية هذه الحركة لا بد لنا أن نعرف جذور تشكيلها، وبداياتها وأطوارها وتاريخها القومي ولا سيما أنها تعد حركة ذات عنصر كبير الأهمية في تكوين إسبانيا الحديثة، ويعدها الشعب الإسباني من أهم الأحداث الوطنية الخالدة في تاريخه القومي، ويرى فيها مقاومة إسبانية قومية، ونشاطها من أقوى مراحل الكفاح الإسباني خلال تاريخ أيبيريا على مر عصورها التاريخية ، فقد تبلور خلالها صراع أمتد زهاء ثمان قرون كانت أبرز ملامحه بأنه صراع وجود لا صراع حدود¹¹ ، لذا فلا غرابة إذا بقيت هذه الحركة حية في نفوس الأسبان تكريماً لما بذله روادها من جهود امتدت قروناً متوالية ، ما لانت خلالها لهم عريكة أو همدت لهم همة ، رغم الصعوبات البالغة التي واجهتهم ، وإذا كانت هذه الحركة قد صادفت اهتماماً بالغاً من المؤرخين اللاتين ، فتتبعوا تطوراتها في أدق جزئياتها وتفصيلها ، حتى بدت في كتابات العرب الحديثة وكأنها مجرد أمر غير مرئي أو مسألة خفية لم يتوقعوا نجاحاً لها أو توفيقاً ،

فأهملوها قليلاً واحتقاراً لشأنها ، في حين غالى المؤرخون الأوربيون والأسبان في تقييمها ، وأحاطوها بهالة من الاهتمام والقداسة ، إلا أنّ الطابع الانتقائي يسمُ معظم دراساتهم ، إذ تعمدوا إبراز جوانب معينة في أحداثها ، أتسمت بالغلو في تقييم تلك الحركة ، بل أنّها وصفت في كثير من الأحيان بطابع قومي متطرف وديني متعصب ، وهذا يبدو واضحاً من خلال تصويرهم للصراع الذي خاضه الأسبان مع المسلمين ، على أنّه صراعٌ صرفٌ بين الإسلام والنصرانية ، وبعض تلك الدراسات تفسح المجال لكثير من الأساطير الخارقة ، إبرازاً للتأييد الإلهي للأسبان في مقاومتهم لأعدائهم المسلمين¹² ، ولا سيما في المراحل الأولى للمقاومة الأسبانية للوجود الإسلامي بالأندلس وهذا يظهر واضحاً عند الحديث عن موقعة كوفادونجا *Covadonga*¹³ التي يعدها الأسبان باكورة الانتصار الكبير الذي حققتهُ حركة الاسترداد الأسبانية *Al reconquista* (الريكونيكيستا) ، وأنّ التاريخ العسكري لهذه الحركة يبدأ في اليوم الذي أنتصرَ فيه الأسبان على المسلمين في هذه المعركة¹⁴.

نشأت حركة الاسترداد الأسبانية *Al reconquista* (الريكونيكيستا) بعد دخول المسلمين إلى شبه الجزيرة الأيبيرية وتكونت أولى نواتها سنة 98هـ/718م¹⁵ ، على يد الثائر بلاي *Pelay* حينما استطاع تحشيد الثائرين الناقمين على المسلمين الذين احتلوا بلادهم¹⁶ ، لذلك فأنهم يؤكّدون على طابعها الأسباني الأمر الذي لا يمكن قبوله أو الأخذ به إذ أنّ المعطيات التاريخية تشير إلى أنّ الحركة نشأت اسبانية خالصة ، لكنها قد تلقت دعماً خارجياً فيما بعد واکبَ سير تحركاتها وساعدها على تحقيق أهدافها وهذا يظهر واضحاً من خلال تسرب الأنظمة الديرية إلى شبه الجزيرة الإيبيرية، وعلى رأسها نظام كلوني *Cluny* ، ونظام سيستيرسي *Cistercy*¹⁷ ، ودعم الكنيسة لها ونعت حروبها بأنّها حروبٌ مقدسة ومنحها امتيازات خاصة بعد أنّ أبدى البابا انوسانت الثالث *Inocente III* (595-613هـ/1198-1216م)¹⁸ ، الذي ينحدر من أصول أسبانية ، حماسة منقطعة النظير لهذه الحركة ، فازدادت أهميتها¹⁹ واتخذت من الدين عاملاً مساعداً لها ، فتمّ تأسيس النظم الديرية العسكرية *Ordres militares* ، في اسبانيا²⁰ ، وأصبحت ذات تأثيراً كبيراً على الشعب الأسباني²¹ ، وقد رفض البابا

أوربان الثاني *Urban II* (481-493هـ/1088-1099م) ²² ، صاحب الحملة الصليبية الأولى في التاريخ ، والأخذ لقرار الحروب الصليبية على المشرق الإسلامي ، والتي تعتبر دعوته للحروب الصليبية هي بداية الانطلاق للدولة الدينية في أعتا صورها كما أنّها كانت البداية لظهور ما يسمى بصكوك الغفران ²³ ، رفض مشاركة المطران برنارد *Bernardo* ، وعدد من القساوسة الأسبان في الحروب الصليبية بالمشرق قائلاً لهم : يوجد في بلادكم (اسبانيا) حرب صليبية ، ولم يكتف بذلك بل أصدر هذا البابا مرسوماً حُرِّمَ فيه على رجال الدين والفرسان الأسبان المشاركة في صليبيات المشرق ، لأنّ محاربة المسلمين باسبانيا لا تقل أهمية واعتباراً عن الحرب الصليبية المشرقية ، وقد ترتب على ذلك أن هرع الكثير من الفرسان من مختلف أوربا إلى الأندلس ليساهموا في حرب الأسبان ضد المسلمين ²⁴ ، ناهيك عن المساعدات الكبيرة التي قدمتها حكومات الفرنج لسير هذه الحركة وتطورها ²⁵، لذا فلا جدال في أنّ الحروب الصليبية التي شهدتها المشرق الإسلامي منذ أواخر القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي، كانت امتداداً للحروب الدائرة رحاها وقتذاك على الأرض الإسبانية ضد مسلمي الأندلس .

وعن مواقف المؤرخين حيال قيام هذه الحركة وتطورها فقد اعتبر البعض أنّ إطلاق تسمية الاسترداد *Al reconquista* (الريكونيكيستا) على حركة المقاومة الإسبانية منذ ميلادها في أوائل القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي ، وربطها بحركة الاسترداد الحقيقي ، لا يخلو من خطأ كبير ، لأنّ اشتوريس *Asturias* إنّما ولدت حسب وجهة نظرهم في ناحية لم يفتحها العرب قط ، فميلادها لا يعد بدءاً لحركة الاسترداد الإسبانية *Al reconquista* (الريكونيكيستا) وإنّما يُعد ميلاداً لحركة المقاومة الإسبانية للسيادة الإسلامية ²⁶ ، وذهب آخرون إلى أبعد من ذلك حينما أكد بعضهم على إنّ الاسترداد الحقيقي قد بدء في عهد الطوائف (422-484هـ/1030-1091م) ، أما قبل ذلك فقد كان هدف ممالك اسبانيا وهما الوحيد هو العيش بسلام من غزوات المسلمين ²⁷ ، ويبدو من خلال ما تقدم أنّ هؤلاء المؤرخين قد تناسوا إنّ في عصر الولاة (95-138هـ/714-755م)، قد استرد الأسبان مدناً وحصوناً مهمة ذات مساحات شاسعة قدرت مساحتها بربع شبه الجزيرة الأيبيرية ²⁸ ، وأنحسر الوجود الإسلامي في منطقة الشمال الأسباني مع تراجع التوسع الإسلامي في تلك المنطقة، لذا فمن

منطق الدقة القول إنَّ حركة الاسترداد الاسبانية *Al reconquista* (الريكونيكيستا) قد ولدت بعد وصول المسلمين إلى أراضي شبه الجزيرة الأيبيرية بست سنوات أي تحديدا سنة 98هـ/718م ، وكذلك يحق لنا أن نتساءل بالقول ألا يعتبر ميلاد حركة المقاومة الأسبانية ضد السيادة الإسلامية البذرة أو الخطوة الأولى في عملية الاسترداد ؟ والتي سارت بخطوات ثابتة نحو استرداد أجزاء ومدن كبيرة في الشمال الأسباني . ويبدو إن المؤرخين الفرنسيين هم من روجوا لهذا الفكرة ، رداً على ادعاء المؤرخين الأسبان أن هذه الحركة هي حركة اسبانية خالصة ، فراح الفرنسيين يقللون من شأن بداياتها ويدعون أن الاسترداد الحقيقي قد بدأ في عهد الطوائف ، حتى لا يغيبوا دور شارلمان *Charlemagne* (151-199هـ / 768-814م)²⁹، بصورة خاصة في نجاح هذه الحركة أو دور الفرنج بصورة عامة .

لم يكتفِ المؤرخون بهذا الاختلاف بل اختلفوا أيضاً حول مفهوم مصطلح الاسترداد *Al reconquista* (الريكونيكيستا)، فالواقع أن معظم المؤرخين اتفقوا على إنَّ هذا المفهوم يظهر في إطارين مختلفين هما الإطار الأول : يشمل جهودهم ومقاومتهم لكل غازٍ غزا شبه الجزيرة الأيبيرية من القوى الأجنبية ، التي نزحت إليها .

الإطار الثاني: يرى البعض إنَّ المقصود بحركة الأسترداد *Al reconquista* (الريكونيكيستا) أنها تقتصر على مقاومة المسلمين الذين سيطروا على شبه الجزيرة الأيبيرية سنة 92هـ/711م³⁰ ، حتى طردهم منها وانتهاء وجودهم السياسي سنة 897هـ/1492م³¹ ، ويرى الباحث أنَّ الإطار الثاني هو الأقرب إلى الحقيقة عند معظم المؤرخين ، إذ إنَّ المتبع لتربية المجتمع الأسباني يجد أنَّه خليطاً متجانساً من شعوب عدة قد غزت أراضي شبه الجزيرة الأيبيرية على مر العصور ، ولم تواجه تلك الغزوات مقاومة من قبل الشعب الاسباني بل أنَّه ذاب وأنخرط مع أولئك الغزاة وتعايش مع غالبية ، روماناً كانوا أو قوطاً أو غيرهم ، لذا فإنَّ الرأي السائد والأرجح هو أنَّ حروب الاسترداد هي تلك الحروب التي شنها الأسبان لطرد المسلمين من الأندلس .

المراحل التاريخية لحركة الاسترداد الاسبانية .

مرت حركة الاسترداد الأسبانية *Al reconquista* (الريبكونيكيستا) بحقب وأطوار تاريخية مختلفة فهي تخبو وتضمحل حينما تكون الأندلس قوية وموحدة تحت لواء الإسلام وهذا ما سنلاحظه في حقبة عصر الخلافة الأموية في الأندلس (316-400هـ / 929-1009م) حيث تعامل خلفاء بني أمية مع هذه الحركة بكل ما يمتلكون من قوة وحزم ، لذا فلا نجد لها أي دور يذكر في تلك الحقبة التاريخية ، لكنها تنشط وتتوسع حينما يتزايد الصراع والخلاف الإسلامي الداخلي الذي بلغ ذروته في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، وهو عصر دول الطوائف بالأندلس(422-484هـ / 1030-1091م)، ففي هذا العصر انفرطت عرى وحدة الدولة بالأندلس، وتجزأت إلى عدد كبير من الدويلات المتناحرة فيما بينها، وأصبح التاريخ الأندلسي مطبوعاً بالصراعات بين ملوك الطوائف، وبدخل الملوك الأسبان في الشؤون الداخلية للأندلس أكثر فأكثر، وزاد الأمر خطورة الضعف العسكري الكبير الذي أضحت عليه دويلات الطوائف بالمقارنة مع الممالك النصرانية الشمالية ، واستغلّ النصارى هذه الظروف وتزايد نشاط هذه الحركة وأخذت تسير باتجاه استرداد المدن الأسبانية وتعميرها بشكل سريع³² . ليكونَ استرداد مملكة غرناطة³³ آخر حاضرة إسلامية في شبه الجزيرة الأيبيرية سنة 897هـ/ 1492م ، خاتمة لحروبها ونضالها الكبير ، وقد قسم المؤرخ بيبي³⁴ *Payne* ، مراحل تاريخ هذه الحركة وما قامت به من جهد كبير من أجل استرداد المدن الأسبانية وفق المراحل الآتية :-

- 1- المرحلة الأولى تمتد من سنة 123-174هـ / 740-790م ، إذ تم في هذه المرحلة استرداد مناطق واسعة من أراضي جليقية *Gallaecia*³⁵، ويبدو أن بيبي *Payne* ، من المؤرخين الذين يؤكدون أن معركة كوفادونجا سألقة الذكر قد وقعت في سنة 123هـ / 740م ، على خلاف ما سنثبتهُ من أنها وقعت في عهد الوالي عنبسة بن سحيم الكلبي (103-107هـ / 721-725م)³⁶ .
- 2- المرحلة الثانية من سنة (236-339هـ / 850-950م)، شهدت هذه المرحلة توسع الأسبان ، وسيطرتهم على المناطق القريبة من نهر دويرة *Duero*³⁷ واسترداد إقليم قطلونيا *Catalonia*³⁸ .
- 3- المرحلة الثالثة والتي تتمثل بحقبة القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، والتي شهدت سيطرة الأسبان على وسط شبه الجزيرة الأيبيرية واسترداد بعض أراضي البرتغال .

4- المرحلة الرابعة والمتمثلة في بدايات القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي ، والتي شهدت فيها مملكة أرغون³⁹ توسعا كبيرا وتقدما باتجاه الجنوب واسترداد مدن مهمة .

5- المرحلة الخامسة والمتمثلة في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي حيث شهدت فيها حركة الاسترداد الأسبانية *Al reconquista* (الريكونيكيستا) استرداد مناطق جزر البليار⁴⁰ ومدينة بلنسية *Valencia*⁴¹ .

6- المرحلة السادسة وفيها استرد الأسبان مناطق مهمة ، وتوسعت فيها مملكة قشتالة *Castilla* (ألبة والقلاع)⁴² ، على طول الساحل الجنوبي من شبه الجزيرة الأيبيرية .

7- المرحلة السابعة والمتمثلة في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي والتي استرد فيها الأسبان مملكة غرناطة آخر حاضرة إسلامية في بلاد الأندلس .

ومن الجدير بالذكر عندما نتحدث عن حركة الاسترداد الاسبانية وعدوانها على أراضي المسلمين ، فهذا لا يقتصر على الممالك النصرانية الشمالية ، بل يشمل القوى البحرية المسيحية المنضوية تحت لواء الكنيسة الكاثوليكية والمكونة من الإمارات الإيطالية وقوات الفرنجة التي كانت تقارع أساطيل دانية والجزائر الشرقية في البحر الأبيض المتوسط وتهاجم الثغور الإسلامية البحرية من حين لآخر ، فبعد استيلاء أغلب موالي مجاهد العامري⁴³ ، على سردانية⁴⁴ أيام حكم علي بن مجاهد العامري⁴⁵ سنة 441هـ/1049م ، قام البابا ليو التاسع *Leo IX* (426-446هـ/1044-1054م)⁴⁶ بتكوين حلف بحري مسيحي برعاية بيعة كبرى جمهوريات إيطاليا البحرية ، وقاموا بمهاجمة القوات الإسلامية في سردانية وأرغموها على الانسحاب منها ودمروا جزء لا يستهان به من أسطول دانية⁴⁷ .

ازدادت وتيرة وحركة الاسترداد وحروبها بعد إعلان البابا أوربان الثاني *Urban II* (481-493هـ/1088-1099م)⁴⁸ سنة 488هـ/1095م في مجمع كليرمون مُعلنًا للحروب الصليبية ضد المسلمين ، فوفد على اسبانيا أفواج جديدة من المقاتلين الفرنسيين لقتال المسلمين ومقارعتهم ، وكانت تلك الحرب أمتداد طبيعي للحروب الصليبية التي بدأت في المنطقة منذ سقوط جزيرة سردانية في يد البابا والقوات النصرانية المشتركة (الفرنسية والاسبانية) سنة 406هـ/1015م⁴⁹ .

الخاتمة .

توصلت الدراسة إلى النتائج التالية :-

- 1- يُعد وصول المسلمين إلى بلاد شبه الجزيرة الأيبيرية جزءاً من حركة توسع عسكري انطلق من شبه الجزيرة العربية بهدف نشر الإسلام وزيادة نفوذه في أرجاء المعمورة .
- 2- اختلفت الكتابات والروى التاريخية في التعامل مع وصول المسلمين إلى بلاد شبه الجزيرة الأيبيرية ، فالمسلمون ينظرون إلى هذا الحدث على أنه فتح إسلامي منطلقين من فكر ديني عربي ، إما الأسبان فإنه يعدونه غزو واحتلال منطلقين من فكر قومي ، الأمر الذي ولد اختلاف كبير في الكتابات التاريخية التي تناولت هذا الحدث الكبير .
- 3- أطلق الأسبان على حقبة نضالهم وتاريخهم القومي خلال الحقبة الزمنية الممتدة على مدار ثمان قرون (98-897هـ / 716-1492م) كرسوا فيها جهودهم لمقارعة الوجود الإسلامي في شبه الجزيرة الأيبيرية ، أطلقوا عليه مصطلح حركة الاسترداد الاسبانية أو ما يسمى عندهم -AL-Reconquista .
- 4- كانت الروح الصليبية حاضرة في قيام هذه الحركة ومساندتها في أحلك الظروف التي مرت بها ، بحيث أقدم الكثير من شباب أوروبا وشبانها للإنضمام والانخراط إلى جانب الأسبان ومشاركتهم في الحروب التي وقعت بينهم وبين المسلمين .
- 5- كانت منطقة اشتوريس نقطة اندلاع حركة الاسترداد الاسبانية على يد الثائر بلاي ، لذلك فقد كانت هذه المنطقة ومازالت تتمتع بأهمية ومكانة كبيرة عند الأسبان .
- 6- تمخض عن نضال الأسبان ضد المسلمين ولادة اسبانيا الجديدة ، التي أرتبط فيها مفهوم الاسترداد مع مفهوم القومية الأسبانية .
- 7- تراوح تأريخ هذه الحركة بين القوة والضعف ، فهي تنشط وتتصاعد وتيرة استردادها للأراضي الإسلامية كل ما ضعف الحكم الإسلامي في الأندلس ، وتضعف ويتوقف ذلك الاسترداد في حال توحده كلمة المسلمين في الأندلس وتمتعهم بقوة كبيرة تعجز الممالك النصرانية التصدي لهم أو النيل منهم .

الهبوامش

¹¹ ابن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب ، 1/ 276 : ابن الكردبوس ، تاريخ الأندلس ، ص43؛

² Maravall, Elconcepto, p35 : Linehan, History and the Historians , p78-79

³ Martín , Reconquista y repoblacion,p1-2 : Fitz , La Reconquista , p 3 .

⁴ Villgas , Norman and Anglo , p 38 : Merriman , The rise of the Spanish , p56

⁵ Pidal , The Spanish , p1/ 54.

⁶ Flich ,Alphonse II ,P117-131 .

من جهة الغرب بسلسلة جبلية *Gallaecia* أستوريس : منطقة تقع في شمال اسبانيا معزولة عن جليقية⁷ ، وعن منطقة كنتبرية من جهة *Sanabria* ، وجبال سنابريا *Ponferrada* شاهقة الارتفاع عرفت بجبال بونفرادا ، عُرف سكانها (اشتوريس) بقوة البنية والقدرة على *Deva* ، ونهر ديبايا *Estal* الشرق بمجرى نهر اشتورا (إسلا) ، تحمل الصعاب وأعباء الحياة وخشونة الطبايع كما يتصفون بالنجدة والأقدام حتى أنهم كانوا يضحون بأنفسهم لافتداء أو حماية من يلجأ أو يتقرب إليهم ويتعلقون به ، واتسمت حياتهم بالتقشف والاقتصاد حتى قيل أنهم يتناولون وجبة طعام واحدة في اليوم . ينظر : رمضان ، اشتوريس ، ص 47-48 ؛ الحسيني ، حروب الاسترداد ، ص58-59 .

⁸ رمضان ، شارلمان في مصادر تاريخ اسبانيا ، 32 / 157 .

⁹ القوط : يرجع أصل قبائل القوط إلى المنطقة الواقعة على ضفاف بحر البلطيق ، نزحوا من موطنهم الأصلي إلى الشواطئ الشمالية الغربية من البحر الأسود خلال القرن الثاني للميلاد ، لكنهم توزعوا إلى جهتين : حيث توجه القوط الشرقيون إلى السهول الجنوبية من روسيا ، فيما توجه القوط الغربيون إلى منطقة ترانسلفانيا والبلقان حيث استقروا عند الضفة الأخرى من نهر الدانوب وفقا للخيار ، بعدها انتقلوا إلى مناطق متعددة ومنها شبه الجزيرة الأيبيرية ينظر : براون ، تاريخ أوروبا ، ص 88-89 ؛ طرخان ، دولة القوط ، ص 32-33 .

¹⁰ روبرتسون ، ، إتحاف الملوك ، ص 138 .

¹¹ Palanques , La Reconquista Española,p 395.: Maravall, Elconcepto , p 36

¹² Aristizábal , Norman and Anglo , p 37

معركة كوفادونجا : هي معركة وقعت في أوائل فترة الحكم الإسلامي للأندلس بين قوة من المسلمين وقوة من **القائد** الاسباني الشهير بلاي، حيث تمكن الاسبان من هزيمة المسلمين هزيمة كبرى ، السكان المحليين بقيادة مملكة اشتوريس ، وقد حدثت هذه المعركة ، في وقد عدت المصادر الغربية هذه المعركة هي النواة الأولى لنشأة الواقعة في *Covadonga* ، التي تسمى أيضاً بمغارة كوفادونجا *Cova sanctae Mariae* مغارة القديسة ماريا ، على ساحل بسقاية. وقد أكتنت *Gijon* جبال كنتبرية في اشتوريس إلى الجنوب الشرقي من مدينة خيخون الغموض والشك وتاريخ وقوع هذه المعركة ولا سيما عند المؤرخين المسلمين ، فأبن عذارى والمقري يجعلون وقوعها في عهد الوالي عنيسة بن سحيم الكلبي (103-107هـ/721-725م)، أما ابن خلدون فيجعل وقوعها في

ولاية عقبه بن الحجاج السلوي (116-123هـ / 734-741م) ، أما رواية صاحب الأخبار المجموعة¹³ ، فتؤكد أنَّ هذه المعركة قد وقعت سنة 133هـ/ 751م ، وهو توقيت متأخر جداً ، لعله أستند على ما حصل من أحداث جسام في المشرق ومنها زوال الخلافة الأموية سنة 132م/ 750م ، الأمر الذي يكون قد ألقى بضلاله على مستقبل الأندلس بأسرها ، ينظر : ابن عذاري ، البيان المغرب ، 27/2 ؛ المقري ، نفع الطيب ، 3/17-18 ؛ 4/351-350 ؛ ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، 4/125 ؛ مجهول ، ص61 .

Merriman , The rise of the Spanish , p 56 . 14

Becerra , Los Reinos , p 2 ؛ Weiner , Discoveries are not to be , p 95-96 15

Becerra , Los Reinos cristianos , p 2-4 . 16

¹⁷ نظام كلوني Cluny ، ونظام سيسترسي Cistercy : وهي أنظمة أوروبية كانت تدعو الشباب الأوربي للمشاركة في الحروب الصليبية التي تهدف إلى محاربة الإسلام والقضاء عليه ودعت مبادئ هذه الأنظمة إلى توجه هؤلاء الشباب إلى اسبانيا ومقاتلة المسلمين هناك ينظر : العلياي ، الحملات الصليبية على الأندلس ، ص16 وما بعدها ؛ Guzman , Crusade in Andalus , p 289- 297 .

¹⁸ البابا انوسانت الثالث : وُلد باسم لوتاريو ده كونتي ده سغي ، ويلقب أحياناً باسم لوتر سغي ، كان البابا إنوسانت واحداً من أكثر البابوات سلطة وتأثيراً في تاريخ البابوية ، ويتمتع بنفوذ كبير على الأنظمة المسيحية في أوروبا ، بالإضافة إلى ادعائه حق التفوق على كل ملوك أوروبا وبندل جهوداً كبيرة من أجل تدعيم الإصلاح في الكنيسة الكاثوليكية فيما يخص الشئون الإكليريكية عن طريق الدكتراوات ومجلس اللاتيران الرابع . وأدى هذا إلى تحسين الكثير من القوانين الكنسية الغربية . ينظر : <https://www.marefa.org>

Housley , The later Crusades from Lyons , p 2 . 19

Guzman , Crusade in Andalus , p 289- 297 20

²¹ عاشور ، أوربا ، ص361-362 ؛ قاسم ، ماهية الحروب الصليبية ، ص7 ؛ العلياي ، الحملات الصليبية ، ص16

²² البابا أوربان الثاني : صاحب الحملة الصليبية الأولى ، وهو الذي تولى الكرسي البابوي في إحدى عشر سنة (481-493هـ/1088-1099م) ، وكان هو الأخذ لقرار الحروب الصليبية على المشرق الإسلامي ، وكان رجلاً ذكياً وسياسياً حاذقاً ، وتعتبر دعوته للحرب الصليبية هي بداية الانطلاق للدولة الدينية في أعني صورها كما انها كانت البداية لظهور ما يسمى بصكوك الغفران . ينظر : قاسم ، ماهية الحروب الصليبية ، ص90-94 ؛ السماك ، الفاتيكان ، ص30 .

²³ قاسم ، ماهية الحروب الصليبية ، ص90-94 ؛ السماك ، الفاتيكان ، ص30 .

²⁴ المطوي ، الحروب الصليبية ، ص191 ؛ O'Callaghan , Reconquest and Crusade , p 17-22

, Bishko , The Spanish and Portuguese , p2-4 Martinez , Reconquista , p 28

Becerra , Los rei nos cristianos , p2-3 . 25

- 26 مؤنس ، فجر الأندلس ، ص 310 ؛ بلاي وميلاد اشتوريس ، ص 59 ؛ مكي ، تاريخ الأندلس السياسي ، 68/1
Tuliani , La idea de Reconquista, p5
رمضان ، تاريخ المغرب والأندلس ، ص 381 .
- 27 السامرائي وآخرون ، تاريخ العرب وحضارتهم ، ص 135 .
- 28 شارلمان ؛ شارلمان بالفرنسية Charlemagne أو كارل الكبير بالألمانية (Karl der) وسماه العرب قارلة عاش (742- 814) هو ملك الفرنجية حاكم إمبراطوريتهم بين عامي (768- 800) وإمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة بين عامي (800- 814). وهو الابن الأكبر للملك بيبن الثالث من سلالة الكارولينجيين. ويعتبر بيبن القصير مؤسس حكم أسرة الكارولينجيين في حين يعتبر ابنه شارلمان (حكم من عام 768 إلى عام 814) أعظم ملوكها وهو أول إمبراطور روماني مقدس. ينظر : اينهارد ، سيرة شارلمان ، ص 12-13 .
- 30 Linehan , At the Spanish , p 53 .
- 31 Crow, Spain the root , p 78 ؛ Martin , La peninsula , p229 .
- 32 Arteta , Valoracion de la reconquista , p 214 .
- 33 غرناطة : مدينة بالأندلس بينها وبين وادي أش أربعون ميلاً وهي من مدن البيرة ، وهي محدثة من أيام الثوار بالأندلس وإنما كانت المدينة المقصودة لبيرة فخلت وانتقل أهلها إلى غرناطة ... ، ينظر : الحموي ، معجم البلدان ، 2 / 371-372 ؛ الحميري ، الروض المعطار ، ص 45 .
- 34 Ahistory of Spain , p 1 ؛ Weiner, D discoveries are not to be , p 97-99 .
- 35 جليقية : منطقة واقعة في شمال اسبانيا يرجع اصل سكانها إلى ولد يافث بن نوح عليه السلام وهو الأصغر من ولد نوح ، ويلدهم جليقية وهي تلي الغرب وتنحرف إلى الجوف ، وجليقية تقع قرب ساحل البحر المحيط من ناحية شمال الأندلس ... ، ينظر البكري ، جغرافية الأندلس وأوربا ، ص 71-73 ؛ الحموي ، معجم البلدان ، 3 / 131؛ الحميري ، الروض المعطار ، ص 169 .
- 36 عنبسة بن سحيم الكلبي : كان أمير الأندلس في سنة 106هـ من قبل بشر بن صفوان أمير إفريقية في أيام هشام بن عبد الملك ، ومات سنة 107هـ ، وقيل سنة 109هـ والله أعلم ينظر الحميدي ، جذوة المقتبس (ترجمة رقم 740) ، 2 / 115 ؛ الضبي ، بغية الملتمس ، (ترجمة رقم 1263) ، 2 / 566 ، ابن عذارى ، البيان المغرب ، 2 / 27 .
- 37 نهر دويرة : من الأنهار الكبيرة والشهيرة في الأندلس يقع بين مدينتي سمورة شرقاً ، وميرانده غرباً . ينظر : الحسيني ، حروب الاسترداد ، ص 59 .
- 38 قطلونيا : مر تاريخ إمارة قطلونيا بحقب زمنية مختلفة حتى أعلن عن قيامها كأمارة مستقلة فقد أعطى شارل الأصلع فرنسا ومناطق التخوم الأسبانية بعد توزيع أملاك الإمبراطورية الفرنجية بينه وبين أخويه لوثر ولويس الجرمان ، فقد حدث تمرد في إقليمها الشمالي (سبتمانيا) فقام بفصل هذا الإقليم عن النغر القوطي سنة 251هـ / 865م ، ومن يومها أصبح لهذا النغر إدارة خاصة لا ترتبط بالأقاليم المجاورة ، الأمر الذي شجع حكامه على الاستقلال عن فرنسا ، ففي سنة 259هـ / 872م استقل ويفريدو الفولسو بما تحت يديه من مدن

، فأصبح أميراً على برشلونة سنة 874/261م ، لكن الاستقلال التام لجميع مقاطعة الثغر الأسباني (قطالونيا) بأسرها عن فرنسا كان قد تم سنة 888/275هـ . ينظر : العذري ، نصوص عن الأندلس ، ص 157 : العربي ، تاريخ أوروبا ، ص 342؛ الشيخ ، دولة الفرنجة ، ص 174 السامرائي ، الثغر الأعلى ، ص 266. ³⁹ أرغون : يرجع أصلها على رقعة صغيرة تمتد من باب شيزروا في جبال البرتات نحو الجنوب بحذاء نافار الواقعة إلى الغرب منها ، وقد ظهرت بشكل إمارة صغيرة أواخر عصر الولاة ، وقد كانت أرغون في أوائل القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ضمن مملكة نافار ، وحين قسّم شانسو الكبير مملكته هذه قبل وفاته سنة 1035/426هـ م ، بين أبنائه الأربعة خص أبه غير الشرعي راميرو بأرغون ، وقد نشط هذا الأخير في مد سلطانه على ما حوله من البلاد ، ثم تولى حكمها بعد وفاته سنة 1063/455هـ م ، أبه سانشو الذي أتسعت أرغون في عهده اتساعاً كبيراً ، ثم خلفه بعد وفاته أبه بيدرو الأول ، ولما توفي سنة 1105/498هـ م ، حكم مملكة أرغون أخوه الفونسو الأول (المحارب) ، ينظر : عنان ، دولة الإسلام ، العصر الثاني ، ص 378-379 ؛ مؤنس ، فجر الأندلس ، ص 519 .

⁴⁰ جزر البليار : تتكون جزر البليار أساساً من أربع جزر كبرى رئيسية ، تحيط بها عشرات الجزر الصغيرة المتناثرة حولها ، وهي جزيرة ميورقة (عاصمة جزر البليار وأكثرها مساحة) ، جزيرة منورقة (Menorca) ، جزيرة إيبيزا (Ibiza) وفورمنتيرا (Formentera) التي هي أصغرهم ، ولم تذكر في كتب التاريخ القديم ، ويبدو أنها كانت مهجورة وغير صالحة لرسو السفن . ينظر سيسالم ، جزر الأندلس المنسية ، ص 15- وما بعدها .
⁴¹ بلنسية : مدينة تقع في شرقي الأندلس ، بينها وبين قرطبة على طريق بجاية ستة عشر يوماً وعلى الجادة ثلاثة عشر يوماً ، وهي مدينة سهلية وقاعدة من قواعد الأندلس في مستو من الأرض عامرة القطر كثيرة التجارات وبها أسواق وحط وقلاع . ينظر الحموي ، معجم البلدان ، 2/ 279 : الحميري ، الروض المعطار ، ص 97 .
⁴² قشتالة : ألبة والقلاع : علمان جغرافيان يستعملان عادة معاً في النصوص العربية ، أما ألبة فهي Alava ، وهي الإقليم الواقع عند منابع نهر أبره على الضفة اليمى (الشمالية) ، للنهر وأصل الاسم غير معروف ، فذهب بعضهم إلى أنه اشتق من *Alba* و *Uraba* بل ذهب بعضهم إلى أن أصله عربي *Araba* ، لأن الاسم لم يظهر إلا بعد دخول العرب . أما القلاع فيراد به المنطقة التي تعرف بقشتالة القديمة *Castilla ia vieja* ، سماها العرب كذلك لكثرة قلاعها وقد يكون العرب ترجموا بذلك اسمها القديم *Castellae* ، وألبة اليوم إحدى المديرية الثلاث التي يتكون منها إقليم *Vascongadas* ، وهو الذي كان العرب يسمونه بلاد البشكنس . ينظر : ابن الأبار ، الحلة السيرة ، هامش رقم (2) ، 136-135/2 .

⁴³ مجاهد العامري : مجاهد بن عبد الله العامري أبو الجيش الموفق مولى عبد الرحمن الناصر بن المنصور بن أبي عامر كان من أهل الأدب والشجاعة والمحبة للعلوم ، نشأ بقرطبة وكانت له همة كبيرة ولما حدثت الفتنة القرطبية وتغلبت العساكر على النواحي بذهاب الدولة العامرية قصد هو ومن تبعه الجزائر الواقعة في شرق الندلس وهي جزائر خصبه وواسعة فسيطر عليها وحماها ثم قصد الى سردانية جزيرة من جزائر الروم الكبيرة في سنة 406هـ وقيل سنة 407هـ فغلب على أكثرها وافتتح معاقلها . ينظر : الضبي ، بغية الملتمس ، ترجمة رقم (1380) ، ص 472.

سردانية : جزيرة على طرف من البحر الشامي، وهي كبيرة النظر كثيرة الجبال قليلة المياه، طولها مائتان⁴⁴ وثلاثون ميلاً وعرضها من الغرب إلى الشرق مائة وثمانون ميلاً، وفيها ثلاث مدن الفيصنة وهي مدينة عامرة، ومنها مدينة قالمرة، وهي رأس المجاز إلى جزيرة قرشقة، والثالثة تسمى قشتالة. وأهل سردانية في الأصل روم أفرافة متبريرة متوحشون من أجناس الروم، وهم أهل نجدة وحزم لا يفارقون السلاح. وفي سردانية معادن الفضة الجيدة ومنها تخرج إلى كثير من بلاد الروم، وبين سردانية وجزيرة قرشقة مجاز طوله عشرون ميلاً. ينظر : الحميري ، الروض المعطار ، ص314.

⁴⁵ علي بن مجاهد العامري : علي بن مجاهد ملك دانية وتلقب بالموفق ووصف بأنه كان احرص المتغلبين على جهات الأندلس واطهر عرضاً وانقى ساحة ، كان لايشرب الخمر ولا يقرب من يشربها ، وكان مؤثراً للعلوم الشرعية مكرماً لأهلها وتاريخ وفاته غير معروف لكنه توفي قبل فتنة المرابطين بيسير . ينظر: المراكشي ، المعجب ، ص 77.

⁴⁶ البابا ليو التاسع : بابا روما للفترة (426-446هـ/1044-1054م) عمل على إصلاح الكنيسة ووضع حد للفساد المستشري فيها جرد حملة عسكرية لدحض شركة النورمان في صقلية فُمني بهزيمة منكرة ووقع في الأسر فترة من الزمن . ينظر : بابتي ، موسوعة الأعلام ، ص 78 .

⁴⁷ سيسالم ، جزر الأندلس ، ص169 : بلبل ، الآثار الحضارية ، 86 .

⁴⁸ البابا أوربان الثاني : ولد باسم أوتو اللاجيري، صاحب الحملة الصليبية الأولى في التاريخ وهو الذي تولى الكرسي البابوي في أثنى عشرة سنة (481-493هـ/1088-1099) ، كان سياسياً لبقاً وجريئاً ، وهو الآخذ بقرار الحرب الصليبية على المشرق ، وصاحب الحملة الصليبية الأولى ، وكانت للحروب الصليبية هي بداية الانطلاق للدولة الدينية في أعتى صورها كما أنها كانت البداية لظهور ما يسمى **بصكوك الغفران** . ينظر : المطوي ، الحروب الصليبية ، ص45؛ البشري ، جهود البابوية ، ص27-28 .

⁴⁹ المطوي ، الحروب الصليبية ، ص 46؛ عبد الحليم ، العلاقات بين الاندلس الإسلامية واسبانيا النصرانية ، ص328 ؛ بلبل ، الآثار الحضارية ، ص 87 .

الكاتب: د. عبد المالك الصادق
 جامعة محمد خيضر بسكرة
 عنوان المقال: مؤامرة العقداء أثناء
 الثورة الجزائرية 1958-1959 (قراءة في
 الأسباب والنتائج وردود الفعل داخلا
 وخارجا)

البريد الإلكتروني: abdelmaleksadek10@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2020/03/05 تاريخ القبول: 2020/03/16 تاريخ النشر: 2020/03/31

مؤامرة العقداء أثناء الثورة الجزائرية 1958-1959 (قراءة في الأسباب والنتائج وردود
 الفعل داخلا وخارجا)

الملخص بالعربية:

ان موضوع مؤامرة العقداء أثناء الثورة الجزائرية، من بين المواضيع الحساسة الجديرة بالدراسة، باعتبار أن القضية من أصعب القضايا والملفات التي عالجتها المحكمة العسكرية للثورة الجزائرية، لأن المتهمين فيها هم من أبرز اطارات الثورة التحريرية المباركة سواء في الولاية الأولى (الأوراس-النمامشة) أو القاعدة الشرقية، حيث تم نطق وتنفيد حكم الاعدام في اربعة منهم وهم: محمد العموري، احمد نواورة، مصطفى لكحل، محمد الطاهر عواشيرية، أما بقية الأحكام فقد قضى خلالها بقية المتهمين فترة تراوحت بين سنة وستين سجنا نافذا.

كانت التهم ثقيلة جدا وخلف الحكم تداعيات خطيرة وردود فعل متباينة سواء في الداخل او الخارج وكاد يعصف بمسار حافل وبطولات ناجحة حققها جيش وجهة التحرير الوطني لولا الحكمة والتعقل اللذين تحلى بهما قادة الثورة في مواجهة المؤامرات والذسائس والخطط التي دبرت ضد الثورة من طرف غلاة المعمرين والحركي خاصة بعد تولي الجنرال شارل ديغول سدة الحكم من خلال مسعاه الرامي الى إجهاض الثورة بأي ثمن و ضرب الوحدة الوطنية للشعب الجزائري الداعم لجهة وجيش التحرير من اجل استقلال الجزائر.

كلمات مفتاحية: الثورة، المؤامرة، العقداء، المحاكمة، الاعدام، الاستقلال

Abstract :

The subject of the conspiracy of the colonels during the Algerian revolution is considered as the sensitive topics worth studying, considering that the issue is one of the most difficult cases and files dealt with by the military court of the Algerian revolution, because the accused in it are among the most prominent frameworks of the blessed editorial revolution, whether in the first state (Awras-Namash) Eastern, where the death sentence was pronounced and carried out in four of them: Muhammad al-Amouri, Ahmad Nawwarah, Mustafa Lakhhal and Muhammad al-Tahir Awashirya. As for the rest of the rulings, the rest of the defendants spent a period ranging from one to two years in prison.

The charges were very heavy, and the ruling left behind serious repercussions and mixed reactions, both at home and abroad, and it was almost ravaged by a track full and successful championships achieved by the army and the National Liberation Front were it not for the wisdom and rationality that the leaders of the revolution faced in the face of the conspiracies, intrigues and plans that were masterminded against the revolution by the ultra-urban and dynamic, especially after General Charles de Gaulle assumed power through his endeavor to abort the revolution at any cost and to strike the national unity of the Algerian people supporting the Front and the Liberation Army for the independence of Algeria.

Key words: Revolution , conspiracy, colonials, Trial, excursion, independence.

مقدمة:

نشطت بعض القيادات العسكرية أثناء الثورة التحريرية لمساندة لجنة التنسيق والتنفيذ في مسعاها من أجل ايجاد حل توافقي لمسألة القيادة في المنطقة الأولى وناحية سوق اهراس اللتين تغيبتا عن فعاليات مؤتمر الصومام المنعقد بتاريخ 20 أوت 1956، حيث أبان محمد العموري عن قدرة فائقة من أجل المساهمة في اعادة ترتيب أوضاع البيت الأوراسي. انتهى المؤتمر وخرج بقرارات حاسمة شكلت بعض نتائجه جدلا في كتابات بعض المؤرخين، فعلى الرغم من أنه نظم الثورة التحريرية سياسيا وعسكريا وتنظيميا، إلا أن ذلك لم يمنع من حدوث بعض التطورات خلال سنوات 1956-1957-1958، كان أولها اختطاف فرنسا لطائرة الوفد الخارجي ثم عزل الثورة بمد الأسلاك الشائكة المكهربة على طول الحدود الشرقية والغربية واخرها مؤامرة العقدهاء، والتي خلفت وقائعها ردود فعل متباينة سواء في الداخل أو في الخارج.

والسؤال المطروح: ماهي خلفيات ونتائج تلك المؤامرة؟ وهل فعلا تورط محمد العموري ومن معه في محاولتهم الانقلابية ضد الحكومة المؤقتة، أم أن هناك سببا اخر للحادثة؟ وكيف كانت ردود الفعل في الداخل والخارج؟.

1- خلفياتها التاريخية:

1-1- نتائج مؤتمر الصومام:

بتاريخ 20 أوت 1956 انعقد مؤتمر الصومام بعد مسيرة سنتين من الكفاح المسلح، وخرج بقرارات مهمة أرسى مبدأ القيادة الجماعية على أسس متينة، حيث حددت وثيقته مذهب جبهة وجيش التحرير الوطني ونظامهما الداخلي، والعلاقات بين الداخل والخارج¹، وضرورة خلق قيادة جديدة للثورة التحريرية التي فقدت أبرز عناصرها في الأشهر الأولى من اندلاعها ومن ثم التوجه إلى بناء واقع جديد بإعادة تنظيم المناطق وهيكلتها حيث رقيت إلى ولايات، كما تمت الدعوة إلى ترتيب بعض الأولويات في المناطق التي تغيبت عن الحضور لفعاليات المؤتمر نتيجة العديد من الأسباب لعل أهمها بعض الخلافات الداخلية حول

القيادة في المنطقة الأولى مثلا، والتي استشهد قائدها مصطفى بن بو لعيد يوم 22 مارس 1956، وهو الذي كان يدعو إلى ضرورة عقد مؤتمر تقييبي للعمل المسلح منذ انطلاق الثورة، فكان من ضمن أولويات لجنة التنسيق والتنفيذ²، إعادة ترتيب الأوضاع في الأوراس بعد أن تجاوزت قيادات من الصف الثاني والثالث معها، من أمثال محمد العموري³، وصالح قوجيل وغيرهم، والذين أبدوا استعدادهم لتقديم يد العون و الذي تجسد على أرض الواقع بعد زيارة العقيد عميروش إلى المنطقة⁴.

1-2- هيكلية الولاية التاريخية الأولى 1957:

ابتداء من 02 فيفري 1957، وبعد أشهر من عملية القرصنة الجوية الفرنسية للطائرة التي كانت تقل الوفد الخارجي للثورة الجزائرية يوم 22 أكتوبر 1956 وصلت إلى قيادات المناطق الثلاث للولاية الأولى استدعاءات من لجنة التنسيق والتنفيذ التي غادرت إلى تونس للحسم في أمر قيادة الولاية الأولى، حيث أشرف العقيد أو عمران⁵ مسؤول الشؤون العسكرية في الوفد الخارجي لجهة التحرير الوطني على الاجتماع مباشرة⁶، من أجل الوصول إلى حل يرضي كل الأطراف بعد مرحلة المشاورات والمسامي التي قادها كل من ابراهيم مزهودي، وعمار بن عودة في البحث عن حل لمشاكل القيادة كسبيل وحيد لانتهاء حالة النزاع على السلطة هناك⁷.

تكلف ابراهيم مزهودي بمشكلة النمامشة، وعمار بن عودة بمنطقة سوق أهراس، لكن رغم ذلك بقيت الأمور متأزمة نتيجة موالة قادة المنطقة الأولى لأحمد محساس⁸، الذي فر فيما بعد إلى ألمانيا بمساعدة الرئيس التونسي الحبيب بورقيبة.

بعد سلسلة المشاورات تشكلت قيادة الولاية الأولى على النحو التالي:

- محمود الشريف⁹، عقيد قائدا للولاية.
- محمد العموري، رائد سياسي الولاية.
- عبد الله بهوشات¹⁰، رائد عسكري الولاية.
- أحمد نواورة¹¹، مكلف بالاتصال والأخبار.

- علي الحركاتي، مكلف بالتموين.

أما المناطق فقد تشكلت قياداتها كما يلي:

- الأولى، يقودها حيحي المكي.

- الثانية، يقودها محمد بوعزة.

- الثالثة، يقودها أحمد بن عبد الرزاق.

- الرابعة، يقودها محمود قنز.

- الخامسة، يقودها راجعي عمار.

- السادسة، يقودها صالح بن علي سماعيل¹².

أجبت هذه التعيينات نار الصراعات الداخلية بعد أن وجد بعض القادة أمثال عباس لعزوز، أنفسهم مهمشين حيث تم ابعادهم من القيادة الجديدة التي طرح تشكيلها العديد من التساؤلات، خاصة حول شخصية محمود الشريف الذي لم يكن تعيينه محل اجماع وبأنه ليس الرجل المناسب ليحل محل الشهيد مصطفى بن بولعيد¹³ على عكس لجنة التنسيق والتنفيذ التي رأت فيه وبحسب قاداتها بأنه الأقدر لتنقية الأجواء، واعادة الأمور إلى طبيعتها نظرا لثقافته ومهنيته ومقدرته على التعايش بذكاء مع الواقع الجديد¹⁴.

2- الأزمة:

رسخ مؤتمر الصومام مبدأ القيادة الجماعية و دعى إلى ضرورة فتح جبهة التحرير الوطني لكل التيارات الأخرى، وهو مبدأ دافع عنه عبان رمضان¹⁵. على الرغم من معارضة العسكريين من أمثال بن طوبال لخضر¹⁶، وأوعمران، خوفا من طموح القيادة الجديدة وتحولها إلى قوة ثالثة تتفاوض مع فرنسا¹⁷، لكن حنكة وذكاء عبان ساهما في اقناع محمد العربي بن مهيدي وأغلبية المعارضين من أمثال كريم بلقاسم¹⁸ وزينغود يوسف وأوعمران نفسه، ليقرر لخضر طوبال في الأخير قبول الأمر الواقع¹⁹.

تحول مبدأ الداخل على الخارج والسياسي على العسكري وهما مبدأين أقرهما مؤتمر الصومام، إلى اشكالية وعقدة حقيقية لدى بعض قادة الثورة خاصة الوفد الخارجي، مما

اضطر عضو لجنة التنسيق والتنفيذ بن يوسف بن خدة طرح فكرة انشاء حكومة مؤقتة مصغرة لوضع حد لكل الخلافات التي ستعيق تقدم مسار الثورة²⁰، لأن هاذين المبدئين ساهما في تحول الصراع بين الثورة والاستعمار من صراع بين عسكريين الطرفين، إلى مفاوضات بين سياسيي الطرفين، وهذا ما يفسر قبول العسكريين الذين شاركوا في المؤتمر بالأمر، بالإضافة إلى رغبة عبان رمضان في ابعاد الوفد الخارجي، وهو أمر تأكد بعد ارسال لمن دباغين إلى القاهرة، وتكليفه بمهمة قيادة الوفد هناك²¹.

خلال سنة 1957، عرفت الجزائر العاصمة اضطرابات خطيرة جدا، بعد أن نجح العربي بن مهيدي في تنشيط العميات الفدائية في أحياء المعمرين الفرنسيين، فكانت ردة فعل السلطات الفرنسية عنيفة، حيث مارست سلسلة من الاعدامات والتصفيات الجسدية ضد الجزائريين بعد عجزها عن المواجهة منذ معركة الجزائر، أين فشل الجنرال ماسو في التصدي للوضع الجديد منذ ديسمبر 1956 الى غاية سبتمبر 1957²²، لتغادر بذلك لجنة التنسيق والتنفيذ الجزائر باتجاه تونس شهر جويلية 1957 من أجل ملمة الجراح واعطاء نفس جديد للثورة.

تزعّم عبان رمضان السياسيين ليجد نفسه من جديد في مواجهة العسكريين الذين كان على رأسهم كريم بلقاسم هذه المرة، ليظهر تحالف جديد يجمع كلا من بن طوبال وبوصوف²³، أو الباءات الثلاثة الذين رفضوا توجهات عبان رمضان لقيادة الثورة²⁴.

تزايدت حدة الخلافات وكثرت الانتقادات بين طرفي النزاع ليتم في الأخير اللجوء إلى القاهرة لعقد اجتماع المجلس الوطني للثورة الجزائرية شهر أوت 1957 ليشهد هذا التاريخ ميلاد لجنة التنسيق والتنفيذ الثانية ونهاية مسيرة عبان رمضان السياسية²⁵.

كشّف مؤتمر القاهرة انتصار كريم بلقاسم في دعوته إلى ضرورة ازالة أي عائق تنظيمي ويشري يعرض إلى زعزعة الاستقرار ومهدد تلاحم الأعضاء المؤسسين لجهة التحرير الوطني، وهي دعوة إلى ضرورة العودة إلى الدور الذي لعبه القادة الأوائل في اعداد وتنظيم وتفجير الثورة، والعمل اليد في اليد للدفاع عن الأولوية التي توليها القيادة من أجل تشكيل الحكومة

المؤقتة²⁶، بعد الفترة الحرجة التي مرت ولزالت تمر بها الثورة من خلال الصعوبات التي أصبحت تشكلها السدود الشائكة المكهربة والتي تزامن انتهاء العدو الفرنسي من عملية انجازها على انشغال القادة بخلافاتهم الداخلية، لتتطور الأوضاع فيما بعد وتتشكل لجنة التنسيق والتنفيذ الثالثة²⁷، والتي رأت أنه بات من الضروري السعي إلى تشكيل قيادة موحدة لجيش التحرير الوطني، مهمتها توحيد ورص الصفوف و قد أطلق عليها لجنة العمليات العسكرية مهمتها قيادة الكفاح المسلح من الحدود الشرقية إلى الحدود الغربية²⁸.

3-لجنة العمليات العسكرية (COM)1958:

1-3- ظروف تأسيسها:

بعد الفترة الحرجة التي عاشها الثورة التحريرية، وبعد الصدمة العنيفة منذ اكتشاف الطريقة التي مات بها عبان رمضان أين ندد بعض القادة ومن بينهم عمارة العسكري من خلال خطابه شديد المهجة الذي وجه إلى لجنة التنسيق والتنفيذ متسائلا عن الأسباب التي دفعتهم إلى تصفيته ليمتح هذا الأمر الفرصة للسلطات الفرنسية للقيام بعمليات عسكرية من جهة وتقديم تنازلات بسيطة لصالح الجزائريين من جهة أخرى²⁹، ليتم في الأخير الاتفاق والدعوة إلى ضرورة تكوين هيئتين للعمليات العسكرية واحدة في الشرق و الثانية في الغرب يوم 10 أبريل 1958³⁰.

توحد الجيش تحت سلطة اللجنة العسكرية التي أوكلت لها مهمة قيادة الكفاح المسلح بعد أن تم الاتفاق والوصول إلى تسوية تم من خلالها مراعاة مبدأ التمثيل الجهوي لكل الولايات³¹، لتكون بذلك همزة وصل بين القادة في الداخل والقيادة في الخارج لمواصلة الجهود الذي تقوم به لجنة التنسيق والتنفيذ من أجل تجاوز الصعاب ودعم الجهود العسكري³².

3-2- لجنة الشرق:

اسندت قيادتها إلى العقيد امحمدي السعيد³³، قائد الولاية الثالثة، وعين محمد العموري نائبا ممثلا للولاية الأولى فيما مثل الولاية الثانية عمار بن عودة، أما عمارة بوقلاز فقد كان ممثلا للقاعدة الشرقية³⁴.

3-3- لجنة الغرب:

قادها العقيد هواري بومدين³⁵، قائد الولاية الخامسة وعين الصادق دهيليس قائد الولاية الرابعة نائبا له، وكان مقرها مدينة وجدة بالمغرب الأقصى، أما الشرقية فاتخذت من غار ديماء بتونس مقر لها³⁶.

4-3- نشاطاتها:

عقد امحمدي السعيد أولى اجتماع له للجنة الشرق، بعد أن أحاط نفسه بالعديد من المستشارين العسكريين الفارين من الجيش الفرنسي، دون اسناد أية مسؤولية لمساعديه الذين أبدوا استياءا شديدا للأمر، مما دفعهم إلى اقتراح هيكلية بديلة تم عرضها عل الباءات الثلاثة للنظر فيها³⁷، حيث صودق عليها من طرف كريم بلقاسم الذي أسند التموين والتنظيم للعقيد محمد العموري، وتولى بوقلاز العمليات العسكرية في حين تولى عمار بن عودة مهمة الاستخبارات، أما امحمدي السعيد فلم يعلق على هذه التغيرات وهذه المهام مكتفيا بالصمت وتنفيذ الأوامر³⁸.

رغم الصعوبات التي تعرضت لها لجنة العمليات العسكرية في الشرق واتهامها بالفشل والتقصير في أداء المهام الموكلة لها، ورغم كل ما قيل عنها عن عدم جدواها في تحقيق أي تقدم يذكر في الميدان وبأنها حلبة لصراع متواصل بين امحمدي السعيد ونوابه، مما أثر على نشاط جيش التحرير على الحدود، وأدى إلى عملية افلاس عملياتي، الا أن شهادة عمار بن عودة تؤكد عكس ذلك بدليل التقدم الذي تحقق بعد مهاجمة الخطوط المكهربة أين رفض امحمدي السعيد الفكرة متهما نوابه بالعصيان والخروج عن طاعة القائد، وفشل العملية التي تناولتها الصحف الفرنسية في اليوم الموالي، ومن بينها جريدة لوموند بعد استهداف

ونسف خط موريس بتاريخ 1958/07/5، باستعمال سلاح البانقالور، وهو ما يؤكد نجاح العملية في الشرق³⁹.

3-5- مشاكها:

اصطدمت لجنة العمليات العسكرية في الشرق ببعض المشاكل والعقبات التي حالت دون النجاح في الميدان نظرا لغياب التنسيق بين القائد ونوابه، وغياب دعم الولايات والتسيير السيء بناء على الولاءات الشخصية⁴⁰، حيث كان لكل فئة نظامها الخاص، كما أن الملتحقين الجدد من الجيش الفرنسي لا يزالوا حديثي العهد بروح الانضباط التي تربوا عليها في الجيش الفرنسي والتي كانت كافية لنجاحهم وبالتالي فان الاعتماد عليهم من طرف القائد امحمدي السعيد بات أمرا مسلما به، فعمت بذلك الفوضى وأصبحت السيطرة عليهم صعبة للغاية⁴¹.

ساهمت الخلافات في الحد من المبادرة في الميدان نظرا لعدم التجانس بين قيادات اللجنة الشرقية حيث يؤكد محمد الطاهر عواش⁴²، قائد القاعدة الشرقية على اتساع الهوة بينهم، بعد أن وجهت تهمة الجهوية إلى امحمدي السعيد⁴³، ونفوره من نوابه وحبه للسلطة، وكذا أحقية عمار بن عودة في القيادة، لينطلي هذا الادعاء على محمد العموري وعمارة بوقلاز اللذين اقتنعا بأن عضويتهم هذه ما هي الا محاولة لإبعادهم وعن قصد عن قيادة الولاية الأولى والقاعدة الشرقية⁴⁴، رغم تفانيهم واثقائهم للعمل، في لجنة العمليات، وایمانا منهم بروح المسؤولية الملقاة على عاتقهم سواء في مصلحة النقل أو في التموين والتسليح العام في الولاية الأولى والقاعدة الشرقية⁴⁵

بعد وصول الجنرال شارل ديغول للحكم، ساد جو من التوتر في كوم الشرق، بعد أن فرض هذا الأخير حلوله الاستسلامية تحت العديد من المسميات (سلم الشجعان، مشروع قسنطينة، القوة الثالثة)، وكذلك مخططات الجنرال شال، ثم الادعاءات الخبيثة عن تورط بعض قادة الثورة في صراع الأجنحة على السلطة في فرنسا، بدليل اعدام الأسرى الفرنسيين، والتي روجت لها سلطات الاحتلال بتاريخ 08 ماي 1958، متناسية أن ذلك

الاجراء ما هو الا ردة فعل على المجازر التي ارتكبتها فرنسا في حق المدنيين في المناطق الشرقية⁴⁶.

أمام هذه الوضعية الصعبة ونظرا لنقص السلاح والمؤونة واجهت الثورة في عملية اختراق خط موريس صعوبات جمة جعلتها ترفع التحدي وتقع في اشتباك مباشر مع الجيش الفرنسي ليتطور الأمر، ويستسبل جيش التحرير في معركة سوق أهراس الكبرى أواخر شهر أفريل 1958، وتليها عمليات اختراق كبرى ابتداء من 18 ماي 1958 إلى غاية 18 ديسمبر 1958 في كل من الماء الأبيض والكويف والعيونات ونقرين وبوشقوف ومداوروش وسوق أهراس، أين استشهد خلالها حوالي 243 شهيد⁴⁷.

بدأت الصورة تتضح شيئا فشيئا بعد فقدان أكثر من (6000) مجاهد في فترة قصيرة⁴⁸، وانتقاد محمد العموري لأداء اللجنة في اجتماع 02 جوان 1958، الأمر الذي جعل الخلاف يتطور إلى مواجهة مباشرة مع لجنة التنسيق والتنفيذ التي كانت بدورها تخطط وبعد استشارة بعض قيادات الداخل إلى تجسيد مشروع الحكومة المؤقتة على أرض الواقع⁴⁹، نتيجة عدم جدوى عملها، وخلافات أعضائها، وغياب الثقة بينهم، وظهور تحالفات بين العقدهاء (العموري، بن عودة، بوقلاز) ضد امحمدي السعيد -المتهم بالتحيز لصالح الضباط الفارين من الجيش الفرنسي وعلى رأسهم الرائد ايدر-، وأنصاره الذين اتهموا العموري بالسعي لخنق الولايتين الثالثة والرابعة، والقيام بدعاية مضادة وحاقدة لكل ماهو قبائلي، وضد القبائل في لجنة التنسيق والتنفيذ⁵⁰.

3-6- حل لجنة العمليات العسكرية:

اجتمعت لجنة التنسيق والتنفيذ في شهر سبتمبر 1958 بالقاهرة، واتخذت اخر قرارها قبل أن تعوض بالحكومة المؤقتة وهو الغاء لجنة العمليات العسكرية واستدعاء قادتها في الشرق للمحاسبة.

سافر قادة لجنة العمليات العسكرية الشرقية إلى القاهرة ظنا منهم أن الأمر يتعلق باجتماع المجلس الوطني للثورة الجزائرية، لكنهم تفاجئوا فور وصولهم بسحب جوازات

سفرهم ووقوفهم في شبه محاكمة أمام لجنة التنسيق والتنفيذ التي أصدرت في حقهم عقوبات متفاوتة⁵¹، حيث أدرك محمد العموري بأن امحمدي السعيد خطط وبدعم من كريم بلقاسم للإيقاع به وبرفقائه في كوم الشرق، بعد أن تم اتهامهم بالتقصير في أدائهم المهام⁵².

تمت العقوبات على النحو التالي بعد حل اللجنة بتاريخ 13 سبتمبر 1958:

- تعليق نشاط امحمدي السعيد لمدة شهر مع اقامة قسرية في القاهرة.
- تعليق نشاط عمار بن عودة لمدة ثلاثة أشهر مع اقامة قسرية بلبنان.
- توقيف عمارة بوقلاز عن ممارسة أي نشاط عسكري، وانزال رتبته مع الإقامة القسرية في بغداد.

- معاقبة محمد العموري بتوقيفه عن ممارسة أي نشاط عسكري وانزال رتبته إلى نقيب لفترة غير محدودة بسبب اثاره الشقاق والجهوية مع الإقامة القسرية في جدة.

4- اجتماع الكاف، الظروف والملابسات والنتائج نوفمبر 1958:

أدى حل لجنة العمليات العسكرية ومعاقبة أعضائها في الشرق إلى ردود فعل متباينة ومتناقضة نتيجة اتهام كريم بلقاسم بالتحيز في اصدار الأحكام، حيث عبر محمد العموري عن رفضه لها مبديا استعداده لتحمل التبعات ان تسبب في أي خطأ يذكر، لكن محاولاته فشلت لأن القرار تم اتخاذه وانتهى الأمر، وبأن الوقت غير مناسب وضيق للنظر في طلب محمد العموري الأمر الذي اضطر لجنة التنسيق والتنفيذ إلى اتخاذ قرار مهم وهو الاعلان عن تأسيس الحكومة المؤقتة بتاريخ 19-09-1958، والتي تم الاعتراف بها وعلى مضض من طرف الحكومة المصرية، حيث صرح بن طوبال بأن الجانب المصري استغل فرصة معارضة محمد العموري بها من أجل تدبير مؤامرة للانقلاب عليها بدعوى عدم ثقة القاهرة في شخصية رئيسها فرحات عباس الذي أبدى في نظرها ميولات أخرى في مؤتمر طنجة شهر أفريل 1958، بعد اقرار الأحزاب المغاربية الثلاث تشكيل جبهة موحدة تحول دون تزعم جمال عبد الناصر للقومية العربية⁵³.

يذكر الشاذلي بن جديد أن محمد الطاهر عواشيرة عقد سلسلة من الاجتماعات في القاعدة الشرقية بالمنطقة الأولى والثانية والثالثة في انتظار وصول العقيد عميروش وسي الحواس، حيث كان الجو خلالها مشحونا، وممزوجا باتهامات تتلخص في مجملها حول حالة البؤس التي تعيشها مناطق الداخل في حين أن الحكومة المؤقتة كانت تتمتع بامتيازات خاصة، كما طرحت خلال هذه اللقاءات فكرة استبدال فرحات عباس بالأمين دباغين، إضافة إلى الاحتجاج حول مقتل عيان رمضان⁵⁴.

نضجت فكرة الاطاحة ببعض عناصر الحكومة المؤقتة عندما التقى محمد العموري بمصطفى لكحل⁵⁵، المعروف في الأوساط المصرية باسم جميعي سعدية - في القاهرة، والذي أصدر في حقه عبد الناصر اعلانا - فور وصوله إلى مصر- يقضي بضرورة الحفاظ على سلامته، وبأن أي اعتداء عليه هو اعتداء على الحكومة المصرية⁵⁶، والتقى محمد العموري ومصطفى لكحل بفتحي الزيب، حيث تم عقد اجتماع معه أكثر من مرة، كما تم الاتصال ببوصوف وبن طوبال شهر أكتوبر لإبلاغه عن سعيهما للإطاحة بكريم بلقاسم، وهو أمر ذكره محمد زروال⁵⁷، وأكدته فتحي الزيب الذي ذكر بأن كل تحرياته الدقيقة أكدت أن بوصوف وبن طوبال كانا على اتصال وثيق بمحمد العموري ومصطفى الأكحل، وأن الاتصال تم في القاهرة دون علم أعضاء الحكومة المؤقتة⁵⁸.

قبل مغادرته إلى جدة ذكر عمار بن عودة بأنه التقى محمد العموري في فندق فيكتور بالقاهرة، وبأن هذا الأخير أبدى استيائه وسخطه من العقوبة ومن فرحات عباس، وبأنه عازم على العودة وإعادة الاعتبار لنفسه، ليضيف بن عودة بأنه قد نصح العموري بعدم المجازفة على الانقلاب ليتأكد بعد ركوبه الطائرة بأن العموري ومصطفى لكحل سيتوجهان إلى طرابلس الليبية⁵⁹، أما عمارة بوقلاز الذي غادر باتجاه العراق فيؤكد بأنه كان على علم بنوايا العموري حيث يقول: "... كان يعتزم للجوء إلى استعمال القوة كوسيلة للضغط على كتلة العسكريين في قيادة الثورة وحملهم على التراجع عن قراراتهم وإصلاح ما كنا نعتبره جميعا استبدادا بالرأي، وتجاوزات تعود إلى حسابات شخصية"⁶⁰.

أما الوردي قتال المتواجد في القاهرة في تلك الفترة فقد ذكر بأن محمد العموري اتصل به محتجا على تصرفات كريم، وطلب منه الانضمام اليه لمعاقبة بعض وزراء الحكومة المؤقتة، وإعادة الاعتبار للولاية الأولى، الا أنه رفض الفكرة ونصح محمد العموري بأن لا يجازف لأن العواقب ستكون وخيمة⁶¹.

بقي محمد العموري في اتصال مع فتحي الذيب، سرا وعلانية من أجل المساعدة في تنفيذ المخطط بمساعدة مصطفى لكحل و الدعم الايجابي الذي تلقاه من صالح بن يوسف المعارض للرئيس التونسي لحبيب بورقيبة والمؤمن بفكرة جيش مغاربي رفقة عبد الكريم الخطابي⁶²، ليقرر في الأخير التوجه إلى ليبيا لطلب الدعم من عبد الله بلهوشات وأحمد نواورة، وهو ماتم فعلا حيث و فور وصوله أرسل اليه السائق عمار قرام في أمر بمهمة من أجل نقله من طرابلس إلى تونس لعقد اجتماع طارئ بينه وبين قادة الولاية الأولى والقاعدة الشرقية، علما أن عمار قرام كان في البداية يجهل شخصية مرافقيه⁶³.

5- وصول محمد العموري إلى الكاف وتسيير الاجتماع:

فور وصوله إلى مدينة الكاف التونسية استقبل محمد العموري من طرف على حموش، ليلتحق عبد الله بلهوشات بصحبة صهره الصادق محتالي فيما بعد⁶⁴، ليباشر هؤلاء الاجتماع رفقة حوالي أربعين مجاهدا في الطابق التاسع بإحدى عمارات مدينة الكاف بتاريخ 12 نوفمبر 1958، وتم تكليف داودي عبد السلام بمهمة الحراسة⁶⁵.

حضر أحمد نواورة وعبد الله بلهوشات، وصالح السوفي وشويثي العيساني ومحمد الشريف مساعديه ومحمد الطاهر عواشربة من القاعدة الشرقية والولاية الأولى⁶⁶، وماهي الا لحظات فقط من بداية الاجتماع حتى تم تطويق المكان من طرف قوات الحرس التونسي التي باشرت القبض على المجموعة تباعا.

أما أبرز النقاط التي نوقشت في الاجتماع فهي:

- عدم الاعتراف بالحكومة المؤقتة.

- القبض على بعض الوزراء وسجنهم في مكان بعيد.

- الاستيلاء على كل مراكز الحدود التونسية شمالا وجنوبا وادارتها بصفة مستقلة⁶⁷.

6- اكتشاف المؤامرة:

قبل أيام من اكتشاف المؤامرة، قام كل من كريم بلقاسم وامحمد يزيد بزيارة إلى مديمة القصرين التونسية، أين يتواجد صالح بن علي سماعلي - قائد المنطقة السادسة تبسة- حيث شرح له الظروف الخطيرة التي سيتسبب فيها محمد العموري ومن معه، طالبا مساعدته لوضع حد لها⁶⁸، لكن صالح بن علي طلب من كريم بلقاسم استصدار أمر من الحكومة المؤقتة للقيام بتلك العملية فاستجاب كريم بلقاسم للطلب، ونفذ صالح بن علي الأمر فعرض عليه منصب قيادة الولاية الأولى التي رفضها بدعوى عدم وراثه المسؤولية، ليترتب عن هذا الرد اثار سلبية فيما بعد لصالح بن علي سماعلي رفقة محمود الشريف، والولاية الأولى ككل⁶⁹.

استقبل الرئيس التونسي لحبيب بورقيبة كرين بلقاسم الذي أخبره عن الخطط ككل، وعن علاقة العموري بصالح بن يوسف، وبأن الاثنين سيقومان بانقلاب على الحكومتين التونسية والجزائرية، وبأنه أي كريم قد استدعى فريقا مكونا من جنود الولايات لإتمام المهمة لكن الحبيب بورقيبة رفض تدخل جيش التحرير وبالتالي تولى الحرس التونسي القيام بالمهمة⁷⁰، فتمت بعد ذلك مدهامة مكان الاجتماع يوم 16 نوفمبر 1958، والقبض على المجتمعين باستثناء ثلاثة تمكنوا من الفرار⁷¹.

تولى قيادة العملية محجوب بن علي على رأس قوة أوهمت الجميع بأن عملية التفتيش تخص بعض التونسيين⁷²، ولما سمح له بالدخول ألقى القبض على أفراد المجموعة - بعد أن أمر محمد العموري رفاقه بعدم تبادل اطلاق النار-، وسلموا واحدا بواحد، إلى قيادة الثورة التي زجت بهم في سجن طبرسق، ثم شرعت في محاصرة القاعدة الشرقية وقطع التموين عنها، لتجد تلك المنطقة نفسها بين مطرقة جيش الحدود بقيادة علي منجلي وسندان الجيش الفرنسي الذي شيد الحدود بأسلاك شائكة مكهربة⁷³.

7- من اكتشف المؤامرة؟

اختلفت وتعددت الروايات حول تلك المسألة ومن بينها ما يلي:

- فور وصول محمد العموري إلى مدينة طرابلس أقام في منزل أحل الليبيين الأوفياء للثورة الجزائرية يدعى سالم شلبك الذي يحسن اللهجة البربرية، وأثناء مهاتفة العموري لجماعته فهم شلبك الحديث جيدا، ونظرا لخوفه على مستقبل الثورة أبلغ كريم بلقاسم بالأمر، مما جعله يتبع اتصالاته لإلقاء القبض عليه⁷⁴.

- يؤكد صالح فوجيل بأن عمار قرام هو من أبلغ القيادة بالأمر مدعيا انقاذه للثورة والحكومة المؤقتة من محاولة انقلاب مدبرة ضدها⁷⁵، وهو أمر نفاه عمار قرام مدعيا أنه وفور وصوله إلى مدينة الكاف ترك محمد العموري هناك ثم اتجه إلى تونس العاصمة ألين التقى شقيقه بلقاسم، فأبلغه بالتفاصيل فنصحته أخوه بالإبلاغ عن الحادثة، فاتجه الاثنان إلى كريم بلقاسم، وتم اعلامه بالأمر، وهي الفرضية الصحيحة لأن عمار قرام أصبح فيما بعد السائق الشخصي لكريم الذي لا يثق في أي أحد سوى حاشيته بحكم منصبه الحساس⁷⁶.

- اكتشف محمود الشريف عودة محمد العموري ومخطط الانقلاب صدفة، فسارع للاستنجاد ببوصوف الذي لم يكثرث للأمر، فأبلغ كريم بلقاسم فوجده مترددا، حيث اختار التهدئة والتقليل من خطورة الأمر، وبعد الجاح شديد قرر كريم وبن طوبال إيقاف العموري ومن معه⁷⁷.

8- المحاكمة والاعدام: (جانفي - مارس 1959):

بعد عملية القبض على المجموعة على الساعة الحادية عشر ليلا، تم اقتيادهم إلى ثكنة الحرس الجمهوري بمنطقة القبة بتونس العاصمة⁷⁸، وبعد مكوثهم يوما هناك تمت عملية المناذاة على كل من محمد العموري، وأحمد نواورة ومحمد عواشيرة وبلهوشات وصالح فوجيل، وتم نقلهم إلى ثكنة قبلاط ليتم بعد ذلك حجزهم في غرف منعزلة تحت حراسة جنود شبان تم تجنيدهم من طرف علي منجلي⁷⁹.

مكث المسجونون مدة يومين في السجن، وفي اليوم الثالث زارهم كريم بلقاسم ومحمود الشريف وبن طوبال، وبلهجة غاضبة وجه كريم كلامه مخاطبا: "أنتم من أردتم الوصول إلى

هذه الـوضعية"، أما بن طوبال فبدأ بضربهم بواسطة عصا، فأوقفه عمار بلعقون معاتباً إياه بعبارة اهتز لها بن طوبال نفسه متوقفاً عن الضرب بعدها: "سي بن طوبال لما كنت مجروحاً في الأوراس اهتممتنا بك وبجراحك والآن تضربنا"⁸⁰.

بدأ التحقيق مع الجميع من طرف أحمد بن الشريف، وبعد الانتهاء من العملية تم ترتيب ملفات الادانة التي قدمت إلى كريم بلقاسم نائب رئيس الحكومة المؤقتة ووزير الدفاع، طالباً الاذن بتنظيم محكمة عسكرية لمحاكمتهم⁸¹، ويبدو من خلال سرعة التحقيق أن الملف أغلق بعد اعترافات العموري ومصطفى لحكل بتورط المخابرات المصرية في تدبير المؤامرة لكن تحت أية ظروف تم أخذ تلك الاعترافات؟⁸².

بتاريخ 20 جانفي 1959 شكلت الحكومة المؤقتة محكمة عليا للنظر في القضية مؤلفة من العقيد هواري بومدين كرئيس لها، وسليمان دهيلس وأحمد قايد كمستشارين، ومن المساعدين الممثلين للولايات، فشغل على منجلي من الولاية الثانية منصب وكيل عام للثورة، بينما تم توكيل الطاهر الزييري⁸³ للدفاع عنهم، بمساعدة عدد من المجاهدين من عدة ولايات⁸⁴.

بعد توجيه التهم التي أحيل من أجلها محمد العموري ومن معه إلى المحكمة العسكرية دافع الطاهر الزييري ملتصاً بالتخفيف عن المتهمين خاصة العموري ليختتم الأمر في الجلسة الأخيرة بإعلان بومدين عن انتهاء المحاكمة ورفع الجلسة دون اصدار أي حكم، الأمر الذي جعل هيئة الدفاع والمتهمين يظنون بأن هناك جلسة أخرى، غير أن الأمر حسم وتم الاطلاع على الأحكام من خلال احدى نشریات جبهة التحرير الوطني⁸⁵.

في العشرين من شهر فيفري 1959 وعلى الساعة التاسعة والنصف مساء حكمت المحكمة العسكرية للثورة الجزائرية على كل من محمد العموري، و أحمد نواورة، ومحمد الطاهر عواشرية ومصطفى لكحل حكماً بالإعدام تحت طائلة تهم كثيرة وثقيلة منها اثاره الشقاق وخفض معنويات الجيش ورفض الطاعة وافشاء أسرار مع سبق الاسرار، والتآمر مع دولة أجنبية ضد الثورة، وهي تهم يعاقب عليها قانون الانضباط العام والقضاء العسكري

لجيش التحرير الوطني بموجب الباب الثاني من الفصل الثالث الفقرة ج ، تتراوح فيها العقوبات من تنزيل للرتبة و المروق من الوطنية إلى الاعدام، فيما تراوحت بقية الأحكام ما بين سنة إلى سنتين سجننا نافذة⁸⁶.

من خلال التهم الموجهة للأربعة يبدو أن الحكم بالإعدام مبالغ فيه بعض الشيء، نظرا للماضي المشرق والمسيرة النضالية لهؤلاء، فالإعدام تجاوز خطر وغير مبرر حيث يرى مصطفى هشماوي بأن القرار اتخذ من أجل اقضاء وتجاهل اطارات القاعدة الشرقية مثلا، وبأن قدوم امحمدي السعيد قد أدى إلى حدوث تلك الانزلاقات⁸⁷. وبأن العقوبة كانت قاسية جدا تجاوزت التأديب والعقاب، وظهرت في صورة أشد وأقصى وهي الانتقام⁸⁸ أما الحاج عزوط وهو أمين عام في وزارة الخارجية بعد الاستقلال فيؤكد أن توجيه تهمة الخيانة العظمى من طرف بومدين لهؤلاء القادة ليس لها أي أساس من الصحة، والهدف منها هو التخلص منهم لتهيئة نفسه للحكم⁸⁹.

نفذ حكم بالإعدام في الليلة 17.16 مارس 1959.

9- ردود الفعل الداخلية:

أدى حادث اعتقال واعدام قادة الأوراس والقاعدة الشرقية إلى ردود فعل متفاوتة وصعوبات كبيرة برزت إلى الوجود من قبل وتزايدت خاصة بعد تعيين الضباط الفارين من الجيش الفرنسي في مهام قيادية⁹⁰، وتهميش بعض المجاهدين الذين استبسلوا في الميدان وسنذكر وبإيجاز بعض ردود الفعل في الداخل والتي جاءت على النحو التالي:

- في نهاية 1958 بارك كريم بلقاسم خطة الرائد ايدير الأمر الذي ادى إلى حدوث بعض الانزلاقات التي تجسدت على أرض الواقع خاصة بعد رفض حمة لولو قائد الفيلق السادس في القاعدة الشرقية، تطبيق الأوامر رغم المحاولات المتكررة والرسائل العديدة لإقناعه للعدول عن الأمر عن طريق عبد الرحمان بن سالم والطاهر الزبيري لينجح الشاذلي في اقناعه بالعودة إلى النظام⁹¹.

- قاد النقيب علي حنبلي الذي كان تحت قيادة عبد الله بلهوشات تمردا بعد اتهامه للحكومة المؤقتة بالمهيش والاهمال، مما دفعه إلى الاعتكاف رفقة 600 مجاهد في جبل سيدي أحمد على الحدود الجزائرية التونسية⁹²، لينتهي به الأمر في الأخير، وبعد الحصار و المواجهة مع جنود جيش التحرير تحت قيادة امحمدي السعيد إلى تشتيت عناصره، ليفر إلى قوات الاستعمار رفقة بعض الجنود بتاريخ 21 مارس 1959⁹³، لتروج بذلك وسائل الاعلام الفرنسية للحادثة وتستغلها أبشع استغلال حيث قيل بأنه وراء الهجومات على مراكز جيش التحرير في غار ديماو، فكانت وحدات الجيش الفرنسي تطوق به في الأسواق والمدن لإقناع السكان بالعدول عن محاربة فرنسا⁹⁴، لكن علي حنبلي تفتن للأمر، وأراد العودة والتوبة رفقة بعض الحركى الذين أبلغوا فرنسا بالأمر، فصفي في الليلة التي قرر فيها الهروب والالتحاق بالثورة مرة ثانية⁹⁵.

- قاد جيلالي عثمان سنة 1959 معارضة، أين اعتكف حوالي 1000 مجاهد أغلبهم من الولاية الأولى بجبل الشعاني معبرين عن سخطهم وتذمرهم من الحكومة المؤقتة وقادتها بعد معاينة محمد العموري وأحمد نواورة، وأيضا نقص التموين بالسلح للجهة⁹⁶، ورغم تدخل اللجنة المكونة من امحمدي السعيد، والحاج لخضر وعبد الزاق بوحارة للعدول عن القرار، الا أنهم رفضوا ذلك إلى غاية تأسيس هيئة الأركان التي اعادت الأمور إلى طبيعتها في الجهة بحيث تم تكليف بوحارة بتدريب ودمج الجنود والرجوع بهم للداخل لمواصلة الكفاح بعد أن تم تعيين النقيب محمد زرقيني الذي خلفه محمد بوتلة فيما بعد، وفشل الرائد عز الدين في مهمته على الرغم من زيارة كريم وبن طوبال للمخيم وبقائهم فيه مدة ثلاثة أشهر⁹⁷.

- استغلت السلطات التونسية حالة الفراغ والفوضى التي عاشتها المناطق الشرقية لحدودها، فاستحوذت على الكثير من الأرشيف السري التابع لمركز التنصت في مدينة الكاف⁹⁸، كما تعرض الجزائريون من المجاهدين والمدنيين إلى مضايقات متعددة، فتم إيقاف وتجريد عن السلاح لما يقل عن 1000 مجاهد وزج الكثير من المدنيين في سجن الدندان⁹⁹.

10- ردود الفعل الخارجية:

10-1- في تونس:

تمثلت بعض ردود الفعل فيما يلي:

- ظهور نوع من السيطرة المعنوية من الجانب التونسي على بعض مسؤولي الحكومة المؤقتة ومنهم كريم بلقاسم الذي أصبح لا يرفض أي أمر للرئيس التونسي لحبيب بورقيبة الذي استغل الموقف لصالحه¹⁰⁰.

- ان السيطرة التونسية جسدها تصريحات فرحات عباس بتاريخ 6 ماي 1959، حيث أن الرئيس التونسي وبعد استقباله لبعض وزراء الحكومة المؤقتة، أبدى استياءا شديدا حيث وصل به الأمر إلى حد رفض الشكر والعرفان من الطرف الجزائري عن كل ما قدمته تونس من دعم للثورة مبررا غضبه بأن تونس لم تعد تطبق ذرعا لبعض التصرفات غير المسؤولة التي تقع فوق أراضيه مضييفا بأن تونس قدمت واكتفت بما يجب عليه من دعم للجزائر¹⁰¹، منذ انطلاق الثورة بحيث كانت الأراضي التونسية مركزا لجيش الحدود الذي مارس فيما بعد نوعا من الضغط على التونسيين من أجل الدعم¹⁰²، بل ووصل بهم الأمر إلى حد استخدام القوة للحصول على ذلك الدعم وكذلك اطلاق الرصاص على الحرس التونسي¹⁰³.

ومن خلال هذه التصريحات يبدو أن تصرفات الرئيس التونسي مردها احتمالين لا ثالث لهما وهما:

- الضغط الفرنسي المتزايد خدمة لأغراض الاستعمار الدنيئة من أجل عزل الثورة الجزائرية داخليا عن شقيقتها تونس وليبيا¹⁰⁴.

- الانتقام من الجزائريين المتهمين بتأييدهم جمال عبد الناصر الخصم اللدود للحبيب بورقيبة المتهم بدوره من الجانب المصري بميولاته الغربية¹⁰⁵.

أما الطرف الجزائري المتمثل في الحكومة المؤقتة ونتيجة لتزايد الضغوطات فقد قرر اقتراح ما يلي:

- اما استرجاع الأسلحة بالقوة في عمليات منظمة لجيش التحرير الوطني، وهو طرح توصل اليه كريم بلقاسم وفرحات عباس¹⁰⁶.

- أو الاستغناء عن تونس في مجال الدعم وإيجاد بدائل أخرى متمثلة في المعسكر الاشتراكي من أجل خلق ظروف مواتية لقلب المعادلة لصالح الثورة، التي أصبح الحبيب بورقيبة يتدخل في شأنها¹⁰⁷.

10-2- في مصر:

تمثل رد الفعل الرسمي المصري بعد حادثة القبض على العموري ومن معه بعد التقرير الذي اطلع عليه جمال عبد الناصر بتاريخ 01 ديسمبر 1958، والمرفوع اليه من طرف فتحي الذيب والذي دعى إلى ضرورة تحييد القاهرة في الصراع الداخلي للثورة مع انتهاز أي فرصة لمصارحة الحكومة المؤقتة وموقفها السليبي من اتهامات الحبيب بورقيبة بإثارة الفتنة بين المسؤولين الجزائريين، ومعرفة نواياهم المستقبلية¹⁰⁸.

أما الطرف الجزائري ورغم الدعم المصري لها، إلا أن ذلك لم يمنعه من ابداء استياءه تجاه وقوف القاهرة وراء العملية التي قادها محمد العموري ضدها، حيث كان أول رد فعلي للحكومة المؤقتة هو نقل مقرها من القاهرة إلى تونس، والاكتفاء بمكتبها المركزي لوزارة الشؤون الخارجية¹⁰⁹.

سعى جمال عبد الناصر لتهدئة الوضع بعد نفيه ضلوع فتحي الذيب في العملية، مكتفيا بتغيير هذا الأخير بالسيد كمال رفعت للتعامل مع الجزائريين مستقبلا¹¹⁰، مع ابداء جمال عبد الناصر لنوع من التحفظ والعتاب بشأن المبادرة التي أطلقها شارل ديغول والمعروفة باسم "تقرير المصير" حيث لام الرئيس المصري الوفد الجزائري بسبب تأخره في الاستشارة، أي قبل ساعة واحدة من اذاعة بيان الحكومة المؤقتة، عكس الحبيب بورقيبة الذي أرسل له البيان قبل 24 ساعة، ورغم ذلك فقد أكد جمال عبد الناصر على دعمه اللامتناهي والمتواصل للثورة الجزائرية¹¹¹.

خاتمة:

عالجت المحاكم العسكرية للثورة الجزائرية العديد من القضايا الخطيرة التي شكلت خطرا وتهديدا على أمن الثورة، لعل أهمها مؤامرة العقءاء والتي لم تأخذ حقها من الكتابات

التاريخية على الرغم من أنها قضية عادية تحدث في كل الثورات في العالم نتيجة سوء التقدير تارة وبدعم خارجي تارة أخرى، وبالتالي فإن ما أقدم عليه محمد العموري بناء على حيثيات القضية التي نظر فيها القضاء العسكري للثورة يعتبر جرما يعاقب عليه القانون . لكن هل فعلا أن محمد العموري ومن معه أذنبوا وهل أن الاعدام هو الجزاء الأوفى لهؤلاء؟.

أكد فتحي الذيب، وصرح محمد العموري بأن بعض العناصر داخل الحكومة المؤقتة كانت في تواصل معه، وهي نفس الأسماء التي عجلت بمحاكمته واعدامه، لكي لا يكتشف أمرها، وبالتالي فإنه وبناء على التصاريح والتقارير فإن هناك صراع أجنحة وقع فيه محمد العموري نتيجة سوء تقديره للأمور ليجد نفسه بين عشية وضحاها متهما في قضية حوكم من أجلها وعوقب بالإعدام.

كثير من الأسئلة لم تجد اجابات مقنعة لها نظرا لشح وندرة المادة العلمية من جهة، ولأن بعض من كانوا شاهدين على الحدث اكنفوا بسرد بعض الوقائع دون الغوص في التفاصيل، من جهة أخرى مما صعب من مهمة الحكم على القضية.

ان الاختلاف الايديولوجي والتسرع والطموح، كلها ظروف استغلتها بعض الأطراف الخارجية لتصفية حساباتها مع قيادة الحكومة المؤقتة الجزائرية.

ان الشيء الجميل في القضية هو تلك المصالحة التاريخية والقرار الجيد الذي اتخذه الرئيس الراحل الشاذلي بن جديد سنة 1984 بإعادة دفن رفات كل المجاهدين، ومن بينهم العموري في مريع الشهداء بمقبرة العالية، اعترافا لما قدمه هؤلاء للثورة التحريرية، وتخليدا لذكراهم الطيبة.

الهوامش:

¹- عقيلة ضيف الله، التنظيم السياسي والاداري للثورة 1954-1962، ط1، البصائر الجديدة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009، ص305.

- ²⁻ تتكون من خمسة أعضاء يختارون من أعضاء المجلس الوطني للثورة الجزائرية الموجودين داخل الجزائر، انظر، حفظ الله بوبكر، نشأة وتطور جيش التحرير الوطني 1954-1958، دار العلم والمعرفة، الجزائر، 2013، ص64.
- ³⁻ ولد بتاريخ 14 جوان 1920، بعين القصر ولاية باتنة، ابن أحمد بن فرحات وحيزية بنت صحراوي، امهنت أسرته الفلاحة والتجارة، توفي والده وهو صغير السن، زاول الدراسة في عين قاوت، وانخرط في صفوف حزب حركة الانتصار للحريات الديمقراطية قبل الثورة التي انظم اليها سنة 1955، كان من مؤيدي مؤتمر الصومام، وعضوا في المجلس الوطني للثورة بعد مؤتمر القاهرة وقائدا للولاية الأولى سنة 1957، للمزيد من المعلومات حول محمد المعموري أنظر: عبد المالك الصادق، المحاكمات العسكرية لبعض قيادات الثورة الجزائرية 1954-1962، محمد العموري محمد لمواشيرة، أنموذجا أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه الطور الثالث، تخصص تاريخ معاصر، جامعة محمد خيضر بسكرة، الجزائر، السنة الجامعية 2018، 2019.
- ⁴⁻ صالح فوجيل، محمد العموري، مقابلة شخصية مع المجاهد فوجيل بتاريخ 24 ديسمبر 2017 بمقر مجلس الأمة الجزائر العاصمة، على الساعة 11 صباحا.
- ⁵⁻ أوعمران.
- ⁶⁻ مصطفى مرادة، مذكرات الرائد مصطفى مرادة ابن النوي شهادات ومواقف عن مسيرة الثورة في الولاية الأولى، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، الجزائر، 2003، ص79.
- ⁷⁻ عبد الله مقلاتي، محمود الشريف قائد الولاية الأولى ووزير التسليح ابان الثورة التحريرية، منشورات وزارة المجاهدين، الجزائر، 2013، ص35.
- ⁸⁻ المرجع نفسه، ص36.
- ⁹⁻ ولد سنة 1915 بالشريرة ولاية تبسة، التحق بالأكاديمية العسكرية الفرنسية وتحصل على رتبة ملازم، انظم للثورة في جوان 1955، وعين بعد مؤتمر الصومام قائدا للولاية الأولى توفي سنة 1987، للمزيد انظر: محمد علوي، مرجع سابق ص45.
- ¹⁰⁻ مولود بتاريخ 1923، فر من التجنيد الاجباري الفرنسي سنة 1956 أين حكم عليه بعشرين سنة سجن نافذة، كان عضوا من أعضاء المجلس الوطني للثورة سنة 1957، اعتقل سنة 1958 في مؤامرة العقءاء، وحكم عليه بالسجن ليفرج عليه سنة 1960 ملتحقا بالحدود المالية لدعم نشاط جيش التحرير هناك توفي في 16-09-2003، انظر: الطاهر جيلي، دور القاعدة الشرقية في الثورة 1954-1962، دار الأمة، الجزائر، 2014، ص265.
- ¹¹⁻ ولد بعسيرة، باتنة سنة 1920 ناضل في صفوف حزب الشعب الجزائري تحت مسؤولية مصطفى بن بولعيد، لهاجر سنة 1953 الى فرنسا وبقي عدة أشهر هناك، عين بعد اندلاع الثورة رئيس فوج مكلف بالعمليات في مدينة أريس احتج سنة 1958 على تصرفات كريم بلقاسم وبن طوبال بعد معاقبتهم لمحمد العموري حيث انظم اليه فيما بعد كأحد أفراد المؤامرة ، حكم عليه بالإعدام ونفذ فيه في 17-03-

- 1959، انظر: الرائد محمد الصغير هلايلي، مذكرات، شاهد على الثورة في الأوراس، دار القدس العربي، وهران الجزائر، 2013، ص 287.
- 12- مصطفى مرادة، مصدر سابق، ص 80.
- 13- صالح فوجيل، مصدر سابق.
- 14- محمد زروال، اشكالية القيادة في الثورة الجزائرية-الولاية الأولى أنموذجا-، منشورات وزارة المجاهدين، الجزائر، دون سنة نشر ص 370.
- 15- من مواليد 20 جوان 1920 ، بتيزي وزو، انخرط في صفوف حزب الشعب وأصبح عضوا في المنظمة الخاصة حيث ألقى القبض عليه وسجن لمدة 06 سنوات، التحق بالثورة بعد خروجه سنة 1955 أشرف على اصدار الأعداد الأولى من جريدة المجاهد، توفي يوم 1957/12/26 بالمغرب، للمزيد انظر: خالفة معمري، عيان رمضان تعريب، زينب زخروفة، طبعة خاصة بوزارة المجاهدين، الجزائر، 2007، ص 37.
- 16- الاسم الثوري سي عبد الله ولد سنة 1923 بميلة وسط أسرة فقيرة، التحق بالثورة، وتولى قيادة الولاية الثانية بعد استشهاد زيغود يوسف، توفي في 21 أوت 2010، للمزيد، انظر: محمد علوي، مرجع سابق، ص 76.
- 17- ابراهيم لونيسي، الصراع السياسي داخل جبهة التحرير الوطني خلال الثورة التحريرية (1954-1962)، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر 2015، ص 40.
- 18- ولد في 14 ديسمبر 1922 ببلدية ايت يحيى بذراع الميزان ولاية تيزي وزو، تربي في اسرة ميسورة الحال، درس المرحلة الابتدائية بالعاصمة بالعربية والفرنسية، كان عضوا فعالا في حركة الانتصار للحريات الديمقراطية غداة تسريحه من الخدمة العسكرية، كما كان ضمن مجموعة الستة التاريخية التي أعدت للثورة، اغتيل في فرانكفورت بألمانيا بتاريخ 1970/10/18، للمزيد انظر: محمد علوي، مرجع سابق، ص 9.
- 19- ابراهيم لونيسي، مرجع سابق ص 41..
- 20- عابد الصالح: عيان رمضان والطموح القاتل لقيادة الثورة (1955-1957)، مقال منشور في مجلة كان التاريخية، عدد 27، السنة الثامنة، دون بلد نشر، 2015، ص 91.
- 21- رايح لونيسي، الجزائر في دوامة الصراع بين العسكريين والسياسيين، دار المعرفة، الجزائر، 2000، ص 21.
- 22- سليمان الشيخ، الجزائر تحمل السلاح أوزمن اليقين، ترجمة محمد حافظ الجمالي، دار القصبه للنشر والتوزيع، الجزائر، 2003، ص 97.
- 23- الاسم الثوري سي مبروك ولد سنة 1926 بميلة، تحصل على الشهادة الابتدائية سنة 1944، التحق بالثورة مباشرة وعين نائبا للعربي بن مهيدي في المنطقة الخامسة وقائدا لها سنة 1956، قام بإنشاء أول مدرسة للإشارة العسكرية، توفي ببباريس في 31 ديسمبر 1980، للمزيد انظر، محمد علوي، مرجع سابق، ص 154.

- 24- رابح لونيبي، الصراعات الداخلية للثورة الجزائرية في الخطاب التاريخي الجزائري، مقال في مجلة انسانيات عدد 26/25، جولية ديسمبر، الجزائر 2004، ص 28.
- 25- حميد عبد القادر، فرحات عباس رجل الجمهورية، دار المعرفة، الجزائر، 2001، ص 157.
- 26- Mohamed Harbi ; Gilbert Meynier ; le FLN documents et histoire (1954-1962), Casabah édition, Algérie 2004, page 514.
- 27- تشكلت شهر أبريل 1958 من الأعضاء الاتية أسماؤهم: كريم بلقاسم، عبد الحفيظ بوصوف، لخضر بن طوبال، أو عمران، بن مهدي، للمزيد: انظر، صالح فركوس، تاريخ الجزائر من عهد الفينيقيين إلى خروج الفرنسيين (814 م-1962)، دار العلوم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2012، ص 512.
- 28- سليم سايح، العقيد محمد عموري (1929-1959)، مسار ومصير، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، تخصص تاريخ الثورة الجزائرية 1954-1962، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الاسلامية قسنطينة، الجزائر، 2010، 2011، ص 93.
- 29- ساهم الطموح والخبرة العسكرية التي اكتسبها بوقلاز من سنوات خدمته في القوة البحرية الفرنسية وكثرة تنقلاته بين مختلف دول العالم من توسيع دائرة أفقه العسكري والسياسي بعد انضمامه إلى الثورة، كما كان لعلاقته بالقادة التونسيين وانخراط في الحزب الدستوري التونسي قبل الثورة أن فتح له باب تونس على مصراعيه من أجل دعم الثورة. للمزيد أنظر: الطاهر جبلي، مؤتمر الصومام والقاعدة الشرقية، مقال في مجلة المصادر عدد 9، الجزائر، 2004، ص 210.
- 30- الشاذلي بن جديد، (مذكرات)، الجزء الأول 1929، 1979، دار القصة للنشر، الجزائر 2011، ص 119.
- 31- Abbas Ferhat; Autopsie d'une guerre, L'aurore édition Garnier, Paris 1981, p328.
- 32- محمد زروال، مرجع سابق ص 375.
- 33- ولد سي ناصر في سنة 1912 بقرية ايت فراح بتيزي وزو حفظ القران في صغره، التحق بالثورة سنة 1955، شارك في اجتماع العقءاء العشر لسنة 1959، توفي في 06 ديسمبر 1994، للمزيد، انظر: محمد علوي، مرجع سابق، ص 94.
- 34- مصطفى هشماوي، تحديات مؤتمر وادي الصومام، مقال في مجلة أول نوفمبر، عدد 164، المنظمة الوطنية للمجاهدين الجزائري، دون سنة نشر، ص 29.
- 35- اسمه الحقيقي محمد بوخروبة، ولد يوم 23 أوت 1932 بهيلوبوليس ولاية قالمة، تعلم القران ودرس في المدرسة الفرنسية في المرحلة الابتدائية، انخرط في صفوف حزب الشعب، وزوال دراسته في جامع الزيتونة بتونس، والأزهر بالقاهرة، التحق سنة 1955 بالثورة في القطاع الوهراني، تقلد عدة مسؤوليات عسكرية من أهمها قيادة هيئة الأركان سنة 1960 قبل الاستقلال، ورئيسا للجزائر بعد الاستقلال، توفي في 27 ديسمبر 1978، للمزيد انظر: مسعود خير الدين، هوارى بومدين والروح الثورية والفكر المنتقد، دار التقريب للطباعة والنشر، الجزائر 2001، ص 18، 38.

- 36- عثمانى مسعود، الثورة التحريرية أمام الرهان الصعب، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، الجزائر، 2017، ص488.
- 37- محمد عباس، ثوار عظماء، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2012، ص227.
- 38- عمار بن عودة، مقابلة شخصية مع المجاهد عمار بن عودة بمدينة عنابة بتاريخ 31 جانفي 2017، على الساعة 10 صباحا.
- 39- المصدر نفسه.
- 40- محمد حربي، جهة التحرير الوطني الأسطورة والوقائع، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، لبنان، 1983، ص181.
- 41- مصطفى هشماوي، مرجع سابق، ص30.
- 42- ولد سنة 1927 في قرية الناظور ولاية قالمة، التحق بالثورة بعد معركة البطيحة مارس 1956م بعد أن كان ينشط في صفوف الجيش الفرنسي، تولى قيادة القاعدة الشرقية بعد انضمام عمارة العسكري إلى لجنة العمليات العسكرية، للمزيد أنظر: عبد المالك الصادق، مرجع سابق، صص290-291.
- 43- محمد زروال، مرجع سابق، ص384.
- 44- المرجع نفسه، ص377.
- 45- عمار جرمان، من حقائق جهادنا، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، الجزائر، 2009، ص147.
- 46- محمد عجرود، أسرار حرب الحدود 1957-1958، منشورات الشهاب، الجزائر، 2014، صص52، 53.
- 47- المرجع نفسه ص103.
- 48- الطاهر سعيداني، مذكرات، القاعدة الشرقية قلب الثورة النابض، ط1، شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر 2001، ص210.
- 49- المصدر نفسه، ص210.
- 50- محمد حربي، مؤامرة العموري، مجلة نقد للدراسات والنقد الاجتماعي، التاريخ والسياسة، شركة النشر والتنشيط العلمي والثقافي، ع14، 15، الجزائر، 2001، ص16.
- 51- عمار بن عودة، مصدر سابق.
- 52- محمد حربي، مؤامرة العموري، مرجع سابق، ص17.
- 53- ح، ع، بن بلة كان يرغب في ابقاء تبعية الثورة للمخابرات المصرية. مقال في جريدة الخبر اليومي، 13 نوفمبر 2012، الجزائر، ص19.
- 54- الشاذلي بن جديد، مذكرات، الجزء الأول 1929-1979، دار القصة للنشر، الجزائر 2011، ص123.
- 55- شارك إلى جانب علي خوجة في كل معارك الولاية الرابعة، ودخل بعد ذلك في خلاف مع قائده سليمان دهيليس الذي همشه وأرسله إلى الجهة الليبية تحت قيادة مولود ايدرير، حيث دخل في صراع معه بعد ما

- ساوره شك في عدم رغبة هذا الأخير مقاومة الاستعمار، التحق بالقاهرة بعد أن أقلت من قبضة رجال بوضوف، للمزيد، انظر، محمد حربي، مؤامرة العقداء، مرجع سابق، ص 18.
- 56- الطاهر سعيداني، مصدر سابق، ص 194.
- 57- محمد زروال، مرجع سابق، ص 388.
- 58- فتحي الذيب، عبد الناصر وثورة الجزائر، دار المستقبل العربي، القاهرة، 1984، ص 406.
- 59- عمار بن عودة، مصدر سابق.
- 60- محمد عباس، كفاح الدم والقلم، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر 2015، ص 210.
- 61- الوردى قتال، مقابلة شخصية بمنزله في مدينة تبسة بتاريخ 26 ديسمبر 2017 على الساعة 13 زوالا.
- 62- رايح لونيبي، الجزائر في دوامة الصراع.....، مرجع سابق، ص 30.
- 63- Zoubir khelaifia; Ammar guaram brise le silence, le complot des colonels, journales « Mimoria » Publié le 18/05/2017 Alger, page 13.
- 64- محمد زروال: مرجع سابق، ص 395.
- 65- الطاهر سعيداني، مصدر سابق، ص 197.
- 66- محمد حربي، مؤامرة العقداء، مرجع سابق، ص 19.
- 67- المرجع نفسه، ص 23.
- 68- محمد زروال، مرجع سابق، ص 392.
- 69- المرجع نفسه، ص 392.
- 70- الطاهر الزبيري، مذكرات اخر قادة الأوراس التاريخيين (1926-1929) منشورات ANEP الجزائر، 2008، ص 202.
- 71- فر مصطفى لكلل بعد أن قيد حارسين تونسيين، ثم اختفى مدة عشرة أيام، وسلم نفسه للقيادة فيما بعد، كما تم أسر 28 رجلا، في حين أطلق سراح السعيد عبيد لأنه صغير السن، للمزيد، انظر: محمد زروال مرجع سابق، ص 396-397.
- 72- الطاهر الزبيري، مصدر سابق، ص 203.
- 73- عمار جرمان، مصدر سابق، ص 124.
- 74- علي كافي، مذكرات الرئيس علي كافي، من المناضل السياسي إلى القائد العسكري (1946-1962)، ط 2، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2011، ص 209.
- 75- صالح قوجيل، مصدر سابق.
- 76- المصدر نفسه
- 77- محمد حربي، مؤامرة العقداء، مرجع سابق، ص 19.
- 78- الشاذلي بن جديد، مصدر سابق، ص 124.
- 79- صالح قوجيل، مصدر سابق.

- 80- المصدر نفسه.
- 81- محمد حربي، مؤامرة العموري، مرجع سابق، ص 2.
- 82- بوعلام بن حمودة، الثورة الجزائرية معالمها الأساسية، دار النعمان للطباعة والنشر، الجزائر 2012، ص 415.
- 83- محمد حربي، مؤامرة العموري، مرجع سابق، ص 21.
- 84- في مذكراته يؤكد الطاهر الزبيري بأن محمد العموري هو من طلب توكيله، وقد تم ابلاغه عن طريق كريم بلقاسم، ففي الوقت الذي تسائل فيه الزبيري عن الطريقة التي سيدافع بها عن مجموعة يعتبرها متمردة، طمأنه كريم بلقاسم بأن الأمر لا يدعو للقلق، للمزيد، انظر: الطاهر الزبيري مصدر سابق ص 203.
- 85- المصدر نفسه، ص 205.
- 86- Mohamed Harbi, Gilbert Meynier ; Op cit, page 511
- 87- جذور أول نوفمبر 1954 في الجزائر، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2010، ص 151.
- 88- عبد السلام فيلاي، الجزائر الدولة والمجتمع، ط 1، دار الوسام للنشر والتوزيع، الجزائر 2013، ص 375.
- 89- محمد زروال، مرجع سابق، ص 405.
- 90- عثمان مسعود، مرجع سابق، ص 507.
- 91- الشاذلي بن جديد، مصدر سابق، ص 129.
- 92- بوعلام بن حمودة، مرجع سابق، ص 461.
- 93- عثمان مسعود، مرجع سابق، ص 531.
- 94- الشاذلي بن جديد، مصدر سابق، ص 134.
- 95- الطاهر الزبيري، مصدر سابق، ص 210.
- 96- بوعلام بن حمودة، مرجع سابق، ص 462.
- 97- المرجع نفسه، ص 463.
- 98- محمد زروال، مرجع سابق، ص 406.
- 99- المرجع نفسه، ص 408.
- 100- نفسه، ص 407.
- 101- فرحات عباس، تشريح حرب، تر، أحمد منور، دار المسلك الجزائر، 2010، ص 346.
- 102- حفظ الله بوبكر، التموين والتسليح ابان ثورة التحرير الجزائرية (1954-1962)، دار العلم والمعرفة، الجزائر 2013، ص 197.
- 103- فرحات عباس، مصدر سابق، ص 347.
- 104- محمد زروال، مرجع سابق، ص 410.
- 105- المرجع نفسه، ص 410.

- ¹⁰⁶-عمر بوضربة، النشاط الدبلوماسي للحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية دار الحكمة للنشر، الجزائر 2010، ص 143.
- ¹⁰⁷- المرجع نفسه، ص 144.
- ¹⁰⁸- فتحي الذيب، مصدر سابق، ص 410.
- ¹⁰⁹- عمر بوضربة، مرجع سابق، ص 150.
- ¹¹⁰- فتاحي الذيب، مصدر سابق، ص 414.
- ¹¹¹-عمر بوضربة، مرجع سابق، ص 150-151.

د. موسى بن موسى
أ. محمد العايب
المؤسسة: جامعة الوادي

عنوان المقال: إيالة الجزائر والجزائريون،
أحوالهم، معاملاتهم، وعلاقتهم بالسلطة في
النصف الأول من القرن 18م في نظر
الرحالة الأوروبيين (ج. ا. هابنتسرايت
أنموذجا)

البريد الإلكتروني: aboutahab@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2020/03/04 تاريخ القبول: 2020/03/22 تاريخ النشر: 2020/03/31

إيالة الجزائر والجزائريون، أحوالهم، معاملاتهم، وعلاقتهم بالسلطة
في النصف الأول من القرن 18م في نظر الرحالة الأوروبي (ج. ا.
هابنتسرايت أنموذجا).

الملخص :

تميزت إيالة الجزائر خلال القرن 18م باستمرار حكم الدايات وبكثرة الحملات الأوربية ضدها، وبنوع من الاستقلالية عن الدولة العثمانية ابتداء من سنة 1710م، وجل هذه المعطيات مستخلصة من رحلات الأوروبيين الذين دونوا مذكراتهم بدقة، وإن اختلفوا في الغاية من زيارة الجزائر إلا أنهم امتلكوا في إثراء التاريخ الجزائري في العصر الحديث بنقل صورة عن هذه الأيالة، ومن بين هؤلاء الرحالة ج. أو. هابنتسرايت، الذي زار الجزائر سنة 1732م وكتب رسائل إلى الملك " أغسطس الثاني " ملك بولونيا ، الذي كلفه بهذه الرحلة يصف له فيها مشاهداته وانطباعاته عن الجزائر والجزائريين وعلاقتهم بحكامهم الأتراك، كما وصف عاداتهم وتقاليدهم وطبيعة البلاد وبعض مدنها والآثار التي شاهدها أثناء رحلته الشيقية.

الكلمات المفتاحية : الجزائر، الرحلة ، الرحالة الأوروبيون ، الطبيب ، السلطة العثمانية ، الأهالي ، المجتمع.

Summary of English :

During the 18 th century, Algeria was characterized by the continued rule of daiyat and the great number of European campaigns against it and some independence from the Ottoman Empire from 1710. Most of these data are derived from the trips of Europeans who wrote their memoirs accurately, although they differed in the purpose of visiting Algeria, Algerian in the modern era to convey a picture of this loan, and among these travelers c. or. Who visited Algeria in 1732 and wrote letters to the king august II , Who charged him with this trip, describing his observations and impressions of Algeria and the Algerians and their relations with their Turkish rulers.

key words : Algeria, t European Travelers, he journey, the doctor, Ottoman power, Parents, the society.

مقدمة :

تعتبر الرحلات العلمية والاستكشافية التي قام بها الأوروبيون إلى الجزائر في العصر الحديث، من أهم المصادر للتعرف على تاريخ الحكم العثماني، والعلاقة بين السلطة والأهالي ومكانة الجزائر في محيطها المغاربي والمتوسطي، وإن كانت هذه الرحلات في شكلها العام لا تستند إلى المنهجية العلمية في الكتابة والتأليف، غير أنها بالمقابل تزخر بالمادة العلمية والتاريخية، التي هي ضالة الباحث والطالب على حد سواء، بالنظر إلى قلة المصادر العربية والعثمانية لتلك الفترة المهمة من تاريخ بلادنا، ومن بين هذه الرحلات رحلة العالم الألماني جوهان ارنست هابنتسرايت **Johann Ernst Hebenstreit** ، التي زار فيها بلدان شمال إفريقيا سنة 1732م، حيث دوّن مشاهداته في رسائل إلى ملكه في شكل مذكرات يومية، اتخذت صفة الارتجال أحيانا وعدم التقيد بمنهجية محددة في التدوين، فالرحلة ينتقل في سرده للأحداث من الجانب العسكري إلى السياسي إلى الديني إلى العادات والتقاليد، ومنها إلى الجانب التاريخي والآثار وعلم النبات والحيوان في رسالة واحدة، وهو ما

يدل على عدم تخصصه في التأليف والكتابة. إنما هو رحالة محب للاكتشاف والآثار والطبيعة.

ومهما يكن من أمر، فإن القيمة التاريخية لهذه الرحلة بالغة الأهمية، وهي تصف أحوال الجزائر في الثلث الأخير من تاريخها العثماني، وما يتضمنه من استقلالية في اتخاذ القرار وحروب مستمرة مع الإسبان وفتن وقلاقل داخلية لا تكاد تنتهي، وما يميزه كذلك من سيطرة المكوّن التركي على السلطة والجيش، وما يعانيه الأهالي من فاقة وتمهيش، وصولاً إلى حالة التخلف العامة التي عرفتها الأيالة، خاصة في العلوم والطب وغيرها من المجالات.

فكيف كانت العلاقة بين السلطة الحاكمة الممثلة في الأتراك والشعب الممثل في بقية مكوناته من عرب وأمازيغ وكراغلة وعبيد وغيرهم؟

ماهي مظاهر الحياة الإجتماعية في الجزائر خلال فترة زيارة الرحالة لها؟

كيف كانت الأوضاع السياسية والإقتصادية للأيالة؟ وماهي عوامل القوة والضعف فيها؟

ما ابرز الملاحظات والاستنتاجات التي عاد بها الرحالة إلى أوروبا في الجانب العلمي الاستكشافي الذي هو مقصد الرحلة؟

أولاً: شخصية جوهان ارنست هابنتسريت : Johann Ernst Hebenstreit

هو العالم والطبيب الألماني جوهان ارنست هابنتسريت Johann Ernst Hebenstreit ولد يوم 15 جانفي 1703م في " نويشتادت أون أورلا " الواقعة في مقاطعة الساكس في الممالك الجرمانية، درس الطب في شبابه في جامعة إيينا، ثم استقر في مدينة " لايبزيغ " شرق ألمانيا الحالية ، اشتغل عند احد التجار الأغنياء بالمدينة وأوكلت له مهمة العناية بالنباتات النادرة، مما ساعده على مواصلة دراسته والحصول على مؤهل علمي مكنه من ممارسة مهنة الطب، وقد عرف في مدينته بحب العمل والانضباط، مما جعله يحظى بثقة ملك بولونيا ومنتخب منطقة الساكس لتولي عرش الامبراطورية الجرمانية المقدسة " أغسطس الثاني " المعروف بـ " القوي " ¹ ، الذي كان محبا للعلوم وشغوفاً

بالاكتشاف، حيث كلفه بالقيام برحلة إلى شمال إفريقيا للتعرف على نباتات المنطقة وحيواناتها، وجمع عينات منها، لتكون من مقتنيات القصر الملكي. فقام ج. أ. هابنسترايت بهذه الرحلة سنة 1732م رفقة فريق عمل من بينهم الطبيب توماس شو² thomas show، وتعرف في رحلته هذه على سكان المنطقة وحكامها، وعاداتها وطبيعتها وأثارها، ولم يترك فرصة تقريه من مبتغاه إلا قام باستغلالها، وكان أثناء ذلك يرسل إلى ملكه المذكور برسائل يطلعه فيها على ما شاهده، وعائشه في بلدان شمال إفريقيا، غير أنه لم يحظ بإكمال هذه الرحلة بسبب إبلاغه نبأ وفاة الملك أغسطس الثاني، الذي أرسله. وبالنظر إلى كفاءته وتعدد مواهبه حظي بثقة الملك الجديد " أغسطس الثالث"، الذي عينه أستاذا للطب في جامعة لايبزيغ، مما ساعده على نشر أبحاثه العلمية، وظل في منصبه إلى غاية اندلاع حرب السبع سنوات³، حيث شارك فيها كطبيب للجيش، فأصيب بحى معدية أدت إلى وفاته يوم 5 ديسمبر 1757م.

ثانيا : التعريف بالرحلة :

ظلت رحلة ج. أ. هابنسترايت حبيسة الأدرج ولم تظهر للقراء إلا بعد أكثر من 20 سنة من وفاته، ويرجع الفضل في ذلك إلى العالم الموسوعي بيروني (bernouilli)، الذي اعتبرها ذات قيمة علمية كبيرة لما تحتويه من معلومات قيمة وملاحظات دقيقة، فقام بنشرها ضمن مجموعته المختصرة عن الرحلات التي تحمل عنوانها بالجرمانية (sammlung kleiner reisen)، أي مجموعة الأسفار الصغيرة، التي أصدرها في كل من برلين ولايبزيغ ابتداء من سنة 1780م، واختار لها عنوان الحرف اللاتيني يقابله بالعربية : قائمة أو جدول بالآثار الرومانية المكتشفة بإفريقيا الشمالية، ثم قام الفرنسي المهتم بالرحلات إيريس Eyriés بنقل نصها الأصلي إلى الفرنسية ونشره في مجلة الحوليات الجديدة للرحلات والعلوم الجغرافية، حيث تم نشرها في العدد 46 سنة 1830م⁴، حيث قامت مكتبة " جيد وأبنائه " (Gide fils) بنشرها⁵. وقام الأستاذ الدكتور ناصر الدين سعيدوني⁶ بترجمة الرحلة للعربية سنة 2007م، كما قام بالتعليق عليها، وأضاف ملحقا لأهم الكتاب والرحالة

والأسرى الأوروبيين الذين كتبوا حول بلدان شمال إفريقيا، وهي إضافة قيمة جدا للباحثين والطلبة.

تتألف الرحلة من أربع رسائل أرسل بها هابنتسرايت إلى الملك أغسطس الثاني، غير أننا سنكتف بثلاث منها، كون موضوع مقالنا عن رحلته إلى الجزائر ومشاهداته في ربوعها، فكانت الرحلة على النحو الآتي :

الرسالة الأولى : يسرد فيها الرحالة مغادرته مدينة " درسدن " يوم 23 أكتوبر 1731 م ، وتوجهه إلى مدينة " مرسيليا " الفرنسية شهر نوفمبر الموالي من نفس السنة، ثم إبحاره نحو الجزائر يوم 24 جانفي 1732م، التي نزل بمينائها يوم 16 فيفري، حيث بدأ في تدوين مشاهداته الأولى عن مدينة الجزائر وعن الداوي " كورد عبدي باشا "، الذي استقبله في قصره، فأورد ج.أ. هابنتسرايت معلومات عن تاريخ الجزائر وعن جغرافيتها و موقعها⁷.

الرسالة الثانية : تحمل تاريخ 1 جوان 1732م، وهي تتضمن مشاهداته أثناء تنقله مع محلة الأغا ابن الداوي في الداخل الجزائري: **أي في دار السلطان⁸ وبنايك التيطري⁹، كما وصف طبائع أهالي المدن التي مر بها مثل : مدينة مليانة والمدية، وسور الغزلان وبرج حمزة¹⁰، كما تطرق إلى المواقع الأثرية التي وجدها أثناء تنقله مع المحلة¹¹.**

الرسالة الثالثة : تحمل تاريخ 31 أوت 1732 م ويروي فيها ما شاهده أثناء رحلته من مدينة الجزائر إلى عنابة بحرا ثم منها إلى قسنطينة برا برفقة الفوج المرافق له وبمعية عدد من الحراس لخطورة المنطقة في تلك الفترة ثم توجه إلى القالة ومنها إلى مدينة طبرقة التونسية¹².

ثالثا: نظرة ج.ا. هابنتسرايت لإيالة الجزائر والجزائريين من خلال رحلته :

1 - مواقف وردود فعل الجزائريين تجاه الأطباء الأوروبيين :

نظر الجزائريون للأطباء الأوروبيين نظرة احترام وتقدير بسبب أخلاقهم المهنية النبيلة التي يقومون بها، حيث يذكر ج.ا. هابنتسرايت في كثير من المواضع برحلته، أن مهنته كطبيب جنبته العديد من المتاعب، وفتحت أمامه كثيرا من الأبواب والقلوب، خاصة وأنه كان لا يتقاضى أجره مقابل عمله، حيث يقول : « وكانت أتعابي كطبيب في

المعالجات لا تتجاوز غالبا تقديم كاس من الماء البارد أو تناول قليلا من الحليب اللذيذ¹³. «، ويقول أيضا: « وأن مزاولتي لهذه المهنة بنجاح كانت من أجل الحفاظ على حياتي وليس من أجل كسب النقود¹⁴. »

ويتجلى لنا من خلال تصريح ج. ا. هابنسترايت أنه حظي باحترام الجزائريين ومودتهم لسببين: أولهما امتنانه التطبيب. وثانيهما معاملته الحسنة لمرضاه وعدم اخذ مقابل لذلك. وقد استند في إثبات تهاقت الجزائريين على الأطباء الأوربيين إلى قول أحد القساوسة بمدينة عنابة: «... أن سكان القالة كانوا يُقدرون الأطباء الأوربيين الذين يتواجدون بالصدفة عندهم، وأنهم بمجرد رؤيتهم لطبيب أوربي يتهافتون عليه لطلب الكشف عليهم حتى ولو كانوا أصحاء، رغبة منهم في عدم تفويت الفرصة¹⁵. »

وهو الأمر الذي تأكد منه بنفسه عندما قام بزيارة " علي باي " شيخ المعزولة¹⁶ برفقة الطبيب الجراح الخاص بحصن الباستيون¹⁷، حيث يقول في ذلك: « بمجرد أن علم الأهالي بذلك أحاطت بنا مجموعة كبيرة منهم وطلبوا منا أن نكشف عليهم، فذهبنا إلى خيمهم واحدا واحدا، ولكنهم كانوا كثيرين فوجدت نفسي مجبرا أنا أيضا أن أشارك الطبيب في عمليات الفحص، بعدما أفهمهم الطبيب أنني على نفس درجة كفاءته¹⁸. «، ومن خلال ما سبق يمكن أن يبين لنا سبب لجوء الجزائريين إلى الأطباء الأوربيين بصفة كبيرة، ناتج ضعف وانعدام اهتمام السلطة العثمانية الحاكمة بالحالة الصحية للسكان واعتماد أغلبهم على الطب الشعبي.

أردف ج. ا. هابنسترايت مبينا حالة الاحترام والتقدير التي حظي بها عند الأهالي قائلا: « أصبحنا محل تقدير لكوننا أجنب ولأننا نمتهن حرفة الطب أو التداوي بالأعشاب، فقد اعتادوا على تسميتنا (الباربيرو) ومرد ذلك أنهم كانوا يروننا في اغلب الأحيان نحمل في أيدينا زهورا ونباتات¹⁹. «. وكلمة " باربيرو " هي: مفردة من لغة الفرانكا²⁰، ويقصد بها المشتغل بالطب أو التداوي بالأعشاب، وهي قريبة من كلمة حلاق²¹.

2 - القضاء والأحكام العقابية في إيالة الجزائر:

نقل ج. ا. هابنسترايت ما شاهده من استقبال الداوي للسكانه لعرض قضاياهم عليه، حيث ذكر بأنه في إمكان كل واحد من الرعية أن يعرض قضيته على الداوي، وأشار

إلى أن كلمة (شرع الله) لها وزن كبير لدى السلطة والرعية، وأن كل فرد مهما علا شأنه يحصل على تطبيق حكم العدالة بمجرد النطق به²². وهذه الواقعة تدل على مدى التزام الداى وحكومته بأحكام الشرع الإسلامى، كما تدل أيضا على موضوعية الرحالة هابنسترايت واعترافه بوجود نوع من العدالة أثناء زيارته لمدينة الجزائر.

أضاف الرحالة أن محكمة الداى هي محكمة نهائية يلجأ إليها المتقاضون بعد مرورهم على محكمة القاضي الأولية، وعدم رضاهم عن الحكم الصادر عنه، وبالعودة إلى مشاهدته لمحكمة الداى ذكر أن المحاكمة لا تتطلب وقتا طويلا فهي لا تستغرق سوى ما يتطلبه حضور المتقاضين، وسماع الشهود وتقديم الشكوى، وأن تنفيذ الحكم يتم في اليوم نفسه، فإذا كان المذنب تركياً تتم معاقبته في سرية حفظا لكرامته بينما تنفذ الأحكام علانية على الحَضْر، وباقي طوائف السكان الآخرين عند باب عزون²³.

وفي معرض حديث ج. ا. هابنسترايت عن الأساليب العقابية التي كان الأتراك يسلطونها على الأهالي، أورد في أثناء تواجده في مواطن قبيلة " وامري " بإقليم بايلك التيطري، كيف شاهد معاقبة أحد أعيان العرب ضربا بالعصا بمجرد الاشتباه في سلوكه المناوئ للسلطة، حيث ذكر أن رجال القبائل قد يعاقبون بمائة ضربة عصا لمجرد عدم تقديمهم الزاد المطلوب منهم للمحلة عندما تحط رحالها بأرضهم²⁴، وهو ما يسمى في التاريخ العثماني « ضيفة المحلة »²⁵.

3 - خزينة إيالة الجزائر ومصادر إيراداتها :

من خلال وصف الرحالة ج. ا. هابنسترايت لخزينة الجزائر²⁶ نلاحظ أنه كسابقيه من الرحالة والقناصل الأوروبيين الذين زاروا مدينة الجزائر يُقدّر أنها خزينة تحتوي على كوم هائل من الذهب والفضة في شكل نقود وأشياء ثمينة، وهذا الاستنتاج توصل إليه بناء على تأثره بما كتبه الأوروبيون قبله عن خزينة الداى مثل : " هايدو"²⁷ و" بايسونال"²⁸ في السنة، وأن الجزء الأكبر من هذه المداخيل كان يودع في الخزينة الموجودة في مكان أمين لا يمكن البتة لأي شخص الدخول إليه سوى الخزانجي، واستدل على ذلك بأنه خلال مدة تواجده في مدينة الجزائر، تمكن البحارة الخواص من القدوم بأربعة غنائم تضم عددا من الأسرى بيعوا في المزاد العلني، كل بحسب سنّته وقوته العضلية ومظهره الخارجي²⁹.

وذكر ج. ا. هابنسترايت أن تجارة الأسرى المسيحيين تعتبر أحد مصادر الدخل الرئيسية، وحدد قيمة الفدية لبعض الأسرى من العساكر الأوربيين كما يلي³⁰:

الرتبة	الوظيفة	مبلغ الفدية (قرش)
القابودان	قائد السفينة	2500
المعاون	نائب القابودان	1500
صانع السفن	عامل	1500
الجراح	الطبيب	1500
البحار	أعمال بسيطة	1000

4- عادات وتقاليد سكان إيالة الجزائر:

إن عادات وتقاليد سكان إيالة الجزائر برزت في رحلة ج. ا. هابنسترايت، حيث أشار إلى أنها عادات وتقاليد تحددها ضوابط الشريعة الإسلامية، فالمسلم الصالح يتوجب عليه حسن معاملة أصدقائه، كما يطلب منه أن يكون شديداً مع أعدائه رحيماً بالمتهمين³¹. وبالنسبة لعادات الجزائريين في معاملة نساءهن أشار إلى تشدهم في ستر المرأة وحجابها، حيث لا يسرن في الأرقعة دون حجاب، بل وحتى منازلهن تكاد أشعة الشمس لاتصل إليها، وإذا ما سافرن على ظهور البغال يكن مختبئات في ستائر غريبة على حد وصفه، وقد سرد حادثة وقعت له مع أحد الأتراك من ذوي المكانة المتميزة، حيث قال: «ترجاني أحد الأتراك من ذوي المكانة المتميزة أن أعالج زوجته، وعندما طلبت منه أن أرى المريضة أجابني من الأفضل أن تموت على أن يراها احد³²».

أما عن عادات الجزائريين في الاحتفالات بالمناسبات والأعياد فذكر أن الناس يتهافتون صبيحة يوم العيد لهنئة الداي، ويكونون في أبهى حللهم، غير أن هذه المناسبة

السعيدة تكون أحيانا تعيسة لبعض الدايات، حيث يسهل الوصول إليهم واغتيالهم مستغلين كثرة الحاضرين والقرب من الداى، ويسرد لنا ج. ا. هابنسترايت حضوره رفقة القنصل الانكليزي لتقديم التهاني للداى، حيث وجدوه في لباسه الرسمي جالسا على جلد نمر في قاعة المجلس يحيط به أعضاء الديوان، وهم يتناولون وجبة الغداء، وبعد الغداء يذهب الجميع للتفرج على مباراة رسمية اعتاد الأتراك القيام بها، حيث يغطى المكان المخصص لذلك بالرمل ويتقدم المتصارعون واحدا بعد الآخر، والذي يطرح خصمه على ظهره يعتبر منتصرا، وهكذا دواليك حتى يتم تعيين الفائزين بالجائزة، وتكون هذه المبارزات مصحوبة بأنغام موسيقى الانكشارية، ولا تعد هذه المصارعة سوى واحدة من ألعاب كثيرة يقوم بها الجزائريون طيلة أيام العيد الثلاثة، غير أنها لم تثر إعجاب هابنسترايت لأنها حسب رأيه ألعاب بسيطة لا تثير الانتباه.³³

تلك المظاهر من البهجة والسرور شاهدها أيضا في عيد الأضحى، أو كما يطلق عليه وقتئذ "البيروم الكبير"، وبلغت الفرانكا عيد الخروف، حيث تقام منافسات المصارعة بين الجنود لتعيين أقوى الرجال في هذه الرياضة، بيد أن طريقة إنهاء المنازلة وتعيين الفائز اختلفت عما ذكره سابقا، وذلك بلَي المصارع لرقبة منافسه وطرحه أرضا فيحظى بمرتبة المنتصرين على حد تعبيره³⁴.

5 - أوجه التباين بين الأسرى الأوربيين بإيالة الجزائر والأسرى الجزائريين

بمرسليا:

أثناء الحديث عن الأسرى قام ج. ا. هابنسترايت بمقارنة حالة الأسرى الجزائريين بمرسليا، التي قدم منها وحالة الأسرى المسيحيين بشمال أفريقيا - وهو شاهد عيان على ذلك - أن الأسرى الجزائريين لا يستطيعون المشي إلا بشق الأنفس، نتيجة الأغلل الثقيلة التي كُبلوا بها، بينما الأسرى المسيحيون في الجزائر يقضون نهارهم في حرية تامة مقابل دفعهم مبلغا ماليا كل شهر، ثم يطلب منهم في المساء التوجه إلى مقراتهم التي كانت مريحة بالنسبة إليهم³⁵. ويضيف في ذات السياق قائلا: « والأسير المسيحي يستطيع أن يحصل على حكم عادل عن أية معاملة سيئة يتلقاها من سيده...، في الوقت الذي يلاقي فيه البحارة الجزائريون عقابا مضاعفا عندما يقعون في أيدي أعدائهم الأوربيين³⁶. »

6- التزام الجزائريين بدينهم وحرية المعتقد للأجانب :

إن التزام الجزائريين بحدود الشرع الإسلامي أشار إليه ج. ا. هابنسترايت في أكثر من موضع، لكنه يقر بأن بعض الجزائريين يتعاطون للخمر، حيث ذكر أن منهم من يبالي في الشرب حتى يفقد صوابه ويقترف جناية أو خصومة، وفي زيارته لمدينة البليدة في شهر أفريل 1732 م استقبلهم حاكم المدينة وقدم لهم الخمر ومسحوق الشمة، ونصح غيره من الأوروبيين عند عزمهم زيارة الجزائر بجلب كميات من الخمر والهدايا، وتقديمها للجزائريين لأنها ستفيدهم أيما إفادة على حد تعبيره³⁷، وهذا يناقض قوله السابق حول التزام الجزائريين بأحكام دينهم!

في هذا الإطار أشار إلى تمتع الجميع دون استثناء في إيالة الجزائر بحرية المعتقد حيث يقول : « فالأجانب يُكرمون والكل في وضعية تمكنهم من القيام بما يرغبون فيه³⁸. »، ومن ثانيا هذا الانطباع ندرك أن الرحالة الألماني يعترف بالتسامح الذي كان يسود الأيالة حول حرية المعتقد سواء بالنسبة للأسرى المسيحيين، أو السكان اليهود. وهذا التسامح تشترك فيه السلطة الحاكمة والأهالي على حد سواء.

7- نظرة ج. ا. هابنسترايت للأهالي :

نعت الرحالة الألماني هابنسترايت البلاد الجزائرية بالبلاد المتوحشة، وهذا ما اقتبسناه من تعليق مترجم الرحلة الذي صحح هذه العبارة بعبارة (غير المتحضرة)³⁹، وذلك أرجعه إلى سوء تعبير الكاتب الذي تناقض مع ذاته، حيث سبق له في مواضع مختلفة من رحلته أن أشاد بخصال الجزائريين الحميدة، بل وتعدى ذلك أن عاتب من سبقه من الرحالة الأوروبيين على تعاملهم على الجزائريين، ووصف ذلك بعدم الموضوعية والأمانة في النقل من طرفهم.

لقد أشاد الرحالة كثيرا بكرم الضيافة لدى العرب على حد قوله ويقصد بهم سكان الريف أو البدو، حيث استضافه ادهم في طريقه إلى قسنطينة وأحسن بمعيته بالاطمئنان والأمان ووافر الارتياح، حيث يقول في هذا الصدد : «... فإننا استطعنا النوم بأمان لأن حسن الضيافة إحدى خصال العرب ، فيسهرون جيدا على حراسة الأجانب ... وأثناء ذلك أحاط بنا جمهور من الناس الذين سرتهم رؤيتنا⁴⁰. ». وبالمقابل يصف الأهالي

أحيانا بالأشقياء، حيث ذكر ذلك حينما تعرض مع مجموعته إلى الرمي بالحجارة من طرف سكان قسنطينة، وما ترتب عن تلك الحادثة من تدخل الحراس لحمايتهم باستعمال السلاح الناري، حيث تم القبض على احد المهاجمين من السكان وتعرض للعقاب الشديد فيقول في ذلك : «... فقد قام قائد المدينة بمعاينة احد الأشقياء الذين تعرف عليهم الفارس المرافق لنا فضرب ضربا مبرحا بالعصا ولو لم نتدخل لصالحه لتسبب ذلك في هلاكه⁴¹» .

وفي موضع آخر من رحلته أشار ج. ا. هابنسترايت إلى أن سكان الجزائر كانوا يحقدون على النصارى ويتحينون الفرصة السانحة للانتقام منهم وأوعز ذلك للحصار⁴²، الذي كان يضره الإسبان على مدينة الجزائر والخطر المحدق الذي كان يهدد الأيالة برمتها من جراء ذلك، وقد ذكر أنه اضطر ومن معه أن يصطحبوا حراسا من الفرسان لتأمين سفرهم من مدينة عنابة إلى قسنطينة⁴³.

أما عن تعامل الأهالي مع الآثار الرومانية ونحوها فقد ذكر أن الجزائريين كانوا يسعون دون هوادة إلى تدمير بقايا تلك الآثار خوفا من استعمال السلطة الحاكمة لحجارتها في بناء حصون تستخدمها في مراقبة القبائل العربية المحاذية للحدود الجنوبية لدار السلطان، كما حدث في العديد من الأماكن خلال السنوات السابقة لرحلته⁴⁴.

8 - نظرة ج. ا. هابنسترايت لحكام إيالة الجزائر:

وصف ج. ا. هابنسترايت الداى الذي تكرم عليه بمبلغ مالي معتبر عند اعتزامه مغادرة الجزائر بأنه احد القراصنة، مما يثبت النظرة الدونية من طرف الأوروبيين لحكام الجزائر عل الرغم من المنصب السامي الذي يمثله الداى، غير أنه في موضع آخر يشيد بالحفاوة التي حظي بها عنده، والرسائل التي كتبها الداى إلى حكام قسنطينة وتونس وطرابلس قصد توصيتهم حول تسهيل مرور ج. ا. هابنسترايت ومرافقيه بأراضيهم⁴⁵.

وفي ذات الصدد تعجب ج. ا. هابنسترايت من تصرف الأغا ابن الداى " كرد عبيدي"، الذي أراد أن يستبقه ومرافقيه لبضعة أيام لسبب غريب وهو أن يرسم له صورة لحصانه، حتى يتمكن من ترويض المهرات بعرض صورة الحصان أمامها، أملا في أن تلد تلك المهرات بعد رؤية هذه الصورة أحصنة لها نفس لون حصانه وخصائصه، وذكر أنه لم

يجد بُداً من الاستجابة لهذه الرغبة الغربية تقديراً للحفاوة التي أظهرها الأغا ابن الداى له ومرافقيه أثناء إقامتهم في مدينة الجزائر، وسفرهم بمعيته داخل إقليم دار السلطان⁴⁶.

9- الأوضاع المعيشية بإيالة الجزائر:

أسهب ج. ا. هابنسترايت في وصف وضعية الجزائريين الاقتصادية والاجتماعية أثناء تنقله بمعية محلة الربيع التي كان يقودها أغا المحلة، والتي وصلت إلى نواحي مدينة البليدة في أواخر شهر افريل 1732م بأنها حالة بانسة وذكر بأن: « العربي من سكان الريف كان لا يملك سوى خيمة مُسودة من اثر دخان الموقد، و قطع ماشية وكمية من القمح الذي يحتفظ به في المطمورة، وبعض الأثاث البسيط البالي، وأنه يعتبر امتلاك سلاح ناري وكمية من البارود معه بمثابة شرف عظيم للعربي⁴⁷. »

يرجع سبب هذا البؤس والعوز إلى جهل السكان، وكسلمهم حسب تعبيره إذ أنهم لا يكلفون أنفسهم عناء إصلاح الأراضي الزراعية، وإنتاج ما يحتاجونه من أغذية، بل يكتفون بزراعة الأراضي الخصبة التي تدر عليهم إنتاجا وفيرا وبأقل جهد ممكن⁴⁸، كما اعتبر هابنسترايت أن إقامة السكان في مساكن قارة يعتبر مجلبة للاحتقار، فهي بنظرهم مصدر الخضوع والعبودية للحاكم، وأنهم يعتبرون الترحال فخرا وحرية⁴⁹.

رابعا : الأوضاع الداخلية لإيالة الجزائر سنة 1732م وتفاني الجزائريين في الذود عن وطنهم :

1 – الأوضاع الداخلية سنة 1732م :

أورد الرحالة في مواضع عديدة وصف للحالة السياسية والأمنية، التي كانت تشهدا الإيالة اتسمت عموما بالاضطراب وسوء العلاقة بين السلطة الحاكمة، وسكان بعض المناطق وعلى سبيل المثال ذكر أنه خلال سفره من عنابة إلى قسنطينة مرّ ومرافقوه بمناطق جبلية يحافظ سكانها على استقلالهم، وهم في حرب دائمة مع رجال البايك⁵⁰.

وكان يلجأ مع رفاقه إلى شيوخ القبائل الخاضعة لسلطة البايك، حيث يتمتعون عندهم بحسن الضيافة والترحاب بعد إظهار رسالة التوصية الممنوحة لهم من طرف حاكم المنطقة أو الجهة التي يتواجدون فيها. أشار ج. ا. هابنسترايت إلى حالة التمرد التي

كانت عليها القبائل المناوئة لسلطة الداوي، والتي تتواجد بمنطقة الشرق، حيث كانت في عداء مستمر مع البايك، حيث ذكر أنه ورفاقه كانوا يستعينون بفرسان مسلحين خشية الوقوع في يد هذه القبائل، التي كانت تقوم بالإغارة من حين إلى آخر على قبائل المخزن الموالية للسلطة، وأن خطوط التماس بينهما كثيرة ومتعددة، حيث يقول في هذا السياق: «... وهناك كلاب متحفزة تثير الانتباه لأي محاولة هجوم قد يقوم بها رجال القبائل الأخرى ، فضلا على أن هؤلاء العرب يمتلكون الحراب والأسلحة النارية لرد المهاجمين...»⁵¹.

أما بالنسبة لسياسة الحكام في تنصيب شيوخ القبائل، فقد عاين ج. ا. هابنسترايت واقعة تثبت ما كانت عليه الحالة السياسية لإيالة الجزائر في النصف الأول من القرن 18م، التي تميزت بظاهرة شراء المناصب والولاءات، التي تفتشت في كل ربوع السلطنة العثمانية، وما إيالة الجزائر باستثناء عن ذلك، فيقول في هذا الباب: «... وكان الباي قد ألحق منذ وقت قريب بأحد شيوخ القبائل المجاورين وحرمه من مكانته لدى قبيلته وأسندها إلى شيخ آخر مقابل مبلغ كبير من النقود ، وهذا ما دفع الشيخ المعزول الذي يعرف لدى رجال قبيلته ببوعزيز أو أبو الوطن⁵² ، في سعيه من اجل رد الاعتبار لشخصه إلى الالتزام أمام الباي إن هو أتبته في منصبه ... أن يقدم كترضية مبلغ 30 ألف قرش بالإضافة إلى دفع ضريبة سنوية مقدارها 10 آلاف قرش ، فكان هذا العرض كافيا للباي لأن يغير رأيه ويتخلى عن منافس هذا الشيخ ...»⁵³.

ذكر الرحالة ج. ا. هابنسترايت في معرض حديثه عن علاقة الأهالي بحكامهم الأتراك، أنها كانت تخضع لاعتبارات متعددة بحسب الظروف التي تمر بها الإيالة عموما، وباييك الشرق خصوصا، ووصف هذه العلاقة بالسيئة لما يُبديه البايات من قسوة وغلظة تجاه الأهالي بهدف إرغابهم وإجبارهم على دفع الضريبة المفروضة علي البايات⁵⁴ من قبل حاكم الجزائر، حيث يقول: « وهؤلاء البايات في تحركاتهم مع مجموعة الجند (المحلة) عبر مقاطعاتهم يبدون قسوة بالغة للتمكن من الحصول على مقدار الضريبة المفروضة عليهم من قبل حكام الجزائر⁵⁵»، كما يطنب في وصف الكيفية التي يجبر بها السكان على دفع الضرائب، وعدم تمكنهم من رفضها، أو رفع مظلمة إلى حكومة الجزائر بسبب سياسة القمع والعنف، التي كان الأتراك يمارسونها ضد السكان الجزائريين فيقول: « وهذه الطريقة في استخلاص الضرائب لا يمكن لأي شخص أن يتجنبها أو يتهرب منها مادام ليس

في مقدوره ان يشتكي من الوسائل العنيفة التي يمارسها هؤلاء البايات في حقهم، وكل من يريد الذهاب الى الجزائر لرفع شكوى، يعرف جيدا أن في ذلك مخاطرة كبيرة ولا يمكنه أن يجد من ينصفه في شكواه مادام الأتراك كلهم يرغبون في تولي المناصب ذات الدخل المالي الوفير⁵⁶.»، كما يسترسل الرحالة واصفا مدى احتقار الحكام للأهالي الجزائريين، ويعرض لنا حادثة تدل على مقدار تسلط الأتراك وجبروتهم، وفرض أعرافهم وسطوتهم عنوة بالقوة، وهذا سرد لتلك الحادثة على لسانه: « وعندما علم الباي بالحادثة التي تعرضنا لها أعطى أوامره للبحث عن مترجم تلك المجموعة ولكن هذا الأخير تمكن من الهرب ن فطمأننا بأنه سوف يعاقب شخصا آخر مكانه ليكون عبرة وحتى يتعلم هؤلاء الناس أصول الضيافة التي يلتزم بها الأتراك بكل متطلباتها ومقتضياتها⁵⁷.».

2 – حب الجزائريين لوطنهم والذود عنه :

أنصف ج. ا. هابنسترايت الجزائريين حينما ذكر مدى تفانيهم في الدفاع عن وطنهم ضد الأسباب، وغيرهم من الأعداء حيث يقول : « ... إن الجزائريين لا تنقصهم الرغبة في الدفاع وأن لهم الإمكانيات ما يجعلهم يقاومون مقاومة شديدة ، ولذا علينا ان ننصف هذا الشعب وخاصة الحامية التركية ، فننتعرف بأنهم يستميتون من اجل الدفاع عن أنفسهم ...»⁵⁸.

خامسا - وصف مدينة قسنطينة :

افرد الرحالة ج. ا. هابنسترايت جزءا من إحدى رسائله إلى ملكه حول مدينة قسنطينة، كونها عاصمة بايلك الشرق ولما تتميز به هذه الحاضرة من آثار تاريخية كانت محطاً اهتمامه وإعجابه، حيث ذكر أنه عثر على قطع نقدية نادرة تعود للفترة الرومانية رُسم عليها اسم الإمبراطور قسطنطين⁵⁹ مؤسس المدينة، كما أنه لاحظ وجود آثار من ذات الفترة تؤرخ إلى النظام السياسي آنذاك، والمعروف بالنظام القنصلي والتميز بالسلطة الثلاثية، غير أنه أبدى استياءه من استعمال السكان المحليين لكثير من الحجارة المنحوتة لتحسين منازلهم المتواضعة على حد وصفه⁶⁰. ومن بين الآثار التي شدد انتباهه القنطرة الرومانية الجميلة التي ذكر أنها نجت من التخريب، التي بناها الرومان من أجل إيصال الماء إلى قسنطينة التي بنيت على صخرة قبالة جبل عال⁶¹.

سادسا : حقائق علمية وتاريخية أوردتها الرحالة :

خلال سرد الرحالة ج. ا. هابنسترايت لمذكرته اليومية في إيالة الجزائر أمكن لنا أن نستشف بعض الحقائق العلمية حول الحياة الطبيعية والحضارات في الإيالة نذكر منها :

- ذكر في أثناء طريقه إلى قسنطينة أنه وجد إحدى الحصون من العهد الروماني، وقد تميزت بنقوش باللغة اللاتينية مكتوبة بحروف جميلة جدا بقيت على حالتها الأولى، مما يدل على نفي صفة التخريب لأثار الرومان، التي طالما وسم بها المؤرخون الأوربيون الجزائريين، وذكر من بينها أيضا طريق تونس قسنطينة الروماني، الذي وجدته في حالة لا بأس بها، حيث كان يتميز بدقة الإنجاز والذي استعملت فيها الحجارة الصلبة، وأضاف في هذا المنوال أنه وقف على بقايا أنقاض مدينة كبيرة جدا، حيث تملكه إعجاب يصعب وصفه للحالة الجيدة التي وجد عليها أطلال تلك المدينة، وهي مدينة خميسة في ولاية سوق هراس حاليا، التي تقع على بعد 14 كلم إلى الشمال الشرقي من مدينة سدراتة⁶².

- ذكر الرحالة أنه وخلال تواجده في بايلك التيطري رفقة المحلة أبلغ السكان الأغا بأن هناك أسودا بالناحية تفترس الخرفان وأنه وإن لم يشاهدها رؤيا العين غير أنه استدل على صدق رواية الأهالي بكون اللبوة التي أهديت له أثناء إقامته في مدينة الجزائر تم الإمساك بها في هذه المنطقة⁶³. وهذا يؤكد تواجد الأسود في منطقة الأطلس التلي.

- وجود حيوان الحيرم أو بقر الوحش (bubade)، الذي وصفه الرحالة بأنه يشبه الأيل، غير أن له قرون غزال ويصل حجمه عند اكتمال نموه الى حجم بقرة، وهو يعيش في سفوح الأطلس الصحراوي على حد وصفه، ولا يمكن القبض عليه إلا عندما يكون صغيرا⁶⁴، وعند تقصينا لهذا النوع من الحيوانات توصلنا إلى أنه انقرض ولم يبق له أثر بسبب قلة تكاثره و الرغبة في صيده خاصة في الفترة الاستعمارية.

- حسب رواية الرحالة ج. ا. هابنسترايت عند سفره من مدينة الجزائر إلى عنابة في الفترة ما بين 6 إلى 12 جوان 1732 م ، شاهد الدلافين واسماك أبو سيف و اسماك التونة، وهذا ما يثبت وجود حوت الدلفين في مياه البحر المتوسط⁶⁵ في تلك الفترة، قبل أن تختفي نهائيا في أوقات لاحقة ولكون الرحالة طبيبا فإنه قطعاً يكتب ما هو متيقن منه، خاصة وأنه على إلمام كبير بالحياة النباتية والحيوانية.

سابعاً: نموذج عن العلاقات الحسنة بين إيالتي الجزائر وطرابلس :

وضع ج. ا. هابنسترايت مضمون الرسالة التي زوده بها باشا الجزائر إلى حاكم طرابلس آنذاك، وهو احمد بن يوسف بن محمد القرامانلي⁶⁶، وهذا نصها : « الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه، السلام عليكم وعلى أهلکم وحوکومتکم ووطد الله حکمکم أخونا وسيدنا باشا طرابلس ابن السيد يوسف السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبرکاته، تلازم رفيع مقامکم بكرة وعشية، فالمعروض على سمعکم الشريف وفهمکم اللطيف، أن هذا المسيحي السيد الأرفع ومرافقيه قدموا إلى بلاد الجزائر للبحث عن النباتات ومن أجل إيجاد أدوية جديدة، وقد بقوا بضعة أيام في بلادنا وطلبوا مني كتابة خطاب لكم في شأنهم، فالرجاء أن تشملوا حامله بحمايتکم هو ومرافقوه⁶⁷ حتى يتمكنوا من أداء مهمتهم، هذا وإن احتجت شيئاً منا فنحن في خدمتکم، كتب هذا الخطاب في 15 شهر ذي الحجة من العام 1144 الهجري⁶⁸.»، ومن خلال التفحص في كلمات هذه الرسالة الرسمية يمكننا أن نلاحظ بعض الإشارات التي توجي بطبيعة العلاقة بين حكام الأيالات العثمانية بشمال إفريقيا، ومستوى التعاون فيما بينها :

- كانت العلاقة طيبة وحسنة، وذلك ما نستدل عليه من العبارات اللطيفة، التي زين بها باشا الجزائر رسالته إلى حاكم طرابلس على غرار : أخونا وسيدنا، رفيع مقامکم، سمعکم الشريف، فهمکم اللطيف، فنحن في خدمتکم.

- التعاون بين باشوات الدولة العثمانية في المهام المتعددة على غرار الاهتمام بالشخصيات التي يرسلها احدهم إلى الآخر، ويتجلى ذلك في آخر الرسالة حينما قال باشا الجزائر لباشا ليبيا : « وإن احتجت شيئاً منا فنحن في خدمتکم. ».

الخاتمة :

إن رحلة العالم الألماني هابنسترايت إلى الجزائر تشكل مصدراً أساسياً لا غنى عنه في دراسة التاريخ الحديث للجزائر ، وذلك يعود إلى شمولية المواضيع التي تتطرق إليها ونقل من خلالها ملاحظاته حول السلطة والأهالي والجغرافيا والآثار والنباتات وطبائع السكان وعاداتهم وتقاليدهم ، إضافة إلى الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية للجزائر ، والسمة البارزة لهذه المذكرات هي الرغبة الكبيرة من طرف الرحالة في التعرف على أوضاع إيالة الجزائر واكتشاف طبائع السكان وتعاملهم مع الأوربيين و ظروف معيشتهم ، التي

نقلها بانتهاج قدر كبير من الموضوعية كما أشار إلى ذلك مترجم الرحلة الأستاذ ناصر الدين سعيدوني ، وهذا يتجلى في تفنيده للأحكام المغرضة التي أطلقها الأوربيون قبله على الجزائر وسكانها ، ومن الملاحظات الجديدة بالتصويب هي أن الرحالة ج. ا. هابنسترايت أشار في غير ما موضع إلى تسمية البلاد الجزائرية بموريطانيا، هذا التباس وقع فيه بسبب اطلاعه على الكتابات الأوربية التي تمجد دائما الفترة التي سبقت دخول الإسلام إلى بلاد المغرب، فالمعروف تاريخيا أن موريطانيا القيصرية كانت في الفترة من القرن الثاني قبل الميلاد، التي امتدت ممتلكاتها من نهر ملوية بالمغرب شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا، وأن بلاد الجزائر في فترة رحلته كانت قد اكتسبت اسمها الحالي المشتق من جزائر بني مزغنة، الذي أورده بنفسه في عدة مواضع من رحلته، لكونه عالم أحياء وطبيب يلتبس عليه الأمر في التسميات التاريخية. وتعتبر هذه المذكرات كتتممة لكتابات كرباخال و هايدو ولوجي دو تاسي حول الجزائر والتي ترجم بعضها إلى العربية لتشكل لبنة أساسية في تاريخ الجزائر الحديث في العهد العثماني .

الهوامش :

1 - أغسطس الثاني القوي : ولد في 12 ماي 1670 في " درسدن " بألمانيا كان أمير سكسوني المؤهل لاختيار رأس الإمبراطورية الرومانية المقدسة ونائب الإمبراطور وأصبح ملك بولندا ودوق ليتوانيا الأعظم ، تسببت قوته الجسدية المفرطة في تلقيبه ببعض ألقاب القوة مثل: « القوي و» هرقل ساكسونيا و« اليد الحديدية، توفي يوم 1 فبراير 1733 في وارسو بولونيا. ينظر : <https://www.universalis.fr/encyclopedie/auguste-ii>

Auguste II Le lien <https://www.universalis.fr/encyclopedie/auguste-ii>

2 - هو كاهن ورحالة انجليزي ولد سنة 1692 درس الكهنوت واهتم بالعلوم والطبيعة والرحلات ولقب بالذكور مع انه لم يدرس الطب قام برحلة إلى شمال إفريقيا وكتب مذكراته في كتاب بعنوان «رحلة في إيالة الجزائر سنة 1765 ، انظر :

J , Watkins , **The universal biographical dictionary , published by normand white , Richmond vir , united kingdom , 1825 , p 370 .**

3 - حرب السنوات السبع بين عامي (1756 و1763) اشتركت فيها معظم الدول الأوربية بين بروسيا بقيادة الملك فريدريك، ومعه بريطانيا ودولة هانوفر، في مواجهة فرنسا والنمسا وروسيا والسويد، ودخلت إسبانيا والبرتغال الحرب لاحقاً. كانت ألمانيا يومها غير موحدة، وتركت الحرب أكثر من مليون قتيل على الساحة

- الأوربية، وخسرت فرنسا الأرض الأميركية. - ينظر: خالص جلي، " حرب السنوات السبع"، مقال إلكتروني، الموقع الإلكتروني www.alarabiya.net/ar/politics/2018/01/13، بتاريخ 13 جانفي 2018.
- 4- ناصر الدين سعيدوني، المرجع السابق، ص 15
- 5- MM. Eyriés, *Nouvelles annals des voyages sciences géographiques*, tome second de l'année, 1830.
- 6- ولد سنة 1940 بأم البواقي عمل أستاذا يقسم التاريخ بجامعة الجزائر ويحمل عدة شهادات في التاريخ والجغرافيا منها دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر سنة 1974 كما حصل سنة 1988 على شهادة دكتوراه دولة في الآداب والعلوم الإنسانية من جامعة إكس أون بروفنس (فرنسا)، درس بجامعة الكويت من 2001 إلى 2011 وترأس قبلها المجلس العلمي لكلية العلوم الإنسانية بجامعة الجزائر، وقد نشر 32 كتابا والعديد من الدراسات والبحوث على غرار كتب دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر، والجزائر في التاريخ ... - ينظر: الأستاذ ناصر الدين سعيدوني موقع wikidz على الرابط التالي: <https://wikidz.org/ar>
- 7- ناصر الدين سعيدوني، رحلة العالم الألماني: ج. أو. هابنسترايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس، دار الغرب الإسلامي، تونس، 2008، ص ص 24-27
- 8- دار السلطان: هي بايلك مدينة الجزائر وما حولها وتمتد من دلس شرقا إلى شرشال غربا ومن ساحل البحر شمالا إلى سفوح الأطلس البليدي جنوبا، وتنقسم إلى أوطان يحكمها قادة تحت إشراف الأغا. - ينظر: احمد السليمان، النظام السياسي الجزائري في العهد العثماني، مطبعة دحلب، الجزائر، 1994، ص 37.
- 9- بايلك التيطري، يعد اصغر البايلكات وأقربها وأكثرها ارتباطا بالسلطة المركزية، يحده شمالا دار السلطان وجنوبا الصحراء الكبرى ومن الشرق منطقة الزاب وغربا معسكر وعاصمته مدينة المدينة. - ينظر: عائشة غطاس وأخرى، الدولة الجزائرية الحديثة ومؤسساتها، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، 2007، ص 177.
- 10- هي البويرة حاليا.
- 11- ناصر الدين سعيدوني، المصدر السابق، ص ص 59-70.
- 12- نفسه، ص ص 80-98.
- 13- نفسه، ص 57.
- 14- ، نفسه، ص 57.
- 15- فوزية لزغم، " الأطباء الأوربيون بالجزائر خلال العهد العثماني"، مجلة الدراسات التاريخية، العدد 15 -16، جامعة الجزائر 2، 2012، 2013، الجزائر، ص 165.
- 16- شيخ المعزولة: هو علي باي ابن الشيخ عبد الله تولى منصب شيخ منطقة المعزولة سنة 1785 إلى غاية عزله منه سنة 1793 م. - ينظر فوزية لزغم، نفس المرجع، ص 176.

- 17 - الباستيون : هو حصن تجاري أقامته فرنسا بالقرب من مدينة عنابة بعد حصولها على امتياز صيد المرجان بسواحلها رغم معارضة السلطات الجزائرية التي لم تتقبل إقامة هذا الحصن وقيام فرنسا بالتجارة في القمح مع الأهالي عبره وقامت بتحطيمه ثلاث مرتين في 1604 و 1637. ينظر: عمار بوحوش، التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية 1962، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1997، ص 77.
- 18 - فوزية لزغم، المرجع السابق، ص 165
- 19 - نفسه، ص 166.
- 20 - الفرانكا: كانت لغة مشتركة للتواصل بين موانئ البحر الأبيض المتوسط العربية وقوامها الإيطالية المجردة الممزوجة بالفرنسية والاسبانية واليونانية والعربية مع كلمات تركية. - ينظر : محمد عبد الرزاق الفلويجي، معجم الفردوس، ج1، مكتبة العبيكان للنشر، الكويت، 2012، ص 129.
- 21 - فوزية لزغم، المرجع السابق، ص 166.
- 22 - ناصر الدين سعيدوني، المصدر السابق ، ص 39
- 23 - نفسه ، ص 39
- 24 - نفسه، ص 64.
- 25 - ضيفة المحلة : وهي تقديم الزاد والتكفل بضيافة فرق الجند وتعتبر من الواجبات التي يلزم بها سكان الريف ويحرص على القيام بها شيوخ القبائل عندما تحط المحلة رحالها عندهم ، أنظر : ناصر الدين سعيدوني، دراسات تاريخية في الملكية والوقف والجباية، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 2001، ص ص 342، 343.
- 26 - توجد خزينة الجزائر الواقعة أسفل المدينة في إحدى الغرف الملحقة بقصر الجنيينة، وكانت تضم كميات كبيرة من الأموال والنفائس، بعضها في شكل قطع نقدية وبعضها الآخر عبارة عن مقتنيات نادرة وأشياء ثمينة. تم نقلها إلى أعلى المدينة بحصون القصبه بأمر من الداوي علي خوجة سنة 1817م، وقدر الفرنسيون قيمتها عند استيلائهم عليها سنة 1830م بـ : 684.527.48 فرنك . - ينظر : ناصر الدين سعيدوني، النظام المالي للجزائر في العهد العثماني، ص ص 169 – 187.
- 27 - هايدو : ديبكو دوفراي هايدو (1527- 1608) كان أسيرا في الجزائر ألف كتابا عن تاريخ الجزائر باللغة الاسبانية سنة 1608م بعنوان : الطبوغرافيا والتاريخ العام للجزائر، يتألف من 5 محاور. - ينظر : أحמידة اعمرابوي، الجزائر في أدبيات الرحلة والأسر خلال العهد العثماني، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2003، ص 13.
- 28 - بايسونال ، جان أندري (1694 – 1759م) زار الجزائر بتكليف من أكاديمية العلوم الفرنسية سنتي 1724، 1725م، وقدم عملا هاما عن الجزائر تضمن معلومات جغرافية وطبيعية واجتماعية قيمة. - ينظر : أحמידة اعمرابوي، المرجع السابق، ص 11.
- 29 - ناصر الدين سعيدوني ، المصدر السابق، ص 44.

- 30 - نفسه ، ص 42.
- 31 - نفسه، ص 46.
- 32 - نفسه، ص 47.
- 33 - نفسه، ص 49.
- 34 - نفسه، ص 80.
- 35 - نفسه، ص 46.
- 36 - نفسه، ص 46.
- 37 - نفسه، ص 56. (أوردنا هذه الملاحظات التي ذكرها الرحالة التزاما بالأمانة العلمية والتاريخية)
- 38 - نفسه، ص 46.
- 39 - نفسه، ص 57.
- 40 - نفسه، ص 83.
- 41 - نفسه، ص 91.
- 42 - يقصد بهذا الحصار الحملة الاسبانية التي انطلقت يوم 15 جوان 1732م نحو الجزائر بقيادة الدوق " مونتيمار "، التي نزلت بعيون الترك يوم 28 جوان وواجهتها القوات الجزائرية بمقاومة شديدة يوم 30 جوان 1732م، وانتهت المواجهة بتسليم مدينتي عيون الترك ووهران قبل أن يصل المدد الذي أرسله الداوي بابا عبدي والمكون من 2000 جنديا تحت قيادة ابنه الأغا. وعم البلاد على اثر هذه النازلة موجة كبيرة من الحزن والهم. - ينظر أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا 1492 – 1792م، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1968، ص ص 479، 480.
- 43 - ناصر الدين سعيدوني ، المصدر السابق، ص 81.
- 44 - نفسه، ، ص 60.
- 45 - نفسه، ص 78.
- 46 - نفسه، ص 80.
- 47 - نفسه، ص 59.
- 48 - نفسه، ص 60.
- 49 - نفسه، ص 60.
- 50 - نفسه، ص 83.
- 51 - نفسه، ص 83.
- 52 - هو بوعزيز بن ناصر زعيم قبيلة الحنانشة التي تتواجد شرق الجزائر، وقد تخلى عن الأتراك وأيد حسن بن علي باشا حاكم تونس بعد أن وقع خلاف بينه وبين الداوي الحاج مصطفى سنة 1705م. - ينظر: صالح عياد، الجزائر خلال الحكم التركي، دار الأملية للنشر والتوزيع، قسنطينة، الجزائر، 2012، ص 233.

- 53- ناصر الدين سعيدوني ، المصدر السابق، ص 85.
- 54 - يقصد بالضريبة ما يسمى الدنوش الصغرى التي كان البايات يستخلصونها جيرا من الأهالي ويأخذنها خلفاؤهم إلى الداى مرتين في السنة في فصلي الخريف والربيع، بينما الدنوش الكبرى يأخذها البايات بأنفسهم إلى الداى مرة كل ثلاث سنوات. – ينظر : حنفي هلايلي، أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2008، ص 149.
- 55 - ناصر الدين سعيدوني ، المصدر السابق ، ص 84.
- 56 - نفسه، ص 84.
- 57 - نفسه، ص 91.
- 58 - نفسه، ص 91.
- 59 - الإمبراطور قسطنطين الروماني (272 - 337 م) أعاد بناء مدينة قسنطينة سنة 311 م وسميت بذلك نسبة له ، ناصر المسيحية وعمل على نشرها في بلاد المغرب وحارب المذهب الدوناتي. – ينظر : مبارك الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989، ص 301.
- 60 - ناصر الدين سعيدوني ، المصدر السابق ، ص 89.
- 61 - نفسه، ص 90.
- 62 - نفسه، ص 87.
- 63 - نفسه، ص 63.
- 64 - نفسه، ص 64.
- 65 - نفسه، ص 80.
- 66 - احمد بن يوسف بن محمد القرامانلي : (1686 – 1745) كان ضابطا في صفوف قوات الانكشارية، ثم أصبح دايا وباشا لليبيا سنة 1711م، واستمر في الحكم إلى غاية 1745م، وترك الحكم وراثيا في بنيه. وهو بذلك مؤسس حكم الأسرة القرامانلية في ليبيا ما بين 1711 – 1835 م. - ينظر : مفيد الزيدي، موسوعة تاريخ العرب المعاصر والحديث، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2012، ص 200.
- 67 - الأصح أن تكتب – مرافقيه - لكونها وقعت في محل عطف على المفعول به المنصوب
- 68 - ناصر الدين سعيدوني ، المصدر السابق ، ص 78.
- قائمة المصادر والمراجع :
- أ – العربية :
- 1 - اعمرباوي أحمدية، الجزائر في أدبيات الرحلة والأسر خلال العهد العثماني، دار الهدى ، عين مليلة، الجزائر، 2003.
- 2 - بوحوش عمار، التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية 1962، دار الغرب الإسلامي، بيروت، بيروت، لبنان، 1997.

- 3 - الزبدي مفيد، موسوعة تاريخ العرب المعاصر والحديث، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2012.
- 4 - السليماني احمد، النظام السياسي الجزائري في العهد العثماني، مطبعة دحلب، الجزائر، 1994.
- 5 - المدني أحمد توفيق، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا 1492 – 1792م، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1968.
- 6 - الميلي مبارك، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989.
- 7 - ناصر الدين سعيدوني، رحلة العالم الألماني : ج. أو. هابنسترايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس، **نكمل معلوماته كاملة.**
- 8 - ، ، : دراسات تاريخية في الملكية والوقف والجباية، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 2001.
- 9 - ، ، : النظام المالي للجزائر وأواخر العهد العثماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985.
- 10 - الفلوجي محمد عبد الرزاق، معجم الفردوس، ج1، مكتبة العبيكان للنشر، الكويت، 2012.
- 11 - عباد صالح، الجزائر خلال الحكم التركي، دار الأملية للنشر والتوزيع، قسنطينة، الجزائر، 2012.
- 12 - غطاس عائشة وأخريات، الدولة الجزائرية الحديثة ومؤسساتها، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، 2007.
- 13 - هلايلي حنيفي، أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2008.
- ب – المقالات المطبوعة :
- 1 – لزغم فوزية، " الأطباء الأوربيون بالجزائر خلال العهد التركي "، مجلة الدراسات التاريخية، العدد 15 - 16، جامعة الجزائر 2، 2012، 2013 الجزائر .
- ج- المقالات الالكترونية :
- 1 - جلبي خالص، " حرب السنوات السبع "، مقال إلكتروني، موقع العربية نت ، 13 جانفي 2018 ، الرابط : www.alarabiya.net/ar/politics/2018/01/13 .
- ، بتاريخ : 2018/5/6 على الرابط التالي : wikidz 2 – ناصر الدين سعيدوني ، موقع : <https://wikidz.org/ar/%D9%86%D8%A7%D8%B5%D8%B1>
- Jean bérenger, Auguste II, (1670 – 1733), sur le site :Universalis.fr,sur
- Le lien <https://www.universalis.fr/encyclopedie/auguste-ii>

د - المصادر والمراجع باللغات الأجنبية :

- 1- J , Watkins , The universal biographical dictionary , published by normand white , Richmond vir , united kingdom , 1825 .
- 2- MM Eyriés , Nouvelles annales des voyages sciences géographiques , tome second de l'année, 1830 .

الكاتب: أ/ صُهيب الحجلي
 مدير فضاء الذاكرة التاريخية للمقاومة
 والتحرير – مدينة سيدي سليمان- المغرب.
 عنوان المقال: مقاومة المغرب للاستعمار
 بين الفعل السياسي والعمل المسلح
 جدلية القطيعة والاستمرارية

البريد الإلكتروني: selhajly@yahoo.fr

تاريخ الإرسال: 2020/03/01 تاريخ القبول: 16/03/2020 تاريخ النشر: 2020/03/31

الملخص بالعربية: يعتبر البحث في تاريخ الحماية الكولونيالية للمغرب وماتلاها من مجابهة ومقاومة موضوعا تاريخيا-لا يزال على الرغم مما كتب حوله من دراسات وأبحاث وأطرايح- في حاجة إلى المزيد من العناية والبحث والتمحيص، ليس تحقيقا لتراكم معرفي بحثي فقط وإنما تبنيًا لبراديغم إعادة كتابة تاريخ المغرب الذي شكلهما أساسيا لدى مؤرخي المغرب المعاصر في محاولة منهم للانتقال من مرحلة المغربية – أي الكتابات التاريخية التي غلب عليها البعد الوطني الأدلوجي في مواجهة أطروحات الاستعمار- إلى مرحلة ما سماها الدكتور محمد الصمدي بمرحلة ' التفكيك المعرفي ' لمختلف الأدبيات التي كتبت حول كل حقبة وكل فترة في تاريخ المغرب للوصول إلى دراسة تاريخية موضوعية لجوانب من الواقع التاريخي والبنى الاجتماعية.

وتندرج هذه الورقة البحثية في هذا السياق آملين توسيع قاعدة البحث والتفكير في هذه القضية من خلال تتبع السياق الذي فرض فيه على المغرب التوقيع على معاهدة الحماية في 30 مارس 1912 وما تلاها من ردات فعل تأرجحت ما بين العفوي والمنظم، السياسي والمسلح ، وبمعنى أدق جدلية القطيعة والاستمرارية في مواجهة المغاربة للتغلغل الاستعماري.

كلمات مفتاحية: المغرب، الاستعمار، الحماية، المقاومة المسلحة، الحركة الوطنية
 مقدمة:

لقد كان للمشاكل المزمنة التي واجهت المغرب خلال القرن 19م والتي تضافرت فيها عوامل عديدة داخلية وخارجية أثرها في التمهيد للأزمة الشاملة التي سيعرفها المغرب مع مطلع القرن العشرين ، وجعلت منه محط لأطماع الدول الأوروبية، والتي ستنتهي بفرض الحماية الأجنبية عليه، وتقسيمه إلى ثلاث مناطق نفوذ بعد سلسلة من المؤامرات الخارجية والتسويات لتقرير مصيره، هذا المصير الذي ارتبط أساسا بعلاقة المغرب بأوروبا وبالقوى الأساسية على الساحة

الأوروبية، هذه العلاقة رهننت مستقبل أجيال عديدة من المغاربة، وامتدت تأثيراتها عبر الزمن والمكان ، والواقع أن سلسلة التسويات والمقايضات بين القوى الأوروبية المتنافسة في مطلع القرن العشرين غيرت من قواعد اللعبة وجعلت المغرب من نصيب فرنسا بالأساس مع منح إسبانيا شمال المغرب وإقرار نظام دولي بمدينة طنجة، وهذا ما جعل علاقة المغرب بأوروبا وطيبة النصف الأول من القرن العشرين مختزلة في علاقته بفرنسا لا غير .

هذا الأمر يطرح تساؤلات حول حقيقة الأزمة التي دخلت بالمغرب والمغاربة في هذا النفق المظلم الطويل، وكيف كان تدبير سلطات الحماية لهذا الوضع؟ وبما أن منطق الأمور يفرض أن لكل فعل رد فعل فهذا يحيلنا بدءا على كيفية تعاطي المغاربة مع الوافدين الجدد ، وكيف تطور رد فعلهم خلال العقود اللاحقة ؟

ولمحاولة استيضاح ذلك سنتناول الأمر عبر ثلاث نقاط هي : أولا الأزمة وفرض الحماية ، ثانيا إحتلال المغرب وتوطيد السلطة الإستعمارية ، ثالثا المقاومة والعمل السياسي الوطني .

1- الأزمة المغربية وفرض عقد الحماية :

مع بداية القرن العشرين تولى السلطان المولى عبد العزيز الحكم وورث مشاكل عويصة همت التدخلات الأجنبية والمشاكل المتعلقة بالأمن كانتشار التمردات، والمشاكل الإقتصادية كالمديونية والعجز عن القيام بالإصلاحات الضرورية، وعدم كفاءة الجهاز المخزني وجمود هيكله التي تفتقر إلى الرؤية العصرية التي تمكن من التعامل مع الوضع داخليا وخارجيا، فعلى صعيد التدخلات الخارجية يمكن القول أن تطور الأنظمة الرأسمالية الإحتكارية ذات الصبغة الإمبريالية عجل باحتلال المغرب¹، ذلك أن الأوساط المالية والمعمرين الفرنسيين بالجزائر المستعمرة الفرنسية منذ سنة 1830 كانوا يستشعرون خطر بقاء المغرب المستقل على مصالحهم وكيانهم ، فدفَعوا بنفوذهم في اتجاه ضم المغرب إلى مستعمراتهم واسمهم فكرة إسقاط النموذج الجزائري على المغرب، ومن هنا استغلت فرنسا غموض معاهدة لا مغنية، حيث ظل الحضور الفرنسي في الواجهة الشرقية بالجزائر مصدر توتر دائم، ففي الشمال الشرقي كان التجاذب المستمر، وفي جنوب فكيك تمكنت الدبلوماسية الفرنسية أن تفرض مبدأ الحدود "البشرية" لتسهيل مطاردة المقاومين داخل التراب المغربي، وفي الجنوب الشرقي إنتهت فرنسا إلى صياغة سياسة "رقعة الزيت" لتيسير التغلغل العسكري التدريجي، أما في

الجنوب الغربي تجاهلت بعض الشركات الأوروبية (فرنسية وإنجليزية) سيادة المخزن وسعت إلى إقامة علاقات تجارية مباشرة مع قوى محلية (ولاسيما عائلة بيروك المقيمة بكميم)². وفي سنة 1903 أسس أوجين أتيان ممثل وهران بمجلس النواب الفرنسي والمعروف باتصالاته الواسعة بعالم المال "لجنة المغرب" لتنسيق السياسات الفرنسية تجاه المغرب³.

ومما شجع فرنسا على تكثيف مغامراتها العسكرية على الحدود مع المغرب في هذه الفترة هو عدم خوضها لأي حروب منذ سنة 1885 وكذلك انشغال إنجلترا بحرب البوير التي استنزفتها إضافة إلى التسابق في التسليح البحري وبناء الأساطيل مع ألمانيا⁴، مما وفر لفرنسا المال والظروف المواتية لبلورة طموحاتها بالمغرب. ومن هنا عملت على إقناع السلطان والمغاربة بحقيقة مهمة فرنسا الحضارية في بلاد المغرب وكسبه إلى جانب فرنسا.

إلا أن هذه الأخيرة كان عليها أن تؤمن الغطاء الدبلوماسي الدولي ولإبعاد أي معارضة محتملة من طرف القوى الأوروبية الأخرى، ولهذا إعتمدت فرنسا سياسة عقد اتفاقات ثنائية لإبعاد كل منافسة دولية عن ميدان عملها في المغرب، وكان أشهر هذه الإتفاقيات الثنائية والمتعلقة بالمغرب هي: الإتفاقية الفرنسية الإيطالية سنة 1902، والإتفاقية الفرنسية البريطانية والمعروفة بالإتفاق الودي في 8 أبريل سنة 1904، والإتفاقية الفرنسية الإسبانية في أكتوبر 1904⁵. والواقع أن هذه الإتفاقيات قد أملتها ظروف دولية معقدة وحسابات جميع الأطراف فيما يخص "المسألة المغربية" وحساب الريج والخسارة والتنازلات الممكنة لكل طرف تجاه الأطراف الأخرى، خصوصا أن بريطانيا كانت مهتمة بمستقبل سواحل البحر المتوسط وخاصة مدينة طنجة، كما كانت تصر على ضرورة تسهيل التجارة والإحتفاظ بالأبواب المفتوحة وتكافؤ الفرص، ولا ننسى هنا الحضور القوي والمتصاعد لكل من ألمانيا وروسيا في هذه الفترة.

ومما زاد من ضعف المخزن تجاه الضغوط والمساومات الخارجية هو هشاشة الجبهة الداخلية التي أنهكت من خلال اضطراب الأمن وشيوع القلاقل والتمردات ومن أشهرها تمرد كل من الجيلالي الزرهوني وأحمد الريسوني اللذين كان لهما أكبر الأثر في تآزيم أوضاع المغرب وإضعاف

سلطة المخزن، فالأول والمدعو بوحامرة الذي امتدت حركته من سنة 1902 إلى 1909 فقد ادعى أنه الإبن الأكبر للسلطان المولى الحسن ، وقاد حركة تمرد ضد السلطان بالمغرب الشرقي والريف بدعم عسكري من فرنسا وإسبانيا، كما ساعد إسبانيا في نشر نفوذها شمال المغرب وأعطى لشركتين إسبانيتين حق استغلال المناجم بمنطقة سيطرته وهو ما أثار عليه نقمة الريفيين⁶. أما الريسوني في شمال المغرب فقد قام هو الآخر بعمليات زعزعت سلطة المخزن وهددت بعض المدن، واختطاف رعايا أوروبيين وأمريكيين مما جعل هؤلاء يستغلون الوضع بذريعة غياب الأمن لإرسال الأساطيل إلى المياه المغربية في الشمال والجنوب.

وكان لإنشغال المخزن بالعمليات الحربية المستمرة ضد بوحامرة في الشرق والريسوني في الشمال أثره في ضعف هيبة وسيادة الدولة، وإغراء الكثير من القبائل بالثورة على السلطة، هذا مع ما تطلبه الأمر من زيادة الإنفاق العسكري في مقابل فراغ خزينة الدولة من الأموال اللازمة، وما استتبع ذلك من الإعتماد الكامل على الأوروبيين في جلب الأسلحة والذخائر والمدربين، وجاء كل ذلك في وقت عجز فيه المخزن عن جمع الضريبة الجديدة وهي "الترتيب" وذلك بعد أن ألغيت الضرائب القديمة مما زاد في إضعاف المخزن ماديا ومعنويا، وكانت فرنسا في ذلك الوقت تسير على سياسة محددة لزيادة نفوذها في البلاد مستغلة عوامل استراتيجية هي مجاورتها لحدود البلد الشرقية، وعوامل إقتصادية هي الأموال اللازمة لإنقاذ المخزن من ضائقته في شكل قروض⁷.

بالنسبة للقروض المالية فإن المغرب قد ظل حتى سنة 1902 غير مدين لأحد، ثم بدأ بعد ذلك وتحت ضغط الظروف في الإستدانة، وسار في نفس الطريق الذي سارت فيه كل من مصر وتونس من قبل، وفي سنة 1903 حصل المغرب على أول قرض بمبلغ 7,5 مليون فرنك بتمويل كبير من بنك باريس والأراضي المنخفضة، وحصلت البنوك الفرنسية على ضمانات منها حق لإستلام حصيلة جمارك طنجة، وفي يونيو سنة 1904 تم عقد اتفاق آخر لقرض تقدمه المصارف الفرنسية بمبلغ 62,5 مليون فرنك وبفائدة 5% على أن تسدد منه القروض السابقة وتبلغ 22,5 مليون فرنك، ووضعت الجمارك والموائئ المغربية كضمان لدفع هذا القرض وأعطيت البنوك الفرنسية الأولوية في تمويل القروض المقبلة وفي نفس على حق الإشراف على

ضرب العملة المغربية، ومن هنا يتضح لنا الدور الخطير الذي لعبته المديونية في رهن المغرب للخارج وإفقاد المخزن أي سلطة على سياسته المالية المالية، وهو ما ساهم في ارتفاع مديونية المغرب وتعميق الأزمة المالية والسياسية بالبلد وازدياد الإستياء الشعبي، وبالتالي فشل جميع الإصلاحات التي حاول المغرب القيام بها لتدارك الوضع، كل هذا كان في صالح فرنسا التي زادت نفوذها وضغطها العسكري إنطلاقاً من الجزائر.

ومع تفاقم الوضع والتنافس الأوروبي عارضت ألمانيا الإتفاقيات الثنائية وخصوصاً الإتفاق الودي، حيث عبر الإمبراطور الألماني غيوم الثاني أثناء زيارته مدينة طنجة سنة 1905 عن دعمه لإستقلال المغرب، ولأجل ذلك دعا إلى مؤتمر دولي لبحث المسألة المغربية، وفعلاً تم عقد مؤتمر الجزيرة الخضراء بإسبانيا سنة 1906، وركزت أشغاله على موضوع الإصلاحات بالمغرب، وجاءت قرارات المؤتمر خطيرة و ضد سيادة ومصالح المغرب، وتم تفويض فرنسا حق تنفيذ الإصلاحات، وهو ما اعتبرته هذه الأخيرة إشارة للشروع في احتلال المغرب، وقد تدخلت ألمانيا بقوة طيلة العقد الأول من القرن العشرين خصوصاً حين أرسلت بارجة حربية إلى أكادير للحيلولة دون احتلال المغرب وذلك طبعاً في انتظار تسوية تضمن لها حصتها.

II – إحتلال المغرب وتوطيد السلطة الإستعمارية :

بعدما صادق السلطان المولى عبد العزيز تحت الضغط على قرارات مؤتمر الجزيرة الخضراء سادت بالبلاد حالة من الفوضى والإضطراب الداخلي، فاستغلت فرنسا حادثة مقتل طبيب فرنسي بمراكش وعدة أجانب بالدار البيضاء لتحتل وجدة والدار البيضاء سنة 1907 ثم الشاوية مما زاد من حدة الإضطراب والفوضى.

وكرر فعل على هذه التطورات الخطيرة أفتى علماء فاس بعزل المولى عبد العزيز ومبايعة أخيه المولى عبد الحفيظ وفق شروط سنة 1908 وبدعم من علماء وأشرف وأعيان المدينة والقواد الكبار والقبايل، وبموازاة الضغط الداخلي لتنفيذ شروط البيعة والقيام بالإصلاحات قامت الدول الأوروبية بقيادة فرنسا بالضغط على السلطان الجديد للإعتراف بجميع المعاهدات المبرمة سابقاً مقابل الإعتراف له بشرعية حكمه ومنحه قرضاً لتسديد التعويضات التي بذمة المغرب على أساس تخلي السلطان نهائياً عن مداخيل الموانئ والأملاك المخزنية المحيطة بها، وبخصوص الإسبان فقد أبرم السلطان سنة 1910 إتفاقية تخول لهم حق الإشراف على الجمارك واحتكار مناجم الريف وتدريب قوات أمن مغربية، وبموازاة ذلك كانت القوات الإسبانية تتوغل في المنطقة.

وبعد تحييد ألمانيا بموجب اتفاقية برلين 1911 التي ضمنت لها جزء من بلاد الكونغو مقابل تخلها عن المغرب، تحررت فرنسا من أي منافسة أوروبية بشأن المغرب وشرعت في احتلال المغرب، ثم فرضت توقيع معاهدة الحماية على السلطان بتاريخ 30 مارس 1912، كما تم الإتفاق على منح إسبانيا المنطقة الشمالية وبعض المناطق الجنوبية، وجاءت هذه المعاهدة وهي تؤكد في فصلها الأول أن النظام الجديد سيحفظ حرمة السلطان ومكانته المعتادة وسيضمن تأسيس حكومة شريفة على أساس إصلاح⁸، وانطلاقاً من هذا التاريخ بدأ عهد جديد في العلاقات المغربية الأوروبية والفرنسية خصوصاً تميز بالتبعية والإستغلال، فقسم البلد إلى منطقتين: الأولى مركزية تحت الحماية الفرنسية، والثانية في الشمال والجنوب تحت الحماية الإسبانية، أما السلطان فبقي رسمياً عاهل المغرب ويمثله خليفة في الشمال أو المنطقة الخليفة، وأخذت فرنسا على عاتقها ممثلة في ليوطي المقيم العام "المؤتمن على جميع سلطات الجمهورية الفرنسية بالمغرب" الحفاظ على سلطات السلطان وعصرنة البلاد إنطلاقاً من المخزن مع الإستمرار في فرض هيمنتها البلاد، وحول ليوطي العاصمة إلى الرباط لضمان أمن أكبر ولتجنب ما حدث بفاس سنة 1911⁹، وبالإضافة إلى استكمال غزو المغرب أحدثت سلطات الحماية أجهزة ومؤسسات إدارية وإقتصادية بالمغرب تقوم على الحكم المباشر لأجل تحقيق الأهداف الإستعمارية وتسهيل استغلاله، ولم يكن لترميم السلطة المخزنية بالنسبة لليوطي أن يتم دون إعادة بناء المخزن فعين إبتداء من سنة 1912 كبير وزراء جديد هو محمد المقري يساعده أربعة وزراء رسميين، غير أن ليوطي عمل على دعم المخزن العتيق بإدارة جديدة سميت بالإدارة الشريفة الجديدة كانت تخضع لأوامر المقيم العام، وهكذا تطورت إدارة فرنسية خالصة أخذت تحل شيئاً فشيئاً محل المخزن العتيق، كان مجمل أطرها من الفرنسيين عند الإستقلال، كما قسمت البلاد إلى مناطق مدنية وأخرى عسكرية يسيرها على التوالي مراقبون مدنيون وضباط سامون يساعدهم في ذلك ضباط للشؤون الأهلية، كما بقي قواد الأطلس الكبار يتصرفون في مناطقهم كفيودالين حقيقيين مستفيدين في ذلك من الدعم الفرنسي¹⁰.

وتمثل الإقامة العامة في حد ذاتها حكومة عصرية لا تشبه بأي حال المخزن التقليدي - الحكومة المغربية - تحت سلطتها مجلس شورى بقسميه الفرنسي والمغربي وهذا الأخير شكلي فقط يقوم بالإجتماع تحت رئاسة المقيم العام والصدر الأعظم ليستمع إلى ما يقدمه المديرون الفرنسيون من بيانات حول الميزانية ، أما القسم الفرنسي فكان يقوم بدراسة الميزانية والدفاع عن مصالح القطاعات الاقتصادية الفرنسية ، كما تتكون الإقامة العامة من إدارات فرنسية يرأسها مديرون بمثابة وزراء في المالية والداخلية والتعليم والفنون الجميلة والأشغال العمومية والشغل والشؤون الإجتماعية والفلاحة والإنتاج المعدني والصناعي والتجارة والبريد ، ويساعد المقيم العام في مهامه المتعددة المدنية منها والعسكرية باعتباره القائد العام لجيش الإحتلال في المغرب ديوان دبلوماسي وديوان عسكري وديوان مدني وإدارة الأمن وإدارة الشؤون الشريفة¹¹. وكان أول قرار أصدره المخزن في ظل الحماية هو ظهر 12 أغسطس سنة 1913 الخاص بالمحافظة العقارية بهدف إضفاء الشرعية على ملكية الأراضي التي يستحوذ عليها المعمرون بحكم جهل المغاربة بالمسطرة المتبعة في هذا الشأن¹² ، كما تم في سنة 1916 إحداث هيئة التعمير، وفي فبراير 1919 كلفت لجنة خاصة بالبحث عن أراضي المخزن واسترجاعها من الجماعات التي كان بعضها يستغلها منذ مدة طويلة ، كل هذه الإجراءات جاءت في سياق تشجيع المنشآت الرأسمالية الكبرى الفرنسية عبر التشريعات اللازمة وتقديم القروض ، وكان المقيم العام ليوطي مقتنع بجدوى القروض وكانت كبريات الشركات الفرنسية مثل شنايدر وهرسان هي المستفيدة من هذه القروض التي تضمنها فرنسا وتؤدي فوائدها الخزينة المغربية دون استشارة السلطة المخزنية¹³ ، ولفرض الإحتكار الأحادي لثروة الفوسفات الذي اكتشف من جانب الفرنسيين لجأ ليوطي إلى التأميم وأسس سنة 1920 المكتب الشريف للفوسفات وكلف بمهمة التنقيب والتعدين والتسويق¹⁴.

ومن هنا يتضح لنا أن سلطات الحماية قد صادرت سلطات الدولة التشريعية والإدارية والتنفيذية ، وسخرت إمكانيات البلاد للجالية الأوروبية التي تنامت بشكل مهم وكانت في أغلبها

من الفرنسيين والإسبان ، وكان المقيم العام هو المتحكم الوحيد في شؤون الجالية الأوروبية بالمغرب .

أما بالمنطقة الشمالية فلم يكن أسلوب الحكم يختلف كثيرا حيث كان المقيم العام أو المندوب السامي الإسباني يحتكر جميع السلطات ، أما المغرب فكان يمثلها خليفة السلطان الذي كان يعين الباشوات في المدن والقواد في البادية وبدون سلطة فعلية ، كما أنه كان يشكل حكومة برئيس يدعى الصدر الأعظم ، ولم يكن للوزراء فيها أي سلطة عملية ، ورغم أن الحكومة الإسبانية كانت تعتبر المنطقة عبئا عليها لأنها لم تكن تستفيد منها نظرا لطبيعتها الجبلية الفقيرة، فقد اتبعت نفس الخطة الفرنسية واستقدمت المستوطنين الإسبان للإستفادة من ميزانية الدولة ، واستغلال الأرض الصالحة للزراعة ومنحهم القروض وتأسيس شركات للإستغلال المعدني والتجارة¹⁵ .

أما بمدينة طنجة فقد تم إقرار نظام دولي ، وأصبحت الدول الحاكمة تكون مجلسا يحكم المدينة برئاسة تناوبية وللسلطان مندوب لا سلطة له يرأس المجلس التشريعي ، ومدير المدينة هو رئيس حكومتها عمليا ، ويساعده مديرون مساعدون ورئيس للشرطة ، أما المجلس التشريعي فيتكون من المغاربة والأجانب ، وكان الحكم في المدينة للأجانب الذين يدافعون عن مصالح مواطنهم فقط ، أما الهيئات التمثيلية للمغاربة فبقيت تحت سلطة ونفوذ الفرنسيين بحكم أن صوت فرنسا كان أقوى من غيره ، ولأن المقيم العام في الرباط هو المكلف بالدفاع عن مصالح المغرب في الخارج¹⁶ .

ومن خلال أسلوب الحماية الفرنسية في الوسط وأسلوب الحماية الإسبانية في المنطقة الشمالية يتضح لنا أن الأمر مطابق إلى حد ما لما جرى في مدينة طنجة وإن اختلفت التسميات إلا أن الهدف واحد وهو مصادرة إرادة المغرب في تسيير شؤونه وتسخير مجمل موارده لصالح القوى الأوروبية .

III- المقاومة المسلحة وتطور الحركة الوطنية :

1- المقاومة المسلحة

كانت المقاومة المغربية ضد الإحتلال الإسباني بالشمال قد انطلقت منذ 9 يوليو 1909 بقيادة المجاهد محمد أمزيان وتوقفت يوم 12 مايو 1912 بسبب الإستشهاد المفاجئ لزعيمها محمد أمزيان ، ومع ذلك فقد ظلت المقاومة مستمرة بسبب الإستفزاز الذي يمثله الوجود الأجنبي، ونظرا للوعي الوطني الذي نشره محمد أمزيان بين أنصاره ذلك الوعي الذي يمكن تسميته بالوعي الوطني التقليدي ، وهو نفس الوعي الذي حرك الشيخ ماء العينين وولده الهيبية وموحا وحمو الزباني ، ومن قبلهم بكثير المجاهد الفقيه محمد العياشي الذي قاد الجهاد ضد البرتغاليين والإسبان طيلة النصف الأول من القرن السابع عشر¹⁷.

ومباشرة بعد توقيع الحماية والشروع في الإحتلال إنطلقت حركة المقاومة في جميع المناطق المغربية ، ففي نواحي تازة واجه الفرنسيون مقاومة عنيفة بقيادة الحجامي ، كما أن قبائل الأطلس المتوسط بقيادة موحا وأحمو الزباني قد انتصرت في معركة الهري ، واستمرت المقاومة إلى أن استشهد سنة 1921 ، وفي الجنوب إنطلقت حركة مقاومة في اتجاه الشمال يقودها الشيخ أحمد الهيبية إلا أنها سرعان ما انهزمت أمام الفرنسيين في معركة سيدي بوعثمان بنواحي مراكش ، ورغم ذلك فقد استمرت على يد خلفه مربيه ربو .

وبمنطقة درعة إستماتت المقاومة بقيادة بلقاسم النكادي أمام القوات الفرنسية إلى غاية سنة 1934 ، وبالأطلس الكبير إنتصرت قبائل أيت عطا بقيادة عسو أسلام على الفرنسيين في معركة بوكافر ، واستمرت المقاومة إلى أن استسلم زعيمها في مارس 1933 .

هذه الحركات التي استعرضناها هي نماذج فقط من مقاومات شملت مختلف التراب الوطني ، إلا أن أهمها على الإطلاق هي المقاومة الريفية بقيادة عبد الكريم الخطابي الذي تمكن بفضل إمكانيات عسكرية بسيطة من هزم الإسبان في معركة أنوال في يوليو 1921 ، وتمكن من تحرير معظم شمال المغرب وتوحيد معظم أجزائه في حركة شاملة ضد الإستعمار ، ورغم أن هذا الأمر لم يغير في ميزان القوى على الأرض لمدة طويلة ، فإن هذه الوضعية خلقت في الريف وعيا وطنيا متقدما ، ودفع فرنسا للتتحالف مع إسبانيا للتدخل بشكل عسكري عنيف لوضع حد لما قد ينتج عن هذا الوعي الوطني من نتائج مدمرة ، ليس في المغرب فقط وإنما في جميع أنحاء شمال إفريقيا¹⁸. وبالتالي فإن أهمية المقاومة بالريف والمغرب على العموم أبرزت عمق الرفض

للخضوع وكذا التمسك المطلق بالحرية ، وقد شكلت هذه الحركات مصدر إلهام للحركات التحررية المناهضة للإستعمار في العالم .

2- الحركة الوطنية وتطور العمل السياسي الوطني

بحلول سنة 1934 إستكملت فرنسا إحتلال التراب المغربي بعدما قضت على أبرز حركات المقاومة المسلحة ، وفي نفس الوقت ظهرت بالمدن المغربية حركة وطنية تعتمد الكفاح السياسي ضد الوجود الأجنبي ، و تربط جل الكتابات المهمة بتاريخ الحماية بالمغرب بين الظهير البربري الصادر سنة 1930 والحركة الوطنية السياسية¹⁹، وقد جاء هذا الظهير في إطار عمل الفرنسيين على ترسيخ نفوذهم بالشمال الإفريقي وذلك بتوظيف أسلحة إيديولوجية - إلى جانب سلاح القوة - على رأسها ما أطلق عليه إسم "السياسة البربرية" ، وهي سياسة طمحت إلى فصل عنصري الشمال الإفريقي عن بعضهما ، واستغلال العنصر البربري في سبيل تمرير مخطط الإدماج المرحلي للمنطقة ابتداء من المناطق الجبلية²⁰، والعمل على إنشاء قضاء عرفي خاص بالبربر ويمنع تطبيق الشريعة الإسلامية ، ويفرض استعمال الفرنسية بدل العربية في قضايا الأحوال الشخصية الأمازيغية ، كما يفرض نشر المسيحية بين الأمازيغ للرجوع بهم إلى أصولهم الأولى ، أو كما قال العروي أن " جريمة الإستعمار الكبرى أنه لم يوقف مسيرة الشعب المغلوب وحسب بل أرغمه على العودة إلى أوائل تاريخه ليستقر في بداوته لذا يصح القول إن الإستعمار يعني بالضبط الموت التاريخي للمجتمع المقهور"²¹، فظهرت حركات إحتجاج واسعة بالمدن تجلت في المظاهرات وقراءة اللطيف بالمساجد ورفع الشكاوي إلى مختلف الجهات ، وقد كان موقف المغاربة من هذه السياسة جماعيا وهذا الموقف خلق دينامية جديدة في الوعي الوطني، خاصة وأن المعارضة المغربية لهذا الظهير لم تبق محدودة وعلى صعيد محلي فقط وإنما تدعمت بحملة عالمية وبدعم من جميع أنحاء العالم العربي والإسلامي²². ويمكن أن نعتبر المرحلة التي امتدت من سنة 1930 حتى 1934

مرحلة مهمة في تاريخ الحركة الوطنية وهي الفترة التي برزت فيها الحركة الوطنية كحركة شاملة لم تعد تناضل في سبيل عمل جزئي أو في نطاق ضيق كالمدن الكبرى ، ولكنها أصبحت تواجه الإستعمار في مذهبه وفي تصرفاته التي كان يعتمد عليها في بناء كيانه ²³. ومن هنا أسس الزعماء الوطنيون عدة لجان للدفاع عن قضية المغرب والنضال ضد الإستعمار، وقد اعتبر علال الفاسي صدور الظهير البربري " فاتحة عهد كفاح وطني في الداخل والخارج" ²⁴، وتم ربط صلات مع الوطنيين الجزائريين والتونسيين واستقطاب دعم اليسار الفرنسي ، وقد تمخض هذا الزخم الوطني عن تأسيس كتلة العمل الوطني في الثلاثينات بالمنطقة السلطانية والتي عملت على مطالبة سلطات الحماية بإصلاحات جذرية تستجيب للحاجيات الأساسية للشعب المغربي ²⁵، إلا أن هذه الكتلة تعرضت لإنشقاق تمخض عنه ظهور حزب الحركة الوطنية لتحقيق المطالب بزعامه علال الفاسي وحزب الحركة القومية بزعامه محمد بلحسن الوزاني . أما بالمنطقة الخليفية فقد استفادت الحركة الوطنية من اتصالاتها المتعددة بشكيب أرسلان وفي سنة 1936 تقدمت إلى السلطات الإسبانية بلائحة مطالب لتحسين وضعية المواطنين بالمنطقة ²⁶، كما تم في نفس السنة تأسيس حزب الإصلاح الوطني بزعامه عبد الخالق الطريس ²⁷، إلا أن الحزب إنشق عنه فيما بعد حزب الوحدة المغربية بزعامه المكي الناصري . وبعد الحرب العالمية الثانية أصبح من حق المغاربة المشاركة في تسيير عدة مصالح إدارية بالمنطقة الخليفية .

ومنذ سنة 1940 إنتقل العمل الوطني من المطالبة بالإصلاحات إلى المطالبة بالإستقلال نتيجة بروز مستجدات دولية وأخرى وطنية من أهمها : نضج الطبقة العاملة المغربية وترسيخ الوعي النقابي والنضال الوطني بين أفرادها ، وكذلك إنشغال فرنسا بظروف الحرب العالمية الثانية ،

وصدور ميثاق الأطلنطي الذي يعترف بحق الشعوب في تقرير المصير²⁸، كما أن هناك عامل آخر له أهميته وهو المقابلة بين الملك محمد الخامس والرئيس الأمريكي روزفيلت في مؤتمر الدار البيضاء سنة 1943 ، وهكذا تقدم الوطنيون المغاربة بعريضة المطالبة بالإستقلال بتاريخ 11 يناير 1944 معتمدين خطة تدويل الصراع المغربي الفرنسي كما هو الشأن في الجزائر وتونس ، ولم تنته الحرب العالمية الثانية حتى أخذت الحركة الوطنية تفرغ معاهدة الحماية من محتواها ، لاسيما وأن الحماية ظلت قاصرة في الإصلاحات الموعودة²⁹، وكان رد فرنسا تجاه هذه الخطوة من جانب الوطنيين عنيفا و متشددا ، أمام هذا الرد السلمي قام الملك محمد الخامس برحلة إلى مدينة طنجة (من 9 إلى 13 أبريل 1947) التي كانت تحت الإدارة الدولية ، وكان الموضوع الأساسي هو وحدة البلاد و تمسكها بالشخصية العربية الإسلامية³⁰.

ومن هنا نخلص إلى أن مجمل ردادات الفعل المغربي تجاه الوجود والتدخل الأوروبي بالمغرب سواء عبر المقاومة المسلحة أو العمل السياسي الوطني قد ساهمت في بلورة الوعي اللازم بالقضية الوطنية والنضال من أجلها مما سيمهد لاحقا لنيل المغرب لحرية واستقلاله .

الهوامش

- 1 محمد أديوان ، الهاجس الوطني في الشعر المغربي الحديث، متنوعات محمد حيي ، ط1، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1998 ، ص 433 .
- 2 عبد الأحد السبتي ، بين الزطاط وقاطع الطريق ، دار توبقال للنشر ، الدار البيضاء، 2009، ص 254 .
- 3 عبد الله العروي ، مجمل تاريخ المغرب ، ط1 ، المركز الثقافي العربي ، ص 164 .
- 4 جلال يحيي ، المغرب الكبير ، دار النهضة العربية ، بيروت ، 1981 ، ص 512 .
- 5 جلال يحيي ، المغرب الكبير .. ، م.س.ذ ، ص 521 .
- 6 عثمان بناني، متنوعات محمد حيي ، ط1، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1998 ، ص 411 .
- 7 عثمان بناني، م.س، ص 511 .
- 8 عبد الكريم غلاب ، تاريخ الحركة الوطنية بالمغرب ، ج1 ، مطبعة الرسالة ، الرباط ، ص 84 .

- 9 بيير فيرمورين ، مغرب المرحلة الإنتقالية ، ترجمة علي آيت احمام، ط1 ، منشورات طارق ، الدار البيضاء ، 2002 ، ص 14 .
- 10 بيير فيرمورين ، مغرب المرحلة الإنتقالية ، م.س.ذ، ص 16.
- 11 عبد الكريم غلاب ، تاريخ الحركة الوطنية بالمغرب ، م.س.ذ، ص 85
- 12 عبد الله العروي ، مجمل تاريخ المغرب ، م.س.ذ، ص 164 .
- 13 عبد الله العروي ، مجمل تاريخ المغرب ، م.س.ذ، ص 168 .
- 14 عبد الله العروي ، مجمل تاريخ المغرب ، م.س.ذ، ص 169 .
- 15 عبد الكريم غلاب ، تاريخ الحركة الوطنية بالمغرب ، م،س، ص 86.
- 16 عبد الكريم غلاب ، تاريخ الحركة الوطنية بالمغرب ، م،س، ص 87.
- 17 عثمان بناني ، الوعي الوطني في فترة الحماية ، م.س، ص 414 .
- 18 عثمان بناني ، الوعي الوطني في فترة الحماية ، م.س، ص 418 .
- 19 محمد معروف الدفالي ، الظهير البربري وتجذير الحركة الوطنية السياسية ، مجلة أمل ، ع1 ، السنة الأولى 1992 دار قرطبة للطباعة والنشر ، البيضاء ، ص 34 .
- 20 محمد معروف الدفالي ، الظهير البربري وتجذير الحركة الوطنية السياسية ، م.س، ص 36.
- 21 عبد الله العروي ، مجمل تاريخ المغرب ، م.س، ص 222 .
- 22 عثمان بناني ، الوعي الوطني في فترة الحماية ، م.س، ص 423
- 23 عبد الكريم غلاب ، تاريخ الحركة الوطنية بالمغرب ، م.س.ذ، ص 103.
- 24 علال الفاسي ، الحركات الإستقلالية في المغرب العربي ، ط5 ، 1993 ، مطبعة النجاح الجديدة ، البيضاء ، ص 63 .
- 25 عبد الكريم غلاب ، تاريخ الحركة الوطنية بالمغرب ، ص 105.
- 26 عبد الكريم غلاب ، تاريخ الحركة الوطنية ... ، م.س، ص 198.
- 27 معلمة المغرب ، مؤلف جماعي ، ج 2 ، سلا ، ص 474 .
- 28 بوشنة بوعسرية ، المقاومة المسلحة والحركة الوطنية بمكناس وأحوازها 1911-1956 ، تنسيق ومراجعة محمد الشريف ، منشورات وزارة الثقافة ، 2005 ، ص 150 .
- 29 بنسالم حميش ، في معرفة الآخر ، منشورات الزمن ، 31 ، مطبعة النجاح الجديدة ، البيضاء ، 2001 ، ص. 12. 30 عثمان بناني ، الوعي الوطني في فترة الحماية ، م.س.ذ، ص 428 .

عنوان المقال: الثورات الشعبية في
منطقة بريكة 1916/1830م

الباحث: أسامة الطيب جعيل
المؤسسة: جامعة الجزائر 02
أبو القاسم سعد الله

البريد الإلكتروني : tayeb9912@yahoo.com

تاريخ الإرسال: 2020/02/10 تاريخ القبول: 2020/03/11 تاريخ النشر: 2020/03/31

الثورات الشعبية في منطقة بريكة 1916/1830م

ملخص

مع دخول الاحتلال الفرنسي إلى الجزائر و توسعه نحو المدن الداخلية محاولا فرض السيطرة على كل المدن و القبائل ، جابهت هذا الاحتلال العديد من المقاومات الشعبية المنتظمة والغير المنتظمة من طرف سكان الجزائر ، و عرفت منطقة بريكة قيام العديد من الثورات ضد المحتل الفرنسي منذ تقدمه نحو المنطقة إلى غاية عام 1916 وهو عام آخر ثورة شعبية بالمنطقة ، كانت مجمل هذه الثورات ذات طابع شعبي لحماية للأرض موجهة من كبار الأعراس ونتيجة لنشاط أتباع الطريقة الرحمانية بالمنطقة ، ثم رفضا للتجنيد الإجباري لأبناء المنطقة ضمن الجيش الفرنسي .

الكلمات المفتاحية : الاحتلال الفرنسي ، الثورات الشعبية ، بريكة ، ثورة الهيدوق ، ثورة الأوراس.

Abstract :

with the French occupation entering Algeria and expanding toward the internal cities in an attempt to impose control on all cities and tribes, was met by many regular and irregular popular resistance from the citizens of Algeria. The region of Barika has known that many revolts against the French occupier have taken place since its advance toward the region until 1916, the last year of a popular revolution in the region, all of which were popular in nature, as a result of

the activity of the Rahmaniya method in the region. He then refused to forcibly recruit the citizens of the region within the French army.

Keywords : French occupation , popular revolts , Barika , Hidoug Revolution , aures revolution.

المقدمة

بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر و توسعه نحو المناطق الداخلية ، وصلت أوائل هاته القوات لبريكة عام 1842 ، ثم بموجب قرار 15 أبريل 1845 تكونت المكاتب العربية بمحيط قسنطينة العسكري منها المكتب العربي بمدينة بريكة ، تتبعها تأسيس مركز بلدية بريكة بموجب مرسوم 10 ديسمبر 1873 سرعان ما تحول إلى بلدية مختلطة ذات مساحة شاسعة تضم العديد من البلديات والدواوير والأعراش .

وكان لنشاط شيوخ القبائل و الزوايا من زعماء روجيين ييثون الحماسة في الناس لمقاومة المستعمر ، نتجت عنها بروز مقاومات شعبية منظمة وغير منظمة شارك فيها أهل بريكة مثل ثورة الزعاطشة 1849 ثم ثورة بريكة أو تمرد أولاد سحنون الذي قتل فيه رئيس المكتب العربي عام 1849 ، ثم مشاركة أهل بريكة في ثورة بوختناش عام 1860 ، ثم المشاركة في ثورة المقراني سنة 1871 ، و أخيرا ثورة بريكة 1916 وماعرفت بثورة العيودون الهيدوق التي كانت نتيجة لسياسة التجنيد الإجباري .

01-لمحة تاريخية عن مدينة بريكة

تعتبر مدينة بريكة إحدى المدن التاريخية التي ظهرت منذ القرن الوسيط المتأخر ، وقبل ظهور هذه المدينة تاريخيا سيقمها إحدى أهم مدن بلاد المغرب ألا وهي مدينة طبنة التي عرفت بأنها عاصمة بلاد المغرب الإسلامي بعد سقوط القيروان بيد الخوارج ، ثم عاصمة لإقليم الزاب⁽¹⁾، وعمّرت هذه المدينة حوالي أربعة عشر قرنا إلى غاية اندثارها و خلوها من السكان نهاية القرن الثالث عشر⁽²⁾.

وأول نص تاريخي يذكر ظهور طوبونيم " بريكة" ، انفرد به صاحب كتاب "زهر البستان في تاريخ دولة بني زيان" حيث ذكر أنه في شوال من عام 759هـ/1357م " خرج أبو حمو الزباني الثاني و أقام في باربكا عند شيخ قبيلة بني عامر صغير بن عامر⁽³⁾ الذي قام بمبايعة أبي حمو الثاني وتلاه على البيعة كافة بني عامر وكل بطل مشهور ، أعطوه صفقة أيديهم ، على الوفاء بالعهود ، والحماية من المكروه ، و العضد ..."⁽⁴⁾

ثم يأتي ذكرها في رحلة الورتلاني (ت 1193هـ/1779م) ، حيث يقول عنها : " فنزلنا قرب بريكة ، وهي أرض طيبة و فيها نهر جار مثل النيل ، و هي لسيدي محمد الحاج يتقاتل عليها أولاد دراج فيما بينهم ... "⁽⁵⁾.

ومع تقدم الاحتلال الفرنسي لمنطقة الحضنة الشرقية ، تم تكوين مكتب عربي ببريكة بموجب أمر 15 أفريل 1845 ، وأول ضابط للمكتب العربي بريكة عين سنة 1858 هو الجنرال "شوليزو" ، ثم أصدر الجنرال الفرنسي - سوسيه - قرارا في 10 ديسمبر 1873 ينص على إنشاء قوة عسكرية بقيادة ضابط في موقع بريكة الحالي وبدأ العمل في 01 مارس 1874 يقوده النقيب - لوسطوك- ، سبب هذا القرار هو حصار الأعراش لبرج (القيادة) آنذاك بمقرة سنة 1871 وامتداد ثورة المقراني لأعراش الحضنة الشرقية ، وكانت نتائجها وخيمة حيث تمت معاقبة الأعراش الثائرة ومصادرة أراضيها.

أما مركز مدينة بريكة هو عبارة عن ملحقة من أجل السيطرة ومراقبة أعراش الحضنة الشرقية الثائرة ، وضمت في بادئ الأمر أعراش أولاد سحنون جميعها والزوي (أولاد سيدي أحمد بن بلقاسم ، الضحاوي ، أولاد سيدي عثمان ، أولاد الخضره) وأولاد عمر وأولاد نجاع ، السلالة أولاد علي بن صابور أولاد سلام وأولاد سلطان وعرفت بعدها بعض التغييرات بحذف بعض الأعراش وإلحاقهم ببلديات أخرى⁽⁶⁾.

و بموجب قرار في 17 فيفري 1885 أصبحت الملحقة مستقلة وماليا ، وفي سنة 1886 أنشأت البلدية المختلطة - ماكاهون - عين التوتة وضمت إليها بعض الأعراش التي كانت تتبع ملحقة

- بريكة، و تم الإنشاء الرسمي لبلدية بريكة المختلطة يوم 05 أكتوبر 1905⁽⁷⁾.
 بلغ عدد سكان منطقة بريكة و ما جاوره عام 1886 : 11583 نسمة موزعة كالتالي :
- * أولاد سحنون: 5230 نسمة.
 - * أولاد عمر: 2141 نسمة.
 - * الزوي: 1671 نسمة.
 - * السلالة: 1313 نسمة.
 - * أولاد نجاع: 1202 نسمة.⁽⁸⁾

02- الزوايا والطرق الصوفية في منطقة بركة :

يعود انتشار ظاهرة التصوف في بلاد المغرب الإسلامي إلى القرن الخامس الهجري / الحادي عشر ميلادي أثناء حكم المرابطين ، ثم ترسخت و تغلغت بين طبقات المجتمع المغربي أيام الموحدين ، حيث ازدهرت الحركة الصوفية بتأثير الزاهد الأندلسي أبو مدين شعيب بن الحسين (520-590هـ/1126-1197م) ، الذي يعد شيخ الصوفية بكل الأقطار المغربية و الأندلسية في القرن السادس الهجري / الثاني عشر ميلادي ، ومع بلوغ القرن الرابع عشر ميلادي كانت الحركة الصوفية قد لعبت دورا أساسيا في رسم معالم الحياة الدينية و الاجتماعية في الجزائر ، حيث أصبحت لا تقتصر على جماعة من الزاهدين بل بكل طبقات المجتمع ورسخت و تغلغت وسط التقاليد الشعبية ، وأصبح الناس يؤمنون بالأولياء وكراماتهم وأقبلوا ينخرطون في الزوايا ، ومع حلول القرن السادس عشر شاعت الطرق الصوفية في الجزائر ، وساعد ذلك الوجود العثماني الذي عمد إلى الاستعانة بهذه الطرق و الزوايا لحكم الجزائريين ، فتحالفت مع المشايخ ورجال الدين ومنحتهم الاستقلال الذاتي مقابل دفع ضرائب للحكومة و الاعتراف بالتبعية للسلطة العثمانية قبل أن تسوء العلاقة بين شيوخ الطرق و الدولة العثمانية بسبب الضائقة المادية مطلع القرن التاسع عشر مما أدى إلى ظهور ثورات مختلفة مثل ثورة ابن الشريف الدرقاوي بالغرب الجزائري عام 1802 ، وثورة ابن

الأحرش بالشرق الجزائري عام 1804 منية للعلاقة مع السلطة العثمانية في العديد من المناطق⁽⁹⁾.

أما بمنطقة الحضنة و بريكة ، فقد تواجدت الطرق الصوفية و الزوايا منذ العهد العثماني ، وانتشرت أكثر في المنطقة بعد ثورة المقراني 1871 ، وأهم هذه الطرق المنتشرة هي الطريقة الرحمانية ، وكان لهذه الزوايا جهود بارزة في التعليم حسب الطريقة التقليدية ، أما عدد هذه الزوايا في المنطقة التي وجدت بالمفهوم الواسع فهو لا يعدو الأضرحة التي ارتبطت بشخصيات المرابطين و الأولياء الصالحين⁽¹⁰⁾ ، تصدّد شيوخ هذه الزوايا و الطرق إلى المشروع الثقافي الاستعماري الفرنسي ، وذلك من خلال استمرار عملية التعليم في المساجد و الزوايا و الجوامع ، و بالتالي المحافظة على المقومات الوطنية من تاريخ و لغة و دين و عادات و تقاليد نابغة من خصوصيات المجتمع الحضني ، الذي ظل محافظا على هذه الخصوصيات ولم يتأثر بمؤثرات الحضارة الغربية⁽¹¹⁾.

03- الثورات الشعبية في منطقة بريكة 1830-1916 :

نجح شيوخ الطرق الصوفية وخاصة الرحمانية في التعبئة الجماهيرية للثورة ضد المحتل الفرنسي بمنطقة بريكة و الحضنة الشرقية ، حيث ما إن وصلت طلائع الطريقة الرحمانية حتى التف حولها الناس ، و أول ثورة أسهم فيها سكان المنطقة هي ثورة ابن الأحرش الذي ثار عام 1803 ضد العثمانيين بالشرق الجزائري وشاركت معه قبائل المنطقة فيها⁽¹²⁾، حيث حاول شاكر باي القضاء على حلف قبائل الحضنة مع بلحشر فتقدم جيش الباي إلى المنطقة و تصدى لهم سكان المنطقة ببريكة عام 1817 و مني الجيش بهزيمة نكراء .

ثم جاءت مشاركة سكان منطقة الحضنة و بريكة في ثورة الزعاطشة 1849 بدعوات من أصحاب الطريقة الرحمانية ، لكن نتائج هذه المشاركة كانت وخيمة على سكان المنطقة بعد تهجيرهم و ترحيلهم من مناطقهم الأصلية و الاستيلاء على أراضيهم .

أما أهم الثورات التي قامت بمنطقة بريكة بدعم من شيوخ الزوايا و الطرق الصوفية نجد :

3-1 ثورة محمد بوختاش 1860 :

مطلع شهر مارس من عام 1860م ، ظهر شخص من فرقة البراكتية ثورة أولاد عمر بمنطقة الحضنة الشرقية ، حيث أن تأثيرات شيوخ ومقدمي الطرق الصوفية لعبت دورا بارزا في التحضير لهذه الثورة ، بالإضافة إلى التصرفات التي بدرت من طرف القياد التي عينتهم فرنسا على المنطقة مثل القايد بن دايخة و القايد بيبي في إذكاء نار الثورة⁽¹³⁾.

توجه القايد بيبي إلى باتنة يوم 10 مارس 1860 م مبلغا أن رجلا من أولاد رايح يدعى محمد بوختاش يدعو أنه مبعوث من شريف السوس الأقصى و أنه يتكلم على الجهاد ، وانضم إليه الشيخ السي العربي باش عدل أولاد سحنون ، وسي أحمدباي من أولاد منصور ، فأرسل الكولونيل المسؤول بباتنة شخصا لتقصي الحقائق و الذي بعد تنقله أكد المعلومات ، فقرر إرسال مجموعتين من المجموعة الثامنة لقناصي فرنسا ، ووصلت إلى بريكة بعد يومين ، وفي اليوم الموالي وصلت إلى بريكة فرقة عسكرية أخرى من الزواف و المشاة الخفيفة الإفريقية ومجموعة من الرماة⁽¹⁴⁾ .

استطاع بوختاش أن يستميل عروشا بأكملها من أولاد سحنون و أولاد منصور ، و أولاد دراج و اولاد نجاع و أولاد عمر و كثيرا من الناس ، أحست فرنسا بخطر الأوضاع في الحضنة فتحرك الجنرال ديفو devaux بتاريخ 20 مارس من قسنطينة على رأس قوة عسكرية متوجهة إلى مخيم الكولونيل ديمارتس الذي جعل قبالة الحضنة جهة جبال بوطالب ، كما تم أمر قادة مقاطعة المدية و سور الغزلان بالتوجه إلى الحضنة ، ووصلت حملة النقيب بان pain إلى بريكة يوم 20 مارس ، كما تحركت حملة الكولونيل ديمارتس من سطيف يوم 22 مارس 1860 بفرقة من الصبايحية من أجل مباغته الثوار من الخلف ، ووقعت معركة أولى يوم 23 مارس 1860م

بين القوتين أدت إلى الكثير من القتلى و الجرحى ، وقدرت قوة جيش بوختناش الأعراس المجاورة ب 1800 بندقية⁽¹⁵⁾ .

بعد تجمع كل القوات الفرنسية وقع الالتحام و المعركة الكبرى يوم 25 مارس 1860م في موقع يعرف بسم خنق أم الحمام ، حيث استبسلت قوات أعراس الحضنة ووقع التصادم بالسلاح الأبيض ، إلا أن قوة الجيش الفرنسي و تنظيمه أدى إلى تحطيم معسكر الشيخ بوختناش ، وقتل الشيخ العربي شيخ أولاد سحنون و تم تحطيم عرش أولاد عمر الذي أرغم على تسليم الشيخ بوختناش للقوات الفرنسية ، وكانت النهاية وخيمة على كل من شارك في هذه الثورة من تهجير و مصادرة للأراضي ، وقد دون أحد الشعراء هذه المعركة في قصيدة مطلعها :

يا راعي الملجوم ريض أمهل لي ****وعودك من الأبعاد جاء عرقه يقطر
تعلمني ما صار في الحضنة **** فيما بين النصارى وأولاد عمر
خير جاني مع النجوع الحق لي **** وحرمة الأبطال عامت على البر
فتنة خنق أم حمام قعدت محكية **** يا معتاه النهار في جر أم عمر⁽¹⁶⁾

3-2 ثورة سكان منطقة بركة بقيادة العيودن الهيدوق أبريل 1916 :

و حقيقتها أنه وفي أوائل شهر جويلية 1915 كانت حملة الحصاد قد بدأت بالمنطقة التي كان يحكمها النقيب ماسونيه مع قلة من جنود السبايس ، وعلى حين غرة قامت مجموعة من المواطنين المخلصين بحرق جميع محاصيل الباشاغا بن قانة الذي كان باسطا نفوذه من بسكرة إلى المسيلة ، مستغلين بذلك غيابه عن المنطقة ، وحين أدركه الخبر أدرك يقينا أن إفلاسه سيكون على يد أهل بركة ، فقرر الاستقرار ببسكرة لكونها اهدأ من بركة في ذلك الحين.

هذه الحملة قادها وديرها المجاهد الشهيد العيودن الهيدوق رفقة ثلة من المواطنين ، ومنهم شباح الطاهر بن برة ، دومي محمد بن دومي ، حاجي الطاهر من أولاد منصور بلدية مقرة ، وآخرون انظموا إلى المجموعة والثورة ، بعد أن اشتعل فتيلها وأكل لهبها محصود الباشاغا

بن قانة الذي انتقل إلى قسنطينة طالبا المدد من السلطات الإدارية والعسكرية ضد من يسميهم هو و أمثاله من الصعاليك بالصعاليك فوافقت السلطات على الفور بإرسال قوات و فرق إلى ناحية باتنة وبالأخص بركة التي تشهد اضطرابات كثيرة⁽¹⁷⁾.

وكان قانون التعبئة العامة قد صدر في 02 سبتمبر 1914 ليجند الشباب وليرسل إلى فرنسا لقتال الألمان بعد 15 يوما وصلت الفرق تحت إرشاد جنود مقيمين في باتنة ونصبت الخيام حول برج النقيب ماسونييه لحماية مكاتب الإدارة والسجن ، وبعد أربعة أيام من الراحة بدأت تدق طبول التطوع في الجيش الفرنسي ، إلا أنه وفي بداية شهر أكتوبر، ذاق المستدمر الفرنسي ذرعا بفشله فراح يجند الشباب بالقوة ولم يسلم من ذلك الكهل و لا ذوي العاهات ، وزج بالكل في ساحة السجن التي نصبت قرب غرفة الأموات التي بنيت في زاوية حديقة رئيس الدائرة والحديقة العمومية (هوارى بومدين حاليا) ، وفي هذه المرحلة كانت المنطقة تشهد احتجاجات بدأ يتسع نطاقها بسبب الاعتقالات التعسفية والتجنيد المباشر⁽¹⁸⁾.

مع بداية شهر مارس 1916 وأمام هذه الوضعية والإجراءات التعسفية ضد المجندين الذين مات بعضهم جوعا ، بدأ عدد السكان يتضاعف بتوافد السكان من مختلف أنحاء المناطق والقبائل الأخرى ، وهنا أحس الجميع بأن أمرا ما سيحدث ، فضاعف المتصرف الحراسة والاتصالات واستدعى إليه الزوي " أولاد سيدي عثمان من عين الكلبة " واعتقل من اعتقل ، وكان من بين المعتقلين رجل يسمى أحمد ، هو ابن العيدون الهيدوق " فتدخل هذا الأخير وبكل شجاعة وجرأة لا تتوافر عند أي كان بتاريخ 10 أبريل 1916 و توجه إلى مكتب المتصرف فاعتقله حرسه الشخصي ، و أخبر المتصرف بذلك فخرج على الفور ناسيا بزته الرسمية وقبعته النظامية ، وبحركة من يده أزاح الحرس وتقدم نحو العيدون الهيدوق - من مواليد سنة 1875 ببركة - وسأله ماذا تريد ؟ فرد الهيدوق : جئت أحرر ولدي المسجون منذ أكثر من أسبوع ، إذا حدث له أي مكروه أو سوء معاملة ، فسأقتل كل الناس ، فقال ماسونييه : ابنك أحمد يجب أن يذهب ليقاتل إلى جانب فرنسا فهناك الحرب ... اذهب ، فرد العيدون الهيدوق : أريد أن احتفظ بابني إلى جانبي ولا أريد أن يرحل إلى بلادكم ، فهنا الجزائر وهناك فرنسا ، وهنا أمر المتصرف باعتقاله ، وفي الصباح أطلق سراحه ولدى خروجه من السجن تحدث إلى الجنود قائلا : لقد أنذرتكم ..وعد من الهيدوق⁽¹⁹⁾.

وفي فجر 13 أبريل 1916 انطلقت قافلة مكونة من 20 عربة تغص بالمجندين مربوطين إلى

بعضهم البعض ، وكان عليها أن تقتفي أثر قافلة البريد التي انطلقت بعد ثلاثة أيام من خروج العيودن الهيدوق من السجن وهنا انتقل الخبر بسرعة وانتشر بين مختلف القبائل كالنار في الهشيم ، وتجمع حشد من الرجال محملين بالأسلحة يذكرهم التاريخ بأسمائهم " العيودن الهيدوق بن أحمد بن العيفة ، حامد وناس ، حي حامة بن علي ، لهميسي بن العجايبي ، شباح الطاهر بن برة ، مهوي حميدة بن القتال ، ميلود الطاهر بن حامية ، حاجي الطاهر ، دومي بن الدومي⁽²⁰⁾ ، وكانت الخطة تقتضي مرور القافلة ثلاث محطات المحطة الأولى وهي محطة القريبات " تيلاطو حاليا " ثم المحطة الثانية عين التوتة والثالثة والأخيرة باتنة. وقبيل انطلاق هذه القافلة كانت ثمة قافلة أخرى تضم الرجال الذين ذكروا أنفا ، قد غادرت بركة كل على راحته طالبين المدد والعون لأولادهم من الخذران ، فكان لهم ما أرادوه ووضعت تحت تصرفهم الخيول والأسلحة وعند انطلاق الحافلة ، كان هناك حشد من النسوة يبكين أبناءهن وإخوانهن وأزواجهن لأنهم سيقوا إلى المجهول ، أما عن الرجال المدججين بالأسلحة فقد انطلقت من بينهم صيحات " الجهاد في سبيل الله " وحدث تبادل لإطلاق النار على الجموع المعزولة والمسلحة فسقط عدد بين جريح وقتيل وتفرق الجمع في الأودية وكانوا يرمون الجنود الراجلين مع القافلة بالحجارة فتعرضت القافلة أثناء الراحة إلى هجوم الثائرين من جهة الجنوب على مسلك طريق باتنة حاليا ، ومن أسفل وادي بریش " شمال هذا المسلك " فقتلوا بضع عشرات من الجنود وأطلقوا سراح الخيول وسلموها من كانوا في حاجة إليها وفر باقي الجنود باتجاه عين التوتة متخليين عن المال و المؤونة وغيرهما وأحرقت المراكب في عين المكان ، وانسحب الثائرون إلى جبل متليلي أين نُظم تجمع على تعليمات من الهيدوق وتم توجيه المسجونين سابقا مشيا على الأقدام عبر الحقول نحو بركة ، ثم رسمت خطة الليل التي تقتضي بالهجوم على عين التوتة ، وانظم إلى الثائرين سكان جبال معافة و أولاد عوف وكل المناطق المجاورة في نفس اليوم ، واستفادوا بأسبقية معرفتهم بالأرض وأحرقوا في نفس الليلة عين التوتة ، وبلغ ذلك العدو ، فأرسل إلى عين المكان مئات الجنود المسلحين والمدمعين بالفرسان ونشبت معارك عنيفة قتل خلالها عدد من الطرفين بقي في عين المكان ، وقد قاوم الثائرون أياما عديدة حرما خلالها من المدد ما اضطرهم إلى الانقسام إلى مجموعتين ، مجموعة الجبليين الذين سماهم المستدمر بثوار الأوراس ، ومجموعة مقاتلو سقانة و بركة من بينهم عمر أوموسى من أولاد سلطان الذين تراجعوا نحو سفيان وأحرقوا أول مزرعة

للكولون في يومقر قبل أن يواجهوا جنود العدو بمدخل قرية نقاوس ، واستمر هذا القتال العنيف عدة أيام انتصر فيها الثوار على الجنود الفرنسيين (21).

• إعلان أول جمهورية جزائرية يوم 26 أبريل 1916 ونهاية الانتفاضة :

تجمع الثوار في المكان المسمى عين بومقر بين نقاوس وبومقر ، وأعلنوا لأول مرة في تاريخ الجزائر عن ميلاد أول جمهورية جزائرية كان ذلك في 26 أبريل 1916 ، بعد ذلك حدث قمع شرس على المنطقة فقبض على الرجال وقتل أكثرهم (22).

وخلال إحدى المطاردات على مشارف العطعوط بركة ، شوهده العجايبي الطاهر بن العجايبي في راح فانقض عليه الجنود لكنه امتطى الحصان حافي القدمين من دون سلاح ، ولكنه تلقى رصاصة في ظهره ليسقط شهيدا في المكان المسمى النوخة ، وفي الليل قام معارفه بدفنه ، أما عن العيودون الهيدوق رجل الثورة فقد سجن في سطيف طيلة عامين ، وتلقى عدة عروض خاصة بالأراضي الفلاحية المسماة "الصفيحة" وبالأخص التي كانت مستغلة من طرف أوائل المعمرين الفرنسيين بسطيف ، وفي أحد الأيام حاول رئيس الدائرة أن يذهب به إلى فرنسا بعد أن عمل على إخراجه من السجن ، و عرض عليه قائلا " اسمع العيودون ! إذا أردت أن تصبح صديقا لفرنسا فان كل الصفيحة ستكون لك ، وأنا الذي سأعطيك سند الملكية لك ولأولادك " ، فرد سريعا " اسمعني أنت أيضا ، الله يصفح علمها وعلى أهلها " بمعنى اللعنة علمها وعلى أهلها ، ليبقى هذا المثل سائرا في بركة الى اليوم ، بعد هذا الرفض و المساومة والخنوع والذل كان مع "بن قسمية حاج قسمية ، مزغيش الحواس ، حارك قويدر بن علي ، فني مبارك بن فني ، خرزني عزيز بن أحمد ، قسوم لخضر بن قسوم ، صالح علي بن دراجي ، شق الطين منصور ، شريف العلمي بن دومة ورفاقه " ، ونقلو الى ناحية سعيدة بالمكان المسمى عين تاغظميت ووضعو تحت الاقامة الجبرية طيلة خمس سنوات مات خلالها بن قسمية حاج قسمية ، وخلال هذه الفترة كان الهيدوق يدعو الله أن يرى بركة قبل الممات فكان له ما تمنى ، ووافته المنية سنة 1922.

أما عن ابنه العيودون أحمد بن الهيدوق فقد توفي سنة 1948 في سن 50 سنة في ظروف عادية

ببريكة دون أن يؤدي الخدمة العسكرية . وكذلك توفي دومي بن دومي في عين التوتة والحاج الطاهر في سفيان كانت هذه الثورة شرارة لثورة الأوراس الكبرى التي بدأت شهر نوفمبر من نفس العام و لم تنته إلا مع شهر ماي من عام 1917 (23).

3-3 ثورة الأوراس ضد التجنيد الإجباري 1916-1917 .

• اندلاع الثورة في منطقة بريكة :

عملت الإدارة الفرنسية على فرض التجنيد الإجباري على الجزائريين وقامت بمباشرة عملية الإحصاء و التسجيل في منتصف شهر أوت 1916 من أجل تحقيق هدفين استعماريين ، تمثل الأول في إحصاء الشباب و تقديمهم إلى الخدمة العسكرية الإجبارية لتدعيم صفوف القوات العسكرية الفرنسية على جبهات القتال ، و ثانيا إحصاء الرجال الجزائريين لإجبارهم على العمل في المصانع الفرنسية في الجزائر وفرنسا للهوض بالاقتصاد الفرنسي المتدهور (24).

و قد رفض الجزائريون ذلك لأنهم لا يرغبون في العمل في المصانع الفرنسية ولا التجنيد للحرب لصالح فرنسا الاستعمارية التي تحتل أراضيهم و تستغل أبناءهم ، وقد تصاعد هذا الرفض ووصل إلى ذروته خلال شهر أكتوبر 1916 ، و حسب التقارير الرسمية الفرنسية قام سكان منطقة بريكة وبوسعادة بعملية العصيان ورفض تسجيل أبناءهم من قبل الإدارة الاستعمارية و صمموا على التصدي و الوقوف في وجه السياسة الاستعمارية ، ولما قام رئيس دائرة باتنة بزيارة إلى منطقة بريكة واجهه السكان بقولهم : " إننا نفضل رؤية أبنائنا يموتون في الجزائر على موتهم في فرنسا " (25).

على الرغم من استخفاف الفرنسيين بالوضع ، فإن سكان منطقة بريكة فجروا الثورة خلال شهر أكتوبر 1916 و هاجموا المناطق الفرنسية و قاموا بقطع خطوط الهاتف و الاتصالات و دخلوا في معارك ضد الفرق العسكرية الفرنسية المتمركزة بالمنطقة مما أجبر الحاكم العام الفرنسي في الجزائر الجنرال " ليتو " (lutaud) على الإقرار بخطورة الوضع وشدته وظهر ذلك في بريقة أرسلها إلى وزير الداخلية الفرنسي يوم 15 أكتوبر 1916 أكد له فيها مهاجمة الثوار لفاقلة التموين الفرنسية و هي في طريقها إلى منطقة بريكة مما أدى إلى جرح ضابطين و ضياع

ثلاثة أحصنة ، و تمكن ما بقي من القافلة – بعد انسحاب الثوار – من الوصول إلى المدينة بصعوبة كبيرة⁽²⁶⁾.

ووفقا لنفس التقرير فقد نجح الثوار في عزل المدينة و البلديات المجاورة ومنعوا عنها جميع الاتصالات، وانتشروا في الجبال المجاورة وتحصنوا بها والتف حولهم السكان من جميع المشاتي و الدواوير المحيطة بها ، و بدأ الثوار ينسقون عملهم مع المناطق المجاورة كعين التوتة و غيرها . وقد أعاد الحاكم العام الفرنسي في الجزائر الثورة في بركة إضافة إلى التجنيد الإجباري الذي رفضه كل الجزائريين ، إلى تعرض سكان المنطقة إلى الإبادة الجماعية خلال ثورات 1871 و 1879 و التي تركت آثارها الوخيمة على السكان الذين حاولوا تجنب التصادم مع القوات الاستعمارية لكنهم أجبروا على ذلك.

لقد دفع أبناء المنطقة أبنائهم إلى التجنيد في فرق الرماة ، ووجد الجزائريون أنفسهم أمام سياسة تعسفية خلال صيف 1916 مما دفعهم إلى الذهاب إلى الحراش (الجزائر العاصمة) و الاتصال بأبنائهم في فرق الرماة و دعوتهم إلى التمرد و الخروج عن صفوف الجيش الفرنسي ، ثم نظموا احتجاجا وقاموا بطرد الحاكم الإداري من مدينة بركة يوم 24 سبتمبر 1916 ، ثم هددوا رئيس الدائرة المسى cassinelu الذي استخف بوضعهم و استمر في محاولة إقناعهم بدفع أبنائهم إلى التجنيد ، ولم يلبث أن فر تحت السكان ، ثم اندلعت الثورة بمهاجمة الفرقة العسكرية الفرنسية المتمركزة بالمدينة .

ووصف الحاكم العام خطوات تطور الثورة وفق النقاط التالية :

- تجمع السكان حول الأعداد الكبيرة من الشبان الجزائريين الفارين من صفوف الجيش الفرنسي بأسلحتهم سواء منهم المجندين إجباريا أو العاملين في صفوف الرماة الجزائريين أو فرق الصبايحية و التحصن في الجبال ، و انظم إليهم الرافضون للتجنيد الإجباري ، و نظموا أنفسهم في شكل فرق مقاومة للقوات العسكرية الفرنسية .
- تفشي الأفكار الجهادية بينهم و انتشار أفكار العرائض التي قدمتها النخبة الجزائرية إلى السلطات الفرنسية ، المطالبة بتعديل القانون و مراعاة مصالح الجزائريين و المساواة بينهم و بين الفرنسيين .

- التصدي للقوات الاستعمارية التي خضعت لأوامر هيئة الأركان العامة لإجبار الشباب على التجنيد بالقوة و اعتبروا ذلك احتقارا لهم و المساس بكرامتهم .
- شجعهم ذلك رفض الجزائريين جميعا لتجنيد أبنائهم للموت من أجل فرنسا الاستعمارية في حرب ظالمة لا تخصهم.⁽²⁷⁾

وقد حاولت الإدارة الاستعمارية أن تنسب أسباب هذه الانتفاضة إلى الحماس الديني و نشاط الزوايا و الطرق الدينية و معارضة مرسومي 07 و 14 سبتمبر 1916 ، الذين يقضيان بتسخير الناس للعمل رغم أنوفهم في أغراض الحرب لتعويض المجندين الراضين و الهاربين ، كما حاولت كذلك أن تنسبها إلى الدعاية الألمانية المعادية لفرنسا و رحيل القوات الفرنسية من الجزائر إلى جهات القتال بأوروبا ، و لم تحاول إطلاقا أن تجعل للعنصر الوطني و الفكرة الوطنية مكانا ضمن أسباب هذه الانتفاضة .

إن السبب الظاهر و المباشر لهذه الانتفاضة هو رفض التجنيد الإجباري للشبان الجزائريين على غرار أحداث بني شقران عام 1914 ، و ذلك على عكس ما كانت تتوقعه الإدارة الاستعمارية من إقبال الناس على التجنيد لإيجاد حل أو حلول لمشاكلهم الاقتصادية المتدهورة خلال أعوام 1914-1916 .

ومن أجل ذلك وجهت لجنة الشؤون الخارجية للمجلس الوطني النيابي الفرنسي دعوة شديدة اللهجة للحكومة فيها نوع من الصرامة لتؤمن الدفع المنتظم للتعويضات المطلوبة لعائلات المجندين ولكنها لم تعر للدعوة الاهتمام المطلوب ، فلم تسلم سوى مخصصات 121 أسرة من بين 466 أسرة حسب تقرير أوكتاف دوبون Octave deponot المفتش العام للبلديات المختلطة الذي رفعه للجهات المختصة يوم 01 سبتمبر 1917 .

أما وزير الحرب الفرنسي فكان يرى أن كثرة قتلى الرماة الجزائريين في جهات الحرب بأوروبا هو السبب في ثورة سكان الأوراس و الجنوب القسنطيني ورفضهم لقبول التجنيد الإجباري ، إذ سجلت وزارة الحرب الفرنسية 7822 قتيلًا و 30354 جريحًا و 2611 أسيرًا لغاية 07 أكتوبر 1916 ، ولم ينسئ وزير الحرب أن يشير إلى مصادرة أراضي السكان في مطلع القرن في عين التوتة و مروانة و بركة لإنشاء مراكز توطين أوروبية لها دخل كذلك في ثورة السكان .

وهناك من زعم بأن مراسيم شهر سبتمبر 1916، كانت وراء هذه الانتفاضة ففي يوم 7 سبتمبر صدر مرسوم ينص على السماح بتعطيل العمل بحق الإعفاء من التجنيد والتعويض والاستخلاف، وفي يوم 14 منه صدر مرسوم آخر يقضي بتسخير العمال رغما عنهم في الأعمال التي تدعم جبهة الحرب، وتخدم أغراضها وهي إجراءات تسمح لإدارة الفرنسية بالتجنيد العام للكبار والصغار دون مراعاة لأي اعتبار.

وعندما اشتد غضب السكان اضطر الوالي العام لوتو يوم 22 سبتمبر أن يعلن على تأجيل تطبيق المرسومين. وأيدته وزارة الحرب، وعادت إلى رأيه فيما بعد، وفي يوم 16 أكتوبر تم الإبلاغ بقانون الإعفاء الجديد الذي يقضي بعدم إعفاء إخوة المتطوعين في الجيش من التجنيد.⁽²⁸⁾

وقد أنجز على هذا النظام إعفاء الأسر الغنية من الخدمة العسكرية بواسطة تحليلات غير شريفة من ضمنها شراء المجندين المتطوعين الضخام الأجسام، الثقيلي الوزن بسعر 20 إلى 30 فرنكا للكيلوغرام الواحد في الشمال، وأكثر من ذلك في الجنوب، وقامت شبه أسواق خاصة للاتجار بالرجال الذين يباع الواحد منهم بسعر 2000 إلى 3000 فرنكا وأحيانا أكثر من ذلك خاصة عام 1916م.

ولما كان الأعيان هم الذين كان بمقدورهم توفير المستخلصين للخدمة العسكرية، فإنهم كانوا يدفعون مبالغ طائلة لأسر المجندين، وللإعفاءات المشروعة، والتسريحات التي تحددها القرعة، وتسبب ذلك في انتشار الرشاوي بين الرؤساء، وشيوخ القبائل لان الذي يرفض دفع الرشوة لا يأمن من تجنيده هو، أو ابنه أو أخوه.

وحتى العمل بالسخرة ربط بقوائم التجنيد العسكري، وتكلف الأعيان بتعيين من يدعي للعمل في فرنسا، ومن يعفى من ذلك، وذكرت أحد التقارير بأن الأغا بوحفص بن شنوف كان يطلب مبلغ 500 فرنك لإعفاء شخص واحد من الخدمة العسكرية وأن شيوخ بريكة كانوا يطلبون مبلغ 20 فرنك للحصول على الإعفاء.⁽²⁹⁾

وبالطبع فإن الطبقات الفقيرة هي التي كانت مضطرة لتقديم شبابها للتجنيد في الجيش ، وتسخير كهولها للعمل في المشاريع التي تخدم أغراض الحرب ، لأنها لا تملك الأموال التي تمكنها من تقديم الرشاوي وشراء الإعفاء لشبابها ، ورجالها ، وهذا ما جعلها ترتعي في أحضان الثورة والتمرد حسب التقارير الفرنسية .

وقد زعمت الإدارة الاستعمارية كذلك بأن الدعاية الألمانية لها دخل في هذه الانتفاضة ، وأكد دويون ذلك في تقريره ، وعضده الحاكم العام لوتو ، وأقحموا حتى السنوسية بليبيا في القضية ، وذكروا أنها تعد لثورة في تونس ، وجنوب الجزائر الصحراوي بمساعدة ضباط أترك ، وألمان ، ونمساويين ، وراجت لدى الأهالي مقولة قدوم أجانب لمساعدة بني بوسليمان بالمدافع ، وقدوم جيش عثماني للنجدة حالما تندلع الثورة وحتى اسم الأمير خالد أفحم هو الآخر في هذه الحوادث.

وقد خلص أجيرون في بحثه وتحليله لهذه الانتفاضة ، إلى القول بأن حركة الثورة والتمرد في الجنوب القسنطيني لا يمكن أن تقارن بثورات القرن التاسع عشر ، ولا صلة لها بالزوايا و الطريقة ، وتناحر الأسر والعائلات الكبيرة . ولا بخلو البلاد من القوات العسكرية كما حصل عام 1870 و 1871 ، وإنما هي رد فعل تلقائي جماعي ، ضد مطالب السلطات العسكرية الاستعمارية التي لا تطاق ، والمتمثلة في التجنيد الإجباري للشباب ، والسخرة للعمال الكبار (30)

ولكن أجيرون لم يحاول أن يجعل للفكر الوطنية مكانا في هذه الانتفاضة ، وان انتقد بكثرة ، وبشدة أحيانا ، السياسة الاستعمارية ، وتقاريرها ، وان كل ثورة في الجزائر وراءها رغبة ملحة ، في طرد الاستعمار الأوروبي ، وتحقيق استعادة الحرية والاستقلال الوطني حتى ولو لم يعبر عنها صراحة بسبب الضغط الاستعماري ، والباحثون الفرنسيون يعرفون ذلك ويدركونه ، ومنهم أجيرون ، ولكنهم يتغاضون عنه ويتجاهلونه (31).

• بوادر الانتفاضة :

تعود بوادر الانتفاضة إلى منتصف عام 1914 عندما بدأت السلطات الاستعمارية تحضر لعمليات الإحصاء والتجنيد الإجباري للشبان الجزائريين .

ففي خلال شهر أوت لاحظ حاكم بلدية بركة ، استعداد الناس للعصيان والتمرد ، وفر 34 شابا من دوار سقانة ، وسفيان إلى الجبال المجاورة خلال شهر سبتمبر ، وأعلن سكان بلديات بركة ، وبلزمة ، وخنشلة، بصفة جماعية ، أنهم يفضلون الموت على تقديم أبناءهم للتجنيد لتحصدهم مدافع الألمان وأكدوا لحكام المنطقة بأنهم على استعداد لتقديم أي شيء يطلبونه منهم ما عدا أبناءهم .

وإزاء هذا الإصرار ، أخذت السلطات الفرنسية تلوح باستعمال القوة ، ووجهت كتيبة عسكرية إلى منطقة الأوراس قامت بعدة تحركات وتنقلات مرببة فيما بين 29 أكتوبر ، و 11 نوفمبر 1914 ، وجندت 123 رجلا في دائرة الأوراس خلال هذا العام و 246 شخصا خلال العام الموالي و 506 رجلا خلال عام 1916 م .

وتطور عدد المتطوعين المستخلفين على الشكل التالي: 75 رجلا عام 1914 ، و 38 رجلا في العام الموالي : و 419 رجلا عام 1916 م .

وعندما شرعت السلطات العسكرية في تجنيد الشبان البالغين الخدمة العسكرية ابتداء من يوم 2 أوت 1916 في بركة ، وغيرها بدأت احتجاجات الناس تكثر وتشتد خاصة بعد أن أشيع إحصاء الأفواج التي ستجند عام 1917 وتسخير العمال الكبار من أعمار 18_45 للعمل في أغراض الحرب بفرنسا كذلك⁽³²⁾.

وفي يوم 24 سبتمبر 1916 ، ذهب زانتاكسي ZANNETACCI رئيس بلدية بركة إلى دوار متكعوك ليسجل الشبان الجزائريين في قوائم المجندين فتقدم وفد من سكان الدوار وأكدوا له

رفضهم القاطع لتقديم أبناءهم للتجنيد ، وأعلنوا بأنهم يفضلون موتهم بالجزائر ، وقد فروا فعلا من الدوار والتحقوا بالجبال .

وفي أول أكتوبر ذهب كاسينلي CASSENELI رئيس دائرة باتنة ، إلى نفس الدوار و الدواوير المجاورة لنفس الغرض ، فرفض الناس كعادتهم تقديم أبناءهم للتجنيد كذلك وفشل في اعتقال بعض القصارى الشبان ، فقرر كل من عامل عمالة قسنطينة ، والجزائر إرسال كتيبة عسكرية للإرهاب والتهديد ، فتوجهت إلى هناك ، واضطرت للانسحاب بسبب الرفض القاطع الذي جوبهت به من طرف السكان .

وقد فر مئات الشبان المطلوبين للتسجيل إلى الجبال عام 1916 ، وظهرت مجموعات منهم أخذت تقطع الطرق وتتعرض للقوافل ، وتم تسجيل 18 حادث اعتداء فيما بين 25 أكتوبر و 8 نوفمبر 1916 منها خمسة ضد أوروبيين .

وقد احتج أعيان مدن الشمال القسنطيني ضد استدعاء الشباب للخدمة العسكرية عام 1917 ، وضد تسخير الكبار للعمل ، وأكدوا في عريضتهم إلى السلطات الفرنسية بتاريخ 26 سبتمبر 1916 ، بأن تخليهم عن نسائهم وأطفالهم ، وأموالهم ، والذهاب إلى فرنسا ، لخدمة أغراض الحرب ، مسألة فوق طاقتهم . وفعل مثلهم أعيان ناحية باتنة ، وكذلك أعيان شلغوم العيد الذي قدموا عريضتهم منذ 13 سبتمبر 1916 ، وأخذ الرماة القناصة يفرون من وحداتهم ، ففر من تقرت 65 صبايحيا ، ومن بسكرة 42 فارسا ، وارتفع عدد الهاربين في نهاية عام 1916 ، حتى وصل إلى أكثر من 3000 رجلا اعتصموا بالمناطق الجبلية. (33)

• انتشار وتوسع نطاق الثورة:

اندلعت الحوادث الكبرى للثورة يومي 10 و 11 نوفمبر 1916 وامتدت بقاياها لغاية نهاية أفريل و أوائل ماي 1917 و ذلك في المنطقة الممتدة بين بريكة في الحضنة غربا إلى غاية جبال ششار بالأوراس شرقا وتركزت في ثلاث مناطق رئيسية :

- 1- بريكة و متليلي و بلزمة .
 - 2- جبال الأوراس الشرقية و ششار .
 - 3- جبال بوعريف و فجوج بين عين كرشة و خنشلة .
- وعمت أكثر من 23 دوارا من ضمن 113 دوارا منها: بريكة ، متكعوك ، مقرة ، عين الكلبة (عين الخضراء) ، سقانة ، سفيان ، أولاد سليمان ، نقاوس ، مروانة ، مركونده ، أولاد عوف ، أولاد شليح ، الشمرة ، جرمة ، أولاد عمر ، ششار ، زلاطو
- ففي يوم 10 نوفمبر 1916 أبلغ الوالي العام لوتو الحكومة الفرنسية بأن سكان الجنوب القسنطيني رفضوا التجنيد الإجباري وقاوموه منذ شهر سبتمبر السابق ، و أن قافلة عسكرية صغيرة أرسلت إلى بريكة لمواجهة الأحداث اضطرت أن تنسحب و تتراجع بسبب هيجان السكان وتخوف شيخ بلدية الأوراس من أن يهاجم الغاضبون قرى مدينته .
- وفي ليلة 11 نوفمبر 1916 ، هاجم جمع من الثوار مزرعة المعمر قرانجي Grangier في بلدية بريكة ، و أحرقوها و خربوها وقطعوا خط الهاتف الذي يربط بين بريكة و نقاوس ، وفي نفس الليلة هاجم جمع من ثوار دوار أولاد عوف يتراوح عددهم بين 1000 و 1500 رجل برج ماكماهون مقر بلدية عين التوتة بقيادة شيخ سقانة المقدم محمد بن الحاج بلوديني ومحمد بن النوي من متليلي فأحرقوا البرج و خربوه ، وقتلوا المتصرف المتصرف المدني كاسنلي Cassinelli وحاكم دائة باتنة الذي كان هناك لدراسة الأوضاع ، وتمكن المقدم الرحماني صحراوي من إنقاذ زوجة المتصرف و بنتيه ، و قُتل حوالي 12 شخصا خلال هذا الهجوم⁽³⁴⁾
- وفي نفس الليلة هاجم الثوار مزرعة المعمر راينال Raynal في مركز فيكتور دوري ومنزل حارس غابة محطة تامارين في دوار تيلاطو بمتليلي و قتلوا الحارس ، و هاجموا مزرعة لأحد المعمرين قرب نقاوس وحاصروا مدينة بريكة حتى يوم 14 نوفمبر ، ثم هاجموا فرقة جنود الزواف قرب قرية سقانة بدوار تيلاطو في نفس اليوم ثم أعادوا الكرة يوم 18 نوفمبر 1916 ، وفي يوم 14 نوفمبر كذلك هوجمت كتبية تموين كانت متجهة إلى بريكة وقتل ستة من أفرادها ، وتمرد سكان دواوير بلزمة والتحق ثوارهم بالغابات المجاورة خاصة مستاوة و متليلي ، و رفض خمسة دواوير في بلدية عين مليلة شمالا تقديم رجالهم للتجنيد خاصة دوار عين كرشة والتحقوا

بجبال قريون و الفجوج و بوعريف ، و تمكنوا من اختطاف بعض المجندين و أخذوهم معهم إلى الجبال .

وكان هدف المتمردين حسب اعتراف الإدارة الفرنسية نفسها هو تخليص إخوانهم الشبان المسجلين و المجندين فعلا ، و ذلك ما كان يمثل الجانب السلبي و الضعيف في موقفهم و حركتهم ، فاستعملته القوات الفرنسية لتطعنهم و تضع حدا سريعا لتمردهم ، و قد ارتفع عدد الثوار بمرور الأيام و الأسابيع حتى وصل إلى 3000 رجل و قيل إلى 4000 رجل ، و كثر عدد الفارين من الفرسان القناصة و الصبايحية من وحداتهم ، ففر 45 صبايحيا من لواء فرسان تقرت ، و 42 فارسا من لواء بسكرة ، و بلغ عددهم في نهاية ديسمبر 1916 حوالي 3214 رجلا بينهم 286 ينتمون إلى دائرة باتنة .

و قد انتظم بعض الفارين في مجموعات خاصة أخذت تمارس اعتراض القوافل و العسكريين الفرنسيين ، من أبرز زعماء بعض هذه المجموعات : علي بن أحمد بن زلماط و أخوه المسعود في الأوراس ، اللذان اعتصما بالجبال منذ 1917 إلى عام 1921 ، و ابن علي محمد بن النوي من متليلي الذي ألقى عليه القبض في شهر فيفري 1917 و حكم عليه بالإعدام بتهمة قتله للمتصرف المدني بعين التوتة ليلة 11 نوفمبر 1916.⁽³⁵⁾

• رد فعل الإدارة الاستعمارية :

واجهت الإدارة الاستعمارية هذه لانتفاضة بالعنف و القسوة و الشدة كعادتها و كلفت خمسة كتائب من الجنود السنغاليين الذين كانوا متمركزين في مدينة بسكرة بملاحقة الثوار ، و كان عددهم حوالي ستة آلاف جندي يتسمون بالغلظة و الشدة و سوء الأخلاق و عدم الرحمة و قساوة القلب ، فقاموا بإحراق القرى و المشاتي و إفراغ المطامر و سلب ما بها من الحبوب و مصادرة الحيوانات و انتهاك أعراض النساء و تعذيب الأطفال ، و ارتكبوا مجزرة رهيبة بأهل دوار أولاد مسعود .

ولم تجد السلطات الاستعمارية ما تبرر به عجزها أمام قوات الثورة سوى الضعف العددي للقوات العسكرية المتمركزة بمنطقة بسكرة و التي – حسب التقارير الرسمية – لم يكن يتعدى 85 جنديا من فرقة الصبايحية ، مما دفع النقيب قائد الملاحقة العسكرية إلى تجنيد 100 من فرق القوم (الحركة) ، و هذا الوضع يدل على قوة الثورة و عنفوانها و مبالغتها

للفرنسيين الذين ازدادوا دهشة أمام انتصاراتها و قوتها و سرعة انتشارها مما جعل الحاكم العام يطلب النجدة و التدخل من وزير الداخلية لدى وزير الحربية ليدعمه بالمال و العتاد ، ولم تجد القوات الفرنسية أمامها سوى البطش بالمدينين و نشر الرعب في الدواوير و سلب أموال و متابعة المواطنين في كل مكان وهو ما شهدت به التقارير الفرنسية التي ذكرت أن قواتها قامت يوم 19 نوفمبر 1916 بمهاجمة السكان بمنطقة متليلي المعزولة و بطشت بالسكان محاولة منها لإعادة طرق الاتصالات لنشاطها السابق و تأمين مرور قواتها .

وقد أكد الحاكم العام في تقريره المؤرخ في 21 نوفمبر 1916 فشل الضغوطات التي مارستها قواته بل إن الثورة ازدادت شراسة و توسعا في مناطق الأوراس و متليلي خاصة في جبالها الكثيفة و منطقة القنطرة التي تمركز ثوارها نحو الجنوب و منطقة بلزمة و جبالها الوعرة و منطقة بسكرة التي توسع بها الثوار منذ 1914).⁽³⁶⁾

و ساهمت إلى جانب القوات السنغالية ثمانية كتائب من جنود الزواف في الهجمات المضادة ضد الثورة منذ يوم 18 نوفمبر بعد تسعة أيام من اندلاع أحداثها ، وفي يوم 30 نوفمبر طلب الجنرال بوفنال bonneval من الحاكم العام لوتو ، أن يرسل إليه نجدات جديدة بعد أن هاجم الثوار قافلة عسكرية قرب واد الماء وقتلوا منها أربعة رجال يوم 21 نوفمبر ، وكان طلبه أن ترسل إليه الحكومة الفرنسية لوائين عسكريين و طائرات مقاتلة لمواجهة الموقف المتدهور و إرهاب السكان المتمردين ، فأرسلت لواء المشاة رقم 250 من جبهة القتال بأوربا وانضم إلى لواء السنغاليين ، فأصبح مجموع القوات المسخرة لمحاربة الثوار 13892 عسكريا و 275 ضابطا ، وأمرت طائرات فارمان Ferman في تونس بالتحليق على المنطقة لمحاربة الثائرين الذين حدد لهم أجل 30 نوفمبر ليستسلموا و يسلموا سلاحهم .

وفي الفترة الممتدة ما بين 19 و 30 نوفمبر قامت هذه القوات العسكرية بتمشيط المنطقة و اقتحام مغاورها و مخابها في بركة و الحضنة و متليلي و مستاوة و جبل ششار ، وواصلت عملياتها حتى ديسمبر 1916 و شهر جانفي 1917 ، و في أوائل شهر فيفري شرعت طائرات فارمان وعددها ستة في التحليق بالمنطقة انطلاقا من قواعدها بتونس ، وفي يوم 12 فيفري 1917 أخذت تقذف القرى و تقبل الأماكن المشكوكة ، وأصيب ثلاث طائرات زعمة فرنسا أنها أصيبت بعطب فني و ليس من طرف الثوار .

وقد انتهت حوادث هذه الانتفاضة مع نهاية شهر أفريل و أوائل ماي 1917 ، وبلغ مجموع قتلى الفرنسيين 15 رجلا و جرح 30 ، بينما بلغ قتلى الجزائريين 100 شخصا حسب تقرير المفتش العام أوكتاف دوبون .⁽³⁷⁾

• محاكمة الثوار:

اعتقلت السلطات الاستعمارية 2904 شخصا قدمت منهم 825 شابا غير رشيد إلى محاكم تأديبية و 165 شخصا رشيدا إلى المجلس العسكري بقسنطينة ، فأدانت المجالس التأديبية 805 من غير الراشدين وحكمت عليهم بما مجموعه 715 عاما و شهرين و تسعة أيام سجننا ، و 22810 فرنك غرامة ، و قدم 45 متهما إلى محكمة باتنة و حكم عليهم بما مجموعه 90 عاما و تسعة أشهر سجننا .

و تم مصادرة 3759 بندقية صيد قديمة عديمة الفعالية ، و 7929 رأس غنم و 4511 رأس ماعز ، و 266 رأس بقر ، و تم تغريم 62394 شخصا بمبلغ 706656 فرنكا لتعويض ماسمته أضرار المعمرين الأوربيين ، و وضعت المنطقة كلها تحت الإدارة العسكرية بمقتضى قرار 22 نوفمبر 1916 رغم معارضة الحاكم العام لوتو على ذلك .

وتعرض السكان لملاحقات كثيرة و قاسية و أبرز الأوربيون كل ما في قلوبهم من حقد و كراهية للجزائريين ، و أكد النائب أوبري Aubry بأن القوات الفرنسية أحرقت قرى و مشاتي بدون سبب ، و ذكر أنه سمع بنفسه أحد الآباء الجزائريين يقول له وهو يبكي : " من المؤسف حقا أن تقوموا بحرق منازلنا و أماكن استقرارنا في الوقت الذي يُقتل فيه أبناؤنا في جبهة الحرب في فرنسا و أوربا " ، كما ذكر هذا النائب بان المتهمين كانوا يقدمون إلى المحاكمة عشرة فعشرة و لا يفهمون إطلاقا ما يقوله لهم القضاة و المحلفون ، و يصدرون ضدهم الأحكام بالسجن من ثلاثة إلى ستة أشهر ، و بسبب ذلك اضطرت الكثير من الهاربين من التجنيد إلى الاعتصام بالجبال عدة سنوات كما فعل الإخوة بن زلماط .⁽³⁸⁾

و بقيت آثار هذه الانتفاضة و مأسها ماثلة في أذهان سكان المنطقة حتى اندلعت ثورة أول نوفمبر الكبرى 1954 ، و ما تزال أحداث هذه الثورة في أذهان بعض الشيوخ المسنين .

الخاتمة :

نستنتج مما سبق أن مدينة بركة هذه المدينة التي ظهرت على خارطة بلاد المغرب الأوسط منذ بداية القرن الرابع عشر ، تعرضت في العديد من المرات إلى صراعات مختلفة بين العائلات المتحكمة في الأراضي و مع القياد الذي عينتهم فرنسا .

انتشرت الطرق الصوفية حول المنطقة و خاصة الطريقة الرحمانية التي كان رجالها و شيوخها و شيوخ المساجد يحاولون القضاء على المشروع الثقافي الفرنسي باستمرار التعليم ولو بالطريقة التقليدية .

سرعان ما استهضت هذه الطرق همم الرجال و بعثت في نفوسهم روح مقاومة المستدمر الفرنسي ، فظهرت تمردات و ثورات وانتفاضات ، كان أولها مشاركة سكان المنطقة في ثورة الزعاطشة 1849 ، ثم تمرد أولاد سحنون في نفس العام ، سرعان ما ظهرت حركة الشيخ بوختاش الذي التفث حوله جل قبائل المنطقة ، لكن النتيجة كانت وخيمة على الجميع .

من أهم الثورات ثورة العيدون الهيدوق أفريل 1916 حيث تعرض ابنه للتجنيد الإجباري ، فكانت هذه الحادثة نقطة انعطاف في مسار الأحداث حيث التفث أعراش المنطقة حول العيدون الهيدوق معلنة ثورتها و تمردا ومن نتائجها أيضا هو إعلان أول جمهورية جزائرية بعين بومقر في أفريل 1916 ، تبعها تمرد أهل بركة أكتوبر من نفس العام و كانت انطلاقة لثورة الأوراس الكبرى و التي لم تنتهي إلا مع عام 1917.

الهوامش :

1 - الزاب ، كلمة أعجمية أطلقت بالمشرق و هي اسم لواديين بالعراق ، و أطلقت من طرف الجغرافيين و الرحالة المسلمين على منطقة شاسعة من بلاد المغرب ، و يمكن أن تكون كلمة أمازيغية و تعني الواحة ، أو توازي باللغة العربية كلمة الصّاب ، أو نسبة لمدينة زابي الروماني قرب مدينة المسيلة ، ينظر : أسامة الطيب جعيل ، طبنة حاضرة إقليم الزاب و المغرب عبر العصور – دراسة تاريخية - ، مجلة قبس للدراسات الإنسانية و الاجتماعية ، المجلد 02 ، العدد 02 ، جامعة الوادي ، 2018 ، ص 401.

- ²- أسامة الطيب جعيل ، معجم أعلام طبنة في العصر الوسيط ، دار الأوطان للنشر و التوزيع ، الجزائر العاصمة ، 2019 ، ص 12 .
- ³- بنو عامر ، قبيلة عربية تنتهي إلى قبيلة زغبة إحدى بطون بني هلال ، مواطنهم الأولى كانت مجاورة لبني يزيد جنوب سوق حمزة (البويرة حاليا) ، ثم قام يغمراسن بنقلهم إلى جنوب تلمسان ، وكان لبني عامر ثلاثة بطون هي : بنو يعقوب بن عامر ، بنو حميد بن عامر و بنو شافع بن عامر ، أنظر : عبد الرحمن بن خلدون ، ديوان العبر و المبتدأ و الخبر في تاريخ العرب و البربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأعظم ، ج 06 ، ضبط المتن : خليل شحادة ، مراجعة : سهيل زكار ، دار الفكر للطباعة و النشر ، بيروت ، 2000 ، ص 105 .
- ⁴- مجهول ، زهر البستان في دولة بني زيان ، ج 02 ، تحقيق وتقديم : بوزياني الدراجي ، مؤسسة بوزياني للنشر و التوزيع ، الجزائر ، 2013 ، ص 27-28 .
- ⁵- الحسين بن محمد الورثاني ، رحلة الورثاني أو نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ و الأخبار ، المجلد 01 ، مكتبة الثقافة الدينية ، ط 01 ، القاهرة ، 2008 ، ص 114 .
- ⁶- receil notices et . Monographie géographique et historique de la tribu du hodna oriental- memoires de la société archéologique du département de constantine, jourdan libraire-éditeur, alger , 1910 , p 233-235
- ⁷- . 103 . - jean despois , le Hodna , presses universitaire de france , paris 1953 , p
- ⁸. 235 . - monographie ... op cit , p
- ⁹- رياض بودلاعة ، موقف شيوخ الطرق و الزوايا من الثورة التحريرية الجزائرية 1954-1956 ، مجلة مقاربات ، جامعة الجلفة ، المجلد 04 ، العدد 03 ، 2017 ، ص 171 .
- ¹⁰- شتره خير الدين ، الطلبة الجزائريون بجامع الزيتونة (1900-1956) ، ج 01 ، دار البصائر ، الجزائر العاصمة ، 2009 ، ص 82 .
- ¹¹- بيرم كمال ، الطرق الصوفية و الزوايا بمنطقة الحضنة وموقفها من الاستعمار الفرنسي 1830-1916 ، مجلة المعيار ، قسنطينة ، المجلد 20 ، العدد 39 ، 2015 ، ص 588 .
- ¹²- أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج 01 ، دار الغرب الإسلامي ، ط 01 ، بيروت ، 1998 ، ص 222 .

- ³¹⁻ يحي بوعزيز ، من كفاح الجزائر في القرن التاسع عشر – أربعة أحداث في ثلاث وثائق - ، المجلة التاريخية المغربية ، تونس ، العدد 02 ، 1974 ، ص 97 .
- ⁴¹⁻ بيرم كمال ، الأوضاع الاجتماعية و الاقتصادية و السياسية في الحضنة الغربية فترة الاحتلال الفرنسي (1840-1954) ، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث و المعاصر ، جامعة قسنطينة ، 2010-2011 ، ص 42 .
- ⁵¹⁻ نفس المرجع ، ص 43 .
- ⁶¹⁻ يحي بوعزيز ، المرجع السابق ، ص 100 .
- ⁷¹⁻ بن يحي ، ثورة العيدون الهيدوق 1916م ، مقال بكتاب : ثورة الأوراس 1916 ، جمعية أول نوفمبر لتخليد و حماية مآثر الثورة في الأوراس ، باتنة ، 1996 ، ص 322 .
- ⁸¹⁻ عبد الحق جراف ، ثورة العيدون الهيدوق ، مجلة باتنة انفو ، عدد 02 ، جويلية 2011 ، ص 48 .
- ¹⁹⁻ مقابلة مع السيد العيدون رياض ، أحد أحفاد الثائر العيدون الهيدوق ، يوم : 11 نوفمبر 2018 ، بركة ، على الساعة 13.00 زوالا
- ²⁰⁻ مقابلة مع السيد نور الدين في ، أحد أحفاد في مبارك بن في أحد المشاركين في ثورة العيدون الهيدوق ، يوم : 20 ديسمبر 2018 ، بركة على الساعة 22.00 ليلا
- ²¹⁻ بن يحي ، المرجع السابق ، ص 324 .
- ²²⁻ عبد الحق جراف ، المرجع السابق ، ص 50 .
- ²³⁻ شارل رويبر أجيرون ، الاضطرابات الثورية في الجنوب القسنطيني نوفمبر 1916-جانفي 1917 ، مجلة الأصالة ، الجزائر ، العدد 62-63 ، 1978 ، ص 168 .
- ²⁴⁻ أ.د يوسف مناصرية ، دراسات و أبحاث في المقاومة و الحركة الوطنية الجزائرية 1830-1954 ، دار هومة للطباعة والنشر و التوزيع ، الجزائر ، 2014 ، ص 82 .
- ²⁵⁻ M lutaud . G.G.Algérie à M. ministère de l (batna le) incident algérie (intérieure
- 17/11/1916,p01.
- ²⁶⁻ op.cit . p 01.
- ²⁷⁻ أ.د يوسف مناصرية ، المرجع السابق ، ص 85 .

²⁸⁻ يحي بوعزيز ، ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر و العشرين ، ج 02 ، منشورات المتحف الوطني للمجاهد ، ط 02 ، الجزائر ، د.ت ، ص 57.

²⁹⁻ نفس المرجع ، ص 58.

³⁰⁻ شارل روبيير أجيرون ، المرجع السابق ، ص 168.

³¹⁻ يحي بوعزيز ، المرجع السابق ، ص 58.

³²⁻ صالح فركوس ، المختصر في تاريخ الجزائر من عهد الفينيقيين إلى خروج الفرنسيين (814 ق.م-1962م) دار العلوم للنشر و التوزيع ، عناية ، 2002 ،

³³⁻ يحي بوعزيز ، المرجع السابق ، ص 59.

³⁴⁻ Robert letan , rapport de monsieur l'inspecteur général des communes mixtes , directeur intérimaire des territoires des sud . batna 1916, p 12

³⁵⁻ opcit. P 13

³⁶⁻ أ.د يوسف مناصرية ، المرجع السابق ، ص 87.

³⁷⁻ شارل روبيير أجيرون ، المرجع السابق ، ص 169.

³⁸⁻ يحي بوعزيز ، المرجع السابق ، ص 60.

الكاتب: أ.د./ بشار أكرم جميل الملاح
 جامعة الموصل/كلية الآداب/قسم التاريخ
 عنوان المقال: اثر الحضارة العربية الإسلامية
 على غرب أفريقيا

البريد الإلكتروني: basharj@rocketmail.com

تاريخ الإرسال: 03/03/2020 تاريخ القبول: 18/03/2020 تاريخ النشر: 2020/03/31

اثر الحضارة العربية الإسلامية على غرب أفريقيا

The impact of the Arab Islamic civilization on the countries of Sudan

الملخص بالعربية:

تناول البحث دراسة منطقة جغرافية لا نستطيع أن نقول أنها تمتلك مقومات حضارة قديمة كتلك الحضارات التي قامت في بلاد الرافدين ووادي النيل وغيرها من حضارات العالم ، إلا أنها وفي نظر مواطنها كانت حضارة تعترز بهويتها وبمقومات كيانها ، وفي الوقت الذي كانت فيه تلك المنطقة (غرب أفريقيا) تعيش وفق نظام بسيط يتخذ من الصيد والرعي وسيلة للعيش ، ومن أغصان الأشجار والخرز وسيلة لستر العورة ، ومن الطين والأخشاب وسيلة لبناء السكن ، وعلى تقديس الملوك وعدهم آلهة ، فضلاً عن تقديس الأفاعي وتقديم القرابين للآلهة ، أمام كل ذلك وغيره جاء الإسلام ليغير كل ذلك بسلام وبشكل تدريجي لا يتعارض والثوابت التي أعتاد الناس هناك عليها .

والرائع في الأمر أن الإسلام لم يتعامل بحزم مع المسائل التي لا تتعارض مع العقيدة وقضى عليها بشكل تدريجي فهو لم يحارب الهوية الأفريقية ولم يفرض على السكان مسألة تخليهم عن أفريقيتهم ويحولهم إلى عرب بشكل قسري ، بل على العكس عزز في نفوس الناس هويتهم لا بل شملهم بهوية أوسع وهي الهوية الإسلامية الشاملة لكل المنضوين تحت لواءها ، كما أن الثابت الآخر وهو اللغة والتي لم يحاول الإسلام القضاء عليها وإجبار السكان على الكتابة والتكلم باللغة العربية فبقيت لغتهم سائدة وهم في نفس الوقت يقبلون على اللغة العربية كونها لغة دينهم الجديد ، وهو أمر معاكس تماماً لما فعله الأوروبيين حينما وصلوا أفريقيا من خلال فرض اللغة الانكليزية أو الاسبانية أو الفرنسية على السكان .

ففي الوقت الذي كان الأفريقي يعتز بمعتقداته ، تقبل الإسلام كدين جديد لما يحمله من تسامح ومحبة ورفق في الدعوة من قبل دعاة سواء كانوا تجاراً أو مهاجرين أو فقهاء ، فكانت التحولات والتغيرات التي حدثت في أفريقيا ذات نفع كبير على المنطقة من خلال دمجها في حضارة عريقة و متماسكة هي الحضارة الإسلامية .
كلمات مفتاحية: السودان /الصحراء/الحضارة/الغربي/غانة

Abstract :

The research deals with a geographical area in Africa , it has elements of an ancient civilization , built approach not the civilizations that stood in Mesopotamia and the Nile valley and other civilizations , but it consider in the point of view of its citizen a civilizations proud of its identity and the elements of its entity . at a time when that region (Africa) lives according to a simple system based on hunting , grazing as a mean of living and from the branches of trees and beads to cover private parts . and from the mud , wood a way to build houses , and sanctifying kings , considering them as a gods , as well as sanctifying snakes and offering sacrifices to the gods , finally Islam religion came to change all that peacefully and gradually with out contradict with principles that people used to do there .

The wonderful thing is that Islam did not deal firmly with issues that are inconsistent with the doctrine and destroyed them gradually , Islam did not fight African identity , nor impose on the population to abandon their identity as an African citizen and converted them to be Arab by force , but on the contrary . strengthened in the hearts of people their identity more over gave them a wider identity which is comprehensive identity of Islam as it given to all those live under its banners , and the another element , the language . Islam did not try to remove it , or force the residents to write and speak Arabic Language . their language remained prevalent and they are at the same time accept . The Arabic Language as the Language of their new religion , which the exact opposite of what Europeans

did when they arrived in Africa through the imposition of English or Spanish or French on the population while the African proud of his beliefs , but he accepted Islam as a new religion because it calls to tolerance , love and kindness in the call by preachers , whether they are traders or migrants or scholars , so the shifting and changings which happened in Africa were very useful to region through integration into an ancient , coherent civilization which is Islamic civilization .

Key Words: Sudan / Desert / Civilization / Western / Ghana

المقدمة :

يفتخر كل شعب من الشعوب بتاريخه وحضارته ويحاول أن يجعلهما أفضل من بقية الحضارات مركزاً على الثوابت والمميزات في تلك الحضارة ، والحضارة بمعناها الأساس لم تكن لتشمل الدول المتقدمة فقط ، فأصل الحضارة البدو كما ذكر ذلك المؤرخ ابن خلدون في مقدمته مقسماً العمران إلى عمران بدوي وعمران حضري .

وربما يعتبر البدوي نفسه ذو حضارة مدافعاً عما يمتلكه من مقومات تكاد تكون قليلة أو معدومة في نظر الآخرين ، فهو يعمل في الزراعة ويقوم بتربية الحيوانات التي يأكل من لحومها ويشرب من ألبانها ، لا بل أنه حتى في حالة الشعوب البعيدة في ماضيها عن الحضارة تفتخر بما قامت به لتسير فيما بعد في ركب الحضارة ، وقد تكون في التجمعات الرعوية البسيطة في الصحراء الأفريقية الكبرى دليلاً على بناء حضارة في تلك البقاع والأماكن الواقعة جنوبها فيما بعد ، فالمجموعة التي كانت تبحث عن الماء القليل لتستقر حوله بدأت توفر حول ذلك المكان مستلزمات العيش المؤهلة للاستقرار .

وقد ساعدها في ذلك توافد التجار من المغرب الإسلامي للذهاب نحو أفريقيا جنوب الصحراء والذين احتاجوا بشكل بديهي للماء والدليل ، فلعب سكان تلك الواحات ومراكز تجمع المياه وهم من البربر دوراً في سقي وإطعام أولئك التجار ومن ثم إرشادهم إلى الطريق الصحيح الأمن مقابل حصولهم على ضرائب مُعينة مكنتهم من الاستقرار وبالتالي تكوين تجمعات سكانية أصبحت فيما بعد مُدناً .

إلا أن تلك المُدن كانت متأخرة حضارياً عن الحضارات الأخرى في العالم كحضارة وادي النيل في مصر ووادي الرافدين في العراق والسبأية والحميرية والبيزنطية والفارسية

والهندية ، لكنها كانت تعتز بنواة حضارتها التي تكاد لا تُذكر قياساً لبقية الحضارات ، ففي الوقت الذي كانت الحضارات تعتز بعمراتها وعلومها وفنونها وبعادات وتقاليدها شعوبها ، كانت أفريقيا تبني دور مواطنيها من القصب أو الأخشاب ، وفي الوقت الذي كانت العلوم والفنون تنتشر في بلدان تلك الحضارات كانت أفريقيا تفتقر لذلك الأمر ، وفي الوقت الذي كانت الملابس الفاخرة والمزركشة تنتشر بين شعوب تلك البلدان كان الأفريقي عرياناً .

لكننا كلما اقتربنا من بدء الدعوة الإسلامية ووصول التجار المسلمين إلى أفريقيا كلما بدأت بوادر الحضارة تظهر في تلك البقاع ، فترى المنازل بدأت تُبنى من الطين واللبن والحجارة ، والملابس بدت أكثر احتشاماً وزينة ، وقس على ذلك من أمور أدخلها العرب ومن ثم المسلمين إلى أفريقيا كأدوات الزراعة كالمحراث والفؤوس ، كما تعلموا منهم طرق زراعة سفوح الجبال على شكل مصاطب ، وسيطروا على مياه الأمطار من خلال بناء السدود لخزن المياه ، فضلاً عن تطوير وسائل النقل باستخدام الجمل والحصان بعد أن كانت البضائع تُنقل على ظهور الرجال .

إشكالية البحث :

ينوي البحث إبراز عملية التحول الطارئة في غرب أفريقيا والتي غيرت معالم المنطقة بشكل كبير ، ويجب عن التساؤل القائل : هل غير المسلمون القادمون من خارج أفريقيا تاريخ وحضارة أفريقيا بكل مفاصلها ؟ ، وهل طمس الإسلام صفات كانت قد اكتسبتها الحضارة الأفريقية على الرغم من بساطتها ؟ أم على العكس حافظت عليها وأضافت لها الجيد والمفيد ، وهو ما سيحاول البحث الإجابة عنه من خلال تناول جزء من منطقة أفريقيا جنوب الصحراء وهي منطقة غرب أفريقيا أو كما سماها المؤرخون المسلمون السودان الغربي والتي يحدها من الشمال الصحراء الكبرى ومن الجنوب الغابات الاستوائية ومن الشرق منحني نهر النيجر ومن الغرب المحيط الأطلسي .

أهمية البحث :

تظهر أهمية البحث من خلال الدور الذي لعبه الإسلام في إدخال الشعوب البعيدة عن الحضارة في الإسلام وبالتالي ضمها لركب الحضارة العربية الإسلامية ، من خلال إظهار الدور السلمي والبسيط لعملية التحول تلك والتي يكاد ينفرد ويتميز بها الإسلام ، تلك العملية التي أتبع فيها المسلمون الأسلوب التدريجي في القضاء على الأمور التي لا تتعارض مع عقيدة الإسلام دون إكراه شعوب تلك الحضارة - التي حل عليها الإسلام - على ذلك الأمر .

كما تظهر مسألة مراعاة خصوصية ومكتسبات تلك الحضارة وتعامل الإسلام معها ، لاسيما مسألة الهوية الأفريقية الزنجية واللغة وغيرها والتي لم يفرض الإسلام على أصحاب الحضارة الأفريقية تبديلها بالهوية العربية وباللغة العربية ، وحتى إذا ابتعدنا عن بدايات وصول الإسلام للقارة الأفريقية ووصلنا إلى سنوات اقتراب خطر الاستعمار البرتغالي من شرق أفريقيا نلاحظ أن العثمانيين قد عرضوا على الأفارقة الدفاع عنهم كمسلمين دون المساس بهويتهم وتاريخهم وهو شأن الحضارة الإسلامية .

أثر الحضارة العربية الإسلامية :

أمام تلك الحالة التي كانت عليها الشعوب الأفريقية والتي تم الحديث عنها في مقدمة البحث والتي تتمثل في فقدان للحقوق والواجبات وتخلف وما إلى ذلك ، وصل الإسلام إلى المنطقة يحمله بشكل سلمي وسلس تجار حاملين معهم مواد تجارية تُنتج في بلادهم وتفتقر إليها القارة الأفريقية كالملايس والحبوب والملح وما إلى ذلك ويستوردوا بدلاً عنها منتجات القارة من الذهب والعاج والنحاس والرقيق وغيرها .

لقد تميز الإسلام عن بقية الأديان السماوية كونه لا يمتلك طبقة كهنوتية تبشيرية كما هو الحال في الديانة المسيحية ، كما أنه ليس ديناً مغلقاً كالديانة اليهودية ، فهو يدعو الناس للدخول فيه بالتي هي أحسن⁽¹⁾ ، وهو ما فعله كل زائر لتلك القارة سواء كان تاجراً أو مهاجراً أو متفهماً في الدين داعياً له ، فالأفريقي أنجذب لذلك التاجر الذي توضع أمامه ثم صلى ، ثم اندهش وانجذب لملايسه النظيفة والمحتشمة والتي تختلف عن ما اعتاد الأفارقة على لبسه من ملايس تستر العورة فقط ، كما أن تعامل التاجر الأفريقي مع التاجر المسلم في البيع والشراء جعله في تماس مباشر معه قريباً من عاداته وتقاليده سواء في العمل أو المعيشة ، فبعد أن اعتاد الأفريقي على التعامل بالربا والغش وعدم الصدق في موعد تسديد ثمن البضاعة ، شاهد أمامه التاجر المسلم يرفض الغش ويحاربه ويمنع الربا ويصدق في مواعيد⁽²⁾

لكل ذلك حاول الأفارقة التقرب من التجار المسلمين والتعامل معهم ليتبع تلك الخطوة استقرار بعض أولئك التجار في أفريقيا وتزوجهم من النساء الأفريقيات وبالتالي اندماجهم في ذلك المجتمع ، كما أن توافد الهجرات إلى أفريقيا قادمة من المغرب الإسلامي ومصر وعمان واليمن والعراق وبلاد الشام أسهم بشكل كبير في تعريف الأفارقة بالحضارة الإسلامية وأخذ ما هو جيد منها ودمجه في حضارتهم الأم⁽³⁾ .

كما أن حكام الدول والإمبراطوريات التي قامت على تلك الأرض بدءوا يتطلعون لربط تاريخهم وحضارتهم بتاريخ وحضارة القادمين من بلاد الإسلام ، فنرى ملك غانة الوثني يقرب من بلاطه كل مسلم يسمع أن لديه موهبة مُعينة أو قدرة على عمل ما يسهم في ربط مملكته بركب الحضارة ، فزاه يختار وزرائه وصاحب بيت ماله ومترجميه من بين التجار المسلمين الموجودين في بلاده والذين عملوا على تطوير البلاد وتنظيم الأمور المالية والإدارية فيها⁽⁴⁾ .

وفي مثل ظروف أفريقيا فأن التحول والتغيير الذي حصل بوصول الإسلام إليهم يُعد حقيقياً وكبيراً ، فتحولهم إلى مجتمع متحضر بفضل الإسلام لم يعني لهم وللمسلمين هناك إلغاء الماضي ونسيانه ، لكن الإفادة من الماضي والحاضر للنجاح في المستقبل ، فظهرت لهم معاني جديدة لم يكونوا يعلموا عنها شيئاً ، فبالحضارة علموا أن المجتمع المسلم المتحضر تُلغى فيه الفوارق بين الناس فيتساوون في الحقوق والواجبات ومستوى المعيشة وتسود العدالة الاجتماعية وتُحترم فيه حقوق الفرد وتُلغى الطبقة⁽⁵⁾ .

وعلى ذلك الأساس تقبلوا الدين الإسلامي حكماً وشعوباً ، فالشعب تمسك به كونه دين للتسامح والمحبة والحضارة ، والحاكم قبل به وتمسك به كونه دين التجمع والوحدة وهو ما كان يدعو له الأفارقة فبدلاً من وحدة القبيلة أو المدينة أصبحت الوحدة عامة شاملة لكل المنضويين تحت راية الإسلام في أمة إسلامية واحدة⁽⁶⁾ ، والإسلام لم يأتي إلى أفريقيا لينهي دور حكامها ويستبدلهم بحكام مستوردين للمنطقة من خارجها ، بل على العكس أبقى على أولئك الحكام وتعامل معهم وفق مبدأ التسامح والذي انعكس ايجابياً على طريقة تعاملهم مع رعاياهم من المسلمين وهو ما يُشاهد جلياً في مملكة غانة الإسلامية التي قسمت عاصمتها إلى قسمين الأول للملك ولرعيته ، والقسم الثاني لشعبه الذي يشكل المسلمين نسبة كبيرة منه⁽⁷⁾ .

لقد احتاج التعايش بين الأفارقة وبين المواطنين الجُدد من المسلمين تعرف أحدهما على لغة الآخر ليتمكنوا من التفاهم فيما بينهما لاسيما في منطقة تكاد تصل لغاتها ولهجاتها المحلية إلى حوالي الثمانمائة مقابل لغة واحدة وافدة هي اللغة العربية ، فضلاً عن أن تلك اللغات ولهجات تُعد مكتسباً أساسياً لدى الأفارقة لا يمكن الاستغناء عنه ، إلا أن حكمة الإسلام ورجاله جعلت من اللغة العربية بكاملها أو ببعض مفرداتها مقبولة لدى أولئك السكان ، ففي دولة مالي الإسلامية كان السكان يشجعون أبناءهم على حفظ القرآن الكريم وتعلم اللغة العربية ، وفي بعض الأحيان تقاضي الضرورة استخدام القيود التي يربطوا بها أقدام أبناءهم ليحفظوا القرآن الكريم⁽⁸⁾ .

فاللغة العربية وصلت إلى تلك المنطقة ودخلت في لغة البلاد الأم دون إلغاء تلك اللغة التي يعتز بها السكان الأصليين لا بل نتج عن ذلك التعامل سيادة حروف ومفردات اللغة العربية وبالتالي وصول اللغة العربية ككل للمنطقة والتي أصبح الأفريقي المسلم بأشد الحاجة لها ليتمكن من قراءة القرآن الكريم ، فضلاً عن ذلك فإن تلك اللغة تمتاز بكونها واضحة ومنطقية ومرنة وسهلة من خلال قدرتها على الهيمنة على لغات عديدة ، كما تميزت بخاصية الاختصار التي جعلتها تعبر عن الكثير بالقليل⁽⁹⁾ ، وقد عبر عن مكانتها توماس أرنولد بقوله : ((لقد بلغت اللغة العربية حداً يفوق كل وصف من الغنى والجمال وإذا ما تعلم الأفريقيون هذه اللغة أصبحت لغة التخاطب وهي إلى ذلك لغة شريفة وقانون مكتوبة حلت محل نزوات شيخ القبيلة الاستبدادية وهذا تغير يعتبر في ذاته تقدماً هائلاً في الحضارة))⁽¹⁰⁾ .

وفي حوالي القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي أصبحت اللغة العربية لغة التخاطب في مدن غرب أفريقيا فيما كُتبت الدواوين والسجلات الرسمية ، كما أصبحت اللغة الرسمية في دولة السنغالي⁽¹¹⁾ ووردت المراسلات بين الملوك السودان وحكام مصر والمغرب باللغة العربية وهو يشير إلى انتشار اللغة العربية هناك دون إكراه بل برغبة سكان البلاد الأصليين⁽¹²⁾ ، وكان الخط السائد في السودان الغربي هو الخط المغربي فيقول المؤرخ القلقشندي عن دولة مالي : ((إن هذه المملكة الوزراء والقضاة والكتاب والدواوين ، وأن السلطان لا يكتب شيئاً في الغالب ، بل يكل كل أمر إلى صاحب وظيفته من هؤلاء فيفصله ، وكتابتهم على طريقة المغاربة))⁽¹³⁾ .

لقد تقبل الأفارقة ذلك التحول الطارئ والكبير في حياتهم لما لمسوه من المسلمين من حسن أخلاق ومعاملة ، فالإسلام لم يكن في يوم ما ليفرق بين أبيض أو أسود ولا بين عربي وغير عربي تأكيداً لقوله تعالى بسم الله الرحمن الرحيم ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)) صدق الله العظيم⁽¹⁴⁾ ، فتعامل الإسلام مع الناس ومنهم الأفارقة السود على هذا الأساس الذي جعله يتقدم في أفريقيا بسبب القضاء على كل إحساس باحتقار الأسود أو معاملته على أنه من طبقة منحطة كما كان عليه الحال في المسيحية⁽¹⁵⁾ .

كما أننا إذا ما قارنا عملية التحول والتغيير الحضاري في أفريقيا حينما وصلها الإسلام وبين التحول الذي حصل على يد البرتغاليين وغيرهم من المستعمرين حينما وصلوا القارة

الأفريقية ، فالمسلم الداعي لدينه في أفريقيا نجح نجاحاً كبيراً إذا ما قورن بالإرساليات المسيحية هناك ، فالأسود المنتصر يميل للإحساس بأن أبناء دينه من الأوربيين ينتمون إلى لون من الحضارة لا يلائم طباعته في الحياة ، في حين يشعر في المجتمع الإسلامي بأنه أكثر تعلقاً به واطمئناناً إليه ، فال مواطن النيجيري مثلاً مُقتنع بأن دخوله في الإسلام لا يحتاج منه أن يفقد قوميته ، ولا يستلزم تغييرات انقلابية في الحياة الاجتماعية ، وهو لا يقوض نفوذ الأسرة أو سلطة الجماعة ، ولا توجد هوة بين الداعي للإسلام والمتحول إليه فكلهما أمام الله واحد ، ولا يعني الدخول في الإسلام ترك شؤون الأسرة والحياة الاجتماعية أو عدم احترام حكام البلاد الأصليين وإنما بالإسلام وحضارته ينتقل الإنسان إلى منزلة أرقى وفكرة أسمى تحرره من الأوهام والخرافات⁽¹⁶⁾ .

لقد أدى اعتناق الأفارقة للإسلام إلى إعطاء الحضارة الأفريقية طابع إسلامي كبير صُبغت بها الطقوس الحياتية الأساسية التي يتميز بها مجرى حياة الفرد من ولادته وحتى مماته ، فقد تركت الشريعة الإسلامية أثرها الكبير على حياة الأسرة الأفريقية من حيث عادات الزواج والإرث ودفع الدية وغيرها ، مع الحفاظ على المكتسبات الأصلية للحضارة الأفريقية في ذلك المجال ، إذ عُدلت بعض التشريعات في ضوء النظم الاجتماعية التي كانت سائدة في مجتمع الساحل الشرقي لأفريقيا قبل انتشار الإسلام ، فقد طبقت الشريعة الإسلامية في أمور الأثر مثلاً ولكن بما لا يتعارض مع ما كان سائداً في مجتمع الساحل من أنماط تقليدية تتعلق بحقوق الملكية⁽¹⁷⁾ .

لقد أعتبر الأفارقة عملية التحول والتغيير الحضاري في بلادهم بمثابة نصر لهم ، فقد ضمت في ثناياها الكثير من الفوائد وعلى كافة الأصعدة ، فهي عملية تحول من الانعزال والوحشية والتعري إلى الوحدة والتقدم والانفتاح على الآخرين والنظافة ولبس الملابس المحتشمة ، فهم بدلاً من أن يكونوا ضمن إطار القبيلة الواحدة التي تدخل في حروب مستمرة مع القبائل الأخرى أصبحوا أعضاء ضمن الأمة الإسلامية الواسعة الأجزاء ، كما أن حكامهم وملوكهم بدلاً من أن يحكموا بلدان معزولة ويطيعهم الناس ضمن إطار الخوف والتبجيل الزائف ، أصبحت طاعتهم واجبة من قبل جميع الرعية وفق تعليمات إلهية بطاعة أولي الأمر⁽¹⁸⁾ .

وحينما نتابع عملية التحول الحضاري تلك نلاحظ أن الإسلام سمح للسكان الأفارقة بالإبقاء على مكتسباتهم الحضارية القديمة التي لا تتعارض والشرع الإسلامي والتي زالت فيما

بعد بمرور الزمن ، ومنها قيامهم في شرق أفريقيا باختبار الملك الجديد وقياس مدى عدله بين الناس ، فإذا ما أخطأ وأرتكب جرائم بحق شعبه فأن القتل سيكون مصيره كونه ممثلاً لله على الأرض ، بل كان يُلقب بـ (وقليبي) وتعني (أبن الرب الكبير) ، كما أن أولاده سوف يمنعون من تقلد الحكم في البلاد⁽¹⁹⁾ . ويبدو إن الإسلام في تلك الحالة تعامل بحذر وبالتدرج من خلال إقناع الأفارقة أن الملك هو بشر وليس ابن لله لأن ذلك يتعارض مع الشرع ، وأبقى على طريقة اختيار الملك ومعاقبته إذا أصبح ظالماً بسبب عدم مساسها بالشرع .

ولشدة قناعة الأفارقة بأن المسلمين هم سبب دخول الحضارة إليهم ، وأن للعرب كونهم من أوائل الواصلين إلى أفريقيا الفضل الأكبر في ذلك التحضر فقد أطلقوا على الإنسان المتحضر اسم (staaribika) أي استعرب ، وسموا الحضارة في لغتهم (UStaarabu) أي استعرب واللفظ مشتق من استعرب أي أصبح عربياً أو كما يعنونه هم أصبح متحضراً⁽²⁰⁾ .

فالأفريقي الأسود يصبح مساوياً للمسلمين الآخرين حال دخوله في الإسلام ، فلا يحول دون ذلك لونه أو جنسه ، والترحيب الذين كان يلقيه الوثنيون الأفارقة حال دخولهم بالإسلام هو الذي كان يجعلهم يتمسكون به ويشجعهم على الانضمام إلى مجتمع متحضر يتطلب منهم التخلي عن كثير من عاداتهم وتقاليدهم البربرية إذا صح التعبير ، إذ أن مجرد الدخول في الإسلام يدل ضمناً الترقى في الحضارة وخطوة جديده لتقدم القبيلة النزجية عقلياً ، فقوى التحضر والخير كانت لا تجد صعوبة في القضاء تدريجياً على ما كان يكتسبه الأفريقي من عادات وتقاليدهم وثنية ، إذ أن أقبح الرذائل وهي (أكل لحوم البشر ، وتقديم الإنسان كقربان ، وواد البنات وهن أحياء) كل ذلك اختفى وإلى الأبد بدخول الأفارقة في الإسلام⁽²¹⁾ .

وفي باب التعامل مع مكتسبات الحضارة الأفريقية القديمة والقضاء على الوثني منها بشكل تدريجي من خلال إقناع الداخلين الجدد في الإسلام بعدم فائدة تلك العادات والتقاليد ، فقد أبقى الإسلام على عادة الترتيب لدى الأفارقة حتى اقتنعوا أنفسهم بتركها ، وهي العادة التي يعمل من خلالها المواطن الأفريقي بوضع التراب على رأسه إذا ما امتدحه الملك أو السلطان والتي استمر عليها البعض حتى وقت متأخر⁽²²⁾ ، إلا أن دعوة الإسلام للنظافة والتطهر دفعت الكثير من الأفارقة حكماً ومحكومين لنبتذ تلك العادة وتركها⁽²³⁾ .

إلا أن أهم تحول طرأ على الحضارة الأفريقية بعد انتشار الإسلام في المنطقة يتمثل في القضاء على العصبية القبلية التي كانت سائدة والتي بُني المجتمع الأفريقي عليها من خلال عد رئيس القبيلة الممثل الوحيد لأبناء القبيلة أمام أرواح الأسلاف أو أمام الآلهة الأخرى ، فضلاً

عن ذلك فإن العديد من المعارك قد جرت قبل إسلام الأفرقة بين أبناء القرى المتجاورة والتي كان يسقط فيها عدد كبير من القتلى من الجانبين فضلاً عن أعداد أخرى تُحول إلى رقيق يحصل عليها المنتصر في تلك المعارك⁽²⁴⁾. ويبدو أن تلك العصبية القبلية قُضي عليها وتحولت إلى تعاون ومحبة وارتباط كامل بالأمة الإسلامية التي تحتضن الجميع وتجعل من التقوى المقياس الحقيقي للتميز.

إن ذلك التحول الطارئ في الحضارة الأفريقية أتى أكله بمرور الزمن ولاسيما حينما تكونت ممالك ودول إسلامية في المنطقة حاولت تقليد كل مفاصل الحضارة الإسلامية في المشرق والمغرب ، فنلاحظ الحاكم أو الملك في تلك الممالك يتخذ له أسماً ولقباً مشابهاً لأسماء وألقاب الخلفاء الراشدين كاسم أبو بكر في إشارة إلى سيدنا أبو بكر الصديق ﷺ ، أخر تسمى بالهادي العثماني تيمناً بسيدنا عثمان بن عفان ﷺ ، آخرين أدعو النسب لقائد عربي شجاع وهو سيف بن ذي يزن ، أما أهل مملكة غانة فقد سموا عاصمة دولتهم بمدينة (صالح) وقالوا أن ذلك الرجل من نسل سيدنا الحسن بن علي ﷺ⁽²⁵⁾.

كما عمل أولئك الحكام على لبس العمامة وهي إشارة لتقليد الخلفاء العباسيين في بغداد ، وصبغوا مجالسهم بصبغة أولئك الخلفاء من خلال زيادة أعداد الحرس والعبيد والجواري ، وتقريب كل ذي علم ومعرفة قادم من بلاد المسلمين الأخرى ، فضلاً عن بناء قصورهم بشكل يشابه أو يتغلب على الطراز المعماري المغربي أو الأندلسي أو المصري من خلال جلب بنائين ومهندسين إلى أفريقيا ليعملوا على تنفيذ ما يطلبه ذلك السلطان⁽²⁶⁾.

وعمل حكام أفريقيا على إفهام الآخرين بأن أفريقيا تمتلك من الأموال ما يجعلها في مصاف الدول الغنية والمعروفة في تلك الفترة ، وأن الحضارة الإسلامية قد وصلتها وأنت أكلها وهو ما أراد السلطان (موسى بن أبي بكر 712-737هـ/1312-1337م) أن يظهره للسلطان المصري (محمد بن قلاوون) خلال رحلة الأول للحج سنة (724هـ/1324م) لاسيما حينما جلب معه آلاف من العبيد والجواري ودعا كل من يريد الحج من قومه للذهاب معه ، كما أخذ معه كميات كبيرة من الذهب ليمنعها هدية للسلطان المصري ، أو يوزعها على كل من صادفه في طريقه من غني أو فقير ، واشترى بالكمية الباقية ما يحتاجه⁽²⁷⁾.

ولم يقتصر الأمر على ذلك بل شمل إفهام العالم الإسلامي أن الإسلام وحضارته قد وصلا إلى أفريقيا وأن السكان متمسكين بهما كثيراً ، فقد رفض سلطان دولة مالي (موسى بن أبي بكر التكروري) الانحناء أو السجود للسلطان (محمد بن قلاوون) عندما مر بمصر خلال

رحلته لأداء فريضة الحج ، قائلاً : (أنا مُسلم ومالكي المذهب فلا اسجد لغير الله تعالى) ، وقد قدر السلطان (قلاوون) الأمر وقابله وأكرمه مانحاً إياه الكثير من الهدايا والتي ضمت قصراً كبيراً في مصر لذلك السلطان المالي ، كما أن السلطان موسى عمل على جلب عدد كبير من كتب المالكية من الحجاز إلى بلاده ليفقه شعبه بذلك المذهب الذي وصلهم من بلاد المغرب الإسلامي⁽²⁸⁾.

وكان السلطان موسى وخليفته أخيه السلطان (سليمان بن أبي بكر التكروري 742-762هـ/1341-1360م) من أشد حكام أفريقيا في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي تمسكاً بالعدل والصلاح ، إذ يبدو أن مبدأ العدل من المبادئ الاجتماعية الموروثة في المجتمع الأفريقي وهي من مكتسباتهم التي حافظوا عليها ودعموها بتعاليم الإسلام ، وحينما ظلم حاكم إحدى مُدن دولة مالي الإسلامية تاجراً من بربر قبيلة مسوفة عمل السلطان (سليمان) على عزل ذلك الحاكم ومعاقبته ، كما جمع وزرائه وقادة جيشه وحاشيته ونوابه على الأقاليم وقال لهم : ((إني بريء من الظلم ، ومن ظلم منكم عاقبته ، ومن علم بظالم ولم يعلمني به فذنوب ذلك الظالم في عنقه والله حسيبه وسائله))⁽²⁹⁾.

وربما يكون لعامل الأمن والأمان الذي حظيت به أفريقيا في تلك الفترة مؤشراً حقيقياً للتقدم الحضاري الذي قد نكون نفتقده حتى في يومنا هذا ، ويشير الرحالة ابن بطوطة إلى ذلك الأمان خلال رحلته من إحدى المدن إلى العاصمة قائلاً : ((لما عزمنا على السفر إلى مالي) العاصمة وبينها وبين ايوالان (مدينة تقع قريباً من حدود الصحراء الكبرى الشمالية) مسيرة أربع وعشرين يوماً للمُجد (أي للمُسرع) ، أكثرت دليلاً من مسوفة ، إذ لا حاجة إلى السفر في رفقة لأمن تلك الطريق ، وخرجت في ثلاثة من أصحابي))⁽³⁰⁾.

إن الأمر الذي سهل عملية التحول الحضاري في أفريقيا يتمثل في مجموع الميزات التي حملتها الحضارة الإسلامية التي وصلت بشكل سريع ومفاجئ إلى المنطقة وتقبلها السكان ، فالداعية إلى الإسلام بين القبائل الوثنية على ثقة في الاستجابة السريعة له ، فهو يستطيع أن يمنحهم حقائق كثيرة تتعلق بالله والإنسان تصل إلى قلوبهم وتنبي إدراكهم وتمنحهم ترخيصاً بالدخول في وحدة اجتماعية وسياسية كبيرة تعطيه الحماية والمساعدة في تسيير حياته ، ويصبح ذلك الأفريقي الأسود أخاً للمسلم الذي دعاه للإسلام مهما كان لون بشرته سوداء أم بيضاء وهو ما استطاع الإسلام أن ينجح فيه في أفريقيا ، على عكس الداعين للمسيحية هناك والمعتبرين أن المسيحي الأبيض هو السيد والمسيحي الأسود العبد وهو سبب فشلهم هناك⁽³¹⁾.

ويبدو من خلال ما تقدم أن مكتسبات الحضارة الأفريقية ولاسيما الهوية واللغة كانت باقية مع التحول الذي حصل حينما دخل الإسلام وحضارته إلى أفريقيا ، وأن المسلمين قد تعاملوا مع اعتزاز الأفارقة بهويتهم ولغتهم بشكل إيجابي شجع الأفارقة على دخول الإسلام والاندماج في الحضارة الإسلامية ، وهو عكس ما حصل حينما حصل تغير حضاري آخر في القارة لاسيما مع وصول البرتغاليين ومن ثم الانكليز والفرنسيين وغيرهم ومحاولتهم طمس تاريخ وحضارة أفريقيا ، ومحاوله القضاء على كل ما يصل المنطقة بتاريخ وحضارة العرب المسلمين من خلال ربط أفريقيا بالغرب المسيحي هويةً وتاريخاً وحضارة ، ومن ثم القضاء على اللغة العربية هناك من خلال الترغيب باللغات المحلية الأفريقية وبالتالي القضاء عليها أيضاً ليحل بدلاً عنها اللغة الانكليزية والفرنسية وهو ما عانت وتعاني منه تلك المنطقة⁽³²⁾.

الخاتمة:

في ختام هذه الدراسة لابد من بيان بعض النتائج التي توصلت إليها والمتمثلة في :

- 1- امتلك الأفارقة قبل وصل الإسلام إليهم مقومات بسيطة للحضارة إلا أن المؤرخين والجغرافيين المسلمين لم يأخذوها بنظر الاعتبار لان الحضارة في نظرهم لا تقوم إلا بقيام الدول وهو ما كانت تفتقد إليه المنطقة .
- 2- بوصول الإسلام إلى المنطقة بدأت مرحلة جديدة في تاريخ أفريقيا تمثلت بصقل وتطوير الحضارة الأفريقية .
- 3- لم تكن عملية التغيير الحضاري في أفريقيا صعبة القبول من قبل الأفارقة ومرفوضة بل على العكس كان مُرحب بها بشكل كبير .
- 4- أن عملية التحول الحضاري الطارئ الذي حصل في أفريقيا مع دخول الإسلام حول المنطقة إلى جزء لا يتجزأ من العالم الإسلامي وحضارته .
- 5- لم تعمل الحضارة الإسلامية على القضاء على مكتسبات الأفارقة الحضارية وفي مقدمتها الهوية ، فقد اعتر الإسلام بجميع المنضوبين تحت رايته عرباً وفرساً وتركاً وأفارقة وهنود وغيرهم ولم يحاول طمس هوياتهم .
- 6- فضلاً عن ذلك فإن الحضارة الإسلامية لم تعمل على القضاء على اللغة الأفريقية الأم أو اللغات واللهجات المحلية الأخرى واعتزت بها .

7- انتشرت مقومات الحضارة الإسلامية بين الأفارقة دون إكراه ، فالأفريقي شعر أن الهوية الإسلامية أوسع وأعظم من الهوية القومية فتمسك بها ، كما أنه شعر أنه بحاجة للغة العربية ليفهم بها القرآن الكريم وسنة الرسول محمد ﷺ فتعلمها وحافظ عليها ، فضلاً عن أنه أحس برغبة في تمثل مفردات الحضارة الإسلامية لما فيها من انتقال مباشر نحو الرُّقي فأصبحت ملابسه محتشمة ونظيفة وفاخرة ، وأصبحت النظافة عنوان حياته ، كما أن داره الطيني أو المصنوع من الحجر البسيط تحول إلى دار مبني وفق طُرز معمارية حديثة وهكذا .

الهوامش والإحالات

- ¹ () دريد عبد القادر نوري ، تاريخ الإسلام في أفريقيا من القرن 4-10هـ/10-16م ، (الموصل:1985) ، ص124 .
- ² () عبد السميع المصري ، التجارة في الإسلام ، (القاهرة:1976) ، ص14 .
- ³ () إسماعيل العربي ، مسالك الإسلام والعربية إلى الصحراء الكبرى ، مقال منشور في مجلة الثقافة الصادرة في الجزائر ، سنة 1981 ، العدد (62) ، ص42 .
- ⁴ () أبي عبيد البكري ، المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب وهو جزء من كتاب المسالك والممالك ، (الجزائر:1857) ، ص175 .
- ⁵ () مخايل مسعود و ساجيع الجبيلة ، الحضارات الصراع والحوار ، المؤسسة الحديثة للكتاب ، بيروت:2009) ، ص27 .
- ⁶ () نوري ، تاريخ ، ص124 .

- (7) محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي المعروف بابن بطوطة ، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، اعتنى به وراجعه : درويش الجويدي ، المكتبة العصرية ، (بيروت:2007) ، ج2 ، ص282 .
- (8) شاخت وبوزورت ، تراث الإسلام ، ترجمة : محمد زهير السمهوري ، (الكويت:1978) ، القسم الأول ، ص162 .
- (9) نوري ، انتشار اللغة العربية في أفريقيا جنوب الصحراء خلال القرون 4-8هـ/10-16م ، بحث منشور في مجلة آداب الرفادين ، العدد الثلاثون ، ص94 .
- (10) توماس آرنولد ، الدعوة إلى الإسلام بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلامية ، ترجمه إلى العربية وعلق عليه : حسن إبراهيم حسن وآخرون ، ط3 ، (القاهرة:1970) ، ص398 .
- (11) السنغاي : وهي إحدى الدول الإسلامية التي قامت في السودان الغربي ابتداءً من القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي وتمكنت من أن تقيم دولة واسعة على طرفي نهر النيجر متخذة من مدينة غاو عاصمة لها . ينظر : نوري ، تاريخ الإسلام ، ص155 .
- (12) أحمد بن علي القلقشندي ، صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، تحقيق : نبيل خالد الخطيب ، دار الكتب العلمية ، ط1 ، (بيروت:1987) ، ج5 ، ص269 .
- (13) القلقشندي ، صبح الأعشى : 298/5 .
- (14) سورة الحجرات ، آية 13 .
- (15) آرنولد ، الدعوة ، ص394 .
- (16) آرنولد ، المرجع نفسه ، ص395 .
- (17) شاخت وبوزورت ، تراث الإسلام ، ص163 ؛ خولة شاكر محمد الدجيلي ، العلاقات العربية الإسلامية مع الساحل الشرقي الأفريقي حتى القرن التاسع الهجري ، أطروحة دكتوراه غير منشورة ، (جامعة بغداد: 1980) ، ص206 .
- (18) أحمد سوسة ، الشريف الادريسي في الجغرافيا العربية ، الباب الأول ، 1974 ، ص106 .
- (19) أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، دار الأندلس للطباعة والنشر ، (بيروت:1966) ، ج2 ، ص16-17 .
- (20) داؤد سلوم ، الألفاظ المستعارة من العربية في اللغة السواحلية ، بحث منشور في مجلة كلية الآداب بغداد ، العدد 19 ، 1976 ، ص1 .
- (21) آرنولد ، الدعوة إلى الإسلام ، ص396-397 .
- (22) البكري ، المغرب ، ص176 .
- (23) أحمد عطار ، إنسانية الإسلام ، (بيروت:1386هـ) ، ص64 .
- (24) فوزية يونس فتاح ، التأثيرات الحضارية العربية الإسلامية على السودان الغربي بين القرنين 4-8هـ/10-14م ، أطروحة دكتوراه غير منشورة ، (جامعة الموصل:1994) ، ص213 .

- (25) البكري ، المغرب ، ص 175-176 ؛ أحمد الشكري ، الإسلام والمجتمع السوداني إمبراطورية مالي 1250-1430 م ، المُجمع الثقافي ، (أبو ظبي:1999) ، ص 114 .
- (26) طرخان ، دولة مالي الإسلامية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، (القاهرة:1973) ، ص 154 .
- (27) عبد الرحمن بن محمد بن خلدون ، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أخبار العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، (بيروت:1956) ، ج 5 ، ص 932 ؛ أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري ، مسالك الإبطار في ممالك الأمصار (من الباب الثامن إلى الباب الرابع عشر) ، تحقيق وتعليق : مصطفى أبو ضيف أحمد ، ط 1 ، (الرباط:1988) ، ص 67 .
- (28) أحمد بن علي المقرئ ، الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك ، تحقيق : جمال الدين الشيال ، (القاهرة:1955) ، ص 28 .
- (29) ابن بطوطة ، تحفة النظار ، ج 2 ، ص 280 .
- (30) ابن بطوطة ، المصدر نفسه ، ج 2 ، ص 272 .
- (31) آرنولد ، الدعوة إلى الإسلام ، 393-394 .
- (32) جمال زكريا قاسم ، الروابط العربية الأفريقية قبل حركة الكشوف الجغرافية وبدء حركة الاستعمار الأوربي في القرن الخامس عشر ، بحث في كتاب العلاقات العربية الأفريقية دراسة تاريخية للأثار السلبية للاستعمار ، دار غريب للطباعة ، (القاهرة:1977) ، ص 47 .

قائمة المصادر والمراجع :

أولاً: المصادر الأولية :

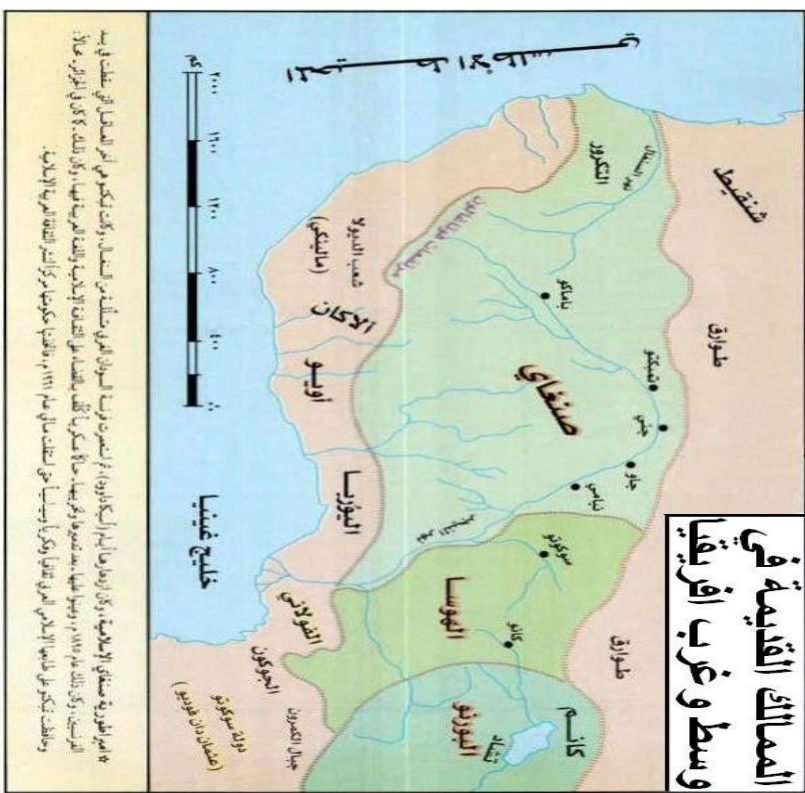
- ابن بطوطة ، محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي .
- 1- تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، اعتنى به وراجعته : درويش الجويدي ، المكتبة العصرية ، (بيروت:2007)
- البكري ، أبو عبيد
- 2- المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب وهو جزء من كتاب المسالك والممالك ، (الجزائر:1857) ، ص 175 .
- ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد .
- 3- العبر وديوان المبتدأ والخبر في أخبار العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، (بيروت:1956) .
- العمري ، أحمد بن يحيى بن فضل الله .
- 4- مسالك الإبطار في ممالك الأمصار (من الباب الثامن إلى الباب الرابع عشر) ، تحقيق وتعليق : مصطفى أبو ضيف أحمد ، ط 1 ، (الرباط:1988) .
- القلقشندي ، أحمد بن علي .

- 5- صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، تحقيق : نبيل خالد الخطيب ، دار الكتب العلمية ، ط1 ، (بيروت:1987).
- المسعودي ، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي .
- 6- مروج الذهب ومعادن الجوهر ، دار الأندلس للطباعة والنشر ، (بيروت:1966).
- المقريزي ، أحمد بن علي .
- 7-الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك ، تحقيق : جمال الدين الشيال ، (القاهرة:1955).
- ثانياً : المراجع العربية والمعربة :**
- آرنولد ، توماس .
- 1-الدعوة إلى الإسلام بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلامية ، ترجمه إلى العربية وعلق عليه : حسن إبراهيم حسن وآخرون ، ط3 ، (القاهرة:1970)
- بوزورت ، شاخت .
- 2-تراث الإسلام ، ترجمة : محمد زهير السمهوري ، (الكويت:1978).
- سوسة ، أحمد .
- 3- الشريف الادريسي في الجغرافيا العربية ، الباب الأول ، 1974 .
- الشكري ، أحمد .
- 4-الإسلام والمجتمع السوداني إمبراطورية مالي 1250-1430م ، المُجمع النقافي ، (أبو ظبي:1999).
- طرخان ، إبراهيم علي .
- 5-دولة مالي الإسلامية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، (القاهرة:1973).
- عطار ، أحمد .
- 6- إنسانية الإسلام ، (بيروت:1386هـ)
- المصري ، عبد السميع
- 7-التجارة في الإسلام ، (القاهرة:1976).
- مسعود ، مخايل و ساجيع الجبيلة .
- 8-الحضارات الصراع والحوار ، المؤسسة الحديثة للكتاب ، (بيروت:2009)
- نوري ، دريد عبد القادر
- 9- تاريخ الإسلام في أفريقيا من القرن 4-10هـ/10-16م ، (الموصل:1985).
- ثالثاً : البحوث والدوريات :**
- سلوم ، داؤد .
- 1-الألفاظ المستعارة من العربية في اللغة السواحلية ، بحث منشور في مجلة كلية الآداب بغداد ، العدد 19 ، 1976 .
- العربي ، إسماعيل

- 2- مسالك الإسلام والعربية إلى الصحراء الكبرى ، مقال منشور في مجلة الثقافة الصادرة في الجزائر ، سنة 1981 ، العدد (62) .
- قاسم ، جمال زكريا .
- 3- الروابط العربية الأفريقية قبل حركة الكشوف الجغرافية وبدء حركة الاستعمار الأوربي في القرن الخامس عشر ، بحث في كتاب العلاقات العربية الأفريقية دراسة تاريخية للأثار السلبية للاستعمار ، دار غريب للطباعة ، (القاهرة:1977) .
- نوري ، دريد عبد القادر .
- 4- انتشار اللغة العربية في أفريقيا جنوب الصحراء خلال القرون 4-8هـ/10-16م ، بحث منشور في مجلة آداب الرافدين ، العدد الثلاثون .

رابعاً: الرسائل الجامعية :

- الدجيلي ، خولة شاكر محمد .
- 1- العلاقات العربية الإسلامية مع الساحل الشرقي الأفريقي حتى القرن التاسع الهجري ، أطروحة دكتوراه غير منشورة ، (جامعة بغداد:1980)
- فتاح ، فوزية يونس .
- 2- التأثيرات الحضارية العربية الإسلامية على السودان الغربي بين القرنين 4-8هـ/10-14م ، أطروحة دكتوراه غير منشورة ، (جامعة الموصل:1994) .



خارطة رقم 1

الكاتب: د. عبد الرحيم قصبواوي
 دكتوراه في الجغرافيا - كلية الآداب والعلوم الإنسانية، القنيطرة، المغرب
 عنوان المقال: التحولات المجالية الفلاحية بالمغرب من التغلغل الاستعماري إلى أواخر القرن العشرين. ساحل منطقة الغرب نموذجا

البريد الإلكتروني: abderrahimgeographie@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2019/08/24 تاريخ القبول: 2019/12/15 تاريخ النشر: 2020/03/31
 التحولات المجالية الفلاحية بالمغرب من التغلغل الاستعماري إلى أواخر القرن العشرين.
 ساحل منطقة الغرب نموذجا

The spatial mutations of agriculture in Morocco from colonial penetration to the late twentieth century: The coastal area of Gharb as a case study

الملخص بالعربية:

تهدف هذه الدراسة إلى تحديد مظاهر التحولات المجالية بساحل منطقة الغرب والعوامل المساعدة على حدوث دينامية مجالية، بدءا من دخول المستعمر الأجنبي حتى نهاية القرن العشرين. خاصة ما يرتبط بالنشاط الفلاحي الذي يشكل ركيزة أساسية في الاقتصاد المحلي بهذا المجال. فقد عرف عدة تغيرات مرتبطة بأساليب الاستغلال وانتشار الزراعة العصرية، مما ساهم في تحسين مستوى عيش السكان والرفع من مداخيلهم. تم الاعتماد في معالجة هذا الموضوع على منهجية محكمة، تنبني على رصد مسار التحول المجالي بساحل منطقة الغرب خلال الفترة المدروسة، من حيث المظاهر وانعكاساتها على اقتصاد السكان.

كلمات مفتاحية: التحولات المجالية- ساحل الغرب- الزراعة- المستعمر الأجنبي- الاقتصاد.

Abstract :

The aim of this study is to identify the aspects of spatial mutations of the coastal area of Gharb as well as the factors that contribute to the emergence of the spatial dynamics, starting from the entry of the foreign colonizer until the end of the twentieth century, especially related to agricultural activity, which is considered as a main pillar in the local economic of this area. It has known

various changes associated with the methods of exploitation and the spread of modern agriculture, which contributed to improve the standard of living of the population and raise their incomes.

This subject is relied on a rigorous methodology, based on monitoring the spatial mutation of the coastal area of Gharb during the studied period in terms of its manifestations and its impact on the population economy.

Key words: Spatial mutations, coastal of Gharb, farming, foreign colonizer, economy.

مقدمة:

اعتمد سكان المجال الساحلي لمنطقة الغرب بالمغرب، لوقت طويل على الرعي كمصدر لاقتصادهم، مع بعض الزراعات المعاشية –البورية- التي يرتبط نموها بالتساقطات المطرية. لكن ومع إدخال مزروعات عصرية أصبح الاعتماد على السقي، خاصة من طرف المعمرين. بعد ذلك بدأت الحاجة إلى الماء، خصوصا عند تجفيف المراتج وكسب مساحات فلاحية جديدة صالحة لمزاولة الزراعة. وهنا ظهرت بوادر التحول المجالي، خصوصا على مستوى المجال الفلاحي، من خلال البنيات العقارية والتهافت على كسب الأراضي وحجم الاستغلالية الفلاحية وما لحقتها من تحولات.

سنحاول في هذا المقال الوقوف على مظاهر التحولات التي عرفها المجال الساحلي لمنطقة الغرب، خاصة تلك المرتبطة بالنشاط الفلاحي ومدى مساهمة الموارد الطبيعية، خاصة المياه في خلق نوع من التحول المجالي والوثيرة التي ميزت هذا التحول من دخول المستعمر الأجنبي حتى أواخر القرن العشرين.

تتمحور إشكالية هذه الدراسة حول معالجة مظاهر التحولات المجالية الفلاحية التي عرفتها منطقة البحث، ومدى مساهمة المستعمر ووفرة المؤهلات الطبيعية وأهميتها في حدوث هذه الدينامية وانعكاساتها على حياة السكان.

ولتوضيح هذه الإشكالية حاولنا صياغتها على شكل تساؤلات كما يلي:

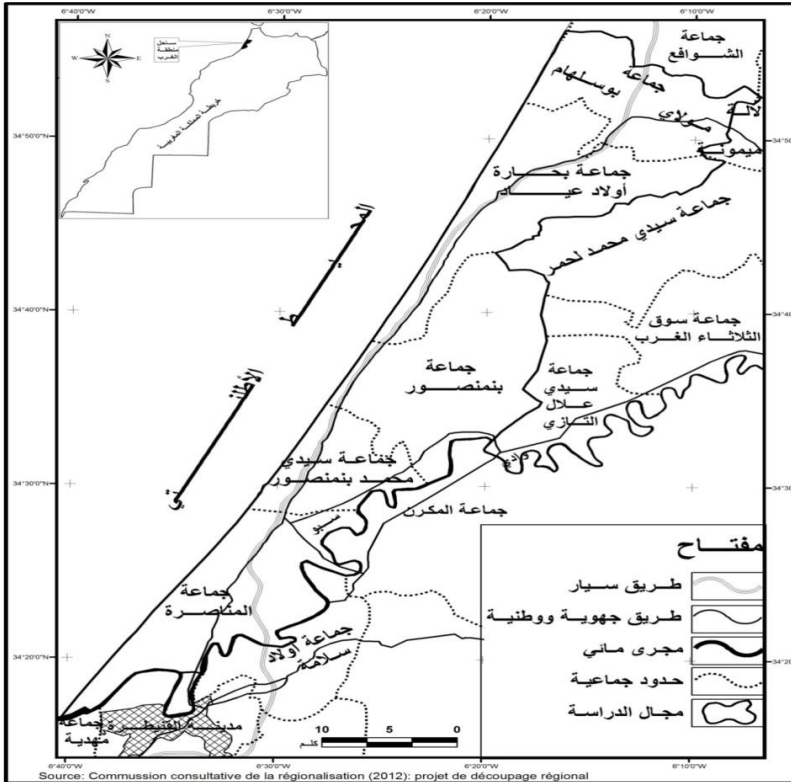
- أين تتجلى عوامل ضعف استغلال المجال الساحلي للغرب قبل دخول المستعمر؟
- ما هي دوافع وأشكال التدخل في المجال وبداية استغلاله، لاسيما في مزاولة الزراعة؟

-كيف ساهمت الخصوصيات الطبيعية وخاصة الماء في التحولات المجالية الفلاحية؟ على المستوى المنهجي، تم الاشتغال على المنهج التاريخي باعتباره دعامة أساسية في رصد مسار التحولات، وتغير المشهد الجغرافي بساحل الغرب على طول الفترة التاريخية المدروسة. ثم المنهج الإحصائي بهدف دراسة نتائج التحولات المرتبطة بكسب أراض بعد استصلاحها وأهمية التطور الكمي للمزروعات من خلال نتائج الاحصاء الفلاحي العام لسنة 1996.

1- دور الموقع الجغرافي لساحل الغرب في التحولات المجالية الفلاحية

يشكل المجال الساحلي للغرب الجزء الغربي على طول سهل الغرب، حيث يطل على

المحيط الأطلسي.



شكل 1: الموقع الجغرافي لمجال الدراسة

ساهم هذا الموقع بشكل كبير في استقرار السكان وزيادة الاستثمارات الوطنية والأجنبية، لما يزرخ به من موارد طبيعية ومناخية مهمة، تشكل مؤهلات رئيسية في النشاط الفلاحي، فضلا عن توفر شبكة طرقية تربط المجالات الريفية بالمدن المجاورة والمراكز الصاعدة بمنطقة الغرب. فهذه العوامل المرتبطة بالموقع كانت لها مساهمة كبيرة في مختلف التحولات التي عرفها ساحل الغرب.

2- من التغلغل الاستعماري إلى استقلال المغرب وبداية الضغط على الموارد الطبيعية

تميزت منطقة الغرب بضعف استغلال مجالها، قبل أن يتدخل المستعمر ويغير من طبيعة الاستغلال، وذلك لعدة إكراهات حدثت من التدخل البشري، لكن دخول الاستعمار أدى إلى إحداث تغيرات ارتبطت بممارسة الفلاحة واستقرار السكان. وقد ازداد التدخل في تنظيم المجال وتحسين أساليب استغلال موارده بعد حصول المغرب على الاستقلال، حيث تمكن من القيام باستراتيجيات عديدة تجاه النهوض بالقطاع الفلاحي، خاصة على مستوى المجالات السهلية؛ مثل سهل الغرب لما يزرخ به من مؤهلات طبيعية.

2-1- أسباب ضعف استغلال المجال قبل المعمر الأجنبي

عُرفت منطقة الغرب قبل دخول المعمر بمجال الضايات والمرجات التي كانت تغطي مجالات شاسعة، وتشكل إكراها طبيعيا أمام استغلال هذا المجال. وقد لعبت هذه الأماكن دورا هاما في ضعف الاستيطان البشري؛ فقد كان استقرار السكان على الضفاف المرتفعة بجانب الأودية، حيث كانت تشكل المناطق المنخفضة، عامل طرد لهم، نظرا لخطورة تجمع المياه ومختلف النتائج التي تنجم عنها، كالأضرار المرتبطة بالمياه الراكدة ثم طرد الأنشطة الاقتصادية بهذا المجال، وبالتالي كثافة سكانية ضعيفة جدا. وقد زاد من حدة الوضع ظهور بعض الأمراض المرتبطة بالمسطحات المائية، مثل حمى المستنقعات التي كانت تصيب المناطق المجاورة للمرجات ومجالات ركود المياه⁽¹⁾. فمنطقة الغرب كانت آنذاك من أهم مناطق المغرب معاناة من الأوبئة والأمراض، نظرا لكثرة المجالات الرطبة، خصوصا المرجات الساحلية التي كانت شاسعة جدا، إضافة إلى انتشار المجاعة وضعف النمو الديمغرافي.

لم يتم استغلال الأرض، ما عدى بعض المجالات الصغيرة جدا، مع الاعتماد على وسائل إنتاج ضعيفة جدا -بدائية- أهمها المحراث الخشي والأدوات اليدوية: كالفأس وبعض أصناف الماشية، لاستعمالها في عملية الجر أثناء الحرث. وهنا تبقى المزروعات مرتبطة

برحمة الطبيعة، أي زراعة بورية تنتظر سقوط الأمطار، دون أي تفكير في عملية الري، وهذا ما جعل اقتصاد سكان الغرب، اقتصاد يُنتظر منه تغطية الحاجيات فقط.

2-2- دخول الاستعمار الأجنبي: استغلال الموارد وبداية تحول المجال

فرض الاستعمار الفرنسي نفسه بقوة بعد توقيع معاهدة الحماية مع المغرب سنة 1912، وتدخل بشكل فعلي في مختلف المناطق التي تشكل نفعاً على المستوى الاقتصادي، حيث هيمن على السهول المغربية، وكان سهل الغرب من النقط التي ركز عليها المعمر، فقد تدخل من خلال القيام بعدة إجراءات أولية لفرض سيطرته على المجال والتحكم في موارده؛ من خلال فتح شبكة من الطرق على شكل مثلث يربط بين القنيطرة، سيدي قاسم وسوق الأربعا الغرب، مد خطين للسكك الحديدية، وإنجاز عمليات ضخمة للتهيئة، غيرت معالم السهل بشكل كبير، ثم بدأ في الاستثمار الفلاحي.

2-2-1- أسس التدخل الاستعماري في منطقة الغرب

ركزت السياسة الاستعمارية في استغلالها للمجال على عدة أسس نذكر منها:

• كسب أراضي أجنبية

اعتمد المعمر الأجنبي على نهج خطة تديرية تهدف إلى الحصول على أراضٍ فلاحية لفائدتهم قصد استغلالها، خصوصاً بعد فرض الحماية على المغرب. وقد كانت الأراضي الموجودة على ضفتي نهر سبو، أكثر مجالات استهدفت بعملية الاستيلاء، نظراً لملاءمة مؤهلاتها الطبيعية وجودتها. فقد قام المعمر باقتطاع جزء مهم من الرصيد العقاري بالغرب، حيث تم الاستيلاء على مساحات شاسعة من الأراضي لصالحهم، إذ تمت السيطرة على حوالي مليون وعشرين ألف هكتار (1020000) من أخصب الأراضي المغربية⁽²⁾، منها 174336 هكتار بمنطقة الغرب⁽³⁾. وتتمركز الأراضي التي استول عليها المعمرين بالمجالات النافعة -الصالحة للزراعة- حيث أنهم اختاروا الأجزاء الغنية جداً بالسهل على المستوى الجيو-بيئي. إلى جانب المعمرين كان بعض المغاربة يملكون أراضٍ عديدة، تابعة للقبائل.

• استصلاح الأراضي وتهيئتها

عند اقتطاع سلطات الحماية للأراضي، قامت بوضع ترسانة قانونية تهتم بتحديدتها وتحفيظها⁽⁴⁾، ثم بدأت في استصلاحها قصد الاستغلال من خلال: تجفيف الممرجات، مد قنوات السقي وإدخال بعض المزروعات الجديدة، حيث بدأ تغير في المشهد الريفي.

- **تجفيف الممرجات:** ساهمت هذه العملية في كسب مساحات شاسعة كانت مليئة بالمياه، إضافة إلى القضاء نسبيا على مرض حصى المستنقعات وبعض الأمراض المعدية الأخرى، مما ساعد على زيادة عدد السكان وتوسيع استغلال المجال الفلاحي، وإقامة بنية تحتية مثل الطرق والقناطر⁽⁵⁾.

- **التجهيز الهيدرولوجي**

انطلقت عمليات تنظيم الري في منطقة الغرب خلال الحماية، وكان أول قطاع مسقي بطريقة عصرية، هي دائرة بهت، بمساحة تصل إلى 30000 هكتار، ولسقمها تم إنشاء سد القنصرة⁽⁶⁾ في الفترة الممتدة من 1927 إلى 1933 بطاقة تخزين، تصل إلى 314 مليون م³ وكانت بداية اشتغاله سنة 1936.

- **إدخال زراعات جديدة: أهمها زراعة الأرز والحوامض**

كانت منطقة الغرب المجال الوحيد المرخص لزراعة الأرز، حيث تم إدخالها سنة 1949 وتمت على مساحة 40 هكتارا⁽⁷⁾، ثم أخذت في التوسع إلى أن وصلت 7225 هـ سنة 1955، أغلبها في حوزة الأوربيين.

أدخل المعمر كذلك غراسة الحوامض لمنطقة الغرب التي لم يكن لها أثر قبل الاستعمار، إذ تم غرسه في بعض المناطق مثل سيدي سليمان ومشرع بلقصور. وقد عرف توسعا كبيرا منذ 1930، نظرا للتسهيلات التي أصبح بإمكان المستعمر الاستفادة منها؛ خاصة على مستوى التسويق.

- **2-2-2- توسيع المساحة المسقية وتحسين وسائل الإنتاج**

شكلت الأودية المنبع الرئيس لضخ مياه السقي خلال المرحلة الاستعمارية إلى جانب سد القنصرة، وكانت زراعة الأرز والخضروات أهم مسهمك للماء، أغلبها في وسط السهل، أما المجال الساحلي فكان ضعيفا من حيث المساحة المسقية.

جدول 1: أهم الزراعات المسقوية بمنطقة الغرب والساحل سنة 1958

نوع الزراعة	منطقة الغرب (هـ)	مجال الساحل (هكتار)
الأرز	5352	1107
التبغ	739	19
الخضروات	3248	132
الكأ	2755	23
الحوامض	17972	499
زراعات أخرى	249	—
المجموع	30315	1780

Source : LE COZ. J., 1964, op.cit. p 504

تعتبر الزراعات الموجهة للتسويق أهم المزروعات المسقوية، إذ تبقى الحوامض وزراعة الأرز أهم المنتوجات التي تسقى، نظرا لكونهما تشغلان مساحة مهمة جدا؛ فالحوامض تصل إلى 17972 هكتار، بنسبة تفوق باقي المزروعات بما فيها الخضروات، إلى جانب زراعة الأرز التي كانت تحظى كذلك بأهمية كبرى، خصوصا من طرف المعمرين، حيث وصلت المساحة التي في حوزتهم إلى 5100 هكتار من مجموع الأراضي بالغرب.

ارتبط توسع المساحة المسقوية بتحديث أساليب المكننة الفلاحية، حيث تم إدخال آليات زراعية تساعد على حرث الأرض واستغلالها بشكل أسرع، مع اعتماد المبيدات والمخصبات الكيماوية، مما رفع من جودة المحاصيل الزراعية وتطوير الإنتاج.

2-3- استقلال المغرب وتحديث القطاع الفلاحي

اتخذت السلطات العمومية خلال فترة الاستقلال من الغرب مجالا لتحديث الاقتصاد والمجتمع القرويين، من خلال القيام بعدة إجراءات، أهمها توسيع نطاق الأراضي المسقوية وتأطير الفلاحين، وتطوير الصناعة الغذائية، نظرا للملاءمة الظروف الطبيعية من خلال الموارد المتاحة.

سنركز في هذا الجانب على التحولات المجالية التي ارتبطت بالموارد الطبيعية خاصة المياه.

1-3-2- سياسة الإعداد الهيدرولوجي: سقي مليون هكتار

راهن المغرب بعد الاستقلال على نهج سياسة هيدرولوجية مهمة، تتجلى أبرز مشاريعها في سياسة السدود وسقي مليون هكتار، وكان الغرب من أهم المناطق استفادة من هذه المشاريع، خصوصا ما تعلق بالسقي، حيث خصص بالغرب سقي 250000 هكتار، أي ربع المساحة المعدة، كان هذا خلال الستينات من القرن الماضي، حيث تم تخصيص ميزانية مهمة لهذا الغرض. فقد وصلت كلفة تجهيز هكتار واحد مروى كمتوسط 10000 درهم في الستينات، بل وصلت إلى 80000 درهم في مطلع الثمانينات⁽⁸⁾. وقد وصلت استفادة القطاع الفلاحي من 30 في المائة كاستثمارات الدولة⁽⁹⁾.

تجلت استفادة الغرب من هذه المشاريع في مشروع سبو، الذي كانت مسطرة من وراء عدة أهداف، منها:

- برمجة عدد من السدود لتوفير مياه السقي التي توجه لربع المليون هكتار.
- التقليل من الفيضانات ورفع الإنتاج الفلاحي.
- تأطير الفلاحين وتطوير الزراعة الصناعية.

2-3-2- دعم الإنتاج الفلاحي في إطار سياسة التقويم الهيكلي⁽¹⁰⁾

"بدأ المغرب في تطبيق برنامج التقويم الهيكلي والذي كانت له آثار واضحة على الاقتصاد المغربي عموما، والفلاحة على الخصوص، مع بداية عقد الثمانينات (1983-1993)"⁽¹¹⁾، إذ تخلت المؤسسات التي كانت تسهر على الشأن الفلاحي، خاصة المكتب الجهوي للاستثمار الفلاحي للغرب عن عدة خدمات كانت تقوم بها، ما عدى مياه السقي التي بقيت من مهامها، مع إلغاء بعض أشكال الدعم المرتبط بالأسمدة والمبيدات، وهو ما لم يجعل الفلاحين يعتمدون نظام التناوب الزراعي، الذي كان يسود من قبل في المجال المسقي، مع تشجيع الدولة للصادرات الفلاحية وإلغاء احتكار مكتب التسويق والتصدير، وفي نفس الوقت تمت الزيادة في أسعار مياه السقي⁽¹²⁾، إضافة إلى بعض التحفيزات المتعلقة بالإعفاء الضريبي وإعطاء المنح والمكافآت المالية.

3- وضعية التسعينات: تحول جذري في طرق استغلال المجال

تعتبر فترة التسعينات من القرن الماضي بداية لتغيير المشهد القروي على طول المجال الساحلي للغرب، من خلال مختلف الأنشطة الزراعية التي أصبحت تتم مزاولتها، مع تراجع

مساحات شاسعة، كانت تستغل للرعي نتيجة التطور المرتبط بالمرزوعات الدخيلة على المجال والتي تعتمد على الري. وهنا يجب الحديث عن ما ساهمت به المياه من تحول في المساحة المسقية وطرق السقي المعتمدة.

تعد تسعينات القرن 20 مرحلة مميزة بتغيرات مجالية عديدة، فقد اخترناها للمعالجة والوقوف على مختلف التحولات المجالية المرتبطة بالنشاط الزراعي وغيره، نتيجة وفرة المعطيات الإحصائية، باعتبار المغرب قام بالإحصاء الفلاحي العام سنة 1996.

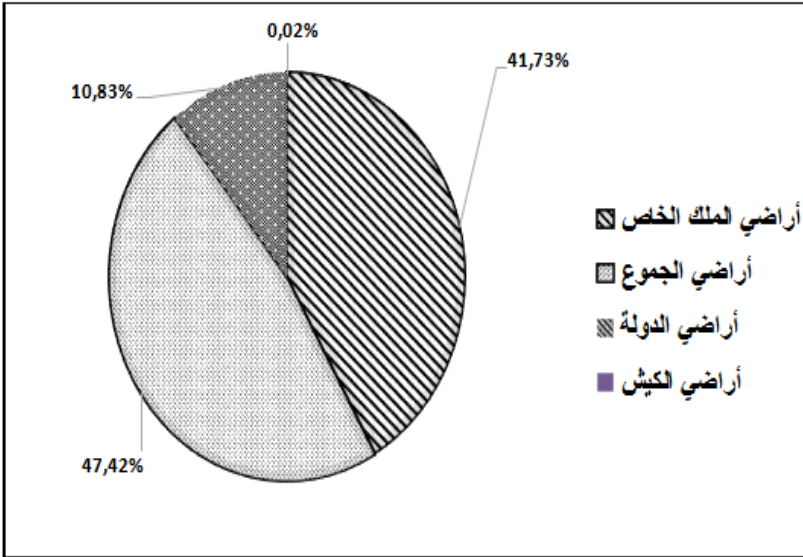
1-3-1-البنيات الزراعية وتحولاتها بالمجال المدروس

يؤدي التحول المرتبط بإشكالية البنية العقارية إلى التأثير على تملك العقار وكيفية استغلاله، وهو ما يعطي فكرة عن طبيعة الإنتاج قديما وحديثا، ثم التحول على مستوى الاستغلاليات من حيث الحجم، إلى جانب تغير الآليات الفلاحية ونمط الاستغلال، كلها عوامل غيرت من طبيعة المجال الساحلي للمغرب.

1-3-1-البنية العقارية: غلبة أراضي الجموع على النظام العقاري

يتميز النظام العقاري بالتنوع داخل مجال الدراسة، وهو مرتبط باستعمار المغرب الذي خلق عدة معيقات، فيما يخص البنية العقارية بعد خروجه، حيث بقيت فئة قليلة تتمتع بأراض شاسعة، وأخرى كبيرة لا تتوفر إلا على أراض محدودة ومشتتة في أغلب الأحيان.

وحسب الوضعية القانونية للأرض، من خلال المعطيات المتوفرة، فإن هناك أربعة أنواع أساسية تميز هذا المجال. تبقى أراضي الجموع الأكثر انتشارا مع أهمية بارزة للملكية الخاصة التي لم تكن منتشرة في المغرب قبل الحماية. فقد كانت محدودة جدا ومحصورة في الأراضي الخاصة ببعض العائلات الكبرى⁽¹³⁾، إضافة إلى تشتت الاستغلاليات واختلاف أحجامها، مما يشكل عرقلة أما تطور الزراعة وتقنيات التجهيز الهيدروفلاحي.



شكل 2: الوضعية القانونية للأرض بمجال الدراسة (وضعية 1996)

(المصدر: وزارة الفلاحة والتنمية القروية، الإحصاء الفلاحي العام، 1996)

✓ أراضي الملك الخاص

يشكل هذا النوع بمجال الدراسة نسبة مهمة، حيث يأتي في المرتبة الثانية بعد أراضي الجموع بمساحة تصل إلى 23694 هكتار، أي 41.73% من مجموع الأراضي المدروسة.

✓ أراضي الجموع

هي تلك الأراضي التي تملكها جماعات سلالية (قبائل، دواوير، مشيخات...)، ويتم تسييرها من طرف أرباب الأسر المشكلة. وتعتبر أراض في ملكية تجمعات عرقية وزعت عليهم للانتفاع بها⁽¹⁴⁾. وتحتل أهمية كبرى بالغرب، حيث تشغل هذه الأراضي مجالا مهما مقارنة بباقي أنواع الملكية العقارية، كما أنها تعتبر عنصرا أساسيا في النظام العقاري بالمغرب ككل، بعلاقة مع البنيات الاجتماعية الموجودة، وقد تقلصت نسبتها منذ دخول المعمرين⁽¹⁵⁾.

تشكل أراضي الجموع بمجال الدراسة النسبة الغالبة من مجموع الأراضي، بمساحة 26921 هكتار، أي 47.42% من مجموع المساحة الصالحة للزراعة. وتعتبر هذه الأراضي من

بين المعوقات أمام تهيئة المجال الساحلي وتنفيذ الشطر الثالث للري، حيث أن عملية التجهيز سيصاحبها ضم للأراضي⁽¹⁶⁾.

أصبحت ملكية الأرض خلال تسعينات القرن الماضي، تعرف تهاافتا في كل مكان داخل المجال، مما ساهم في رفع ثمنها بشكل كبير جدا، سواء بالنسبة للملك الخاص أو أراضي الجموع. فالتطور الزراعي زاد من الاهتمام بها، بعد أن كانت بائرة دون أهمية لزمّن طويل، فقد أصبحت الأرض بالمجال الساحلي، خصوصا مع ملاءمة الظروف الطبيعية، ذات قيمة كبيرة.

1-2-3- صغرحجم الحيازة الفلاحية وتقطعها بمجال الدراسة

إن ما يميز مجال الدراسة هو وجود مساحة مهمة، صالحة للزراعة، تصل إلى 56778 هكتار، موزعة على 11603 استغلالية فلاحية على طول الشريط الساحلي، بمعدل 4.89 هكتار لكل استغلالية. وهذا ما ساهم في انتشار الحيازة الفلاحية الصغرى التي لا تساعد الفلاح على استغلالها في بعض المزروعات التي تحتاج إلى مساحات كبيرة.

جدول 2: المساحة المستغلّة والحيازات الفلاحية بمجال الدراسة

المجموع	مجال ساحل الغرب
56778	المساحة الصالحة للزراعة (هـ)
11603	عدد الاستغلاليات
52015	عدد القطع

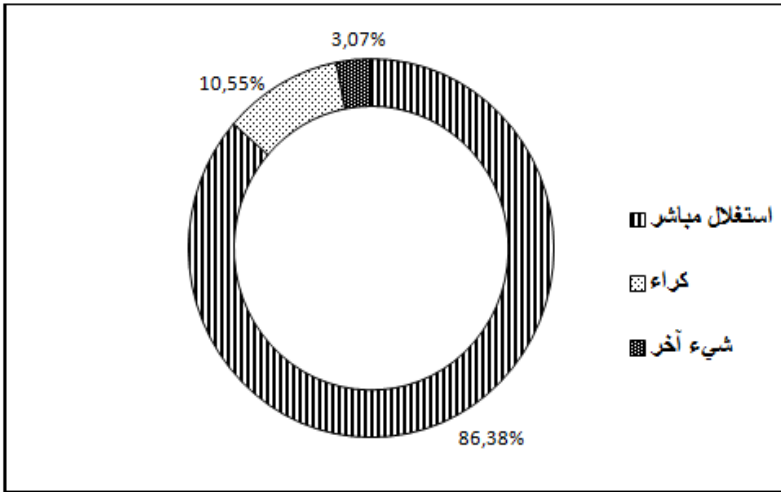
(المصدر: وزارة الفلاحة والتنمية القروية، الإحصاء الفلاحي العام، 1996)

إن هذه الوضعية التي تميز الاستغلاليات الزراعية، من حيث صغرها وتشتتها في أغلب الأحيان، تشكل حاجزا أمام تطوير النشاط الزراعي وتحديثه، إذ لا تسهل عملية استخدام المكننة الحديثة وتشكل سببا رئيسيا في تدهور الموارد الطبيعية، وبالتالي الضغط على المياه الباطنية لأجل سقي كل الاستغلاليات والرفع من المنتوج الزراعي.

1-3-3- أنواع الاستغلال: هيمنة الاستغلال المباشر

تتعدد أساليب استغلال المجال بالمغرب بين استغلال مباشر، الرباع، الخماس والكراء، أغلبها تسود في المناطق المسقية، بين صاحب الأرض والمستغلين.

على العموم يمكن التمييز بين نوعين أساسيين من الاستغلال الفلاحي؛ استغلال مباشر، يتم خلاله تدبير شؤون الاستغلالية من طرف المالك نفسه، واستغلال غير مباشر يتم من خلال إبرام عقد أو اتفاق بين صاحب الأرض وشخص آخر لاستغلالها، إما بواسطة الكراء أو الشراكة.



شكل 3: أنواع الاستغلال الفلاحي (وضعية 1996)

(المصدر: وزارة الفلاحة والتنمية القروية، الإحصاء الفلاحي العام، 1996)

نستنتج من تفحصنا لمعطيات الشكل أعلاه أن الاستغلال المباشر يهيمن على المساحة الصالحة للزراعة والمستغلة من طرف الفلاحين في ساحل الغرب بمساحة تصل إلى 49043، أي بنسبة 86.38 في المائة، باقي النسب تتوزع بين الكراء والشراء وغيرهما، إلا أنها ضعيفة جدا، حسب معطيات الإحصاء الفلاحي العام.

وترجع غلبة الاستغلال المباشر، إلى أهمية الأرض لدى السكان، من الناحية الاجتماعية وممارسة العديد من المزروعات، خاصة المعاشية منها، بهدف تحقيق الاكتفاء الذاتي. إلا أن التطور الذي حصل في النشاط الزراعي بظهور زراعات تسويقية، تتطلب مصاريف كثيرة من حيث المراقبة والسقي والأسمدة، أدى إلى تراجع الاستغلال المباشر وظهر مستثمرون جدد.

3-2- تحول عوامل الإنتاج الفلاحي

3-2-1- توزيع اليد العاملة

تلعب اليد العاملة دورا مهما في الممارسات الزراعية، بدءا من عملية الحرث حتى الجني والتسويق. ورغم تطوير المكننة وتطوير عوامل الإنتاج الأخرى، فإنها ما زالت تشكل عاملا محوريا في النشاط الزراعي. كان لليد العاملة العائلية دور كبير في مزاوله الزراعة والعمل داخل الحيازة الفلاحية، حيث وصلت نسبتها 96.7% بمجال الدراسة، من خلال 10396 استغلالية.

جدول 3: توزيع اليد العاملة بمجال الدراسة

المجموع		مأجورة		عائلية		اليد العاملة
%	عدد الاستغلاليات	%	عدد الاستغلاليات	%	عدد الاستغلاليات	
100	10754	03.3	358	96.7	10396	مجال الدراسة

(المصدر: وزارة الفلاحة والتنمية القروية، الإحصاء الفلاحي العام، 1996)

يمكن تفسير غلبة اليد العاملة العائلية على المأجورة، بكون أغلب الاستغلاليات صغرى، لا تتطلب أعدادا كبيرة من اليد العاملة، مما يجعل الفلاح يتكفل بها إلى جانب أبنائه ومشاركة الزوجة في العمل الزراعي، مما يوفر يدا عاملة كافية لتغطية حاجيات المجال المزروع. أما اليد العاملة المأجورة، فلا يُعتمد عليها إلا من طرف أصحاب الملكيات الكبرى والمستثمرين. وتكتسي مساهمة المرأة القروية مكانة مهمة في النشاط الفلاحي، لما تقوم به من مجهودات جبارة.

3-2-2- تطور الأدوات الفلاحية داخل الحيازة

عرفت خلال هذه المرحلة، المكننة الزراعية تحولات عميقة، تبرهن على مدى تحول مجال الدراسة. فاستعمال المعدات الفلاحية والآلات عاملا أساسيا في تحديث الزراعة، من مردوديتها وتحسين جودتها.

جدول رقم 4: الأدوات الفلاحية بمجال الدراسة

المجموع	محركات ضخ	آلة حصاد	جرار	الأداة الفلاحية
9517	8795	20	702	عدد

(المصدر: وزارة الفلاحة والتنمية القروية، الإحصاء الفلاحي العام، 1996)

إن مستوى المكننة خلال فترة التسعينات، كان يلائم النشاط الزراعي بمجال الدراسة، خصوصا على مستوى آلة الحرث التي تعتبر ضرورية، فقد وصل العدد إلى 702 جرار بجماعات الساحل بعلاقة مع عدد الاستغلاليات الذي قدر بـ 10754 استغلالية. ويتوفر بالمجال 8795 محرك ضخ المياه، وهو رقم مهم جدا، يدلنا على كون المياه أضحيت تتعرض للضغط خلال هذه الفترة، وإن كان عدد المحركات أقل من عدد الاستغلاليات الذي يصل إلى 11603 استغلالية فلاحية.

وانطلاقا من مقارنة هذه المعطيات مع فترة بداية الاستقلال، يمكن القول أن المجال في تطور ملحوظ، على مستوى الأدوات الفلاحية، وبالتالي عصنة النشاط الزراعي.

3-3- زيادة الأراضي المسقية وتطور نظام الري داخل الاستغلالية الفلاحية

1-3-3- الممرجات والأبار أهم مصادر السقي

كانت الممرجات والأودية، تشكل أهم مصادر السقي، فأغلب الاستغلاليات التي تجاور وادي سبو أو درادر وبعض المجاري الأقل أهمية ظلت تسقى منها. وخلال تراجع مياه الممرجات والضبايات، خصوصا ذات الحجم الصغير يلجأ الفلاح إلى تعميق جزء منها كحفر بمتري إلى مترين، تتجمع بها المياه. خاصة وأن وجود مياه باطنية غير بعيد عن السطح، مما كان يوفر للفلاح المياه داخل هذه الحفر الصغيرة لتلبية حاجيات المزروعات وتوريد الماشية. إلى جانب هذه الحفر يتم الاعتماد على الأبار في السقي بالمناطق التي لا توجد بها الممرجات والأودية. وبحكم قرب الفرشة الباطنية من السطح، فإن الأبار ظلت بأعماق ضعيفة ليس لها أثر واضح في تراجع مستوى المياه، إلا أن تطور الزراعة وإدخال منتوجات عصرية، ساهم في زيادة عدد الأبار، بحيث أصبح من الضروري حفر بئر بكل استغلالية على الأقل.

3-3-2- تحسين طرق السقي

كان لتكثيف عملية السقي دور كبير في تحسين الإنتاج الزراعي، فقد ظلت الظروف المناخية تتحكم في الإنتاج، خاصة بالمجالات البورية، وهو ما دفع إلى ضرورة تطوير الري وعقلنته.

تميزت مرحلة التسعينات بوجود مساحة مهمة تركز على السقي والمزروعات المروية، إلا أن الهيمنة ظلت لطرق سقي تقليدية.

شكل السقي السطحي نسبة كبيرة جدا، حيث أن اعتماده من طرف غالبية الفلاحين، باعتباره النوع الأول ظهورا بالمجال، كما أن أغلب المزروعات آنذاك كان يلائمها هذا النوع من السقي. وتعتبر تقنية السقي السطحي من أقدم نظم الري لسنوات طويلة بمختلف دول العالم. تتميز هذه التقنية بضياها للمياه بشكل كبير، خاصة وأنه يعتمد أكثر في سقي بعض المزروعات التي تتطلب المياه بشكل يومي؛ مثل زراعة الأرز.

للسقي بالرش كذلك أهمية بهذا المجال، حيث أن عددا من الفلاحين، خاصة أصحاب الأراضي المسقية الشاسعة يعتمدونه في سقي المزروعات، فقد كان يعتمد لروي بعض الخضروات والفواكه، إذ تم داخل الزراعة المغطاة، خاصة الموز الذي لم يشكل إلا نسبة ضعيفة من المزروعات الأخرى. أما زراعة الفول السوداني والفاصوليا فقد كان النوع الأول في عملية الري، نظرا لكونه يخفف على الفلاح عبء اليد العاملة.

تميزت هذه الفترة كذلك بظهور متواضع للري الموضعي (الري بالتنقيط)، حيث كان يقتصر على بعض المزروعات التي تعود إلى المستثمرين الكبار، خاصة استغلاليات توت الأرض التي كانت تنتشر بجماعتي المناصرة ومولاي بوسلهام بشكل كبير، نظرا لوفرة المياه وملاءمة التربة الرملية.

3-3-3- تطور المساحة المسقية بمجال الدراسة

ساهمت الظروف الطبيعية من مناخ، خصوبة التربة ووفرة مائية في حدوث تحولات عميقة، ميزت النشاط الزراعي بمجال الدراسة. فقد انتقل الفلاحون من مزاوله الزراعة التقليدية إلى اعتماد تقنيات حديثة ومزروعات ذات مردودية مرتفعة ومداخيل مهمة، وهو ما ساهم في تحول عميق على مستوى المساحة المزروعة، حيث شكلت الأراضي المسقية حوالي نصف الأراضي الفلاحية المستغلة، بنسبة 44 % مقابل 56 % بورية، بمساحة تصل إلى 31849 هكتار من أصل 56778 هكتار صالحة للزراعة⁽¹⁷⁾.

4-3-3- غلبة زراعة الحبوب على باقي المزروعات

ظل المجال الساحلي للغرب إلى حدود منتصف التسعينات، مجالاً لانتشار الزراعات التقليدية –المعاشية- خصوصاً مع تواضع الزراعة المسقية. فقد انتشرت زراعة الحبوب بمختلف جماعات الساحل، على مساحات مهمة، وصلت خلال الإحصاء الفلاحي العام إلى 19386 هكتار، شاغلة أكثر من ثلث المساحة المستغلة التي قدرت بـ 55313 هكتار، أي بنسبة تصل إلى أكثر من 35%. إلى جانب المزروعات الزيتية التي تشكل من الفول السوداني وعباد الشمس، حيث حظيت كذلك بأهمية كبرى من طرف الفلاحين.

تتوزع باقي المساحة المزروعة بين الخضروات والمزروعات العلفية والصناعية ثم القطني والفواكه بنسب أقل أهمية على طول مجال الدراسة، حسب طبيعة التربة الملائمة، إلى جانب الاعتماد على المخصبات التي ما فتئت تتزايد بشكل كبير منذ عصرنة الفلاحة بالمغرب.

• الزراعة المغطاة وزيادة الضغط على المياه

انتشرت الزراعة المغطاة على طول النصف الجنوب الشرقي من مجال الدراسة وانعدامها على طول الكتيب الساحلي، نظراً لوجود الممرجات التي تفيض مياهها خلال فترات الأمطار، مما يخيف الفلاح من الضياع دون جدوى، ولم تكن منتشرة بالجزء الشمالي، بل يتم الاعتماد على المزروعات السكرية والحبوب. خاصة وأن الدولة كانت تشجع على ممارسة هذه المزروعات آنذاك.

ساهمت سنوات الجفاف التي عرفها المغرب خلال التسعينات في زيادة عملية الحفر وتعميق الآبار، فقد شكلت فترة 1994 و1995، أقصى فترة جافة خلال التسعينات وهو ما دفع إلى ضرورة جلب المياه الباطنية، خصوصاً وأن انتشار الزراعة المسقية في تزايد مستمر. تعتبر زراعة الخضروات الأكثر انتشاراً بمختلف أجزاء مجال الدراسة، فقد ميزت التحول الحاصل خلال فترة التسعينات، حيث أصبح التعاطي لها بشكل كبير، وبالمقابل تراجع المساحة المخصصة للزراعة البورية والتي تشمل الحبوب بمختلف أصنافها، إضافة إلى بعض المزروعات العلفية.

هناك زيادة في المساحات المخصصة للمغروسات، إذ تعتبر غراسة الليمون وشجر الأفوكا أهم الأصناف بهذا المجال، نظراً لملاءمة للتربة والظروف المناخية والوفرة المائية.

على مستوى الزراعة داخل البيوت المغطاة، فقد عرفت هي الأخرى تزايدا مهما، نظرا لتعاطي السكان لها، لما تخلفه من عائدات مالية. فقد أصبحت تحتل هذه الزراعة مساحات مهمة من ساحل الغرب، وتشمل بالخصوص الخضضر (الفلفل، الطماطم...) والفواكه (الموز، توت الأرض، الدلاح...) التي يوجه جزء منها إلى السوق الجهوية والوطنية.

انطلاقا من هذا الجرد المتعلق بالتطور الحاصل في الإنتاج الزراعي واستغلال المياه، تبين أن هناك تراجع واضح للمزروعات التقليدية، نحو الاعتماد على الزراعات العصرية الأكثر ربحا. وبالمقابل هناك زيادة في استهلاك المياه، حيث الحاجة أكثر لجلب المياه الجوفية لتلبية حاجيات المزروعات، مع تحسن في أساليب الري من خلال ظهور الري بالتنقيط، الذي يعد التقنية الأنجع للحفاظ على الماء.

خلاصة

عرف مجال ساحل منطقة الغرب تنمية فلاحية مهمة، بفعل ملائمة الظروف الطبيعية وتطور النشاط الزراعي، خاصة مع انتشار المزروعات البورية بأغلب الحيازات الفلاحية، إذ أن بداية الضغط على الموارد وخاصة المياه كانت مع دخول الاستعمار الفرنسي، الذي عمل على توسيع المساحة المسقية وتحسين الإنتاج الفلاحي بالغرب. وقد انتشر السقي أكثر بعد الاستقلال، موازاة مع سياسة الإعداد الهيدرولوجي ودعم الإنتاج الفلاحي.

وانطلاقا من معطيات الإحصاءات الخاصة بفترة التسعينات حتى نهاية القرن العشرين، يمكن القول أن مظاهر التحول المجالي أضحت أكثر وضوحا، خاصة على مستوى المياه، من خلال جفاف العديد من الممرجات والضبايات وانتشار حفر الآبار بكثرة، مع تحسن في أساليب الري لدى الفلاحين، مما نتج عنها توسع المساحات المسقية، وتراجع حجم الحيازات الفلاحية، وظهور مزروعات تسويقية أكثر دخلا.

الهوامش:

- (1) بوجمعة رويان، الطب الكولونيالي الفرنسي بالمغرب 1912-1945، مطابع الرباط نت، المغرب، 2013، ص 152.
- (2) علي الحمراوي، مسألة الفلاحة المغربية، دراسة في مجلة أنفاس، العدد الأول، مطبعة التومي الرباط، المغرب، 1971، ص 11.
- (3) LE COZ. J, Le Gharb fellahs et colons: Etude de géographie régionale, Tome 1, Faculté des Lettres et des Sciences Humaines, Université Mohamed V, Rabat, Maroc, 1964, p 523

- (4) ظهر 12 غشت 1913 المتعلق بتحفيظ الأملاك العقارية، ظهر 24 ماي 1922 المتعلق بتحفيظ الأملاك الخاصة للدولة، ظهر 18 فبراير 1924 المتعلق بتحديد أراضي الجموع.
- (5) موسى كرزازي، جوانب من التحولات الاجتماعية المجالية الحديثة في أرياف سهل الغرب، سلسلة ندوات ومناظرات، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، في موضوع: التحولات الاجتماعية المجالية في الأرياف المغربية. رقم 28، 1994، ص 49.
- (6) المختار بلعربي، التجهيز الفلاحي لسهل الغرب من المرحلات إلى قطاعات السقي العصرية، منطقة الغرب: المجال والإنسان، 1991، ص 57.
- (7) LE COZ. J, op.cit. p 556.
- (8) محمد كربوط، سياسة الإعدادات الهيدروفلاحية العصرية بالمغرب: المنجزات الكبرى وحدود نجاحها، مجلة جغرافية المغرب، عدد 9، 1985، ص 8.
- (9) AKESBI. N et GUERRAOUI. D, Enjeux agricoles, édition le fenncé, 1991, P 34.
- (10) هو برنامج يرمي إلى تخلي الدولة عن عدد من الوظائف التي كانت تقوم بها وفتح الباب أمام القطاع الخاص.
- (11) عبد الله صدقي، السياسة الفلاحية والتنمية القروية بالمغرب، المطبعة السريعة بالقنيطرة، المغرب، ط 1، 2014، ص 39.
- (12) نجيب أقصي، السياسة الفلاحية والتنمية بالمغرب، مجلة نوافذ، العدد 3، 1999، ص 15.
- (13) أحمد تفساكا، الفلاحة الكولونيالية في المغرب "1912-1956"، مطابع أمبريال بالرباط، المغرب، ط 1، 1998، ص 33.
- (14) DAOUDI. A, Approche théorique sur les terres collectives au Maroc, dans les structures foncières et le développement au Maroc; cas du Gharb, 2002, p 11.
- (15) IDIL. A et JARIR. M, les terres collectives dans le Gharb entre l'archaïsme du statut foncier et l'intensification du système des cultures, dans les structures foncières et le développement au Maroc ; cas du Gharb, 2002, p 79.
- (16) شُرِع في إنجاز عمليات ضم الأراضي في سهل الغرب مع بداية عقد السبعينيات من طرف المكتب الجهوي للاستثمار الفلاحي للغرب. ونظرا لأهميتها في الإعداد الهيدروفلاحي، تم إعطاؤها أولوية خلال المخططات: المخطط الخماسي (1973-1977) ومخطط التنمية الاقتصادية والاجتماعية (1980-1978) والمخطط الخماسي (1981-1985) ومخطط التنمية الاقتصادية والاجتماعية (2004-2000)، إلا أن هذه العملية لم تكتمل بعد لوجود معوقات حالت دون إتمام برنامج ضم الأراضي، خاصة في الشطر الثالث للري (المنطقة الساحلية).
- (17) وزارة الفلاحة والتنمية القروية، الإحصاء الفلاحي العام، 1996.



Cognitive Center
— Studies and Research —

مركز المعاد المعرفي
للأبحاث والدراسات

Journal Of

MADARAT TARIKHIA

Volume 02

Issue 05

Mars 2020

Tome 01

Journal Of Madarat Tarikhia

Reviewed Academic International

Periodical Magazine

For Historical And Researches Studies

